

الإمام مالك

في تفسيره كتاب الصلاة والسلام

العلامة الفقيه المفسر

الشيخ ناصر مكارم الشيرازي

المجلد الثالث



الإمام

في تفسيرين كتابي الله المنزل

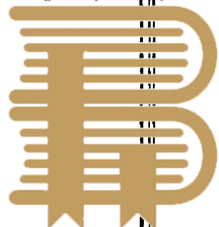
طبعة جديدة منقحة مع إضافات

شبكة كتب الشيعة

تأليف

العلامة الفقيه المفسر

الشيخ ناصر مكارم الشيرازي



shiabooks.net

رابط بديل < mktba.net

المجلد الثالث

مکارم شیرازی، ناصر، ۱۳۰۵ -

الأمثل فی تفسیر کتاب الله المنزل / تألیف ناصر مکارم شیرازی؛ [با همکاری جمعی از فضلا] - قم:
مدرسة الإمام علی بن ابی طالب علیه السلام، ۱۴۲۱ ق. = ۱۳۷۹. ۲۰ ج.

ISBN: 964-6632-53-X (دوره)

ISBN: 964-6632-48-3 (جلد ۳)

فهرست نویسی بر اساس اطلاعات فیبا.

کتاب حاضر ترجمه و تلخیص "تفسیر نمونه" است.

کتاب حاضر در سالهای مختلف توسط ناشرین مختلف منتشر گردیده است.

کتابنامه.

۱. تفاسیر شیعه -- قرن ۱۴. الف. مدرسة الإمام علی بن ابی طالب علیه السلام. ب. عنوان.

۲۹۷/۱۷۹

BP۹۸/۴۷۲۴۷

۴۷۹-۱۰۳۹۱

۱۳۷۹

هوية الكتاب:

الأمثل فی تفسیر کتاب الله المنزل لساحة الشيخ ناصر مکارم الشیرازی - المجلد الثالث

النّاشر: مدرسة الإمام علی بن ابی طالب علیه السلام ایران / قم / شارع الشّهداء

هاتف: ۹۸-۲۵۱-۷۳۲۴۷۸ - فکس: ۹۸-۲۵۱-۷۴۳۱۱۴

حجم و عدد الصفحات: ۷۲۰ الوزیری

تاریخ النّشر: ۱۳۷۹ هـ ش - ۱۴۲۱ هـ ق

الکّیة: ۲۰۰۰ نسخة

الطبعة: الأولى (منقّحة مع اضافات)

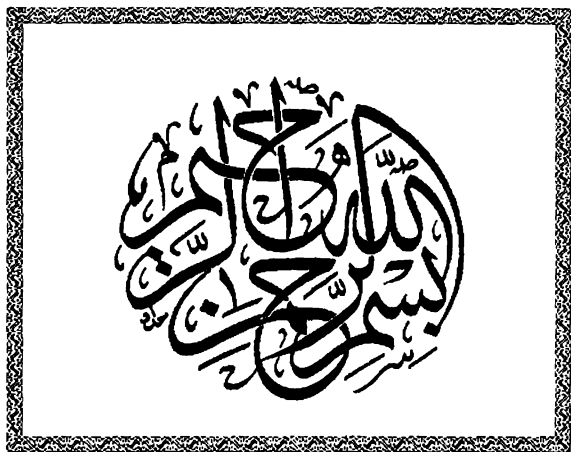
المطبعة: أميرالمؤمنین علیه السلام - قم - ایران

جميع الحقوق محفوظة لمدرسة الإمام علی بن ابی طالب علیه السلام

WWW.AMIRALMOMENIN.ORG

عنواننا فی انترنت:

E.mail: makarem@makaremshirazi.org



الآيات

الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لََّ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ
لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُم وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ الَّذِينَ قَالَهُمْ
النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا
وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿٧٧﴾ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ مِّنَ اللَّهِ
وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسِّنْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ
عَظِيمٍ ﴿٧٨﴾

التفسير

غزوة حمراء الأسد:

قلنا أن جيش أبي سفيان المنتصر أسرع بعد إنتصاره في معركة «أحد» على الجيش الإسلامي يغذ السير في طريق العودة إلى مكة حتى إذا بلغ أرض «الروحاء» ندم على فعله، وعزم على العودة إلى المدينة للإجهاز على ما تبقى من فلول المسلمين، واستئصال جذور الإسلام حتي لا تبقى له ولهم باقية. ولما بلغ هذا الخبر إلى النبي ﷺ أمر مقاتلي أحد أن يستعدوا للخروج إلى معركة أخرى مع المشركين، وخص بأمره هذا الجرحى والمصابين حيث أمرهم بأن ينضموا إلى الجيش. يقول رجل من أصحاب النبي ﷺ كان قد شهد أحداً: شهدت أحداً وأخ لي

فرجعنا جريحين، فلما أذن مؤذن رسول الله ﷺ بالخروج في طلب العدو قلنا: لا تقوتنا غزوة مع رسول الله ﷺ، فوالله مالنا دابة نركبها وما منا إلا جريح ثقيل، فخرجنا مع رسول الله ﷺ وكنت أيسر جرحاً من أخي، فكنت إذا غلب حملته عقبه ومشى عقبه حتى انتهينا مع رسول الله ﷺ إلى «حمراء الأسد».

فلما بلغ هذا الخبر أبا سفيان وأدرك صمود المسلمين، والذي تجلنى في اشتراك الجرحى والمصابين خاف وأرعب، ولعله ظن أنه أدركت المسلمين قوة جديدة من المقاتلين وأتاهم المدد.

هذا وقد حدثت في هذا الموضوع حادثة زادت من إضعاف معنوية المشركين، وألقت مزيداً من الوهن في عزائمهم، وهي أنه: مرّ برسول الله «معبد الخزاعي» وهو يومئذ مشرك، فلما شاهد النبي وما عليه هو وأصحابه من الحالة تحركت عواطفه وجاشت، فقال للنبي ﷺ: يا محمد والله لقد عزّ علينا ما أصابك في قومك وأصحابك، ولوودنا أن الله كان أعفأك فيهم، ثم خرج من عند رسول الله ﷺ حتى لقي أبا سفيان ومن معه بالزّوجاء وقد أجمعوا الرجعة إلى رسول الله ﷺ، فلما رأى أبو سفيان معبداً قال: ما وراك يا معبد؟ قال: محمد ﷺ قد خرج في أصحابه يطلبكم في جمع لم أر قط مثله يتحرقون عليكم تحرقاً، وقد اجتمع عليه من كان تخلف عنه في يومكم، وندموا على صنيعهم، وفيه من الحق عليكم ما لم أر مثله قط.

قال أبو سفيان: ويلاً ما تقول؟ قال معبد: «فأنا والله ما أراك تترحل حتى ترى نواصي الخيل».

قال أبو سفيان: فوالله لقد أجمعنا الكفرة عليهم لنستأصلهم.

قال معبد: فأنا والله أنهاك عن ذلك.

فثنى ذلك أبا سفيان ومن معه وقفل راجعاً ومنسحباً إلى مكة بسرعة، وحتى يتوقف المسلمون عن طلبه وملاحقته ويسجد فرصة كافية للإنسحاب قال

لجماعة من بني عبد قيس كانوا يمرون من هناك قاصدين المدينة لشراء القمح: «أخبروا محمداً إنا قد أجمعنا الكرة عليه وعلى أصحابه لنستأصل بقيتهم» ثم انصرف إلى مكة.

ولما مرت هذه الجماعة برسول الله ﷺ وهو بحراء الأسد أخبره بقول أبي سفيان، فقال رسول الله ﷺ: «حسبنا الله ونعم الوكيل» وبقي هناك ينتظر المشركين ثلاثة أيام، فلم ير لهم أثراً فانصرف إلى المدينة بعد الثالثة. والآيات الحاضرة تشير إلى هذه الحادثة وملابساتها^(١) يقول سبحانه: «الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أُولَئِكَ أَجْرٌ عَظِيمٌ».

ويتبين من تخصيص جماعة معينة بالأجر العظيم في هذه الآية أنه كان هناك بينهم من لم يملك الإخلاص الكامل، كما يمكن أن يكون التعبير بـ«منهم» إشارة إلى أن بعض المقاتلين في أحد امتنعوا ببعض الحجج عن تلبية نداء الرسول والإسهام في هذه الحركة.

ثم أن القرآن الكريم يبين إحدى العلائم الحية لإستقامتهم وثباتهم إذ يقول: «الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ».

والمعنيون بالناس في قوله: «قال لهم الناس» هم ركب عبد القيس، أو نعيم بن مسعود الذي جاء بهذا الخبر على رواية أخرى.

ثم بعد ذكر هذه الإستقامة الواضحة وهذا الإيمان البارز يذكر القرآن الكريم نتيجة عملهم إذ يقول: «فانقلبوا بنعمة من الله وفضل» وأية نعمة وأي فضل أعظم وأعلى من أن ينهزم الأعداء الخطرون أمامهم من دون أي صدام أو لقاء ويعود هؤلاء المقاتلون إلى المدينة سالمين.

يبقى أن نعرف أن الفرق بين النعمة والفضل، يمكن أن يكون بأن النعمة هي

الأجر بقدر الإستحقاق والفضل هو النفع الزائد على قدر الإستحقاق.
وتأكيداً لهذا الأمر يقول القرآن: ﴿لَمْ يمسسهم سوء﴾ مضافاً إلى أنهم «أتبعوا
رضوان الله والله ذو فضل عظيم» أنه فضل عظيم ينتظر المؤمن الحقيقين،
والمجاهدين الصادقين.

التربية الإلهية وعطاؤها السريع:

إنّ مقارنة معنوية المسلمين في معركة «بدر» بمعنويتهم في حادثة «حمرأه
الأسد» التي مرّ تفصيلها، أمر يدعو إلى الإعجاب لدى المرء، إذ كيف استطاعت
جماعة منكسرة لا تملك المعنوية العالية، ولا العدد البشري الكافي، مع ما يحمل
أفرادها من الجراحات الثقيلة والإصابات الفادحة أن تغير ملامحها في مدة قد لا
تزيد على يوم وليلة، فتستعد وعلى درجة عالية من العزم والإرادة لطلب العدو
وملاحقته، ومواجهته مرة أخرى إلى درجة أن القرآن الكريم يقول عنهم: ﴿الَّذِينَ
قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله
ونعم الوكيل﴾ ثم استقاموا وصمدوا.

هذا هو أثر الإيمان بالهدف، فكلما ازدادت مصائب الإنسان المؤمن
وازدادت مشكلاته ازدادت استقامته، وتضاعف ثباته، وشحذت عزيمته، وفي
الحقيقة تهيات كل قواه المعنوية والمادية وتعبأت لمواجهة الخطر.

إن هذا التغير العجيب، وهذا التحول السريع والعظيم في مثل هذه المدة
القصيرة يوقف الإنسان على مدى سرعة تأثير التربية القرآنية وعمقها، ومدى
فاعلية البيان النبوي الأخاذ الذي يكاد يكون معجزة.

الآية

إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ، فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونَ إِن
كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾

التفسير

هذه الآية تعقيب على الآيات التي نزلت حول غزوة «جمراء الأسد»، ولفظة «ذلكم» إشارة إلى الذين كانوا يخوفون المسلمين من قوة قريش، وبأس جيشهم لإضعاف معنويات المسلمين.

وعلى هذا الأساس يكون معنى هذه الآية هو: إن عمل نعيم بن مسعود، أو ركب عبد القيس من عمل الشيطان لكي يخوفوا به أولياء الشيطان، يعني أن هذه الوسواس إنما تؤثر في أتباع الشيطان وأوليائه خاصة، وأما المؤمنون الثابتون فلا تنزل أقدامهم لهذه الوسواس مطلقاً؛ ولن يرعبوا ولن يخافوا أبداً، وعلى هذا الأساس فأنتم لستم من أولياء الشيطان، فلا تخافوا هذه الوسواس، ويجب أن لا تزلزلكم أو تززع إيمانكم.

إن التعبير عن نعيم بن مسعود أو ركب عبد القيس ووصفهم بـ «الشيطان» إنما لكون عملهم ذلك من عمل الشيطان ومستلهم منه وماخوذ من وحيه، لأن القرآن يسمي كل عمل قبيح وفعل مخالف للدين عمل شيطاني، لأنه يتم بوسوسته،

ويصدر عن وحيه إلى أتباعه.

وإنما أن المقصود من الشيطان هم نفس هؤلاء الأشخاص، فيكون «هذا المورد» من الموارد التي يطلق فيها اسم «الشيطان» على المصداق الإنساني له، لأن للشيطان معنىً وسيعاً يشمل كل غاو مضل، إنساناً كان أم غير إنسان كما نقرأ في سورة الأنعام الآية (١١٢)، «وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن».

ثم أنه سبحانه يقول في ختام الآية: «وخافون إن كنتم مؤمنين» يعني أن الإيمان بالله والخوف من غيره لا يجتمعان، وهذا كقوله سبحانه في موضع آخر: «فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخساً ولا رهقاً»^(١).

وعلى هذا الأساس فإن وجد في أحد الخوف من غير الله كان ذلك دليلاً على نقصان إيمانه وتأثيره بالسواوس الشيطانية لأننا نعلم أنه لا ملجأ ولا مؤثر بالذات في هذا الكون العريض سوى الله الذي ليس لأحد قدرة في مقابل قدرته. وأساساً لو أن المؤمنين قارنوا وليهم (وهو الله سبحانه) بولي المشركين والمنافقين (الذي هو الشيطان) لعلموا أنهم لا يملكون تجاهه أية قدرة، ولهذا لا يخافونهم قيد شعرة.

وخلاصة هذا الكلام ونتيجته هي أن الإيمان أينما كان، كانت معه الشجاعة والشهامة، فهما توأمان لا يفترقان.



الآيتان

وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ
شَيْئاً يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِزْباً فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ
عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ
شَيْئاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾

التفسير

تسليّة النبي ﷺ:

الخطاب في قوله تعالى: «ولا يحزتك الذين يسارعون في الكفر» موجه إلى

النبي ﷺ.

فإنه تعالى يسلي نبيه في أعقاب أحداث «أحد» المؤلمة قائلاً له: أيها
الرسول «لا يحزتك الذين يسارعون في الكفر» وكأنهم يتسابقون إليه «إنهم لا
يضرّوا الله شيئاً» بل يضرّون بذلك أنفسهم، وأساساً فالمتضرر والمنفعة إنما هي
الموجودات التي لا تملك من عند أنفسها شيئاً حتى وجودها، أما الله الأزلي
الأبدي سبحانه فهو الغني المطلق، فما الذي يعود به كفر الناس أو إيمانهم عليه
سبحانه، وأي أثر يمكن أن يكون لجهودهم ومحاولاتهم بالنسبة إليه تعالى؟
إنهم هم المنتفعون بإيمانهم إذ يتكاملون بهذا الإيمان، وهم المتضررون

بالكفر أيضاً، إذ يؤدي هذا الكفر إلى سقوطهم وإنحطاطهم.
 هذا مضافاً إلى أن الله سوف لن ينسى مواقفهم المشينة ولن تقوته مخالفاتهم،
 وسيصيهم جزاء ما يعملونه يوم القيامة: «يريد الله ألا يجعل لهم حظاً في الآخرة
 ولهم عذاب عظيم».

وفي الحقيقة فإن الآية تقول: إذا كان هؤلاء يتسابقون في الكفر فليس ذلك
 لأن الله لا يقدر على كبح جماحهم، بل لأن الله أراد أن يكونوا أحراراً في اتخاذ
 المواقف وسلوك الطريق الذي يريدون، ولا شك أن نتيجة ذلك هو الحرمان
 الكامل من المواهب الربانية في العالم الآخر.

وعلى هذا فالآية لا تنفي الجبر فحسب، بل هي من الأدلة والبراهين
 الساطعة على حرية الإرادة الإنسانية.

ثم يقرر القرآن هذه الحقائق في الآية الثانية بشكل أكثر تفصيلاً إذ يقول: «إن
 الذين اشتروا الكفر بالإيمان لن يضرّوا الله شيئاً» يعني ليس الذين يتسابقون
 في طريق الكفر ويسارعون إليه هم وحدهم على هذا الحال، بل كل الذين
 يسلكون طريق الكفر بشكل من الأشكال ويشترون الكفر بالإيمان، كل هؤلاء
 لن يضرّوا الله شيئاً، وإنما يضرّون أنفسهم.

ويختم سبحانه الآية بقوله: «ولهم عذاب أليم» هذا التفاوت في التعبير في
 خاتمة هذه الآية والآية التي قبلها حيث قال هناك: «ولهم عذاب عظيم» وقال هنا
 «ولهم عذاب أليم» إنما هو لأجل إن الذين جاء ذكرهم في الآية السابقة أسرع في
 المبادرة والتوجه نحو الكفر.

الآية

وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّ لَهُمْ خَيْرًا لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّ لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾

التفسير

المتقلون بأوزرهم:

بعد تسليية النبي ﷺ في الآيات السابقة وتطمينه تجاه ما يقوم به أعداء الرسالة والحق من محاولات عدائية لا تحصى، توجه سبحانه إلى الأعداء في هذه الآية بالخطاب، وأخذ يحدثهم عن المصير المشؤوم الذي ينتظرهم، (وهذه الآية ترتبط - في الحقيقة - بأحداث معركة «أحد» فهي مكملة للأبحاث التي مرّت حول هذه الواقعة، لأن الحديث والخطاب تارة كان موجهاً إلى النبي ﷺ وأخرى موجهاً إلى المؤمنين، وها هو هنا موجه إلى الكفار والمشركين).

إن الآية الحاضرة التي يقول فيها سبحانه: «ولا يحسبن الذين كفروا إنما نملّي^(١) لهم خير لأنفسهم إنما نملّي لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين» تحذّر المشركين بأن عليهم أن لا يعتبروا ما أتيح لهم من إمكانات في العدة والعدد، وما

١ - نملّي مشتقة من الإغلاء، وتعني المساعدة والإعانة وتستعمل في أكثر الموارد في إطالة المدّة والإسهال الذي هو نوع من المساعدة، وقد جاءت في الآية الحاضرة بالمعنى الثاني.

يكسبونه من انتصارات في بعض الأحيان، وما يمتلكونه من حرّية التصرف، دليلاً على صلاحهم، أو علامة على رضا الله عنهم.

وتوضيح ذلك: إنَّ المستفاد من الآيات القرآنية هو أنَّ الله سبحانه ينبّه العصاة الذين لم يتوغلّوا في الخطيئة ولم يفرقوا في الآثام غرقاً، فهو سبحانه ينيبهم بالنذر تارةً، وبما يتناسب مع أعمالهم من البلاء والجزاء تارةً أخرى، فيعيدهم بذلك إلى جادة الحق والصواب. وهؤلاء هم الذين لم يفتقدوا بالمرّة قابلية الهداية، فيشملهم اللطف الإلهي، فتكون المحن والبلايا نعمة بالنسبة إليهم، لأنها تكون بمثابة جرس إنذار لهم تنبّههم من غفلتهم، وتنشلهم من غفوتهم كما يقول الله سبحانه: ﴿ظهر الفساد في البرّ والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون﴾^(١).

ولكن الذين تبادوا في الذنوب وغرقوا فيها، وبلغ طغيانهم نهايته فإنَّ الله يخذلهم، ويكلهم إلى نفوسهم، أي أنه يملّي لهم لتثقل ظهورهم بأوزارهم، ويستحقوا الحدّ الأكثر من العقوبة والعذاب المهين.

هؤلاء هم الذين نسفوا كلّ الجسور، وقطعوا كلّ علاقاتهم مع الله، ولم يتركوا لأنفسهم طريق لا العودة إلى ربّهم، وهتكوا كل الحجب، وفتقدوا كل قابلية للهداية الإلهية، وكل أهلية للطف الرّباني.

إنّ الآية الحاضرة تؤكد هذا المفهوم وهذا الموضوع إذ تقول: ﴿ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خير لأنفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين﴾.

ولقد استدلت بطلّة الإسلام زينب الكبرى بنت الإمام علي بن أبي طالب عليها السلام بهذه الآية في خطابها المدوي والساخن أمام طاغية الشام «يزيد بن معاوية» الذي كان من أظهر مصاديق العصاة والمجرمين الذين قطعوا جميع جسور العودة

على أنفسهم بما ارتكبه من فظيخ الفعال، وما اقترفه من شنيع الأعمال إذ قالت: «أظننت يا يزيد... أن بنا على الله هواناً، وبك عليه كرامة، وأن ذلك لعظم خطرك عنده؟ فشمخت بأنفك، ونظرت في عطفك، جذلان مسروراً، حين رأيت الدنيا لك مستونقة والأمر متسقة، وحين صفا لك ملكنا وسلطاننا، فمهلاً مهلاً أنسيت قول الله عزوجل: ﴿ولا يحسبن الذين كفروا أننا نملي لهم خيراً لأنفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين﴾».

جواب على سؤال:

إن الآية الحاضرة تجيب ضمناً على سؤال يخالغ أذهان كثير من الناس وهو: لماذا يرفل بعض العصاة والمجرمين في مثل هذا النعيم، ولا يلقون جزاءهم العادل على إجرامهم؟

فإن القرآن الكريم يردّ على هذا التساؤل الشائع قائلاً: إن هؤلاء فقدوا كل قابلية للتغيير والإصلاح، وهم بالتالي من الذين تقتضي سنة الخلق ومبدأ حرّية الإنسان واختياره أن يتركوا لشأنهم، ويوكلوا إلى أنفسهم ليصلوا إلى مرحلة السقوط الكامل، ويستحقوا الحدّ الأكثر من العذاب والعقوبة.

هذا مضافاً إلى ما يستفاد من بعض الآيات القرآنية من أنه سبحانه قد يمدّ البعض بالنعمة الوافرة وهو بذلك يستدرجهم، أي أنه يأخذهم فجأة وهم في ذروة النعم، ويسلبهم كل شيء وهم في أوج اللذة والتمتع، ليكونوا بذلك أشقى من كل شقي، ويواجهوا في هذه الدنيا أكبر قدر ممكن من العذاب، لأن فقدان هذا النعيم أشدّ وقعاً على النفس، وأكثر مرارة كما نقرأ في الكتاب العزيز: ﴿فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون﴾^(١).

ومثل هؤلاء - في الحقيقة - مثل الذي يتسلى شجرة، فإنه كلما ازداد رقياً ازداد فرحاً في نفسه، حتى إذا بلغ قمتهما فاجأته عاصفة شديدة، فهوى على أثرها من ذلك المترفع الشاهق إلى الأرض فتحطمت عظامه، فتبدل فرحه البالغ إلى حزن شديد.

لغة أدبية:

يتبين مما قلناه في تفسير هذه الآية أن «اللام» في قوله سبحانه: ﴿ليزدادوا إثمًا﴾ «لام العاقبة» وليست «لام الغاية».

وتوضيح ذلك: إن العرب قد تستعمل اللام لبيان أن ما بعد اللام مراد للإنسان ومطلوب له كقوله: ﴿تخرج الناس من الظلمات إلى النور﴾^(١).

ومن البديهي أن هداية الناس وخروجهم من الظلمات إلى النور مراد له سبحانه.

وقد تستعمل العرب «اللام» لبيان أن هذا هو مراد ومطلوب للشخص، بل لبيان أن هذا نتيجة عمل المرء ومآل موقفه كقوله تعالى: ﴿فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً﴾^(٢) ولا شك أنهم إنما أخذوه ليكون لهم سروراً وقرّة عين. ولا يختص هذا الأمر باللغة العربية وآدابها، بل هو مشهور في غيره من اللغات والآداب.

ومن هنا يتضح الجواب على تساؤل آخر يطرح نفسه هنا وهو: لماذا قال سبحانه: ﴿ليزدادوا إثمًا﴾ الذي معناه - بحسب الظاهر - أي نريد أن يزدادوا إثمًا. لأن هذا الإشكال والتساؤل إنما يكون وارداً إذا كانت اللام هنا لام الإرادة والغاية المبينة للعلّة والهدف، لا «لام العاقبة» ليكون معنى قوله «ليزدادوا إثمًا»

هو: لتكون عاقبة أمرهم ازديادهم الإثم.

وعلى هذا يكون معنى الآية: نحن نمهلهم لتكون عاقبة أمرهم ازدياد ذنوبهم

وأوزارهم من الإثم، فالآية لا تدلّ على الجبر مطلقاً، بل هي خير دليل على حرية الإنسان واختياره.

* * *

الآية

مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ
مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ
يَجْتَبِي مَن رَّسَلَهُ مَن يَشَاءُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِن تُؤْمِنُوا
وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾

التفسير

المسلمون في بوتقة الاختبار والفرز:

لم تكن قضية «المنافقين» مطروحة بقوة قبل حادثة معركة «أحد» ولهذا لم يكن المسلمون يعرفون عدواً لهم غير الكفار، ولكن الهزيمة التي أفرزتها «أحد» وما دب في المسلمين على أثرها من الضعف المؤقت مهد الأرضية لنشاط المنافقين المندسين في صفوف المسلمين، وعلى أثر ذلك عرف المسلمون وأدركوا بأن لهم عدواً آخر أخطر يجب أن يراقبوا تحركاته ونشاطاته وهو «المنافقون»، وكان هذا إحدى أهم معطيات حادثة «أحد» ونتائجها الإيجابية. والآية الحاضرة التي هي آخر الآيات التي نتحدث - هنا - عن معركة «أحد» وأحداثها، تبين وتستعرض هذه الحقيقة في صورة قانون عام إذ تقول: «وما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب» فلا بد أن تتميز

الصفوف، وتمّ عملية الفرز بين الطيب الطاهر، والخبيث الرجس. وهذا قانون عام وسنة إلهية خالدة وشاملة، فليس كلّ من يدعي الإيمان، ويجد مكاناً في صفوف المسلمين يترك لشأنه، بل ستبلى سرائره، وتنكشف حقيقته في الآخرة بعد الإختبارات الإلهية المتتابعة له.

وهنا يمكن أن يطرح سؤال (وهو السؤال الذي كان مطروحاً بين المسلمين آنذاك أيضاً حسب بعض الأحاديث والروايات) وهو: إذا كان الله عالماً بسريرة كل إنسان وأسراره فلماذا لا يخبر بها الناس - عن طريق العلم بالغيب - ويعرفهم بالمؤمن والمنافق؟

إنّ المقطع الثاني من الآية وهو قوله: «وما كان الله ليطلعكم على الغيب» يجيب على هذا السؤال. أي أن الله سبحانه لن يوقفكم على الأسرار، لأن الوقوف على الأسرار - على عكس ما يظن كثيرون لا يحلّ مشكلة، ولا يفكّ عقدة، بل سيؤدي إلى الهرج والمرج والفوضى، وإلى تمزق العلاقات الإجتماعية وانهارها، وانطفاء شعلة الأمل في النفوس وتبدده، وتوقف الناس عن الحركة والنشاط والفعالية.

والأهم من كلّ ذلك هو أنّه لا بدّ أن تتضح قيمة الأشخاص من خلال المواقف العملية والسلوكية، وليس عن أي طريق آخر، ومسألة الإختبار الإلهي لاتعني سوى هذا الأمر، ولهذا فإن الطريق الوحيد لمعرفة الأشخاص وتقويمهم هو أعمالهم فقط^(١).

ثمّ إنّ الله سبحانه يستثني الأنبياء من هذا الحكم إذ يقول: «ولكنّ الله يجتبي من رُسله من يشاء» أي أنّه يختار في كل عصر من بين أنبيائه من يطلعهم على

١ - لقد مرّ طرح هذا السؤال بالتفصيل عند تفسير قوله تعالى: «ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع...» وأجبنا هناك بأن الإمتحان الإلهي - هو في الحقيقة - نوع من التربية العملية للبشر، ولا يعني الإستخبار والإستعلام، ولمزيد الإطلاع راجع ذلك البحث.

شيء من تلك الغيوب ويوقفهم على بعض الأسرار بحكم إحتياج القيادة الرسالية إلى ذلك، وتبقى الأعمال - مع ذلك كله - هي الملاك الوحيد والمعيار الخالد والمسار الأبدي لمعرفة الأشخاص وتمييزهم وتصنيفهم.

ومن هذه العبارة يستفاد أن الأنبياء - بحسب ذواتهم - لا يعرفون شيئاً من الغيب، كما ويستفاد منها أن ما يعلمونه منه إنما هو بتعليم الله لهم وإطلاعهم على شيء من الغيوب، وعلى هذا الأساس يكون الأنبياء ممن يطلعون على الغيب، كما أن مقدار علمهم بالغيب يتوقف على المشيئة الإلهية.

ومن الواضح والمعلوم أن المراد من المشيئة الإلهية في هذه الآية - كغيرها من الآيات - هو «الإرادة المقرونة بالحكمة» أي أن الله سبحانه يطلع على الغيب كل من يراه صالحاً لذلك، وتقتضي حكمته سبحانه ذلك.

ثم أنه تعالى يذكرهم - في ختام الآية - بأن عليهم - وهو الآن في بوتقة الحياة، بوتقة الإمتحان الكبير، بوتقة التمييز بين الصالح والطالح، والطيب والخبث، والمؤمن والمنافق - عليهم أن يجتهدوا لينجحوا في هذا الإمتحان ويخرجوا مرفوعي الرؤوس من هذا الإختبار العظيم، إذ يقول: «فآمنوا بالله ورسله وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم».

ثم أن الملاحظة الملفتة للنظر والجديرة بالتأمل في هذه الآية التعبير عن المؤمن بالطيب، ومن المعلوم أن الطيب هو الباقي على أصل خلقته الذي لم تشبهه الشوائب، ولم يدخل في حقيقة الغرائب. ولم تلوثه الكدورات، فالماء الطاهر الطيب، والثوب الطيب الطاهر وما شابه ذلك هو الذي لم تلوثه الكدورات، ويستفاد من هذا أن الإيمان هو فطرة الإنسان الأصيل، وهو جبلته الأولى.

الآية

وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا
لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ
مِيرَاتُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾

التفسير

طوق الأسر الثقيل:

تبين الآية الحاضرة مصير البخلاء في يوم القيامة، أولئك الذين يبذلون غاية الجهد في جمع الثروة ثم يمتنعون عن الإنفاق في سبيل الله، ولصالح عباده. والآية هذه وإن لم تتعرض صراحة لذكر الزكاة وغيرها من الحقوق والفرائض المالية، إلا أن الأحاديث الواردة عن أهل البيت عليهم السلام، وكذا أقوال المفسرين خصصت هذه الآية وما وعد به فيها من الوعيد بمانعي الزكاة، ويؤيده التشديد المشهود في الآية، فإن أمثال هذا التشديد والتغليظ لا يتناسب مع الإنفاق المندوب المستحب.

تقول الآية أولاً: «ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شرٌّ لهم» ثم تصف مصير هؤلاء في يوم القيامة هكذا: «سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة» أي ستكون تلك الأموال التي بخلوا بها طوقاً في

أعناقهم في ذلك اليوم الرهيب.

ومن هذه الجملة يستفاد أن الأموال التي لم يدفع صاحبها الحقوق الواجبة فيها، ولم ينتفع بها المجتمع، بل صرفت فقط في سبيل الأهواء الشخصية، وربما صرفت في ذلك السبيل بشكل جنوني، أو كدست دون أي مبرر ولم يستفد منها أحد سيكون مصيرها مصير أعمال الإنسان، أي أنها - طبقاً لقانون تجسم الأعمال البشرية - ستتجسم يوم القيامة وتتمثل في شكل عذاب مؤلم يؤدي صاحبها ويخزيه.

إنَّ تجسّم مثل هذه الأموال التي تطوق بها أعناق ذويها إشارة إلى الحقيقة التالية، وهي أن كل إنسان يتحمل ثقل مسؤوليتها كاملاً دون أن يكون هو قد انتفع بها.

إنَّ الأموال الوفيرة التي تجمع بشكل جنوني وتكتنز ولا تصرف في خدمة المجتمع لا تكون سوى أغلال وسجون لأصحابها، لأن للإستفادة - كما نعلم - من الأموال والثروة الشخصية حدوداً، فإذا تجاوزها الإنسان عادت عليه نوعاً من الأسر الثقيل، والوزر الضار. اللهم إلا أن يستفيد من أثارها المعنوية وذلك حينما يوظفها في الأعمال الإيجابية الصالحة.

ثم إن هذه الأموال لا تشكل طوقاً ثقيلاً في أعناق أصحابها في الآخرة فحسب، بل تكون كذلك في هذه الدنيا أيضاً، غاية الأمر أن هذا المعنى يكون أكثر ظهوراً في الآخرة، بينما يكون في شيء من الخفاء في هذه الحياة، فآية حماقة - ترى - أكبر من أن يتحمل المرء مسؤولية جمع الثروة مضافة إلى مسؤولية الحفاظ عليها وحسابها والدفاع عنها وما يلزم ذلك من مشاق تثقل كاهله، في حين لا ينتفع بها هو أبداً، وهل الأموال حينئذٍ إلا طوق أسر ثقيل لا غير؟

ففي تفسير العياشي عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: «الذي يمنع الزكاة يحول الله

ماله يوم القيامة شجاعاً^(١) من نار ... ثم يقال له: ألزمه كما لزمك في الدنيا».

والملفت للنظر التعبير عن المال في هذه الآية بـ«ما أتاهم الله من فضله» الذي يفهم منه أن المالك الحقيقي لهذه الأموال ومصادرها هو الله سبحانه، وإن ما أعطاه لأيّ واحد من الناس فإنما هو من فضله، ولهذا ينبغي أن لا يبخل، أن ينفق من تلك الأموال في سبيل صاحبها الحقيقي.

ثم إن بعض المفسرين يرى أن مفهوم هذه العبارة يعم جميع المواهب الإلهية ومنها العلم، ولكن هذا الاحتمال لا ينطبق مع ظاهر التعبيرات الواردة في الآية.

ثم إن الآية تشير إلى نقطة أخرى إذ تقول: «والله ميراث السماوات والأرض» يعني أن الأموال سواء أنفقت في سبيل الله أو لم تنفق فإنها ستنفصل في النهاية عن أصحابها، ويرث الله الأرض والسماء وما فيهما، فالأجدر بهم - والحال هذه - أن ينتفعوا من آثارها المعنوية، لأن يتحملوا وزرها وعناءها، وحسرتها وتبعتها. ثم تختم الآية بقوله تعالى: «والله بما تعملون خبير» أي أنه عليم بأعمالكم، يعلم إذا بخلتم، كما يعلم إذا انفقتم ما أوتيتموه من المال في السبيل الصالح العام وخدمة المجتمع الإنساني، ويجازي كلاً على عمله بما يليق.

* * *

الآيتان

لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ
سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلُهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا
عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٧٦﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ
بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴿٧٧﴾

سبب النزول

هذه الآية نزلت ردّاً على مقالة اليهود وتوبيخاً لهم.

فمن ابن عباس أنه قال: كتب رسول الله ﷺ كتاباً إلى يهود «بني قينقاع» دعاهم فيه لإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وأن يقرضوا لله «والمراد منه الإنفاق في سبيل الله وإنما عبر عنه بالإقراض لتحريك المشاعر وإثارته لدى الناس قدراً أكبر) فدخل رسول النبي ﷺ إلى بيت المدارس (حيث يتلقى اليهود دروساً في دينهم) وسلم كتاب النبي ﷺ إلى «فنحاص» وهو من كبار أجبّار اليهود فلما قرأه قال مستهزئاً: لو كان ماتقولونه حقاً فإن الله إذن لفقير ونحن أغنياء، ولو كان غنياً لما استقرض منا (وهو يشير إلى قوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يقرض الله قرصاً

حسناً»^(١) هذا مضافاً إلى أن «محمداً» يعتقد أن الله نهاكم عن أكل الرِّبَا، وهو يعدكم أن يضاعف لكم إذا انفقتم أضعافاً مضاعفة، وهو يشير إلى قوله تعالى: ﴿يربي الصدقات﴾^(٢).

ولكنّ «فنحاص» أنكر أنه قال شيئاً من هذه في ما بعد فنزلت الآيتان المذكورتان أعلاه^(٣).

التفسير

تقول الآية الأولى ﴿لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء﴾. أي لو أن هؤلاء استطاعوا أن يخفوا عن الناس مقاتلهم هذه فإن الله قد سمعها ويسمعها حرفاً بحرف فلا مجال للإنكارها، فهو يسمع ويدرك حتى ما عجزت أسماع الناس عن سماعها من الأصوات الخفية جداً أو الأصوات العالية جداً: ﴿لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء﴾.

إذن فلا فائدة ولا جدوى في الإنكار، ثم يقول سبحانه: ﴿سنكتب ما قالوا﴾ أي أن ما قالوه لم نسمعه فحسب، بل سنكتبه جميعه. ومن البديهي أن المراد من الكتابة ليس هو ما تعارف بيننا من الكتابة والتدوين، بل المراد هو حفظ آثار العمل التي تبقى خالدة في العالم حسب قانون بقاء «الطاقة - المادة».

بل وحتى كتابة الملائكة الموكّلين من قبل الله بالبشر لضبط تصرفاتهم، هو الآخر نوع من حفظ العمل الذي هو مرثية أعلى من الكتابة المتعارفة. ثم يقول: ﴿وقتلهم الإنبياء﴾ أي أننا لا نكتفي بكتابة مقالاتهم الكافرة

١- الحديد، ١١.

٢- البقرة، ٢٧٦.

٣- أسباب النزول للواقدي، ص ٩٩ وتفسير روح البيان في تفسير هذه الآية.

الباطلة فحسب، بل سنكتب موقفهم المشين جداً وهو قتلهم للأنبياء.

يعني أن مجابهة اليهود، ومناهضتهم للأنبياء ليس بأمر جديد، فليست هذه هي المرة الأولى التي تستهزء يهود برسول من الرسل، فإن لهم في هذا المجال باعاً طويلاً في التاريخ، وصفحة مليئة بنظائر هذه الجرائم والمخازي، فإن جماعة بلغت في الدناءة والشراسة والقحة والجرأة أن قتلت جماعة من رسل الله وأنبيائه، فلا مجال للإستغراب من تفوهاها بمثل هذه الكلمات الكافرة.

ويمكن أن يقال في هذا المقام: إن قتل الأنبياء مسألة لم ترتبط باليهود في عصر الرسالة المحمّدية، فلماذا حمل وزرها عليهم؟ ولكننا نقول - كما أسلفنا أيضاً - أن هذه النسبة إنما صحّت لأنهم كانوا راضين بما فعله وارثه أسلافهم من اليهود، ولهذا أشركوا في إثمهم ووزرهم وفي مسؤوليتهم عن ذلك العمل الشنيع.

وأما تسجيل وكتابة أعمالهم فلم يكن أمراً اعتبارياً غير هادف، بل كان لأجل أن نعرضها عليهم يوم القيامة، ونقول لهم: ها هي نتيجة أعمالكم قد تجسدت في صورة عذاب محرق ونقول: ﴿ذوقوا عذاب المحريق﴾.

إنّ هذا العذاب الإليم الذي تذوقونه ليس سوى نتيجة أعمالكم، فأنتم - أنفسكم - قد ظلمتم أنفسكم ﴿ذلك بما قدمت أيديكم﴾^(١) و أن الله ليس بظلام للعبيد.

بل لو أنكم وأمثالكم من المجرمين لم تتالوا جزاء أعمالكم ولم تروها بأمر أعينكم، ووقفتم في عداد الصالحين لكان ذلك غاية في الظلم، ولو أن الله سبحانه لم يفعل ذلك لكان ظلماً للناس.

١ - إنما أضيف أعمال الإنسان إلى يده وإن كانت الذنوب تكنسب بجميع العوارح لأن أكثر ما يكسبه الإنسان إنما يكسبه بيده، ولأن العادة قد جرت بإضافة الأعمال التي يقوم بها الإنسان إلى اليد وإن اكتسبها بجراحة أخرى.

ولقد نقل عن الإمام علي عليه السلام في نهج البلاغة أنه قال:

«وأيام الله ما كان قوم قط في غض نعمة من عيش فزال عنهم إلا بذنوب اجترحوها لأن الله ليس بظلام للعبيد».

إن هذه الآية تعدّ من الآيات التي تفنّد - من جهة - مقولة الجبريين، و - تعمم - من جهة أخرى - أصل - العدالة وتسجبه على كل الأفعال الإلهية، فتكون جميعاً مطابقة للعدالة.

وتوضيح ذلك: إن الآية الحاضرة تصرّح بأن كلّ جزاء - من ثواب أو عقاب - ينال الناس من جانب الله سبحانه فإنما هو جزاء أعمالهم التي ارتكبوها بمحض إرادتهم واختيارهم «ذلك بما قدمت أيديكم».

وتصرّح من جانب آخر بأن «الله ليس بظلام للعبيد» وإنّ قانونه في الجزاء يدور على محور العدل المطلق، وهذا هو نفس ما تعتقد به العديلة (وهم القائلون بالعدل الإلهي، وهم الشيعة وطائفة من أهل السنة المسمّون بالمعتزلة).

غير أنّ هناك في الطرف الآخر جماعة من أهل السنة «وهم الذين يسمّون بالأشاعرة» لهم اعتقاد غريب في هذا المجال فهم يقولون: إنّه تعالى هو المالك في خلقه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، فلو أدخل الخلائق بأجمعهم الجنة لم يكن حيفاً، ولو أدخلهم النار لم يكن جوراً... فلا يتصوّر منه ظلم، ولا ينسب إليه جور^(١).

والآية الحاضرة تفنّد هذا النوع من الآراء والمقالات تفنيداً باتاً ومطلقاً وتقول بصراحة لا غبش فيها ولا غموض: «ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد».

على أنّ لفظة «ظلام» صيغة مبالغة، وتعني من يظلم كثيراً، ولعل اختيار هذه الصيغة في هذا المكان مع أنّ الله سبحانه لا يظلم حتى إذا كان الظلم صغيراً، لأجل أنه إذا أجبر الناس على الكفر والمعصية، وخلق فيهم دواعي العمل القبيح ودوافعه، ثمّ عاقبهم على ما فعلوه بإجباره وإكراهه لم يكن بذلك قد ارتكب ظلماً صغيراً فحسب، بل كان «ظلاماً».

الآيتان

الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عٰهَدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِينَا
بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ
وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنْتُمْ صٰدِقِينَ ﴿٧٦﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ
فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءَ وَبِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ
الْمُنِيرِ ﴿٧٧﴾

سبب النزول

حضر جماعة من أقطاب اليهود عند رسول الله ﷺ وقالوا له: يا محمد إن الله عهد إلينا في التوراة أن لا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار، فإن زعمت أن الله بعثك إلينا فجننا به نصدقك، فأنزل الله هاتين الآيتين.

التفسير

مغالطات اليهود وتعللاتهم:

كانت اليهود تتحجج وتجادل كثيراً بهدف التملص من الانضواء تحت راية الإسلام.

ومن مغالطاتهم ما جاء ذكره في هذه الآية الحاضرة التي تقول: ﴿الَّذِينَ قَالُوا

إِنَّ اللَّهَ عَهْدٌ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِينَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ.

قال المفسرون: إن اليهود كانت تزعم أنه يجب أن يكون للأنبياء خصوص هذه المعجزة، وهي أن يقربوا قرباناً فتنزل النار من السماء وتأكل قربانهم، ففي ذلك دلالة على صدق المقرب (أي صاحب القربان).

ولو أن اليهود كانوا صادقين في هذا الطلب، وكانوا يريدون - حقاً - مثل هذا الأمر من باب إظهار الإعجاز، وليس من باب العناد واللجاجة والمغالطة لكان من الممكن إعدارهم، ولكن تاريخهم الغابر، وكذا مواقفهم المشينة مع نبي الإسلام ﷺ تثبت الحقيقة التالية، وهي أنهم لم يكونوا أبداً طلاب حق وبغاة علم، بل كانوا يأتون كل يوم بمغالطة واقتراح جديد لمواجهة الجو الضاغط عليهم، وما كان يخلقه القرآن من وضع محرر لهم بفضل ما كان يقيمه من براهين ساطعة وقوية، وذلك فراراً من قبول الإسلام، والإيضواء تحت رايته، وحتى لو أنهم حصلوا على مقترحاتهم فإنهم كانوا يمتنعون عن الإيمان، بدليل أنهم كانوا قد قرأوا في كتبهم كل علائم نبي الإسلام ﷺ، ولكنهم مع ذلك أبوا إلا رفض الحق، وعدم الإدعان له.

يقول القرآن في مقام الرد عليهم: ﴿قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالذِّكْرِ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ؟﴾ وفي ذلك إشارة إلى زكريا ويحيى وطائفة من الانبياء الذين قتلوا على أيدي بني اسرائيل.

هذا ويذهب بعض متأخري المفسرين (مثل كاتب تفسير المنار) إلى احتمال آخر حول مسألة القربان خلاصته: إن مقصودهم لم يكن إن على النبي أن يذبح قرباناً وتنزل من السماء نار بطريقة إعجازية وتحرق ذلك القربان، بل كان مرادهم هو أنه كان في تعاليم دينهم نوع من هذا القربان الذي يذبح بطريقة خاصة وفي مراسيم معينة، ثم يحرق بالنار وهو ما جاء شرحه في الفصل الأول من سفر «اللاويين» من التوراة (العهد القديم).

إنهم كانوا يقولون: إن الله عهد إلينا أن يبقي مثل هذا التعليم، ومثل هذا القربان في كل دين سماوي، وحيث إننا لا نجد مثل هذا الأمر في التعاليم الإسلامية لذلك فإننا لا نؤمن لك.

ولكن هذا الإحتمال بعيد عن تفسير الآية جداً لأنه:

أولاً: إن هذه الجملة قد عطفت في الآية الحاضرة على «البيئات» ويظهر من ذلك أن مرادهم كان عملاً إعجازياً، وهو لا ينطبق مع هذا الإحتمال.
وثانياً: إن ذبح حيوان ثم حرقه بالنار عمل خرافي ولا يمكن أن يكون من تعاليم الأنبياء وشرائعهم السماوية.

ثم يعقب سبحانه على الآية السابقة بقوله: ﴿فإن كذبوك فقد كذب رسل من قبلك﴾.

وفي هذه الآية يسلي الله سبحانه النبي ﷺ ويقول: إن كذبتك هذه الجماعة فلا تقلق لذلك ولا تحزن، فذلك هو دأبهم مع أنبياء سبقوك حيث كذبوهم، وعارضوا دعوتهم بصلافة وعناد.

ولم يكن هؤلاء الإنبياء غير مزودين بما يبرهن على صدقهم، بل «جاؤوا بالبينات والزبر والكتاب المنير».

وهنا لابد من الإلتباه إلى أن «زبر» وهو جمع «زبور» يعني كتاباً أحكمت كتابة مواضعه، لأن الزبر أصلاً من الكتابة، لا مطلق الكتابة، بل الكتابة المتقنة المحكمة.

وأما الفرق بين «الزبر» و«الكتاب المنير» مع أنهما من جنس واحد هو الكتاب، فيمكن أن يكون بسبب أن الأول إشارة إلى كتب الأنبياء قبل موسى ﷺ، والثاني إشارة إلى التوراة والإنجيل، لأن القرآن الكريم عبر عنهما في سورة المائدة الآية ٤٤، و٤٦ بالتور إذ قال: ﴿إننا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور...﴾ «وآتيناها الإنجيل فيه هدى ونور».

هذا ويحتمل بعض المفسرين أن يكون المراد من «الزبور» هو تلك الكتب السماوية التي تحتوي على المواعظ والزواجر خاصة (كما كان عليه الزبور المنسوب إلى داود الذي هو الآن بين الأيدي والذي يحتوي بأسره على المواعظ والزواجر) ولكن «الكتاب المنير» أو الكتاب السماوي فيطلق على ما يحتوي على التشريعات والقوانين والأحكام الفردية والاجتماعية.

* * *

الآية

كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ
رُزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا
مَتَاعٌ الْغُرُورِ ﴿١٧٥﴾

التفسير

الموت وقانونه العام:

تعقيباً على البحث حول عناد المعارضين وغير المؤمنين تشير هذه الآية إلى قانون «الموت» العام وإلى مصير الناس في يوم القيامة، ليكون ذلك تسليّة للنبي ﷺ والمؤمنين، وتحذيراً - كذلك - للمعارضين العصاة. فهذه الآية تشير - أولاً - إلى قانون عام يشمل جميع الأحياء في هذا الكون وتقول: ﴿كل نفس ذائقة الموت﴾.

والناس، وإن كان أكثرهم يحب أن ينسى مسألة الفناء ويتجاهل الموت، ولكن هذا الأمر حقيقة واقعة إن حاولنا تناسيها والتغافل عنها، فهي لا تنسانا، ولا تتغافل عنا.

إنّ لهذه الحياة نهاية لا محالة، ولا بد أن يأتي ذلك اليوم الذي يزور فيه الموت كل أحد، ولا يكون أمامه - حينئذ - إلا أن يفارق هذه الحياة.

إن المراد من «النفس» في هذه الآية هو مجموعة الجسم والروح، وإن كانت النفس في القرآن تطلق أحياناً على خصوص «الروح» أيضاً.

والتعبير بالتذوق إشارة إلى الإحساس الكامل، لأن المرء قد يرى الطعام بعينه أو يلمسه بيده، ولكن كل هذه لا يكون - والأحرى لا يحقق الإحساس الكامل بالشيء، نعم إلا أن يتذوق الطعام بحاسة الذوق فحينئذ يتحقق الإحساس الكامل، وكأن الموت - في نظام الخلق - نوع من الغذاء للإنسان والأحياء.

ثم تقول الآية بعد ذلك «وإنما توفون أجوركم يوم القيامة» أي أنه ستكون بعد هذه الحياة مرحلة أخرى هي مرحلة الثواب والعقاب، وبالتالي الجزاء على الأعمال، فهنا عمل ولا حساب وهناك حساب ولا عمل.

وعبارة «توفون» التي تعني إعطاء الجزاء بالكامل تكشف عن إعطاء الإنسان أجر عمله - يوم القيامة - وافية وبدون نقيصة، ولهذا لا مانع من أن يشهد الإنسان - في عالم البرزخ المتوسط بين الدنيا والآخرة - بعض نتائج عمله، وينال قسطاً من الثواب أو العقاب، لأن هذا الجزاء البرزخي لا يشكل الجزاء الكامل.

ثم قال سبحانه: «فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز».

وكلمة «زحزح» تعني محاولة الإنسان لإخراج نفسه من تحت تأثير شيء، وتخليصها من جاذبيته تدريجاً.

وأما كلمة «فاز» فتعني في أصل اللغة «النجاة» من الهلكة، ونيل المحبوب والمطلوب.

والجملة بمجموعها تعني أن الذين استطاعوا أن يحرروا أنفسهم من جاذبية النار ودخلوا الجنة فقد نجوا من الهلكة، ولقوا ما يحبونه، وكأن النار تحاول بكل طاقتها أن تجذب الأدميين نحو نفسها.. حقاً أن هناك عوامل عديدة تحاول أن تجذب الإنسان إلى نفسها، وهي على درجة كبيرة من الجاذبية.

أليس للشهوات العابرة، واللذات الجنسية الغير المشروعة، والمناصب،

والثروات الغير المباحة مثل هذه الجاذبية القوية؟؟
كما أنه يستفاد من هذا التعبير أن الناس ما لم يسعوا ويجهتدوا لتخليص
أنفسهم وتحريرها من جاذبية هذه العوامل المغرية الخداعة فإنها ستجذبهم نحو
نفسها تدريجاً، وسيقعون في أسرها في نهاية المطاف.

أما إذا حاولوا من خلال تربية أنفسهم وترويضها، وتمارينها على مقاومة هذه
الجواذب والمغريات وكبح جماحها، وبلغوا بها إلى مرتبة «النفس المطمئنة»
كانوا من الناجحين الواقعيين، الذين يشعرون بالأمن والطمأنينة.

ثم يقول سبحانه في نهاية هذه الآية: «وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور». وهذه
الجملة تكمل البحث السابق وكأنها تقول: إن هذه الحياة مجرد لهو
ومتاع تخدع الإنسان من بعيد، فإذا بلغ إليها الإنسان ونال منها ولمسها عن كثب
وجدها - على الأغلب - فراغاً في فراغ وخواء في خواء، وما متاع الغرور إلا
هذا.

هذا مضافاً إلى أن اللذائذ المادية تبدو من بعيد وكأنها خالصة من كل شائبة،
وخالية من كل ما يكدرها، حتى إذا اقترب إليها الإنسان وجدها ممزوجة بكل
ألوان العناء والعذاب، وهذا جانب آخر من خداع الحياة المادية.

كما أن الإنسان ينسى - في أكثر الأحيان - طبيعته الفانية، ولكنه سرعان ما
ينتبه إلى أنها سريعة الزوال، قابلة للفناء.

إن هذه التعابير قد تكررت في القرآن والأحاديث كثيراً، والهدف منها
جميعاً شيء واحد هو أن لا يجعل الإنسان هذه الحياة المادية ولذاتها العابرة
الفانية الزائلة هدفة الأخير، ومقصده الوحيد النهائي الذي تكون نتيجه الفرق
والإرتطام في شتى ألوان الجريمة والمعصية، والإبتعاد عن الحقيقة وعن التكامل
الإنساني، وأما الإنتفاع بالحياة المادية ومواهبها كوسيلة للوصول إلى التكامل
الإنساني والمعنوي فليس غير مذموم فقط، بل هو ضروري وواجب.

الآية

لَتَبْلُوَنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا
الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذَى كَثِيراً وَإِنْ
تَضَرَّبُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿٨٦﴾

سبب النزول

عندما هاجر المسلمون من مكة إلى المدينة وابتعدوا عن دورهم وديارهم، راحت أيدي المشركين تطال أموالهم وتمتد إلى ممتلكاتهم، وتناها بالتصرف والسيطرة عليها، وإيذاء كل من وقعت عليه أيديهم والإيقاع فيه بالهزاء والاستهزاء.

وعندما جاؤوا إلى المدينة، واجهوا أذى اليهود القاطنين في المدينة، خاصة «كعب بن الأشرف» الذي كان شاعراً سليط اللسان، فقد كان كعب هذا يهجو النبي ﷺ والمسلمين ويحرض المشركين عليهم حتى أنه كان يشيب بنساء المسلمين ويصف محاسنهن ويتغزل بهن.

وقد بلغت وقاحته مبلغاً دفعت بالنبي ﷺ إلى أن يأمر بقتله، فقتل على أيدي المسلمين غيلة.

والآية الحاضرة - حسب بعض الأحاديث المنقولة عن المفسرين - تشير إلى هذه الأمور وتحث المسلمين على مواصلة الصمود والمقاومة.

التفسير

لا تتبعكم المقاومة:

«تلبون في أموالكم وأنفسكم» أجل إن هذه الحياة - أساساً - ساحة إختبار ودار إمتحان، فلا بد أن يتهيأ الإنسان لمواجهة كل الحوادث والمفاجئات الصعبة العسيرة، وهذا في الحقيقة تنبيه وتحذير لجميع المسلمين بأن لا يظنوا بأن الحوادث العسيرة في حياتهم قد إنتهت، أو أنهم قد تخلصوا من أذى الأعداء، وسلاطة لسانهم بمجرد قتلهم لكعب بن الأشرف الشاعر السليط اللسان الذي كان يؤذي المسلمين بلسانه، وشعره.

ولهذا قال سبحانه: «ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً».

إن مسألة التعرض الأذى المشركين اللساني وسبهم وشتهم وهجائهم وإن كانت من إحدى الإبتلاءات التي جاء ذكرها في مطلع الآية، ولكنه ذكر هنا بخصوصه للأهمية الفائقة، لأن مثل هذا قلما يتحملة الشرفاء من الناس لعظيم أثره في أرواحهم ونفوسهم، ومن قديم قال الشاعر:

جراحات السنان لها التيام ولا يلتام ما جرح اللسان

ثم أنه سبحانه عقب على هذا الإنذار والتنبيه بقوله: «وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور».

وبهذا يبين القرآن وظيفة المسلمين وواجبهم في أمثال هذه الحوادث الصعبة والظروف العسيرة، ويدعوهم إلى الصبر والإستقامة والصمود والتزام التقوى في مثل هذه الحوادث معلناً بأن هذه الأمور من الأمور الواضحة النتائج،

ولذلك يتعين على كل عاقل أن يتخذ موقفه منها.

والعزم في اللغة هو «القرار المحكم» وربما يطلق على مطلق الأمور المحكمة، وعلى هذا فإن «عزم الأمور» يعني الأعمال البينة الرشد التي يجب على كل إنسان عاقل العزم عليها أو بمعنى كل أمر محكم يطمأن إليه. واقتران الصبر بالتقوى في هذه الآية لعله إشارة إلى أن بعض الأشخاص قد يصبرون ولكنهم مع ذلك يظهرون الشكوى، ويسدون التبرم بما لقوا، ولكن المؤمنين الصادقين هم الذين يمزجون الصبر بالتقوى دائماً وأبداً ويتجنبون مثل ذلك السلوك.



الآية

وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا
تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ مِمَّا قَلِيلًا فَبُئْسَ
مَا يَشْتَرُونَ ﴿٧٧﴾

التفسير

بعد ذكر جملة من أعمال أهل الكتاب المشينة ومخالفاتهم تشير الآية
الحاضرة إلى واحدة أخرى من تلك الأعمال والمخالفات، ألا وهو كتمان
الحقائق فتقول: «وإذ أخذ الله ميثاق الذين أُوتوا الكتاب لتبيّنهن للناس ولا
تكتُمونه»، أي اذكروا إذ أخذ الله مثل هذا الميثاق منكم.
والملفت للنظر أن عبارة «لتبيّنهن» جاءت مع لام القسم، ونون التأكيد الثقيلة،
وذلك نهاية في التأكيد.

ثم أردفها - مع ذلك - بقوله: «ولا تكتُمونه» الذي هو أمر صريح بعدم
الكتمان والإخفاء.

ومن كل هذه التعابير يتضح أو يستفاد أن الله سبحانه قد أخذ بوساطة الأنبياء
السابقين أكد الموائيق والعهود من أهل الكتاب لإظهار الحقائق، وبيانها، ولكتمهم
رغم كل ذلك - خانوا تلك العهود وتجاهلوا تلك الموائيق، وأخفوا ما أرادوا

إخفائه من حقائق الكتب السماوية، ولهذا قال سبحانه عنهم ﴿فنبذوه وراء ظهورهم﴾ أنها كناية رائعة عن عدم العمل بالواجب وتناسيه، لأن الإنسان إذا عزم على العمل بشيء وأراد جعله ملاكاً له، فإن يجعله قدامه، وينظر إليه مرة بعد أخرى، ولكنه إذا لم يرد العمل به وأراد تناسيه للمرة أزاحه من وجهه، وألقاه خلف ظهره.

ثم أنه سبحانه أشار إلى حرص اليهود وجشعهم وحبهم المفرط للدنيا إذ يقول: ﴿واشتروا به ثمناً قليلاً فبئس ما يشترون﴾.

إن حبهم الشديد للدنيا الذي بلغ حد العبادة، وإنحطاطهم الفكري آل بهم إلى أن يكتموا الحقائق لقاء مكاسب مادية، ولكن الآية تقول: أنهم لم يشتروا بذلك ولم يكسبوا إلا ثمناً قليلاً، وبئس ما يشترون.

ولو أنهم قد حصلوا لقاء كتمان الحقائق - هذه الجريمة الكبرى - على ثروة عظيمة وطائلة لكان ثمة مجال لأن يقال: إن عظمة المال والثروة قد أعمت أبصارهم وأسماعهم، ولكن الذي يدعو إلى الدهشة والعجب أنهم باعوا كل ذلك لقاء ثمن بخس ومتاع قليل. (طبعاً المقصود هنا هو علماءهم الدينويو الهمة).

العلماء والوظيفة الكبرى:

إن الآية الحاضرة وإن كانت قد وردت بحق أهل الكتاب (من اليهود والنصارى) إلا أنها في الحقيقة تحذير وإنذار لكل علماء الدين ورجاله بأن عليهم أن يجتهدوا في تبليغ الحقائق وبيان الأحكام الإلهية، وتوضيحها وإظهارها بجلاء، وإن ذلك مما كتبه الله عليهم، وأخذ منهم ميثاقاً مؤكداً وغلظاً.

إن كلمة «لتبيننه» وما اشتقت منه في أصل اللغة في هذه الآية تكشف عن أن المقصود ليس هو فقط تلاوة آيات الله أو نشر ما احتوت عليه الكتب السماوية من كلمات وعبارات، بل المقصود هو عرض ما فيها من الحقائق على الناس،

وجعلها في متناول الجميع بوضوح ودون غبش ليقف عليها الناس أجمعون من دون إبهام، ويتذوقونها بأرواحهم وأفئدتهم دون أيّة حجب وسدود.

فالذين يتقاعسون أو يقصرون في عرض الحقائق الإلهية وبيانها وتوضيحها للمسلمين لا شك تشملهم هذه الآية، وينالهم نفس المصير الذي ذكره الله فيها لعلماء اليهود وأخبارهم.

فقد روى عن النبي الأكرم ﷺ - أنه قال: «من كتم علماً عن أهله أجم يوم القيامة بلجام من نار».

وعن الحسن بن عمار قال: أتيت الزهري بعد أن ترك الحديث فألفيته على بابه فقلت: إن رأيت أن تحدّثني فقال: أو ما علمت أنّي تركت الحديث، فقلت: إمّا أن تحدّثني وإمّا أن أحدثك؟ فقال: حدّثني فقلت: حدّثني الحكم بن عيينة عن نجم الجزار قال: سمعت علي بن أبي طالب عليه السلام يقول: «ما أخذ الله على أهل الجهل أن يتعلموا حتى أخذ على أهل العلم أن يعلموا».

قال: فأطرق برأسه ملياً بعد أن سمع قولي ثمّ قال: اسمع لأحدثك، فحدّثني أربعين حديثاً.^(١)

هذا وللتعرف - بصورة أكبر - على خيانات أخبار اليهود وعلماء النصارى، راجع الآيات (٧٩ و ١٧٤) من سورة البقرة، والآيات (٧١ إلى ٧٧) من سورة آل عمران.



١ - تفسير أبو الفتوح الرازي، وتفسير مجمع البيان عند تفسير هذه الآية، ومتن الحديث العلوي منقول عن نهج البلاغة.

الآياتن

لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا آتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ
يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسِبْتَهُمْ بِمَقَارَةِ مَنَ الْعَذَابِ وَهُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ ﴿٧٨﴾
وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٩﴾

سبب النزول

ذكر المحدثون والمفسرون أسباباً عديدة لنزول هذه الآية، منها أن اليهود كانوا يفرحون لما يقومون به من تحريف آيات الكتب السماوية وكتمان حقائقها ظناً منهم بأنهم يحصلون من وراء ذلك على نتيجة، وفي الوقت نفسه كانوا يحبون أن ينسبهم الناس إلى العلم، ويعتبرونهم من حماة الدين فنزلت هذه الآية ترد على تصورهم الخاطيء هذا.

وقال آخرون أنها نزلت في شأن المنافقين، لأنهم كانوا يجمعون ويستفقون على التخلف عن الجهاد مع رسول الله ﷺ إذا نشبت حرب من الحروب الإسلامية، متذرعين لذلك بمختلف المعاذير والحجج، فإذا عاد المجاهدون من القتال إعتذروا وحلفوا لهم بأنهم كانوا يودّوا المشاركة لولا بعض الأعذار، وأحبوا بالتالي أن يقبل منهم العذر ويحمدوا بما ليسوا عليه من الإيمان وبما لم يفعلوه من أفعال المجاهدين الصادقين. فنزلت هذه الآية ترد على هذا التوقع غير

المبرر وغير الوجيه^(١).

التفسير

المعجبون بأنفسهم:

المرتكبون لقبائح الفعال على نوعين: طائفة تستحي من أفعالها فور انتباهها إلى قبح ما فعلت، وهي لم تفعل ما فعلت من القبيح إلا لطغيان غرائزها، وهيجان شهواتها، وهذه الطائفة سهلة التّجاة جداً، لأنها تندم بعد كل قبيح ترتكبه، وتعرض لوخز ضميرها وعتب وجدانها باستمرار.

بيد أن هناك طائفة أخرى ليست فقط لا تشعر بالندم والحياء ممّا ارتكبت من الإثم، بل هي على درجة من الغرور والإعجاب بالنفس بحيث تفرح بما فعلت، بل تتبجح به وتتفاخر، بل وفوق ذلك تريد أن يمدحها الناس على ما لم تفعله أبداً من صالح الأعمال وحسن الفعال.

إنّ الآية الحاضرة تقول عن هؤلاء: ﴿لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يمدحوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفارقة من العذاب﴾ أي لا تحسبن أن هؤلاء يعذرون على موقفهم هذا وينجون من العذاب، إنّما النجاة لمن يستحون - على الأقل - من أعمالهم القبيحة، ويندمون على أنّهم لم يفعلوا شيئاً من الأعمال الصالحة.

إنّ هؤلاء المعجبين بأنفسهم ليسوا فقط ضلّوا طريق النجاة وحرّموا من الخلاص، بل ﴿ولهم عذاب أليم﴾ ينتظرهم.

ويمكن أن نستفيد من هذه الآية أن ابتهاج الإنسان بما وفق لفعله وإتيانه من صالح الأعمال ليس مذموماً (إذا كان ذلك لا يتجاوز حد الاعتدال، ولم يكن سبباً للغرور والعجب)، وهكذا الحال في رغبة الانسان في التشجيع والإجلال على

١ - أسباب النزول للواقدي في تفسير هذه الآية وتفسير المنار وتفسير مجمع البيان.

الأفعال الحسنة إذا كان - كذلك - في حدود الاعتدال، ولم يكن الإتيان بتلك الأعمال الصالحة بدافع الحصول على ذلك، لأن كل ذلك من غريزة الإنسان ومقتضى فطرته. ولكن أولياء الله ومن هم في المستويات العليا من الإيمان بعيدون حتى من مثل هذا الإبتهاج المباح وحبّ التقدير الغير المذموم.

إنهم يرون أعمالهم دائماً دون المستوى المطلوب، ويشعرون أبدأ بالتقصير تجاه ربهم العظيم، وبالتفريط في جنبه سبحانه وتعالى.

على أنه ينبغي أن لا نتصور أن الآية الحاضرة - مورد البحث - تختص بأهل النفاق في صدر الإسلام أو من شاكلهم - في كل عصر وزمان - وفي جميع الظروف والمجتمعات المختلفة، ممن يفرحون ويتهجون بأعمالهم القبيحة أو يحركون الآخرين ليحمدوهم على ما لم يفعلوه بالقلم أو اللسان.

إن مثل هؤلاء مضافاً إلى العذاب الأليم في الآخرة، سيصيبهم - في هذه الحياة - غضب الناس وسخطهم، وسيؤول أمرهم إلى الانفصال عن الآخرين وإلى غير ذلك من العواقب السيئة.

ثم إن الله سبحانه يقول في آية لاحقة: «وَلِلَّهِ الْمُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» وهذا الكلام يتضمن بشرى للمؤمنين، وتهديداً للكافرين، فهي تقول: إنه لا داعي لأن يسلك المؤمنون لإحراز التقدم طرقاتاً وسبلاً منحرفة، وأن يحمدوا على ما لم يفعلوه، ذلك لأنهم يقدرون أن يواصلوا تقدمهم، ويحرزوا النجاحات بالاستفادة من السبل المشروعة والصحيحة وفي ظل قدرة الله خالق السماوات والأرضين، كما أنه على المنافقين والعصاة أن لا يتصوروا أنهم قادرون على إحراز شيء أو على الخلاص والنجاة من عقاب خالق الكون ورب السماوات والأرضين بسلوك هذه السبل المنحرفة واستخدام هذه الأساليب غير المشروعة!

الآيات

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ
 لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٣١﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا
 وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا
 مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا تُسَبِّحُكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٣٢﴾ رَبَّنَا
 إِنَّكَ مَنْ تَدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ
 أَنْصَارٍ ﴿١٣٣﴾ رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا
 بِرَبِّكُمْ فَأَمَّا رَبَّنَا فَأَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا
 مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿١٣٤﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا
 يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿١٣٥﴾

التفسير

أهمية هذه الآيات:

لا شك أن جميع الآيات القرآنية تتمتع بأهمية كبرى لأنها جميعاً كلام الله،
 وآياته التي نزلت لتربية الإنسان ونجاته وخلاصه، وإلا أن هناك من الآيات ما
 تحظى وتتميز على سواها ببريق خاص، ومن هذا الصنف ما نقرؤه الآن من
 الآيات الخمسة التي تعد من القمم القرآنية العظيمة التأثير، والتي امتزجت فيها

مجموعة من معارف الدين بلحن لطيف وساحر من المناجاة والدعاء، فإذا هي نعمة سماوية تدغدغ المشاعر، وتثير الشعور، وتحرك ما غفا من العقل والضمير. ولهذا أولتها الأحاديث والأخبار المروية أهمية خاصة ومكانة سامية بين غيرها من الآيات.

عن «عطاء بن رباح» قال: قلت لعائشة: أخبريني بأعجب ما رأيت من رسول الله ﷺ قالت: وأي شأن لم يكن عجباً، أنه أتاني ليلة فدخل معي في لحافي ثم قال: ذريني أتعبد لربي، فقام فتوضأ ثم قام يصلي، فبكى حتى سألت دموعه على صدره فركع فبكى، ثم سجد فبكى، ثم رفع رأسه فبكى فلم يزل كذلك حتى جاء بلال فأذنه بالصلاة، فقلت: يا رسول الله ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: أفلا أكون عبداً شكوراً، ولم لا أفعل وقد أنزل عليّ هذه الليلة: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ - إلى قوله - ﴿سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ ثم قال: «ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها»^(١) والعبرة الأخيرة التي تأمر الجميع - بتأكيد كبير - بأن يفكروا في هذه الآيات، وقد رويت في رواية عديدة بعبارات مختلفة.

وفي رواية عن أمير المؤمنين عليه السلام أن رسول الله ﷺ كان إذا قام لصلاة الليل يسوك. ثم ينظر إلى السماء ثم يقول: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ...﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾^(٢).

وورد عن الأئمة من أهل البيت عليهم السلام الأمر بقراءة هذه الآيات الخمس وقت القيام بالليل للمصلاة^(٣).

وعن نوف البكالي قال: بت ليلة عند أمير المؤمنين عليه السلام فكان يصلي الليل

١- تفسير الدر المنثور، ج ٢، ص ١١١، وتفسير أبي الفتح الرازي في ذيل هذه الآيات.

٢- تفسير نور الثقلين ومجمع البيان.

٣- المصدر السابق.

كله، ويخرج ساعة بعد ساعة فينظر إلى السماء وبتلو القرآن - ويردد هذه الآيات - فمرّ بي بعد هدوء الليل، فقال: يا نوف أراقد أنت أم راقم؟

قلت: بل راقم ببصري يا أمير المؤمنين.

قال: «يا نوف طوبى للزاهدين في الدنيا الراغبين في الآخرة، أولئك الذين اتخذوا الأرض بساطاً، وترابها فراشاً، وماءها طيباً، والقرآن دناراً، والدعاء شعاراً...»^(١).

التفسير

أوضح السبيل لمعرفة الله:

آيات القرآن الكريم ليست للقراءة والتلاوة فقط، بل نزلت لكي يفهم الناس مقاصدها ويدركوا معانيها، وما التلاوة والقراءة إلا مقدمة لتحقيق هذا الهدف، أي التفكير والتدبر والفهم، ولهذا جاء القرآن في الآية الأولى من الآيات الحاضرة يشير إلى عظمة خلق السماوات والأرض، ويقول: «إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ»^(٢).

وبهذا يحثّ الناس على التفكير في هذا الخلق البديع والعظيم، ليصيب كلّ واحد منهم - بقدر إستعداده، وقدرته على الإستيعاب - من هذا البحر العظيم الذي لا يدرك له ساحل ولا قعر، ويرتوي من منهل أسرار الخلق العذب.

حقاً أنّ هذا الكون العظيم بما فيه من نظام مستقن وبديع، ونقوش رائعة، ولوحات خلاصة كتاب بالغ العظمة، كتاب في كلّ حرف من حروفه، وكل سطر من أسطره دليل ساطع على وجود الله الخالق المبدع ووحدانيته، وتفردّه^(٣).

١ - سفينة البحار، مادة نوف، ج ٢، ص ٤٢٢.

٢ - التفسير بأولي الألباب - في هذه الآية وآيات عديدة أخرى في الكتاب العزيز - إشارة لطيفة إلى أرباب العقول لأن اللب من كلّ شيء خيره خالصه، ولا شك أنّ العقل هو خير ما في الإنسان، وهو عصارة وجوده الإنساني.

٣ - لقد بحثنا في المجلد الأوّل من هذا التفسير في معنى اختلاف الليل والنهار وأسرارهما عند تفسير الآية ١٦٤ من سورة البقرة فراجع.

إنّ هذا النقش الساحر الآسر للقلوب، المبتوث في كل ناحية من نواحي هذا الكون العريض يشدّ إلى نفسه فؤاد كلّ لبيب وعقله شدّاً - يجعله يتذكر خالقه، في جميع الحالات، قائماً أو قاعداً، وحين يكون في فراشه نائماً على جنبه، ولهذا يقول سبحانه: «الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم» أي أنهم مستغرقون كامل الإستغراق في التفكير الحيوى حول هذا الكون الرائع ونظامه البديع ومبدعه، ومبديه.

ولقد أشير - في هذه الآية - إلى الذكر أولاً، ثمّ إلى الفكر ثانياً، ويعني ذلك أن ذكر الله وحده لا يكفي، إنّ الذكر إنّما يعطي ثماره القيمة إذا كان مقترناً بالفكر، كما أنّ التفكير في خلق السماء والأرض هو الآخر لا يجدي ولا يوصل إلى النتيجة المتوخاة ما لم تقترن عملية التفكير بعملية التذكر، وبالتالي لا يقرب الفكر بالذكر. فما أكثر العلماء الذين يقفون - في تحقيقاتهم الفلكية والفضائية - على مظاهر رائعة من النظام الكوني البديع، ولكنهم حيث لا يتذكرون الله ولا ينظرون إلى كل هذه المظاهر بمنظار الموحد الفاحص، بل ينظرون إليها من الزاوية العلمية المجردة البحتة، فإنهم لا يقطفون من هذه التحقيقات ما يترتب عليها من النتائج التربوية والآثار الإنسانية، ومثلهم في ذلك مثل من يأكل طعاماً ليقوى به جسمه فلا يكون لما يأكله أي أثر في تقوية فكره وروحه.

إنّ التفكير في أسرار الخليقة، وفي نظام السماء والأرض يعطي للإنسان وعياً خاصاً ويترك في عقله آثاراً عظيمة، وأول تلك الآثار هو الإلتباه إلى هدفية الخلق وعدم العيشية فيه، فالإنسان الذي يلمس الهدفية في أصغر أشياء هذا الكون كيف يمكنه أن يصدق بأنّ الكون العظيم بأسره مخلوق من دون هدف، ومصنوع من دون غاية؟

لو أنّنا نظرنا في تركيبة نبتة معينة للاحتنا أهدافاً واضحة فيها، وهكذا نلاحظ مثل تلك الأهداف في قلب الإنسان وما فيه من حفر، وصمامات، وأبواب

وبطون، فكل شيء فيه مخلوق لغاية، ومجموع لهدف، وكذا الحال في طبقات العين، بل وحتى الأجفان، والأظافر، كل واحد منها يؤدي دوراً، ويحقق غاية، فهل يمكن أن يكون لهذه الأجزاء الصغيرة جداً بالنسبة للكون العظيم أهداف واضحة وغايات ملحوظة، ولا يكون لمجموعه المتمثل في الظاهرة الكونية الهائلة العظيمة أي هدف مطلقاً؟ «ربنا ما خلقت هذا باطلاً».

إنّ العقلاء لا يمكنهم وهم يواجهون هذه الحقيقة الساطعة إلا أن يقولوا بخشوع هذه الجملة: «ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانه» أي ربنا إنك لم تخلق هذا العالم العظيم، وهذا الكون الذي لا يعرف له حد، وهذا النظام المتقن البديع إلا على أساس الحكمة والمصلحة، ولهدف صحيح، فكل هذا آية وحدانيتك، وكل هذا ينزهك عن اللغو والعبث.

إن أصحاب العقول السليمة الواعية بعد أن يعترفوا بالهدفية في الخليفة يتذكرون أنفسهم فوراً، وكيف يعقل أن يكونوا - وهم ثمرة هذا الموجود نفسه وهذا الكون بالذات - قد خلقوا سدى، أو جاؤوا إلى هذه الحياة عبثاً، وأنه ليس هناك من هدف سوى تربيتهم وتكاملهم!!

إنهم لم يأتوا إلى هذه الحياة لأجل أن يعيشوا فيها أياماً سرعان ما تفتنى وتنقضي، فذلك أمر لا يستحق كل هذا العناء والتعب كما لا يليق بمكانة الإنسان ولا يتناسب مع حكمة الله العليا، بل هناك دار أخرى تنتظرهم حيث يجدون فيها جزاء أعمالهم، أن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وفي هذه اللحظة ينتهبون إلى مسؤولياتهم، ويسألون الله التوفيق للقيام بها حتى يتجنبوا عقابه، ولهذا يقول: «فمنا عذاب النار» ثم يقول: «ربنا إنك من تدخل النار فقد أخريته...».

ويستفاد من هذه العبارات أنّ العقلاء يخافون من الخزي قبل أن يخافوا من نار جهنم، وهذا هو حال كل من يمتلك شخصية، فإنه مستعد لأن يتحمل كل شيء من الأذى والمحن شريطة أن يحافظ على شخصيته، ولهذا فإن أشد

عقوبات الآخرة على هؤلاء هو الخزي في محضر الله وعند عباده.

على أن النقطة الجديرة بالاهتمام التي تنطوي عليها جملة «وما للظالمين من أنصار» هي أن العقلاء بعد التعرف على الأهداف التربوية المطلوبة للإنسان يقفون على هذه الحقيقة وهي أن الوسيلة الوحيدة لنجاح الإنسان ونجاته هي أعماله وممارساته، ولهذا لا يمكن أن يكون للظالمين أي أنصار. لأنهم فقدوا النصير الأصلي وهو العمل الصالح، والتركيز على لفظة «الظلم» إما لأجل خطورة هذه المعصية من بين المعاصي الأخرى، وإما لأن جميع الذنوب ترجع إلى ظلم الإنسان لنفسه.

على أنه ليست ثمة أية منافاة بين هذه الآية ومسألة الشفاعة (بمعناها الصحيح) لأن الشفاعة (كما قلنا سابقاً في بحث الشفاعة) تحتاج إلى قابلية وأهلية خاصة في المشفوع له، وهذه الأهلية والصلاحية لشمول الشفاعة تحصل في ضوء بعض الأعمال الصالحة الخيرة.

ثم إن أصحاب العقول وذوي الألباب بعد التعرف على هدف الكون والغاية من الخلق ينتبهون إلى هذه النقطة، وهي أن هذا الطريق الوعر يجب أن لا يسلكه أحد بدون قيادة الهداة الإلهيين، ولهذا فهم يترصدون نداء من يدعوهم إلى الإيمان بصدق وإخلاص ويستجيبون لأول دعوة يسمعونها منه ويسرعون إليه، ويعتقونها بعد أن يحققوا فيها، ويتأكدوا من صدقها وصحتها ويؤمنون بها بكل وجودهم، ولهذا يقولون في محضر ربهم:

«ربنا إنا سمعنا منادياً ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمننا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار».

أي ربنا الآن وقد آمننا بكل وجودنا وإرادتنا، ولكننا يحيط بنا طوفان الفرائز المختلفة من كل جانب، فربما نزلق وربما نزل ونرتكب معصية، ربنا فاغفر لنا زلتنا، واستر عثرتنا، وتوفنا مع الأبرار الصالحين.

لقد اتصل هؤلاء بالمجتمع الإنساني إتصلاً عجبياً، وتركوا الفرد والأناية إلى درجة أنهم يطلبون من الله في دعواتهم أن لا يجعلهم مع الأبرار والصالحين في حياتهم فحسب، بل يجعل مآلتهم - سواء أكان مآلاً طبيعياً أو بالشهادة في سبيل الله - كمآلات الأبرار والصالحين أيضاً، أو يحشرهم معهم، لأن الموت مع الأشرار موة مضاعفة، وعناء مضاعف.

وهنا يطرح سؤال وهو: ماذا يعني الستر على السيئات بعد طلب غفرانها؟ والجواب هو: مع ملاحظة بقية الآيات القرآنية تتضح حقيقة الإجابة على هذا السؤال، فإن الآية ٣١ من سورة النساء تقول: ﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم﴾ فيستفاد من ذلك أن السيئات تطلق على المعاصي الصغيرة، ولهذا فإن العقلاء ذوي الألباب يطلبون من الله في أدعيتهم وضراعاتهم أن يغفر لهم ذنوبهم الكبيرة، ويستر - عقب ذلك - على ذنوبهم الصغيرة، ويمحو آثارها من الوجود.

ثم أن هؤلاء العقلاء يطلبون من ربهم في نهاية المطاف، وبعد أن يسلكوا طريق الإيمان والتوحيد وإجابة دعوة الأنبياء والقيام بالواجبات الموجهة إليهم، أن يؤتيهم وعدهم على لسان الرسل فيقولون: ﴿ربنا أتنا ما وعدتنا على رسلك﴾ أي ربنا لقد وفينا بالتزاماتنا، فأتنا ما وعدتنا عن طريق أنبيائك ورسلك ولا تفضحنا ولا تلحق بنا الخزي يوم القيامة: ﴿ولا تحزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد﴾.

إن التركيز على «الخزي» يؤكد مرة أخرى هذه الحقيقة الهامة، وهي أن هؤلاء بسبب ما يرون لشخصيتهم من أهمية واحترام يعتبرون «الخزي» من أشد ما يلحق بالإنسان من الأذى، ولهذا يركزون عليه دون سواه من ألوان العقوبات. وفي مستدرك الوسائل نقلاً عن أبي الفتح الرّازي في تفسيره، أنه عليه السلام قال: من كان له إلى الله حاجة فليقل خمس مرات ربنا يعطى حاجته، ومصداق

ذلك في كلام الله في قوله تعالى: «رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا» إلى آخر الآيات فيها رَبَّنَا خمس مرّات ثمّ قال تعالى: «فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ»^(١).

ومن الواضح الذي لا يخفى أن التأثير الواقعي والعميق لهذه الآيات، إنما يتحقق إذا وافق اللسان في ما يقوله القلب والعمل، وأن يحل مضمون هذه الآيات الذي يكشف عن طريقة تفكير أولي الأبواب وشدة حبّهم لله، وإحساسهم بالمسؤوليات الملقاة على عواتقهم، والقيام بواجباتهم، في فؤاد قارئها وقلبه، فيحصل له نفس ذلك الخضوع والخشوع الحاصل لأولي الأبواب عند مناجاتهم لله، وتضرعهم إليه.



الآية

فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمَلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ
أَوْ أَنْتِي بُغْضُكُمْ مِّنْ بَعْضِ الْفَالِدِينَ هَاجِرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ
دِيَارِهِمْ وَأَوْذُوا فِي سَبِيلِي وَقَتَلُوا وَقُتِلُوا لَأَكْفِرَنَّ عَنْهُمْ
سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ
عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿٧٥﴾

سبب النزول

هذه الآية تعقيب على الآيات السابقة حول أولي الألباب والعقول النيرة
ونتيجة أعمالهم، والشروع بفاء التفریع - في هذه الآية - أوضح دليل على هذا
الإرتباط، ومع ذلك ذكرت أسباب نزول متعددة لها في الأحاديث وأقوال
المفسرين، لكنها لا تنافي - في حقيقتها - الإرتباط الذي ذكرناه لهذه الآية مع
الآيات السابقة.

ومن جملة ذلك ما نقل عن أم سلمة (وهي إحدى زوجات النبي ﷺ) أنها
قالت للنبي ﷺ: يا رسول الله ما بال الرجال يذكرون في الهجرة دون النساء؟
فأنزل الله هذه الآية.

كما نقل أيضاً أنّ علياً عليه السلام لما هاجر بالفواطم (وهن فاطمة بنت أسد، وفاطمة

بنت النبي ﷺ وفاطمة بنت الزبير) من مكة إلى المدينة، ولحقت به أم أيمن - وهي إحدى زوجات النبي المؤمنات - في أثناء الطريق نزلت الآية الحاضرة^(١). والمسألة كما قلناه، فإن الأسباب المذكورة لنزول الآية لا تنافي الارتباط الذي أشرنا إليه بين هذه الآية. والآيات السابقة، كما أنه لا تنافي أيضاً بين هذين السببين المذكورين للآية أيضاً.

التفسير

النتيجة الطيبة لموقف أولي الألباب:

في الآيات الخمس الآتية استعرض القرآن الكريم موجزاً من إيمان أولي الألباب والعقول الثيرة، وبرامجهم العملية، وطلباتهم وأدعيتهم، وفي هذه الآية يقول سبحانه: «فاستجاب لهم ربهم»، والتعبير بلفظة «ربهم» حكاية عن غاية اللطف، ومنتهى الرحمة الإلهية بالنسبة إليهم، ثم يضيف قائلاً: «إني لا أضيع عمل عامل منكم» دفعاً للإشتباه والتوهم الذي قد يسبق إلى الذهن بأنه لا ارتباط بين الفوز والنجاة، وبين أعمال الإنسان ومواقفه، ففي هذه العبارة إشارة واضحة إلى أصل «العمل»، وإشارة أيضاً إلى عامله، حتى يتبين أن الملاك والمحور الأصلي لقبول الدعاء وإستجابته هو الأعمال الصالحة الناشئة من الإيمان، وأن الأدعية التي تستجاب فوراً هي تلك التي يدعمها العمل الصالح.

ثم أنه سبحانه يقول: «من ذكر أو أنسى، بعضكم من بعض»، وهذا لأجل أن لا يتصور أحد أن هذا الوعد الإلهي يختص بطائفة معينة كالذكور دون الإناث مثلاً، فلا فرق في هذا الأمر بين أن يكون العامل ذكراً أو يكون أنثى، لأن الجميع يعودون في أصل الخلقة إلى مصدر واحد «بعضكم من بعض» أي تولد بعضكم من بعض، النساء من الرجال، والرجال من النساء، فلا تفاوت في هذه المسألة

إذن بين الذكر أو الأنثى، فلماذا يكون تفاوت في الجزاء والثواب؟

ويمكن أن تكون عبارة «بعضكم من بعض» إشارة إلى أنكم جميعاً أتباع دين واحد، ورواد منهج واحد وأنصار حقيقة واحدة، فلا معنى لأن يفرق الله سبحانه بين جماعة وأخرى ويميز بين طائفة وطائفة، وجنس وآخر.

ثم أنه سبحانه يستتج من ذلك إذ يقول: «فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلي، وقتلوا وقتلوا لأكفرن عنهم سيئاتهم»، أي أن الله سبحانه كتب على نفسه أن يغفر لهؤلاء ذنوبهم، جاعلاً من هذه المشاق والمتاعب التي نالتهم كفارة لذنوبهم، ليظفروا من أدرانها تطهيراً.

ثم يقول تعالى: «ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار» مضافاً إلى غفران ذنوبهم والتكفير عنهم.

وهذا هو الثواب الإلهي لهم على ما قاموا به من تضحية وفداء «ثواباً من عند الله والله عنده حسن الثواب»... إن لهم أفضل الأجر عند الله وأحسنه، وقوله: «والله عنده حسن الثواب» إشارة إلى أن الأجر الإلهي والمثوبات الإلهية ليست قابلة للوصف للناس بشكل كامل في هذه الحياة، بل يكفي أن يعلموا بأنه أفضل وأعلى من أي ثواب.

هذا ويستفاد - جيداً - من هذه الآية أن الإنسان لا بد أن يتطهر من أدران الذنوب في ظل العمل الصالح أولاً، ثم يدخل في رحاب القرب الرباني والنعيم الإلهي، لأنه سبحانه قال أولاً: «لأكفرن عنهم سيئاتهم» ثم قال: «لأدخلنهم جنات».

وبعبارة أخرى: أن الجنة مقام المتطهرين، ولا طريق لمن لم يتطهر إليها.

القيمة المعنوية للرجل والمرأة:

إن الآية الحاضرة - كبقية الآيات القرآنية الأخرى - تساوي بين الرجل

والمرأة عند الله، وفي مسألة الوصول إلى الدرجات المعنوية، ولا تفرق بينهما بسبب اختلافهما في الجنس، ولا تعتبر الفروق العضوية وما يلحقها من الفروق في المسؤوليات الاجتماعية دليلاً على اختلافهما في إمكانية الحصول على درجات التكامل الإنساني وبلوغهما للمقامات المعنوية الرفيعة، بل تعتبرهما في مستوى واحد - من هذه الجهة - ولذلك ذكرتهما معاً.

إن اختلافهما في التكاليف وتوزيع المسؤوليات يشبه إلى حد كبير الاختلاف الذي تقتضيه مسألة النظام والانضباط حيث يختار شخص كرئيس، وآخر كمعاون ومساعد، فإنه ينبغي أن يكون الرئيس أكثر حنكة وأوسع علماً، وأكثر تجربة في مجال عمله، ولكن هذا التفاوت والاختلاف في مراتب المسؤولية وسلم الوظائف لا يكون دليلاً مطلقاً على أن شخصية الرئيس وقيمته الوجودية أكثر من شخصية معاونيه ومساعديه، وقيمتهم الوجودية.

إن القرآن الكريم يقول بصراحة: «ومن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة، يرزقون فيها بغير حساب»^(١).
ويقول في آية أخرى: «من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون»^(٢).

هذه الآيات وغيرها من الآيات القرآنية الأخرى نزلت في عصر كان المجتمع البشري فيه يشك في إنسانية جنس المرأة أساساً، بل ويعتقد أنها كائن ملعون، وأنها منبع كل إثم وإنحراف وموت وفساد.

لقد كان الكثير من الشعوب الماضية تذهب في نظرها السلبية تجاه المرأة إلى درجة أنها تعتقد أحياناً إن عبادة المرأة وما تقدمه في سبيل الله لا تقبل، وكان الكثير من اليونانيين يعتقدون أن المرأة كائن نجس وشرير وأنها من عمل

الشَّيْطَان، وكان الرُّوم وبعض اليونانيين يعتقدون أنّ المرأة ليست ذات روح إنسانية أساساً، وأن الرجل وحده هو الذي يحمل بين جنبيه مثل هذه الروح دون غيره.

والملفت للنظر أن العلماء المسيحيين في أسبانيا كانوا يبحثون - حتى إلى الآونة الأخيرة - في أن المرأة هل تملك - مثل الرجل - روحاً إنسانية أم لا؟ وأن روحها هل تخلد بعد الموت أم لا؟

وقد توصلوا - بعد مداولات طويلة - إلى أن للمرأة روحاً برزخية، وهي نوع متوسط بين الروح الإنسانية والروح الحيوانية، وأنه ليس هناك روح خالدة - بين أرواح النساء - إلا روح مريم^(١).

من هنا يتضح مدى ابتعاد بعض المغفلين عن الحقيقة حيث يتهمون الإسلام أنه دين الرجال دون النساء.

إنّ بعض الاختلاف في نوع المسؤوليات الاجتماعية الذي يقتضيه اختلافات في التركيب العضوي والعاطفي لدى الرجل والمرأة لا يضرّ بالمرأة وقيمتها المعنوية أساساً، ولهذا لا يختلف الرجل والمرأة من هذه الجهة، فأبواب السعادة والتكامل الإنساني مفتوحة في وجهيهما كليهما على السواء كما ذكرنا ذلك عند البحث في قوله تعالى: «بعضكم من بعض».



١- راجع كتاب وستر مارك، وكتاب «حقوق المرأة في الإسلام» والكتب الباحثة في مذاهب البشر وعقائدهم.

الآيات

لَا يَغُرُّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴿٣٦﴾ مَتَّعُ قَلِيلٌ ثُمَّ
مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٣٧﴾ لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ
جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِنْدِ
اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْآبِرَارِ ﴿٣٨﴾

سبب النزول

كان أكثر مشركي مكة أهل تجارة، وقد كانوا يحصلون من هذا الطريق على ثروة ضخمة، ينتعمون بها، وهكذا كان يهود المدينة أهل تجارة، وكانوا يعودون من رحلاتهم التجارية على الأغلب موفورين، في حين كان المسلمون بسبب أوضاعهم الخاصة، لا سيما بسبب الهجرة، والحصار الذي كان مشركو مكة قد فرضوه عليهم، يعانون من وضع إقتصادي صعب جداً، وبكلمة واحدة كانوا يعيشون في عسرة شديدة.

فكانت مقارنة هاتين الحالتين تطرح على البعض السؤال التالي: كيف ينتعم أعداء الله في العيش الرخي، بينما يقاسي المؤمنون ألم الجوع والفقير المدقع؟

فنزلت الآيات الحاضرة تجيب على هذا التساؤل^(١).

التفسير

سؤال مزعج:

السؤال الذي مرّ ذكره في سبب نزول هذه الآيات والذي كان يطرحه بعض المسلمين في عصر النبي يعتبر سؤالاً عاماً يطرح نفسه على الناس في كل زمان ومكان.

فإنهم يرون كيف يتنعم العصاة والطغاة، والفراعنة والفسّاق، ويرفلون في النعيم، ويعيشون الحياة الرفاهية، والرخاء العريض، ويقيسونه - غالباً - بحياة الشدة والعسرة التي يعيشها جماعة من المؤمنين، ويقولون متسائلين: كيف ينعم أولئك العصاة - مع ما هم عليه من الإثم والفساد والجريمة - بمثل تلك الحياة الرخية، بينما يعيش هؤلاء - مع ما هم عليه من الإيمان والتقوى والصلاح - في مثل هذه الشدة والعسرة، وربما أدى هذا الأمر ببعض ضعفاء الإيمان إلى الشك والتردد.

ولو أننا درسنا هذا السؤال بصورة دقيقة وجيدة، وحللنا عوامل الأمر وأسبابه في كلا الجانبين، لظهرت أجوبة كثيرة على هذا التساؤل، وقد أشارت هذه الآيات إلى بعضها، ويمكننا الوقوف على بعضها الآخر بشيء من التأمل والفحص.

تقول الآية الأولى من هذه الآيات: ﴿لَا يَغْرَنَكْ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾ والمخاطب في هذه الآية وإن كان شخص النبي الكريم ﷺ، إلا أنه من الواضح البين أن المراد هو عموم المسلمين.

ثم تقول: ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ﴾ أي أن هذه التّجارات المادية التي يحرزها

المشركون، وهذه الثروات الهائلة التي يحصلون عليها من كل سبيل ليست سوى متاع قليل، ولذة عابرة.

﴿ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد﴾ فالملذات المادية تستعقب عواقب سيئة، فإن مسؤولية هذه الأموال والثروات ستجرهم إلى مصير مشؤوم، ذلك هو الجحيم الذي ستكون محطتهم الأخيرة ومآلهم وبئس المآل.

إن هذه الآية تشير - في الحقيقة - إلى نقطتين:

الأولى: إن أكثر مظاهر تفوق هؤلاء العصاة الطغاة الظالمين محدودة الأبعاد، كما أن متاعب أكثر المؤمنين ومشاكلهم ومحنتهم كذلك مؤقتة، ومحدودة أيضاً. وأفضل شاهد على هذا الموضوع هو ما نلاحظه في حياة المسلمين وحياة أعدائهم ومناوئهم في صدر الإسلام.

فحيث أن الحكومة الإسلامية كانت آنذاك في بداية أمرها كنبته شابة لا تمتلك كل عناصر القوة والمنعة لم تكن تملك القدرة الكاملة على الدفاع عن حوزتها وكيانها أمام هجوم أعدائها الألداء الذين كانوا يهاجمونها بشراسة ودونما رحمة، وخاصة أن هجرة المسلمين الذين كانوا جماعة قليلة في مكة جعلتهم في وضع حرج جداً إلى درجة أنهم فقدوا كل شيء في الهجرة، ولا يختص مثل هذا الوضع بهم، بل يتعرض لمثل هذه المعاناة ومثل هذا الوضع كل من يناصر ثورة تغييرية، ونهضة معنوية وروحية جذرية في مجتمع فاسد يراد تغييره بها.

ولكننا نعلم أن هذا الوضع لم يدم طويلاً، فما لبثت الحكومة الإسلامية إلا أن ترسخت جذورها وقويت دعائمها، واشتد أمرها، وقويت شوكتها، وانحدرت الأموال إلى مركز الإسلام من كل صوب وحذب، فانعكس الوضع تماماً، إذ عاد المترفون الكافرون والأعداء المتنعمون الذين كانوا يرفلون في النعيم والخير مساكين وفقدوا كل ذلك النعيم، وهذا هو ما يعنيه قوله سبحانه: ﴿متاع قليل﴾.

الثانية: إن التّجارات المادية التي يحرزها بعض العصاة والفاسقين إنّما هي لكونهم لا يتقيدون في جمع الثروة بأي قيد أو شرط، فهم يجمعون المال من كل سبيل، سواء كان مشروعاً أم غير مشروع، حراماً كان أم حلالاً، بل إنّهم يجوزون لأنفسهم اكتناز الثروة حتى على حساب الضعفاء والفقراء وامتصاص دمائهم، في حين يتقيد المؤمنون بمبادئ الحق والعدالة في هذا المجال، فلا يسوغون لأنفسهم بأن يكتسبوا المال من أي طريق كان، وأي سبيل اتفق، ولهذا لا يمكن (أو لا تصح) المقارنة والمقايسة بين هؤلاء وهؤلاء.

هؤلاء يشعرون بالمسؤولية الثّقيلة، وأولئك لا يشعرون بأية مسؤولية، ولا يعترفون بأي ضابطة، وحيث إن الحياة الحاضرة حياة الإرادة البشرية الحرّة، وعالم الاختيار الحر، كان طبيعياً أن يترك الله سبحانه كلتا الطائفتين أحراراً ليتصرفوا كيف شاؤوا، ولينتهوا في المآل إلى نتائج أعمالهم التي اكتسبوها بأيديهم، وهو ما يقصده ويعنيه سبحانه، بقوله في ختام هذه الآية: «ثمّ مأواهم جهنم وبئس المهاد».

معرفة نقاط الضعف والقوة معاً:

ثمّ أن هناك سبباً آخر لتقدم ونجاح بعض الكفار والفاسقين، وتأخر بعض المؤمنين هو أن الطائفة الأولى رغم خلوهم من عنصر الإيمان يتحلون - أحياناً - ببعض نقاط القوة التي يحققون في ظلّها ما يحققون من المكاسب، ويحرزون ما يحرزون من النجاحات، فيما تعاني الطائفة الثانية من نقاط ضعف توجب تأخرهم وانحطاطهم.

فنحن نعرف أشخاصاً - رغم انقطاعهم عن الله - يتسمون بالجدية الكبيرة في أعمالهم، ويتحلون بالإستقامة والعزم، والتنسيق والتعاون فيما بينهم، والمعرفة بقضايا العصر ومتطلباته، ومقتضياته ومستجداته، ومن الطبيعي أن يحقق هؤلاء

مكاسب كبيرة ويحرزوا إنتصارات ونجاحات في حياتهم المادية، وما هم في هذا الأمر - في الحقيقة - إلا مطبقون لتعاليم الدين وبرامجه من دون إسنادها إلى الدين وإعطائها صفته وصبغته.

وفي المقابل، هناك أشخاص متدينون أوفياء للعقائد الدينية، لكنهم بسبب غفلتهم عن تعاليم الدين الحيوية يعانون من الجبن والإحجام، ويفتقرون إلى الشهامة والإستقامة ويفقدون عنصر الثبات والإستمرار والإتحاد والتعاون، وطبيعي أن يصاب هذا الصنف من الناس بإخفاقات متلاحقة وهزائم متتابة، ولكن هذه الهزائم والإخفاقات ليست أبداً بسبب إيمانهم بالله، بل هي بسبب ما بهم من نقاط الضعف، وما بأنفسهم من عوامل الهزيمة، وموجبات السقوط والإخفاق.

إنهم يتصورون (وبالأحرى يظنون) بأنهم سيتنصرون بمجرد الصلاة والصوم في جميع المجالات، وينجحون في جميع المواقف، في حين جاء الدين بسلسلة من البرامج والمناهج العملية الحيوية للتقدم والنجاح في الحياة، يستلزم تجاهلها الفشل والسقوط والهزيمة.

إن لكل شيء سبباً، ولكل نجاح مفتاحه الخاص، ووسيلته الخاصة، وقد أتى الدين بكل ذلك، وبيّنه في تعاليمه وتوصياته، فلا يمكن أن يتحقق نجاح بغيره هذه التعاليم وبغير هذه الوسائل.

وخلاصة القول: إنه لدى كل طائفة من هاتين الطائفتين نقاط ضعف، ونقاط قوة، ولكل واحدة منها آثارها ونتائجها الطبيعية، غاية ما في الأمر أنه قد تلتبس هذه الآثار وتتشبه على المرء عند التقييم والمحاسبة.

مثلاً: هناك كافر يتمتع لسعيه وجهاده واستمراره في أعماله بالحياة ويحقق في هذا المجال النجاح تلو النجاح، ولكنه إذ يفقد عنصر الإيمان بالله فإنه يفترق إلى نعمة الظمأنينة النفسية وفضيلة المشاعر الطاهرة، والأهداف الإنسانية العالية.

يبقى أن نعرف أن ما ذكرناه من العوامل الثلاث لتقدم الكفار ونجاحهم، وتأخر بعض المؤمنين وفشلهم، لا تصدق في مكان واحد، بل لكل واحد منها مورده ومجاله الخاص.

ثم إن الله سبحانه بعد أن بين مصير الكفار في الآية السابقة، بين هنا - في الآية التي تلت تلك الآية - مصير المؤمنين، إذ قال: ﴿لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها﴾ أي إن الذين اتبعوا موازين الحق والعدل في الوصول إلى المكاسب المادية، أو أنهم بسبب إيمانهم تعرضوا للحصار الاقتصادي والاجتماعي ولكنهم مع ذلك بقوا ملتزمين بالتقوى، فإنه تعالى سيعوضهم عن كل ذلك بجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ﴿نزلاً من عند الله وما عند الله خير للأبرار﴾.

و«النزل» في اللغة هو ما يعد للضيف من الكرامة والبر، وقال البعض: أنه أول ما يقدم إلى الضيف النازل من شراب أو فاكهة.

وعلى هذا يكون معنى الآية أن الجنات المذكورة مع كل ما فيها من المواهب المادية هي أول ما يقدم يوم القيامة إلى المؤمنين المتقين، وأما الضيافة المهمة والعليا فهي النعم والمواهب المعنوية التي عبر عنها سبحانه بقوله: ﴿وما عند الله خير للأبرار﴾.



الآية

وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا
أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا
أُولَئِكَ هُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٦٦﴾

سبب النزول

هذه الآية - حسب ما يذهب إليه أكثر المفسرين - نزلت في مؤمني أهل الكتاب الذين تركوا العصبية العمياء، والتحقوا بصوف المسلمين، وكانوا يشكلون عدداً معتداً به من النصارى واليهود.

ولكنها حسب اعتقاد بعض المفسرين أنها نزلت في النجاشي ملك الحبشة العادل، وإن كان مفهومها أوسع من ذلك المورد.

ففي السنة التاسعة للهجرة وفي شهر رجب بالذات توفي النجاشي، فبلغ خبر وفاته إلى النبي ﷺ بإلهام إلهي في اليوم الذي مات فيه وقال: «اخرجوا فصلوا على أخ لكم مات بغير أرضكم»، قالوا: ومن؟ قال: النجاشي، فخرج النبي ﷺ إلى البقيع وكشف له من المدينة إلى أرض الحبشة فأبصر سرير النجاشي. وصلى عليه، فقال بعض المنافقين: انظروا إلى هذا يصلي على عليج نصراني حبشي لم يره قطً وليس على دينه، فأنزل الله هذه الآية رداً على

مقاتلهم^(١).

هذا ويستفاد من هذه الرواية أن النجاشي إعتنق الاسلام بالكامل وإن لم يظهر ذلك.

التفسير

أهل الكتاب ليسوا سواء:

قلنا - في ما سبق - ان القرآن الكريم إذا تطرق إلى أمور حول إتباع الشرائع الأخرى لم ينظر إلى الجميع نظرة سواء، ولم يحسب لهم حساباً واحداً، ولم تتسم أبحاثه حولهم بصفة قومية أو حزبية علائقية، بل ينطلق في أحكامه من أسس إعتقادية ومبدئية، ولهذا ينتقد أعمالهم، وممارساتهم ولا يتناول بسوء قومياتهم أو أجناسهم، ولهذا لا ينسى فضل تلك القلة المؤمنة الصالحة منهم والتي تميزت عن الأكثرية الساحقة بصلاحها وحسن عملها، ولا يتجاهل قيمتها ومكانتها.

والمقام الذي نحن فيه هو أحد تلك الموارد التي جاء فيها الكلام عن هذه القلة المؤمنة الصالحة التي استجابت لدعوة الرسول ﷺ وخضعت للحق. فالآية الحاضرة بعد أن وبّخت كثيراً من أهل الكتاب على كتمانهم لآيات الله، وطغيانهم وتمردهم في الآيات السابقة ذكرت هذه القلة المؤمنة، وبينت خمساً من صفاتها الممتازة هي:

١- ﴿يؤمن بالله﴾ (أي أنهم يؤمنون بالله عن طواعية وصدق).

٢- ﴿وما أنزل إليكم﴾ (أي يؤمنون بالقرآن).

٣- ﴿وما أنزل إليهم﴾ أي إيمانهم بنبي الإسلام نابع في الحقيقة من إيمانهم بكتبهم السماوية الواقعية التي بشرت بهذا النبي ودعت إلى الإيمان به إذا ظهر، فهم في الحقيقة يؤمنون بكتبهم.

٤- «خاشعين لله» أي أنهم مسلمون لأمر الله وخاضعون لإرادته، وهذا التسليم والخضوع هو السبب الحقيقي لإيمانهم، وهو الذي فرّق بينهم وبين العصبيات الحمقاء، وحرّزهم من التعنت والإستكبار تجاه منطق الحق.

٥- «لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً» أي أنهم ليسوا مثل بعض أحبار اليهود الذين يحرفون آيات الله حفاظاً على مراكزهم وإبقاءً أعلى حاكميتهم على أقوامهم وجماعاتهم، وصولاً إلى بعض المكاسب المادية.

والإشارة إلى «التمنّ القليل» في الآية للتلويح بما كان عليه أولئك الأخبار المحرفون للكلم من تفاهة الهمة، وضعف الطموح، وقصر النظر، وحقارة النفس. هذا مضافاً إلى أن كل أجر دون الأجر الإلهي حقير، وكل مكسب يحصل عليه الإنسان عوضاً عن آيات الله فهو مكسب تافه ورخيص.

وسيكون لهذه الطائفة من أهل الكتاب بسبب هذه الصفات الإنسانية العالية هذا الموقف الواضح الحي، أجرهم عند ربهم «أولئك لهم أجرهم عند ربهم». والتعبير هنا بلفظة «ربهم» إشارة إلى غاية لطفه سبحانه ومنتهى رحمته بهم، كما أنه إشارة أيضاً إلى أن الله هو الذي يهديهم في هذه المسيرة الخيرة، وهو يتكفل بمساعدتهم، ويعينهم في هذا الطريق.

«إن الله سريع الحساب» فلا يتأخر عن إعطاء الصالحين المؤمنين أجرهم، كما لا يبطل عن مجازاة المنحرفين والظالمين.

وهذه العبارة بشارة إلى الصالحين المؤمنين، كما هي أيضاً تحذير وتهديد للعصاة والمذنبين^(١).



الآية

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ
لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٥٥﴾

التفسير

هذه الآية هي آخر الآيات من سورة آل عمران، وتحتوي على برنامج يتكون من أربع نقاط لعامة المسلمين، وهي لذلك تبدأ بتوجيه الخطاب إلى المؤمنين إذ تقول: «يا أيها الذين آمنوا».

١ - «اصبروا»: إن أول مادة في هذا البرنامج الذي يكفل عزّة المسلمين وانتصارهم هو الإستقامة والثبات، والصبر في وجه الحوادث الذي هو - في الحقيقة - أصل كل نجاح مادي، وعلة كل انتصار معنوي، وهو الأمر الذي يستحق حديثاً مفصلاً لما له من أثر جدّ مهم في الإنتصارات والنجاحات الفردية والاجتماعية، وهو الذي قال عنه الإمام علي عليه السلام في حكمه وكلماته القصار: «إن الصبر من الإيمان كالرأس من الجسد».

٢ - «وصابروا» وهي من المصابرة (من باب المفاعلة) بمعنى الصبر والإستقامة والثبات في مقابل صبر الآخرين وثباتهم واستقامتهم. وعلى هذا فإن القرآن يوصي المؤمنين أولاً بالصبر والإستقامة (التي تشمل

كل ألوان الجهاد، كجهاد النفس، والاستقامة في مواجهة مشاكل الحياة)، ثم يوصي ثانياً بالصبر والثبات والاستقامة أمام الأعداء، وهذا بنفسه يفيد أن الأمة ما لم تغلب وتنتصر في جهادها مع النفس، وفي إصلاح ما بها من نقاط الضعف الداخلية يستحيل انتصارها على الأعداء، وهذا يعني أن أكثر هزائمها أمام أعدائها إنما هي بسبب ما لحق بها من هزائم في جبهة الجهاد مع النفس وما أصابها من إخفاقات في إصلاح نقاط الضعف التي تعاني منها.

كما وأنه يستفاد من هذا التعليم «صابروا» أن على المسلمين أن يضاعفوا من صبرهم ومن ثباتهم كلما ضاعف العدو من صبره وثباته ومقاومته وعناده.

٣- «ورابطوا» وهذه العبارة مشتقة من مادة «الرباط» وتعني ربط شيء في مكان (كربط الخيل في مكان)، ولهذا يقال لمنزل المسافرين «الرباط»، ويقال أيضاً ربط على قلبه بمعنى أنه أعطاه السكينة، ومأله بالطمأنينة وكان قلبه انشد إلى مكان، وارتكز على ركن وثيق، و«المرابطة» بمعنى مراقبة الثغور وحراستها لأن فيها يربط الجنود أفراسهم.

وهذه العبارة أمر صريح إلى المسلمين بأن يكونوا على استعداد دائم لمواجهة الأعداء، وأن يكونوا في حالة تحفز وتيقظ ومراقبة مستمرة لثغور البلاد الإسلامية وحدودها حتى لا يفاجأوا بهجمات العدو المباغتة، كما أنه حث على التأهب الكامل لمواجهة الشيطان، والأهواء الجامحة حتى لا تباغتهم وتأخذهم على حين غرة وغفلة، ولهذا جاء في بعض الأحاديث عن الإمام علي عليه السلام تفسير المرابطة بانتظار الصلاة بعد الصلاة، لأن من حافظ على يقظة روحه وضميره بهذه العبادات المستمرة المتلاحقة، كان كالجندي المتأهب لمواجهة الأعداء على الدوام.

وخلاصة القول: إن للمرابطة معنىً وسياً يشمل كل ألوان الدفاع عن النفس والمجتمع.

ثم إنَّ هناك في الفقه الإسلامي باباً خاصاً - في كتاب الجهاد - تحت عنوان «المرابطة» بمعنى الاستعداد والتأهب الكامل في الثغور لحراستها وحمايتها وحفظها أمام حملات الأعداء الإحتمالية، وقد ذكرت لها أحكام خاصة يقف عليها كل من راجع الكتب الفقهية.

هذا وقد أطلق على العلماء - كما في بعض الأحاديث - صفة المرابط، فعن الإمام الصادق عليه السلام:

«علماء شيعتنا مرابطون في الثغر الذي يلي إبليس وعفاريته، ويسمعونهم عن الخروج على ضعفاء شيعتنا وعن أن يتسلط عليهم إبليس...»^(١)

وتعتبر نهاية هذا الحديث العلماء أعلى مكانة من الجنود والقادة الذين يحرسون الثغور ويذوبون عنها أعداء الإسلام. وما ذلك إلا أن العلماء حماة الدين وحرّاسه والأمناء المدافعون عن القيم الإسلامية، والجنود حماة الثغور الجغرافية، ومن الثابت المسلم به أن الثغور الفكرية والثقافية لأمة من الأمم لو تعرضت لكيد الأعداء، ولم تستطع الذّب عنها بنجاح، فإنها سرعان ما تصيبها الهزائم العسكرية والسياسية أيضاً.

٤ - «وأتقوا الله» وهذا بالتالي آخر التعاليم والأوامر في هذا البرنامج، وهو بمثابة المظلة الواقية لما سبقها من التعاليم أنه حثّ على التقوى، ولا بدّ للإستقامة والمصابرة والمرابطة من أن تمتزج بعنصر التقوى، ولا يشوبها شيء من أنانية أو رياء أو أغراض شخصية.

«لعلكم تفلحون» وهكذا تختم الآية هذا البرنامج بذكر النتيجة التي تنتظر كلّ من يطبق هذا البرنامج، إنه الفلاح والنجاح الذي يمكنكم الوصول إليه عبر الأخذ بهذه التعاليم والأوامر، وإلا فلن تحصلوا على شيء من النجاح والإنتصار.

سؤال:

هناك سؤال يطرح نفسه وهو: لماذا تبدأ بعض العبارات والجمل القرآنية بلفظة «لعل» مثل قوله تعالى ﴿لعلكم تفلحون﴾، و﴿لعلكم تستقون﴾، و﴿لعلكم ترحمون﴾ وهي كما نعلم تفيد التردّي والذلي لا يليق بالله سبحانه العالم بكل شيء. وقد صارت هذه المسألة ذريعة بأيدي بعض أعداء الإسلام الذين انطلقوا يقولون: إن الإسلام لا يعطي وعوداً قطعية بالثواب، فوعوده مرددة غير مجزوم بها، لأنها تبدأ - في أغلبها - بـ «لعل».

الجواب:

من حسن الاتفاق أن هذا النمط من التعبير يشكّل جانباً من عظمة هذا الكتاب العزيز، وواقعيته في النظرة إلى الأمور وفي بيانها، ذلك لأن القرآن استخدم هذه اللفظة في كل مقام يتوقف الاستنتاج فيه على شرائط ومقدمات قد أشار إليها ولوح بها إجمالاً بلفظة «لعل».

فالسكوت عند الاستماع إلى القرآن والانتباه والتوجه إلى ألفاظ الآيات القرآنية مثلاً لا يكفي - بمجرده - لإحراز الرحمة الإلهية، بل لابد من فهم الآيات ودرك معانيها، ومقاصدها، وتطبيق توصياتها، وتعاليمها وأوامرها ونواهيها، ولهذا يعلق سبحانه شمول الرحمة بقوله: ﴿وإذا قرأ القرآن فاستمعوا له وانصتوا لعلكم ترحمون﴾^(١).

وعلى هذا الأساس لو كان القرآن يقول أنكم سترحمون حتماً كان بعيداً عن الواقعية، لأنّ لتتحقق هذا الموضوع كما قلنا شرائط أخرى أيضاً، فيكون التعبير الجازم تجاهلاً لهذه الشرائط، ولكنّه إذا قال «لعلكم» فإنّه يكون قد أخذ تلك الشرائط بنظر الاعتبار وحسب لها حسابها.

بيد أن عدم الالتفات إلى هذه الحقيقة جرّ البعض إلى الاعتراض على مثل هذا التعبير في الآيات القرآنية إلى درجة أن بعض علمائنا - أيضاً - ذهب إلى

القول بأن «لعل» ليست مستعملة في مثل هذه الموارد في معناها الحقيقي، وهذا كما ترى خلاف للظاهر دونما دليل.

وفي المقام نجد الآية الحاضرة مع أنها أشارت إلى أربع نقاط من أهم التعاليم الإسلامية، ولكن حتى لا يغفل المسلمون عن بقية البرامج والتعاليم الإسلامية البناء استخدمت كلمة «لعل» للإيدان بأن هناك أيضاً من الظروف والشرائط ما له دخل في تحقق هذه الرحمة ينبغي أن تؤخذ بعين الإعتبار. وعلى كل حال لو أن المسلمين اليوم جعلوا الآية الحاضرة شعارهم ومنهجهم في حياتهم اليومية وطبقوا مفادها لإنحل الكثير من مشاكلهم التي يعانون منها الآن بشدة.

إن الضربات الموجعة التي يتلقاها الإسلام والمسلمون اليوم ليست - في الحقيقة - إلا بسبب تجاهل هذه التوصيات الإسلامية الأربع أو تناسيها كلها أو بعضها.

ولو أن المسلمين أعادوا إلى نفوسهم روح الشبات والإستقامة، ولو أنهم ضاعفوا جهودهم في مقابل مضاعفة الأعداء لجهودهم، ولو أنهم - حسب ما في هذه الآية - شددوا من مراقبتهم للثغور الجغرافية والفكرية والإعتقادية وحافظوا على حالة الاستعداد والتأهب الدائمة لمواجهة أي خطر داهم، أو أي عدو مباغت، ولو أنهم - فوق كل هذا - تسلحوا بسلاح التقوى والورع، أفراداً وجماعات، وطهروا بيئاتهم من أدران الفساد لضمانوا النصر والظفر.

رباه، وفقنا جميعاً للأخذ بتعاليم كتابك السماوي العزيز في حياتنا، وجد علينا برحمتك الواسعة، ومنّ علينا بلطفك، آمين يا أرحم الراحمين ويا رب العالمين.

سُورَةٌ النِّسَاءِ

مَدَنِيَّةٌ

وَعَدَدُ آيَاتِهَا

مِائَةٌ وَسِتٌّ وَسَبْعُونَ آيَةً

سورة النساء

قبل الخوض في تفسير آيات هذه السورة يلزم أن نذكر للمقارئ الكريم بعدة نقاط هي:

١- موضع نزول هذه السورة

كل آيات هذه السورة (باستثناء الآية ٥٨ حسب نقل بعض المفسرين) نزلت في المدينة المنورة، وتقع من حيث ترتيب النزول بعد سورة الممتحنة، لأنَّ الترتيب الفعلي للسور القرآنية - كما نعلم - لا يطابق ترتيبها في النزول، بمعنى أن كثيراً من السور التي نزلت في مكة تقع في الترتيب الحاضر في آخر القرآن الكريم، وكثيراً من السور التي نزلت في المدينة تقع في أوائل القرآن. على أننا قد نوهنا في بداية المجلد الأول من هذه المجموعة التفسيرية، بأن ثمة دلائل تؤكد أن جمع السور القرآنية على الشكل الفعلي قد تمَّ في زمن النبي ﷺ نفسه، وعلى هذا الأساس يكون النبي الكريم ﷺ قد أمر بأن ترتب السور على النحو الموجود الآن (بأن يكون أولها الحمد وآخرها الناس) لأسباب مختلفة منها أهمية المواضيع التي تضمنتها السور، والترتيب الطبيعي لهذه السور بدون أن يكون قد تغيَّر من هذا الترتيب أو زيد أو نقص في الحروف والآيات والسور.

إنَّ هذه السورة تعتبر من حيث عدد الكلمات والأحرف - أطول السور بعد

سورة البقرة، وتحتوي على (١٧٦) آية، وتسمى بسورة النساء نظراً لتشتمها أبحاثاً كثيرة وحديثاً مفصلاً حول أحكام «المرأة» وحقوقها.

٢- محتويات هذه السورة:

هذه السورة - كما قلنا - نزلت في المدينة، بمعنى أن النبي الأكرم ﷺ عندما كان مقبلاً على تأسيس حكومة إسلامية وتكوين مجتمع إنساني قويم، نزلت هذه السورة وهي تحمل جملة من القوانين التي لها أثر كبير في إصلاح المجتمع، وإيجاد البيئة الإجتماعية الصالحة النقية.

ومن ناحية أذخرى فإن أكثر أفراد هذا المجتمع الجديد كانوا قبل ذلك من الوثنيين بما فيهم من لوثات الجاهلية وانحرافات ورواسبها، لذلك يتعين قبل أي شيء تطهير عقولهم، وتزكية أرواحهم ونفوسهم من تلك الرّواسب، وإحلال القوانين والبرامج اللازمة لإعادة بناء المجتمع محل تلك العادات والتقاليد الجاهلية الفاسدة.

وعلى العموم فإن المواضيع المختلفة التي تحدثت عنها هذه السورة هي عبارة عن:

١ - الدّعوة إلى الإيمان والعدالة، وقطع العلاقات الودّية بالأعداء الألداء، والخصوم المعاندين.

٢ - ذكر بعض قصص الأمم الماضية لأجل التعرف على عواقب المجتمعات غير الصالحة.

٣ - العناية بالمحتاجين إلى الحماية مثل الأيتام، وبيان التعاليم اللازمة لصيانة حقوقهم.

٤ - قانون الإرث والتوارث بنحو طبيعي وعادل في قبال الكيفية القبيحة التي كان عليها وضع التورث في ذلك الزمان، حيث كان يحرم الضعفاء بحجج واهية، وأعدار غير وجهية.

- ٥- القوانين المتعلقة بالزواج والبرامج التي تصون العفاف العام.
- ٦- القوانين العامة لحفظ الأموال العامة.
- ٧- حفظ وتحسين حالة الوحدة الأساسية للمجتمع، أي العائلة.
- ٨- الحقوق والواجبات الفردية المتقابلة في المجتمع.
- ٩- التعريف بأعداء المجتمع الإسلامي وتحذير المسلمين منهم.
- ١٠- الحكومة الإسلامية ووجوب طاعة قائد هذه الحكومة.
- ١١- حثّ المسلمين على مجابهة الأعداء وجهادهم.
- ١٢- الكشف عن الأعداء والخصوم الذين قد يتوسلون بالعمل السري.
- ١٣- أهمية الهجرة ووجوبها عند مواجهة مجتمع فاسد غير قابل للتأثير فيه وتغييره.
- ١٤- البحث مجدداً عن الإرث ونظام التوريث، وضرورة تقسيم الثروات المكدسة بين الوارثين.

٣- فضل تلاوة هذه السورة

عن النبي الأكرم ﷺ كما في رواية أنه قال: «من قرأها (أي سورة النساء) فكأنما تصدق على كل مؤمن ورث ميراثاً، وأُعطي من الأجر كمن اشترى محرراً»^(١).
ومن البين أن المقصود في هذه الرواية وأمثالها ليس هو القراءة المجردة، بل تلك القراءة التي تكون مقدمة للفهم والإدراك الذي هو بدوره مقدمة لتطبيق تعاليم هذه السورة في الحياة الفردية والاجتماعية.
ومن المسلم أن المسلمين لو استلهموا من مفاهيم هذه السورة في حياتهم لنالوا كل هذا الأجر مضافاً إلى النتائج الدنيوية.

* * *

الآية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَتَأْتِيهَا النَّاسُ آتَقُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ
وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ
الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾

التفسير

مكافحة التمييزات والإستثناءات:

«يا أيها الناس» الخطاب في الآية الأولى من هذه السورة موجه إلى كافة أفراد البشر، لأن محتويات هذه السورة - هي في الحقيقة - نفس الأمور التي يحتاج إليها كل أفراد البشر في حياتهم.

ثم إن الآية تدعو إلى التقوى باعتبارها أساساً لأي برنامج إصلاحي للمجتمع، فإداء الحقوق والتقسيم العادل للثروة، وحماية الأيتام، ورعاية الحقوق العائلية، وما شابه ذلك كلها من الأمور التي لا تتحقق بدون التقوى، ولهذا تفتتح هذه السورة - التي تحتوي على جميع هذه الأمور - بالدعوة إلى التزام التقوى: «اتقوا ربكم».

وللتعريف بالله الذي يراقب كل أعمال الإنسان وتصرفاته أشير في الآية إلى واحدة من صفاته التي تعتبر أساساً للوحدة الإجتماعية في عالم البشر: «الذي

خلقكم من نفس واحدة».

وعلى هذا الأساس لا مبرر للتمييز العنصري، واللغوي، والمحلي، والعشائري وما شابه ذلك مما يسبب في عالماً الرّاهن آلاًفاً من المشاكل في المجتمعات. ولا مجال لهذه الأمور وما يترتب عليها من الأمجاد الكاذبة والتفوق الموهوم في المجتمع الإسلامي، لأنّ كافة البشر على اختلاف ألوانهم، ولغاتهم، وأقطارهم يرجعون إلى أب واحد وأمّ واحدة.

وتتضح أهمية مكافحة هذا الأمر - أكثر فأكثر - إذا لاحظنا أنّ ذلك قد تمّ في زمن كان يعاني بقايا ورواسب نظام قبلي وعشائري ظالم، ونعني عصر النبي ﷺ.

هذا وقد ورد نظير هذا التعبير في موارد أخرى من القرآن الكريم أيضاً، وسنشير إلى كل ذلك في موضعه.

والآن يجب أن نرى من هو المقصود من «نفس واحدة»؟

هل المراد من «نفس واحدة» هو شخص معين، أو أنه واحد نوعي (أي جنس المذكر)؟

لا شك أنّ ظاهر هذا التعبير هو الشخص المعين، والواحد الشخصي، وهو إشارة إلى أول إنسان قد سمّاه القرآن الكريم بـ «آدم» ويعتبره أبا البشر. كما وقد عبر عن البشر ببني آدم في آيات كثيرة من القرآن الكريم. فاحتمال أن يكون المراد من نفس واحدة هو الواحد النوعي بعيد عن ظاهر الآية جدّاً.

ثمّ أنّ قوله تعالى: «وخلق منها زوجها» قد فهم منها بعض المفسرين أن «حواء» قد خلقت من جسم آدم واستشهدوا لذلك بروايات وأحاديث غير معتبرة تقول: إنّ حواء خلقت من أضلاع آدم (وهو أمر قد صرح به في سفر التكوين من التوراة أيضاً).

لكن مع ملاحظة سائر الآيات القرآنية يرتفع كل إبهام حول تفسير هذه الآية، ويتضح أن المراد منها هو أن الله سبحانه خلق زوجة آدم من جنسه (أي جنس البشر) ففي الآية (٢١) من سورة الروم نقراً «ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها» كما نقراً: في الآية (٧٢) من سورة النحل «والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً».

ومن الواضح أن معنى قوله تعالى: «خلق لكم من أنفسكم أزواجاً» هو أنه خلقهم من جنسكم لا أنه خلقهم من أعضاء جسمكم.

ووفقاً لرواية منقولة عن الإمام محمد الباقر عليه السلام كما في تفسير العياشي - أنه كذب بشدة فكرة خلق حواء من ضلع آدم، وصرح عليه السلام - بأنه خلقت من فضل الطينة التي خلق منها آدم.

كيف كان زواج أبناء آدم؟:

قال سبحانه: «ويثّ منها رجالاً كثيراً ونساءً» هذه العبارة يستفاد منها أن انتشار نسل آدم، وتكاثره قد تمّ عن طريق آدم وحواء فقط، أي بدون أن يكون الموجود ثالث أي دخالة في ذلك.

وبعبارة أخرى أن النسل البشري الموجود إنما ينتهي إلى آدم وزوجته من غير أن يشاركهما في ذلك غيرهما من ذكر أو أنثى.

وهذا يستلزم أن يكون أبناء آدم (أخوة وأخوات) قد تزوجوا فيما بينهم، لأنه إذا تمّ تكثير النسل البشري عن طريق تزويجهم بغيرهم لم يصدق ولم يصح قوله: «منها».

وقد ورد هذا الموضوع في أحاديث متعددة أيضاً، ولا داعي للتعجب والإستغراب إذ طبقاً للإستدلال الذي جاء في طائفة من الأحاديث المنقولة عن أهل البيت عليهم السلام إن هذا النوع من الزواج كان مباحاً حيث لم يرد بعد حكم بحرمة

«تزوج الأخ بأخته».

ومن البديهي أن حرمة شيء تتوقف على تحريم الله سبحانه له، فما الذي يمنع من أن توجب الضرورات الملحة والمصالح المعينة أن يبيح شيئاً في زمان، ويحرمه بعد ذلك في زمن آخر.

غير أنه قد صرح في أحاديث أخرى بأن أبناء آدم لم يتزوجوا بأخواتهم، وتحمل بشدة على من يرى هذا الرأي ويذهب هذا المذهب.

ولو كان علينا عند تعارض الأحاديث أن نرجح ما وافق منها ظاهر القرآن لوجب أن نختار الطائفة الأولى، لأنها توافق ظاهر الآية الحاضرة كما عرفت قبل هذا.

ثم أنّ هاهنا احتمالاً آخر يقول: إن أبناء آدم تزوجوا بمن تبقى من البشر الذين سبقوا آدم ونسله، لأن آدم - حسب بعض الروايات - لم يكن أول إنسان سكن الأرض.

وقد كشفت الدراسات والتحقيقات العلمية اليوم أن النوع الإنساني كان يعيش في الأرض منذ عهد ضارب في القدم، في حين لم يمر على تاريخ ظهور «آدم» في الأرض زمن طويل، فلا بد إذن من القبول النظرية التي تقول: بأنه كان يعيش في الأرض قبل آدم بشر آخرون قارن غياب آخر بقاياهم ظهور آدمنا، فما المانع من أن يكون «أبناء آدم» قد تزوجوا بقايا النوع البشري السابق الذي كان في أواخر إنقراضه؟

ولكن هذا الاحتمال هو أيضاً لا يتوافق وظاهر الآية الحاضرة (وهذا البحث يحتاج إلى توسع أكثر لا يسعه هذا المجال).

الدعوة إلى العناية بالرحم:

بعد ذكر ما بين أبناء النوع الإنساني من وشيجة القربى قال سبحانه: «واتقوا

الله الذي تساءلون^(١) به والأرحام».

إن أهمية التقوى، ودورها في بناء قاعدة المجتمع الصالح سببت في أن تذكر مجدداً في نهاية الآية الحاضرة، وأن يدعو سبحانه الناس إلى التزام التقوى، غاية الأمر أنه تعالى أضاف إليها جملة أخرى إذ قال: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ﴾ أي اتقوا الله الذي هو عندكم عظيم، وتذكرون اسمه عندما تطلبون حقوقكم وحوادثكم فيما بينكم.

ثم أنه يقول: «والأرحام» وهو عطف على «الله»، ولهذا كانت القراءة المعروفة هي نصب «والأرحام» فيكون معناها: واتقوا الأرحام، ولا تقطعوا صلاتكم بهم.

إن ذكر هذا الموضوع هنا يدل أولاً على الأهمية الفائقة التي يعطيها القرآن الكريم لمسألة الرحم وشيخة القربى إلى درجة أنه يذكر اسم الأرحام بعد ذكر اسم الله سبحانه، وهو إشارة - ثانياً - إلى الأمر الذي ذكر في مطلع الآية، وهو أنكم جميعاً من أب واحد وأم واحدة، وهذا يعني - في الحقيقة - أن جميع أبناء آدم أقرباء وأرحام، وهذا الإرتباط والترابط يستوجب أن يتحاب الجميع ويتوادوا دون تفریق أو تمييز بين عنصر وآخر، وقبيلة وأخرى، تماماً كما يتحاب أفراد القبيلة الواحدة.

ثم يختم الآية بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾.

والرقيب أصله من الترقب، وهو الإنتظار من مكان مرتفع، ثم استعمل بمعنى الحافظ والحارس، لأن الحراسة من لوازم الترقب والنظارة.

وإرتفاع مكان الرقيب قد يكون من الناحية الظاهرية بكون الرقيب يرقب على مكان مرتفع، ويمارس النظارة من ذلك الموقع، وقد يكون من الناحية

١ - تساءلون: من مادة تسائل. وتساءل بالله من قولهم أسألك بالله أن تفعل كذا. وهذا يدل على تعظيم الناس لله تعالى.

المعنوية.

يقول سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ أي أنه يحصي عليكم نياتكم وأعمالكم، ويعلم بها ويراها جميعاً، كما أنه هو الذي يحفظكم أمام الحوادث (والتعبير بـ«كان» المفيد للماضي، إنما هو للتأكيد).

* * *

الآية

وَأَتُوا الَّتِي سَمَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا
تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٥١﴾

سبب النزول

روي أن رجلاً من بني غطفان كان معه مالا كثيرا لابن أخ له يتيم، فلما بلغ
اليتيم طلب ماله فمنعه عنه، فخاصمه إلى النبي ﷺ فنزلت: «وَأَتُوا الَّتِي
سَمَىٰ أَمْوَالَهُمْ...» فلما سمع الغطفاني ذلك ارتدع وقال: أعوذ بالله من الحوب الكبير^(١).

التفسير

لا ... للخيانة في أموال اليتامى:

كثيراً ما يحدث في المجتمعات البشرية أن يفقد أطفال صغار آباءهم بسبب
الحوادث والنكبات والكوارث، فتلك حالة كثيراً ما تقع، فإن المجتمعات
المریضة التي تعاني من صراعات وحروب ونزاعات داخلية مستمرة مثل
المجتمع الجاهلي العربي يقع فيها هذا الأمر بنسبة أكبر، ولذلك يكثر فيها عدد
اليتامى، وهو ما يجب أن تهتم به الحكومة الإسلامية، بل ويهتم به كل المسلمين،

فيتكفلوا أمر اليتامى وشؤونهم.

وفي هذه الآية ثلاثة تعاليم بشأن أموال اليتامى.

١- «وآتوا اليتامى أموالهم» أي يجب أن تعطوا اليتامى عند رشدهم أموالهم المودعة عندهم، ويكون تصرفكم في هذه الأموال على نحو تصرف الأمين والناظر والوكيل لا على نحو تصرف المالك.

٢- «ولا تبدلوا الخبيث بالطيب» أي لا تأخذوا أموالهم الطيبة وثوراتهم الجيدة وتضعوا بدلها من أموالكم الخبيثة والمغشوشة وهذا التعليم - في الحقيقة - يهدف إلى المنع مما قد يرتكبه بعض القيمين على أموال اليتامى من أخذ الجيد من مال اليتيم والرفيع منه وجعل الخسيس والردىء مكانه، بحجة أن هذا التبديل يضمن مصلحة اليتيم، أو لأنه لا تفاوت بين ماله والبيدلي، أو لأن بقاء مال اليتيم يؤول إلى التلف والضياع وغير ذلك من الحجج والمعاذير.

٣- «ولا تأكلوا أموالكم إلى أموالكم» يعني لا تخلطوا أموال اليتامى مع أموالكم بحيث تكون نتيجتها تملك الجميع، أو أن المراد لا تخلطوا الجيد من أموالهم بالردىء من أموالكم بحيث تكون نتيجتها الإضرار باليتامى وضياع حقوقهم. ولفظة «إلى» في العبارة بمعنى (مع) في الحقيقة.

ماذا يعني الحوب؟:

ثم إنه سبحانه، لبيان أهمية هذا الموضوع والتأكيد عليه يختم الآية بقوله: «إنه كان حوباً كبيراً».

يقول الزاغب في مفرداته: «الحوبة حقيقتها هي الحاجة التي تحمل صاحبها على ارتكاب الإثم» وحيث أن العدوان على أموال اليتامى ينشأ - في الأغلب - من الحاجة، أو بحجة الحاجة استعمل القرآن الكريم مكان لفظة الإثم في هذه الآية لفظة «الحوب» للإشارة إلى هذه الحقيقة.

إنَّ ملاحظة الآيات القرآنية المختلفة - في هذا المجال - تكشف عن أن الإسلام يولي هذا الموضوع أهمية كبرى، ويهدد الخائنين في أموال اليتامى بالعقوبات الشديدة، ويدعو القيمين على اليتامى بكلمات صريحة وجازمة إلى مراقبة أموالهم والمحافظة عليها مراقبة شديدة، ومحافظة بالغة، وسيأتي تفصيل كلِّ هذا في نفس هذه السورة في الآيات القادمة، وفي ذيل الآيات (١٥٢) من سورة الأنعام، و (٣٤) من سورة الإسراء.

إنَّ اللهجة القوية التي اتسمت بها هذه الآيات قد تركت من التأثير البالغ في نفوس المسلمين بحيث خافوا أن يخالطوا اليتامى وأن يشتركوا معهم في الطعام، ولهذا كانوا يهيئون طعاماً خاصاً لأنفسهم ولأولادهم، وطعاماً مستقلاً لليتامى ولا يخالطون طعام اليتامى بطعامهم خشية الإجحاف بهم، وقد شقَّ هذا على الجميع - اليتامى والأولياء - ولهذا أمرهم سبحانه في الآية (٢٢٠) من سورة البقرة قائلاً «وَأَنْ تَخَالطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ» أي إن كان في مخالطتهم لطعام اليتيم بطعامهم خير ومصلحة لليتيم فلا بأس^(١).



١ - وللتوسع والتفصيل الأكثر راجع ما ذكرناه في تفسير هذه الآية في سورة البقرة في الجزء الثاني من هذا التفسير.

الآية

وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِّنَ
النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبْعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا
مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴿٣﴾

سبب النزول

لقد نقل لهذه الآية سبب نزول خاص، فقد كان المتعارف في العهد الجاهلي قبل الإسلام أن يتكفل أغلب الناس في الحجاز أمر اليتيمات، ثم يتزوجون بهن، ثم يمتلكون أموالهن، وربما ينكحوهن بدون صداق أو بصداق أقل من شأنهن، بل وربما يتركوهن لأدنى سبب أو كراهية بكل سهولة، وبالتالي لم يكونوا يعطونهن ما يليق بهن - كزوجات - بل وحتى كبقية النساء العاديات - من الإحترام والمكانة، فنزلت هذه الآية توصي أولياء اليتيمات إذا أرادوا الزواج بهن أن يلاحظوا جانب العدل معهن، وإلا فليختاروا الأزواج من غيرهن^(١).

يقول سبحانه في هذه الآية: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبْعًا﴾ وقد جاء هذا الكلام بعد ما جاء في الآية السابقة من الحث على حفظ أموال اليتامى من التلف وعدم التفريط فيها.

فجاءت هذه الآية لتنوه بحق آخر من حقوقهم، وهو هذه المرّة يتعلق باليتيمات خاصة.

التفسير

بملاحظة ما ذكرناه في سبب النزول يتضح تفسير هذه الآية والمراد منها، كما يتضح الجواب أيضاً على السؤال المطروح هنا، وهو: لماذا تبتدىء الآية بذكر اليتامى، وتنتهي بمسألة الزواج، ويرتفع ما قد يتوهم من المنافاة بين تلك البداية، وهذه النهاية، فالبداية والنهاية كلتاهما تتعلقان بمسألة الزواج، غاية ما في الباب أن الآية تقول: إذا لم يمكنكم الزواج باليتيمات ومعاشرتهن على أساس من العدل والقسط فالأفضل أن تتركوا الزواج بهن، وتزوجوا بغيرهن من النساء تجنباً لظلم اليتيمات والإجحاف بحقوقهن، والجور عليهن.

فالذي يستفاد من ذات الآية - وإن اختلفت وجهات نظر المفسرين وكثرت أقوالهم وتعددت في المراد منها - هو ما ذكرناه في سبب النزول، وهو أن الخطاب موجه إلى أولياء اليتيمات اللاتي جاء الحث في الآية السابقة على حفظ أموالهن ضمن اليتامى.

فهذه الآية تعليم آخر ووصية أخرى بهم، ولكنها هذه المرّة تتعلق بمسألة الزواج باليتيمات، وإن على أوليائهن أن يعاملوهن في مسألة الزواج على أساس من العدل والقسط كما يعاملونهن في مسألة المال، فعليهم أن يراعوا في أمر الزواج مصلحة اليتيمة، وإلا فمن الأحسن أن يدعوا الزواج بهن، ويختاروا الأزواج من غيرهن من النساء.

هذا ومما يؤيد ويوضح هذا التفسير ما جاء في الآية (١٢٧) من نفس هذه السورة^(١) حيث حث سبحانه على التزام العدل في الزواج باليتيمات، وسيأتي

١- وهو قوله تعالى: ﴿وَسْتَغْنُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلْ اللَّهُ يَتَّقِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ...﴾.

تفصيل ذلك في محله.

كما أن ثمة أحاديث نقلت في الكتب المختلفة تشهد بهذا الاتجاه، وتؤيد هذا التفسير.^(١)

وما نقل عن الإمام علي عليه السلام من الأخبار بسقوط أو حذف شيء كثير من القرآن بين مطلع هذه الآية، ونهايتها غير معتبر من حيث السند أصلاً، فهذه الأحاديث وما يشابهها من الأحاديث التي تدل على حذف شيء من الآيات القرآنية وإسقاطها أو وقوع التحريف فيه إما أنها من موضوعات أعداء الإسلام وخصومه والمنافقين بغية الحط من اعتبار القرآن وأهميته ومكانته، وإما لأنها ناشئة من عجز البعض عن التوفيق بين صدر الآية وذيلها وفهم الارتباط الطبيعي بينهما، ولهذا توهموا بأن هناك حذفاً وإسقاطاً وقد تطور هذا الوهم حتى اتخذ صورة الحديث المروي والخبر المنقول، في حين يتضح الارتباط الوثيق بين هذه الجمل والعبارات بالتأمل والتدبر والإمعان.

«مثنى» و«ثلاث» و«رباع»:

وتعني «مثنى» في اللغة اثنتين اثنتين، و«ثلاث» ثلاثاً ثلاثاً، و«رباع» أربعاً أربعاً، وحيث أن الخطاب في هذه الآية موجه إلى المسلمين كافة، كان المعنى: إن عليكم أن تنصرفوا عن الزواج باليتيمات تجنباً من الجور عليهن، وأن تزوجوا بالنساء اللاتي لا تسمح مكانتهن الاجتماعية والعائلية بأن تجوروا عليهن، وتظلموهن، ويجوز لكم أن تزوجوا منهن باثنتين أو ثلاث أو أربع، غاية ما في الأمر حيث أن الخطاب هنا موجه إلى عامة المسلمين، وكافهم عبر بالمثنى، والثلاث، والرباع إذ لا شك في أن تعدد الزوجات - بالشروط الخاصة - لا يشمل أكثر من أربع نساء.

١- تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٢٢٨ وتفسير المنار في تفسير هذه الآية.

ولابدّ من التنبيه إلى أن «الواو» هنا أتت بمعنى «أو»، فليس معنى هذه الجملة هو أنه يجوز لكم أن تزوجوا باثنتين وثلاث وأربع ليكون المجموع تسع زوجات، لأن المراد لو كان هذا لوجب أن يذكر ذلك بصراحة فيقول: وانكحوا تسعاً لأن يذكره بهذه الصورة المتقطعة المبهمة.

هذا مضافاً إلى أن حرمة الزواج بأكثر من أربع نسوة من ضروريات الفقد الإسلامي، وأحكامه القطعية المسلمة.

وعلى كلّ حال فإن الآية الحاضرة دليل صريح على جواز تعدد الزوجات، طبعاً بشروطها التي سنذكرها قريباً.

ثمّ أنه سبحانه عقب على ذلك بقوله: «وإنّ خفتم ألاّ تعدلوا فواحدة» أيّ التزوج بأكثر من زوجة إنّما يجوز إذا أمكن مراعاة العدالة الكاملة بينهما، أمّا إذا خفتم أن لا تعدلوا بينهما، فاكتفوا بالزوجة الواحدة لكي لا تجورا على أحد.

ثمّ يقول: «أو ما ملكت أيمانكم» أيّ يجوز أن تقتصروا على الإماء اللاتي تملكنهنّ بدل الزوجة الثانية لأنهنّ أخف شروطاً (وإن كنّ يجب أن يحظين وينمتعن بما لهنّ من الحقوق أيضاً).

ويقول: «ذلك أدنى ألاّ تعولوا» أيّ أن هذا العمل (وهو الإقتصار على زوجة واحدة أو الإقتصار على الإماء وعدم التزوج بزوجة ثانية) أخرى بأن يمنع من الظلم والجور، ويحفظكم من العدوان على الآخرين (وسيكون لنا حديث مفصل عن الرّق في الإسلام عند تفسير الآيات المناسبة إن شاء الله).

ما هو المقصود من العدل بين الزوجات؟

قبل الخوض في بيان فلسفة تعدد الأزواج في الشريعة الإسلامية يجب أن يتّضح أولاً المراد من العدل بين الأزواج الذي هو من شروط جواز التعدد، فما هو المقصود من العدل هنا ياترى؟

أهي العدالة في الجوانب المادية كالمضاجعة وتوفير وسائل العيش وتحقيق الرفاه والمتطلبات المعيشية؟ أم أن المراد أيضاً هو العدالة في نطاق القلب والمواطف والأحاسيس الإنسانية؟ وبعبارة صريحة: العدالة في الحب والرغبة، مضافاً إلى العدالة في الجوانب المادية؟
لا شك أن مراعاة العدالة في الميل القلبي، والحب، والرغبة شيء خارج عن نطاق القدرة البشرية.

فمن ذا يستطيع أن يضبط حبه من جميع الجوانب، ويعطيه الحجم الذي يريد، والحال أن موجباته وعوامله خارجة عن نطاق قدرته، وإطار إرادته؟ ولهذا لم يوجب سبحانه مراعاة مثل هذه العدالة حيث قال سبحانه في الآية ١٢٩ من نفس هذه السورة - النساء: ﴿ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم﴾ أي لا يمكنكم مهما أردتم أن تعدلوا بين الأزواج في الميل القلبي، والحب والمودة.

إذن فلا ضير في الحب والميل القلبي الذي لا يوجب تفضيل بعض الأزواج في المواقف العملية، وعلى هذا الأساس فإن ما يجب على الرجل مراعاته هو العدالة بين أزواجه في الجوانب العملية الخارجية أي في نوع التعامل العملي خاصة إذ يستحيل مثل هذه المراعاة في المجال العاطفي.

من هذا الكلام يتضح بجلاء إن الذين أرادوا من ضمّ قوله تعالى: ﴿وإن خفتم أن لا تعدلوا فواحدة﴾ إلى قوله تعالى في الآية (١٢٩): ﴿ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم﴾ أن يستنتجوا حرمة تعدد الأزواج مطلقاً بحجة استحالة مراعاة العدالة بينهن قد وقعوا في خطأ كبير، لأن العدالة المستحيلة مراعاتها - كما أسلفنا - هي العدالة في المجال العاطفي، - وليس هذا من شرائط جواز التعدد في الأزواج، بل إن من شرائط جوازه هو مراعاة العدالة في المجال العملي.

ويشهد بذلك ما جاء في ذيل الآية (١٢٩) من نفس هذه السورة حيث يقول سبحانه: ﴿فلا تملوا كل الميل فتذروها كالمعلقة﴾ أي أنكم إذ لا تقدرّون على مراعاة المساواة الكاملة في محبة الزوجات وودّهنّ، فلا أقل أن لا تملوا في حبّ بعض الأزواج ميلاً شديداً يحملكم على أن تذروا التي لا تملون إليها، فلا هي ذات زوج ولا أيم.

وخلاصة القول ونتيجته، هي أن الذين أمسكوا بقسم من هذه الآية، ونسوا القسم الآخر وتورطوا في رفض تعدد الزوجات في خطأ يدهش كل محقق، ويستغرب منه كل باحث.

أضف إلى ذلك أن مسألة جواز تعدد الأزواج بشرائطها على درجة من الثبوت والوضوح في الفقه الإسلامي ومصادره الشيعية والسنية بحيث لا يبقى مجال للجدل، ولا محل للنقاش، بل هو من ضروريات الفقه الإسلامي ومسلماته، وبديهياته. ولنعطف عنان البحث الآن إلى معرفة فلسفة هذا القانون الإسلامي.

تعدد الزوجات ضرورة إجتماعية:

لقد أجازت الآية الحاضرة تعدد الزوجات (ولكن بشرائط ثقيلة وفي حدود معينة) وقد أثارت هذه الإباحة جماعة، فانطلقوا يوجهون إليها الاعتراضات والإشكالات، وتعرض هذا القانون الإسلامي لهجمة كبيرة من المعارضين الذين تسرعوا في إصدار الحكم عن هذا القانون الإسلامي متأثرين بالأحاسيس، ودون أن يتناولوه بالدرس والتحصيل، والتأمل والتحقق. وكان الغربيون أكثر هذه الجماعة معارضة لهذا القانون وهجوماً عليه، متسائلين كيف يجوز للإسلام أن يسمح للرجال أن يقيموا لأنفسهم جريماً ويتخذوا زوجات متعددة على نحو ما كان شائعاً في الجاهلية؟

كلّا، إنّ الإسلام لم يسمح لأحد بأن يقيم حريماً بالمعنى الذي تصورتهم، ولا أنّه أباح تعدد الزوجات دون قيد أو شرط. ودون حدّ أو قانون.

ولتوضيح هذه الحقائق نقول: إنّ دراسة البيئات المختلفة قبل الإسلام تكشف لنا أنّ تعدد الزوجات دونما عدد معين كان أمراً عادياً وشائعاً، لدرجة أنّ بعض الوثنيين أسلموا وتحت الرجل منهم عشر زوجات أو أقل، من هنا لم تكن مسألة تعدد الزوجات ممّا أبدعه الإسلام، نعم إنّ ما فعله الإسلام هو وضع هذا الأمر في إطار الحاجة والضرورة الحيوية الإنسانية، وتقييده بطائفة من القيود والشروط الثقيلة.

إنّ قوانين الإسلام وتشريعاته تدور على محور الحاجات الإنسانية، وتقوم على أساس مراعاة الضرورات الحيوية في دنيا البشر، لا الدعاية الظاهرة ولا المشاعر الموجهة توجهاً غير صحيح، ومسألة تعدد الزوجات من هذا القبيل أيضاً، فقد لوحظت هي الأخرى من هذه الزاوية، لأنّه لا أحد يمكنه أن ينكر أنّ الرجال أكثر تعرضاً من النساء لخطر الفناء والموت بسبب كثرة ما يحيط بهم من الحوادث، المختلفة.

فالرجال يشكلون القسم الأكبر من ضحايا الحروب، والمعارك. كما أنّه لا يمكن إنكار أنّ أعمار الرجال من الناحية الجنسية أطول من أعمار النساء في هذا المجال، فالنساء يفقدون القدرة الجنسية (والقدرة على الإنجاب) في سن معين من العمر قريب، في حين يبقى الرجال متحفظين بهذه الطاقة والقدرة مدّة أطول بكثير.

كما أنّ النساء - في فترة العادة الشهرية وشيء من فترة الحمل - يعانين من موانع جنسية بصورة عملية في حين لا يعاني الرجل من أي مانع جنسي من هذا النوع.

هذا كلّه مضافاً إلى أنّ هناك نساء يفقدون أزواجهنّ لبعض الأسباب، فلا

يتيسر لهن أن يجلبن اهتمام نظر الرجال إلى أنفسهن كزوجة أولى، فإذا لم يسمح بتعدد الزوجات، وجب أن تبقى تلك النسوة بلا أزواج، كما نقرأ ذلك في الصحف المختلفة حيث يشكو هذا النوع من النساء الأرامل من صعوبات الحياة ومشكلات العيش بسبب تحديد مسألة تعدد الأزواج أو إلغائها بالمرّة، وحيث يعتبرن المنع من التعدد نوعاً من القوانين الظالمة الجائرة والمعادية لهنّ.

بالنظر إلى هذه الحقائق، وعندما يضطرب التوازن بين عدد النساء والرجال نجد أنفسنا مضطربين لأن نختار أحد طرق ثلاث هي:

١- أن يقنع كل رجل بزوجة واحدة فقط في جميع الحالات والموارد، ويبقى العدد الإضافي من النساء بلا أزواج إلى آخر أعمارهن، ويكبتن حاجاتهنّ الفطرية ويقمعن غرائزهنّ الباطنية الملتهبة.

٢- أن يتزوج الرجل بامرأة واحدة بصورة مشروعة ثم يترك حراً لإقامة علاقات جنسية مع من شاء وأراد من النساء اللاتي فقدن أزواجهن لسبب وآخر على غرار اتخاذ الأخدان والعشيقات.

٣- أن يسمح لمن يقدر أن يتزوج بأكثر من واحدة ولا يقع في أية مشكلة من الناحية «الجسمية» و«المالية» و«الخلقية» من جراء هذا الأمر، كما ويمكنه أن يقيم علاقات عادلة بين الزوجات المتعددة وأولادهن، أن يسمح لهن بأن يتزوجوا بأكثر من واحدة (على أن لا يتجاوز عدد الأزواج أربعاً)، وهذه هي ثلاث خيارات وطرق لا رابع لها.

وإذا أردنا اختيار الطريق الأوّل يلزم أن نعادي الفطرة والغريزة البشرية، ونحارب جميع الحاجات الروحية والجسمية لدى البشر، وتجاهل مشاعر هذه الطائفة من هذه النسوة، هذه الحرب والمعركة التي لن يكون فيها أي انتصار، وحتى لو نجح هذا الطرح وكتب له التوفيق، فإن ما فيها من الجوانب اللاإنسانية أظهر من أن تخفى على أحد.

وبعبارة أخرى أن تعدد الزوجات في الموارد الضرورية يجب أن لا ينظر إليه أو يدرس من منظار الزوجة الأولى، بل يجب أن يدرس من منظار الزوجة الثانية أيضاً.

إن الذين يعالجون هذه المسألة وينظرون إلى خصوص مشاكل الزوجة الأولى في صورة تعدد الزوجات هم أشبه بمن يطالع مسألة ذات زوايا ثلاث من زاوية واحدة، لأن مسألة تعدد الزوجات ذات ثلاث زوايا، فهي يجب أن تطالع من ناحية الرجل، ومن ناحية الزوجة الأولى، ومن ناحية الزوجة الثانية أيضاً، ويجب أن يكون الحكم بعد ملاحظة كل هذه الزوايا في المسألة، ويتم على أساس مراعاة مصلحة المجموع في هذا الصعيد.

وإذا اخترنا الطريق الثاني وجب أن نعترف بالفحشاء والبغاء بصورة قانونية، هذا مضافاً إلى أن النساء العشيقات اللاتي يجعلن أنفسهن في متناول هؤلاء الرجال لإرواء حاجتهم الجنسية يفقدن كل ضمانته وكل مستقبل، ويعني ذلك سحق شخصيتهن سحقاً كاملاً - في الحقيقة - إذ يصبحن حينئذ مجرد متاع يقتنى عند الحاجة ويترك عند ارتقاعها دون التزام ومسؤولية، ولا شك أن هذه الأمور ممّا لا يسمح به أي عاقل مطلقاً.

وعلى هذا الأساس لا يبقى إلا الطريق الثالث، وهو الطريق الذي يلي الحاجات الفطرية والغريزية للنساء، كما أنه يجنب هذه الطائفة من النساء ويحفظهن من عواقب الفحشاء والإنزلاق إلى الفساد، وبالتالي ينقذ المجتمع من مستنقع الأثام والذنوب.

على أن من الواجب أن نلتفت إلى أن السماح بتعدد الزوجات مع أنه ضرورة إجتماعية في بعض الموارد ومع أنه من أحكام الإسلام القطعية، إلا أن توفير شرائطه يختلف اختلافاً كبيراً عن الأزمنة الماضية، لأن الحياة كانت في العصور

السابقة ذات نمط بسيط ومواصفات سهلة، ولهذا كانت رعاية المساواة والعدالة بين الزوجات المتعددات أمراً ممكناً وميسراً لأكثر الناس، في حين يجب علي الذين يريدون الأخذ بهذا القانون الإسلامي في هذا العصر أن يراعوا مسألة العدالة من جميع الجوانب، وأن يقدموا على هذا الأمر إذا كانوا قادرين على الوفاء بجميع شروطه.

وبالجملة يجب أن لا يقدم أحد على هذا العمل بدافع الهوى والهوس. هذا والملفت للنظر هنا هو أن الذين يعارضون مبدأ تعدد الزوجات (كالتغريبيين) قد واجهوا طوال تاريخهم ظروفاً ألجأتهم إلى هذا المبدأ بصورة واضحة.

ففي الحرب العالمية الثانية برزت حاجة شديدة في البلاد التي تعرضت لويلات الحرب هذه وبالأخص ألمانيا، إلى هذا الموضوع مما دفع بطائفة من المفكرين في سياق البحث عن حل لهذه المشكلة إلى إعادة النظر في مسألة المنع عن تعدد الزوجات، إلى درجة أنهم طلبوا من الجامع «الأزهر» بالقاهرة البرنامج الإسلامي حول تعدد الزوجات للدراسة، ولكنهم اضطروا - وتحت ضغوط شديدة من جانب الكنائس - إلى التوقف عن المضي في دراسة هذا البرنامج، وكانت النتيجة هو تفشي الفحشاء والفساد الجنسي الشديدين في جميع البلاد التي تعرضت للحرب وويلاتها.

هذا بغض النظر عن أنه لا يمكن إنكار ما يحس به طائفة من الرجال من الميل إلى اتخاذ زوجات متعددة، فإن كان هذا الميل والرغبة ناشئين من الهوى والهوس لم يكن جديراً بالنظر، أما إذا كانا ناشئين عن عقم الزوجة عن إنجاب الأولاد من جانب، ورغبة الرجل الشديدة في الحصول على أبناء له - كما هو الحال في كثير من الموارد - من جانب آخر، فهو ميل ورغبة منطقيان وجديران

بالإهتمام والرعاية.

كما أنه لو كانت الرغبة في تعدد الزوجات ناشئة من الميل الجنسي الشديد لدى الرجل وعدم قدرة الزوجة الأولى على تلبية هذا الميل كما ينبغي، ولهذا يرى الرجل نفسه مضطراً إلى اتخاذ زوجة ثانية حتى لا يقدم على إشباع هذه الحاجة من طريق غير مشروع لإمكان إشباعه من طريق مشروع، وفي هذه الصورة أيضاً لا يمكن إنكار منطقية هذا الميل لدى الرجل، ولهذا تكون إقامة العلاقات مع النساء المتعددت أمرأ رائجاً عملياً حتى في البلاد التي تحظر تعدد الزوجات، فيعقد الرجل الواحد علاقات غير مشروعة مع نساء عديدات.

إن المؤرخ الفرنسي المعروف «غوستاف لوبون» يعتبر قانون تعدد الزوجات الذي يقره الإسلام ضمن حدود وشروط خاصة - من مزايا هذا الدين، ويكتب عند المقارنة بينه وبين طريقة العلاقات الجنسية الحرة غير المشروعة الرائجة في الغرب قائلاً: «وفي الغرب حيث الجو والطبيعة لا يساعدان على تعدد الزوجات، وبرغم أن القوانين الغربية تمنع التعدد، ولكن الغربيين قلما تقيدوا بهذه القوانين وخرقوها بعلاقاتهم السرية الآثمة.

ولا أرى سبباً لجعل مبدأ تعدد الزوجات الشرعي عند الشرقيين أدنى مرتبة من مبدأ تعدد الزوجات السري عند الأوروبيين، بل أرى ما يجعله أسنى منه»^(١) طبعاً لا يمكننا إنكار أن هناك بعض ادعاءات الإسلام ممن يستخدمون هذا القانون الإسلامي من دون مراعاة الروح الإسلامية فيه فيتخذون حريماً كالله فساد وفجور ويتعدون على حقوق أزواجهم، بيد أن هذا ليس هو عيب في هذا القانون الإسلامي ولا يجوز اعتبار أعمالهم القبيحة وأفعالهم الرخيصة هذه من الإسلام، فهي ليست من أحكام الإسلام في شيء. ترى أي حكم أو قانون جيد

من الأحكام والقوانين لم يستغله النفعيون والمصلحيون استغلالاً سيئاً؟

سؤال

ثمَّ أن هاهنا من يسأل أنه قد تتوفر الشرائط والكيفيات المذكورة أعلاه بالنسبة إلى امرأة أو نساء، فهل يجوز أن نسمح لها أن تختار لنفسها زوجين كما نسمح للرجال ذلك؟

الجواب

إنَّ الجواب على هذا السؤال ليس صعباً كما يمكن أن يتصور، وذلك:

أولاً: إنَّ الرغبة الجنسية لدى الرجال (على خلاف ما هو شائع بين السواد من الناس) أقوى وأشدَّ بأضعاف من النساء، وأن المرض النفسي الذي تصرَّح به أكثر الكتب النفسية والطبية هو «البرود الجنسي» لدى المرأة في حين أن الأمر في الرجال هو العكس، ولا يقتصر هذا الأمر على البشر، ففي عالم الحيوانات كذلك نجد ذكورها أسبق إلى إظهار الميول الجنسية من إناثها.

ثانياً: إنَّ تعدد الزوجات للرجال لا ينطوي على أية مشاكل إجتماعية وحقوقية، في حين أن السماح بتعدد الأزواج للنساء (أي لو أننا سمحنا لإمرأة أن تتزوج برجلين) يسبب مشاكل كثيرة أبسطها هو ضياع النسب، إذ لا يعرف في هذه الصورة إلى من ينتسب الولد، ولا شك أن مثل هذا الولد المجهول الأب لن يحظى باهتمام أي واحد من الرجال، بل ويعتقد بعض العلماء أن الولد المجهول الأب قلماً يحظى حتى بحبِّ الأم واهتمامها به، وبهذه الصورة يصاب الولد الناشيء من مثل المرأة ذات الزوجين بحرمان مطلق من الناحية العاطفية، كما أنه يكون - بطبيعة الحال - مجهول الحال من الناحية الحقوقية أيضاً.

ولعلَّه لا يحتاج إلى التذكير بأن التوسل بوسائل منع الحمل للحيلولة دون إنعقاد النطفة، وحصول ولد لا يورث الإطمئنان مطلقاً، ولا يكون دليلاً قاطعاً

على عدم حمل الزوجة بولد، لأن ثمة كثيراً من النساء يستخدمن هذه الوسائل، أو يخطئن في استخدامها فيلدن وينجين أولاداً، ولهذا لا يمكن لأية امرأة أن تسمح لنفسها بأن تتزوج بأكثر من رجل اعتماداً على هذه الوسائل.

لهذه الأسباب لا يمكن أن يكون السماح للمرأة بتعدد الأزواج أمراً منطقيًا، في حين أنه بالنسبة للرجال - ضمن الشروط المذكورة سابقاً - أمر منطقي، وعملي أيضاً.



الآية

وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ
نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا ﴿١﴾

التفسير

«النحلة» في اللغة تعني الدين، كما أنها بمعنى العطية أيضاً، يقول الراغب الأصفهاني في مفرداته: «واشتقاقه فيما أرى أنه من النحل نظراً منه إلى فعله فكان نحلته أعطيته النحل».

و«صدقاتهن» جمع الصداق وهي بمعنى المهر ...

والآية الحاضرة التي جاءت بعد البحث المطروح في الآية السابقة حول انتخاب الزوجة تتضمن إشارة إلى إحدى حقوق النساء المسلمة، وتؤكد قائلة: «وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً» أي أعطوا المهر للزوجة كمالاً واهتموا بذلك كما تهتمون بما عليكم من ديون فتؤدونها كاملة دون نقص (وفي هذه الصورة نكون قد أخذنا لفظة النحلة بمعنى الدين).

وأما إذا أخذنا لفظة النحلة بمعنى العطية والهبة فيكون تفسير الآية المذكورة بالنحو التالي: «أعطوا النساء كامل مهرهن الذي هو عطية من الله لهن لأجل أن يكون للنساء حقوق أكثر في المجتمع وينجبر بهذا الأمر ما فيهن من ضعف

جسمي نسبي».

ثم بعد أن يأمر الله سبحانه - بصراحة - في مطلع الآية بأن تعطى للنساء مهورهن كاملة ودون نقصان حفظاً لحقوقهن، يعمد في ذيل هذه الآية إلى بيان ما من شأنه إحترام مشاعر كلا الطرفين، ومن شأنه تقوية أواصر الودّ والمحبة والعلاقة القلبية، وكسب العواطف إذ يقول: ﴿فإن طبن لكم عن شيء منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً﴾ أي لو تنازلت الزوجة عن شيء من المهر ووهبته للزوج عن طيب نفسها جاز للزوج أكل الموهوب له، وإنما أقرّ الإسلام هذا المبدأ لكيلا تكون البيئه العائلية والحياة الزوجية ميداناً لسلسلة من القوانين والمقررات الجافة، بل يكون مسرحاً للتلاقي العاطفي الإنساني، وتسود في هذه الحياة المحبة جنباً إلى جنب مع المقررات والأحكام الحقوقية المذكورة.

الصدّاق دعامة إجتماعية للمرأة:

لما كانت المرأة - في العصر الجاهلي - لم تحظ بأية قيمة أو مكانة كان الرجل إذا تزوج امرأة ترك أمر صداقها - الذي هو حقها المسلم - إلى أوليائها، فكان أولياؤها يأخذون صداقها، ويعتبرونه حقاً مسلماً لهم لا لها، وربما جعلوا التزوج بامرأة صداقاً لامرأة أخرى، مثل أن يزوج الرجل أخته بشخص على أن يزوج ذلك الشخص أخته بذلك الرجل، وكان هذا هو صدّاق الزوجتين.

ولقد أبطل الإسلام كل هذه التقاليد والأعراف الظالمة، واعتبر الصدّاق حقاً مسلماً خاصاً بالمرأة، وأوصى الرجال مرّات عديدة وفي آيات الكتاب العزيز برعاية هذا الحق للمرأة.

على أنه ليس للصدّاق حدّ معين في الإسلام، فهو أمر يتبع إتفاق الزوجين، وإن تأكد في روايات كثيرة على التخفيف في المهور، ولكن هذا لا يكون حكماً إلزامياً، بل هو أمر مستحب.

وها هنا ينطرح هذا السؤال، وهو إذا كان الرجل والمرأة يستفيدان من الزواج بشكل متساو، وكانت رابطة الزوجية قائمة على أساس مصالح الطرفين فلماذا يجب على الرجل أن يدفع مبلغاً - قليلاً أو كثيراً - إلى المرأة بعنوان الصداق والمهر؟ ثم ألا ينطوي هذا الأمر على إساءة إلى شخصية المرأة، ألا يسبغ هذا الأمر صبغة البيع والشراء على مشروع الزواج؟

إن هذه الأمور هي التي تدفع البعض إلى أن يعارضوا بشدة مبدأ المهر ومسألة الصداق، ويقوى هذا الاتجاه لدى المتفرجين خاصة ما يجدونه من عدم الأخذ بهذا المبدأ في الزيجات الغربية، في حين أن حذف الصداق والمهر من مشروع الزواج ليس من شأنه رفع شخصية المرأة فقط، بل يعرض وضعها للخطر.

وتوضيح ذلك هو، أنه صحيح أن المرأة والرجل يستفيدان من مشروع الزواج، وإقامة الحياة الزوجية على قدم المساواة، ولكن لا يمكن إنكار أن الأكثر تضرراً لدى افتراق الزوج عن زوجته هي المرأة، وذلك:

أولاً: إن الرجل - بحكم قابلياته الجسدية الخاصة - يمتلك - عادة - سلطاناً ونفوذاً وفرصاً أكثر في المجتمع، وهذه هي حقيقة ساطعة مهما حاول البعض إنكارها عند الحديث حول المرأة، ولكن الوضع الاجتماعي وحياة البشر - حتى في المجتمعات الغربية والأوروبية التي تحظى فيها النساء بما يسمّى بالحرية الكاملة ترينا بوضوح - وكما هو مشهود للجميع - إن الفرص وأزمة الأعمال المربحة جداً هي في الأغلب في أيدي الرجال.

هذا مضافاً إلى أن أمام الرجال إمكانيات أكثر لإختيار الزوجات، وإقامة حياة عائلية جديدة بينما لا تتوفر مثل هذه الإمكانيات للمرأة، فإن النساء الثيبات - خاصة تلك التي يصبن بهذه الحالة بعد مضي شطر من أعمارهن،

وفقدان شبابهنّ وجمالهنّ - يمتلكن فرصاً أقل للحصول على أزواج لهنّ.
بملاحظة هذه النقاط يتضح أنّ الإمكانيات التي تخسرّها المرأة بالزواج أكثر
من الإمكانيات التي يفقدها الرجل بذلك، ويكون الصداق والمهر - في الحقيقة -
بمثابة التعويض عن الخسارة التي تلحق بالمرأة، ووسيلة لضمان حياتها
المستقبلية، هذا مضافاً إلى أنّ المهر والصداق خير وسيلة رادعة تردع الرجل عن
التفكير في الطلاق والإفتراق.

صحيح أنّ المهر - في نظر القوانين الإسلامية يتعلّق بدمّة الرجل من لحظة
إنعقاد الرابطة الزوجية وقيامها بين الرجل والمرأة، ويحق للمرأة المطالبة به فوراً،
ولكن حيث أنّ الغالب هو أنّ يتخذ الصداق صفة الدّين المتعلّق في الدّمة يكون
لذلك بمثابة توفير للمرأة تستفيد منه في مستقبلها، كما يعتبر خير دعامة لحفظ
حقوقها، إلى جانب أنه يساعد على حفظ الرابطة الزوجية من التبعثر والتمزق
(طبعاً هناك استثناءات لهذا الموضوع، ولكن ما ذكرناه صادق في أغلب
الموارد).

وأما تفسير البعض لمسألة المهر بنحو خاطيء، واعتبار الصداق أنّه من قبيل
ثمن المرأة فلا يرتبط بالقوانين الإسلامية، لأنّ الإسلام لا يعطي للصداق الذي
يقدمه الرجل إلى المرأة صفة الثمن كما لا يعطي المرأة صفة البضاعة القابلة للبيع
والشراء، وأفضل دليل على ذلك هو صيغة عقد الزواج الذي يعتبر فيه الرجل
والمرأة كركنين أساسيين في الرابطة الزوجية، في حين يقع الصداق والمهر على
هامش هذا العقد، ويعتبر أمراً إضافياً، بدليل صحّة العقد إذا لم يرد في صيغة البيع
والشراء وغير ذلك من المعاملات المالية إذ بدونه تبطل هذه المعاملات (طبعاً
لابدّ من الانتباه إلى أنّ على الزوج - إذا لم يذكر الصداق ضمن عقد الزواج - أن
يدفع إلى المرأة مهر المثل في صورة الدخول بها).

من كلّ ما قيل نستنتج أنّ المهر بمثابة جبران للخسارة اللاحقة بالمرأة، وبمثابة الدعامة القوية التي تساعد على احترام حقوق المرأة، لا أنّه ثمن المرأة، ولعل التعبير بالشُّحلة التي هي بمعنى العطية في الآية إشارة إلى هذه النقطة.



الآياتن

وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا
وَأَرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿٥﴾
وَأَبْتَلُوا الَّتِي سَمِيَ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا
فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا
وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ
فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾

التفسير

الآيات الحاضرة تكملة للأبحاث المرتبطة باليتامى، التي مرّت في الآيات السابقة.

يقول الله سبحانه: «ولا تؤتوا السفهاء أموالكم» بل انتظروا رشدهم، ونضجهم في المسائل الاقتصادية لكي لا تتعرض أموالكم للتلف والفاء.

من هو السفهية؟:

قال الزاغب في المفردات: «السفه خفة في البدن (يحصل بسببها عدم التعادل في المشي) ومنه قيل زمام سفه أي كثير الإضطراب، واستعمل في خفة

النفس لنقصان العقل في الأمور الدنيوية، والأخروية».

ولكن من الواضح أن المراد من السّفه في الآية الحاضرة هو عدم الرشد اللازم في الأمور الإقتصادية بحيث لا يستطيع الشخص من تدبير شؤونه الإقتصادية وإصلاح ماله على الوجه الصحيح، ولا يتمكن من ضمان منفعه في المبادلات والمعاملات المالية، أي أنه عرضة للغبن والضرر، ويدل على هذا المعنى ما جاء في الآية الثانية إذ يقول سبحانه: «فإن أنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم».

وعلى هذا الأساس فإن الآية الحاضرة وإن كانت تبحث حول اليتامى، لكنها تتضمن حكماً كلياً وقانوناً عاماً لجميع الموارد، وهو أنه لا يجوز لأحد مطلقاً أن يعطي أموال من يتولى أمره، أو ترتبط به حياته بنوع من الارتباط، إليه إذا كان سفيهاً غير رشيد، ولا فرق في هذا الحكم بين الأموال الخاصّة والأموال العامّة (وهي أموال الحكومة الإسلامية) ويشهد على هذا الموضوع - مضافاً إلى سعة مفهوم الآية - وخاصّة كلمة «السّفية» روايات منقولة عن أئمة الدين في هذا الصدد.

ففي رواية عن الإمام الصادق عليه السلام قرأ أن شخصاً يدعى إبراهيم بن عبد الحميد يقول: سألت أبا عبد الله عن قول الله: «ولا تؤتوا السفهاء أموالكم» قال: «كل من يشرب المسكر فهو سفيه^(١) فلا تعطوهم أموالكم».

وفي رواية أخرى نجد النهي عن اختيار شارب الخمر لجعله أميناً على الأموال.

وخلاصة القول أننا نجد توصيف شارب الخمر بالسفه في أحاديث كثيرة وموارد متعددة، وهذا التعبير إنما هو لأن شارب الخمر فقد رأس ماله المادي ورأس ماله المعنوي، وأي سفيه أشد من أن يعطي الإنسان ماله، وعقله أيضاً،

وبيتاع الجنون ... ويضحى في هذا السبيل بكل طاقاته البدنية والروحية، ويتسبب في أضرار إجتماعية كثيرة وكبيرة.

ثم أننا نلاحظ أن رواية أخرى تصف كل من لا يوثق به بالسفيه، وتنتهي من تسليم الأموال الخاصة والعامّة إليه، فعن يونس بن يعقوب قال: سألت أبا عبدالله عليه السلام عن قوله: «ولا تؤتوا السفهاء أموالكم» قال: «من لا تثق به»^(١).

ومن هذه الروايات يتبين أنّ للفظه السفيه معنى واسعاً، وأن النهي يشمل تسليم الأموال الخاصة والعامّة إليهم، غاية ما في الأمر أن هذا النهي يكون في بعض الموارد نهى تحريم، وفي بعض الموارد الأخرى التي لا تشتد فيها درجة السفه يكون نهى كراهة.

وهنا ينطرح سؤال وهو، إذا كانت هذه الآية في مورد أموال اليتامى فلماذا قال تعالى: «أموالكم» ولم يقل «أموالهم»؟

يمكن أن تكون النكته والسرّ في هذا التعبير هو بيان مسألة إجتماعية وإقتصادية مهمة في المقام وهي أن الإسلام يعتبر الأفراد في المجتمع بمثابة فرد واحد بحيث لا يمكن أن تنفصل مصالح فرد عن مصالح الآخرين، وهكذا تكون خسارة فرد عين خسارة الآخرين، ولهذا السبب أتى القرآن في هذا المقام بضمير المخاطب بدل ضمير الغائب إذ قال: «أموالكم» ولم يقل «أموالهم»، يعني أنّ هذه الأموال - في الحقيقة - ليست مرتبطة باليتامى فقط، بل هي مرتبطة بكم أيضاً، فإذا لحق بها ضرر، يكون ذلك الضرر قد لحق بكم بصورة غير مباشرة أيضاً، ولهذا يجب أن تحرصوا في حفظها كل الحرص.

ثم إنّ هناك تفسيراً آخر لهذا التعبير وهو أن المقصود من «أموالكم»، هو أموال نفس الأولياء لا أموال اليتامى، فيكون المعنى إذا أردتم مساعدة الإيتام الذين لم يرشدوا ربّما أعطيتهم شيئاً من أموالكم - تحت تأثير العاطفة والإشفاق

- إليهم، واخترتموهم لبعض الأعمال التي لا يقدرّون عليها فلا تفعلوا ذلك، بل عليكم أن تعملوا شيئاً آخر مكان هذا العمل الغير العقلاني، وهو أن تقوموا بالإتفاق على مأكلهم وملبسهم ومسكنهم حتى يبلغوا سن الرشد، فإذا بلغوا هذه المرتبة، وحصلت لديهم البصيرة الكافية أعطوهم ماشئتم، وانتخبوهم لما تريدون من الأعمال.

وهذا في الواقع درس إجتماعي كبير يُعلمه القرآن لنا حيث ينهانا عن تشغيل من لا يقدر على بعض الأعمال فيها، وذلك بدافع مساعدتهم وتحت تأثير الإشفاق والعاطفة، لأن هذه الأعمال وإن كانت تنطوي على بعض الأرباح القليلة، ولكنها من الممكن أن تجرّ على المجتمع أضراراً وويلات كبيرة، فلا بدّ إذن من إدارة أمور هذه الطائفة من المجتمع عن طريق تقديم المساعدات الغير المعوضة إليهم أو تشغيلهم في أمور سهلة وصغيرة.

من هنا يتّضح أنّ بعض قاصري النظر يختارون الضعفاء والقصر لبعض المسؤوليات التبليغية والدينية إرفاقاً بهم وإشفاقاً عليهم وهذا لا شك من أضرّ الأعمال، وأكثرها بعداً عن العقل والمنطق الصحيح.

أموالكم قوام لكم:

ثم أنّ القرآن الكريم يصف الأموال المذكورة في مطلع الآية الحاضرة بقوله: «التي جعل الله لكم قياماً» هو تعبير جميل ورائع جداً عن الأموال والثروات، فهي قوام الحياة الناس والمجتمع، وبدونها لا يمكن للمجتمع الوقوف على قدميه، فلا يصحّ إعطاؤها إلى السفهاء والمسرّفين الذين لا يعرفون إصلاحها، بل ربّما أفسدوها وأتلفوها وألحقوا بسبب ذلك أضراراً كبيرة بالمجتمع.

ومن هذا التعبير نعرف جيداً ما يوليه الإسلام من الإهتمام بالأمور والشؤون الإقتصادية والمالية، وعلى العكس نقرأ في الإنجيل الحاضر: «فقال يسوع

لتلاميذه: الحق أقول لكم أنه يعسر أن يدخل غني إلى ملكوت السموات»^(١) في حين يرى الإسلام أن الأمة الفقيرة لا تستطيع أبداً الوقوف على قدميها. وأنه لعجيب أن نرى تلك الطائفة بلغت إلى ما بلغت من المراتب في عالمنا الراهن في حقول التقدم الاقتصادي مع ما هم عليه من التعاليم الخاطئة، في حين نعاني من هذا الوضع المأسوي مع ما نملك من التعاليم الحيوية العظيمة.

غير أنه لا داعي للعجب، فهم تركوا تلك الخرافات والأضاليل - في الحقيقة - فوصلوا إلى ما وصلوا، بينما تركنا نحن هذه التعاليم الراقية فوقنا في هذه الحيرة، والتخلف.

تعليمان في شأن اليتامى:

ثم أن الله سبحانه يأمر - في شأن اليتامى - بأمرين مهمين هما:

أولاً: رزق اليتامى وإكسائهم من أموالهم حتى يبلغوا سن الرشد إذ يقول:

﴿وارزقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قولاً معروفاً﴾.

والجدير بالنظر هو أن الله تعالى عبّر في هذه الآية بلفظة «فيها» أي في أموال اليتامى لا «منها» أي من أموالهم إذ المفهوم من هذا التعبير هو أن تدبير شؤون اليتامى والإنفاق عليهم يجب أن يتم من أرباح أموالهم، إذ لو قال سبحانه: وارزقوهم منها لفهم من ذلك أن على الولي أن يقطع من أصل أموالهم شيئاً فشيئاً، وهذا يعني أن يفقد اليتامى شيئاً كبيراً من أموالهم حينما يبلغون ويصلون إلى سن الرشد، ولكن القرآن الكريم باستبداله لفظة «منها» بلفظة «فيها» يكون قد أوصى أولياء اليتامى بأن يحرصوا كل الحرص على أموال اليتامى، ويحاولوا الإنفاق من أرباح رؤوس أموالهم وذلك باسترباح هذه الأموال واستثمارها ولو بقدر نفقات اليتامى كيما تبقى هذه الأموال على حالها حين بلوغهم سن الرشد.

ثانياً: مخاطبة اليتامى والتكلم معهم بقول طيب ورقيق إذ قال سبحانه: ﴿وقولوا لهم قولاً معروفاً﴾ كيما يزيلوا بمثل هذا القول المعروف ما يشعر به اليتامى من نقصان روحي وعقد نفسية، كما يساعدوا بذلك على ترشيدهم وبلوغهم حدّ الرشد العقلي، حتى يتمتعوا عند البلوغ بالرشد العقلي اللازم، وبهذا الطريق يكون بناء شخصية اليتيم وترشيده عقلياً من وظائف الأولياء ومسؤولياتهم أيضاً.

تعليم آخر في شأن اليتامى وأموالهم:

ها هنا تعليم آخر في شأن اليتامى وأموالهم، إذ يقول سبحانه: ﴿وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح﴾ فإذا بلغوا سن الرشد الذي آنستم فيه قدرتهم على إدارة أموالهم والتصرف فيها بنحو معقول فأعطوهم أموالهم: ﴿فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم﴾ وها هنا نقاط لا بدّ من الالتفات إليها.

١- إنه يستفاد من التعبير بـ «حتى» أنه يجب اختبار اليتامى قبل بلوغ سنّ النكاح، وأن يتمّ هذا الأمر بصورة مستمرة ومتكررة حتى يعرف بلوغهم حدّ النكاح ويتبين أنّهم بلغوا الحدّ اللازم من الرشد العقلي اللازم لإدارة الأمور المالية على الوجه الصحيح.

كما أنّه يستفاد - ضمناً - أنّ المراد من الإختبار والإبتلاء هو التربية التدريجية والمستمرة لليتامى، وهذا يعني أن لا تتركوا اليتامى وتهملوهم حتى يبلغوا سن الرشد ثمّ تعمدوا إلى إعطائهم أموالهم، بل لا بدّ أن تهثوهم - قبل البلوغ - للحياة المستقلة وذلك بالبرامج التربوية العملية.

وأما أنّه كيف يمكن اختبار اليتيم فطريقه هو أن يعطى مقداراً من المال، فيتجر به ويشترى ويبيع مع نظارة الولي بنحو لا يسلب اليتيم إستقلاله فإذا تبين أنّه قادر على الإبتجار والتعامل كما ينبغي ومن دون أن يغبن، وجب تسليم أمواله

إليه وإلا فلا بد أن تستمر تربيته وإعداده حتى يبلغ تلك الدرجة التي يستطيع فيها أن يستقل بإدارة شؤونه وتدير معيشته، وأخذ زمام حياته المستقبلية بيده.

٢- إن التعبير بجملة «إذا بلغوا النكاح» إشارة إلى أن الرشد المطلوب هو أن يبلغ اليتيم إلى درجة القدرة على الزواج، وواضح أن الذي يقدر على الزواج لا بد أنه يقدر على تشكيل عائلة، ولا شك أن الإنسان بدون امتلاكه لرأس مال لا يتوصل إلى أهدافه، ولهذا فإن بداية الحياة العائلية تتزامن مع بداية الحياة الاقتصادية المستقلة.

وبعبارة أخرى أن الثروة لا تعطى إليهم إلا عندما يصلون إلى البلوغ الجسمي، فيحتاجون إلى المال بشدة ويصلون إلى البلوغ الفكري، ويتمكنون من المحافظة على أموالهم في وقت واحد.

٣- إن التعبير بجملة «آنتم به رشداً» إشارة إلى أنه يجب أن يتأكد من رشدهم، لأن الإيناس بمعنى المشاهدة والرؤية وهذه المادة مشتقة من مادة «الإنسان» الذي في معانيه ناظر العين وعدستها التي بها تبصر (والرؤية إنما تتم بالإستعانة من إنسان العين - في الحقيقة - ولهذا عبر عن المشاهدة بالإيناس). ثم أنه سبحانه قال: «ولا تأكلوها إسرافاً وبداراً أن يكبروا» وهو تأكيد آخر للأولياء بأن لا يسلموا الأموال إلى اليتامى قبل أن يكبروا بأن يحافظوا على أموال اليتامى ولا يتلفوها أبداً.

ثم أنه تعالى يردف هذا التأكيد بقوله: «ومن كان غنياً فليستعفف ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف» وبهذا أذن الله تعالى للأولياء بأن يأخذوا لأنفسهم من أموال اليتامى لقاء ما يتحملون من أتعاب في حفظها، وحراستها، على أن يراعوا جانب العدل والإنصاف فيما يأخذونه بعنوان الأجرة، هذا إذا كان الولي فقيراً، أما إذا كان غنياً فلا يأخذ من مال اليتيم شيئاً أبداً.

وقد وردت في هذا الصدد كذلك روايات توضح وتبين ما أشير إليه من

مضمون الآية.

ومن هذه الأحاديث ما روي عن الإمام الصادق عليه السلام إذ قال: «فذلك رجل يحبس نفسه عن المعيشة، فلا بأس أن يأكل بالمعروف إذا كان يصلح لهم فإن كان المال قليلاً (ولا يستغرق ذلك وقتاً كبيراً) طبعاً فلا يأكل منه شيئاً»^(١).

ثم يقول سبحانه: «فإذا دفعتم إليهم أموالهم فاشهدوا عليهم» لكي لا يبقى أي مجال للإتهام والتنازع، وهذا هو آخر حكم في شأن الأولياء واليتامى جاء ذكره في هذه الآية.

واعلموا أن الحسيب الواقعي هو الله تعالى، والأهم من ذلك هو أن حسابكم جميعاً عنده لا يخفى عليه شيء أبداً ولا يفوته صغير ولا كبير فإذا بدرت منكم خيانة خفيت على الشهود فإنه سبحانه سيحصيها عليكم، وسوف يحاسبكم عليها ويؤاخذكم بها: «وكفى بالله حسيباً».

* * *

الآية

لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ
مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا
مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾

سبب النزول

كانت العرب في الجاهلية تورث الذكور دون الإناث، وكانوا يعتقدون أنه لا يرث من لا يطاعن بالرمح ولا يقدر على حمل السلاح، ولا يذود عن الحریم والمال، ولهذا كانوا يحرمون النساء والأطفال عن الإرث، ويورثون الرجال الأباعد، ولو كان من الورثة من هو أقرب منهم.

حتى إذا مات أنصاري يدعى «أوس بن ثابت» وقد ترك صغاراً من بنات وأولاد، فاقترس أبناء عمومته «خالد» و«عرفجة» أمواله بينهم ولم يورثوا زوجته وأولاده الصغار من تركته أبداً، فشكت زوجته إلى النبي ﷺ، ولم يكن في ذلك حكم إلى ذلك الحين، فنزلت هذه الآية فاستدعى رسول الله ﷺ ذينك الشخصين، وأمرهما بأن لا يتصرفا في أموال الأنصاري، وأن يتركا تلك الأموال إلى ورثة الميت من الطبقة الأولى وهم زوجته وأولاده، بانتظار أن تنزل آيات أخرى توضح كيفية تقسيمها بين هؤلاء الورثة.

التفسير

خطوة أخرى لحفظ حقوق المرأة:

هذه الآية - في الحقيقة - خطوة أخرى على طريق مكافحة العادات والأعراف الخاطئة التي تؤدي إلى حرمان الأطفال والنساء من حقوقهم المسلمة الطبيعية، وعلى هذا الأساس تكون هذه الآية مكملة للأبحاث التي مرّت في الآيات السابقة، لأن العرب الجاهليين كانوا - حسب تقاليدهم وأعرافهم الظالمة - يمنعون النساء والصغار من حق الإرث، ولا يسهمون لهم من الموارث، فأبطلت هذه الآية هذا التقليد الخاطيء المظالم إذ قال سبحانه: ﴿للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون، وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قلّ منه أو كثر﴾.

ثمّ قال سبحانه في ختام هذه الآية بغية التأكيد على الموضوع «نصيباً مفروضاً» حتى يقطع الطريق على كل تشكيك أو ترديد في هذا المجال. ثمّ أنّ الآية الحاضرة - كما هو ملاحظ - تذكر حكماً عاماً، وشاملاً لجميع الموارد، ولهذا فإن ما يتصوره البعض من أنّ الأنبياء لا يورثون، أي أنّهم إذا تركوا شيئاً من ثروة ومال لم يرثهم أقرباؤهم، خلاف الآية (طبعاً المقصود من الأموال التي يتركها النبي ﷺ هي تلك الأموال الخاصّة به، وأمّا الأموال المتعلقة ببيت المال الذي هو من حق المسلمين عامّة، فالحكم الإسلامي فيها هو صرفها في مواردّها).

كما أنّه يتبيّن من إطلاق الآية الحاضرة والآيات الأخرى التي تأتي في ما بعد حول الإرث أنّ القول بالتعصيب (وهو إعطاء شيء من التركة إلى عصابة الميت وهم من ينتسبون إليه من طرف الأب، وذلك في بعض الموارد كما يذهب إليه علماء السنة) يخالف هو أيضاً ما جاء به القرآن الكريم من تعاليم في مجال

الإرث، لأن ذلك يستلزم حرمان النساء من الميراث في بعض الموارد، وهذا ضرب من التمييز الجاهلي الذي رفضه الإسلام وأبطله بالآية الحاضرة والآيات المشابهة لها.



الآية

وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينُ
فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿٨﴾

التفسير

حكم أخلاقي:

نزلت الآية الحاضرة بعد قانون تقسيم الإرث حتماً إذ تقول: «وإذا حضر القسمة أولوا القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه».

وعلى هذا الأساس يتضمّن محتوى هذه الآية حكماً أخلاقياً إستحبابياً في شأن طبقات محجوبة عن الإرث بسبب وجود طبقات أقرب منها إلى المورث، فالآية تقول: إذا حضر مجلس تقسيم الإرث جماعة من الأقرباء من الطبقة الثانية والثالثة، وكذا بعض اليتامى والمساكين فارزقوهم من الإرث، وبهذا تكونون قد منعتهم من تحريك شعور الحسد والبغضاء لدى من يمكن أن يشوّر لديهم ذلك الشعور بسبب حرمانهم من الإرث، ولا شك أنّ هذا العمل من شأنه أن يقوي أواصر القرابة الإنسانية بينكم.

إنّ كلمتي «اليتامى» و«المساكين» وإن ذكرتا بنحو مطلق في هذه الآية، غير أنّ الظاهر هو أنّ المراد منهما هم اليتامى والمساكين من قربي الميت، لأنّ الأقرب

يحبب - في قانون الإرث - الأبعد من الإرث، وعلى هذا فلو حضر أحد من هذه الطبقات قسمة الميراث فإنه ينبغي أن يعطي الورثة له شيئاً من الميراث هدية (يتوقف مقدارها على إرادة الوراث على أن يكون ذلك من مال الورثة الكبار دون الصغار).

هذا ويحتمل جماعة من المفسرين أن يكون المراد من اليتامى والمساكين في هذه الآية هو مطلق اليتامى والمساكين سواء أكانوا من قرابة الميت أم لا، ولكن هذا الإحتمال يبدو بعيداً في النظر، لأن الأجنب ليس لهم طريق إلى المجالس العائلية غالباً.

كما أنه يعتقد بعض المفسرين أن الآية تتضمن حكماً وجوبياً لإستحبابياً، بيد أن هذا الأمر فيها على نحو الوجوب، وجب تعيين وتحديد ما يلزم أعطائه لهاتين الطائفتين، في حين ترك الأمر فيه إلى إرادة الورثة.

ثم أنه سبحانه يختم هذه الآية بدستور أخلاقي إذ يقول: ﴿وقولوا لهم قولاً معروفاً﴾ يعني أنه مضافاً إلى تقديم مساعدة مادية إلى هؤلاء أشفعوا ذلك بموقف أخلاقي واستفيدوا من المعين الإنساني لكسب مودتهم، وحتى لا يبقى في قلوبهم أي شعور عدائي تجاهكم، وهذا الدستور علامة أخرى ودليل آخر على أن الأمر بإعطاء شيء من الميراث إلى اليتامى والمساكين إنما هو على نحو الندب لا الوجوب.

من كل ما ذكرناه يتضح أنه لا مبرر أبداً لأن يقال أن الحكم المذكور في هذه الآية منسوخ بالآيات التي تعين السهام في الإرث، لعدم وجود أية منافاة وتعارض بين هذه الآية وتلك الآيات المحددة للأسهم.

الآية

وَلِيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَةً ضِعَافاً خَافُوا
عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيداً ﴿١﴾

التفسير

دعوة إلى العطف على اليتامى:

يشير القرآن الكريم - بهدف إثارة مشاعر العطف والإشفاق لدى الناس بالنسبة إلى اليتامى - إلى حقيقة يغفل عنها الناس أحياناً، وتلك الحقيقة هي: إن على الإنسان أن يعامل يتامى الآخرين كما يحب أن يعامل الناس يتاماه. تصوروا مشهد أطفال فقدوا آباءهم وأمهاتهم يعيشون تحت كفالة شخص قاسي القلب خائن لا يراعى مشاعرهم، كما لا يراعي جانب العدالة في حقهم. أجل تصوروا هذا المشهد المؤلم، كم يؤلمكم ويحزنكم ذلك؟ هل تحبّون مثل ذلك لأبنائكم الصغار من بعدكم؟ كلا حتماً، فكما تحبّون ورثتكم فأحبّوا ورثة غيركم ويتاماهم، واحزنوا لما يحزنهم.

وعلى هذا يكون مفهوم قوله سبحانه: ﴿وَلِيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَةً ضِعَافاً خَافُوا عَلَيْهِمْ﴾ هو أن الذين يخافون على مستقبل أولادهم الصغار عليهم أن يخافوا مغبة الخيانة في شؤون اليتامى ويخافوا مغبة إبدائهم.

وأساساً: إنّ القضايا الاجتماعية تنتقل في شكل سنة من السنن - من اليوم إلى الغد، ومن الغد إلى المستقبل البعيد، فالذين يُرَوِّجون في المجامع سنة ظالمة مثل إيذاء اليتامى فإن ذلك سيكون سبباً لسريان هذه السنة على أولادهم وأبنائهم أيضاً، وعلى هذا لا يكون مثل هذا الشخص قد أذى يتامى الآخرين وورثتهم فقط، بل فتح باب الظلم على أولاده ویتاماه أيضاً.

لهذا وجب أن يتجنب أولياء اليتامى مخالفة الأحكام الإلهية، ويتقوا الله في اليتامى ويقولوا لهم قولاً عدلاً موافقاً للشرع والحق، قولاً ممزوجاً بالعواطف الإنسانية والمشاعر الأخوية، لكي يندمل بذلك ما في قلوب أولئك من الجراح، وينجبر ما في أفئدتهم من الكسر، وإلى هذا يشير قوله سبحانه: ﴿فليتقوا الله وليقولوا قولاً سديداً﴾.

إنّ هذا التعليم الإسلامي الرفيع المذكور في العبارة السابقة إشارة إلى ناحية نفسية في مجال تربية اليتامى - جديرة بالاهتمام والرعاية، وهي: إنّ حاجة الطفل اليتيم لا تنحصر في الطعام والكساء، بل مراعاة مشاعرهم وأحاسيسهم القلبية هو الأهم، وهو ذو تأثير كبير جداً في بناء مستقبلهم، لأن الطفل اليتيم إنسان كغيره، يجب أن يحصل على غذائه اللازم من الناحية العاطفية، فيجب أن يحظى بالحنو والرعاية كما يحظى بذلك أي طفل آخر في حضن أبيه وأمه. أنه ليس «حَمَل» يخرج مع القطيع للرعي عند الصباح، ويعود عند الغروب، بل هو إنسان يجب - مضافاً إلى الرعاية الجسدية - أن يحظى بالرعاية الروحية، والعناية العاطفية، وإلا نشأ قاسياً مهزوماً، عديم الشخصية، بل وحاقداً خطيراً.

إيضاح ضروري:

عن عبد الأعلى مولى آل سام قال قال أبو عبد الله عليه السلام مبتدئاً: «من ظلم سَطَط الله عليه من يظلمه، أو على عقبه، أو على عقب عقبه، قال (أي الراوي) فذكرت في

نفسى ققلت: يظلم (و) هو يتسلط على عقبه وعقب عقبه؟ فقال لي قبل أن أتكلم: إن الله يقول: «وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم».

إنّ السؤال الذي خالج ذهن الراوي يخالج نفسه أذهان كثيرين، فيتساءلون: كيف يحمل البارئ تعالى جزاء شخص على شخص آخر، بل وماذا فعل أبناء العاصي حتى يتلوا بمن يظلمهم، ويتحملوا وزر ما جناه والدهم؟

إنّ جواب هذا السؤال يتضح من الإيضاح الذي ذكر في الحديث السابق وهو أن ما يرتكبه الأشخاص في المجتمع من أعمال تتخذ شكل السنة شيئاً فشيئاً، وينتقل إلى الأجيال اللاحقة، وعلى هذا الأساس فإن الذين يظلمون اليتامى في المجتمع، ويرسون قواعد هذا السلوك الظالم سيصاب أبنائهم بلهيب هذه البدعة يوماً ما أيضاً، ويعدّ هذا في الحقيقة أحد الآثار الوضعية التكوينية لمثل هذا العمل، وأمّا نسبته إلى الله فهي لأجل أن جميع الآثار التكوينية وكل خواص العلة والمعلول منسوبة إلى الله ومستندة إليه تعالى، ولا يظلم ربك أحداً أبداً.

وخلاصة القول: إذا ساء الظلم في المجتمع فإنه سوف يسري ويصيب الظالم وأولاده أيضاً.



الآية

إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ
نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠٧﴾

التفسير

الوجه الحقيقي لأفعال البشر:

لقد ذكرنا في مطلع هذه السورة أن آيات هذه السورة نزلت لبناء مجتمع صالح وسليم، ولهذا تسعى آياتها في تطهير المجتمع من الرواسب الجاهلية وما تبقى في نفوس بعض المسلمين الحديثي العهد بالإسلام من العادات السيئة أولاً، لتتهيأ الأرضية لإقامة ذلك المجتمع الصالح المنشود.

وأية عادة ترى أقبح من أكل أموال اليتامى؟ ولهذا ابتدأت هذه السورة بعبارات شديدة النكير على من يتصرف في أموال اليتامى تصرفاً غير مشروع، وغير صحيح، والآية الحاضرة هي أوضح هذه العبارات.

تقول هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾.

ولقد ورد نظير هذه العبارة في موضع آخر من القرآن الكريم وذلك في شأن الذين يكتمون الحق، ويحرفون الكلم عن مواضعها لتحقيق بعض المكاسب

المادية الشخصية إذ يقول سبحانه عنهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ، وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أَوْلَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ﴾^(١). ثمّ أنّه سبحانه يقول في بيان نتيجة أكل أموال اليتامى: «وسيصلون سعيراً». و«يصلى» من «الصلى» بمعنى الدخول في النار والإحتراق بلهيبها، وأمّا «السعير» فبمعنى النار المشتعلة.

ويقصد القرآن من هذه الجملة إنّ الذين يأكلون أموال اليتامى مضافاً إلى أنّهم يأكلون النار - في الحقيقة - في هذه الدنيا سيدخلون عمّا قريب ناراً مشتعلة الأوار وحارقة للهب في الدار الآخرة.

ويستفاد من هذه الآية أن أعمالنا مضافاً إلى وجهها الظاهري وجهاً واقعياً أيضاً، وجهاً مستوراً عمّا في هذه الدنيا، لا نراه بعيوننا هنا، ولكنه يظهر في العالم الآخر، وهذا الأمر هو ما يشكل مسألة تجسم الأعمال المطروحة في المعتقدات الإسلامية.

إنّ القرآن يصرح في هذه الآية بأنّ الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً وجوراً، وإنّ كان الوجه الظاهري لفعالهم هذا هو الأكل من الأطعمة اللذيذة الملونة، ولكن الوجه الواقعي لهذه الأغذية هو النار المحرقة الملتهبة، وهذا الوجه هو الذي يظهر ويتجلّى على حقيقته في عالم الآخرة.

إنّ بين الوجه الواقعي للعمل والكيفية الظاهرية للعمل تناسباً وتشابهاً دائماً، فكما أن أكل مال اليتيم وغصب حقوقه يحرق فؤاد اليتيم، ويؤذي روحه، فكذا يكون الوجه الواقعي للعمل ناراً محرقة.

إنّ الإلتباه إلى هذا الأمر (أي الوجه الحقيقي الواقعي لكل عمل) خير رادع للذين يؤمنون بهذه الحقائق، كيما لا يرتكبوا المعاصي ولا يقتربوا الذنوب، فهل يوجد ثمّة من يحب أن يأخذ بيديه قبسات من النار، ويضعها في فمه وبيتلعها؟

إنه من غير الممكن - والحال هذه - أن يقدم المؤمنون على أكل مال اليتيم ظلماً، ولو أننا وجدنا ثمة من لا يقدم على هذا الفعل، بل ولا يفكر في المعصية أبداً (كالأولياء)، فلأنهم يرون - بفضل ما لديهم من الإيمان والعلم، وما حصلوا عليه من تربية خلقية - حقائق الأفعال البشرية ووجوهها الواقعية، فلا يفكرون في إقتراف هذه الأعمال السيئة، فضلاً عن الهَمِّ باقترافها.

إنَّ الطفل الجاهل هو الذي يمكن أن يسحره ويجذبه جمال الجذوات المتقدمة وألسنة اللهب المندفعة منها فيمد يده إليها، ولكن الإنسان العاقل الذي جرب حرارة النار وذاق ألمها، كيف يمكن أن يفكر يوماً بذلك.

هذا ولقد وردت أحاديث كثيرة تنهى بشدة عن أكل مال اليتيم والعدوان على حقوقه، وتؤكد على أنها كبيرة موبقة، بل وتعتبر أبسط الأعمال من هذا النوع مشمولاً لهذا الحكم الصارم وموضوعاً لهذه العقوبة القاسية.

ففي حديث عن الإمام الصادق أو الإمام الباقر عليهما السلام لما سئل في كم يجب لأكل مال اليتيم من النار؟ قال: في درهمين^(١).



الآياتان

يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ
نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا
النِّصْفُ وَالْأَبَوَيْنِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا الشُّدُسُ يِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ
وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ
إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ الشُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ
عَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةٌ مِّنْ
اللَّهِ إِنْ اللَّهُ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١٠﴾ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ
إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلِكُمُ الرِّبْعُ يِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ
بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِيَنَّ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرِّبْعُ يِمَّا تَرَكنَّ إِنْ لَمْ يَكُنْ
لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ السُّمْنُ يِمَّا تَرَكنَّ مِنْ بَعْدِ
وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلِئَلَةً أَوْ
امْرَأَةً وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا الشُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا
أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا
أَوْ دَيْنٍ غَيْرِ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١١١﴾

سبب النزول

لَمَّا مَاتَ «عبد الرحمن بن ثابت الأنصاري» «أخو حسان بن ثابت» الشاعر المعروف في صدر الإسلام وقد خلف امرأة وخمسة أخوان، اقتسم أخوانه ميراثه بينهم ولم يعطوا زوجته شيئاً مما تركه من المال، فشكت ذلك إلى رسول الله ﷺ فنزلت الآيات الحاضرة التي تبين وتحدد سهم الأزواج من الإرث بنحو دقيق.

كما نقل عن جابر بن عبد الله الأنصاري أنه قال: مرضت فعادني رسول الله ﷺ فأغمي عليّ، فطلب النبي ماء وتوضأ لبعضه وصب بعضه الآخر عليّ فأفقت فقلت: يا رسول الله كيف أصنع في مالي (أي كيف يجب أن يكون أمره من بعد وفاتي) فسكت رسول الله ﷺ ولم يقل شيئاً، فنزلت آية الموارث تبين نظام الإرث وتحدد أسهم الورثة.

الإرث حق طبيعي:

قبل أن نعد إلى تفسير الآيات الحاضرة لابد أن نشير إلى عدة نقاط. أولاً: قد يتصور كثيرون أن من الأفضل أن تعود أموال الشخص بعد وفاته إلى الملكية العامة، وأن تضاف إلى بيت مال المسلمين، ولكن الإمعان في هذا العمل يكشف لنا عن كونه خلاف العدل، لأن مسألة الإرث والتوارث مسألة طبيعية منطقية جداً، فكما أن الأبناء والأمهات ينقلون قسماً من صفاتهم الجسمية والروحية إلى أبنائهم - حسب قانون الوراثة الطبيعي - فلماذا يستثنى من ذلك أموالهم فلا تنتقل إلى أبنائهم؟

هذا مضافاً إلى أن الأموال المشروعة هي نتاج جهود الإنسان المضنية، ومساغبه وأتعابه فهي في الحقيقة طاقاته المتجسدة في صورة المال وهيئة الثروة، ولهذا لابد من الاعتراف بأن كل شخص هو المالك الطبيعي لحاصل

جهوده وثمرة أتعابه، وهذا هو حكم فطري.

وعلى هذا، فعندما يمتنع أن يتصرف الشخص في أمواله بعد وفاته ويحال بينه وبين ثروته بسبب الموت، تصبح هذه الأموال من حق أقرب الناس إليه، والذين يعتبرون - في الحقيقة - بشخصيتهم ووجودهم امتداداً لشخصيته ووجوده.

على هذا الأساس نجد الكثيرين لا يتركون الكد والعمل، والكسب والتجارة حتى آخر لحظة من حياتهم رغم ما يملكون من ثراء طائل، وذلك لبغية أن يوفروا لأبنائهم مستقبلاً زاهراً ويقيموا لهم حياة سعيدة بعدهم، وهذا يعني أن الإرث وقانون التوريث قادر على إعطاء العجلة الاقتصادية دفعة قوية ويزيد من حركتها ودورانها ونشاطها، وأما إذا عرف الشخص أن أمواله بعد موته، وامتناع تصرفه في تلك الأموال بسبب الوفاة تعود إلى الملكية العامة، فإنه قد يفقد قسطاً كبيراً من نشاطه الاقتصادي، ويصاب بالفتور والكسل.

ويشهد بهذا الأمر ما وقع في فرنسا قبل حين، عندما أقدم مجلس النواب الفرنسي - كما قيل - على إلغاء قانون الإرث قبل مدةٍ وأقرّ بدل ذلك إلحاق أموال الأشخاص بعد موتهم إلى خزانة الدولة، وصيرورتها أموالاً عامة، فتؤخذ من قبل الدولة وتصرف في المصارف العامة بحيث لا يحصل ورثة الميت على أي شيء من التركة، فكان لهذا القانون أثر سيء وظاهر على الحركة الاقتصادية، فقد لوحظ اختلال كبير في أوضاع التصدير والاستيراد، كما خف النشاط الاقتصادي هناك بشكل ملحوظ، فأقلق ذلك بال الحكومة، وكان السبب الوحيد وراء هذه الحالة هو «إلغاء قانون الإرث» مما دفع بالدولة إلى إعادة النظر في هذا القرار.

وعلى هذا لا يمكن إنكار أن قانون الإرث ومبدأ التوريث مضافاً إلى كونه قانوناً طبيعياً فطرياً، له أثر قوي وعميق في تنشيط الحركة الاقتصادية.

الإرث في الأمم السابقة:

لما كان لقانون الإرث جذوراً فطرية فإنه شوهد وجود الإرث والتوريث في الشعوب والأمم السابقة في أشكال وصور مختلفة.

أما بين اليهود - وإن ادعى البعض عدم وجود مبدأ التوارث عندهم - ولكننا حينما نراجع التوراة نجدها تذكر هذا القانون في سفر الأعداد بصورة صريحة إذ يقول:

وتكلم بني إسرائيل قائلاً: أيما رجل مات وليس له ابن تنقلون ملكه إلى إبنته، وإن لم تكن له إبنة تعطوا ملكه لإخوته، وإن لم يكن له أخوة تعطوا ملكه لإخوة أبيه، وإن لم يكن لأبيه أخوة تعطوا ملكه لنسيبه الأقرب إليه من عشيرته فيرثه فصارت لبني إسرائيل فريضة قضاء كما أمر الرب موسى^(١) يدور لدى بني إسرائيل.

ويستفاد من هذه العبارات أن مبدأ التوارث كان على محور النسب فقط، ولهذا لم يرد ذكر عن سهم الزوجة في الميراث.

وأما في الدين النصراني فالمفروض أن يكون مبدأ الإرث المذكور في التوراة معتبراً أيضاً، وذلك لما نقل عن المسيح عليه السلام من أنه قال: «أنا لم أبعث لأغير من أحكام التوراة شيئاً» ولهذا لا نجد في كتابات الفتاوى الدينية أي كلام حول الإرث، نعم ورد في هذه الكتب بعض مشتقات الإرث في بعض الموارد، ولكنها تعني جميعاً الإرث المعنوي الأخرى.

هذا وقد كان التوارث لدى العرب الجاهليين يتحقق بإحدى هذه الطرق

الثلاث:

١ - بالنسب، وكان المقصود منه عندهم هم الأبناء الذكور والرجال خاصة،

فلا يرث الصغار والنساء أبداً.

٢- بالتبني، وهو من طرده أهله من الأبناء، فتكفله وتبناه شخص آخر أو عائلة أخرى، وفي هذه الصورة يتحقق التوارث بين المتبني والمتبني له.

٣- بالعهد، يعني إذا تعاهد شخصان أن يدافع كل واحد منهما عن الآخر طيلة حياتهما ويرث أحدهما الآخر بعد وفاته، فإنه يقع التوارث بينهما بعد وفاة أحدهما.

وقد حرّر الإسلام قانون الإرث الطبيعي الفطري مما علق به من الخرافات، ولحق به من رواسب التمييز العنصري الظالم الذي كان يفرق بين الرجل والمرأة حيناً، وبين الكبار والأطفال حيناً آخر، وجعل ملاك التوارث في ثلاثة أمور لم تكن معروفة إلى ذلك الحين:

١- النسب وذلك بمفهومه الواسع، وهم كل علاقة تنشأ بين الأشخاص بسبب الولادة في مختلف المستويات من دون فرق بين الرجال والنساء والصغار والكبار.

٢- السبب وهي العلاقات الناشئة بين الأفراد بسبب المصاهرة والتزواج.

٣- الولاء وهي العلاقات الناشئة بين شخصين من غير طريق القرابة (السبب والنسب) مثل ولاء العتق، يعني إذا أعتق رجل عبده، ثم مات العبد وخلف من بعده مالاً ولم يترك أحداً ممن يرثونه بالسبب أو النسب، ورثه المعتق، وفي هذا حيث على التحرير والإعتاق، وكذلك ولاء ضمان الجريرة، وهو أن يركن شخص إلى آخر - لا سبب بينهما ولا نسب - ويتعهده أن يضمن كل منهما جناية الآخر ويدافع كل منهما عن الآخر، ويكون إرث كل منهما للآخر، و«ولاء الإمامة» يعني إذا مات أحد ولم يترك من يرثونه ممن ذكر ورثه الإمام عليه السلام، أي أن أمواله تنتقل إلى بيت المال الإسلامي، وتصرف في شؤون المسلمين العامة.

هذا، ولكل واحدة من هذه الطبقات أحكام وشرائط خاصة مذكورة في

الكتب الفقهية المفصلة.

التفسير

قال الله تعالى في الآية الأولى من هذه الآيات ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾ وهو بذلك يشير إلى حكم الطبقة الأولى من الورثة (وهم الأولاد والآباء والأمهات)، ومن البديهي أنه لا رابطة أقوى وأقرب من رابطة الأبوة والبنوة ولهذا قدموا على بقية الورثة من الطبقات الأخرى.

ثم إن من الجدير بالإهتمام من ناحية التركيب اللفظي جعل الأنثى هي الملاك والأصل في تعيين سهم الرجل، أي أن سهمها من الإرث هو الأصل، وإرث الذكر هو الفرع الذي يعرف بالقياس على نصيب الأنثى من الإرث إذ يقول سبحانه: ﴿وَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾، وهذا نوع التأكيد على توريث النساء ومكافحة للعادة الجاهلية المعتدية القاضية بحرمانهن من الإرث والميراث، حرماناً كاملاً.

وأما فلسفة هذا التفاوت بين سهم الأنثى والذكر فذلك ما ستعرض له عمّا قريب إن شاء الله.

ثم يقول سبحانه وتعالى: ﴿فَإِنْ كُنْ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾ أي لو زادت بنات الميت على اثنتين فلهن الثلثان أي قسم الثلثان بينهما.

ثم قال ﴿وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ﴾ أي لو كانت البنت واحدة ورثت النصف من التركة.

وها هنا سؤال:

القرآن يقول في هذا المجال «فوق اثنتين» أي لو كانت بنات الميت أكثر من بنتين استحققت ثلثي التركة يقسم بينهما، وهذا يعني أن القرآن ذكر حكم البنت الواحدة، وحكم البنات فوق اثنتين، وسكت عن حكم «البنتين»، فلماذا؟

الجواب:

بملاحظة المقطع الأوّل من الآية الحاضرة يتضح جواب هذا السؤال، ونعني قوله تعالى: ﴿لِلذَكَرِ مِثْلَ حِظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾، ولو إجمالاً، لأنّ ورثة الميِّت إن انحصرُوا في ابن واحد وبنت واحدة كان للابن الثلثان وللبنات الثلث، فإذا كانتا بنتين كان لهما الثلثان حسب هذه العبارة.

وخلاصة القول: أنّه إذا قال للذكر مثل حظ الأنثيين وكان أوّل العدد ذكراً وأنثى وللذكر الثلثان وللأنثى الثلث، عَلِمَ من ذلك أن للبنتين الثلثين، ولعلّ لوضوح هذا الأمر لم تتعرض الآية لبيانها (أي لذكر سهم الأختين) واكتفت بذكر سهم البنات المتعدّدات فوق اثنتين، وهو الثلثان.

على أن هذا المطلب يتّضح أيضاً بمراجعة الآية الأخيرة من سورة النساء، لأنّها جعلت نصيب الأخت الواحدة النصف (مثل نصيب البنت الواحدة) ثمّ تقول: ﴿فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثَّلَاثَانُ﴾ فمن هذا يتضح أن سهم البنتين هو الثلثان أيضاً. هذا مضافاً إلى ورود مثل هذا التعبير في الأدب العربي، إذ يقول العرب أحياناً «فوق اثنتين» ويكون مرادهم هم «اثنتان فما فوق».

وبغض النظر عن كل ما قيل أنّ الحكم المذكور من الأحكام القطعية المسلمة من وجهة نظر الفقه الإسلامي والأحاديث الشريفة، والرجوع إلى السنة المطهرة (أي الأحاديث) كقيل برفع أي إبهام في الجملة المذكورة إن كان.

لماذا يرث الرجل ضعف المرأة؟:

مع أنّ ما يرثه الرجل هو ضعف ما ترثه المرأة، إلّا أنّه بالإمعان والتأمّل يتّضح أنّ المرأة ترث - في الحقيقة - ضعف ما يرثه الرجل إذا لاحظنا القضية من جانب آخر، وهذا إنّما هو لأجل ما يوليه الإسلام من حماية لحقوق المرأة. توضيح ذلك: إنّ هناك وظائف أنيطت بالرجل (وبالأحرى كلّ بادانها تجاه

المرأة) تقتضي صرف وإنفاق نصف ما يحصل عليه الرجل على المرأة، في حين لا يجب على المرأة أي شيء من هذا القبيل.

إنّ على الرجل (الزوج) أن يتكفل نفقات زوجته حسب حاجتها من المسكن والملبس والمأكل والمشرب وغير ذلك من لوازم الحياة كما أن عليه أن ينفق على أولاده الصغار أيضاً، في حين أعفيت المرأة من الإنفاق حتى على نفسها، وعلى هذا يكون في إمكان المرأة تدخر كل ما تحصله عن طريق الإرث، وتكون نتيجة ذلك أن الرجل يصرف وينفق نصف مدخوله على المرأة، ونصفه فقط على نفسه، في حين يبقى سهم المرأة من الإرث باقياً على حاله.

ولمزيد من التوضيح نلقت نظر القارئ الكريم إلى المثال التالي: لنفترض أنّ مجموع الثروات الموجودة في العالم والتي تقسم تدريجاً - عن طريق الإرث - بين الذكور والإناث هو (٣٠) ملياراً ديناراً، والآن فلنحاسب مجموع ما يحصل عليه الرجال ونقيسه بمجموع ما تحصل عليه النساء عن طريق الإرث. فلنفترض أنّ عدد الرجال والنساء متساوٍ فتكون حصة الرجال هو (٢٠) ملياراً ديناراً، وحصة النساء هي (١٠) ملياراً ديناراً.

وحيث أنّ النساء يتزوجن - غالباً - فإنّ الإنفاق عليهنّ يكون من واجب الرجال، وهذا يعني أنّ تحتفظ النساء بـ (١٠) ملياراً ديناراً (وهو سهمهنّ من الإرث)، ويشاركن الرجال في العشرين ملياراً ديناراً، لأنّ على الرجال أن يصرفوا من سهمهم على زوجاتهم وأطفالهم.

وعلى هذا يصرف الرجال (١٠) ملياراً ديناراً على النساء (وهو نصف سهمهم من الإرث) فيكون مجموع ما تحصل عليه النساء ويملكه هو (٢٠) ملياراً ديناراً وهو ثلثا الثروة العالمية في حين لا يعود من الثروة العالمية على الرجال إلاّ (١٠) ملياراً ديناراً، أي ثلث الثروة العالمية (وهو المقدار الذي يصرفه الرجال على أنفسهم).

وتكون النتيجة أنّ سهم المرأة التي تصرفه وتستفيد منه وتتملكه واقعاً هو ضعف سهم الرجل، وهذا التفاوت إنّما لكونهنّ أضعف من الرجال على كسب الثروة وتحصيلها (بالجهد والعمل)، وهذا - في حقيقته - حماية منطقية وعادلة قام بها الإسلام للمرأة، وهكذا يتبيّن أنّ سهمها الحقيقي أكثر - في النظام الإسلامي - وإن كان في الظاهر هو النصف.

ومن حسن الصدق أننا نقف على هذه النقطة إذا راجعنا التراث الإسلامي حيث أنّ هذا السؤال نفسه قد طرح منذ بداية الإسلام وخالف بعض الأذهان، فكان الناس يسألون أئمة الدين عن سرّ ذلك بين حين وآخر، وكانوا يحصلون على إجابات متشابهة في مضمونها - على الأغلب - وهو أنّ الله إذ كلف الرجال بالإفناق على النساء وأمهارهنّ، جعل سهمهم أكثر من سهمهنّ.

إنّ أبا الحسن الرضا عليه السلام كتب إليه في ما كتب من جواب مسائله علّة إعطاء النساء نصف ما يعطي الرجال من الميراث: لأنّ المرأة إذا تزوجت أخذت، والرجل يعطي، فلذلك وفرّ على الرجال، وعلّة أخرى في إعطاء الذكر مثل ما يعطى الأنثى لأنّ الأنثى من عيال الذكر إن احتاجت، وعليه أن يعولها وعليه نفقتها، وليس على المرأة أن تعول الرجل ولا تؤخذ بنفقته إن احتاج فوفرّ على الرجال لذلك ^(١).

إرث الأب والأم:

وأما ميراث الآباء والأمهات الذين هم من الطبقة الأولى، وفي مصاف الأبناء أيضاً، فإنّ له كما ذكرت الآية الحاضرة (أي الآية الأولى من هذه المجموعة) ثلاث حالات هي:

الحالة الأولى: إنّ الشخص المتوفى إن كان له ولد أو أولاد، ورث كل من الأب

والأمُّ السدس: «ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد». الحالة الثانية: إن لم يكن للمتوفى ولد، وانحصر ورثته في الأب والأم، ورثت الأم ثلث ما ترك، يقول سبحانه: «فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث» وإذا كنا لا نجد هنا أي ذكر عن سهم الأب فلان سهمه واضح وبين وهو الثلثان، هذا مضافاً إلى أنه قد يخلف الميت زوجة فينقص في هذه الصورة من سهم الأب دون سهم الأم، وبذلك يكون سهم الأب متغيراً في الحالة الثانية.

الحالة الثالثة: إذا ترك الميت أباً وأماً وأخوة من أبويه أو من أبيه فقط، ولم يترك أولاداً، ففي مثل هذه الحالة ينزل سهم الأم إلى السدس، وذلك لأن الأخوة يحجبون الأم عن إرث المقدار الزائد عن السدس وإن كانوا لا يرثون، ولهذا يسمى أخوة الميت بالحاجب، وهذا ما يعنيه قول الله سبحانه: «فإن كان له أخوة فلأمه السدس».

وفلسفة هذا الحكم واضحة، إذ وجود أخوة للميت يثقل كاهل الأب، لأن على الأب الإنفاق على أخوة الميت حتى يكبروا، بل عليه أيضاً أن ينفق عليهم بعد أن يكبروا، ولهذا يوجب وجود أخوة للميت من الأبوين أو من الأب خاصة تدني سهم الأم، ولا يوجب تدني سهم الأب، ولا يحجبونها عن إرث ما زاد على السدس إذا كانوا من ناحية الأم خاصة، إذ لا يجب لهم على والد الميت شيء من النفقات. كما هو واضح.

سؤال:

ويرد هنا سؤال، وهو أن القرآن استعمل في المقام صيغة الجمع إذ قال: «فإن كان له أخوة» ونحن نعلم أن أقل الجمع هو ثلاثة، في حين يذهب جميع الفقهاء إلى أن الأخوين يحجبان أيضاً، فكيف التوفيق بينهما؟

الجواب:

إن الجواب يتضح من مراجعة الآيات القرآنية الأخرى، وإذ لا يلزم أن يكون

المراد كلما استعملت صيغة الجمع، الثلاثة فما فوق، بل استعملت أحياناً على شخصين فقط كما في الآية (٧٨) من سورة الأنبياء «وَكُنَّا لِحَكْمِهِمْ شَاهِدِينَ». والآية ترتبط بقضاء داود وسليمان، وقد استخدم القرآن الكريم ضمير الجمع في شأنهما، فقال «لِحَكْمِهِمْ».

ومن هنا يتضح أنه قد تستعمل صيغة الجمع في شخصين أيضاً، ولكن هذا يحتاج طبعاً إلى قينة وشاهد، والشاهد في المقام هو ورود الدليل من أئمة الدين على ذلك، وإجماع المسلمين، إذ أجمع فقهاء المسلمين سنة وشيعة (إلا ابن عباس) إن الحكم المذكور في الآية يشمل الأخوين أيضاً.

الإرث بعد الوصية والذين:

ثم إن الله سبحانه يقول: «من بعد وصية يوصي بها أو دين» فلا بد من تنفيذ ما أوصى به الميت من تركته، أو أداء ما عليه من دين أولاً، ثم تقسيم البقية بين الورثة.

(وقد ذكرنا في باب الوصية أن لكل أحد أن يوصي بأمر في مجال الثلث الخاص به فقط، فلا يصح أن يوصي بما زاد عن ذلك إلا أن ياذن الورثة بذلك). ثم قال سبحانه: «أبائكم وأبنائكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعاً» وهذه العبارة تفيد أن قانون الإرث المذكور قد أرسى على أساس متين من المصالح الواقعية، وأن تشخيص هذه المصالح بيد الله، لأن الإنسان يعجز عن تشخيص مصالحه ومفاسده جميعاً، فمن الممكن أن يظن البعض أن الآباء والأمهات أكثر نفعاً لهم، ولذلك فهم أولى بالإرث من الأبناء وإن عليه أن يقدمهم عليهم، ومن الممكن أن يظن آخرون العكس، ولو كان أمر الإرث وقسمته متروكاً إلى الناس لذهبوا في ذلك ألف مذهب، ولآل الأمر إلى الهرج والمرج والفوضى، وانتهى إلى الاختلاف والتشاجر، ولكن الله الذي يعلم بحقائق الأمور كما هي أقام قانون

الإرث على نظام ثابت يكفل خير البشرية ويتضمن صلاحها ...
ولأجل أن يتأكد كل ما ذكر من الأمور، ويتخذ صفة القانون الذي لا يحتمل
التريد، ولا يكون فيه للناس أي مجال نقاش، يقول سبحانه: ﴿فريضة من الله إن
الله كان عليمًا حكيمًا﴾ وبذلك يقطع الطريق على أي نقاش في مجال القوانين
المتعلقة بالأسهم في الإرث.

سهم الأزواج بعضهم من بعض:

في الآية السابقة أشير إلى سهم الأولاد والآباء والأمهات، وفي الآية التي
تليها يقول الله سبحانه: ﴿ولكم نصف ما ترك أزواجكم إن لم يكن لهنّ ولد﴾
ويشير سبحانه إلى كيفية إرث الزوجين بعضهما من بعض، فإن الزوج يرث نصف
ما تتركه الزوجة هذا إذا لم يكن للزوجة ولد، فإن كان لها ولد أو أولاد (ولو من
زوج آخر) ورث الزوج ربع ما تتركه فقط، وإلى هذا يشير تعالى في نفس الآية:
﴿فإن كان لهنّ ولد فلکم الربع مما تركن﴾.

على أن هذا التقسيم يجب أن يتم بعد تنفيذ وصايا المتوفاة، أو تسديد ما
عليها من ديون كما يقول سبحانه: ﴿من بعد وصية يوصين بها أو دين﴾.
وأما إرث الزوجة مما يتركه الزوج، فإذا كان للزوج أولاد (وإن كانوا من
زوجة أخرى) ورثت الزوجة الثمن لقوله سبحانه: ﴿فإن كان لكم ولد فلهنّ الثمن
مما تركتم﴾.

ويكون لها الربع إن لم يكن للزوج الميت ولد لقوله سبحانه: ﴿ولهنّ الربع مما
تركتم إن لم يكن لكم ولد﴾.

على أن هذا التقسيم يجب أن يتم أيضاً من بعد تنفيذ وصايا الميت أو تسديد
ديونه من أصل التركة: ﴿من بعد وصية توصون بها أو دين﴾.

والملفت للنظر في المقام هو انخفاض سهام الأزواج إلى النصف إذا كان

للميت ولد، وذلك رعاية لحال الأولاد.

وأما العلة لكون سهم الأزواج ضعف سهم الزوجات فهي ما ذكرناه في البحث السابق حول علة الفرق بين سهم الذكر والأنثى.

ثم إن هاهنا نقطة مهمة يجب التنبيه إليها أيضاً، وهي أن السهم المعين للنساء (سواء الربع أو الثمن) خاص بمن ترك زوجة واحدة فقط (فإنها ترث كل الربع أو كل الثمن) وأما إذا ترك الميت زوجات متعددة قسم ذلك السهم (الربع أو الثمن) بينهن بالتساوي، وهذا هو ما يدل عليه ظاهر الآية مورد البحث أيضاً.

إرث أخوة الميت وأخواته:

ثم أنه سبحانه بعد أن يذكر سهم الأزواج بعضهم من بعض، يعمد إلى ذكر أسهم أخوة الميت وأخواته فيقول: ﴿وإن كان رجل يورث كلالة...﴾.

وفي هذه العبارة نواجه مصطلحاً جديداً ورد في موضعين من القرآن فقط، أحدهما، في الآية المبحوثة هنا، والثاني، في آخر آية من سورة النساء وهي كلمة «كلالة».

إن ما يستفاد من كتب اللغة هو اشتقاق كلالة من الكلال، وهو ذهاب القوة، فقد جاء في صحاح اللغة: الكلاله في الأصل مصدر بمعنى الكلال وهو ذهاب القوة.

ولكنها استعملت في ما بعد في أخوة الميت وأخواته الذين يرثونه، ولعل التشابه بين المعنى الأول والثاني هو أن الأخوة والأخوات يعتبرون من الطبقة الثانية في طبقات الإرث، وهم لا يرثون إلا مع عدم وجود الأب والأم والأولاد للميت ومثل هذا الفاقد للأب والأم والأبناء لا بد أن يعاني من الضعف الشديد، وذهاب القوة، ولهذا قيل له كلالة، قال الراغب في كتابه المفردات: «الكلالة اسم لما عدا الولد والوالد من الورثة».

وروي أن النبي ﷺ سئل عن الكلالة، فقال: من مات وليس له ولد ولا والد، فجعله اسماً للميت، كلا القولين صحيح فإن الكلالة مصدر يجمع الوارث والموروث جميعاً.

وأما تعبير القرآن الكريم عن أخوة الميت وأخواته بالكلالة فلعله لأن على أمثال هؤلاء ممن عدموا الآباء والأمهات والأولاد أن يعلموا أن أموالهم ستقع من بعدهم في أيدي من يمثلون ضعفه، ويدلون على ذهاب قوتهم، ولذلك ينبغي لهم أن يصرفوها في مواضع أكثر ضرورة ولزوماً، وينفقونها في سبيل المحتاجين وفي حفظ المصالح العامة.

عودة إلى تفسير الآية:

يقول الله سبحانه تعالى: ﴿وإن كان رجل يورث كلاله أو امرأة وله أخ أو أخت فلكل واحد منها السدس﴾ أي إن مات رجل ولم يترك إلا أخاً أو أختاً، أو ماتت امرأة ولم تترك سوى أخ أو أخت، يورث كل منهما السدس من التركة، هذا إذا كان الوارث أخاً واحداً وأختاً واحدة.

أما إذا كانوا أكثر من واحد ورث الجميع ثلثاً واحداً، أي قسم مجموع الثلث بينهم: ﴿فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث﴾.

ثم أضاف القرآن: ﴿من بعد وصية يوصي بها أو دين﴾ أي تكون قسمة الميراث هكذا بعد أن ينفذ الورثة من التركة ما أوصى به المتوفى، أو يسددوا ما عليه من ديون، ثم قال: ﴿غير مضار﴾ أي فيما إذا لم يكن ما أوصى الميت بصرفه من الميراث وكذا الدين مضراً بالورثة، أي أن لا يكون أكثر من الثلث، لأن تجاوز الوصية أو الدين عن حد الثلث إضرار، كما أنه يتوقف إمضاء الزائد على الثلث على إذن الورثة ورضاهم بذلك، أو أن يخبر الميت عن ديون كذباً، ليحرم ورثته عن الإرث ويضرّ بهم، كما نصت على ذلك روايات كثيرة مروية عن رسول

الله ﷻ وأهل بيته الطاهرين عليهم السلام.

ثم أنه سبحانه للتأكيد على هذا الحكم يقول: «وصية من الله والله عليم حلِيم» أي أن هذا المطلب وصية من الله يجب أن تحترم موها، لأنه العالم بمصلحتكم وخيركم، فهو أمركم بهذا عن حكمة، كما أنه تعالى عالم بنيات الأوصياء، هذا مع أنه تعالى حلِيم لا يعاقب العصاة فوراً، ولا يأخذهم بظلمهم بسرعة.

بحوث أخرى عند هذه الآية:

هذا وتجب والإشارة - هنا - إلى عدة أمور:

١- إن ما ورد في الآية السابقة حول إرث الأخوة والأخوات وإن كان في ظاهره مطلقاً يشمل الأخوة والأخوات من الأبوين أو من الأب وحده أو من الأم وحدها، إلا أنه بملاحظة آخر آية من سورة النساء (التي يأتي تفسيرها قريباً) يتضح أن المراد - هنا - هو الأخوة والأخوات من جانب الأم فقط (أي الذين ينتسبون إلى الميت من جانب الأم فقط)، في حين أن المقصود في الآية الأخيرة من السورة هو الأخوة والأخوات من جانب الأبوين أو من جانب الأب خاصة (ستعرض لذكر الأدلة على هذا الأمر عند تفسير الآية الأخيرة من هذه السورة إن شاء الله).

وعلى هذا الأساس فإن الآيتين وإن كانتا حول إرث «الكلالة» (أي أخوة الميت وأخواته) ويبدو للنظر تعارض الآيتين، إلا أن التدبر والإمعان في مضمون الآيتين يكشف لنا أن كل واحدة منهما تقصد طائفة خاصة من أخوة الميت وأخواته، وأنه لا تعارض بين مفاد الآيتين أبداً.

٢- من الواضح أن هذه الطبقة لا تراث إلا عند فقدان الطبقة الأولى (وهو الأب والأم، والأولاد) مطلقاً، وبدل على ذلك قوله تعالى: «وأولوا الأرحام

بعضهم أولى ببعض في كتاب الله^(١) كما تدل عليه روايات متظافرة وردت في هذا الصعيد تعين طبقات الإرث، وترجح بعضها علي البعض الآخر.

٣- إن لفظة «فهم شركاء في الثلث» تفيد أن أخوة الميت وأخواته أي «الكلالة» إن كانوا أكثر من أخ وأخت يقتسمون الثلث فيما بينهم بالتساوي، من دون فرق بين الذكور والإناث، لأن المفهوم من «الشركاء في الثلث» هو تساوي الأسهم.

٤- يستفاد من الآية المبحوثة أنه لا يحق للإنسان أن يعترف بديون - كذباً - ليضرب بالورثة ويضيع حقوقهم ويحرمهم من إرثه، أنه يجب عليه فقط أن يعترف - في آخر فرصة من حياته - بما عليه من الديون واقعاً، كما له أن يوصي بوصايا عادلة عبّر عنها في الروايات بأن تكون في حد «الثلث» وإطاره.

فقد وردت في روايات الأئمة عليهم السلام - في هذا الصعيد - عبارات شديدة النكير على من يوصي بوصايا مضرّة بالورثة منها قولهم: «إن الضرار في الوصية من الكبائر»^(٢).

إن الإسلام الحنيف بسنّه لهذا القانون يكون قد حفظ للميت نفسه شيئاً من الحق في مسألة، إذ يهيء له إمكانية الاستفادة والإنتفاع بمقدار الثلث، كما حفظ حقوق الورثة أيضاً حتى لا ينشأ في أفئدتهم أية ضغينة، وحتى لا تتزعزع وشائج المودّة وروابط القربى التي يجب أن تستمر بعد وفاة المورث.

* * *

الآيتان

تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي
مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾
وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً
فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٤﴾

التفسير

«الحدود» جمع حدّ، ويعني في أصل اللّغة لمنع، ثم أطلق على كلّ حائل وحاجز بين شيئين يفصل بينهما ويميز، فحدّ البيت والبستان والدّولة يراد منه الموضع الذي يفصل هذه النقطة عن غيرها من النقاط الأخرى.
هذا ولقد بدأت الآية الأولى من هاتين الآيتين بالإشارة إلى قوانين الإرث التي مرّت في الآيات السابقة بلفظة «تلك» إذ قال سبحانه: ﴿تلك حدود الله﴾ أي تلك حدود الله التي لا يجوز تجاوزها وتجاهلها لأحد، فإن من تعدى هذه الحدود كان عاصياً مذنباً.

وقد وردت هذه العبارة ﴿تلك حدود الله﴾ في مواضع عديدة من القرآن الكريم، وقد جاءت دائماً بعد ذكر سلسلة من الأحكام والقوانين والمقررات الإجماعية، ففي الآية ١٨٧ من سورة البقرة مثلاً تأتي هذه العبارة بعد الإعلان

عن حرمة اللقاء الجنسي بين الزوجين حال الإعتكاف، وبعد ذكر سلسلة من الأحكام المتعلقة بالصوم، كما جاءت في الآيات (٢٢٩ و ٢٣٠) من سورة البقرة، والآية (١٠) من سورة الطلاق بعد بيان قسم من أحكام الطلاق، وفي الآية (٤) من سورة المجادلة بعد بيان كفارة «الظهار».

وفي جميع هذه الموارد أحكام وقوانين مُنع من تجاوزها، ولهذا وصفت بكونها «حدود الله»^(١).

ثم بعد الإشارة إلى هذا القسم من حدود الله يقول سبحانه: ﴿ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها﴾، وهو بذلك يشير إلى النتيجة الأخروية للإلتزام بحدود الله واحترامها، ثم يصف هذه النتيجة الأخروية بقوله: ﴿وذلك هو الفوز العظيم﴾.

ثم يذكر سبحانه ما يقابل هذا المصير في صورة المعصية، وتجاوز الحدود الإلهية إذ يقول: ﴿ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها﴾.

على أننا نعلم أن معصية الله (مهما كانت كبيرة) لا توجب الخلود والعذاب الأبدي في النار، وعلى هذا الأساس يكون المقصود في الآية الحاضرة هم الذين يتعدون حدود الله عن تمرد وطغيان وعداء وإنكار لآيات الله، وفي الحقيقة الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، ولا يستبعد هذا المعنى إذا لاحظنا أن «حدود» جمع، وهو مشعر بأن يكون التعدي شاملاً لجميع الحدود والأحكام الإلهية، لأن الذي يتجاهل كل القوانين الإلهية لا يؤمن بالله عادة، وإلا فإنه يحترم ولو بعضها - على الأقل.

إن الملفت للنظر في الآية السابقة أن الله تعالى عبّر عن أهل الجنة بصيغة الجمع حيث قال تعالى: ﴿خالدين فيها﴾ بينما عبّر عن أهل النار بصيغة المفرد

١ - لقد مرّ حول «حدود الله» وتفسيره بحث أكثر تفصيلاً في المجلد الثاني من هذا التفسير.

حيث قال «خالداً فيها».

إنّ هذا التفاوت في التعبير - في الآيتين المتلاحقتين - شاهد واضح على أن لأهل الجنّة إجتماعات (أو بعبارة أخرى أنّ هناك حالة إجتماعية بين أهل الجنّة ونزلائها) وتلك هي في حد ذاتها نعمة من نعم الجنّة، ينعم بها ساكنوها وأصحابها، بينما يكون الوضع بالنسبة إلى أهل النار مختلفاً عن هذا، فكل واحد من أهل النار مشغول بنفسه - لما فيه من العذاب - بحيث لا يلتفت إلى غيره، ولا يفكر فيه، بل هو مهتم بنفسه، يعمل لوحده، وهذه هي حالة المستبدين المتفردين بالرأي والموقف، والجماعات المتحدة والمجمعة في المقابل، في هذه الدنيا أيضاً، فالفريق الأول يمثل أهل جهنم، بينما يمثل الفريق الثاني أهل الجنّة.

مميزات قانون الإرث الإسلامي:

في قانون الإرث عموماً، وفي نظام الإرث الإسلامي خاصة مزايا نشير إلى قسم منها في مايلي:

١- في نظام الإرث الإسلامي، وفي ضوء ما أقرّ من الطبقات للورثة لا يحرم أي واحد من أقرباء المتوفى من الإرث، فليس في الإسلام ما كان مستعارفاً (أو لا يزال) عند العرب الجاهليين، أو في بعض المجتمعات البشرية من حرمان النساء والأطفال من الإرث لعدم قدرتهم على حمل السلاح والمشاركة في الحروب وما شاكل ذلك، بل يشمل نظام الإرث الإسلامي كل من يمتّ إلى المتوفى بوشيجة القربى.

٢- يلبي هذا النظام الحاجات الإنسانية الفطرية والمشروعة، لأنّ كل إنسان من أبناء البشر يجب أن يرى حصيلة جهوده وثمرة أتعابه ونتاج كدّه وكدحه بيد من يعتبره إمتداداً لوجوده وشخصيته، ولهذا يكون سهم الأبناء - حسب هذا النظام - أكثر من سهم غيرهم، في حين تكون سهام الآباء والأمهات وغيرهم من

الأقرباء وأنصبتهم بدورها سهاماً وأنصبة محترمة وجديرة بالاهتمام أيضاً.
٣- إن هذا القانون يشجع الأشخاص على السعي والعمل وبذل المزيد من

الفعالية في سبيل تحصيل الثروة، وتشغيل عجلة الإقتصاد.
وذلك لأن الإنسان إذا عرف أن نتاج كده وكدحه وحصيلة جهوده وأتعبه طوال حياته ستنقل إلى من يحبهم ويودهم، فإنه يتشجع على المزيد من العمل والنشاط مهما كان عمره وسنه، ومهما كانت ظروفه وملابساته، وبهذا لا يحدث أي ركود في فعاليته ونشاطه مطلقاً.

وقد أشرنا في ما مضى - كيف أن إلغاء قانون الإرث والتوارث في بعض البلاد، وتأميم أموال الموتى، وحيازتها من قبل الدولة أدى إلى آثار سيئة في المجال الإقتصادي، وظهر في صورة ركود إقتصادي مخيف دفع بالدولة إلى إعادة النظر في إلغاء قانون الإرث وحذفه.

٤- إن قانون الإرث الإسلامي يمنع من تراكم الثروة، لأن هذا النظام يقضي بتقسيم الثروة - بعد كل جيل - بين الأفراد المتعددين بصورة عادلة، وهذا مما يساعد على تفتيت الثروة، كما يساعد على التوزيع العادل لها.

هذا والجدير بالاهتمام أن هذا التقسيم لا يعاني مما تعاني منه بعض الأشكال السائدة في عالمنا الراهن لتقسيم الثروة، والتي ترافق غالباً سلسلة من المضاعفات والآلام الاجتماعية السيئة، فهو نظام فريد من نوعه يشمل الجميع برحمته، ولا يتسبب في انزعاج أي شخص أو جهة.

٥- إن الأسهم والأنصبة في قانون الإرث الإسلامي لم تنظم على أساس الارتباط والانتساب إلى المستوفى برابطة النسب خاصة، بل على أساس الحاجات الواقعية عند الورثة، فإذا رأينا الذكور من أولاد الميت يرثون ضعف ما ترثه الإناث، أو يرث الإب - في بعض الموارد - أكثر من الأم، فهو لأجل أن الرجال يتحملون مسؤولية مالية أكبر في النظام الإسلامي، ولأن عليهم أن

يتحملوا الإنفاق على زوجاتهم وعوائلهم، ولهذا لا بد أن يسهم لهم - في الإرث - أكثر من الإناث.

ما هو العول، وما هو التعصيب؟:

في كتاب الإرث نقف على بحثين أحدهما تحت عنوان «العول»، والآخر تحت عنوان «التعصيب» وهما حالتان تعرضان لمسألة الإرث عندما تكون الأسهم المذكورة في الآيات المتقدمة أقل من التركة أحياناً، أو أكثر أحياناً أخرى.

وللمثال نقول: إذا ترك الميت أختين من جانب الأب والأم، وزوجاً، ورثت الأختان ثلثي المال وورث الزوج النصف، فيكون المجموع $\frac{7}{6}$ أي بزيادة $\frac{1}{6}$ على مجموع المال، وهنا يطرح السؤال التالي وهو: تنقص هذا السدس الزائد $\frac{1}{6}$ من جميع الورثة - حسب سهامهم - وبصورة عادلة، أم يجب أن تنقص من نصيب أشخاص معينين خاصة؟

المعروف عن علماء السنة أنهم يذهبون إلى إدخال النقص على جميع الورثة، وسمى الفقهاء هذا القسم عولاً، لأن العول يعني في اللغة الإرتفاع والزيادة.

ففي المثال الحاضر يقول فقهاء السنة: إن السدس الزائد يجب أن يقسم على الجميع، وأن تنقص من جميع الورثة من كل واحد حسب سهمه^(١)، وهكذا يكون العمل في الموارد الأخرى، وفي الحقيقة ينزل الورثة - هنا - منزلة الغرماء الذين لا تفي أموال المفلس بتسديد ديونهم جميعاً وبصورة كاملة، فهنا يدخل النقص

١ - فتكون طريقة الحساب هنا هي أننا يجب أن ننقص $\frac{1}{6}$ من سهم الأختين الذي هو $\frac{4}{6}$ وسهم الزوج الذي هو $\frac{3}{6}$ بمقدار أسهمهم أي تقسم $\frac{1}{6}$ على ٧ أقسام فننقص من سهم الأختين بمقدار $\frac{4}{7}$ ، ومن الزوج بمقدار $\frac{3}{7}$ ، وذلك طبقاً لقانون «الإسهام بالنسبة» المذكورة في الرياضيات فتكون النتيجة أنه ينقص من سهم الأختين بمقدار $\frac{4}{7}$ ومن سهم الزوج بمقدار $\frac{3}{7}$.

على جميع الغرماء بنسب متناسبة مع مقادير ديونهم.

ولكن فقهاء الشيعة يذهبون في هذا المجال مذهباً آخر، فهم يدخلون

النقص على أشخاص معينين، لا على جميع الورثة.

فهم في المثال الحاضر، مثلاً يدخلون النقص على الأختين، ويقولون كما

جاء في حديث شريف: «إن الذي أحصى رمل عاليج - أي المتراكم من الرمل

الداخل بعضه في بعض - ليعلم أن السهام لا تعول» أي لا تتعدى الأسهم ولا تؤول

إلى الكسر، فلا بد أن يكون سبحانه قد وضع لمثل هذه الحالة قانوناً، وذلك هو أن

بين الورثة الذين ذكرهم القرآن الكريم من له سهم ثابت من حيث الأقل أو الأكثر

كالزوج والزوجة والأب والأم، ومن ليس سهم كذلك كالأختين والبنيتين، ومن

هنا نفهم أن النقص يجب أن يدخل دائماً على من ليس له سهم محدد في جانب

القلة أو الكثرة (أي الذي ليس له حد أقل أو حد أكثر معين) أي الذي يكون

عرضة للتغير والإضطراب، ولهذا لا يدخل النقص المذكور على سهم الزوج، فهو

يرث سهمه من التركة وهو النصف بلا نقصان بسبب العول، وإنما يدخل النقص

على سهم الأختين فقط (فلاحظ ذلك بدقّة).

وقد يكون مجموع الأسهم أقل من مجموع المال - فيفضل شيء من المال

بعد أخذ كل واحد من أفراد الطبقة الوارثة فرضه.

فمثلاً إذا توفي رجلاً وخلف بنتاً واحدة وأمّاً، فإن سهم الأم هو $\frac{1}{2}$ وسهم

البنت هو $\frac{1}{4}$ فيكون مجموع الأسهم هو $\frac{3}{4}$ أي يفضل $\frac{1}{4}$ من المال، في هذه الصورة

يذهب علماء السنة وفقهاؤهم إلى إعطاء هذا الفاضل من التركة إلى عصبه

الميت^(١) وهم رجال الطبقة الثانية من الإرث (كالأخوة) ويسمى هذا القسم

بالتعصيب.

ولكن فقهاء الشيعة يذهبون إلى أن ذلك الفاضل يجب أن يقسم بين الوارثين

١- العصبه هم الرجال الذين ينتسبون إلى الميت بلا واسطة كالأخوة.

المذكورين أي بنسبة ١ و ٣، لأنه مع وجود الطبقة السابقة لا تصل النوبة إلى الطبقة اللاحقة، هذا مضافاً إلى أن إعطاء الفاضل من الشركة إلى رجال الطبقة اللاحقة يشبه ما كان سائداً في العهد الجاهلي حيث تحرم النساء من الإرث. هذا والبحث الراهن من الأبحاث العلمية المعقدة، وقد أعطينا هنا خلاصة موضحة منه تبعاً للحاجة، وأما التفصيل فموكول إلى محله في الكتب الفقهية المفصلة.



الآيات

وَالَّتِي يَأْتِيَنَّ الْفَاحِشَةَ مِنْ نُسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ
أَرْبَعَةً مِّنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى
يَتَوَفَّيَهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾ وَالَّذَانَ يَأْتِيَنَّهَا
مِنْكُمْ فَأَذَوْهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ
تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾

التفسير

تعني لفظة «الفاحشة» حسب اللغة: العمل أو القول القبيح جداً - كما أسلفنا - ويستعمل في الزنا لقبحه الشديد. وقد وردت هذه اللفظة في (١٣) مورداً من القرآن الكريم. وقد استعملت تارة في «الزنا» وأخرى في «اللواط» وتارة في الأفعال الشديدة القبح على العموم.

والآية الأولى - من هاتين الآيتين - تشير كما فهم أكثر المفسرين - إلى جزاء المرأة المحصنة التي تزني. فتقول: «واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم فإن شهدوا فامسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت».

وما يدل على أن الآية المبحوثة تعني زنا المحصنة - مضافاً إلى القرينة

المذكورة في الآية اللاحقة - التعبير بـ «من نسائكم» أي زوجاتكم، لأنّ التعبير بهذه اللفظة عن الزوجات قد تكرر في مواضع عديدة من القرآن الكريم، وعلى هذا يكون جزاء المحصنة التي ترتكب الزنا في هذه الآية هو الحبس الأبدي. ولكنه تعالى أردف هذا الحكم بقوله: ﴿أو يجعل الله لهنّ سبيلاً﴾ فإنّ لابدأن يستمر هذا الحبس في حقهنّ إلى الأبد حتى يأتي أجلهنّ، أو يعين لهنّ قانون جديد من جانب الله سبحانه.

ويستفاد من هذه العبارة أنّ هذا الحكم (أي الحبس الأبدي للمحصنة الزانية) حكم مؤقت، ولهذا ذكر من بداية الأمر أنّه سوف ينزل في حقهنّ قانون جديد، وحكم آخر في المستقبل (وبعد أن تنهياً الظروف والأفكار لمثل ذلك) حينئذ سيتخلص النساء اللاتي شملهنّ ذلك الحكم (أي الحكم بالحبس أبداً) من ذلك السجن إذا كن على قيد الحياة طبعاً، ولا يشملهنّ حكم جزائي آخر، وليس الخلاص من السجن إلا بسبب إلغاء الحكم السابق، وأما عدم شمول الحكم الجديد لهنّ فلنن الحكم الجزائي لا يشمل الموارد التي سبقت مجيئه، وبهذا يكون الحكم والقانون الذي سيصدر في ما بعد - مهما كان - سبباً لنجاة هذه السجينات، على أنّ هذا الحكم الجديد يشمل حتماً كل الذين سيرتكبون هذا المنكر في ما بعد. (فلاحظ بدقّة هذه النقطة).

وأما ما احتمله البعض من أنّ المراد من قوله تعالى: ﴿أو يجعل الله لهنّ سبيلاً﴾ هو أنّ الله سبحانه قد جعل الرجم للمحصنات الزانيات في ما بعد، يجعل وبذلك سيكون للسجينات سبيلاً إلى النجاة والخلاص من عقوبة السجن، فهو احتمال مردود، لأنّ لفظة «لهنّ سبيلاً» لا تتلاءم أبداً مع مسألة الأعدام، فعبارة «لهنّ» تعني ما يكون نافع لهنّ وليس الاعدام سبيلاً لنجاتهنّ، والحكم الذي قرره الله في الإسلام للمحصنات الزانيات في ما بعد هو الرجم (وقد ورد هذا الحكم في لسان السنة النبوية الشريفة أي الأحاديث قطعاً، وإن لم ترد في القرآن الكريم

أية إشارة إليها).

من كلّ ما قلناه اتّضح أنّ الآية الحاضرة لم تنسخ قط، لأنّ النسخ إنّما يكون في الأحكام التي تردّ مطلقة من أوّل الأمر لا التي تذكر مؤقتة ومحدودة كذلك، والحكم المذكور في الآية الحاضرة (أي الحبس الأبدي) من القسم الثاني، أي أنّه حكم مؤقت محدود، وما نجده في بعض الروايات من التصريح بأنّ الآية الحاضرة قد نسخت بالأحكام التي وردت في عقوبة مرتكبي الفاحشة، فالمراد منه ليس هو النسخ المصطلح، لأنّ النسخ في لسان الروايات والأخبار يطلق على كل تقييد وتخصيص (فلاحظ ذلك بدقّة وعناية).

ثمّ لا بدّ من الإلتفات إلى ناحية مهمّة، وهي أنّ الحكم بحبس هذا النوع من النساء في «اليوت» من صالحهن من بعض الجهات، لأنّه أفضل - بكثير - من سجنهن في السجون العامّة المتعارفة، هذا مضافاً إلى أنّ التجربة قد دلّت أنّ للسجون والمتعلقات العامّة أثراً سيئاً وعميقاً في إفساد المجتمع، إذ أنّ هذه المراكز تتحول - شيئاً فشيئاً - إلى معاهد كبرى لتعليم شتى ألوان الجريمة والفساد بسبب أنّ المجرمين سيتبادلون فيها - من خلال المعاشرة واللقاء وفي سعة من الوقت وفراغ من الشغل - تجاربهم في الجريمة.

ثمّ أنّ الله سبحانه يذكر بعد ذلك حكم الزنا عن إحصان إذ يقول: «واللذان يأتيانها منكم فأذوهما فإن تابا وأصلحا فاعرضوا عنها إنّ الله كان تواباً رحيماً» ويقصد أنّ الرجل غير المحصن أو المرأة غير المحصنة إن أتيا بفاحشة الزنا فجزاؤهما أن يؤذيا».

والآية وإن كانت لا تذكر قيد «عدم الإحصان»، صراحة، إلّا أنّها حيث جاءت بعد ذكر حكم المحصنة وذكر عقوبتها التي تختلف عن هذه العقوبة التي هي أخف من العقوبة المذكورة في الآية السابقة، أستفيد منها إنها واردة في حق الزنا عن غير إحصان، وإنها بالتالي عقوبة الزاني غير المحصن والزانية غير

المحصنة اللذين لا يدخلان في عنوان الآية السابقة، وبالتالي حيث أن الآية السابقة إختصت - بالقرينة التي ذكرت - بالزانية المحصنة إستنتجنا أن هذه الآية تبين حكم الزنا عن غير إحصان.

كما أن هناك نقطة واضحة أيضاً، وهي أن الحكم المذكور في هذه الآية (أي الإيذاء) عقوبة كلية، يمكن أن تكون الآية الثانية من سورة النور التي تذكر أن حدّ الزنا هو (١٠٠) جلدة لكل واحد من الزاني والزانية تفسيراً وتوضيحاً لهذه الآية وتعييناً للحكم الوارد فيها، ولهذا لا يكون هذا الحكم منسوخاً أيضاً.

ففي تفسير العياشي روي عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير هذه الآية أنه قال: «يعني البكر إذا أتت الفاحشة التي أتها هذه الثيب فاذوهما».

وعلى هذا يكون المراد من «اللذان» - وإن كان للإشارة إلى مثني مذكر - هو الرجل والمرأة أي من باب التغلب.

هذا وقد احتمل جماعة من المفسرين أن يكون الحكم الوارد في هذه الآية وارداً في مجال «اللواط» واعتبروا الحكم في الآية السابقة وارداً في مجال «المساحقة»، ولكن رجوع الضمير في «يأتينها» إلى «الفاحشة» في الآية السابقة يفيد أن العمل المستلزم لهذا الحكم الصارم في هذه الآية هو من نوع العمل المذكور في الآية السابقة لا من نوع آخر، ولهذا فإن اعتبار أن هذه الآية واردة في شأن اللواط، والآية السابقة واردة في شأن المساحقة خلاف الظاهر، (وإن كان كلا العملين اللواط والمساحقة يشتركان في عنوان كلي، وهو الميل إلى الجنس الموافق) وعلى هذا تكون كلتا الآيتين واردتين في حدّ الزنا وحكمه.

هذا مضافاً إلى أننا نعلم أن عقوبة «اللواط» في الإسلام هو القتل والإعدام وليست الإيذاء والجلد، وليس ثمة أي دليل على انتساح الحكم المذكور في الآية الحاضرة.

ثم إن الله سبحانه بعد ذكر هذا الحكم يشير إلى مسألة التوبة والعفو عن مثل

هؤلاء العصاة، فيقول: ﴿فإن تابوا، وأصلحوا، فأعرضوا عنها أن الله كان تواباً رحيماً﴾.

وهذا التعليم هو في الحقيقة يفتح طريق العودة ويرسم خط الرجعة لمثل هؤلاء العصاة، فإن على المجتمع الإسلامي أن يحتضن هؤلاء إذا تابوا ورجعوا إلى الطهر والصواب وأصلحوا، ولن يطردوا من المجتمع بعد هذا بحجة الفساد والانحراف.

هذا ويستفاد من هذا الحكم أيضاً - أنه يجب أن لا يعير العصاة الذين رجعوا إلى جادة الصواب وتابوا وأصلحوا على أفعالهم القبيحة السابقة، وأن لا يلاموا على ذنوبهم الغابرة، فإذا كان الحكم الشرعي والعقوبة الإلهية يسقطان بسبب التوبة والإنابة، فإن من الأولى أن يفيض الناس الطرف عن سوابقهم، وهذا بنفسه جارٍ في من نفذ فيه الحد الشرعي ثم تاب بعد ذلك، فإنه يجب أن تشمل مفرقة المسلمين وعفوهم.

العقوبات الإسلامية السهلة الممتنع:

قد يتساءل البعض أحياناً: لماذا قرر الإسلام عقوبات صارمة، وأحكاماً جزائية قاسية وثقيلة؟ فمثلاً: لماذا حكم بالحبس الأبدي أولاً على الزانية عن إحصان، ثم قرّر الحكم القتل والإعدام في شأنهما في مابعد، ألم يكن من الأفضل أن يتخذ الإسلام موقفاً أكثر تسامحاً وليناً تجاه هذه الأفعال، لتتبادل الجريمة والعقوبة ولا يرجح أحدهما على الآخر؟

غير أن العقوبات الإسلامية وإن كانت تبدو في الظاهر صعبة وقاسية وثقيلة، إلا أن إثبات الجريمة في الإسلام في المقام ليس سهلاً، أيضاً فقد عين الإسلام وحدد لإثبات الجريمة شروطاً لا تثبت - في الأغلب - إلا إذا وقعت الجريمة علناً.

فمثلاً: تصعيد عدد الشهود في الزنا إلى الأربعة - كما في الآية الحاضرة - من الأمور الصعبة جداً بحيث لا يثبت بها إلا من كان مجرمًا جسورًا جدًا، ولا شك أن مثل هؤلاء لا بد أن ينالوا عقاباً ثقيلاً وقاسياً ليعتبر بهم الآخرون، فتظهر بذلك البيئة الاجتماعية من لوث الفساد والانحراف والتورط في الجريمة، كما أن الموصفات والشروط المعتمدة في الشهود مثل رؤية العملية الجنسية بعينها، وعدم الإكفاء بالقرائن، ومثل الإتحاد في الشهادة وما شاكل ذلك تجعل إثبات الجريمة أصعب جداً.

وبهذا الطريق جعل الإسلام احتمال التعرض لمثل هذه العقوبة القاسية الثقيلة نصيب عيني هذا النوع من المجرمين، وهو احتمال مهما كان ضعيفاً من شأنه أن يؤثر في ردع الأشخاص، وكبح جماحهم، وأما الدقة في كيفية إثبات هذه الجريمة، والتشدد في الشرائط التي اعتبرها في الشهادة والشهود فهو لأجل أن لا تتسع دائرة هذه الأعمال الخسنة، ولا يقتصر استعمال العقوبات الخسنة فيها على أقل الموارد، وفي الحقيقة أراد الإسلام أن يحافظ على الأثر التهديدي لهذا القانون الجزائي من دون أن يعرض أفراداً كثيرين لعقوبة الإعدام من جانب آخر. ونتيجة ذلك هي أن هذا الأسلوب الإسلامي في تعيين العقوبة وطريق إثبات الجريمة من أكثر الأساليب تأثيراً ونجاحاً في خلاص المجتمع من التورط في الآثام والمعاصي في حين لا يتعرض لمثل هذه العقوبة أفراد كثيرين، وبهذا نصف هذا الأسلوب بالأسلوب «السهل الممتنع».

الآيتان

إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ
مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا
حَكِيمًا ﴿٧﴾ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا
حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ اللَّهَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ
وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾

التفسير

شروط قبول التوبة:

في الآية السابقة بين الله تعالى بصراحة مسألة سقوط العقوبة عن مرتكبي
الفاحشة ومعصية الرِّئَا إِذَا تَابُوا وَأَصْلَحُوا، ثُمَّ عَقِبَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: «إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا
رَحِيمًا» مشيراً بذلك إلى قبول التوبة من جانب الله أيضاً.

وفي هذه الآية يشير سبحانه إلى شروط قبول التوبة إذ يقول: «إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى
اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ».

وهنا يجب أن نرى ماذا تعني «الجهالة» هل هي الجهل وعدم المعرفة
بالمعصية، أم هي عدم المعرفة بالآثار السيئة والعواقب المؤلمة للذنوب
والمعاصي؟

إن كلمة الجهل وما يشتق منها وإن كانت لها معان مختلفة، ولكن يستفاد من القرائن أن المراد منها في الآية المبحوثة هنا هو طغيان الغرائز، وسيطرة الأهواء الجامحة وغلبتها على صوت العقل والإيمان، وفي هذه الصورة وإن لم يفقد المرء العلم بالمعصية، إلا أنه حينما يقع تحت تأثير الغرائز الجامحة، ينتفي دور العلم ويفقد مفعوله وأثره، وفقدان العلم لأثره مساوٍ للجهل عملاً.

وأما إذا لم يكن الذنب عن جهل وغفلة، بل كان عن إنكار لحكم الله سبحانه وعناد وعداء، فإن إرتكاب مثل هذا الذنب ينبيء عن الكفر، ولهذا لا تقبل التوبة منه، إلا أن يتخلّى عن عناده وعدائه وإنكاره وتمرده.

وفي الحقيقة إن هذه الآية تبين نفس الحقيقة التي يذكرها الإمام السجاد عليه السلام في دعاء أبي حمزة ببيان أوضح إذ يقول: «إلهي لم أعصك حين عصيتك وأنا برؤيتك جاحد ولا بأمرك مستخف، ولا لعقوبتك متعرض، ولا لوعيدك متهاون، لكن خطيئة عرضت وسولت لي نفسي وغلبي هواي».

ثم إن الله سبحانه يشير إلى شرط آخر من شروط قبول التوبة إذ يقول: «ثم يتوبون من قريب».

هذا وقد وقع كلام بين المفسرين في المراد من «قريب» فقد ذهب كثيرون إلى أن معناه التوبة قبل أن تظهر آثار الموت وطلاتعه، ويستشهدون لهذا الرأي بقوله تعالى: «وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت» الذي جاء في مطلع الآية اللاحقة، ويشير إلى أن التوبة لا تقبل إذ ظهرت علامات الموت.

ولعل استعمال لفظه «قريب» إنما هو لأجل أن نهاية الحياة الدنيوية مهما بعدت فهي قريبة.

ولكن بعض المفسرين ذهب إلى تفسير لفظه «من قريب» بالزمان القريب من وقت حصول المعصية، فيكون المعنى أن يتوبوا فوراً، ويندموا على ما فعلوه

بسرعة، ويتوبوا إلى الله، لأنَّ التوبة الكاملة هي التي تغسل آثار الجريمة وتزيل رواسبها من الجسم والروح بشكل مطلق حتى لا يبقى أي أثر منه في القلب، ولا يمكن هذا إلا إذا تاب الإنسان وندم قبل أن تتجذر المعصية في كيائها، وتستعمق آثارها في وجوده فتكون له طبيعة ثانية، إذ في غير هذه الصورة ستبقى آثار المعصية في زوايا الروح الإنسانية، وتعشش في خلايا قلبه. فالتوبة الكاملة - إذن - هي التي تتحقق عقيب وقوع الذنب في أقرب وقت، ولفظة «قريب» أنسب مع هذا المعنى من حيث اللغة والفهم العرفي.

صحيح أن التوبة التي تقع بعد زمن طويل من إرتكاب المعصية تقبل أيضاً، إلا أنها ليست التوبة الكاملة، ولعل التعبير بجملة «على الله» (أي على الله قبولها) كذلك إشارة إلى هذا المعنى، لأن مثل هذا التعبير لم يرد في غير هذا المورد من القرآن الكريم، ومفهومه هو أن قبول التوبة القريبة من زمن المعصية حق من حقوق العباد، في حين ان قبول التوبة البعيدة عن زمن المعصية تفضل من الله وليس حقاً.

ثمَّ أنه سبحانه - بعد ذكر شرائط التوبة - يقول: ﴿فَأُولَئِكَ يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ مشيراً بذلك إلى نتيجة التوبة التي توفرت فيها الشروط المذكورة.

ثمَّ يقول تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كَافِرٌ...﴾ وهو إشارة إلى من لا تقبل توبته.

وعلة عدم قبول هذا النوع من التوبة واضحة، لأن الإنسان عند الإحتضار في رحاب الموت تتكشف له الأستار، فيرى ما لم يكن يراه من قبل، فهو يرى بعد انكشاف الغطاء عن عينيه بعض الحقائق المتعلقة بالعالم الآخر، ويشاهد بعينه نتائج أعماله التي إرتكبها في هذه الدنيا، وتتخذ القضايا التي كان يسمع بها صفة

محسوسة، وفي هذه الحالة من الطبيعي أن يندم كل مجرم على جرمه وأفعاله السيئة، ويفرّ منها فرار الذي يرى إقتراب ألسنة اللهب من جسمه.

ومن المسلم أن التكليف الإلهي والإختيار الرباني للبشر لا يقوم على أساس هذا النوع من المشاهدات والمكاشفات، بل يقوم على أساس الإيمان بالغيب، والمشاهدة بعيني العقل والقلب.

ولهذا نقرأ في الكتاب العزيز أن أبواب التوبة كانت تغلق في وجه بعض الأقوام العاصية عند ظهور طلائع العذاب الدنيوي والنقمة العاجلة، وللمثال نقرأ قول الله سبحانه عن فرعون إذ يقول: ﴿حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين﴾^(١).

كما يستفاد من بعض الآيات القرآنية (مثل الآية ١٢ من سورة السجدة) إن العصاة يندمون عندما يشاهدون العذاب الإلهي في الآخرة، ولكن لات حين مندم، فلا فائدة لندمهم في ذلك الوقت، إن هؤلاء أشبه ما يكونون بالمجرمين الذين إذا شاهدوا أعواد المشنقة وأحسوا بالحبل على رقابهم ندموا على جرائمهم وأفعالهم القبيحة، فمن الواضح أن مثل هذه التوبة وهذا الندم لا يعد فضيلة، ولا مفخرة ولا تكاملاً، ولهذا لا يكون أي تأثير.

على أن هذه الآية لا تنافي الروايات التي نصت على إمكان قبول التوبة حتى عند اللحظة الأخيرة من الحياة، لأن المراد في هذه الروايات هي اللحظات التي لم تظهر فيها بعد ملامح الموت وآثاره وطلائعه، وبعبارة أخرى لم تحصل لدى الشخص العين البرزخية التي يقف بها على حقائق العالم الآخر.

هذا عن الطائفة الأولى الذين لا تقبل توبتهم، وهم من يتوبون عندما تظهر أمام عيونهم ملامح الموت وتبدو عليهم آثاره.

وأما الطائفة الثانية الذين لا تقبل توبتهم فهم الذين يموتون كفاراً، إذ يقول سبحانه: ﴿ولا الذين يموتون وهم كفار﴾.

ولقد ذكر الله سبحانه بهذه الحقيقة في آيات أخرى في القرآن الكريم^(١).

وهنا يطرح سؤال وهو: متى لا تقبل توبة الذين يموتون كفاراً؟

إحتتم البعض أن لا تقبل توبتهم في العالم الآخر، واحتمل آخرون أن يكون المراد من التوبة - في هذا المقام - ليس هو توبة العباد، بل توبة الله، يعني عود الله على العبد وعفوه ورحمته له.

ولكن الظاهر هو أن الآية تهدف أولاً آخر وتقول: إن الذين يتوبون من ذنوبهم حال العافية والإيمان ولكنهم يموتون وهم كفار لا تقبل توبتهم ولا يكون لها أي أثر.

وتوضيح ذلك: إننا نعلم إن من شرائط قبول الأعمال «الموافاة على الإيمان» بمعنى أن يموت الإنسان مؤمناً، فالذين يموتون وهم كفار تحبط أعمالهم السابقة حتى الصالحة منها حسب صريح الآيات القرآنية^(٢). وتنتفي فائدة توبتهم من ذنوبهم حتى إذا تابوا حال الإيمان في هذه الصورة أيضاً.

وخلاصة القول إن قبول التوبة مشروط بأمرين.

الأول: أن تتحقق التوبة قبل أن يرى الشخص علائم الموت.

والثاني: أن يموت وهو مؤمن.

ثم أنه يستفاد من هذه الآية أيضاً إن على الإنسان أن لا يؤخر توبته، إذ يمكن أن يأتيه أجله على حين غفلة، فتغلق في وجهه أبواب التوبة ولا يتمكن منها حينئذ.

والملفت للنظر أن تأخير التوبة الذي يعبر عنه بالتسويق قد أورد في الآية

١- آل عمران - ٩١، البقرة، ١٦٦، البقرة، ٢١٧، محمد - ٣٤.

٢- البقرة، ٢١٧.

الحاضرة بالموت حال الكفر، وهذا يكشف عن أهمية التسوية وخطورته البالغة في نظر القرآن.

ثم يقول سبحانه في ختام الآية: ﴿أُولَئِكَ إَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾، ولا حاجة إلى التذكير بأنَّ للتوبة مضافاً إلى ما قيل شرائط أخرى مذكورة في آيات مشابهة من الكتاب العزيز.

* * *

الآية

يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا
تَفْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَآءِ اتِّبْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ
بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى
أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١١﴾

سبب النزول

روي في مجمع البيان عن الإمام محمد الباقر عليه السلام: «نزلت في الرجل يحبس المرأة - من دون أن يعاملوها كالزوجة - عنده لا حاجة له إليها ينتظر موتها حتى يرثها»، أي فيأخذ أموالها من بعد وفاتها.

وروي عن ابن عباس أن الآية الحاضرة نزلت في الذين أمهروا نساءهم بمهور كبيرة ثم يحبسونهن من دون حاجة إليهن، ولا يطلقونهن لغلاء المهر وثقله، ويؤذونهن حتى يقبلن بالطلاق بعد أن يتنازلن عن تلك المهور.

وقد روى جماعة من المفسرين سبباً آخر لنزول هذه الآية لا يناسب هذه الآية، بل يناسب الآية (٢٢) من هذه السورة، وسنذكر ذلك الرأي عند تفسير تلك الآية بإذن الله تعالى.

التفسير

الدفاع عن حقوق المرأة أيضاً:

قلنا في مطلع تفسير هذه السورة أنّ آيات هذه السورة تهدف إلى مكافحة الكثير من الأعمال الظالمة والممارسات المجحفة التي كانت رائجة في العهد الجاهلي، وفي هذه الآية بالذات أشير إلى بعض هذه العادات الجاهلية المقيتة وحثر الله سبحانه فيها المسلمين من التورط بها، وتلك هي:

١- لا تحبسوا النساء لثروا أموالهنّ، فلقد كانت إحدى العادات الظالمة في الجاهلية - كما ذكرنا في سبب نزول الآية - أنّ الرجل كان يتزوج بالنساء الغنيات ذوات الشرف والمقام اللاتي لم يكن يحظين بالجمال، ثم كانوا يذرونهن هكذا فلا يطلقونهنّ، ولا يعاملونهنّ كالزوجات، بانتظار أن يمتن فيرثوا أموالهن، فقالت الآية الحاضرة: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً وبهذا استنكر الإسلام هذه العادة السيئة.

٢- لا تضغطوا على أزواجكم ليهبنّ لكم مهورهنّ، فقد كان من عادات الجاهليين المقيتة أيضاً أنهم كانوا يضغطون على الزوجات بشتى الوسائل والطرق ليتخلين عن مهورهنّ، ويقبلن بالطلاق، وكانت هذه العادة تتبع إذا كان المهر ثقيلاً باهظاً، فمنعت الآية الحاضرة من هذا العمل بقولها: ﴿ولا تعضلوهنّ لتذهبوا ببعض ما آتيتوهنّ﴾ أي من المهر.

ولكن ثمة استثناء لهذا الحكم قد أشير إليه في قوله تعالى في نفس الآية: ﴿إلا أن يأتين بفاحشة مبينة﴾ والفاحشة هي أن ترتكب الزوجة الزنا وتخون بذلك زوجها، ففي هذه الحالة يجوز للرجل أن يضغط على زوجته لتتنازل عن مهرها، وتهبه له ويطلقها عند ذلك، وهذا هو في الحقيقة نوع من العقوبة، وأشبه ما يكون بالغرامة في قبال ما ترتكبه هذه الطائفة من النساء.

هذا والمقصود من الفاحشة المبينة في الآية هل هو خصوص الزنا، أو كل

سلوك ناشز مع الزوج؟ فيه كلام بين المفسرين إلا أنه روي في حديث عن الإمام الباقر عليه السلام التصريح بأنه كل معصية من الزوجة ^(١) (طبعاً يستثنى من ذلك المعاصي الطفيفة لعدم دخولها في مفهوم الفاحشة التي تشير إلى أهمية المعصية وخطورها، والذي يتأكد بكلمة «مبينة»).

٣- عاشروهن بالمعاشرة الحسنة، وهذا هو الشيء الذي يوصي به سبحانه الأزواج في هذه الآية بقوله: «وعاشروهن بالمعروف»، أي عاشروهن بالمعشرة الإنسانية التي تليق بالزوجة والمرأة، ثم عقب على ذلك بقوله: «فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً».

فحتى إذا لم تكونوا على رضا كامل من الزوجات، وكرهتموهن لبعض الأسباب فلا تبادروا إلى الانفصال عنهن والطلاق، بل عليكم بمداراتهن ما استطعتم، إذ يجوز أن تكونوا قد وقعتم في شأنهن في الخطأ وأن يكون الله قد جعل فيما كرهتموه خيراً كثيراً، ولهذا ينبغي أن لا تتركوا معاشرتهن بالمعروف والمعاشرة الحسنة ما لم يبلغ السيل الزبي، ولم تصل الأمور إلى الحد الذي لا يطاق، خاصة وإن أكثر ما يقع بين الأزواج من سوء الظن لا يستند إلى مبرر صحيح، وأكثر ما يصدرونه من أحكام لا يقوم على أسس واقعية إلى درجة أنهم قد يرون الأمر الحسن شيئاً والأمر السيء حسناً في حين ينكشف الأمر على حقيقة بعد مضي حين من الزمن، وشيء من المدارة.

ثم إنه لا بد من التذكير بأن للخير الكثير في الآية الذي يبشر به الأزواج الذين يدارون زوجاتهن مفهوماً واسعاً، ومن مصاديقه الواضحة الأولاد الصالحون والأبناء الكرام.



الآياتان

وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَهُنَّ قِنطَاراً
فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَاناً وَإِنَّمَا مُبِيناً ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ
تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذَنَ مِنْكُمْ مِيثَاقاً
غَلِيظاً ﴿٢١﴾

سبب النزول

كان التقليد المتبع قبل الإسلام أنه إذا أراد الرجل أن يطلق زوجته، ويتزوج
بأخرى أن يتهم الزوجة الأولى بالزنا والخيانة الزوجية فراراً من دفع مهرها، أو
يعمد إلى معاملتها بقسوة حتى ترد مهرها الذي قد أخذته من قبل إلى الرجل،
ليستطيع أن يعطي ذلك المبلغ للزوجة الجديدة التي يبغى الزواج بها، ويمهرها به.
فنزلت هذه الآيات تستنكر هذا العمل القبيح الظالم بشدة، وتشجبه وتقبحه
وتدعو إلى إنصاف الأزواج وعدم ظلمهن في مهرهن.

التفسير

نزلت الآياتان الحاضرتان لتحميا قسماً آخر من حقوق المرأة، فقد جاءت
الآية الأولى تقول: «وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتن إحداهن

قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً» فهي تخبر المسلمين - إذا عزموا على تطليق الزوجة واختيار زوجة أخرى - أنه لا يحق لهم أبداً أن يبخسوا من صدق الزوجة الأولى شيئاً أو يستردوا شيئاً من الصداق إذا كانوا قد سلموه إلى الزوجة مهما كان مقداره كثيراً وتقيلاً، والذي عبّر عنه في الآية بالقنطار، والقنطار - كما سبق يعني المال الكثير وقد جاء في المفردات للراغب: أن القنطار جمع القنطرة، والقنطرة من المال ما فيه عبور الحياة تشبيهاً بالقنطرة^(١).

لأن المفروض أن تطليق الزوجة الأولى - هنا - يتم لأجل مصلحة الزوج، وليس لأجل انحراف الزوجة عن جادة العفاف والطهر، ولهذا لا معنى لأن تهمل حقوقها القطعية.

ثم إن الآية تشير في مقطعها الأخير إلى الأسلوب السائد في العهد الجاهلي حيث كان الرجل يتهم زوجته بالخيانة الزوجية لحبس الصداق عنها، إذ تقول في استفهام إنكاري: «أتأخذونه بهتاتاً وإثمأ ميبناً» أي هل تأخذون صداق الزوجة عن طريق بهتن، واتهامهن بالفاحشة، وهو إثم واضح ومعصية بيّنة، وهذا يعني أن أصل حبس الصداق عن الزوجة ظلم ومعصية، والتوسل لذلك بمثل هذه الوسيلة الأثيمة معصية أخرى واضحة، وظلم آخر بين.

ثم أضاف سبحانه - في الآية الثانية من الآيتين الحاضرتين - وضمن استفهام إنكاري بهدف تحريك العواطف الإنسانية لدى الرجال بأنه كيف يحق لكم ذلك، وقد عشت مع الزوجة الأولى زمناً طويلاً، وكانت لكم معهن حياة مشتركة، واختلّيتن بهن واستمتع كل واحد منكما بالآخر كما لو كنتما روحاً واحدة في جسمين، أفبعد ما كانت بينكما هذه العلاقة الزوجية الحميمة يحق لكم - أيها الأزواج - أن تبخسوا حق الزوجة الأولى؟ وقد لخصّ سبحانه كل هذه بقوله:

١- ولمزيد التوضيح راجع الجزء الثاني من تفسيرنا هذا عند تفسير الآية (١٥) من سورة آل عمران.

«وكيف تأخذونه وقد أفضى^(١) بعضكم إلى بعض» أفصح أن تفعلوا ذلك وكأنكما غريبان لا رباط بينكما ولا علاقة؟

وهذا يشبه قولنا لمن عاشا صديقين حميمين زمناً طويلاً ثم تنازعا: كيف تتنازعا؟ وقد كنتما صديقين حميمين سنوات طويلة وأعواماً عديدة؟ وفي الحقيقة أن ارتكاب مثل هذا الفعل في حق الزوجة شريكة الحياة ما هو إلا ظلم للنفس.

ثم أنه سبحانه تعالى: «وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً» أي كيف تبخسون الزوجة حقها في الصداق وقد أخذت منكم - لدى عقد الزواج بينكما - ميثاقاً غليظاً وعهداً موثقاً بأن تؤدوا إليهن حقوقهن كاملة، فكيف تنتكرون لهذا الميثاق المقدس وهذا العهد المأخوذ منكم لها حالة العقد؟

ثم يجب أن نعرف أن الآية الحاضرة وإن وردت في مقام تطليق الزوجة الأولى لغرض إحلال زوجة أخرى مكانها إلا أنها لا تختص بهذا المورد خاصة، بل تعم كل موارد الطلاق الذي يتم باقتراح من جانب الزوج ولا تكون لدى الزوجة رغبة في الإفتراق، فإنه يجب على الزوج في هذه الحالة أن يعطي الصداق بكامله إلى الزوجة إذا أراد أن يطلقها، وأن لا يسترد شيئاً من الصداق إذا كان قد أعطاه إياها، سواء قصد أن يتزوج بامرأة أخرى أو لا.

وعلى هذا تكون عبارة: «وإن أردتم استبدال زوج» ناظرة في الحقيقة إلى ما كان سائداً في العهد الجاهلي، وليس له أي دخل في أصل الحكم، فهو ليس قيداً.

على أنه ينبغي التنبيه أيضاً إلى أن لفظة «استبدال» تعني طلب البديل، ولهذا يكون قد أخذ فيها قيد الإرادة، فإذا قرنت بكلمة «أردتم» فإنما ذلك لأجل التنبيه

١ - الإفضاء أصله من الفضاء، وهو السمة، وبذلك يكون معنى الإفضاء إيجاد السمة، لأن الإنسان بسبب الإفضاء والتعاضد مع شخص آخر يكون وكأنه وسع دائرة وجوده، ولهذا استعمل الإفضاء بمعنى الملامسة والإفضاء.

إلى نقطة في المقام، وهي أنكم - عند تهيئة المقدمات والعزم على استبدال زوجة أخرى - يجب أن لا تبدأوا من المقدمات الغير المشروعة الظالمة، فتضيعوا مهر زوجتكم إذا أردتم زوجة أخرى.



الآية

وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِّنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ
كَانَ فَحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٣٣﴾

سبب النزول

كانت العادة في الجاهلية أنه إذا مات رجل وخلف زوجة وأولاداً، وكان الأولاد من زوجة أخرى ورثوا زوجة أبيهم كما يرثون أمواله، أي أنه كان يحق لهم أن يتزوجوا بها أو يزوجوها لأحد، وأن يتصرفوا فيها كما يتصرفون في المتاع والمال، وقد حدث مثل هذا - بعد ظهور الإسلام - لأحد المسلمين، فقد مات أحد الانصار يُدعى «أبو قيس» وخلف زوجة وولداً من زوجة أخرى، فاقترح الولد عليها الزواج بها، فقالت تلك المرأة له: «إني أعتبرك مثل ابني وأنت من صالحى قومك، ولكن آتى رسول الله ﷺ فاستأمره واستوضحه الحكم، فأنته فأخبرته. فقال لها رسول الله ﷺ: «ارجعي إلى بيتك» فأنزل الله هذه الآية تنهى عن هذا النوع من النكاح بشدة.

التفسير

هذه الآية - كما ذكرنا في شأن النزول - تبطل عادة سيئة من العادات

الجاهلية المقيتة فتقول: «ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء» أي لا تنكحوا زوجة أبيكم.

ولكن حيث أنّ القانون لا يشمل ما سبق من الحالات الواقعة قبل نزول القانون عقب سبحانه على ذلك التّهي بقوله: «إلا ما قد سلف».

ثمّ أنّه سبحانه لتأكيد هذا النهي يستخدم ثلاث عبارات شديدة حول هذا النوع من الزواج والنكاح إذ يقول أولاً: «إنّه كان فاحشاً» ثمّ يضيف قائلاً: «ومقتاً» أي عملاً منقراً لا تقبله العقول، ولا تستسيغه الطباع البشرية السليمة، بل تمقته وتكرهه، ثمّ يختم ذلك بقوله: «وساء سييلاً» أي أنّها عادة خبيثة وسلوك شائن.

حتى أنّنا لنقرأ في التاريخ أنّ الناس في الجاهلية كانوا يكرهون هذا النوع من النكاح ويصفونه بالمقت، ويسمّون ما ينتج منه من ولد بالمقيت، أي الأولاد المبعوضين.

ومن الواضح أنّ هذا الحكم إنّما هو لمصالح مختلفة وحكم متنوعة في المقام، فإنّ الزواج بإمراة الأب هو من ناحية يشبه الزواج بالأمّ، لأنّ امراة الأب في حكم الأمّ الثانية، ومن ناحية أخرى إعتداء على حرّيم الأب وهتك له، وتجاهل لاحترامه.

مضافاً إلى أنّ هذا العمل يزرع عند أبناء الأب الميت بذور النفاق بسبب النزاع على نكاح زوجته، وبسبب الإختلاف الواقع بينهم في هذا الأمر (أي في من يتزوج بها).

بل إنّ هذا النوع من النكاح يوجب الإختلاف والتنافس البغيض بين الأب والولد، لأنّ هناك تنافساً وحسداً بين الزوجة الأولى والزوجة الثانية غالباً، فإذا تحقّق هذا النكاح (أي نكاح زوجة الأب من جانب الولد) في حياة الوالد (أي بعد طلاقها من الأب طبعاً) كان السبب في الحسد واضحاً، لأنّ امراة الأب

ستحظى بهذا الزواج منزلة أرفع، مما يؤدي إلى تأجج نيران الحسد لدى الزوجة الأخرى أكثر، وأما إذا تحقق بعد وفاته فإنه من الممكن أن يوجد لدى الابن نوعاً من الحسد بالنسبة لأبيه.

هذا وليس من المستبعد أن تكون التعابير الثلاثة الواردة في ذم هذا النوع من النكاح إشارات إلى هذه الحِكَم الثلاث لتحريم نكاح امرأة الأب على وجه الترتيب.



الآية

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ
وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي
أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ
وَرَبِّبَاتِكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِّن نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ
فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ
الَّذِينَ مِن أَوْلَادِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ
إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٣٣﴾

التفسير

تحريم الزواج بالمحارم:

في هذه الآية أشار سبحانه إلى النساء اللاتي يحرم نكاحهن والزواج بهن، ويمكن أن تنشأ هذه الحرمة من ثلاث طرق أو أسباب وهي:

١- الولادة التي يعبر عنها بالإرتباط النسبي.

٢- الزواج الذي يعبر عنه بالإرتباط السببي.

٣- الرضاع الذي يعبر عنه بالإرتباط الرضاعي.

وقد أشار في البداية إلى النساء المحرمات بواسطة النسب وهن سبع

طوائف إذ يقول «حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت».

ويجب التشبيه إلى أن المراد من «الأم» ليس هي التي يتولد منها الإنسان دونما واسطة فقط، بل يشمل الجدة من ناحية الأب ومن ناحية الأم وإن علون، كما أن المراد من البنت ليس هو البنت بلا واسطة، بل تشمل بنت البنت وبنات الابن وأولادهما وإن نزلن، وهكذا الحال في الطوائف الخمس الأخرى.

ومن الواضح جداً أن الإنسان يبغض النكاح والزواج بهذه الطوائف من النسوة، ولهذا تحرمه جميع الشعوب والجماعات (إلا من شذ وهو قليل)، وحتى المجوس الذين كانوا يجوزون هذا النوع من النكاح في مصادرهم الأصلية ينكرونه ويشجبونه اليوم، وإن حاول البعض أن يردّ هذه المبغوضة إلى العادة والتقليد القديم، ولكن عمومية هذا القانون وشيوعه لدى جميع أفراد البشر وطوائفه وفي جميع القرون والأعصار تحكي - عادة - عن فطرية هذا القانون، لأن التقليد والعادة لا يمكن أن يكون أمراً عاماً ودائماً.

هذا مضافاً إلى أن هناك حقيقة ثابتة اليوم، وهي أن الزواج بين الأشخاص ذوي الفئة المشابهة من الدم ينطوي على أخطار كثيرة، ويؤدي إلى انبعاث أمراض خفية وموروثة، وتشدها وتجدها (لأن هذا النوع من الزواج يولد هذه الأمراض، بل يساعدها على التشدد والتجدد والانتقال) إلى درجة أن البعض لا يستحسن حتى الزواج بالأقرباء البعيدين (فضلاً عن المحارم المذكورة هنا) مثل الزواج الواقع بين أبناء وبنات العمومة^(١) ويرون أنه يؤدي هو الآخر أيضاً إلى أخطار تصاعد الأمراض الوراثية.

١ - طبعاً إن الإسلام لم يحرم الزواج بين أبناء وبنات العمومة، لأن هذا النوع من التزاوج ليس مثل الزواج بالمحارم في المخطورة، واحتمال ظهور مثل هذه الحوادث الخطيرة في هذا النوع من الزواج أقل، وقد لاحظنا بأنفسنا موارد ونماذج عديدة من نتائج هذا النوع من الزواج حيث يكون الأولاد - في هذه الحالة - أكثر سلامة وأفضل فكراً وموهبة من غيرهم.

إلا أن هذا النوع من الزواج إذا لم يسبب أية مشكلة لدى الأقرباء البعيدين (كما هو الغالب) فإنه لا شك يسبب مضاعفات خطيرة لدى الأقرباء القريبين الذين تشتدّ عندهم ظاهرة وحدة الدم وتشابهه.

هذا مضافاً إلى ضعف الرغبة الجنسية والتجاذب الجنسي لدى المحارم عادة، لأنّ المحارم - في الأغلب - يكبرون معاً، ويشبّون معاً، ولهذا لا ينطوي الزواج فيما بينهم على عنصر المفاجأة وصفة العلاقة الجديدة، لأنّهم تعودوا على التعامل فيما بينهم، فلا يكون أحدهم جديداً على الآخر، بل العلاقة لديهم علاقة عادية ورتبية، ولا يمكن أن يكون بعض الموارد النادرة مقياساً لإنتزاع القوانين الكلية العامة أو سبباً لنقض مضاداتها، ونحن نعلم أن التجاذب الجنسي شرط أساسي لدوام العلاقة الزوجية واستمرار الرابطة العائلية، ولهذا إذا تمّ الزواج بين المحارم فإن الرابطة الزوجية الناشئة من هذا الزواج ستكون رابطة ضعيفة مهزوزة وقصيرة العمر.

﴿وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة﴾

يشير الله سبحانه في هذه الآية إلى المحارم الرضاعية والقرآن وإن اقتصر في هذا المقام على الإشارة إلى طائفتين من المحارم الرضاعية، وهي الأم الرضاعية والأخت الرضاعية فقط، إلا أن المحارم الرضاعية - كما يستفاد من روايات عديدة - لا تنحصر في من ذكر في هذه الآية، بل تحرم بالرضاعة كل من يحرم من النساء بسبب «النسب» كما يصرّح بذلك الحديث المشهور المروي عن رسول الله ﷺ «يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب»^(١).

على أن بيان مقدار الرضاع الموجب للحرمة والشروط والكيفية المعتبرة فيه، وغير ذلك من التفاصيل والخصوصيات متروك للكتب الفقهية.

وفلسفة حرمة الزواج بالمحارم الرضاعية هي، أن نشوء ونبات لحم المرتضع

وعظمه من لبن إمرأه معينة تجعله بمثابة ابنها الحقيقي، فالمرأة التي ترضع طفلاً مقداراً معيناً من اللبن ينشأ وينبت معه ومنه للطفل لحم وعظم، فإنَّ هذا النوع من الرضاع يجعل الطفل شبيهاً بأبنائها وأولادها لصيرورته جزء من بدنها كما هم جزء من بدنها، فإذا هم جميعاً (أي الأخوة الرضاعيون والأخوة النسييون كأنهم أخوة بالنسب.

ثم إنَّ الله سبحانه يشير - في المرحلة الأخيرة - إلى الطائفة الثالثة من النسوة اللاتي يحرم الزواج بهنَّ ويذكرهنَّ ضمن عدّة عناوين:

١ - «وأمهات نسانكم» يعني أن المرأة بمجرد أن تتزوج برجل ويجري عقد النكاح بينهما تحرم أمها وأمها وإن علون على ذلك الرجل.

٢ - «ورباتكم اللاتي في حجوركم من نسانكم اللاتي دخلتم بهنَّ» يعني أن مجرد العقد على إمرأة لا يوجب حرمة نكاح بناتها من زوج آخر على زوجها الثاني، بل يشترط أن يدخل بها أيضاً مضافاً على العقد عليها.

إنَّ وجود هذا القيد في هذا المورد «دخلتم بهنَّ» يؤيد كون حكم أم الزوجة الذي مرَّ في الجملة السابقة «وأمهات نسانكم» غير مشروط بهذا الشرط، وبعبارة أخرى إنَّ هذا القيد هنا يؤيد ويؤكد إطلاق الحكم هناك، فتكون النتيجة أن بمجرد العقد على إمرأة تحرم أم تلك المرأة على الرجل وإن لم يدخل بتلك المرأة، لخلو ذلك الحكم من القيد المشروط هنا في مورد الرّبيبة.

ثمَّ إنَّ قيد «في حجوركم» وإنَّ كلن ظاهره يفهم منه أن بنت الزوجة من زوج آخر إذا لم ترب في حجر الزوج الثاني لا تحرم عليه، ولكن هذا القيد بدلالة الروايات، وقطعية هذا الحكم - ليس قيداً احترازياً - بل هو في الحقيقة إشارة إلى نكته التحريم - لأن أمثال هذه الفتيات اللاتي تقدم أمهاتها على زوج آخر، هنَّ في الأغلب في سنين متدنية من العمر. ولذلك غالباً ما يتلقين نشأتهنَّ وتربيتهنَّ في حجر الزوج الجديد مثل بناته، فالآية تقول إن بنات نسانكم من غيركم

كبناتكم أنفسكم، فهل يتزوج أحد بابنة نفسه؟ واختيار وصف الربائب التي هي جمع الزبيبة (لتربية الزوج الثاني إياها فهي مربوبته) إنما هو لأجل هذا. ثم يضيف سبحانه لتأكيد هذا المطلب عقيب هذا القسم قائلاً: «فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم» أي إذا لم تدخلوا بأُمَّ الزبيبة جاز لكم نكاح بناتهن.

٣- «وحلائل^(١) أبنائكم الذين من أصلابكم» والمراد من حلائل الأبناء زوجاتهم، وأما التعبير بـ «من أصلابكم» فهو في الحقيقة لأجل أن هذه الآية تبطل عادة من العادات الخاطئة في الجاهلية، حيث كان المتعارف في ذلك العهد أن يتبنى الرجل شخصاً ثم يعطي للشخص المتبني كل أحكام الولد الحقيقي، ولهذا كانوا لا يتزوجون بزوجات هذا النوع من الأبناء كما لا يتزوجون بزوجة الولد الحقيقي تماماً، والتبني والأحكام المرتبة عليها لا أساس لها في نظر الإسلام.

٤- «وأن تجمعوا بين الأختين» يعني أنه يحرم الجمع بين الأختين في العقد، وعلى هذا يجوز الزواج بالأختين في وقتين مختلفين وبعد الانفصال عن الأخت السابقة.

وحيث أن الزواج بأختين في وقت واحد كان عادة جارية في الجاهلية، وكان ثمة من ارتكبوا هذا العمل فإن القرآن عقب على النهي المذكور بقوله: «إلا ما قد سلف» يعني إن هذا الحكم كالأحكام الأخرى لا يشمل الحالات السابقة، فلا يؤاخذهم الله على هذا الفعل وإن كان يجب عليهم أن يختاروا إحدى الأختين، ويفارقوا الأخرى، بعد نزول هذا الحكم.

١- الحلائل جمع الحليلة، وهي من مادة حل، وهي بمعنى المحللة، أي المرأة التي تحل للإنسان. أو من مادة حلول بمعنى المرأة التي تسكن مع الرجل في مكان واحد وتكون بينهما علاقة جنسية، لأن كل واحد منهما يحل مع الآخر في الفراش.

يبقى أن نعرف أن سرَّ تحريم هذا النمط من الزواج (أي التزوج بأختين في وقت واحد) في الإسلام لعله أن بين الأختين بحكم ما بينهما من نسب ورابطة طبيعية - علاقة حبِّ ومودة، فإذا أصبحتا متنافستين في ظل الإنتماء إلى زوج واحد لم يمكنهما الحفاظ على تلك المودة والمحبة والعلاقة الودية بطبيعة الحال، وبهذه الصورة يحدث هناك تضاد عاطفي في وجود كل من الأختين يضرُّ بحياتهما، لأن كلَّ واحدة منهما ستعاني حينئذٍ وبصورة دائمية من صراع حالتين نفسييتين متضادتين هما دافع الحب، وغريزة التنافس، وهو صراع نفسي مقيت ينطوي على مضاعفات خطيرة لا تحمد عقباها.

ثم إن بعض المفسرين احتمل أن تعود جملة «إلا ما قد سلف» إلى كل المحارم من النسوة اللاتي مرَّ ذكرهنَّ في مطلع الآية فيكون المعنى: إذا كان قد أقدم أحد في الجاهلية على التزوج بإحدى النساء المحرم عليه نكاحهنَّ لم يشمله حكم تحريم الزواج بهنَّ هذا، وكان ما نتج من ذلك الزواج الذي حرم في ما بعد من الأولاد شرعيين، وإن وجب عليهم بعد نزول هذه الآية أن يتخلوا عن تلکم النساء، ويفارقوهنَّ.

وتناسب خاتمة هذه الآية أعني قوله سبحانه وتعالى: «إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا» هذا المعنى الأخير.

الآية

وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُجَلَ لَكُمْ مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ لَمَّا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا تَرَضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٦٦﴾

التفسير

هذه الآية تواصل البحث السابق حول النساء اللاتي يحرم نكاحهن والزواج

بهن وتضيف قائلة:

«والمحصنات من النساء» أي ويحرم الزواج بالنساء، اللاتي لهن أزواج. والمحصنات جمع المحصنة وهي مشتقة من «الحصن»، وقد أطلقت على المرأة ذات الزوج لأنها بالزواج برجل تكون قد أحصنت فرجها من الفجور، وكذا أطلقت على النساء العفيفات النقيات الجيب، أو اللاتي يعشن في كنف رجل وتحت كفالته وبذلك يحفظن أنفسهن ويحصنهن من الفجور والزنا.

وقد تطلق هذه اللفظة على الحرائر مقابل الإماء، لأن حريتهن تكون بمثابة حصن يحفظهن من أن يتجاوز حدوده أحد دون إذنهن، إلا أنه من الواضح أن

المراد بها في الآية الحاضرة هو ذوات الأزواج.

إن هذا الحكم لا يختص بالنساء المحصنات المسلمات، بل يشمل المحصنات حتى غير المسلمات، أي أنه يحرم الزواج بهنّ مهما كان دينهنّ. نعم يستثنى من هذا الحكم فقط النساء المحصنات الكتابيات اللاتي أسرنّ المسلمون في الحروب، فقد اعتبر الإسلام أسرنّ بمثابة الطلاق من أزواجهنّ، وأذن أن يتزوج بهنّ المسلمون بعد انقضاء عدتهنّ^(١) أو يتعامل معهنّ كالإماء كما قال سبحانه: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾.

ولكن هذا الإستثناء (استثناء منقطع يعني أن هذه النساء المحصنات اللاتي وقعن أسيرات في أيدي المسلمين لا يعتبرن محصنات لأن علاقتهنّ بأزواجهنّ قد انقطعت بمجرد وقوعهنّ أسيرات، تماماً كما تنقطع علاقة النساء غير المسلمات بأزواجهنّ باعتناقهنّ الإسلام في صورة استمرار الزوج السابق على كفره، فيمكن في مصاف النساء المجردات من الأزواج (أي غير المحصنات)، ومن هنا يتّضح أنّ الإسلام لا يسمح مطلقاً بأن يتزوج المسلمون بالنساء المحصنات حتى الكتابيات وغيرهنّ من أهل الديانات الأخرى، ولهذا قرّر لهنّ العدة، ومنع من الزواج بهنّ في تلك الفترة.

وفلسفة هذا الحكم تتمثل في أن هذا النوع من النساء إمّا يجب أن تعاد إلى دار الكفر، أو يبقين هكذا بدون زوج بين المسلمين، أو تقطع علاقتهنّ بالزوج السابق، ويتزوجن من جديد بزواج آخر، وحيث أن الصورة الأولى تخالف الأسس التربوية الإسلامية، كما أن الصورة الثانية عملية ظالمة، ولهذا لا تبقى إلا صورة واحدة وهي الصورة الثالثة.

ويظهر من بعض الروايات التي ينتهي إسنادها إلى أبي سعيد الخدري أنّ

الآية نزلت في سبايا غزوة أوطاس^(١) وأن النبي ﷺ سمع للمسلمين بأن يتزوجوا بهن بعد التأكد من كونهن غير حبالى أو يعاملن كما تعامل الأمة، وهو يؤيد الصورة الثالثة التي أشرنا إليها في ما سبق.

ثم أن الله سبحانه أكد هذه الأحكام الواردة في شأن المحارم من النساء ومن شابههن حيث قال: «كتاب الله عليكم» وعلى هذا لا يمكن تغيير هذه الأحكام أو العدول عنها أبداً.

ثم إنه يشير سبحانه إلى حلية الزواج بغير هذه الطوائف من المذكورات في هذه الآية والآيات السابقة إذ يقول: «وأحل لكم ما وراء ذلكم أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين» أي أنه يجوز لكم أن تتزوجوا بغير هذه الطوائف من النساء شريطة أن يتم ذلك وفق القوانين الإسلامية وأن يرافق مبادئ الفقه والطهر ويتعد عن جادة الفجور والفسق.

وعلى هذا يكون معنى «محصنين» في الآية والذي هو إشارة إلى حال الرجال هو «عفيفين»، وعبارة «غير مسافحين» تأكيد لهذا الوصف، لأن السفاح (الذي هو وزن كتاب) يعني الزنا وأصله من السفح وهو صب الماء أو الأعمال العابثة والأفعال الطائشة وحيث أن القرآن يستخدم - في مثل هذه الموارد - الكنايات يكون المراد من السفاح الزنا واللقاء الجنسي الغير المشروع.

وجملة «أن تبتغوا بأموالكم» إشارة إلى أن العلاقة الزوجية إنما يجب أن تتم من خلال الزواج مع دفع صداق ومهر، أو من خلال تملك أمة في لقاء دفع قيمتها^(٢).

كما أن عبارة «غير مسافحين» في الآية الحاضرة لعلها إشارة إلى حقيقة أن

١- أوطاس منطقة وقعت فيها إحدى المعارك الإسلامية وهو واد في ديار بني هوازن.

٢- لقد بحثنا بالتفصيل عن برنامج الإسلام حول تحرير العبيد وما هناك من تخطيط دقيق في النظام الإسلامي في هذا المجال عند تفسير الآيات المناسبة في سورة «محمد» ﷺ.

الهدف من الزواج يجب أن لا يكون فقط إطفاء الشهوة، وتلبية الرغبة الجنسية، بل الزواج قضية حيوية هامة تهدف غاية جد سامية يجب أن تكون الغريزة الجنسية في خدمتها أيضاً، ألا وهو بقاء النوع البشري، وحفظه من التلوث والانحراف.

الزواج المؤقت في الإسلام:

يقول سبحانه: ﴿فما استمتعتم به منهنّ فاتوهنّ أجورهنّ فريضة﴾ أي أنه يجب عليهم دفع أجور النساء اللاتي تستمتعون بهنّ، وهذا القسم من الآية إشارة إلى مسألة الزواج المؤقت أو ما يسمّى بالمتعة، ويستفاد منها أن أصل تشريع الزواج المؤقت كان قطعياً ومسلماً عند المسلمين قبل نزول هذه الآية، ولهذا يوصي المسلمون في هذه الآية بدفع أجورهنّ.

وحيث أن البحث في هذه المسألة من الأبحاث التفسيرية والفقهيّة والاجتماعية المهمة جداً يجب دراستها من عدّة جهات هي:

- ١- القرائن الموجودة في هذه الآية التي تؤكد دلالتها على الزواج المؤقت.
- ٢- إن الزواج المؤقت كان في عصر رسول الله ﷺ ولم ينسخ.
- ٣- الحاجة بل والضرورة الاجتماعية إلى هذا النوع من الزواج.
- ٤- الإجابة على بعض الإشكالات.

وأما بالنسبة إلى النقطة الأولى فلا بدّ من الإلتفات إلى أمور:

أولاً: إن كلمة المتعة التي اشتق منها لفظة «استمتعتم» تعني الزواج المؤقت، وبعبارة أخرى المتعة حقيقة شرعية في هذا النوع من الزواج، ويدل على ذلك أن هذه الكلمة استعملت في هذا المعنى نفسه في روايات النبي الأكرم ﷺ وكلمات الصحابة مراراً وتكراراً^(١).

ثانياً: إن هذه اللفظة إذا لم تكن بالمعنى المذكور يجب أن تفسر حتماً بمعناها اللغوي وهو «الإنتفاع» فيكون معنى هذا المقطع من الآية هكذا: «إذا انتفعتم بالنساء الدائمات فادفعوا إليهن أجورهن» في حين أننا نعلم إن دفع الصداق والمهر غير مقيد ولا مشروط بالإنتفاع بالزوجات الدائمات بل يجب دفع تمام المهر - بناء على ما هو المشهور^(١) بين الفقهاء - أو نصفه على الأقل إلى المرأة بمجرد العقد للزواج الدائم عليها.

ثالثاً: إن كبار «الصحابة» و «التابعين»^(٢) مثل ابن عباس العالم (المفسر الإسلامي الكبير) وأبي بن كعب، وجابر بن عبد الله الأنصاري، وعمران بن الحصين، وسعيد بن جبير، ومجاهد، وقتادة والسدي، وجماعة كبيرة من مفسري أهل السنة، وجميع مفسري أهل البيت، فهموا من الآية الحاضرة حكم الزواج المؤقت إلى درجة أن الفخر الرازي - رغم ما عهد عنه من التشكيك الكثير في القضايا المرتبطة بالشريعة وعقائدهم قال بعد بحث مفصل: والذي يجب أن يعتمد عليه في هذا الباب أن نقول أنها منسوخة وعلى هذا التقدير فلو كانت هذه الآية دالة على أنها مشروعة لم يكن ذلك قادحاً في غرضنا، وهذا هو الجواب أيضاً عن تمسكهم بقراءة أبي وابن عباس فإن تلك القراءة بتقدير ثبوتها لا تدل إلا على أن المتعة كانت مشروعة، ونحن لا ننازع فيه، إنما الذي نقوله أن النسخ طرأ عليه^(٣).

رابعاً: اتفق أئمة أهل البيت عليهم السلام وهم أعلم الناس بأسرار الوحي، على تفسير الآية المذكورة بهذا المعنى (أي بالزواج المؤقت) وقد وردت في هذا الصعيد روايات كثيرة منها.

١- المشهور أو الأشهر وجوب تمام المهر بمجرد عقد الزواج الدائم وإن كان الطلاق قبل الدخول بموجب إعادة نصفه إلى الزوج.

٢- التابعون هم الذين جاؤوا بعد الصحابة ولم يدركوا عهد النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

٣- التفسير الكبير، ج ١٠، ص ٥٣.

ما عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «المتعة نزل بها القرآن وجرت بها السنة من رسول الله»^(١).

وعن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال في جواب سؤال أبي بصير حول المتعة: نزلت في القرآن «فما استمتعتم به منهن فاتوهن أجورهن فريضة»^(٢).

وعن الإمام الباقر عليه السلام أيضاً أنه قال: في جواب عبد الله بن عمير الليثي الذي سأل عن المتعة: «أحلها الله في كتابه وعلى لسان نبيه فهي حلال إلى يوم القيامة»^(٣).

هل نسخ هذا الحكم؟

لقد إتفق عامة علماء المسلمين، بل قامت ضرورة الدين على أن الزواج المؤقت (المتعة) كان أمراً مشروعاً في صدر الإسلام (والكلام حول دلالة الآية الحاضرة على مشروعية المتعة لا ينافي قطعياً وجود أصل الحكم لأن المخالفين يرون ثبوت مشروعية هذا الحكم في السنة النبوية)، بل كان المسلمون في صدر الإسلام يعملوا بهذا الحكم، والعبارة المعروفة المروية عن عمر: «ستعتان كانتا على عهد رسول الله وأنا محرهما ومعاقب عليهما، متعة النساء ومتعة الحج»^(٤) دليل واضح على وجود هذا الحكم في عصر النبي صلى الله عليه وآله وسلم، غاية ما في الأمر أن من خالف هذا الحكم ادعى أنه قد نسخ في ما بعد، وحرم هذا النوع من الزواج.

ولكن الملفت للنظر هو أن الروايات الناسخة لهذا الحكم التي ادعوا مضطربة اضطراباً كبيراً، فبعضها يقول: إن النبي صلى الله عليه وآله وسلم نفسه هو الذي نسخ هذا الحكم، وعلى هذا يكون الناسخ لهذا الحكم القرآني هو السنة النبوية، وبعضها

١- نور الثقلين، ج ١، ص ٤٦٧، وتفسير البرهان، ج ١، ص ٣٦٠.

٢- المصدر السابق.

٣- تفسير البرهان ذيل الآية (وقد ورد هذا الحديث والحديثان السابقان عليه في كتاب الكافي).

٤- كنز العرفان، ج ٢، ص ١٥٨، ولقد روي الحديث المذكور عن تفسير القرطبي والطبري بمبارات تشابه العبارة أعلاه، كما أن هذا الحديث جاء في السنن الكبرى للبيهقي، ج ٧، كتاب النكاح.

يقول: إن ناسخه هو آية الطلاق إذ يقول سبحانه: «إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلَقُوهُنَّ لَعَدَّتهنَّ» في حين أن هذه الآية لا ترتبط بالمسألة المطروحة في هذا البحث لأن هذه الآية تبحث في الطلاق، في حين أن الزواج المؤقت (أو المتعة) لا طلاق فيه، والإفتراق بين الطرفين في هذا الزواج يتم بانتهاء المدة المقررة.

إنّ القدر المتيقن في المقام هو أن أصل مشروعية هذا النوع من الزواج في زمن النبي ﷺ أمر قطعي ومفروغ عنه، وليس ثمة أي دليل يمكن الإطمئنان إليه ويثبت نسخ هذا الحكم، ولهذا فلا بد من أن نحكم ببقاء هذا الحكم، بناء على ما هو مقرر وثابت في علم الأصول.

والعبارة المشهورة المروية عن «عمر» خير شاهد على هذه الحقيقة، وهي أن هذا الحكم لم ينسخ في زمن رسول الله ﷺ... وإلخ.

ثم إن من البديهي أنه لا يحق لأحد إلا النبي ﷺ أن ينسخ الأحكام، فهو وحده يحق له - وبأمر من الله سبحانه وإذنه - أن ينسخ بعض الأحكام، وقد سد باب نسخ الأحكام بعد وفاة النبي تماماً، وإلا لإستطاع كل واحد أن ينسخ شيئاً من الأحكام الإلهية حسب اجتهاده ومزاجه، وحينئذ لا يبقى شيء من الشريعة الخالدة الأبدية، وهذا مضافاً إلى أن الإجتهد في مقابل النص النبوي لا ينطوي على أية قيمة أبداً.

والملفت للنظر أننا نقرأ في صحيح الترمذي الذي هو من صحاح أهل السنة المعروفة، وكذا عن الدارقطني^(١) أن رجلاً من أهل الشام سأل «عبد الله بن عمر» عن التمتع بالعمرة إلى الحج، فقال ابن عمر: حسن جميل، قال: فإن أباك كان ينهى عنها، فقال: وبلك فإن كان أبي نهى عنها وقد فعله رسول الله ﷺ وأمر به أفبقول أبي آخذ، أم بأمر رسول الله ﷺ قم عني^(٢).

١- تفسير القرطبي، ج ٢، ص ٧٦٢، ذيل الآية (١٩٥) البقرة.

٢- المراد من متعة الحج التي حرّمها عمر هو لو أننا صرفنا النظر عن حج التمتع، فإن حج التمتع عبارة عن الأمر

وقد ورد نظير هذا الحديث وبنفس الصورة التي قرأتها حول زواج المتعة عن «عبد الله بن عمر» في صحيح الترمذي^(١).

وجاء في كتاب «المحاضرات» للراغب أن رجلاً من المسلمين كان يفعلها (أي المتعة) ف قيل له: عمن أخذت حلها؟ فقال: عن عمر، فقالوا: كيف ذلك وعمر هو الذي نهى عنها وعاقب على فعلها؟ فقال: لقوله: متعتان كانتا على عهد رسول الله، وأنا أحرمهما وأعاقب عليهما متعة الحج ومتعة النساء، فأنا أقبل روايته في شرعيتها على عهد رسول الله ﷺ، وما أقبل نهييه من قبل نفسه^(٢).

ثم إن هناك مطلباً آخر لا بد أن نذكر به هنا وهو أن الذين ادعوا نسخ هذا الحكم (أي انتساخه) قد واجهوا مشكلات عديدة.

أولاً: أنه صرح في روايات عديدة في مصادر أهل السنة بأن هذا الحكم لم ينسخ في عهد رسول الله ﷺ أبداً، بل نهى عنه في عهد عمر، وعلى هذا يجب على مدعي النسخ أن يجيبوا على هذه الروايات البالغة - عدداً - عشرين رواية، جمعها العلامة الأميني^(٣) مفصلة في الجزء السادس من «الغدير» وها نحن نشير إلى نموذجين منها.

١- روي في صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله الأنصاري أنه كان يقول: كنا نستمع بالقبضة من التمر والدقيق الأيام على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر حتى ثم نهى عنه عمر في شأن عمرو بن حريث^(٤).

٢- وفي حديث آخر في كتاب «الموطأ» لمالك و«السنن الكبرى» للبيهقي

التالي: إن يحرم الشخص أولاً، ثم بعد الإتيان بمناسك «العمره» يخرج من إحرامه (فيحفل له كل شيء حتى الجماع) ثم يحرم من جديد ليؤدي مناسك الحج من تاسع ذي الحجة، وقد كان الناس في الجاهلية يسطلون هذا العمل ويستخربون ممن يدخل مكة أيام الحج ثم يأتي بالعمره ويخرج من إحرامه قبل أن يأتي بالحج، ولكن الإسلام أباح هذا وقد صرح بهذا الأمر في الآية (١٨٦) من سورة البقرة.

١- شرح اللمعة الدمشقية، ج ٢، كتاب النكاح.

٢- كنز العرفان، ج ٢، ص ١٥٩ الهامش.

٣- الغدير، ج ٦، ص ٢٠٥ و٢٠٦.

روي عن «عروة بن زبير» إن خولة بنت حكيم دخلت على عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقالت: إن ربيعة بن أمية استمتع بامرأة مولدة فحملت منه فخرج عمر رضي الله عنه بجزء رداءه فرعاً فقال: هذه المتعة لو كنت تقدمت فيه لرجمته، (أي أ منع منها من الآن)^(١).

وفي كتاب «بداية المجتهد» تأليف «ابن رشد الأندلسي» نقرأ أيضاً أن جابر بن عبد الله الأنصاري كان يقول: تمتعنا على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر ونصفاً من خلافة عمر ثم نهى عنها عمر الناس^(٢).

والمشكلة الأخرى هي أن الروايات التي تتحدث عن نسخ حكم المتعة في عهد رسول الله مضطربة ومتناقضة جداً، فبعضها يقول نسخ في خيبر وبعضها يقول: نسخ يوم فتح مكة، وبعض يقول: في معركة تبوك وآخر يقول: يوم أوطاس وما شابه ذلك، ومن هنا يتبين إن هذه الأحاديث المشيرة إلى النسخ موضوعة برمتها لما فيها من التناقض البين والتضارب الواضح.

من كل ما قلناه أتضح أن ما كتبه صاحب تفسير المنار حيث قال: «وقد كنا قلنا في (محاورات المصلح والمقلد) التي نشرت في المجلدين الثالث والرابع: من المنار أن عمر نهى عن المتعة اجتهاداً منه وافقه عليه الصحابة ثم تبين لنا أن ذلك خطأ فنستغفر الله منه»^(٣).

إنه حديث العصبية لأن هناك في مقابل الروايات المتضاربة المتناقضة التي تتحدث عن انتساح حكم المتعة في عهد رسول الله ﷺ روايات تصرح باستمرار المسلمين على ممارسة هذا الأمر (أي المتعة) إلى عهد عمر، وعلى هذا ليس المقام مقام الاعتذار ولا الاستغفار، فالشواهد التي ذكرناها سابقاً تشهد بأن

١- الفدير، ج ١، ص ٢٠٥ و ٢٠٦.

٢- بداية المجتهد كتاب النكاح.

٣- تفسير المنار، ج ٥ ص ١٦.

كلامه الأوّل مقترن بالحقيقة وليس كلامه الثّاني كذلك.

ولا يخفى أنّه لا «عمر» ولا أي شخصية أخرى حتى أئمة أهل البيت عليهم السلام وهم خلفاء النبي صلى الله عليه وآله بقادرين على نسخ أحكام ثبتت في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله بل لا معنى للنسخ - أساساً - بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله وانسداد باب الوحي وانقطاعه، وحملهم كلام «عمر» على الإجتهد مشير للعجب، لأنّه من «الإجتهد» في مقابل «النص».

وأعجب من ذلك أن جماعة من فقهاء السنة اعتبروا الآيات المرتبطة بأحكام الزواج مثل الآية (٦) من سورة المؤمنین ناسحة لآية المتعة، وكأنّهم تصوروا أن زواج المتعة ليس زواجاً أصلاً، في حين أنّه أحد أقسام الزواج.

الزّواج المؤقت ضرورة إجتماعية:

إنّه قانون عام إن الغريزة البشرية الطبيعية إذا لم تلّب بصورة صحيحة سلك الإنسان لإشباعها وتليبيتها طريقاً منحرفاً، لأن من الحقائق المسلمة غير القابلة للإنكار أن الغرائز الطبيعية لا يمكن أن يقضى عليها بالمرّة وحتى أننا إذا استطعنا أن نقضي عليها - افتراضاً - لم يكن هذا العمل عملاً صحيحاً، لأنّه حرب على قانون من قوانين الخلق.

وعلى هذا فإنّ الطريق الصحيح هو أن نشبع هذه الحاجة، ونلبي هذه الغريزة بطريقة معقولة، وأن نستفيد منها في سبيل البناء.

على أننا لا يمكننا أن ننكر أنّ الغريزة الجنسية هي إحدى أقوى الغرائز الإنسانية إلى درجة أن بعض المحلّين النفسانيين اعتبرها الغريزة الإنسانية الأصلية التي إليها ترجع بقية الغرائز الأخرى.

فإذا كان الأمر كذلك ينطرح سؤال في المقام وهو أنّه قد يكون هناك من لا يمكنه - وفي كثير من الظروف والأحوال - أن يتزوج بالزواج الدائم في سن

خاص، أو يكون هناك من المتزوجين من سافر في رحلة طويلة ومهمة بعيدة عن الأهل فيواجه مشكلة الحاجة الجنسية الشديدة التي تتطلب منه التلبية والإرضاء.

خاصة وإن هذه المسألة قد اتخذت في عصرنا الحاضر الذي أصبح فيه الزواج - بسبب طول مدة الدراسة وبعد زمن التخرج وبعض المسائل الاجتماعية المعقدة التي قلما يستطيع معها الشباب أن يتزوجوا في سن مبكرة، أي في السن التي تعتبر فترة الفوران الجنسي لدى كل شاب - اتخذت صفة أكثر عنفاً وضراوة، ترى ما الذي يجب عمله في هذه الحالة؟

هل يجب حث الناس على أن يقيموا هذه الغريزة (كما يفعل الرهبان والراهبات)؟

أو أنه يجب أن يفسح لهم المجال لأن يتحرروا جنسياً يفعلوا ما شاؤوا أن يفعلوا، فتتكرر الصورة المقرفة؟

أو أن نسلك طريقاً ثالثة تخلو عن مشاكل الزواج الدائم، كما وتخلو عن مفاسد التحرر الجنسي أيضاً؟

وخلاصة القول إن الزواج الدائم لم يكن لا في السابق ولا في الحاضر بقادر على أن يلبي كل الإحتياجات الجنسية، ولا أن يحقق رغبات جميع الفئات والطبقات في الناس، فنحن لذلك أمام خيارين لا ثالث لهما وهما: إما أن نسمح بالفحشاء والبغاء ونعترف به (كما هو الحال في المجتمعات المادية اليوم حيث سمحوا بالبغاء بصورة قانونية) أو أن نعالج المسألة عن طريق الزواج المؤقت (المتعنة) فما هو يا ترى جواب الذين يعارضون فكرة البغاء، وفكرة المتعنة، على هذا السؤال الملح؟

إن أطروحة الزواج المؤقت (المتعنة) ليست مقيدة بشرائط النكاح الدائم لكي يقال بأنها لا تنسجم ولا تتلاءم مع عدم القدرة المالية، أو لا تتلاءم مع ظروف

الدراسة، كما لا تنطوي على اضرار الفحشاء والبغاء ومفاسده وويلاته.

مؤاخذات على الزواج المؤقت:

نعم هناك مؤاخذات تؤخذ على الزواج المؤقت لا بد أن نذكرها هنا، ونجيب عليها باختصار.

١- ربّما يقال: ما الفرق بين «الزواج المؤقت» و«الزنا»، أليس كلاهما بيع للجسد لقاء دفع مبلغ معين، وفي الحقيقة ليس وصف الزواج المؤقت سوى ستار على وجه الفحشاء والزنا، نعم غاية الفرق بين الأمرين هو إجراء ما يستمى بالصيغة، وهي ليست سوى عبارة بسيطة.

والجواب هو: إن الذين يرددون هذا الكلام كأنهم لم يطلعوا أصلاً على مفهوم الزواج المؤقت وحقيقته، لأنّ الزواج المؤقت ليس عبارة عن مجرد كلمتين تقال وينتهي كل شيء، بل ثمة مقررات نظير ما في الزواج الدائم، يعني أن المرأة المتمتع بها تكون - طوال المدة المضروبة في الزواج المؤقت خاصة بالرجل المتمتع، ثم عندما تنتهي المدة المذكورة يجب على المرأة أن تعتد، يعني أن تمتنع من الزواج مطلقاً برجل آخر لمدة خمسة وأربعين يوماً على الأقل، حتى يتبين أنها حملت من الرجل الأول أو لا، على أنها يجب أن تعتد حتى إذا توسلت بوسائل لمنع الحمل أيضاً وإذا حملت من ذلك الرجل وأتت بوليد وجب أن يتكفله ذلك الرجل كما يتكفل أمر ولده من الزواج الدائم ويجري عليه من الأحكام كل ما يجري على الولد الناشئ من الزواج الدائم، في حين أن الزنا والبغاء لا ينطوي على أي شيء من هذه الشروط والحدود، فهل يمكن أن نقيس هذا الزواج بالبغاء؟

نعم إنّ بين الزواج المؤقت والزواج الدائم بعض الفروق من حيث التوارث

بين الزوجتين^(١) والنفقة وبعض الأحكام، ولكن هذه الفروق لا تسبب في أن يجعل «الزواج المؤقت» في رديف البغاء، خلاصة القول: إنَّ المتعة نوع من الزواج بمقررات الزواج والنكاح.

٢- إنَّ «الزواج المؤقت» يتيح لبعض الأشخاص من طلاب الهوى أن يسيء استعمال هذا القانون، وأن يرتكبوا كل فاحشة تحت هذا الستار لدرجة أن ذوي الشخصيات من الناس لا تقبل بمثل هذا الزواج، بل وتأنف منه كما أن ذوات الشخصية من النساء يأيين ذلك أيضاً.

والجواب هو: وأي قانون في عالمنا الراهن لم يسأ استعماله؟ وهل يجوز أن نمنع من الأخذ بقانون تقتضيه الفطرة البشرية وتعلميه الحاجة الاجتماعية الملحة بحجة أن هناك من يسيء استعماله، أم أن علينا أن نمنع من سوء استخدام القانون الصحيح؟

لو أن البعض استغل موسم الحج لبيع المخدرات على الحجيج - افتراضاً - فهل يجب أن نمنع من هذا التصرف الشائن، أم نمنع من اشتراك الناس في هذا المؤتمر الإسلامي العظيم؟

وهكذا الأمر في المقام، وإذا لاحظنا بعض الناس من ذوي الشخصيات يكره الأخذ بهذا القانون الإسلامي (أي الزواج المؤقت) لم يكشف ذلك عن عيب في القانون، بل يكشف عن عيب في العاملين به، أو بتعبير أصح: يكشف عن عيب في الذين يسيئون استخدام القانون.

فلو أن الزواج المؤقت اتخذ في المجتمع المعاصر صورته الصحيحة، وقامت الحكومة الإسلامية بتطبيقه على النحو الصحيح، وضمن ضوابطه ومقرراته الخاصة به، أمكن المنع من سوء استخدام المستغلين لهذا القانون، كما لم يعد ذوو الشخصيات يكرهون هذا القانون ويرفضونه عند وجود ضرورة

١- طبعا ليس هناك أي فرق بين أولاد الزواج المؤقت وأبناء الزواج الدائم من هذه النواحي.

اجتماعية أيضاً.

٣- يقولون: إن «الزواج المؤقت» يسبب في أن يحصل في المجتمع أطفال بلا أسر، تماماً كما يحصل من البغاء من الأولاد الغير الشرعيين.

والجواب هو: إن الإجابة على هذه المؤاخذه تتضح تماماً ممّا قلناه، لأن الأولاد غير الشرعيين غير مرتبطين بأبائهم ولا أمهاتهم من الناحية القانونية، في حين إن الأولاد الناتجين من الزواج المؤقت لا يختلفون في أي شيء عن الأولاد الناشئين من الزواج الدائم حتى في الميراث وسائر الحقوق الاجتماعية، وهذا الاعتراض نشأ من عدم الانتباه إلى هذه الحقيقة الساطعة في صعيد الزواج المؤقت.

«راسل» والزواج المؤقت:

في خاتمة هذا البحث من المفيد الإشارة إلى موضوع هام ذكره في هذا المجال العالم الإنجليزي المعروف «برتراند راسل» في كتابه: «الزواج والأخلاق» تحت عنوان «زواج اختياري».

لقد كتب راسل بعد أن ذكر اقتراحاً لأحد قضاة محاكم الشباب يدعى «بن بي ليندسي» في مجال «الزواج الودّي أو الزواج الاختياري» قائلاً: وفق هذا الاقتراح يجب أن يكون الشباب قادرين على أن يدخلوا في نوع جديد من الزواج يختلف عن الزواج المتعارف (الدائم) من ثلاث نواح:

أولاً: أن لا يقصد الطرفان الحصول على أبناء، ولهذا يجب أن يتعرفوا على أفضل السبل لمنع الحمل.

وثانياً: أن يتمّ الإفتراق بين الطرفين بأبسط الطرق وأسهلها.

وثالثاً: أن لا تستحق المرأة أي نفقة من الرجل بعد وقوع الإفتراق والطلاق بينهما.

ثم إن راسل بعد أن يذكر خلاصة ما اقترحه «ليندسي» يقول: وإني لأتصور أن مثل هذا الأمر لو اعترف به القانون لأقبل جمهور كبير من الشباب وخاصة الطلبة الجامعيين على الزواج المؤقت ولدخلوا في حياة مشتركة مؤقتة، حياة تتمتع بالحرية، وخالصة من كثير من التبعات والعواقب السنية للعلاقات الجنسية الطائشة، الراهنة»^(١).

إن هذا الطرح - كما تلاحظ أيها القارئ الكريم - حول الزواج المؤقت يشابه إلى حد كبير قانون الزواج المؤقت الإسلامي، غاية ما هنالك إن الشروط التي قررها الإسلام في صعيد «الزواج المؤقت» أوضح وأكمل من نواحي كثيرة مما اعتبر في ذلك الطرح (الذي اقترحه ليندسي)، هذا مضافاً إلى أن المنع من تكون الولد في الزواج المؤقت الإسلامي غير محذور وإن الانفصال سهل، كما أنه لا تجب النفقة في هذا الزواج على الرجل.

ثم إن الله سبحانه قال: - بعد ذكر وجوب دفع المهر - «ولا جناح عليكم في ما تراضيتن به من بعد الفريضة» وهو بذلك يشير إلى أنه لا مانع من التفسير في مقدار الصداق إذا تراضى طرفا العقد، وعلى هذا الأساس يكون الصداق نوعاً من الدين الذي يخضع للتغيير من زيادة أو نقصان إذا تراضيا. (ولا فرق في هذا الأمر بين العقد المؤقت والعقد الدائم وإن كانت الآية الحاضرة - كما شرحنا ذلك سلفاً - تدور حول الزواج المؤقت).

ثم إن هناك احتمالاً آخر في تفسير الآية أيضاً وهو أنه لا مانع من أن يقدم الطرفان - بعد انعقاد الزواج المؤقت على تمديد مدة هذا الزواج وكذا التغيير في مقدار المهر برضا الطرفين، وهذا يعني أن مدة الزواج المؤقت قابلة للتمديد حتى عند إشرافها على الانتهاء (أي قبيل انتهائها) بأن يتفق الزوجات أن يضيفا على المدة المتفق عليها في مطلع هذا الزواج، مدة أخرى معينة لقاء إضافة مقدار معين

من المال إلى الصداق المتفق عليه أولاً (وقد أُشير في روايات أهل البيت عليهم السلام إلى هذا التفسير أيضاً).

ثم أنه سبحانه قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً﴾ يريد بذلك أن الأحكام المذكورة في هذه الآية تتضمن خير البشرية وصلاحها وسعادتها لأن الله عليهم بمصالحهم، حكيم في ما يقرره لهم من القوانين.

* * *

الآية

وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكَحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ
فَإِنَّ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ
بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ
وَأَتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ الْمُحْصَنَاتِ غَيْرَ مُسْفِحَاتٍ وَلَا
مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَ فَإِنَّ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ
نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ
مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٥﴾

التفسير

التزوج بالإماء:

تعقيباً على الأبحاث السابقة المتعلقة بالزواج نزلت هذه الآية تبين شروط التزويج بالإماء، فتقول أولاً: «ومن لم يستطع منكم طَوْلاً^(١) أن ينكح المحصنات المؤمنات فن ما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات» أي من لم يجد قدرة مالية على أن يتزوج بالحرائر من النساء المؤمنات، وليس لديه ما يقدر على

١- «الطول» على وزن «نوع» مأخوذ من الطول (على وزن النور) بمعنى القدرة والإمكانية المالية وما شابه ذلك.

مهرهنّ ونفقتهنّ، فإنّ له أن يتزوج ممّا ملكت أيمانكم من الإماء، فإنّ مهورهنّ أقل، ومؤنتهنّ أخفّ عادةً.

على أنّ المراد من الأمة هنا هي أمة الغير، إذ لا يجوز لصاحب الأمة أن يتزوج بأمته ويتعامل معها كما يتعامل مع زوجته بشروط مذكورة في الكتب الفقهية.

كما أن التعبير بـ «المؤمنات» في الآية يستفاد منه أنّه يجب أن تكون «الأمة» التي يراد نكاحها مسلمة حتى يجوز التزوج بها، وعلى هذا لا يصحّ التزوج بالإماء الكتابيات.

ثمّ إنّ الملفت للنظر في المقام هو أنّ القرآن عبر عن الإماء بالفتيات جمع فتاة، هو مشعر عادة بالإحترام الخاص الذي يولي للنساء، وهي تستخدم غالباً في الشابات من الإناث.

ثمّ إن الله سبحانه عبّ على هذا الحكم بقوله: «والله أعلم بإيمانكم» ويريد بذلك أنكم لستم مكلفين - في تشخيص إيمان الإماء - إلاّ بالظاهر، وأمّا الباطن فالله هو الذي يعلم ذلك، فهو وحده العالم بالسرائر، والمطلع على الضمائر.

وحيث إن البعض كان يكره التزوج بالإماء ويستكف من نكاحهنّ قال تعالى: «بعضكم من بعض» أي أنكم جميعاً من أب واحد، وأمّ واحدة، فيأذن يجب أن لا تستنكفوا من التزوج بالإماء اللاتي لا يختلفن من الناحية الإنسانية عنكم، واللاتي يشبهنّ غيرهنّ من ناحية القيمة المعنوية، فقيمتهنّ تدور مدار التقوى والإيمان لا غير.

وخلاصة القول إنّ الإماء من جنسكم، وكلّكم كأعضاء جسم واحد. نعم لا بدّ أن يكون التزوج بالإماء بعد إذن أهلهنّ وإلاّ كان باطلاً، وإلى هذا أشار سبحانه بقوله: «فانكحوهن بإذن أهلهنّ» والتعبير عن المالك بالأهل إنّما هو للإشارة إلى أنّه لا يجوز التعامل مع الإماء على أنّهنّ متاع أو بضاعة، بل يجب

أن يكون التعامل معهنّ على أنهنّ من أعضاء العائلة، فلا بدّ أن يكون تعاملًا إنسانياً كاملاً.

ثمّ إنّه سبحانه قال: ﴿وَأَتَوْهِنَّ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ ومن هذه الجملة يستفاد أن الصّداق الذي يعطى نهنّ يجب أن يكون متناسباً مع شأنهنّ ومكانتهنّ، وأن يعطى المهر لهنّ، يعني أن الامة تكون هي المالكة للصّداق، وإن ذهب بعض المفسرين إلى أن في الآية حذفاً، أي أن الأصل هو (وَأَتَوْا مَالَكِهِنَّ أَجُورَهُنَّ) غير أن التفسير لا يوافق ظاهر الآية، وإن كانت تؤيده بعض الروايات والأخبار. هذا ويستفاد أيضاً من ظاهر الآية أنه يمكن للعبيد والإماء أن يملكوا ما يحصلون عليه بالطرق المشروعة.

كما يستفاد من التعبير بـ«المعروف» أنّه لا يجوز أن تظلم الإماء في تعيين مقدار المهر، بل هو حقهنّ الطبيعي الحقيقي الذي يجب أن يعطى إليهنّ بالقدر المتعارف.

ثمّ إن الله سبحانه ذكر شرطاً آخر من شروط هذا الزواج، وهو أن يختار الرجل للزواج العفائف الطاهرات من الإماء اللاتي لم يرتكبن البغاء إذ قال: ﴿مَحْصَنَاتٌ﴾ سواءً بصورة علنية «غير مسافحات» أو بصورة خفية «ولا متخذات أخدان»^(١) أي أصدقاء وأخلاء في السرّ.

ويمكن أن يرد هنا سؤال هو أنّ النهي عن الزنا بلفظة «غير مسافحات» تكفي وتعني عن النهي عن اتّخاذ الأخدان، فلماذا الوصف الثاني أيضاً؟
ويجاب على هذا: بأن البعض - في عهد الجاهلية - كان يرى أنّ المذموم فقط هو الزنا العلني والسفاح الظاهر، وأمّا اتّخاذ الأخلاء والرفاق أو الرفيقات في

١- الأخدان جمع «خدن» وهي بمعنى الرفيق والغل في الأصل، ولكنها تستعمل عادة في الأشخاص الذين يقيمون علاقات جنسية غير مشروعة مع الجنس الآخر، ولا بدّ أن نعرف أن القرآن أطلق لفظة الخدن على المرأة كما أطلقها على الرجل.

السَّرِّ فلا بأس به، وبهذا يتضح سبب ذكر القرآن وتصريحه بكللا النوعين.
ثم إن الله سبحانه قال: ﴿فَإِذَا أَحْصَنَ فَإِنَّ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفَ مَا عَلَى
المُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾.

وتتضمن الآية بحثاً حول عقوبة الإمام إذا خرجن عن جادة العفة والطهر،
وذلك بعد أن ذكر قبل هذا بعض أحكام الزواج بالإيماء، وبعض الأحكام حول
حقوقهن.

والحكم المذكور في هذا المجال هو أن الإمام إذا زنى فجزاؤهن نصف
جزاء الحرائر إذا زنى، أي خمسون جلدة.

ثم إن هاهنا نقطة جدية بالإنتباه هي أن القرآن الكريم يقول في هذا المقام
﴿إِذَا أَحْصَنَ﴾ فيكون معناه أن الجزاء المذكور إنما يترتب على زنا الأمة إذا
أحصنت، فماذا يعني ذلك؟

لقد احتمل المفسرون هنا احتمالات عديدة، فبعضهم ذهب إلى أن المراد هو
الأمة ذات بعل (وذلك حسب الإصطلاح الفقهي المعروف والآية السابقة).

وذهب آخرون إلى أن المراد هي الأمة المسلمة، بيد أن تكرار لفظة
المحصنة مرتين في الآية يقضي بأن يكون المعنى واحداً في المقامين، هذا من
جهة، ومن جهة أخرى فإن جزاء النساء المحصنات هو الرجم لا الجلد، فيتضح
أن التفسير الأوّل وهو تفسير المحصنة بالأمة ذات بعل غير مقبول، كما أن التفسير
الثاني وهو كون المراد من المحصنة هو المسلمة ليس له ما يدل عليه.

فالحق هو أن مجيء لفظة «المحصنات» في القرآن الكريم بمعنى المرأة
العفيفة الطاهرة - على الأغلب - يجعل من القريب إلى النظر أن تكون لفظة
المحصنة هنا في الآية الحاضرة مشيرة إلى هذا المعنى نفسه، فيكون المراد أن
الإيماء اللاتي كن يرتكبن الفاحشة بضغط وإجبار من أولياتهن لا يجري عليهن

الحكم المذكور (أي الجلد)، أما الإماء اللاتي لم يتعرضن للضغط والإجبار، ويمكنهن أن يعشن عفيفات نقيات، فإنهن إذا أتين بالفاحشة عوقبن كما تعاقب الحرائر وإن كانت عقوبة هذا النوع من الإماء على النصف من حد الحرائر في الزنا.

ثم قال سبحانه معقياً على الحكم السابق: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ﴾ و«العنت» (على وزن سند) يقال في الأصل للعظم المجبور - بعد الكسر - إذا أصابه ألم وكسر آخر فهضه قد أعنته، لأن هذا النوع من الكسر مؤلم جداً، ولهذا يستعمل في المشاكل الباهظة والأعمال المؤلمة.

ويقصد الكتاب العزيز من العبارة الحاضرة أن الزواج بالإماء إنما يجوز لمن يعاني من ضغط شديد بسبب شدة غلبة الغريزة الجنسية عليه ولم يكن قادراً على التزوج بالحرائر من النساء، وعلى هذا الأساس لا يجوز الزواج بالإماء لغير هذه الطائفة.

ويمكن أن تكون فلسفة هذا الحكم في أن الإماء خاصة في تلك العهود لم يحظين بتربية جيدة، ولهذا كن يعانين من نواقص خلقية ونفسية وعاطفية، ومن الطبيعي أن يتخذ الأطفال المتولدون من هذا الزواج صفة الأمهات ويكتسبوا خصوصياتهن الخلقية، ولهذا السبب طرح الإسلام طريقة دقيقة لتحرير العبيد تدريجاً حتى لا يبتلوا بهذا المصير السيء، وفي نفس الوقت فسح للأرقاء أنفسهم أن يتزوجوا فيما بينهم.

نعم، هذا الموضوع لا يتنافى مع وضع بعض الإماء اللاتي حظين بوضع استثنائي وخاص من الناحية الخلقية والتربوية، فالحكم المذكور أعلاه يرتبط بأغلبية الإماء، وكون بعض أمهات الأنثى، من أهل البيت النبوي ﷺ من الإماء هو من هذه الجهة، ولكن لا بد من الإلتباه إلى أن ما قيل في مجال الإماء من

«المنع في غير الضرورة» هو الزواج بهنّ، لا نكاحهنّ بسبب الملك، فإنّه لا مانع منه حتى في غير الضرورة.

ثمّ عقب سبحانه على ذلك بقوله: «وإنّ تصبروا خير لكم» أي إنّ صبركم عن التزوج بالإماء ما استطعتم وما لم تقعوا في الزنا خير لكم ومن مصلحتكم: «والله غفور رحيم» أي يغفر الله لكم ما تقدم منكم بجهل أو غفلة فهو رحيم بكم.



الآيات

يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٦﴾ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا ﴿٦٨﴾

التفسير

هذه القيود لماذا؟:

بعد أن بين الله سبحانه في الآيات السابقة ما هناك من شروط وقيود وأحكام مختلفة في مجال الزواج، يمكن أن يندح سؤال في ذهن البعض وهو: ما المقصود من كل هذه القيود ولماذا الحدود القانونية؟ ألم يكن من الأفضل أن تترك للأفراد الحرية الكاملة في هذه المسائل، ليتاح لهم أن يستفيدوا من هذا الأمر وليتعرفوا في هذا المجال كما يفعل عبدة الدنيا حيث يتوسلون بكل وسيلة في طريق اللذة؟

إن الآيات الحاضرة هي في الحقيقة إجابة على هذه التساؤلات إذ يقول سبحانه: «يريد الله ليبيّن لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم» أي أن الله يبيّن لكم الحقائق بواسطة هذه القوانين ويهديكم إلى ما فيه مصالحكم،

مع العلم بأن هذه الأحكام لا تختص بكم، فقد سار عليها من سبقكم من أهل الحق من الأمم الصالحة، هذا مضافاً إلى أن الله تعالى يريد أن يغفر لكم ويعيد عليكم نعمه التي قطعت عنكم بسبب إنحرافكم عن جادة الحق، وكل هذا إنما يكون إذا عدتم عن طريق الإنحراف الذي سلكتموه في عهد الجاهلية وقبل الإسلام.

«والله عليم حكيم» يعلم بأسرار الأحكام، ويشعرها لكم عن حكمة.

ثم إن الله سبحانه أكد ما مرّ بقوله: «والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً» أي أن الله يريد بتشريع هذه الأحكام لكم أن يعيد عليكم نعمه التي قطعت ومنعت عنكم بسبب ذنوبكم، وارتكابكم للشهوات، ولكن الذين يريدون الإنسياق وراء الشهوات الغارقين في الآثام والذنوب يريدون لكم أن تنحرفوا عن طريق السعادة، إنهم يريدون أن تسايروهم في اتباع الشهوات وأن تغمسوا في الآثام انغماساً كاملاً، فهل ترون - والحال هذه - إن هذه القيود والحدود الكفيلة بضمان سعادتكم وخيركم ومصالحتكم أفضل لكم، أو الحرية المنفلتة المقرونة بالإنحطاط الخلقي، والفساد والسقوط؟ إن هذه الآيات في الحقيقة تجيب على تساؤل أولئك الأفراد الذين يعيشون في عصرنا الحاضر أيضاً والذين يعترضون على القيود والحدود المفروضة في مجال القضايا الجنسية، وتقول لهم: إن الحريات المطلقة المنفلتة ليست أكثر من سراب، وهي لا تنتج سوى الإنحراف الكبير عن مسير السعادة والتكامل الإنساني، وكما توجب التورط في المتاهات والمجاهل، وتستلزم العواقب الشريرة التي يتجسد بعضها في ما نراه بأب أعيننا من تبثر العوائل، ووقوع أنواع الجريمة الجنسية البشعة، وظهور الأمراض التناسلية والآلام الروحية والنفسية المقيتة، ونشوء الأولاد غير الشرعيين حيث يكثر فيهم المجرمون القساة الجناة.

ثم إنّه سبحانه يقول بعد كل هذا: «يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان

ضعيفاً، وهذه الآية إشارة إلى أن النقطة التالية وهي أن الحكم السابق في مجال حرية الزوج بالإماء بشروط معينة ما هو - في الحقيقة - إلا تخفيف وتوسعة، ذلك لأن الإنسان خلق ضعيفاً، فلا بدّ وهو يواجه طوفان الفرائز المتنوعة الجامعة التي تحاصره وتهجم عليه من كل صوب وحدث أن تطرح عليه طرق ووسائل مشروعة لإرضاء غرائزه، ليستمكن من حفظ نفسه من الانحراف والسقوط.



الآيات

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ
تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ
بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٣١﴾ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدُونًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُضَلِّهِ
نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٢﴾

التفسير

سلامة المجتمع ترتبط بسلامة الإقتصاد:

الآية الأولى من هاتين الآيتين تشكل - في الحقيقة - القاعدة الأساسية
للقوانين الإسلامية في مجال المسائل المتعلقة «بالمعاملات والمبادلات المالية»
ولهذا يستدل بها فقهاء الإسلام في جميع أبواب المعاملات والمبادلات المالية.
إن هذه الآية تخاطب المؤمنين بقولها: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا
أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ» وهذا يعني أن أي تصرف في أموال الغير بدون حق أو
بدون أي مبرر منطقي ومعقول، ممنوع ومحرم من وجهة نظر الإسلام، فقد أدرج
الإسلام كل هذه الأمور تحت عنوان «الباطل» الذي له مفهوم واسع وكبير.
والباطل كما نعلم يقابل «الحق» وهو شامل لكل ما ليس بحق وكل ما لا
هدف له ولا أساس.

وفي آيات أخرى من القرآن الكريم أكد هذا المعنى بعبارات شبيهة بالعبارة المذكورة في الآية الحاضرة، فعندما يشنع على اليهود ويذكر أعمالهم القبيحة يقول: «وَأَكْلَهُمْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ»^(١) ويقول في الآية (١٨٨) من سورة البقرة «لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ» كمقدمة للنهي عن جبر الناس إلى المحاكم وأكل أموالهم بحجج واهية غير منطقية.

وعلى هذا الأساس يندرج تحت هذا العنوان الكلي كل لون من ألوان العدوان، والغش، وجميع المعاملات الربوية، والمعاملات المجهولة الخصوصيات تماماً، وتعاطي البضائع التي لا فائدة فيها بحكم العقلاء، والتجارة بأدوات اللهو والفساد والمعصية وما شاكل ذلك.

وتفسير بعض الروايات كلمة «الباطل» بالقمار والزبا وما شابه ذلك إنما هو في الحقيقة من باب ذكر المصاديق الواضحة لهذا المفهوم، وليس من باب الحصر والقصر.

ولعلنا لا نحتاج إلى التذكير بأن التعبير بـ «الأكل» كناية عن كل تصرف، سواء تم بصورة الأكل المتعارف أو اللبس، أو السكنى أو غير ذلك، تعبير رائج في اللغة العربية وغير العربية، غير غريب على الإستعمال.

ثم إن الله سبحانه يقول معقياً على العبارات السابقة: «إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ».

وهذه العبارة استثناء من القانون الكلي، وهو بحسب الإصطلاح «استثناء منقطع»^(٢) وهو يعني إن ما جاء في هذا العبارة لم يكن مشمولاً للحكم السابق من الأساس، بل قد ذكر تأكيداً وتذكيراً، فهو في حد ذاته قانون كلي، وضابطة عامة

١- النساء، ١٤٦.

٢- الإستثناء المنقطع يأتي - غالباً - لتأكيد عمومية الحكم العام، وهو أمر صادق في المقام، هذا مضافاً إلى أنه يكشف عن هذه الحقيقة، وهي أن تحريم التصرفات الباطلة لا يقلل عليكم أبواب الرزق والعيادة، بل في إمكانكم أن تحققوا أهدافكم عن طريق التجارة المشروعة والكسب المباح شرعاً.

برأسها، لأنه يقول: إلا أن يكون التصرف في أموال الآخرين بسبب التجارة الحاصلة في ما بينكم، والتي تكون عن رضا الطرفين.

فبناء على هذا تكون جميع أنواع المعاملات المالية والتبادل التجاري الراجح بين الناس - في ما إذا تمّ برضا الطرفين وكان له وجه معقول - أمراً جائزاً من وجهة نظر الإسلام (إلا الموارد التي ورد فيها نهي صريح لمصالح خاصة).

ثمّ أنه تعالى ينهى في ذيل هذه الآية عن قتل الإنسان لنفسه إذ يقول: «ولا تقتلوا أنفسكم» وظاهر هذه الجملة بقرينة قوله: «إن الله كان بكم رحيماً» النهي عن الانتحار، يعني أن الله الرحيم كما لا يرضى بأن تقتلوا أحداً، كذلك لا يسمح لكم ولا يرضى بأن تقتلوا أنفسكم بأيديكم، وقد فسرت الآية الحاضرة في روايات أهل البيت عليهم السلام بالانتحار أيضاً^(١).

وهنا يطرح سؤال وهو: أي ارتباط بين مسألة قتل الإنسان لنفسه، و«التصرف الباطل في أموال الناس»؟

إنّ الجواب على هذا السؤال واضح تماماً، وفي الحقيقة يشير القرآن بذكر هذين الحكيمين بصورة متتالية إلى نكتة إجتماعية مهمّة، وهي أنّ العلاقات الاقتصادية في المجتمع إذا لم تكن قائمة على أساس صحيح، ولم يتقدم الاقتصاد الإجتماعي في الطريق السليم، ووقع الظلم والتصرف العدواني في أموال الغير أصيب المجتمع بنوع من الانتحار، وآل الأمر إلى تصاعد حالات الانتحار الفردي مضافاً إلى الانتحار الجماعي الذي هو من آثار الانتحار الفردي ضمناً.

إنّ الحوادث والثورات التي تقع في المجتمعات العالمية المعاصرة خير شاهد وأفضل دليل على هذه الحقيقة، وحيث أنّ الله لطيف بعباده رحيم بخلقه فقد أنذرهم وحذرهم من مغبة الأمر، وحثّهم على تجنب المبادلات الاقتصادية

المالية الغير الصحيحة، وأخطرهم بأن الإقتصاد المريض يؤدي بالمجتمع إلى السقوط والإنهيار، والفناء والاندحار.

كما حذر قائلاً: «ومن يفعل ذلك عدواناً وظلماً فسوف نصليه^(١) ناراً» أي أن من يعصي هذه الأحكام ويتجاهل هذا التحذير، ويأكل أموال الآخرين بالباطل ودون استحقاق، أو ينتحر بيديه لم يصبه العذاب الإليم في الدنيا فحسب، بل ستصيبه نار الغضب الإلهي، وهذا أمر هين على الله: «وكان ذلك على الله يسيراً».



١- «الصلي» يعني في الأصل الإقترب إلى النار، ويطلق على التدفؤ والإحتراق والإكتواء بالنار أيضاً، وقد استعملت في الآية الحاضرة في معنى الإحتراق بالنار إحتراقاً.

الآية

إِنْ تَحْتَبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نَكْفُرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ
وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٦٧﴾

التفسير

المعاصي الكبيرة والصغيرة:

هذه الآية تقول بصراحة: «إِنْ تَحْتَبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نَكْفُرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا».

ومن هذا التعبير يستفاد أن المعاصي والذنوب على قسمين:

القسم الأول: هو ما يسميه القرآن الكريم بالمعصية الكبيرة.

والقسم الثاني وهو ما يسميه القرآن الكريم بالسئية.

وقد عبّر في الآية (٣٢) من سورة النجم «باللمم»^(١) بدلاً عن السئية، وفي

الآية (٤٩) من سورة الكهف ذلك لفظة «الصغيرة» في مقابل الكبيرة عندما يقول: «لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها».

ومن التعابير المذكورة يثبت - بوضوح - أن الذنوب والمعاصي على صنفين

محددتين، يعبر عنهما تارةً بالكبيرة والصغيرة، وتارةً أخرى بالكبيرة والسئية،

١- «اللمم» (على وزن القسم) تعني الأعمال الصغيرة غير الهامة.

وثلاثة بالكبيرة و«اللمم».

والآن يجب أن نعرف ما هو الملاك والضابطة في تحديد الصغيرة والكبيرة. يذهب البعض إلى أن هذين الوصفين من الأمور النسبية، تكون كل معصية بالنسبة إلى ما هو أكبر منها صغيرة، وبالنسبة إلى ما هو أصغر منها كبيرة^(١). ولكن من الواضح أن هذا المعنى لا ينسجم مع ظاهر الآية الحاضرة، لأن الآية الحاضرة تقسم الذنوب إلى صنفين مستقلين، وتعتبرهما نوعين متقابلين، وتعتبر الإجتنب عن صنف موجباً للغفو والتكفير عن الصنف الآخر.

ولكننا إذا راجعنا المعنى اللغوي للكبيرة وجدنا أن الكبيرة هي كل معصية بالغة الأهمية من وجهة نظر الإسلام، ويمكن أن تكون علامة تلك الأهمية أن القرآن لم يكتف بالنهي عنها فقط، بل أردف ذلك بالتهديد بعذاب جهنم، مثل قتل النفس والزنا وأكل الربا وأمثال ذلك، ولهذا جاء في روايات أهل البيت عليهم السلام: «الكبائر التي أوجب الله عز وجل عليها النار»، وقد روي مضمون هذا الحديث عن الإمام الباقر عليه السلام والإمام الصادق عليه السلام، والإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام^(٢).

وعلى هذا الأساس تسهل معرفة المعاصي الكبيرة إذا أخذنا بنظر الاعتبار الضابطة المذكورة، وما قد ذكر في بعض الروايات من أن عدد الكبائر سبع وفي بعضها عشرون وفي بعضها سبعون لا ينافي ما ذكرناه قبل قليل، إذ أن بعض هذه الروايات يشير - في الحقيقة - إلى المعاصي الكبيرة من الدرجة الأولى، وبعضها الآخر يشير إلى المعاصي الكبيرة من الدرجة الثانية، وبعضها الثالث يشير إلى جميع الذنوب الكبيرة.

١- وقد نسب العلامة الطبرسي رحمته الله في مجمع البيان هذا الإعتقاد إلى علماء الشيعة في حين أن الأمر ليس كذلك، فلكثير من علماء الشيعة رأي آخر سنأتي على ذكره بالتفصيل.

٢- نور الثقلين، ج ١، ص ٤٧٣.

إشكال:

يمكن أن يقال أن هذه الآية تشجع الناس على ارتكاب المعاصي والذنوب الصغيرة إذا، كأنها تقول: لا بأس بارتكاب المعاصي الصغيرة شريطة ترك الكبائر من الذنوب.

الجواب:

إن الجواب على هذا الإشكال يتضح من التعبير المذكور في الآية الحاضرة، إذ يقول القرآن الكريم: «تكفّر عنكم سيئاتكم» يعني إن الإجتناّب عن الذنوب الكبار، خصوصاً مع توفر أرضية ارتكابها، يوجد حالة من التقوى الروحية لدى الإنسان يمكنها أن تطهره من آثار الذنوب والمعاصي الصغيرة.

وفي الحقيقة أن الآية الحاضرة تشبه الآية (١١٤) من سورة هود التي تقول: «إنّ الحسنات يذهبن السيئات» فهي إشارة إلى أحد الآثار الواقعية للأعمال الصالحة وهو يشبه ما إذا قلن:، إذا اجتنب الإنسان المواد السامة الخطيرة وتوفرت له صحة جيدة ومناعة قوية أمكنه أن يتخلص من الآثار السيئة لبعض الأطعمة غير المناسبة لسلامة مزاجه، وبسبب مناعته الجسمية.

وبتعبير آخر إن التكفير عن الذنوب الصغيرة وغفرانها يعد نوعاً من «الأجر المعنوي» لتاركي المعاصي والذنوب الكبيرة، ولهذا - في الحقيقة - أثر تشجيعي قوي على ترك الكبائر، محفز على إجتنابها.

متى تنقلب الصغيرة إلى كبيرة؟:

إنّ هاهنا نقطة مهمّة لابدّ من الالتفات إليها، وهي أنّ المعاصي الصغيرة تبقى صغيرة ما لم تتكرر، هذا مضافاً إلى كونها لا تصدر عن استكبار أو غرور وطغيان، لأنّ الصغائر - كما يستفاد من الكتاب العزيز والأحاديث الشريفة - تتبدل إلى الكبيرة في عدّة موارد هي:

١- إذا «تكررت الصغيرة»، قال الإمام الصادق عليه السلام: «لا صغيرة مع الإصرار».

٢- إذا استصغر صاحب المعصية معصيته واستحقرها، فقد جاء في نهج البلاغة: «أشدّ الذنوب ما استهان به صاحبه».

٣- إذا ارتكبها مرتكبها عن عناد واستكبار وطمغان وتمرّد على أوامر الله تعالى، وهذا هو ما يستفاد من آيات قرآنية متنوعة إجمالاً، من ذلك قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَىٰ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا، فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾^(١).

٤- إن صدرت المعصية ممن لهم مكانة إجتماعية خاصة بين الناس وممن لا تحسب معصيتهم كمعصية الآخرين، فقد جاء في القرآن الكريم حول نساء النبي ﷺ في سورة الأحزاب الآية (٣٠): ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنِ يَا تُبَاتِ مَنْكَنَ بِفَاحِشَةٍ مَّبِينَةٍ يَضَاعَفُ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾، وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: ﴿مَنْ سَنَ سَنَةَ سَيِّئَةٍ فَعَلِيهِ زَرْهَا وَوَزَرَ مِنْ عَمَلٍ بِهَا لَا يَنْقُصُ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْئاً﴾.

٥- أن يفرح مرتكب المعصية بما إقترفه من المعصية، ويفتخر بذلك كما روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من أذنب ذنباً وهو ضاحك دخل النار وهو باك».

٦- أن يعتبر تأخير العذاب العاجل عنه على المعصية دليلاً على رضاه تعالى، ويرى العبد نفسه محصناً من العقوبة آمناً من العذاب، أو يرى لنفسه مكانة عند الله لا يعاقبه الله على معصية لأجلها، كما جاء في سورة المجادلة الآية (٨) حاكياً عن لسان بعض العصاة المغرورين الذين يقولون في أنفسهم: ﴿لَوْلَا يَعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾، ثم يرد عليهم القرآن الكريم قائلاً: ﴿حَسِبْتُمْ جَهَنَّمَ﴾^(٢).



١- النزاعات، ٣٧-٣٩.

٢- المحجة البيضاء، ج ٧، ص ٦١.

الآية

وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ
مِّمَّا كَتَبْنَا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَتَبْنَا وَسَأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ
إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٧﴾

سبب النزول

قال المفسر الشهير الطبرسي رحمته الله في «مجمع البيان»: قيل أن أم سلمة (وهي من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم) قالت: يا رسول الله يغزو الرجال ولا تغزو النساء، وإنما لنا نصف الميراث؟ فليتنا رجال ونغزو ونبلغ ما يبلغ الرجال، فنزلت الآية تجيب على جميع هذه التساؤلات.

ونقرأ في تفسير المنار: إن جماعة من الرجال المسلمين قالوا: نرجو أن نفضل على النساء بحسناتنا في الآخرة كما فضلنا عليهن في الميراث فيكون أجرنا على الضعف من أجر النساء، وقالت جماعة من النساء المسلمات: إنا نرجو أن يكون الوزر علينا نصف ما على الرجال في الآخرة كما لنا الميراث على النصف من نصيبهم في الدنيا، فنزلت الآية.

وقد ذكر سبب النزول هذا بعينه في تفسير «في ظلال القرآن» وتفسير «روح

المعاني» مع فارق بسيط.

التفسير

لقد أوجب التفاوت في سهم الرجال والنساء من الإرث - كما قرأت في سبب النزول - تساؤلاً لدى البعض، ويبدو أنهم لم يلتفتوا إلى أن هذا التفاوت إنما هو لأجل أن النفقة بكاملها على الرجل، وليس على النساء شيء من نفقات العائلة، بل نفقة المرأة هي الأخرى مفروضة على الرجل، ولهذا يكون ما يصيبه المرأة ضعف ما يصيبه الرجل من الثروة، ولهذا قال الله تعالى في هذه الآية: ﴿ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض﴾، لأن لكل نوع من أنواع هذا التفضيل والتفاوت أسرار خفية عنكم غير ظاهرة لكم، سواء كان التفاوت من جهة الخلقة والجنسية وبقية الصفات الجسمية والروحية التي تشكل أساس النظام الاجتماعي فيكم، أو التفاوت من الناحية الحقوقية بسبب اختلاف الموقع والمكانة كالتفاوت في سهم الإرث، إن جميع أنواع هذا التفاوت قائم على أساس العدل والقانون الإلهي الحكيم، ولو كانت مصلحتكم في غير ذلك لسئته وبيته لكم، وعلى هذا فإن تمنى تغيير هذا الوضع نوع من المخالفة للمشيئة الربانية التي هي عين الحق والعدالة.

على أنه يجب أن لا نتصور خطأ أن الآية الحاضرة تشير إلى التفاوت المصطنع الذي برز نتيجة الاستعمار والإستغلال الطبقي، بل تشير إلى الفروق الطبيعية الواقعية، لأن الفروق المصطنعة لا هي من المشيئة الإلهية في شيء، ولا أن تمنى تغييرها مرفوض وغير صحيح، بل هي فروق ظالمة وغير منطقية يجب السعي في رفعها وإزالتها وتفنيدها، فللمثال: لا يمكن للنساء أن يتمنين أن يكنَّ رجالاً، كما لا يمكن للرجال أن يتمنوا أن يكونوا نساء، لأن وجود هذين الجنسين أمر ضروري للنظام الاجتماعي الإنساني، ولكن هذا التفاوت الجنسي يجب أن لا يتخذ ذريعة، لأن يسحق أحد الجنسين حقوق الجنس الآخر، ومن هنا فإن الذين اتخذوا هذه الآية ذريعة لإثبات التمييز الاجتماعي الظالم أو

يتصوروها حجة على هذا التمييز قد أخطاوا خطأ كبيراً.

ولذا عقب الله سبحانه على الجملة السابقة فوراً بقوله: ﴿لَرَجَالٍ نَصِيبٌ مِّمَّا كَتَبْنَا لِلنِّسَاءِ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَتَبْنَا لَهُنَّ فَمَا كَانَتْ مَكَانَتُهُنَّ سِوَا مَا كَانَتْ مَكَانَتُهُنَّ طَبِيعِيَّةً (كالتفاوت والفرق بين جنسي الرجل والمرأة) أو غير طبيعية ناشئة عن التفاوت بسبب الجهود الاختيارية. إنَّ الجدير بالإلتفات هنا هو: إنَّ لكلمة «الإكتساب» التي هي بمعنى التحصيل مفهوماً واسعاً يشمل الجهود الاختيارية، كما يشمل ما يحصل عليه الإنسان بواسطة بنيانه الطبيعي.

ثم يقول: ﴿وَأَسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي بدل أن تمنوا هذا التفضيل والتفاوت اطلبوا من فضل الله وأسألوا من لطفه وكرمه أن يفضل عليكم من نعمه المتنوعة وتوفيقاته ومثوباته الطيبة، لتكونوا - بنتيجة ذلك - سعداء رجالاً ونساءً، ومن أي عنصر كنتم، وعلى كل حال اطلبوا وأسألوا ما هو خيركم وسعادتكم واقعاً، ولا تمنوا ما هو خيال أو ما تتخيلونه (ولعلَّ التعبير بلفظة «من فضله» إشارة إلى المعنى الأخير).

على أنه من الواضح جداً أن طلب الفضل والعناية الربانية ليس بمعنى أن لا يسعى الإنسان في الأخذ بأسباب كل شيء وعوامله، بل لابد من البحث عن فضل الله ورحمته من خلال الأسباب التي قررها وأرساها في الكون.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ أي يعلم ما يحتاج إليه نظام المجتمع وما يلزمه من الفروق سواء من الناحية الطبيعية أو الحقوقية، ولهذا لا وجود للظلم والحيث ولا لأي شيء من التفاوت الظالم والتمييز غير العادل في أفعاله، كما أنه تعالى خبير بما في بواطن الناس من الأسرار والخفايا والنوايا ويعلم من الذي يتمنى الأماني الخاطئة في قلبه، ومن يتمنى الأماني الإيجابية الصحيحة البناءة.

التفاوت الطبيعي بين الناس لماذا؟!

إنَّ تَمَّةَ كثيرين يطرحون على أنفسهم السَّؤال التالي: لماذا خلق البعض بمواهب وقابليات أكثر، وآخرون بمواهب وقابليات أقل، والبعض مستحلين بالجمال، وآخرون خُلُوْ منه، أو بجمال قليل، والبعض بامتيازات جسمية عالية وقوية متفوقة، وآخرون عاديين، هل يتلاءم هذا التفاوت مع العدل الإلهي؟؟.

في الإجابة على هذه التساؤلات لا بدّ من الالتفات إلى النقاط التالية:

١- إنَّ بعض الفروق الجسمية والروحية بين الناس ناشئة عن الاختلافات الطبقية والمظالم الاجتماعية، أو التفریط الفردي الذي لا علاقة له بنظام الخلق وجهاز الإيجاد أبدأً، فمثلاً كثير من أبناء الأغنياء أقوى من أبناء الفقراء وأكثر جمالاً وتقدماً من ناحية المواهب والقابليات بسبب أن الفريق الأول (أولاد الأغنياء) يحظى بإمكانيات أكبر من حيث الغذاء والجوانب الصحية، في حين يعاني الفريق الثاني من حرمان ونقصان من هذه الجهة. أو أن هناك من يخسر الكثير من طاقاته الجسمية والروحية بسبب التواني، والبطالة، والتفریط والتقصير.

إننا يجب أن نعتبر هذه الفروق وهذا التفاوت تفاوتاً ومصطنعاً ومزيفاً، وغير مبرر، ويتحقق القضاء عليها من خلال القضاء على النظام الطبقي، وتعميم العدالة الاجتماعية في الحياة البشرية، والقرآن الكريم والإسلام لا يقرّ أي شيء من هذه الفروق، وأي لون من ألوان هذا التفاوت والتمييز أبدأً.

٢- إنَّ القسم الآخر من الفروق وألوان التفاوت أمر طبيعي، وشيء لازم من لوازم الجبلة البشرية، بل وضرورة من ضرورات الحياة الإنسانية، يعني أن مجتمعاً من المجتمعات حتى إذا كان يحظى بالعدالة الاجتماعية الكاملة لا يمكن أن يكون جميع أفرادها متساوين وعلى نمط واحد وصورة واحدة مثل منتجات معمل. بل لا بدّ أن يكون هناك بعض التفاوت، ولكن يجب أن نعلم أن المواهب

الإلهية والقابليات الجسمية والروحية قد قسمت - في الأغلب - تقسيماً يصيب فيه كل واحد قسطاً من تلك المواهب والقابليات. لا أن يحظى بعض بجميع المواهب، ويحرم آخرون من أي شيء منها، وبمعنى أنه قل أن يوجد هناك من تجتمع فيه كل المواهب جملة واحدة، بل هناك من يحظى بالمقدرة البدنية الكافية، وآخر يحظى بموهبة رياضية جيدة، ومن يحظى بذوق شعري رفيع، وآخر يحظى برغبة كبيرة في التجارة، ومن يتمتع بذكاء وافر في مجال الزراعة، وآخر بمواهب وقابليات خاصة أخرى.

المهم أن يكتشف المجتمع أو الأفراد أنفسهم تلك المواهب والقابليات، وأن يقوموا بتربيتها وتنميتها في بيئة سليمة، حتى يتمكن كل إنسان إظهار ما ينطوي عليه من نقطة ضعف ويستفيد منها.

٣- يجب أن نذكر القارىء أيضاً بأن المجتمع مثل الجسد الإنساني بحاجة إلى الأنسجة والعضلات والخلايا المختلفة، يعني كما أن البدن لو تألف جميعه من خلايا دقيقة ورقيقة مثل خلايا العين والمنخ لم يدم طويلاً، ولو تألف جميعه من خلايا غليظة وخشنة لا تعرف انعطافاً مثل خلايا العظام، فقدت القدرة الكافية على القيام بوظائفها، بل لا بد أن تكون الخلايا المكونة للجسم متنوعة، ليصلح بعضها للقيام بوظيفة التفكير، وبعضها للمشاهدة والنظر، وآخر على الإستماع ورابع على التحدث، هكذا لا بد لوجود «المجتمع الكامل» من وجود عناصر ذات مواهب وقابليات وأذواق، وتراكيب مختلفة متنوعة، بدنية وفكرية، لكن لا يعني هذا أن يعاني بعض أعضاء الجسد الإجتماعي من حرمان، أو تستصفر خدماته أو يستحقر دوره. تماماً كما تستفيد كل خلايا البدن الواحد رغم ما بينها من تفاوت وفروق من الغذاء والهواء وغيرها من الحاجات بالمقدار اللازم لكل واحد.

وبعبارة أخرى: إن الفروق وأشكال التفاوت في البنية الروحية والجسمية

في الجوانب الطبيعية (التي لا هي ظالمة ولا هي مفروضة) إنما هي في الحقيقة مقتضى «الحكمة الربانية»، والعدل لا يمكنه بحال أن ينفصل عن الحكمة.

فعلى سبيل المثال إذا كانت خلايا الجسم البشري مخلوقة في شكل واحد كان ذلك بعيداً عن الحكمة كما أنه خال عن العدل الذي يعني وضع كل شيء في محله وموضعه المناسب، وكذلك إذا تشابه الناس في يوم من الأيام في التفكير أو تشابهوا في القابلية والموهبة لتهافت بنیان المجتمع برمته في ذلك اليوم.

إذن فما ورد في هذه الآية في مجال التفضيل والتفاوت في جبلة الرجل والمرأة وخلقتهما إنما هو في الواقع إشارة إلى هذا الموضوع، لأنه من البديهي إذا كان البشر جميعاً رجالاً، أو كانوا جميعاً نساء لا يقرض النوع البشري عاجلاً، هذا مضافاً إلى إنتفاء قسم من ملاذ البشر المشروعة.

فإذا اعترض جماعة قائلين لماذا خلق البشر صنفين رجالاً ونساء، وزعموا بأن هذا الأمر لا يتلاءم مع العدالة الإلهية. لم يكن هذا الإعتراض منطقياً، لأنهم لم يلتفتوا إلى حكمة هذا التفاوت، ولم يتدبروا فيها.

الآية

وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوْلَىٰ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ
عَقَدْتُمْ أَيْمَانُكُمْ فَأَتَوْهُمْ نَصِيْبُهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ
شَهِيدًا ﴿٣٣﴾

التفسير

يعود القرآن مرة أخرى إلى مسألة الإرث إذ يقول: ﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوْلَىٰ﴾^(١) مما ترك الوالدان والأقربون، أي لكل رجلٍ أو امرأة جعلنا ورثة يرثون مما ترك الوالدان والأقربون الذي يجب أن يقسم بينهم طبق برنامج خاص. إن هذه العبارة هي - في الحقيقة - خلاصة أحكام الإرث التي مرّ ذكرها في الآيات السابقة في مجال الأقرباء، وهي مقدمة لحكم سيأتي بيانه في ما بعد. ثم إن الله تعالى يضيف قائلاً: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدْتُمْ أَيْمَانُكُمْ فَأَتَوْهُمْ نَصِيْبُهُمْ﴾ أي ادفعوا إلى الذين عقدتم معهم عقداً نصيبهم من الإرث. والتعبير عن الميثاق بعقد اليمين (وهو العقد باليد اليمنى) لأجل أن الإنسان

١ - «الموالي» جمع مولى، وهي في الأصل من مادة الولاية بمعنى الإتيان والإرتباط، وتطلق على جميع الأفراد الذين يرتبط بعضهم ببعض بنوع من الإرتباط، غاية ما هناك أنها تكون في بعض الموارد بمعنى إرتباط الولي مع أتباعه، وأما في الآية الحاضرة فتكون بمعنى الورثة.

غالباً ما يستفيد من يده اليمنى للقيام بأعماله، كما أن الميثاق يشبه نوعاً من العقد (في مقابل الحل).

والآن لننظر من هم الذين عقد معهم الميثاق، الذين لا بد أن يعطوا نصيبهم من الإرث؟

يحتمل بعض المفسرين أن المراد هو الزوج والزوجة لأنهما عقدا في ما بينهما رابطة الزوجية.

ولكن هذا الاحتمال يبدو مستبعداً، لأن التعبير عن الزواج بعقد اليمين ونظيره في القرآن الكريم قليل جداً، هذا مضافاً إلى أنه يعد تكراراً للمواضيع السابقة.

إن ما هو أقرب إلى مفهوم الآية هو عقد «ضمان الجريرة» الذي كان رائجاً قبل الإسلام، وقد عدله الإسلام بعد أن أقره لما فيه من ناحية إيجابية وهو: «أن يتعاقد شخصان فيما بينهما على أن يتعاونوا فيما بينهما بشكل أخوي أن يعين أحدهما الآخر عند المشكلات، وإذا مات أحدهما قبل الآخر ورثه الباقي» ولقد أقر الإسلام هذا النوع من التعاقد الأخوي الودي، ولكنه أكد على أن التوارث بسبب هذا الميثاق إنما يمكن إذا لم يكن هناك ورثة من طبقات الأقرباء، يعني إذا لم يبق أحد من الأقرباء ورث ضامن الجريرة الذي وقع بينه وبين الآخر مثل هذا العقد (لمعرفة التفاصيل أكثر راجع بحث الإرث في الكتب الفقهية)^(١).

ثم ختم سبحانه الآية بقوله: «إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً» أي إذا قصرتم في إعطاء نصيب الورثة ولم تعطوهم حقوقهم كاملة، علم الله بذلك ولم يخف عليه ما فعلتم، لأنه على كل شيء شهيد وبكل شيء عليم.



١ - صورة عقد ضمان الجريرة هكذا «عالماتك على أن تصرني وأنصرله وتعقل عني وأعقل عنك وترثني وأرثك» فيقول الآخر: «قبلت».

الآية

الرَّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ
وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَنِينَاتٌ حَفِظْنَ
لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَالسَّيِّئَاتُ تَحَافُونَ نُسُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ
وَأَهْجُزُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَأَضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا
عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا ﴿٦١﴾

التفسير

القوامة في النظام العائلي:

قال الله تعالى في مطلع هذه الآية «الرَّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ» ولا بدّ لتوضيح هذه العبارة من الالتفات إلى أنّ العائلة وحدة إجتماعية صغيرة، وهي كالإجتمع الكبير لا بدّ لها من قائد وقائم بأمورها، لأن القيادة والقوامة الجماعية التي يشترك فيها الرجل والمرأة معاً، لا معنى لها ولا مفهوم، فلا بدّ أن يستقل الرجل أو المرأة بالقوامة، ويكون «رئيساً» للعائلة، بينما يكون الآخر بمثابة «المعاون» له الذي يعمل تحت إشراف الرئيس.

إنّ القرآن يصرّح - هنا - بأنّ مقام القوامة والقيادة للعائلة لا بدّ أن يعطي للرجل (ويجب أن لا يساء فهم هذا الكلام، فليس المقصود من هذا التعبير هو

الإستبداد والإجحاف والعدوان، بل المقصود هو أن تكون القيادة واحدة ومنظمة تتحمل مسؤولياتها مع أخذ مبدأ الشورى والتشاور بنظر الإعتبار).

إنّ هذه المسألة تبدو واضحة في هذا العصر أكثر من أي وقت مضى، وهي أن أية هيئة حتى المؤلفّة من شخصين مكلفة بالقيام بأمر لا بدّ أن يتولّى أحدهما زعامة تلك الهيئة فيكون رئيسها، بينما يقوم الآخر بمساعدته فيكون بمثابة (المعاون أو العضو)، وإلاّ سادت الفوضى أعمال تلك الهيئة واختلت نشاطاتها وأخفقت في تحقيق أهدافها المنشودة، وهكذا الحال بالنسبة إلى العائلة، فلا بدّ من إسناد إدارة العائلة إلى الرجل.

وإنّما تعطى هذه المكانة للرجل لكونه يتمتع بخصوصيات معينة مثل القدرة على ترجيح جانب العقل على جانب العاطفة والمشاعر، (على العكس من المرأة التي تتمتع بطاقة فياضة وطاغية من الأحاسيس والعواطف) ومثل امتلاك بنية داخلية وقوة بدنية أكبر ليستطيع بالأولى أن يفكر ويخطط جيداً، ويستطيع بالثانية أن يدافع عن العائلة ويذبّ عنها.

هذا مضافاً إلى أنّه يستحقّ - لقاء ما يتحمّله من الإنفاق على الأولاد والزوجة، ولقاء ما تعهده من القيام بكلّ التكاليف اللازمة من مهر ونفقة وإدارة مادية لاثقة للعائلة - أن تتاط إلىه وظيفة القوامة والرئاسة في النظام العائلي.

نعم يمكن أن يكون هناك بعض النسوة ممن يتفوقن على أزواجهنّ في بعض الجهات، إلاّ أن القوانين - كما أسلفنا مراراً - تسن بملاحظة النوع ومراعاة الأغلبية لا بملاحظة الأفراد، فرداً فرداً، ولا شك أنّ الحالة الغالبة في الرجال أنّهم يتفوقون على النساء في القابلية على القيام بهذه المهمة، وإن كانت النسوة يمكنهنّ أن يتعهدن القيام بوظائف أخرى لا يشك في أهميتها.

إنّ جملة «بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم» إشارة

أيضاً إلى هذه الحقيقة، لأنَّ القسم الأول من هذه الفقرة يقول: إن هذه القوامة إنما هو لأجل التفاوت الذي أوجده الله بين أفراد البشر من ناحية الخلق لمصلحة تقتضيها حياة النوع البشري، بينما يقول في القسم الثاني منها: وأيضاً لأجل أن الرجال كلفوا بالقيام بتعهدات مالية تجاه الزوجات والأولاد في مجال الإنفاق والبدل.

ولكن غير خفي أن إناطة مثل هذه الوظيفة والمكانة إلى الرجل لا تدل على أفضلية شخصية الرجل من الناحية البشرية، ولا يبرر تميزه في العالم الآخر (أي يوم القيامة) لأنَّ التميز والأفضلية في عالم الآخرة يدور مدار التقوى فقط، كما أنَّ شخصية المعاونة الإنسانية قد ترجح في بعض الجهات المختلفة على شخصية الرئيس، ولكن الرئيس يتفوق على معاونه في الإرادة التي أنيطت إليه، فيكون أليق من المعاونة في هذا المجال.

ثمَّ إنه سبحانه يضيف قائلاً: ﴿فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ﴾، وهذا يعني أن النساء بالنسبة إلى الوظائف المناطة إليهنَّ في مجال العائلة على صنفين: الطائفة الأولى: وهنَّ «الصالحات» أي غير المنحرفات «القانتات» أي الخاضعات تجاه الوظائف العائلية «الحافظات للغيب» اللاتي يحفظن حقوق الأزواج وشؤونهم لا في حضورهم فحسب، بل يحفظنهم في غيبتهم، يعني أنهنَّ لا يرتكين أية خيانة سواء في مجال المال، أو في المجال الجنسي، أو في مجال حفظ مكانة الزوج وشأنه الاجتماعي، وأسرار العائلة في غيبته، ويقمن بمسؤولياتهنَّ تجاه الحقوق التي فرضها الله عليهنَّ والتي عبَّر عنها في الآية بقوله: ﴿بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ خير قيام.

ومن الطبيعي أن يكون الرجال مكلفين باحترام أمثال هذه النسوة، وحفظ حقوقهنَّ، وعدم إضاعتهنَّ.

النساء المقصرات الناشزات

الطائفة الثانية: هنّ النسوة اللاتي يتخلفن عن القيام بوظائفهنّ وواجباتهنّ، وتبدو عليهنّ علامات النشوز واماراته فإن على الرجال تجاه هذه الطائفة من النساء واجبات لا بدّ من القيام بها مرحلة فمرحلة، وعلى كل حال يجب أن يراعوا جانب العدل ولا يخرجوا عن حدوده وإطاره، وهذه الوظائف هي بالترتيب:

١ - الموعظة

إنّ المرحلة الأولى التي على الرجال أن يسلكوها تجاه النساء اللاتي تبدو عليهنّ علامات التمرد والنشوز والعداوة، تتمثل في وعظهن كما قال سبحانه في الآية الحاضرة: «واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن»^(١). وعلى هذا فإن النساء اللاتي يتجاوزن حدود النظام العائلي وحرمة لا بدّ قبل أي شيء أن يذكرن - من خلال الوعظ والإرشاد - بمسؤولياتهنّ وواجباتهنّ وتنتج العصيان والنشوز.

٢ - الهجر في المضاجع

وتأتي هذه المرحلة إذا لم ينفع الوعظ ولم تنجع النصيحة «واهجروهنّ في المضاجع»، وبهذا الموقف والهجر وعدم المبالاة بالزوجة أظهرها عدم الرضا من الزوجة، لعل هذا الموقف الخفيف يؤثر في أنفسهنّ.

٣ - الضرب:

وأما إذا تجاوزن في عصيانهنّ، والتمرد على واجباتهنّ ومسؤولياتهنّ الحدّ، ومضين في طريق العناد واللجاج دون أن يرتدعن بالأساليب السابقة، فلا النصيحة تفيد، ولا العظة تنفع، ولا الهجر ينجح، ولم يبق من سبيل إلا استخدام العنف، فحينئذ يأتي دور الضرب «فاضربوهنّ» لدفعهنّ إلى القيام بواجباتهنّ الزوجية لانحصار الوسيلة في هذه الحالة في استخدام شيء من العنف، ولهذا

١ - «النشوز» من نشز (على وزن نذر) يعني الأرض المرتفعة، ويكتى به هنا عن الطغيان والترفع.

سمح الإسلام في مثل هذه الصورة بالضغط عليهنّ ودفعهنّ إلى القيام بواجباتهنّ من خلال التنبيه الجسدي.

اشكال:

يمكن أن يعترض معترض في هذا المقام قائلاً: كيف سمح الإسلام للرجال بأن يتوسلوا بأسلوب التنبيه الجسدي المتمثل بالضرب؟

الجواب:

إنّ الجواب على هذا الاعتراض يبدو غير صعب بملاحظة معنى الآية والروايات الواردة لبيان مفادها وما جاء في توضيحها في الكتب الفقهية، وأيضاً بملاحظة ما يعطيه علماء النفس اليوم من توضيحات علمية في هذا المجال، ونلخص بعض هذه الأمور في نقاط:

أولاً: إنّ الآية تسمح بممارسة التنبيه الجسدي في حق من لا يحترم وظائفه وواجباته، الذي لا تنفع معه أية وسيلة أخرى، ومن حسن الصدف أن هذا الأسلوب ليس بأمر جديد خاص بالإسلام في حياة البشر، فجميع القوانين العالمية تتوسل بالأساليب العنيفة في حق من لا تتجرح معه الوسائل والطرق السلمية لدفعه إلى تحمل مسؤولياته والقيام بواجباته، فإن هذه القوانين ربّما لا تقتصر على وسيلة الضرب، بل تتجاوز ذلك - في بعض الموارد الخاصّة - إلى ممارسة عقوبات أشدّ تبلغ حدّ الإعدام والقتل.

ثانياً: إنّ التنبيه الجسدي المسموح به هنا يجب أن يكون خفيفاً، وأن يكون الضرب ضرباً غير مبرح، أي لا يبلغ الكسر والجرح، بل ولا الضرب البالغ حدّ السواد كما هو مقرر في الكتب الفقهية.

ثالثاً: إنّ علماء التحليل النفسي - اليوم - يرون أن بعض النساء يعانين من حالة نفسية هي «المازوخية» التي تقتضي أن تترتاح المرأة لضربها وأن هذه الحالة قد تشتد في المرأة إلى درجة تحس باللذّة والسكون والرضا إذا ضربت

ضرباً طفيفاً.

وعلى هذا يمكن أن تكون هذه الوسيلة ناظرة إلى مثل هؤلاء الأفراد الذين يكون التنبيه الجسدي الخفيف بمثابة علاج نفسي لهم.

ومن المسلم أن أحد هذه الأساليب لو أثر في المرأة الناشزة ودفعها إلى الطاعة، وعادت المرأة إلى القيام بوظائفها الزوجية لم يحق للرجل أن يتعلل على المرأة، ويعمد إلى إيذائها، ومضايقتها حتى تعود إلى جادة الصواب واستقامت في سلوكها ولهذا عقب سبحانه على ذكر المراحل السابقة بقوله: ﴿فإن أظعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً﴾.

ولو قيل: إن مثل هذا الطغيان والعصيان والتمرد على الواجبات الزوجية والعائلية قد يقع من قبل الرجال أيضاً، فهل تشمل هذه المراحل الرجال أيضاً؟ أي يمكن ممارسة هذه الأمور ضد الرجل كذلك، أم لا؟

نقول في الإجابة على ذلك: نعم إن الرجال العصاة يعاقبون حتى بالعقوبة الجسدية أيضاً - كما تعاقب النساء العاصيات الناشزات - غاية ما هنالك أن هذه العقوبات حيث لا تيسر للنساء، فإن الحاكم الشرعي مكلف بأن يذكر الرجال المتخلفين بواجباتهم ووظائفهم بالطرق المختلفة وحتى بالتعزير (الذي هو نوع من العقوبة الجسدية).

وقصة الرجل الذي أجحف في حق زوجته ورفض الخضوع للحق، فعمد الإمام علي عليه السلام إلى تهديده بالسيف وحمله على الخضوع، معروفة.

ثم أن الله سبحانه ذكر الرجال مرة أخرى في ختام الآية بأن لا يسيئوا استخدام مكانتهم كقيمين على العائلة فيجحفوا في حق أزواجهم، وأن يفكروا في قدرة الله التي هي فوق كل قدرة ﴿إن الله كان علياً كبيراً﴾.

الآية

وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا
إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا
خَبِيرًا ﴿٣٥﴾

التفسير

محكمة الصلح العائلية:

في هذه الآية إشارة إلى مسألة ظهور الخلاف والنزاع بين الزوجين، فهي تقول: «وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها» ليتفاوضا ويقربا من أوجه النظر لدى الزوجين، ثم يقول تعالى: «إن يريدوا إصلاً يوفق الله بينهما» أي ينبغي أن يدخل الحكمان المندوبان عن الزوجين في التفاوض بنيتة صالحة ورغبة صادقة في الإصلاح، فإنهما إن كانا كذلك أعانهما الله ووفق بين الزوجين بسببهما..

ومن أجل تحذير (الحكمين) وحثهما على استخدام حسن التية، يقول سبحانه في ختام هذه الآية: «إن الله كان عليماً خبيراً».

إن محكمة الصلح العائلية التي أشارت إليها الآية الحاضرة، هي إحدى مبتكرات الإسلام العظيمة، فإن هذه المحكمة تمتاز بميزات تفتقر إليها المحاكم

الأخرى، من جملتها.

١- إن البيئة العائلية بيئة عاطفية، ولذلك فإن المقياس الذي يجب أن يتبع في هذه البيئة، يختلف عن المقاييس المتبعة في البيئات الأخرى، يعني كما أنه لا يمكن العمل في «المحاكم الجنائية» بمقياس المحبة والعاطفة، فإنه لا يمكن -في البيئة العائلية- العمل بمقياس القوانين الجافة. الضوابط الصارمة الخالية عن روح العاطفة، فهنا يجب حل الخلافات العائلية بالطرق العاطفية حدّ الإمكان، ولهذا يأمر القرآن الكريم أن يكون الحكمان في هذه المحكمة ممن تربطهم بالزوجين رابطة النسب والقربة ليمكّنها تحريك المشاعر والعواطف باتجاه الإصلاح بين الزوجين، ومن الطبيعي أن تكون هذه الميزة هي ميزة هذا النوع من المحاكم خاصة دون بقية المحاكم الأخرى.

٢- إنّ المدعي والمدعى عليه في المحاكم العادية القضائية مضطرين -تحت طائلة الدفاع عن النفس- أن يكشفوا عن كل ما لديهما من الأسرار، ومن المسلم أنّ الزوجين لو كشفوا عن الأسرار الزوجية أمام الأجنبي والغريب لجرح كل منهما مشاعر الطرف الآخر، بحيث لو اضطّر الزوجان أن يعودا -بحكم المحكمة- إلى البيت لما عادا إلى ما كانا عليه من الصفاء والمحبة السالفة، بل لبقيا يعيشان بقية حياتهما كشخصين غريبين مجبرين على القيام بوظائف معينة، ولقد دلّت التجربة وأثبتت أنّ الزوجين اللذين يضطران إلى التحاكم إلى مثل هذه المحاكم لحل ما بينهما من الخلاف لم يعودا ذيتك الزوجين السابقين.

بينما لا تطرح أمثال هذه الأمور في محاكم الصلح العائلية للإستحياء من الحضور، أو إذا اتفق أن طرحت هذه الأمور فإنّها تطرح في جو عائلي، وأمام الأقرباء فإنّها لن تنطوي على ذلك الأثر السيء الذي أشرنا إليه.

٣- إنّ الحكّمين في المحاكم العادية المتعارفة لا يشعران عادة بالمسؤولية الكاملة في قضايا الخلاف والمنازعات، ولا تهمهما كيفية انتهاء القضية المرفوعة

إلى المحكمة، هل يعود الزوجان إلى البيت على وفاق، أو ينفصلا مع طلاق؟ في حين أن الأمر في محكمة الصلح العائلية على العكس من ذلك تماماً، فإن الحكيم في هذه المحكمة حيث يرتبطان بالزوجين برابطة القرابة، فإن لافتراق أو صلح الزوجين أثراً كبيراً في حياة الحكيم من الناحية العاطفية، ومن ناحية المسؤوليات الناشئة عن ذلك، ولهذا فإنهما يسعيان - جهد إمكانهما - أن يتحقق الصلح والسلام والوفاق والوثام بين الزوجين اللذين يمثلانها، وأن يعيدا المياه إلى مجاريها كما يقول المثل.

٤ - مضافاً إلى كل ذلك فإن مثل هذا المحكمة لا تعاني من أية مشكلات، ولا تحتاج إلى أية ميزانيات باهظة، ولا تعاني من تلك الخسارة والضياع الذي تعاني منه المحاكم العادية، فهي تستطيع أن تقوم بأهدافها وتحقق أغراضها من دون أية تشريفات وفي أقل مدة من الزمن.

ولا يخفى أنه يجب أن يختار الحكمان من بين الأشخاص المحنكين المطلعين المعروفين، في عائلتي الزوجين بالفهم وحسن التدبير. مع هذه المميزات التي عددناها يتبين أن هذه المحكمة تحظى بفرصة للإصلاح بين الزوجين.

إن مسألة الحكيم وما يشترط فيهما من الشروط، ومدى صلاحيتهما وما يحكمان به في مجال الزوجين، قد ذكر في الكتب الفقهية بالتفصيل، منها أن يكون الحكمان بالغين عاقلين عادلين بصيرين بعملهما.

وأما مدى نفوذ حكمهما في حق الزوجين، فقد ذهب بعض الفقهاء إلى نفوذ كل ما يصدر أنه من حكم في هذا المجال، وظاهر التعبير به «حكم» في الآية الحاضرة يفيد هذا المعنى أيضاً، لأن مفهوم الحكمية والقضاء هو نفوذ الحكم مهما كان. ولكن أكثر الفقهاء يرون نفوذ ما يراه الحكمان في مورد التوفيق بين

الزوجين ورفع الإختلاف والنزاع بينهما، بل يرون نفوذ ما يشترطه الحكمان على الزوجين، وأما حكمهما في مجال الطلاق والإفتراق بين الزوجين فغير نافذ لوحده، وذيل الآية الذي يشير إلى مسألة الإصلاح أكثر ملاءمة مع هذا الرأي، وللتوسع في هذا المجال يجب مراجعة الكتب الفقهية.

* * *



الآية

وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي
الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ
الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ
إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٦١﴾

التفسير

الآية الحاضرة تبين سلسلة من الحقوق الإسلامية بما فيها الحقوق الإلهية، وحقوق العباد، وآداب العشرة مع الناس، ويستفاد منها عشرة تعاليم:

١- واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً

إن الآية تدعو الناس قبل أي شيء إلى عبادة الله والخضوع له وحده، وترك الشرك والوثنية التي هي أساس كل البرامج والمناهج الإسلامية. إن الدعوة إلى التوحيد وعبادة الله وحده تظهر الروح، وتخلص النية، وتقوي الإرادة، وتشدد من عزيمة الإنسان على الإتيان بأي برنامج مفيد. وحيث أن الآية الحاضرة تبين سلسلة من الحقوق الإسلامية لذلك فقد

أشارت إلى حقّ الله على الناس قبل أي شيء وقبل أي حقّ وقالت: «واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً».

٢- وبالوالدين إحساناً

ثمّ إنّها تشير إلى حقّ الوالدين وتوصي بالإحسان إليهما ولا شك أنّ حقّ الوالدين من القضايا التي يهتمّ بها القرآن الكريم كثيراً، وقلّما حظي موضوع بمثل هذا الإهتمام والعناية، فقد جاءت التوصية بالوالدين بعد الدعوة إلى التوحيد في العبادة في أربعة مواضع في القرآن الكريم^(١).

من هذه التعابير المتكررة يستفاد أنّ ثمة ارتباطاً بين هاتين المسألتين، والقضية في الحقيقة كالتالي: حيث إن أكبر نعمة هي نعمة الوجود والحياة وهي مأخوذة من جانب الله سبحانه في الدرجة الأولى، فيما ترتبط بالوالدين في الدرجة الثانية، لأنّ الولد جزء من وجود الوالدين، لذلك كان ترك حقوق الوالدين وتجاهلها، في مضاف الشرك بالله سبحانه.

هذا ولنا أبحاث مفصلة حول حقوق الوالدين في ذيل الآيات المناسبة في سورة الإسراء ولقمان بإذن الله تعالى.

٣- وبذي القربى

ثمّ إنّها توصي بالإحسان إلى كلّ الأقرباء، وهذا الموضوع من المسائل التي يهتم بها القرآن الكريم إهتماماً بالغاً تارة تحت عنوان «صلة الرحم» وأخرى بعنوان «الإحسان إلى القربى» وقد أراد الإسلام بهذا - في الحقيقة - أن يقوي من أواصر العلاقة الواسعة بين جميع أفراد البشر مضافاً إلى إيجاد أواصر وعلاقات أقوى وأمتن منها في الوحدات الإجتماعية التي هي أكثر انسجاماً مثل

١- سورة البقرة: الآية ٨٣ سورة الأنعام: الآية ١٥١، سورة الإسراء: الآية ٢٣ مضافاً إلى الآية العاشرة.

«العشيرة» و«العائلة» ليستطيعوا التعاون في ما بينهم عند ظهور المشاكل والحوادث، والتعاون على الدفاع عن حقوقهم.

٤- واليتامى

ثم أشارت إلى حقوق «اليتامى» وأوصت المؤمنين ببرهم والإحسان إليهم، لأنه يوجد في كل مجتمع أطفال أيتام على أثر الحوادث المختلفة، لا يهدد تناسيهم وإهمالهم وضعهم الخاص فقط، بل الوضع الاجتماعي بصورة عامة، لأن الأطفال اليتامى لو تركوا دون ولاية أو حماية ولم ينالوا حاجتهم من المحبة واللفظ يتحولون إلى أفراد منفلتين فاسدين، بل أشخاص خطرين جناة. وعلى هذا يكون الإحسان إلى اليتامى إحساناً إلى الفرد وإلى المجتمع معاً.

٥- والمساكين

ثم يذكر سبحانه - في هذه الآية - بحقوق الفقراء والمساكين، لأنه قد يوجد حتى في المجتمع السليم الذي يسوده العدل من يعاني من نواقص وعاهات تعوقه عن الحركة والنشاط والفعالية، ولا شك أن تناسي هؤلاء أمر يخالف كل الأسس والقيم الإنسانية، فلا بد من تقديم العون إليهم، ومعالجة حرمانهم. وأما إذا كان الفقر والحرمان الذي يعاني منه الأفراد الأصحاء ناشئين عن الانحراف عن مبادئ وأسس العدالة الاجتماعية فإنه لا بد من مكافئتهما أيضاً.

٦- والجار ذي القربى

ثم يوصي بالجيران من ذوي القربى، وهناك احتمالات متعددة حول المراد من «الجار ذي القربى» أبقاها المفسرون، فبعضهم قال: معناه الجار القريب في النسب، غير أن هذا التفسير يبدو بعيداً بملاحظة العبارات السابقة التي أشارت

إلى حقوق الأقرباء في هذه الآية، فلا بد أن يكون المراد هو القرب المكاني لا القرب النسبي، لأن الجيران الأقربين مكاناً يستحقون احتراماً وحقوقاً أكثر من غيرهم، أو أن يكون المراد الجيران الأقربين إلى الإنسان من الناحية الدينية والاعتقادية.

٧- والجار الجنب

ثم إنها توصي بالجيران البعيدين، والمراد - كما أسلفنا - هو البعد المكاني، لأن كل أربعين داراً من بين يديه وخلفه وعن يمينه وشماله تعتبر من الجيران، كما تصرح بعض الروايات^(١)، وهذا يستوعب في المدن الصغيرة كل المدينة تقريباً (لأننا لو فرضنا دار كل شخص مركز دائرة يقع في امتداد شعاعها من كل صوب أربعون بيتاً لا تضحت من خلال محاسبة بسيطة مساحة هذه الدائرة التي يكون مجموع البيوت الواقعة فيها ما يقرب من خمسة آلاف بيت، ومن المسلم أن المدن الصغيرة قلماً تتشكل من أكثر من هذا العدد من المنازل والبيوت).

والجدير بالتأمل أن القرآن يصرح - في هذه الآية - مضافاً إلى ذكر الجيران القريبين - بحق الجيران البعيدين، لأن لفظه الجار لها في العادة مفهوم محدود وضيق وتشمل الجيران القريبين فقط، ولهذا لم يكن بداً في نظر الإسلام أن يذكر بالجيران البعيدين أيضاً.

كما يمكن أن يكون المراد من الجيران البعيدين الجيران غير المسلمين، لأن حق الجوار غير منحصر في نظر الإسلام بالجيران المسلمين، فهو يعم المسلمين وغير المسلمين (اللهم إلا الذين يحاربون المسلمين ويعادونهم).

إن لحق الجوار في الإسلام أهمية بالغة إلى درجة أننا نقرأ في وصايا الإمام أمير المؤمنين عليه السلام المعروفة: «ما زال (رسول الله) يوصي بهم حتى ظننا أنه

سيورثهم»^(١) (وقد ورد هذا الحديث في مصادر أهل السنة أيضاً فقد روي في تفسير المنار وتفسير القرطبي من البخاري مثل هذا المضمون عن رسول الله ﷺ أيضاً).

وروي في حديث آخر عن رسول الله ﷺ أنه قال ذات يوم «والله لا يؤمن والله لا يؤمن والله لا يؤمن، فقل: يا رسول الله ومن؟ قال: الذي لا يأمن جاره بوائقه»^(٢).

كما نقرأ في حديث آخر أيضاً أن النبي ﷺ قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره»^(٣).

وروي عن الإمام الصادق جعفر بن محمد عليه السلام أنه قال: «حسن الجوار يعمر الديار ويزيد في الأعمار»^(٤).

في عالمنا المادي حيث لا يعرف الجار عن جاره شيئاً، بل وربما لا يتعرف على اسم صاحبه بعد عشرين سنة من الجيرة والجوار يتألق هذا التعليم الإسلامي في حق الجار بشكل خاص، فإن الإسلام يقيم للعلاقات العاطفية والتعاون الإنساني وزناً خاصاً، ويوليها اهتماماً كبيراً، في حين تؤول هذه العلاقات والعواطف في الحياة الصناعية المادية إلى الزوال يوماً بعد يوم، وتعطي مكانها إلى القسوة والجفاء والخشونة.

٨- والصاحب بالجنب

ثم أوصت بالرّفيق والصّاحب، غير أنه لا بدّ من الإلتباه إلى أنّ له «الصاحب بالجنب» معنى أوسع من الرفيق والصديق المتعارف، وفي الحقيقة تشمل كل من رافق أو صاحب الإنسان مرافقة ما سواء كان صديقاً دائماً أو صديقاً مؤقتاً

١- تفسير القرطبي، ج ٣، ص ١٧٥٤.

٢- تفسير المنار، ج ٥، ص ١٩٢، طبعة بيروت.

٣- تفسير الصافي، ص ١٣٠.

٤- تفسير الصافي، ص ١٢٠.

(كالذي يرافق الإنسان في السفر بعض الوقت) وتفسير لفظة «الصاحب بالجنب» في بعض الروايات بالرفيق مثل «رفيقك في السفر» أو الذي يقصد الإنسان رجاء نفعه مثل: (المنقطع إليك يرجو نفعك) ليس المراد هو اختصاص هذا العنوان بهم، بل هو نوع من التوسعة في مفهوم هذه اللفظة بحيث تشمل هذه الموارد أيضاً، وبهذا الطريق تكون هذه الآية أمراً كلياً وجامعاً بحسن معايشة كل من يرتبط بالمرء، سواء كان صديقاً واقعياً، أو زميلاً، أو رفيق سفر، أو مراجعاً، أو تلميذاً، أو مشاوراً، أو خادماً.

وقد فسرت لفظة الصاحب بالجنب في بعض الروايات بالزوجة، وقد روى صاحب تفسير المنار، وتفسير روح المعاني والقرطبي في ذيل هذه الآية هذا المعنى عن علي عليه السلام، ولكن لا يبعد أن يكون هذا من باب بيان أحد المصاديق أيضاً.

٩- وابن السبيل

وأما الصنف الآخر الذي أوصت بهم الآية هنا فهم الذين تحدث لهم حاجة السفر وبلاد الغربة، فابن السبيل هو الذي ينقطع في السفر وإن كان يمكن أن يكون متمكناً ذا مال في بلده، والتعبير عن هذا الشخص بابن السبيل (أي ابن الطريق) إنما هو لأجل أننا لا نعرفهم أصلاً حتى ننسبهم إلى عائلة أو قبيلة أو شخص، بل لا بد أن نحميمهم بمجرد أنهم مسافرون انقطعوا في السفر، وبرزت لديهم حاجة إلى المساعدة والعون.

١٠- وما ملكت أيمانكم

وفي نهاية المطاف توصي هذه الآية بالإحسان إلى العبيد والأرقاء، وبهذا تكون الآية - في الحقيقة - قد بدأت بحق الله، وختمت بحقوق العبيد، لعدم انفصال هذه الحقوق بعضها عن بعض.

على أن هذه الآية ليست هي الآية الوحيدة التي توصي بالعبيد، بل لقد بحثت هذه المسألة في آيات مختلفة أخرى أيضاً.

هذا مضافاً إلى أن الإسلام قد نظم برنامجاً دقيقاً لتحرير العبيد تدريجاً، والذي يؤول في النتيجة إلى تحريرهم المطلق، وسوف نتحدث حول هذه المسألة في ذيل الآيات المناسبة إن شاء الله تعالى.

ثم إنه سبحانه يقول في ختام هذه الآية «إِنَّ اللَّهَ لَا يَحِبُّ مَنْ كَانَ مَخْتَالاً فخوراً» وهو بذلك يحذر كل من يتمرد ويعصي أوامر الله، ويتقاعس عن القيام بحقوق أقربائه ووالديه واليتامى والمساكين وابن السبيل والأصدقاء والأصحاب بدافع التكبر بأنه سيكون معرضاً لسخط الله، وسيحرم من عنايته سبحانه، ولا ريب أن من حرم من اللطف الإلهي والعناية الربانية حرم من كل خير وسعادة.

وتؤيد هذا المعنى روايات وأخبار قد رويت في ذيل هذه الآية منها ما عن أصحاب النبي ﷺ حيث قال: كنت عند رسول الله ﷺ فقرأ هذه الآية «إِنَّ اللَّهَ لَا يَحِبُّ كُلَّ مَخْتَالٍ فخور» فذكر الكبير فعظمه، فبكى ذلك الصحابي فقال له رسول الله ﷺ: ما يبكيك؟ فقال يا رسول الله: إني لأحب الجمال حتى أنه ليعجبني أن يحسن شراكم نعلي قال: «فأنت من أهل الجنة، أنه ليس بالكبير أن تحسن راحلتك ورحلك، ولكن الكبير من سفه الحق وغمص الناس»^(١).

والخلاصة أن ما يستفاد من العبارة الأخيرة أن مصدر الشرك وهضم حقوق الآخرين هو الانانية والتكبر غالباً، ولا يتسنى للشخص أداء تلك الحقوق، وخاصة حقوق الايتام والمساكين والارقاء إلا من تحلّى بروح التواضع ونكران الذات^(٢).



١- غمص الناس: احتقرهم واستصغروهم ولم يرههم شيئاً. انظر لسان العرب (غمص).

٢- «مختال» من مادة «خيال» حيث يرى الشخص نفسه بسبب بعض المتخيلات عظيماً وكبيراً، وسمي الخيل خيلاً لأن مشيته تشبه مشية المتكبر. «فخور» من مادة «فخر» والفرق بينها وبين الأولى أن المختال إشارة إلى تخيلات الكبير في مجالها الذهني والأخرى يراد بها الاعمال الصادرة عن كبر في المجال الخارجي.

الآيات

الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا
 آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً ﴿٣٧﴾
 وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا
 بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِيناً فَسَاءَ قَرِيناً ﴿٣٨﴾
 وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ
 اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيماً ﴿٣٩﴾

التفسير

الإنفاق رياءً والإنفاق قربة:

الآية الأولى من هذه الآيات الثلاث - هي في الحقيقة - تعقيب على الآيات السابقة وإشارة إلى المتكبرين إذ تقول: «الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل» هذا مضافاً إلى أنهم يسعون دائماً أن يخفوا عن الآخرين ما تفضل الله عليهم به من الخير كيلا يتوقع المجتمع منهم شيئاً «ويكتمون ما آتاهم الله من فضله».

ثم يقول عن نهاية هذا الفرق من الناس وعاقبة أمرهم: «واعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً» ولعل السر في استخدام هذا التعبير في حق هذه الطائفة هو أن

«البخل» ينبع في الغالب من الكفر، لأنَّ البخل لا يمتلكون الإيمان الكامل بالموهب الربانية المطلقة والوعود الإلهية العظيمة للمحسنين. إنَّهم يتصورون أنَّ مساعدة الآخرين وتقديم العون إليهم يجزئ إليهم التعاسة والشقاء.

وأما الحديث عن الخزي في عذاب هؤلاء، فلأنَّ الجزاء المناسب للتكبر والإستكبار هو العذب المهين.

ثمَّ إنَّه لا بدَّ من الإلتفات إلى أنَّ البخل لا يختص بالأموال المالية، بل يشمل كل نوع من أنواع الموهبة الإلهية، فتتمة كثيرون لا يعانون من صفة البخل الذميمة في المجال المالي، ولكنَّهم يبخلون عن بذل العلم أو الجاه أو الأمور الأخرى من هذا القبيل.

ثمَّ إنَّ الله سبحانه يذكر صفة أخرى من صفات المتكبرين إذ يقول: «والذين ينفقون أموالهم رياء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر» إنَّهم ينفقون أموالهم لا في سبيل الله وكسب رضاه، بل مراعاة الناس لكسب السمعة وجلب الشهرة والجاه، وبالتالي ليس هدفهم من الإنفاق هو خدمة الناس وكسب رضا الله سبحانه، ولهذا فإنَّهم لا يتقيدون في من ينفقون عليه بملاك الإستحقاق، بل يفكرون دائماً في أنَّه كيف يمكنهم أن يستفيدوا من إنفاقاتهم ويحققوا ما يطمحون إليه من أغراض شخصية، وأهداف خاصَّة، كتقوية نفوذهم وتكريس موقعهم في المجتمع مثلاً، لأنَّهم لا يؤمنون بالله واليوم الآخر، ولهذا السبب يفتقر إنفاقهم إلى الدافع المعنوي الذي ينبغي توفره في الإنفاق، بل دافعهم هو الوصول إلى الشهرة والشخصية الكاذبة المزيفة من هذا السبيل، وهذا هو أيضاً من آثار التكبر ونتائج الأنانية.

إنَّ هؤلاء اختاروا الشيطان رفيقاً وقريناً لهم: «من يكن الشيطان له قريناً فساء قريناً» إنَّه لن يكون له مصير أفضل من مصير الشيطان، لأنَّ منطقهم هو منطق الشيطان، وسلوكهم سلوكه سواء بسواء، إنَّه هو الذي يقول لهم: إنَّ الإنفاق

بإخلاص يوجب الفقر «الشيطان يعدكم الفقر»^(١) ولهذا فإمّا أن يبخلوا ويمتنعوا عن الإنفاق والبذل (كما أشير إلى هذا في الآية السابقة) أو أنّهم ينفقون إذا ضمن هذا الإنفاق مصالحهم الشخصية وعاد عليهم بفوائد شخصية (كما أشير إلى ذلك في الآية الحاضرة).

من هذه الآية يستفاد مدى ما للقرين السيء من الأثر في مصير الإنسان، ذلك الأثر الذي ربّما يبلغ في آخر المطاف إلى السقوط الكامل.

كما يستفاد أنّ علاقة «المتكبرين» ب«الشيطان والأعمال الشيطانية» علاقة مستمرة ودائمة لا مؤقتة ولا مرحلية، ذلك لأنّهم اختاروا الشيطان قريناً ورفيقاً لأنفسهم.

وهنا يقول سبحانه وكأنّه يتأسف على أحوال هذه الطائفة من الناس «وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا ممّا رزقهم الله...» أي شيء عليهم لو تركوا هذا السلوك وعادوا إلى جادة الصواب وأنفقوا ممّا رزقهم الله من الخير والنعمة في سبيل الله، بإخلاص لا رياء، وكسبوا بذلك رضا الله، وتعرضوا لطفه وعنايته، وأحرزوا سعادة الدنيا والآخرة؟

فلماذا لا يفكر هؤلاء ولا يعيدون النظر في سلوكهم؟ ولماذا ترى يتركون طريق الله الأنفع والأفضل ويختارون طريقاً أخرى لا تنتج سوى الشقاء، ولا تنتهي بهم إلّا إلى الضرر والخسران؟

وعلى كل حال فإنّ الله يعلم بأعمالهم ونواياهم ويجزيهم بما عملوا: «وكان الله بهم عليماً».

والجدير بالانتباه أنّ الإنفاق في الآية السابقة التي كان الحديث فيها حول الإنفاق مرآة تُنسب إلى الأموال «ينفقون أموالهم»، وفي هذه الآية تُنسب إلى «مما رزقهم الله»، وهذا التفاوت والإختلاف في التعبير يمكن أن يكون إشارة إلى

ثلاث نقاط:

أولاً: إنه في الإنفاق رياء لا تلحظ حلية المال وحرمة، في حين تلحظ في الإنفاق لله حلية المال وأن يكون مصداق «مما رزقهم الله».

ثانياً: إنه في الإنفاق رياء حيث أنهم يحسبون أن المال الذي ينفقونه خاص بهم، لذلك فهم لا يمتنعون عن الكبر والمن، في حين أن المنفقين لله حيث يعتقدون بأن الله هو الذي رزقهم ما يملكون من المال، وأنه لا مجال للمن إذا هم أنفقوا شيئاً من ذلك، ولذلك يمتنعون من الكبر والمن.

ثالثاً: إن الإنفاق رياء ينحصر غالباً في المال، لأن أمثال هؤلاء محرمون من أي رأس مال معنوي لينفقوا منه، ولكن الإنفاق لوجه الله تتسع دائرته فتشمل كل المواهب الإلهية من المال، والعلم والجاه، والمكانة الاجتماعية وما شابه ذلك من الأمور المادية والمعنوية.

* * *

الآية

إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُّضَعِفْهَا وَيُؤْتِ
مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١﴾

التفسير

ما هي «الذرة»؟:

«الذرة» في الأصل هي النملة الصغيرة التي لا ترى، وقال البعض: هي من أجزاء الهباء والغبار في الكوة التي تظهر عند دخول شعاع الشمس خلالها، وقيل أيضاً أنه الغبار الدقيق المتطاير من يدي الإنسان إذا جعلهما على التراب وما شابهه ثم نفخهما.

ولكنها أطلقت تدريجاً على كل شيء صغير جداً، وتطلق الآن ويراد منها ما يتكون من الإلكترون والبروتون أيضاً. لأنها إذا كانت تطلق سابقاً على أجزاء الغبار، فلأن تلك الأجزاء كانت أصغر أجزاء الجسم، ولكن حيث ثبت اليوم أن أصغر أجزاء «الجسم المركب» هو «المولوكول» أو الجزيئة، وأصغر أجزاء «الجسم البسيط» هو «الذرات»، اختيرت لفظة «الذرة» في الإصطلاح العلمي على تلك الجزيئات التي لا ترى بالعين المجردة، بل لا يمكن أن ترى حتى بأقوى الميكروسكوبات الإلكترونية، وإنما يحس بوجودها من خلال القوانين والمعادلات العلمية والتصوير بالآلات مزودة بأدق الأجهزة وأقواها، وحيث أن

«مثقال» يعني الثقل، فإنّ التعبير بمثقال ذرة يعني جسماً في غاية الدقة والصغر. إن الآيّة الحاضرة تقول: إنّ الله لا يظلم قط زنة ذرة، بل يضاعف الحسنه إذا قام بها أحد، ويعطي من لدهنه على ذلك أجراً عظيماً: «إنّ الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدهنها أجراً عظيماً».

إنّ هذه الآيّة - في الحقيقة - تقول للسافرين الذين يبخلون والذين مرّ الحديث عن أحوالهم في الآيات السابقة: إنّ العقوبات التي تصيبكم ما هي في الحقيقة إلّا جزاء ما قمتم به من الأعمال، وأنّه لا يصيبكم أي ظلم من جانب الله، بل لو أنكم تركتم الكفر والبخل وسلكتم طريق الله لتسلمن المشوبات العظيمة المضاعفة.

ثمّ أنّه لا بدّ من الإلتباه إلى أن لفظة «ضعف» و«المضاعف» تعني في اللغة العربية ما يعادل الشيء أو يربو عليه مرّات عديدة، وعلى هذا الأساس لا تنافي هذه الآيّة الآيات الأخرى التي تقول: إنّ أجر الإنفاق قد يصل إلى عشرة أضعاف، وقد يصل إلى سبعائة مرّة

وعلى أي حال فإنّها تحكي عن لطف الله بالنسبة إلى عباده، حيث لا يعاقبهم على سيئاتهم وذنوبهم بأكثر ممّا عملوا، بينما يضاعف الأجر بمرات كثيرة إذا أتوا بحسنة واحدة.

يبقى أن نعرف لماذا لا يظلم الله سبحانه؟ فإنّ السبب فيه واضح، لأنّ الظلم عادة - إمّا ناشئ عن الجهل، وإمّا ناشئ عن الحاجة، وإمّا ناشئ عن نقص نفسي.

ومن كان عالماً بكل شيء، وكان غنياً عن كل شيء، ولم يكن يعاني من أي نقص، لا يمكن صدور الظلم منه، فهو لا يظلم أساساً، لأنّه تعالى لا يقدر على الظلم، ولا أن الظلم غير متصوّر في حقّه (كما تذهب إليه طائفة من الأشاعرة)، بل مع قدرته تعالى على الظلم - لا يظلم أبداً لحكمته وعلمه، فهو يضع كل شيء في عالم الوجود موضعه، ويعامل كل أحد حسب عمله، وطبقاً لسلوكه وسيرته.

الآيتان

فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ
شَهِيداً ﴿١١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ
لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثاً ﴿١٢﴾

التفسير

شهود يوم القيامة:

تعقيباً على الآيات السابقة التي كانت تدور حول العقوبات والمشوبات
المعدّة للعصاة والمطيعين. جاءت هذه الآية تشير إلى مسألة الشهود في يوم
القيامة فتقول: «فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً»
وهكذا يكون نبي كل أمة شهيداً عليها، مضافاً إلى شهادة أعضاء الإنسان
وجوارحه، وشهادة الأرض التي عليها عاش، وشهادة ملائكة الله على أعماله
وتصرفاته، ويكون نبي الإسلام ﷺ وهو آخر أنبياء الله ورسله وأعظمهم،
شاهداً على أمته أيضاً، فكيف يستطيع العصاة مع هذه الشهود إنكار حقيقة من
الحقائق، وتخليص أنفسهم من نتائج أعمالهم.

ثم إن نظير هذا المضمون قد جاء أيضاً في عدة آيات قرآنية أخرى، منها
الآية (١٤٣) من سورة البقرة، والآية (٨٩) من سورة النحل، والآية (٧٨) من
سورة الحج.

والآن يطرح هذا السؤال، وهو: كيف تتم شهادة الأنبياء على أعمال أممهم، وكيف تكون؟

إذا كانت كلمة «هؤلاء» إشارة إلى المسلمين كما جاء في تفسير مجمع البيان، فإن الجواب على هذا السؤال يكون واضحاً، لأن كل نبي ما دام موجوداً بين ظهراني أمته فهو شاهد على أعمالهم، وبعده يكون أوصياؤه وخلفاؤه المعصومون هم الشهداء على أعمال تلك الأمة، ولهذا جاء في حق المسيح عليه السلام أنه يقول في يوم القيامة في جواب سؤال الله سبحانه وإياه: «ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم، وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد»^(١).

ولكن بعض المفسرين احتمل أن تكون لفظة «هؤلاء» إشارة إلى شهود الأمم السابقة، يعني أننا نجعلك أيها النبي شهيداً على شهداء الأمم من الأنبياء، وقد أشير في بعض الروايات إلى هذا التفسير^(٢) وعلى هذا يكون معنى الآية هكذا: إن كل نبي شاهد على أعمال أمته جميعها في حياته وبعد مماته عن طريق المشاهدة الباطنية والروحانية، وهكذا الحال بالنسبة إلى رسول الإسلام، فإن روحه الطاهرة ناظرة - عن هذا الطريق أيضاً - على أعمال أمته وجميع الأمم السابقة، وبهذا الطريق يمكنه أن تشهد على أفعالهم وأعمالهم، بل وحتى الصالحاء من الأمة والأبرار الأتقياء منها يمكنهم الإطلاع والحصول على مثل هذه المعرفة، فيكون المفهوم من كل ذلك وجود روح النبي الأكرم ﷺ من بدء الخلق، لأن معنى الشهود هو العلم المقترن بالحضور، ولكن هذا التفسير لا ينسجم مع ما نقل عن السيد المسيح، لأن الآية المذكورة تقول: إن المسيح لم يكن شاهداً على أمته جمعاء، بل كان شاهداً عليها مادام في الحياة (فتأمل).

١- المائدة، ١١٧.

٢- راجع تفسير نور الثقلين والبرهان في ذيل الآية.

أما إذا أخذنا الشهادة بمعنى الشهادة العملية، يعنى أن تكون أعمال «فرد نموذجي» مقياساً ومعياراً لأعمال الآخرين كان التفسير حينئذٍ خالياً عن أي إشكال، لأن كل نبي بما له من صفات متميزة وخصال ممتازة يعدّ خير معيار لأمتة، إذ يمكن معرفة الصالحين والطالحين بمشابهتهم أو عدم مشابهتهم له، وحيث إن النبي الأكرم ﷺ هو أعظم الأنبياء والرسل الإلهيين كانت صفاته وأعماله معياراً لشخصية كل الأنبياء والرسل.

نعم لا يبقى هنا إلا سؤال واحد هو: هل جاءت الشهادة بهذا المعنى، أم لا؟ بيد أنه مع الإلتباه إلى أن أعمال الرجال المنوجيين وتصرفاتهم وأفكارهم تشهد عملياً على أنه من الممكن أن يرقى إنسان ما إلى هذه الدرجة، ويطوي هذه المقامات والمراحل المعنوية لم يبد مثل هذا المعنى بعيداً في النظر.

عندئذٍ يندم الكفار الذين عارضوا الرسول وعصوه، أي عندما رأوا بأنهم أعينهم تلك المحكمة الإلهية العادلة، وواجهوا الشهود الذين لا يمكن إنكار شهاداتهم، إنهم يندمون ندماً بالغا لدرجة أنهم يتمنون لو أنهم كانوا تراباً أو سوا بالأرض كما يقول القرآن الكريم في الآية الثانية من الآيتين الحاضرتين إذ يقول سبحانه: ﴿يومئذ يودُّ الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض﴾.

وقد ورد مثل هذا التعبير في آخر سورة النبأ إذ يقول تعالى: ﴿ويقول الكافر يا ليتني كنت تراباً﴾.

ولكن لفظه ﴿لو تسوى﴾ تشير إلى مطلب آخر أيضاً، وهو: إن الكفار مضافاً إلى أنهم يتمنون أن يصيروا تراباً، يحبون أن تضيع معالم قبورهم في الأرض أيضاً وتسوى بالأرض حتى ينسوا بالمرّة، ولا يبقى لهم ذكر ولا خبر ولا أثر.

إنهم في هذه الحالة لا يمكنهم أن ينكروا أية حقيقة واقعة ولا أن يكتموا شيئاً: ﴿ولا يكتُمون الله حديثاً﴾ لأنه لا سبيل إلى الإنكار أو الكتمان مع كل تلكم الشهود.

نعم، لا ينافي هذا الكلام ما جاء في الآيات الأخر التي تقول: هناك من الكفار من يكتنم الحقائق يوم القيامة أيضاً ويكذبون^(١) لأن كذبهم وكتمانهم واقع قبل إقامة الشهود وقيام الشهادة، وأما بعد ذلك فلا مجال لأي كتمان، ولا سبيل إلى أي إنكار، بل لابد من الإقرار بجميع الحقائق.

وقد روي عن أمير المؤمنين عليه السلام في بعض خطبه أنه قال عن يوم القيامة «ختم على الأفواه فلا تكلم وتكلمت الأيدي وشهدت الأرجل ونظقت الجلود بما عملوا فلا يكتمون الله حديثاً»^(٢).

هذا ويحتمل بعض المفسرين أن يكون المراد من «لا يكتمون الله حديثاً» أنهم يتمنون لو أنهم لم يكتموا في الدنيا أية حقيقة، خصوصاً في ما يتعلق برسول الإسلام عليه السلام، وعلى هذا تكون هذه العبارة عطفاً على جملة «لو تسوى بهم الأرض».

ولكن هذا التفسير لا ينسجم مع ظاهر «لا يكتمون» الذي هو فعل مضارع، ولو كان المراد ما ذكره هذا الفريق من المفسرين لوجب أن يقول: «لم يكتموا».



١- مثل الآية (٢٢) و (٢٣) من سورة الأنعام، والآية (١٨) من سورة المجادلة.

٢- تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٤٨٢-٤٨٣، نقلاً عن تفسير العياشي.

الآية

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّىٰ
تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا
وَإِن كُنْتُمْ مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ
لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا
بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿١٣﴾

التفسير

بعض الأحكام الفقهية:

تستفاد من الآية الحاضرة عدة أحكام إسلامية هي:

١ - حرمة الصلاة في حال السكر، أي لا يجوز للسكاري أن يقربوا الصلاة لبطلان صلاتهم في حالة السكر، وفلسفة ذلك واضحة، فإن الصلاة حديث العبد إلى ربه ومناجاته ودعاؤه، ولا بد أن يتم كل هذا في حالة الوعي الكامل، والسكاري أبعد ما يكونون عن هذه الحالة: «يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون».

وهنا يمكن أن يطرح أحد سؤالا هو: أليس مفهوم الآية هو المنع من شرب المسكرات إذا بقي أثرها وسكرها إلى وقت الصلاة، وهو ينطوي على دليل

جوازه في سائر الحالات؟

والإجابة على هذا السؤال تأتي - بإذن الله - مفصلة عند تفسير الآية (٩٠) من سورة المائدة، إلا أن الجواب الإجمالي هو: إن الإسلام استخدم لتطبيق الكثير من أحكامه أسلوب «التغيير التدريجي» فمثلاً مسألة تحريم تعاطي الخمر هذه طبقها الإسلام في مراحل، فهو أولاً أعطاه صفة المشروب الغير المحبذ في قبال «الرزق الحسن» (كما في الآية (٦٧) من سورة النحل «ورزقاً حسناً») ثم منع من الإقتراب إلى الصلاة إذا كان السكر الناشئ منها لا يزال باقياً (كما في الآية الحاضرة) ثم قارن بين منافعه ومضاره ورجحان مضاره ومساوئه، كما في سورة البقرة الآية (٢١٩)، وفي المرحلة الأخيرة نهى عن الخمر بصورة قاطعة وصريحة، كما في سورة المائدة الآية (٩٠).

وأساساً ليس هناك من سبيل لتطهير المجتمع من جذور مفسدة إجتماعية أو خلقية متجذرة في أعماق المجتمع واقتلاعها من الجذور أفضل من هذا الأسلوب، وأجدى من هذا الطريق، وهو أن يهيأ الأفراد تدريجاً، ثم يتم الإعلان عن الحكم النهائي.

كما أنه لا بد من الالتفات إلى نقطة مهمة، هي أن الآية الحاضرة لا تجيز بأي وجه من الوجوه شرب الخمر، بل هي تتحدث فقط عن مسألة الإقتراب إلى الصلاة في حال السكر، بينما التزمت الصمت بالنسبة إلى حكم شرب الخمر في غير هذا المورد حتى يحين موعد المرحلة النهائية للحكم.

هذا مع الالتفات إلى أن أوقات الصلوات الخمس خاصة في ذلك الزمان الذي كانت العادة فيه إقامة الصلوات الخمس في أوقاتها، بحكم أنها كانت متقاربة كان الإتيان بالصلاة في حال الوعي يقتضي أن ينصرف الأشخاص عن تناول المسكرات في الفترات الواقعة بين أوقات الفرائض انصرافاً كلياً، لأن السكر كان يستمر غالباً إلى حين حلول وقت الفريضة وعلى هذا كان الحكم

المذكور في الآية الحاضرة أشبه بالحكم النهائي والتحریم الأبدی المطلق.
كما أنّ هناك موضوعاً لا بدّ من التذكير به، وهو أنّ الآية الحاضرة فسّرت في روايات عديدة في كتب الشيعة والسنة بسكر النوم، يعني لا تقربوا الصلاة ما لم تطردوا النوم عن عيونكم كاملة لتعلموا ما تقولون.

ولكن يبدو للنظر أنّ هذا التفسير مستفاد من مفهوم: «حتى تعلموا ما تقولون» وإن لم يدخل في مصداق «السكر»^(١).

وبعبارة أخرى، يستفاد من جملة: «حتى تعلموا ما تقولون» المنع عن الصلاة في كل حالة لا يتمتع فيها الإنسان بالوعي الكامل، سواء كان بسبب حالة السكر، أو بسبب ما تبقى من النوم.

كما أنّه يستفاد من هذه الجملة أيضاً أنّ الأفضل عدم إقامة الصلاة عند الكسل أو قلة التوجه، لأنّ الحالة السابقة توجد في هذه الصورة بشكل ضعيف، ولعلّه لهذا السبب جاء في ما روي عن الإمام الباقر عليه السلام من أنّه قال: «لا تقم إلى الصلاة متكاسلاً، ولا متناعساً ولا متثاقلاً وقد نهى الله عزّ وجلّ المؤمنين أن يقوموا إلى الصلاة وهم سكارى...»^(٢).

٢- بطلان الصلاة في حال الجنابة الذي أشير إليه بعبارة «ولا جنباً» ثمّ استثنى سبحانه من هذا الحكم بقوله: «إلا عابري سبيل» أي إذا فقدتم الماء في السفر جاز لكم أن تقيموا الصلاة (شريطة أن تتيمموا كما يجيء في ذيل الآية).

غير أنّ هناك تفسيراً آخر جاء لهذه الآية في الروايات والأخبار^(٣)، هو أنّ المقصود من الصلاة في الآية هو محل الصلاة - أي المسجد - أي لا تدخلوا المساجد وأنتم على جنبابة، ثمّ استثنى العبور في المسجد بقوله: «إلا عابري

١- تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٤٨٣، وتفسير القرطبي، ج ٣، ص ١١٧١.

٢- تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٤٨٣، وقد جاء نظير هذا المضمون في صحيح البخاري أيضاً.

٣- وسائل الشيعة، ج ١، ص ٤٨٦.

سبيل، يعني يجوز لكم العبور في المسجد وأنتم على جنابة وإن لم يجز لكم المكث واللبث فيه.

ويستفاد من بعض الروايات أن جماعة من المسلمين، وصحابة النبي كانوا قد بنوا بيوتهم حول المسجد النبوي بحيث تفتح أبوابها في المسجد، فسمح لهم بأن يعبروا من المسجد وهم على جنابة دون أن يتوقفوا فيه.

ولكن لا بد أن ننتبه إلى أن هذا التفسير يستلزم أن تكون لفظة الصلاة في الآية الحاضرة قد أتت بمعنيين: أحدهما الصلاة نفسها، والآخر محل الصلاة، لوجود بيان حكيمين مختلفين في الآية: أحدهما المنع والنهي عن الإقتراب إلى الصلاة في حالة السكر، والآخر الإجتنب عن دخول المساجد في حالة الجنابة (طبعاً لا مانع ولا ضرر في استعمال لفظة واحدة في معنيين أو أكثر كما قلنا في علم الأصول، ولكنه خلاف الظاهر، وهو لا يجوز بدون قرينة، نعم يمكن أن تكون الروايات المذكورة قرينة على ذلك).

٣- جواز الصلاة، أو عبور المسجد بعد الإغتسال، هو المبين بقوله: «حتى تغتسلوا».

٤- التيمم لذوي الأعذار، ثم تشير الآية إلى حكم التيمم لذوي الأعذار فتقول: «وإن كنتم مرضى أو على سفر» وفي هذه العبارة من الآية قد اجتمعت - في الحقيقة - كل موارد التيمم، فالمورد الأول هو ما إذا كان في استعمال الماء ضرر على البدن، والمورد الآخر هو ما إذا تعذر على الإنسان الحصول على الماء (أم لم يمكن استعماله) وبقوله: «أو جاء أحد منكم من الغائط أو لا مستم النساء» إشارة إلى علة الإحتياج إلى التيمم وأسبابه، ومعناه إذا أحدثتم حدثاً أو جامعتم النساء «فلم تجدوا ماء» أي لم تقدرُوا على تحصيل الماء أو استعماله «فتيمموا صعيداً طيباً».

ثم أنه سبحانه يبيّن طريقة التيمم بقوله: «فامسحوا بوجوهكم وأيديكم».

ثم أنه في ختام الآية يشير إلى حقيقة أن الحكم المذكور ضرب من التخفيف عنكم، لأن الله كثير الصفح كثير الستر لذنوب عبادة ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾.



بحوث عند الآية:

هنا لا بد من التنبيه إلى نقاط عديدة:

١- إن عبارة ﴿فلم تجدوا ماء﴾ المبدؤة بفاء التفريع ترتبط بعبارة ﴿أو على سفر﴾ يعني أنكم إذا كنتم في سفر ولم تجدوا ماء للوضوء أو الغسل، فتحتاجون إلى التيمم، لأن الإنسان قلما تتفق له هذه الحالة وهو في البلد، ومن هنا يتبين بطلان ما قاله بعض المفسرين - مثل صاحب المنار - من أن مجرد السفر وحده كاف للتكليف بالتيمم بدل الوضوء حتى لو كان الشخص المسافر واجداً للماء، فإن فاء التفريع في قوله ﴿فلم تجدوا﴾ يبطل هذا الكلام، لأن المفهوم منه هو أن السفر قد يوجب أحياناً عدم التمكن من الماء، وهنا لا مناص من التيمم، لأن السفر بوحده يسوغ التيمم، والعجب أن الكاتب المذكور تحامل على فقهاء الإسلام في هذا المجال من دون مبرر لهذا التحامل.

٢- إن كلمة (أو) في قوله تعالى: ﴿أو جاء أحد منكم من الغائط﴾ هي بمعنى (الواو) لأن مجرد المرض أو السفر لا يوجب التيمم، بل يجب التيمم إذا تحققت موجبات التيمم أو الغسل في هذا الحال.

٣- إن «العفة في البيان» المعهودة من القرآن دفعت بالقرآن في هذه الآية - كما في الآيات الكثيرة الأخرى - إلى أن يعبر عن قضاء الحاجة بعبارة تفهم المراد من جانب، ولا تكون غريبة وغير مناسبة من جانب آخر إذ يقول: ﴿أو جاء أحد منكم من الغائط﴾.

وتوضيح ذلك أن «الغائط» - خلاف ما يفهم منه هذا اليوم - يعني في أصل اللغة المنخفض من الأرض الذي كان يقصده الإنسان وسكان الصحارى والمسافرون في تلك العهود لقضاء الحاجة فيه ليستريحهم عن أعين الناظرين، وعلى هذا يكون معنى هذه الجملة هو: إذا عاد أحدكم من المكان المنخفض من الأرض الذي هو في جملته كناية عن قضاء الحاجة.

والملفت للنظر أن القرآن استعمل لفظة «أحد منكم» بدل ضمير الجمع المخاطب المصدر بالفعل أي «جئتم» ليحافظ على خصيصة «عفة البيان» التي تجلّى بها القرآن الكريم أكثر فأكثر.

وهكذا الحال عند ما يتحدّث عن الجماع فإنّ القرآن يشير إلى هذا الموضوع بعبارة «أو لامستم النساء» ولفظة اللمس كناية جميلة عن المقاربة الجنسية.

٤ - سنتحدّث بتفصيل حول بقية خصوصيات التيمم عند تفسير قوله تعالى: «صعيداً طيباً» في ذيل الآية (٦) من سورة المائدة إن شاء الله.

فلسفة التيمم:

يتساءل كثيرون: ما الفائدة من ضرب اليدين بالتراب ومسح الجبين وظهر اليدين بهما خاصّة أننا نعلم أن كثيراً من الأتربة ملوثة، وناقلة للميكروبات والجراثيم؟

في جواب هذه الأسئلة نشير إلى نقطتين مهمتين:

الأولى: الفائدة الخلقية، فإنّ التيمم إحدى العبادات، وتجلّى فيها روح العبادة بكل معنى الكلمة، لأنّ الإنسان يمس جبهته التي هي أشرف الأعضاء في بدنه بيديه المتربتين ليظهر بذلك خضوعه لله وتواضعه في حضرته ولسان حاله يقول: يا ربّي إنّ جبهتي وكذا يداي خاضعات أمامك إلى أبعد حدود الخضوع والتواضع، ثمّ يتوجه عقيب هذا العمل إلى القيام بالصلاة وسائر العبادات

المشروطة بالتمسك والوضوء، وبهذا الطريق يزرع التيمم في نفس الإنسان روح الخضوع لله، وينمي فيه صفة التواضع في حضرة ذي الجلال، ويدربه على العبودية له سبحانه، والشكر لأنعمه تعالى.

الثانية: الفائدة الصحية، فقد ثبت اليوم بأنّ التراب بحكم احتوائه على كميات كبيرة من البكتريا تزيل التلوثات، إن البكتريات الموجودة في التراب والتي تعمل على تحليل الموارد العضوية وإبادة كل أنواع العفونة، توجد - في الأغلب - بوفرة في سطح الأرض، والأعماق القريبة التي يمكن لها الانتفاع بنور الشمس والهواء بصورة أكثر، ولهذا عند ما تدفن جثث الأموات من البشر أو الحيوان في الأرض، وكذا ما يشابهها من المواد العضوية، نجدها تتحلل في مدة قصيرة تقريباً وتتلاشى بؤر التعفن على أثر هجوم البكتريات عليها، ومن المسلم أن هذه الخاصية لو لم تكن في التربة لتحولت الكرة الأرضية في مدة قصيرة إلى بؤرة عفونة قاتلة.

إنّ للتربة خاصية تشبه مواد «الأنتوبيوتيك» التي لها أثر فعال جداً في قتل وإبادة الميكروبات.

وعلى هذا لا يكون التراب عارياً عن التلوث فقط، بل هو مطهر فعال للتلوثات، ويمكنه - من هذه الجهة - أن يحل محل الماء بفارق واحد، هو أن الماء يحلل الميكروبات، ويذهب بها معه، في حين أن مفعول التراب يقتصر على قتل الميكروبات فقط.

ولكن يجب الإنتباه إلى أنّ التراب الذي يستعمل في التيمم يجب أن يكون طاهراً نظيفاً، كما أشار إليه القرآن الكريم في تعبيره الجميل إذا يقول: «طيباً».

والجدير بالإنتباه أنّ التعبير بـ«الصعيد» المشتق من «الصعود» يشير إلى أن أفضل أنواع التربة الذي ينبغي أن تختاره للتيمم هو التربة الموجودة في سطح الأرض، يعني تلك التربة التي هي عرضة لأشعة الشمس والملينة بالهواء

والبكتريا المبيدة للميكروبات، فإذا كانت تلك التربة المستعملة في التيمم طيبة وطاهرة أيضاً كان التيمم بها ينطوي على الآثار المذكورة من دون أن يكون فيه أي ضرر أو أية مضاعفات. (وستحدث في هذا المجال أيضاً عند تفسير المقطع الأخير من الآية (٦) في سورة المائدة).



الآيات

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالََةَ
وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ ﴿١١﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى
بِاللَّهِ وَلِيّاً وَكَفَى بِاللَّهِ نَصيراً ﴿١٥﴾

التفسير

في هذه الآيات يخاطب الله سبحانه نبيه الكريم بعبارة حاكية عن التعجب والإستغراب قائلاً: «ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السبيل» أي عجيب أمر هؤلاء الذين أوتوا نصيباً من الكتاب السماوي، ولكنهم بدل أن يقوموا بهداية الآخرين وإرشادهم في ضوء ما أوتوا من الهدى، فإنهم يشترون الضلالة لأنفسهم ويريدون أن تضلوا أنتم أيضاً. وبهذا الطريق فإن ما نزل لهديتهم وهداية الآخرين تحوّل إلى وسيلة لضلالهم وإضلال الآخرين بسوء نيتهم، لأنهم لم يكونوا أبدأ بصدد الحقيقة، بل كانوا ينظرون إلى كل شيء بمنظار النفاق والحسد والمادية السوداء. ثم يقول سبحانه: «إن هؤلاء وإن تظاهروا بمظهر الأصدقاء لكم إلا أنهم أعداؤكم الحقيقيون» والله أعلم بأعدائكم». وأية عداوة أشد وأكثر من أن يكرهوا هدايتكم ويخالفوا سعادتكم، تارة

باللسان وتارة عن طريق إظهار النصح، وثالثة عن طريق الذم، ويجتهدون في تحقيق أهدافهم المشؤومة في كل ظرف وزمان بنحو خاص، وشكل معين.

ولكن لا تخافوا عداوتهم أبداً ولا تستوحشوا لمواقفهم المعادية فلستم وحدكم في الميدان، فكفاكم أن الله قائدكم ووليكم وناصركم: ﴿وكفى بالله ولياً وكفى بالله نصيراً﴾.

لأنه لا يمكنهم أن يفعلوا شيئاً، فإذا تجاهلتم أحاديثهم ووساوسهم لم يبق أي مجال للخوف والقلق.

ثم إنه يستفاد من عبارة: ﴿أوتوا نصيباً من الكتاب﴾ أن ما كان عندهم من الكتاب لم يكن كل ما في الكتاب السماوي «التوراة»، بل كان بعضه وقسماً منه، وهذا يتفق مع حقائق التاريخ المسلمة أيضاً، تلك الحقائق التي تؤكد ضياع أو تحريف أقسام من التوراة الحقيقية مع مضي الزمن.

* * *

الآية

مَنْ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَسْمَعُ غَيْرُ مَسْمَعٍ وَرَعِينَا لَيْتَا بِالسِّنِّتِهِمْ وَطَعْنَا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَسْمَعُ وَأَنْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١١﴾

التفسير

جانب آخر من أعمال اليهود:

تعقيباً على الآيات السابقة تشرح هذه الآية صفات جماعة من أعداء الإسلام، وتشير إلى جانب من أعمالهم ومواقفهم. نقول أولاً: إن أحد أعمال هذه الجماعة هو تحريف الحقائق، وتغيير حقيقة الأوامر الإلهية: «من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه» أي أن جماعة من اليهود يحرفون الكلمات عن مواضعها. وهذا التحريف قد يكون له جانب لفظي، وقد يكون له جانب معنوي وعملي.

أما العبارات اللاحقة فتفيد أن المراد من التحريف في المقام هو التحريف اللفظي وتغيير العبارة، لأنه تعالى يقول بعد هذه الجملة: «ويقولون سمعنا

وعصينا» يعني بدل أن يقولوا «سمعنا وأطعنا» يقولون «سمعنا وعصينا» وهذا يشبه تماماً كلام من يقول مستهزئاً: «منك الأمر ومتاً عدم السماع»، هذا والعبارات الأخرى في هذه الآية خير شاهد على هذا القول.

ثم يشير إلى قسم آخر من أحاديثهم العدائية المزيجة بروح التحدي والصلاقة حيث يقول: إنهم يقولون: «واسمع غير مسمع» وبهذا الطريق يتوسل هذا الفريق للحفاظ على جماعة من المغفلين، - مضافاً إلى سلاح تحريف الحقائق والخيانة في إبلاغ الكتب السماوية التي كانت تشكل الوسيلة الحقيقية لنجاة ذلك الفريق وشعبهم من مخالب الطغاة الظلمة مثل فرعون - يتوسلون بسلاح الإستهزاء والسخرية الذي هو سلاح الأثانيين والمفرورين ووسيلة العتاة والمعاندين، وربما استخدموا مضافاً إلى كل ذلك عبارات كان المسلمون المخلصون يرددونها أمام رسول الله ﷺ مع تغييرات في معانيها تكميلاً لإستهزائهم وسخريتهم، مثل جملة «راعنا» التي معناها «تفقدنا وأمهلنا» وكان المسلمون الصادقون في صدر الإسلام ومطلع الدعوة المحمدية يرددونها أمام النبي ﷺ ليتمكنوا من سماع صوت النبي وكلامه بنحو أفضل، ولكن هذا الفريق من اليهود كانوا يتوسلون بهذه الجملة لإيذاء النبي ويسبون استخدامها ويكررونها أمام النبي ﷺ وهم يقصدون منها معناها العبري الذي هو «سمعنا غير مسمع» أو «أسمعنا لا سمعت» أو معناه العربي الآخر، وهو ما يرجع إلى الرعونة^(١) الذي يعني الحق، قصداً منهم إلى أن عمل النبي ﷺ كان - والعياذ بالله - خداع الناس واستغلال سذاجتهم.

وقد كان هذا كله يهدف إزاحة الحقائق عن محورها الأصلي بألسنتهم

١- راعنا إذا أخذت مشتقة من مادة الرعي تكون بمعنى فعل الطلب من المراعاة والمراقبة، وبمعنى أمهلنا، وإذا أخذت مشتقة من الرعونة تكون بمعنى «أخذنا وأجعلنا حمقاء عندك»، يقولون ذلك على سبيل الإستهزاء والسب، ولا بد من الإلغزات إلى أن راعنا على الوجه الأول تكون بدون تشديد النون، وعلى الوجه الثاني بتشديد النون، ويستفاد من جملة من الروايات أن اليهود كانوا يتعمدون تشديد النون في راعنا ومد آخرها.

والظعن في الدين الحق، والشريعة الحقّة: ﴿لِئلاَّ يَأْتِيَهُمُ الْغِيظُ وَالنَّارُ أَوْ لِيَأْتِيَهُمُ الْحَرْبُ وَالظُّلْمُ﴾ (والظن علي وزن الحي بمعنى الفتل، مثل فتل الحبل وما شابهه، ويأتي أيضاً بمعنى التغير والتحريف).

﴿ولو أنّهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيراً لهم وأقوم﴾ أي أنّهم إن سلكوا الطريق المستقيم وتركوا كل ذلك اللجاج والعدا، ومعاداة الحق، وسوء الأدب، والجرأة والقحة وقالوا: سمعنا كلام الله وأطعنا، فاستمع إلى كلامنا وأمهلنا لكي ندرك الحقائق إدراكاً كاملاً، لكان ذلك من مصلحتهم، وكان في ذلك منفعتهم، وأكثر انسجاماً وتوافقاً مع العدل والمنطق والعدل والأدب.

﴿ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً﴾.

أي أنّهم لن يتخلوا عن هذا السلوك الشائن بسرعة، كيف؟ وقد اهتموا عن رحمة الله بسبب ما هم عليه من كفر وتمرد وطغيان، وماتت أفئدتهم وتحجرت بحيث صار من المتعذر أن تخضع للحق، وأن تحيا من رقتها بهذه السرعة، اللهم إلا بعضهم ممن يمتلك فؤاداً طاهراً وعقلاً يقظاً، فهؤلاء هم المستعدون للقبول بالحقائق، والاستماع إلى نداء الحق والإيمان به.

وقد اعتبر جماعة هذه الجملة من مغيبات القرآن وإخباراته الغيبية، لأنّه - كما يخبر القرآن الكريم في هذه الآية - لم يؤمن من اليهود طوال التاريخ الإسلامي ولم يذعن للحق إلا جماعة قليلة، وأما غيرهم - وهم الأكثرية الساحقة - فقد بقوا - وإلى الآن - على عدائهم الشديد، وخصومتهم للإسلام، ولم يزلوا يكيّدون له المكائد، ويحيكون ضده المؤامرات.

الآية

يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ءَامِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ
مِّن قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهَ فَرَدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا
لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾

التفسير

مصير المعاندين:

تعقيباً على البحث السابق في الآية المتقدمة حول أهل الكتاب، وجه الخطاب في هذه الآية إليهم أنفسهم، إذ قال سبحانه: ﴿يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقاً لما معكم﴾ أي آمنوا بالقرآن الكريم الذي تجدونه موافقاً لما جاء في كتبكم من العلامات والبشائر، ولا شك أنكم أولى من غيركم - ولديكم مثل هذه الأدلة والعلامات - بالإيمان بهذا الدين الطاهر.

ثم إن الله سبحانه يهددهم بأن عليهم أن يخضعوا للحق ويدعوا له قبل أن يُصابوا بإحدى عقوبتَيْه، الأولى: أن تمنحي صورهم كاملة، وأن تذهب عنهم جوارحهم وأعضاؤهم التي يرون ويسمعون ويدركون بها الحق، كلها ثم تقلب وجوههم إلى خلف كما يقول سبحانه: ﴿من قبل أن نطمس^(١) وجوهاً فردها

١ - الطمس هو إزالة الأمر بالمحو، مثل أن نهدم بيتاً ثم نزيل أثره بالمرّة - ولكنه يطلق - كناية - على ما تقدّمه.

على أدبارها».

ولعلنا لسنا بحاجة إلى أن نذكر بأن المراد من هذه العبارة هو تعطل عقولهم وحواسهم من حيث عدم رؤية حقائق الحياة وإدراكها، والانحراف عن الصراط المستقيم كما جاء في حديث عن الإمام الباقر عليه السلام من أن المراد: «نطمسها عن الهدى فتردها على أدبارها في ضلالتها ذمًا لها بأنّها لا تفلح أبدًا»^(١).

توضيح ذلك أن أهل الكتاب، وبخاصة اليهود منهم، عندما عرضوا عن الإذعان بالحق رغم كل تلك العلائم والبراهين، وعاندوا تعنتاً واستكباراً وأظهروا مواقفهم المعاندة في أكثر من ساحة، صار العناد والزور طبيعتهم الثانية شيئاً فشيئاً، وكان أفكارهم قد مسخت وكان عيونهم قد عميت وأذانهم قد صمت، ومثل هؤلاء من الطبيعي أن يتقهروا في طريق الحياة بدل أن يتقدموا، وأن يرددوا على الأدبار بدل أن يتحركوا إلى الأمام، وهذا هو جزاء كل من ينكر الحق عناداً وعتوًّا، وهذا في الحقيقة يشبه ما أشرنا إليه في مطلع سورة البقرة الآية (٦).

وعلى هذا، فإن المراد من «الطمس وعفو الأثر والرّد على العقب» في الآية الحاضرة هو المحو الفكري والروحي، والتأخر المعنوي.

وأما العقوبة الثانية التي هددهم الله بها فهي اللعن والطرّد من رحمته تعالى إذ قال: «أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت»^(٢).

وهنا يطرح سؤال وهو: ما الفرق بين هذين التهديدين، حتى يفصل بينهما بـ

«أو»؟

وخاصيته.

١- مجمع البيان- ج ٢، ص ٥٥، في ذيل الآية الحاضرة.

٢- أصحاب السبت هم الذين ستأتي قصتهم في سورة الأعراف عند تفسير الآيات (١٦٣-١٦٤) وهم جماعة من اليهود كانوا قد كلفوا بتعطيل العمل والكسب في يوم السبت، ولكنهم اشتغلوا بالصيد في ذلك اليوم بالرغم من نهي نبيهم، فتجاوزوا في الطغيان الحدّ، فابتلاههم الله بأشدّ العقوبات.

ذهب بعض المفسرين إلى أن التهديد الأوّل ينطوي على جانب معنوي، والتهديد الثاني ينطوي على جانب ظاهري ومسخ جسمي، وذلك بقرينة أن الله قال في هذه الآية: ﴿كما لعنا أصحاب السبت﴾ ونحن نعلم أن أصحاب السبت - كما يتضح من مراجعة الأعراف - قد مسخوا مسخاً ظاهرياً وجسدياً. وذهب آخرون إلى أن هذا اللعن والطرّد من رحمة الله ينطوي أيضاً على جانب معنوي يفارق واحد، هو أن التهديد الأوّل إشارة إلى الانحراف والضلال والتقهقر الذي أصابهم، والتهديد الثاني إشارة إلى معنى الهلاك والفناء (الذي هو أحد معاني اللعن).

خلاصة القول: إن أهل الكتاب بإصرارهم على مخالفة الحق يسقطون ويتقهقرون أو يهلكون.

ثم إن هنا سؤالاً آخر هو: هل تحقق التهديد في شأن هؤلاء، أم لا؟ لا شك أن التهديد الأوّل قد تحقق في شأن كثير منهم، وأمّا التهديد الثاني فقد تحقق في بعضهم، ولقد هلك كثير منهم في الحروب الإسلامية، وذهبت شوكتهم وقدرتهم. وإنّ تأريخ العالم ليشهد كيف تعرضوا بعد ذلك لكثير من الضغوطات في البلاد المختلفة، وفقدوا الكثير من أفرادهم وعناصرهم، وخسروا الكثير من طاقاتهم، ولا يزالون إلى الآن يعيشون في ظروف صعبة وأحوال قاسية.

ثم إن الله يختم هذه الآية بقوله: ﴿وكان أمر الله مفعولاً﴾ ليؤكد هذه التهديدات، فإنّه لا توجد قوّة في الأرض تستطيع أن تقف في وجه إرادة الله ومشيئته.

الآية

إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿١٨﴾

التفسير

أرجى آيات القرآن:

الآية الحاضرة تعلن بصراحة أن جميع الذنوب والمعاصي قابلة للمغفرة والعتو، إلا «الشرك» فإنه لا يغفر أبداً، إلا أن يكف المشرك عن شركه ويتوب ويصير موحداً، وبعبارة أخرى: ليس هناك أي ذنب قادر بوحده على إزالة الإيمان، كما ليس هناك أي عمل صالح قادر على خلاص الإنسان إذا كان مقروناً بالشرك «إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء».

إن ارتباط هذه الآية بالآيات السابقة إنما هو من جهة أن اليهود والنصارى كانوا بشكل من الاشكال مشركين، كل طائفة بشكل معين، والقرآن ينذرهم - بهذه الآية - بأن يتركوا هذه العقيدة الفاسدة التي لا يشملها العفو والغفران، ثم يبين في خاتمة الآية دليل هذا الأمر إذ يقول: «ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً»^(١).

١- الإفتراء، مشتقة من مادة لرى على وزن (فردا) بمعنى القطع، وحيث أن قطع بعض أجزاء الشيء السالم يفسد

وهذه الآية من الآيات التي تطمئن الموحدين إلى رحمة الله ولطفه، لأنّ في هذه الآية قد بيّن سبحانه إمكان العفو عن جميع المعاصي والذنوب غير الشرك، فهي كما جاء في حديث عن أمير المؤمنين علي عليه السلام أرجى آيات القرآن الكريم إذ قال: «ما في القرآن آية أرجى عندي من هذه الآية».

وهذه الآية - كما قال ابن عباس «ثمانى آيات نزلت في سورة النساء، خير لهذه الأمة ممّا طلعت عليه الشمس وغربت وعدّ منها هذه الآية»^(١).

لأنّ هناك كثيرين يرتكبون المعاصي العظيمة ثمّ يقنطون من رحمة الله وغفرانه إلى الأبد، فيتسبب قنوطهم في أن يسيروا بقية عمرهم في طريق المعصية والخطأ بنفس القوّة والإصرار، ولكن الأمل في عفو الله وغفرانه خير وسيلة رادعة بالنسبة إلى هؤلاء، وخير مانع من تماديهم في المعصية والطغيان، وعلى هذا الأساس فإنّ هذه الآية تهدف - في الحقيقة - إلى مسألة تربية.

فإذا رأينا عصاة مجرمين (كما يقول بعض المفسّرين، ويعلم ذلك من الروايات المذكورة في ذيل هذه الآية) أمثال «وحشي» غلام هند وقاتل بطل الإسلام حمزة بن عبدالمطلب عم النبي ﷺ يؤمن مع نزول هذه الآية، وينتهي عن جرائمه وشقاوته، فإن من الطبيعي أن يوجد ذلك مثل هذا الأمل لدي العصاة الآخرين، فلا يياسوا من رحمة الله وغفرانه، ولا يتورطوا في المزيد من الذنوب والمعاصي.

ويمكن أن يقال: إنّ هذه الآية من شأنها أن تشجع الناس في الوقت ذاته على الذنب وتغريهم بالمعصية، لما فيها من الوعد بالعفو عن «جميع الذنوب ما عدا الشرك».

ولكن لا شك أنّ المراد من الوعد بالعفو والمغفرة ليس هو الوعد المطلق من

ذلك الشيء ويخرجه إستعمل في كل مخالفة، ومن جملة ذلك الشرك والكذب والنهمة.

كل قيد وشرط، بل يشمل الأشخاص الذين يظهرون من أنفسهم نوعاً من اللياقة والصلاح لمثل هذا العفو والغفران، وكما أشرنا إلى ذلك في ما سبق، فإن مشيئة الله - في هذه الآية والآيات المشابهة لها - بمعنى الحكمة الإلهية، لأن مشيئته تعالى لا تفصل عن حكمته أبداً، ومن البديهي والمسلم أن حكمته لا تقتضي أن ينال أحد العفو الإلهي من دون قابلية وصلاح لذلك.

وعلى هذا الأساس فإن الجوانب والأبعاد التربوية البناءة في هذه الآية تفوق - بمراتب كثيرة - إمكان سوء استخدام الوعد الموجود فيها.

أسباب مغفرة الذنوب:

ثم إن النقطة الجديرة بالانتباه إن هذه الآية لا ترتبط بمسألة التوبة، لأن التوبة والعودة عن الذنب تغسل جميع الذنوب والمعاصي حتى الشرك، بل المراد هو إمكان شمول العفو الإلهي لمن لم يوفق للتوبة، يعني الذين يموتون قبل الندم من ذنوبهم، وبعد الندم وقبل جبران ما بدر منهم من الأعمال الطالحة بالأعمال الصالحة.

وتوضيح ذلك: أنه يستفاد من آيات عديدة في القرآن الكريم أن وسائل التوصل إلى العفو والمغفرة الإلهية متعددة، ويمكن تلخيصها في خمسة أمور:

١ - التوبة والعودة إلى الله تعالى، المقرونة بالندم على الذنوب السابقة، والعزم على الإجتنب عن الذنب والمعصية في المستقبل، وجبران وتلافي الأعمال الطالحة السالفة بالأعمال الصالحة (والآيات الدالة على هذا المعنى كثيرة) ومن جملتها قوله سبحانه: ﴿وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات﴾^(١).

٢ - الأعمال الصالحة المهمة جداً والتي تسبب العفو عن الأعمال القبيحة

كما يقول سبحانه: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾^(١).

٣- الشفاعة التي مرّ شرحها في المجلد الأول عند تفسير الآية (٤٨) من سورة البقرة.

٤- الاجتناب عن المعاصي الكبيرة الذي يوجب العفو عن المعاصي الصغيرة كما مرّ شرحها عند تفسير الآيتين (٣١ و ٣٢) من هذه السورة.

٥- العفو الإلهي الذي يشمل الأشخاص اللاتقين له، كما مرّ بحثه في تفسير هذه الآية.

هذا ونكرر تذكيرنا بأن العفو الإلهي مشروط ومقيد بالمشيئة الإلهية، ولا يكون قضية مطلقة دون أي قيد أو شرط، بل تشمل هذه المشيئة والإرادة خصوص الأشخاص الذين يشبتون بصورة عملية لياقتهم وصلاحتهم لهذه الهبة الإلهية بنحو من الأنحاء.

ومن هنا يتّضح لماذا لا يكون الشرك ممّا يشمل العفو والغفران الإلهي، فالسبب في ذلك هو: إنّ المشرك قد قطع صلته بالله بصورة كاملة، وارتكب ما يخالف كل الشرائع والأديان والقوانين الطبيعية والتأاميس الكونية.

* * *

الآيتان

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظَلِّمُونَ فَتِيلًا ﴿١١﴾ أَنْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥﴾

سبب النزول

روي في كثير من التفاسير في ذيل هذه الآية أن اليهود والنصارى كانوا يرون لأنفسهم أموراً وامتيازات، فهم - كما نرى ذلك في آيات القرآن الكريم عند الحكاية عنهم - كانوا يقولون: «نحن أبناء الله» وربما قالوا: «لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى» (الآية ١٨) من سورة المائدة، والآية (١١١) من سورة البقرة) فنزلت هذه الآيات تبطل هذه التصورات والمزاعم.

التفسير

تزكية النفس^(١):

قال تعالى في الآية الأولى من الآيتين الحاضرتين: «ألم تر إلى الذين يزكّون

١ - يزكّون من مادة «تزكية» بمعنى تطهير. وتأتي أحياناً بمعنى التربية والتنمية، ففي الحقيقة إذا كانت التزكية مقترنة بالعمل فإنها تعتبر أمراً محموداً، وإلا لو كانت مجرد ادّعاء وكلام فارغ فهي مذمومة.

أنفسهم ﴿ وفي هذه إشارة إلى إحدى الصفات الذميمة التي قد يبتلى بها كثير من الأفراد والشعوب، إنها صفة مدح الذات وتزكية النفس، وادعاء الفضيلة لها.

ثم يقول سبحانه: ﴿بل الله يزكي من يشاء﴾ فهو وحده الذي يمدح الأشخاص ويزكيهم طبقاً لما يتوفر عندهم من مؤهلات وخصال حسنة دون زيادة أو نقصان، وعلى أساس من الحكمة والمشئبة البالغة، وليس اعتباطاً أو عبثاً. ولذلك فهو لا يظلم أحداً مقدار فتيل: ﴿ولا يظلمون فتيلاً﴾^(١).

وفي الحقيقة أنّ الفضيلة هي ما يعتبرها الله سبحانه فضيلة لا ما يدعيه الأشخاص لأنفسهم انطلاقاً من أنانيتهم، فيظلمون بذلك أنفسهم وغيرهم.

إن هذا الخطاب وإن كان موجهاً إلى اليهود والنصارى الذين يدعون لأنفسهم بعض الفضائل دونما دليل، ويعتبرون أنفسهم شعوباً مختارة فيقولون أحياناً: ﴿لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة﴾^(٢) ويقولون تارة أخرى: ﴿نحن أبناء الله وأحباؤه﴾^(٣) إلا أنّ مفهومه لا يختص بقوم دون قوم، وجماعة دون جماعة، بل يشمل كل الأشخاص أو الأمم المصابة بمثل هذا المرض الوبي، وهذه الصفة الذميمة.

إنّ القرآن يخاطب جميع المسلمين في (سورة النجم - الآية ٣٢) فيقول: ﴿فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى﴾.

إنّ مصدر هذا العمل هو الإعجاب بالنفس والغرور، والعجب الذي يتجلى شيئاً فشيئاً في صورة امتداح الذات وتزكية النفس، بينما ينتهي في نهاية المطاف إلى التكبر والإستعلاء على الآخرين.

إنّ هذه العادة الفاسدة - مع الأسف - من العادات الشائعة بين كثير من

١ - الفتيل في اللغة بمعنى الخيط الدقيق الموجود بين شقي نواة النمر، ويأتي كناية عن الأشياء الصغيرة والدقيقة جداً، وأصله من مادة «قتل» بمعنى البرم.

٢ - البقرة، ٨٠.

٣ - المائدة، ١٨.

الشعوب والفئات والأشخاص، وهي مصدر الكثير من المآسي الإجتماعية والحروب وحالات الإستعلاء والاستعمار.

إنَّ التاريخ يرينا كيف أن بعض الأمم في العالم كانت تزعم تفوقها على الشعوب والأمم الأخرى تحت وطأة هذا الشعور والإحساس الكاذب، ولهذا كانت تمنح لنفسها الحق في أن تستعبد الآخرين، وتتخذهم لأنفسها خولاً وعبيداً.

لقد كان العرب الجاهليون مع كل التخلف والإنحطاط والفقر الشامل الذي كانوا يعانون منه، يرون أنفسهم «العنصر الأعلى» بل وكانت هذه الحالة سائدة حتى بين قبائلهم حيث كان بعض القبائل يرى نفسه الأفضل والأعلى.

ولقد تسبب الإحساس بالتفوق لدى العنصر الألماني والإسرائيلي في وقوع الحروب العالمية أو الحروب المحلية.

ولقد كان اليهود والنصارى في صدر الإسلام يعانون - أيضاً - من هذا الإحساس والشعور الخاطيء وهذا الوهم، ولهذا كانوا يستقلون الخضوع أمام حقائق الإسلام، ولهذا السبب شدد القرآن الكريم التكير - في الآية اللاحقة الثانية - على هذا التصور وشجب هذا الوهم، وهم التفوق العنصري، ويعتبره نوعاً من الكذب على الله والإفتراء عليه سبحانه، ومعصية كبرى وذنباً بيئاً إذ يقول سبحانه: «انظر كيف يفترون على الله الكذب، وكفى به أثماً مبيناً» أي أنظر كيف أن هذه الجماعة بافتعالها لهذه الفضائل وادعائها لنفسها من ناحية، ونسبتها إلى الله من ناحية أخرى، تكذب على الله، ولو لم يكن لهذه الجماعة أي ذنب إلا هذا لكفى في عقوبتهم.

يقول الإمام علي عليه السلام في حديثه المعروف لـ «همام» الذي يذكر فيه صفات

المتقين:

«لا يرضون من أعمالهم القليل، ولا يستكثرون الكثير، فهم لأنفسهم متهمون، ومن

أعمالهم مشتفقون إذا زكى أحد منهم خاف ممّا يقال له فيقول: أنا أعلم بنفسى من غيرى وربى أعلم بهى من نفسى. اللهم لا تؤاخذنى بما يقولون، واجعلنى أفضل ما يظنون، واغفرلى ما لا يعلمون».

* * *

الآياتان

أَمْ تَرَى إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيحاً مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ
وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ
ءَامَنُوا سَبِيلاً ﴿٥١﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن
نَّحْدِلَ لَهُ نَصِيراً ﴿٥٢﴾

سبب النزول

قال كثير من المفسرين - في شأن نزول الآيتين الحاضرتين: أنه بعد معركة «أحد» توجه أحد أقطاب اليهود وهو «كعب بن الأشرف» مع سبعين شخصاً من اليهود إلى مكة للتحالف مع مشركي مكة ضد رسول الإسلام ﷺ ونقض ما كان بينهم وبين رسول الله من الحلف.

فنزل كعب على أبي سفيان فأحسن مثواه ونزلت اليهود في دور قريش، فقال أهل مكة: أنكم أهل كتاب ومحمد صاحب كتاب، فلا نأمن أن يكون هذا مكر منكم، فإن أردت أن نخرج معك فاسجد لهذين الصنمين (وأشاروا إليها) وآمن بهما، ففعل.

ثم اقترح كعب بن الأشرف على أهل مكة قائلاً: يا أهل مكة ليحيي منكم ثلاثون ومئاً ثلاثون فنلصق أكبادنا بالكعبة، فتعاهد رب هذا البيت لنجهدن على

قتال محمد، ففعلوا ذلك.

فلما فرغوا قال أبو سفيان لكعب: إنك امرؤ تقرأ الكتاب وتعلم، ونحن أميون لا نعلم، فأينا أهدى طريقاً وأقرب إلى الحق، نحن أم محمد؟
قال كعب: اعرضوا علي دينكم، فقال أبو سفيان: نحن ننحر للحجيج الكوماء (وهي الناقة العظيمة السنم) ونسقيهم الماء، ونقرى الضيف، ونفك العاني، ونصل الرحم، ونعمر بيت ربنا، ونطوف به، ونحن أهل الحرم، ومحمد فارق دين آبائه، وقاطع الرحم، وفارق الحرم، وديننا القديم، ودين محمد الحديث.
فقال كعب: أنتم والله أهدى سبيلاً مما عليه محمد.
فأنزل الله تعالى الآيات الحاضرة إجابة لهم ورداً عليهم:

التفسير

المداهنون:

إن الآية الأولى من الآيتين الحاضرتين تعكس - بملاحظة - ما ذكر في سبب النزول قريباً - صفة أخرى من صفات اليهود الذميمة، وهي أنهم لأجل الوصول إلى أهدافهم كانوا يداهنون كل جماعة من الجماعات، حتى أنهم لكي يستقطبوا المشركين سجدوا لأصنامهم، وتجاهلوا كل ما قرؤوه في كتبهم، أو عملوا به حول صفات رسول الله ﷺ وعظمة الإسلام، بل وذهبوا - بغية إرضاء المشركين - إلى ترجيح عقيدة الوثنيين بما فيها من خرافات وتفاهات وفضائح على الإسلام الحنيف، مع أن اليهود كانوا من أهل الكتاب، وكانت المشتركات بينهم وبين الإسلام تفوق بدرجات كبيرة ما يجمعهم مع الوثنيين، ولهذا يقول سبحانه في هذه الآية مستغرباً: «ألم تر إلى الذين أتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت» وهي الأصنام؟

ولكنهم لا يقتنعون بهذا، ولا يقفون عند هذا الحد، بل: «ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً».

الجبت والطاغوت:

استعملت لفظة «الجبت» في هذه الآية من القرآن الكريم خاصة، وهو اسم جامد لا تعريف له في اللغة العربية، ويقال أنه يعني «السحر» أو «الساحر» أو «الشيطان» بلغة أهل الحبشة، ثم دخل في اللغة العربية واستعمل بهذا المعنى، أو بمعنى الصنم أو أي معبود غير الله في هذه اللغة، ويقال: أنه في الأصل «جيس» ثم أبدل «س» إلى «ت».

وأما لفظة «الطاغوت» فقد استعملت في ثمانية موارد من القرآن الكريم، وهي - كما قلنا في المجلد الأول من هذا التفسير لدى الحديث عن الآية (٢٥٦) من سورة البقرة - صيغة مبالغة^(١) من مادة الطغيان، بمعنى التعدي وتجاوز الحد، ويطلق على كل شيء موجب لتجاوز الحد (ومنها الأصنام) ولهذا يسمى الشيطان، والصنم والحاكم الجبار المتكبر، وكل معبود سوى الله، وكل مسيرة تنتهي إلى غير الحق، طاغوتاً.

هذا هو المعنى الكلي لهاتين اللفظتين.

أما المراد منهما في الآية المبحوثة الآن، فذهب المفسرون فيه مذاهب شتى. فقال البعض بأنهما اسمان لصنمين سجد لهم اليهود في القصة السابقة.

وقال آخرون: الجبت هنا هو الصنم، والطاغوت هم عبدة الأصنام، أو حمايتها الذين كانوا يمثلون تراجمة الأصنام الذين كانوا يتكلمون بالتكذيب عنها ليخدعوا الناس^(٢)، وهذا المعنى أوفق لما جاء في سبب النزول وتفسير الآية، لأن اليهود سجدوا للأصنام كما خضعوا أمام عبديتها الوثنيين أيضاً.

ثم إنه سبحانه يبين - في الآية الثانية - مصير أمثال هؤلاء المداهنيين قائلاً: ﴿أولئك الذي لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً﴾.

١ - تفسير المنار، ج ٢، ص ٣٥، وذهب البعض إلى أنه مصدر استعمل بالمعنى الوصفي وصيغة المبالغة.

٢ - تفسير التبيان، وتفسير روح المعاني.

إنّ اليهود - كما تقول هذه الآية - لم يحصلوا من مداونتهم الفاضحة على نتيجة، بل انهزموا في النهاية، وتحققت نبوءة القرآن الكريم في شأنهم.

إنّ الآيات الحاضرة وإن كانت قد نزلت في شأن جماعة خاصّة، ولكنها لا تختص بهم حتماً، بل تشمل كل الأشخاص المداهنين المصلحين (الانتهازيين) الذين يضحون بشخصيتهم ومكانتهم، بل وإيمانهم ومعتقداتهم في سبيل الوصول إلى مآربهم السافلة وأغراضهم الدنيئة.

فإنّ هؤلاء أبعد ما يكونون عن رحمة الله في الدنيا والآخرة، وغالباً مايؤول أمرهم إلى الهزيمة والفشل.

إنّ الجدير بالانتباه هو أنّ هذه الحالة أو الصفة الذميمة المذكورة لا تزال باقية على قوتها عند هؤلاء القوم، فإننا نجد كيف أنهم لا يمتنعون عن أي مداهنة مهما كانت الشروط للوصول إلى أهدافهم، ولهذا ظلوا يعانون من هزائمهم المنكرة طول تاريخهم الماضي والحاضر.

الآيات

أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمَلِكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٧﴾ أَمْ
يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ
إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٨﴾ فَمِنْهُمْ
مَّنْ ءَامَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٩﴾

التفسير

في تفسير الآيتين السابقتين قلنا أن اليهود عمدوا - لإرضاء الوثنيين في مكة واستقطابهم - إلى الشهادة بأن وثنية قريش أفضل من توحيد المسلمين، بل وعمدوا عملياً إلى السجود أمام الأصنام، وفي هذه الآيات يبيّن سبحانه أن حكمهم هذا لا قيمة له لوجهين.

١ - إن اليهود ليس لهم - من جهة المكانة الاجتماعية - تلك القيمة التي نؤهلهم للقضاء بين الناس والحكم في أمورهم، ولم يفوض الناس إليهم حق الحكم والقضاء بينهم أبداً ليكون لهم مثل هذا العمل: «أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمَلِكِ؟» هذا مضافاً إلى أنهم لا يمتلكون أية قابلية وأهلية للحكومة المادية والمعنوية على الناس، لأن روح الإستثمار قد استحکم في كيانهم بقوة إلى درجة أنهم إذا حصلوا على مثل هذه المكانة لم يعطوا لأحد حقه، بل خصوا كل شيء.

بأنفسهم دون غيرهم ﴿فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾^(١).

فبالنظر إلى أنّ هذه الأحكام التي يطلقها اليهود صادرة عن مثل هذه النفسية المريضة التي تسعى دائماً إلى الإستئثار بكل شيء لأنفسهم أو لغيرهم ممن يعملون لصالحهم، على المسلمين أن لا يتأثروا بأمثال هذه الأحاديث والأحكام وأن لا يقلقوا لها.

٢- إنّ هذه الأحكام الباطلة ناشئة من حسدهم البغيض للنبي ﷺ وأهل بيته المكرمين، ولهذا تفقد أية قيمة، إنهم إذ خسروا مقام النبوة والحكومة بظلمهم وكفرهم، لذلك لا يحبون أن يناط هذا المقام الإلهي إلى أي أحد من الناس، ولذا يحسدون النبي ﷺ وأهل بيته الذين شملتهم هذه الموهبة الإلهية وأعطوا ذلك المقام الكريم وذلك المنصب الجليل، ولأجل هذا يحاولون بإطلاق تلك الأحكام الباطلة وتلك المزاعم السخيفة أن يخففوا من لهيب الحسد في كيانهم: «أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله».

ثم أن الله سبحانه يقول معقياً على هذا: ولماذا تتعجبون من إعطائنا النبي ﷺ وبني هاشم ذلك المنصب الجليل وذلك المقام الرفيع، وقد أعطاكم الله سبحانه وأعطى آل إبراهيم الكتاب السماوي والعلم والحكمة والملك العريض (مثل ملك موسى و سليمان وداود) ولكنكم - مع الأسف - أسأتم خلافهم ففقدتم تلكم النعم المادية والمعنوية القيمة بسبب قسوتكم وشروركم: «فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيماً».

والمراد من الناس في قوله: «أم يحسدون الناس» - كما أسلفنا - هم رسول الله وأهل بيته ﷺ، لإطلاق لفظة الناس على جماعة من الناس، وأما إطلاقها على شخص واحد (هو النبي خاصة) فلا يصح ما لم تكن هناك قرينة على إرادة

١ - «البقير» مشتقة من مادة انقر (وزن فقر) الدق في شيء بحيث يوجد فيه ثقباً واشتق منه المنقار، وقال بعض: البقير وقبة صغيرة جداً في ظهر النواة ويضرب به المثل في الشيء الطفيف.

الواحد فقط^(١).

هذا مضافاً إلى أن كلمة آل إبراهيم قرينة أخرى على أن المراد من «الناس» هو النبي ﷺ وأهل بيته ﷺ، لأنه يستفاد - من قرينة المقابلة - أننا إذا أعطينا لبني هاشم مثل هذا المقام ومثل هذه المكانة - فلا داعي للعجب - فقد أعطينا لآل إبراهيم أيضاً تلك المقامات المعنوية والمادية بسبب أهليتهم وقابليتهم.

وقد جاء التصريح في روايات متعددة وردت في مصادر الشيعة والسنة بأن المراد من «الناس» هم أهل بيت النبي ﷺ.

فقد روي عن الإمام الباقر عليه السلام في ذيل هذه الآية أنه قال في تفسير الآية: «جعل منهم الرسل والأنبياء والأئمة فكيف يقرّون في آل إبراهيم وينكرونه في آل محمد»^(٢)؟

وفي رواية أخرى عن الإمام الصادق عليه السلام يجيب الإمام على من يسأل عن المحسودين في هذه الآية قائلاً: «نحن محسودون»^(٣).

وروي في الدر المنثور عن ابن منذر والطبراني عن ابن عباس أنه قال في هذه الآية: «نحن الناس دون الناس».

ثم قال القرآن الكريم في الآية اللاحقة: «فمنهم من آمن به ومنهم من صد عنه وكفى بجهنم سعيراً». أي أن من الناس آنذاك من آمن بالكتاب الذي نزل على آل إبراهيم، ومنهم من لم يكتف بعدم الإيمان بذلك الكتاب، بل صدّ الآخرين عن الإيمان وحال دون انتشاره، أولئك كفاهم نار جهنم المشتعلة عذاباً وعقوبة. وسيتهي إلى نفس هذا المصير كل من كفر بالقرآن الكريم الذي نزل على رسول الله ﷺ.



١- الناس اسم جمع ويؤيد ذلك ضمير الجمع الراجع إليه في الآية.

٢- تفسير البرهان: ج ١، ص ٣٧٦، وقد جاء في تفسير روح المعاني حديث مشابه لهذا الحديث في المضمون (روح المعاني، ج ٥ ص ٥٢).

٣- المصدر السابق.

دور الحسد في الجرائم:

«الحسد» يعني تمنى زوال النعمة عن الآخرين سواء وصلت تلك النعمة إلى الحسود، أم لم تصل إليه، وعلى هذا الأساس تنصب جهود الحسود على فناء ما لدى الآخرين وزواله عنهم أم تمنى ذلك، لا أن تنتقل تلك النعمة إليه.

إن الحسد منشأ للكثير من المآسي والمتاعب الإجتماعية، من ذلك.

١- إن الحاسد يصرّف كل أو جلّ طاقاته البدنية والفكرية - التي يجب أن تصرف في ترشيد الأهداف الإجتماعية - في طريق الهدم والتعطيم لما هو قائم، ولهذا فهو يبذل طاقاته الشخصية والطاقات الإجتماعية معاً.

٢- إن الحسد هو الدافع لكثير من الجرائم في هذا العالم، فلو أننا درسنا العلل الأصلية وراء جرائم القتل والسرقة والعدوان وما شابه ذلك لرأينا - بوضوح - أن أكثر هذه العلل تنشأ من الحسد، ولعلّه لهذا السبب شبّه الحسد بشرارة من النار يمكنها أن تهدد كيان الحاسد أو المجتمع الذي يعيش في وسطه بالخطر، وتعرضه للضرر.

يقول أحد العلماء: إن الحسد من أخطر الصفات، ويجب أن يعتبر من أعدى أعداء السعادة، فيجب أن يجتهد الإنسان لدفعه والتخلص منه.

إن المجتمعات التي تتألف من الحاسدين الضيقي النظرة مجتمعات متأخرة متخلّفة، والحساد - في الأغلب - عناصر قلقة وأفراد مرضى يعانون من متاعب وآلام جسدية وعصبية، وذلك قد أصبح من المسلم اليوم أن أكثر الأمراض والآلام الجسدية تنشأ من علل نفسية، فإننا نلاحظ الآن بحوثاً مفصلة في الطب حول الأمراض التي تختص بمثل هذه.

هذا والجدير بالذكر وروود التأكيد على هذه المسألة في أحاديث أئمة الدين وقادة الإسلام، ففي رواية عن الإمام علي عليه السلام، نقراً قوله: «صحة الجسد من قلة الحسد» و«العجب لفضلة الحساد عن سلامة الأجساد».

بل ووردت روايات تصرح بأن الحسد يضّر بالحاسد قبل أن يضّر بالمحسود، بل ويؤدي إلى القتل والموت تدريجاً.

٤- إن الحسد يعدّ من الناحية المعنوية - من علائم ضعف الشخصية وعقدة الحقارة، ومن دلائل الجهل وقصر النظر وقلة الإيمان، لأن الحاسد - في الحقيقة - يرى نفسه أعجز وأقل من أن يبلغ ما بلغه المحسود من المكانة أو أعلى من ذلك، ولهذا يسعى الحاسد إلى أن يرجع المحسود إلى الوراء، هذا مضافاً إلى أنه بعمله يعترض على حكمة الله سبحانه واهب جميع النعم وجميع المواهب، وعلى إعطائه سبحانه النعم إلى من تفضل بها عليه من الناس، ولهذا جاء في الحديث الشريف عن الإمام الصادق عليه السلام «الحسد أصله من عمى القلب والجهود لفضل الله تعالى، وهما جناحان للكفر، وبالحسد وقع ابن آدم في حسرة الأبد، وهلك مهلكاً لا ينجو منه أبداً»^(١).

فهذا هو القرآن الكريم يصرّح بأن أول جريمة قتل ارتكبت في الأرض كان منشؤها الحسد^(٢).

وجاء في نهج البلاغة عن الإمام علي عليه السلام أنه قال: «إن الحسد يأكل الإيمان كما تأكل النار الحطب»^(٣) وذلك لأن الحاسد يزداد سوء ظنه بالله وبحكمته وعدالته شيئاً فشيئاً، وهذا الأمر يؤدي به إلى الخروج عن جادة الإيمان.

إن آثار الحسد وأضراره المادية والمعنوية وتبعاته الفردية والاجتماعية كثيرة جداً، وما ذكرناه إنما هو في الحقيقة جدول سريع عن بعض هذه الآثار والمضار.



١- مستدرك الوسائل، ج ٢، ص ٣٢٧.

٢- المائدة، ٢٧.

٣- نهج البلاغة، الخطبة ٨٤.

الآيتان

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصَلِّيهِمْ نَاراً كُلَّمَا نَضِجَتْ
جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ
عَزِيزاً حَكِيماً ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً
لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾

التفسير

تعبيراً على الآيات السابقة شرحت هاتان الآيتان مصير المؤمنين
والكافرين.

فآية الأولى تقول: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصَلِّيهِمْ^(١) نَاراً كُلَّمَا
نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ
عَزِيزاً حَكِيماً».

وعلة تبديل الجلود - على الظاهر - هي أنه عندما تنضج الجلود يخف
الإحساس بالألم لدى الإنسان، ولكي لا تتخفف عقوبتها وعذابها وليحس

١ - «نصليهم» من مادة «الصلى» بمعنى الإلقاء في النار، والإشتواء بالنار، أو التدفؤ بالنار، و«نضجت» من مادة
«نضج» بمعنى أدركت شبهها، وصارت مشوية.

الإنسان بالألم إحساساً كاملاً، تبدل الجلود، وتأتي مكان الجلود الناضجة جلود جديدة، وما هذا إلا نتيجة الإصرار على تجاهل الأوامر الإلهية، ومخالفة الحق والعدل، والإعراض عن طاعة الله.

ثم يقول سبحانه في ختام الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزاً حَكِيماً﴾ أي أنه قادر بعزته أن يوقع هذه العقوبات بالعصاة، وأنه لا يفعل ذلك اعتباطاً، بل عن حكمة وعلى أساس الجزاء على المعصية.

ثم يقول سبحانه في الآية الثانية: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً لَمْ يَكُنْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾^(١).

أي أننا نعد المؤمنين الذين يعملون الصالحات بأن ندخلهم جنات تجري من تحت أشجارها الأنهار والسواقي يعيشون فيها حياة خالدة، هذا مضافاً إلى ما يعطون من أزواج مطهّرات يسير يحون إليهن، ويجدون في كنفهن لذة الروح والجسد، وينعمون تحت ظلال خالدة بدل الظلال الزائلة، لا تؤذيهم الرياح اللافتحة كما لا يؤذيهم الزمهرير أبداً.

بحث عن الآية:

من الأمور الجديرة بالاهتمام والمستفادة من المقايسة بين هاتين الآيتين هو عموم الرحمة الإلهية وسبق رحمته على غضبه، لأن في الآية الأولى ذكرت عقوبة الكفار مبدوءة بكلمة «سوف» في حين بدأ الوعد الإلهي للمؤمنين بـ «السين» «سندخلهم»، ومن المعلوم استعمال سوف في اللغة العربية في المستقبل البعيد، واستعمال السين في المستقبل القريب، مع أننا نرى أن كلتا الآيتين

١ - «الظليل» من مادة «الظل» بمعنى اتني، واستعمل هنا للتأكيد، لأن معناه الظل المظلل أو الظل الظليل وهو كناية عن غاية الراحة والدعة والرفاه.

ترتبطان بالعالم الآخر، وجزاء المؤمنين وعقوبة الكافرين في ذلك العالم - من الناحية الفاصلة الزمانية - بالنسبة إلينا سواء.

فيكون الاختلاف والتفاوت بين التعبيرين للإشارة إلى سرعة وسعة الرحمة الإلهية، وبعد ومحدودية الغضب الإلهي، وهو يشابه نفس العبارة التي نردها في الأدعية وهي: «يا من سبقت رحمته غضبه».

سؤال:

من الممكن أن يعترض معترض هنا قائلاً بأن الآية الحاضرة تقول: إِنَّا كَلَّمَا نَضَجَتْ جُلُودَ الْعَصَاةِ الْكُفْرَةَ بَدَلْنَاَهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعُقُوبَةَ الْإِلَهِيَّةَ، فِي حِينِ أَنَّ الْجُلُودَ الْعَاصِيَةَ هِيَ الْجُلُودَ الْأَصْلِيَّةَ، فَيَكُونُ تَعْذِيبُ الْجُلُودِ الْجَدِيدَةِ مَخَالَفًا لِلْعَدْلِ الْإِلَهِيِّ، فَكَيْفَ ذَلِكَ؟

جواب:

لقد طرح هذا السؤال بعينه من قبل ابن أبي العوجاء الرجل المادي المعروف على الإمام الصادق عليه السلام حيث قال بعد تلاوة هذه الآية «وما ذنب الغير؟» يعني ما ذنب الجلود الجديدة؟ فردَّ الإمام على هذا السؤال بجواب مختصر في غاية العمق حيث قال: «هي هي وهي غيرها» يعني أنَّ الجلود الجديدة هي نفس الجلود السابقة في حين أنَّها غيرها.

فقال ابن أبي العوجاء الذي كان يعلم أنَّ في هذه العبارة القصيرة سرّاً: مثل لي في ذلك شيئاً من أمر الدنيا.

فقال الإمام عليه السلام: «أرأيت لو أنَّ رجلاً أخذ لينة فكسرها، ثم ردها في ملبنها، فهي هي، وهي غيرها»^(١).

ويستفاد من هذه الرواية أنَّ الجلود الجديدة تتألف من نفس عناصر الجلود القديمة، أي أنَّ العناصر هي ذات العناصر وإن اختلف التركيب.

١ - مجالس، للشيخ الطوسي عليه السلام، والإحتجاج، للطبرسي عليه السلام.

ثمَّ إِنَّهُ لَابَدٌ الْإِلْتِفَاتِ إِلَى أَنْ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ يَرْتَبِطَانِ - فِي الْحَقِيقَةِ - بِرُوحِ
الْإِنْسَانِ وَقُوَّةِ إِدْرَاكِهِ، وَالْجِسْمِ - دَائِمًا - وَسِيلَةً لِإِنْتِقَالِ الثَّوَابِ وَالْعَذَابِ إِلَى رُوحِ
الْإِنْسَانِ.



الآية

إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ
النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ
سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾

سبب النزول

وروي في تفسير مجمع البيان وتفسير إسلامية أخرى إن هذه الآية نزلت عندما دخل رسول الله ﷺ مكة المكرمة منتصراً فاتحاً، فاستحضر عثمان بن طلحة وكان سادن الكعبة فطلب منه مفتاح الكعبة المعظمة، ليطهرها من الأصنام والأوثان الموضوععة فيها، فلما فرغ النبي ﷺ من ذلك سأله العباس أن يعطيه المفتاح ليجمع له بين منصب السقاية ومنصب السدانة الذي له في العرب شان وشاؤ مجيد (والظاهر أن العباس أراد أن يستفيد من نفوذ ومكانة ابن أخيه الإجتماعية والسياسية لمصلحته الشخصية)، ولكن النبي ﷺ فعل خلاف ذلك، فإنه بعد ما طهر الكعبة من الأصنام والأوثان، أمر علياً عليه السلام أن يردّ المفتاح إلى «عثمان بن طلحة» ففعل ذلك وهو يتلو الآية الحاضرة: «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا...»^(١).

١- ذهب بعض المفسرين إلى أن الآية الحاضرة قبل فتح مكة، وأن ما ذكر في سبب النزول ليس بصحيح، ولكن ما

التفسير

قانونان إسلاميان مهمان:

الآية الحاضرة وإن نزلت - كالكثير من الآيات - في مورد خاص، إلا أن من البديهي أنها تتضمن حكماً عاماً وشاملاً للجميع، فهي تقول بصراحة: «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا».

ومن الواضح أن للأمانة معنىً وسيعاً يشمل كل شيء مادي ومعنوي، ويجب على كل مسلم - بصريح هذه الآية - أن لا يخون أحداً في أية أمانة دون استثناء، سواء كان صاحب الأمانة مسلماً أو غير مسلم، وهذا هو في الواقع إحدى المواد في «الميثاق الإسلامي لحقوق الإنسان» التي يتساوى تجاهها كل أفراد البشر. والجدير بالذكر أن الأمانة المذكورة في سبب النزول لم تكن مجرد أمانة مادية، ومن جانب آخر كان صاحبها المؤدى إليه تلك الأمانة مشركاً.

ثم إنه سبحانه يشير - في القسم الثاني من الآية - إلى قانون مهم آخر، وهو مسألة «العدالة في الحكومة» فيقول: «وَإِذَا حُكِمَ بَيْنَ النَّاسِ فَاحْكُمُوا بِالْعَدْلِ» أي إن الله يوصيكم أيضاً أن تلتزموا جانب العدالة في القضاء والحكم بين الناس، فتحكموا بعدل.

ثم قال سبحانه تأكيداً لهذين التعليمين: «إِنَّ اللَّهَ نَعَمًا يُعْظِمُكُمْ بِهِ».

ثم يقول مؤكداً ذلك أيضاً: «إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا» فهو يراقب أعمالكم وهو يسمع أحاديثكم ويرى أفعالكم.

إن هذا القانون هو الآخر قانون كلي وعمام، ويشمل كل نوع من القضاء والحكومة، سواء في الأمور الكبيرة والأمور الصغيرة، إلى درجة أننا نقرأ في الأحاديث الإسلامية أن صيين ترافعا إلى الإمام الحسن بن علي في خط كتيابه وحكماءه في ذلك ليحكم أي الخطين أجود. فبصر به علي عليه السلام فقال: «يا بني أنظر

كيف تحكم فإن هذا حكم والله سائلك عنه يوم القيامة»^(١).

إن هذين القانونين المهمين (حفظ الأمانة، والعدالة في الحكم والحكومة) يمثلان قاعدة المجتمع الإنساني السليم، ولا يستقيم أمر مجتمع، سواء أكان مادياً أو إلهياً من دون تنفيذ وإجراء هذين الأصلين.

فالأصل الأول يقول: إن الأموال والثروات والمناصب والمسؤوليات والمهام والرساميل الإنسانية والثقافات والتراث والمخلفات التاريخية، كلها أمانات إلهية سلمت بأيدي أشخاص مختلفين في المجتمع، والجميع مكلفون أن يحفظوا هذه الأمانات، ويجتهدوا في تسليمها إلى أصحابها الأصليين، ولا يخونوا فيها أبداً.

ومن جهة أخرى حيث إن الاجتماعات تلازم التصادمات والإحتكاكات في المصالح والمنافع، ولهذا يتطلب الحل والفصل على أساس من الحكومة العادلة والقضاء العادل حتى يزول وينمحي كل أنواع التمييز الظالم من الحياة الاجتماعية.

وكما أسلفنا فإن الأمانة لا تنحصر في الأموال التي يودعها الناس - بعضهم عند بعض - بل العلماء في المجتمع هم أيضاً مستأمنون يجب عليهم أن لا يكتنوا الحقائق، بل حتى أبناء الإنسان وأولاده أمانات إلهية لدئ الآباء والأمهات فلا يفرطوا في تربيتهن، ولا يقصروا في تأديبهن وتعليمهن، وإلا كان ذلك خيانة في الأمانة الإلهية التي أمر الله بأدائها، بل وفوق ذلك كله الوجود الإنساني، فهو وجميع الطاقات المودوعة فيه «أمانات الله» التي يجب على الإنسان أن يجتهد في المحافظة عليها، كما عليه أن يحافظ على صحة جسمه وسلامة روحه، ويحافظ على طاقة الشباب الفياضة، وفكره، ولا يفرط فيها، ولهذا لا يجوز له أن ينتحر أو يلحق الضرر بنفسه، حتى أنه يستفاد من بعض الأحايث والنصوص

الإسلامية إنّ علوم الإمامة وأسرارها وودائعها التي يسلمها كل إمام إلى الإمام الذي بعده داخلته في هذه الآية أيضاً^(١).

والجدير بالذكر، إنّ مسألة «أداء الأمانة» قدمت في هذه الآية على مسألة «العدالة»، ولعلّ ذلك لأجل أنّ مسألة العدل في القضاء والحكم مترتبة دائماً على الخيانة، لأنّ الأصل هو أن أمناء بالأصالة، فإذا انحرف شخص أو أشخاص عن هذا الأصل وصل الدور إلى العدالة لتوفّقه على مسؤولياتهم وتعرفهم بوظائفهم.

* * *

أهميّة الأمانة والعدل في الإسلام:

لقد ورد تأكيد كبير على هذه المسألة في المصادر الإسلامية إلى درجة أننا قلّما نجد مثله في مورد غيره من الأحكام والمسائل، والأحاديث القصيرة التالية توضح هذه الحقيقة:

١- عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال:

«لا تنظروا إلى طول ركوع الرجل وسجوده فإنّ ذلك شيء اعتاده فلو تركه استوحش، ولكن انظروا إلى صدق حديثه وأداء أمانته»^(٢).

٢- جاء في حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال:

«إنّ عليّاً إنّما بلغ ما بلغ به عند رسول الله صلى الله عليه وآله بصدق الحديث وأداء الأمانة»^(٣).

٣- روي في حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام أيضاً قال لأحد أصحابه:

«أعلم أنّ ضارب علي بالسيف وقاتله لو اتّمني واستنصحتني واستشارني ثمّ

قبلت ذلك منه لأديت إليه الأمانة»^(٤).

١- نور الثقلين، ج ١، ص ٤٩٦.

٢- نور الثقلين، ج ١، ص ٤٩٦.

٣- المصدر السابق.

٤- المصدر السابق.

٤- وفي روايات مروية في مصادر الشيعة والسنة عن النبي الأكرم ﷺ نلاحظ هذا الحديث الساطع:

«آية المنافق ثلاث: إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أئتمن خان»^(١).

٥- قال رسول الله ﷺ لعلي عليه السلام:

«سوي بين أخصمين في لحظك ولفظك»^(٢).



١- صحيح الترمذي والنسائي بناء على نقل المنار وقد ورد نفس هذا المضمون في سفينة البحار أيضاً.

٢- مجمع البيان، ج ٣، ص ٦٤.

الآية

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي
الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَزُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن
كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٦﴾

التفسير

هذه الآية وبعض الآيات اللاحقة تبحث عن واحدة من أهم المسائل الإسلامية، ألا وهي مسألة القيادة، وتعيين القادة والمراجع الحقيقيين للمسلمين في مختلف المسائل الدينية والاجتماعية.

فهي تأمر المؤمنين - أولاً - بأن يطيعوا الله، ومن البديهي أنه يجب أن تنتهي جميع الطاعات - عند الفرد المؤمن - إلى طاعة الله سبحانه، وكل قيادة رولاية يجب أن تتبع من ولاية الله سبحانه وذاته المقدسة تعالى وتكون حسب أمره ومشيبته، لأنه الحاكم والمالك التكويني لهذا العالم، وكل حاكمية ومالكية يجب أن تكون بإذنه وبأمره: «يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله».

وفي المرحلة الثانية تأمر باتباع النبي ﷺ وإطاعته، وهو النبي المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى ولا ينطق من الهوس، والنبي الذي هو خليفة الله بين الناس، وكلامه كلام الله، وقد أعطي هذا المقام من جانب الله سبحانه، ولهذا تكون

إطاعة الله مما تقتضيه خالقيته وحاكمية ذاته المقدسة، ولكن إطاعة النبي وأتباع أمره ناشيء من أمر الله. وبعبارة أخرى فإن الله واجب الإطاعة بالذات والنبي ﷺ واجب الإطاعة بالعرض، ولعل تكرار «أطيعوا» في هذه الآية للإشارة إلى مثل هذا الفرق بين الطاعتين «وأطيعوا الرسول».

وفي المرحلة الثانية يأمر سبحانه بإطاعة أولي الأمر القائمين من صلب المجتمع الإسلامي، والذين يحفظون للناس أمر دينهم ودنياهم.

من هم أولوا الأمر؟

ثمة كلام كثير بين المفسرين في المقصود من أولي الأمر في هذه الآية، ويمكن تلخيص أوجه النظر في هذا المجال في مايلي:

١ - ذهب جماعة من المفسري أهل السنة إلى أن المراد من «أولي الأمر» هم الأمراء والحكام في كل زمان ومكان، ولم يستثن من هؤلاء أحداً، فتكون نتيجة هذا الرأي هي: إن على المسلمين أن يطيعوا كل حكومة وسلطة مهما كان شكلها حتى إذا كانت حكومة المغول، ودولتهم الجائرة.

٢ - ذهب البعض من المفسرين - مثل صاحب تفسير المنار وصاحب تفسير في ظلال القرآن وآخرون - إلى أن المراد من «أولي الأمر» ممثلو كافة طبقات الأمة، من الحكام والقادة والعلماء وأصحاب المناصب في شتى مجالات حياة الناس، ولكن لا تجب طاعة هؤلاء بشكل مطلق وبدون قيد أو شرط، بل هي مشروطة بأن لا تكون علي خلاف الأحكام والمقررات الإسلامية.

٣ - ذهبت جماعة أخرى إلى أن المراد من «أولي الأمر» هم القادة المعنويون والفكريون، أي العلماء والمفكرون العدول العارفون بمحتويات الكتاب والسنة معرفة كاملة.

٤ - وذهب بعض مفسري أهل السنة إلى أن المراد من هذه الكلمة هم

«الخلفاء الأربعة» الذين شغلوا دست الخلافة بعد رسول الله خاصة ولا تشمل غيرهم، وعلى هذا لا يكون لأولي الأمر أي وجود خارجي في الأعصر الأخرى.

٥- يفسر بعض المفسرين «أولي الأمر» بصحابة الرسول الأكرم ﷺ.

٦- هناك احتمال آخر يقول - في تفسير أولي الأمر - إن المراد منه هم القادة العسكريون المسلمون، وأمراء الجيش والسرايا.

٧- ذهب كل مفسري الشيعة بالإتفاق إلى أن المراد من «أولي الأمر» هم الأئمة المعصومون عليهم السلام الذين أنيطت إليهم قيادة الأمة الإسلامية المادية والمعنوية في جميع حقول الحياة من جانب الله سبحانه والنبي الأكرم ﷺ، ولا تشمل غيرهم، اللهم إلا الذي يتقلد منصباً من قبلهم، ويتولى أمراً في إدارة المجتمع الإسلامي من جانبهم - فإنه يجب طاعته أيضاً إذا توفرت فيه شروط معينة، ولا تجب طاعته لكونه من أولي الأمر، بل لكونه نائباً لأولي الأمر ووكيلاً من قبلهم.

والآن لنستعرض التفاسير المذكورة أعلاه باختصار:

لا شك أن التفسير الأول لا يناسب مفهوم الآية وروح التعاليم الإسلامية بحال، إذ لا يمكن أن تقترن طاعة كل حكومة - مهما كانت طبيعتها - ومن دون قيد أو شرط بإطاعة الله والنبي، ولهذا تصدى كبار علماء السنة لنفي هذا الرأي والتفسير مضافاً إلى علماء الشيعة.

وكذا التفسير الثاني: فإنه لا يناسب إطلاق الآية الشريفة، لأن الآية توجب إطاعة أولي الأمر من دون قيد أو شرط.

وهكذا التفسير الثالث، يعني تفسير «أولي الأمر» بالعلماء والعدول والعارفين بالكتاب والسنة، فهو لا يناسب إطلاق الآية، لأن لإطاعة العلماء وإتباعهم شروطاً من جملتها أن لا يكون كلامهم على خلاف الكتاب والسنة، وعلى هذا لو ارتكبوا خطأ (لكونهم عرضة للخطأ وغير معصومين) أو انحرفوا

عن جادة الحق لأي سبب آخر لم تجب طاعتهم، في حين توجب الآية الحاضرة إطاعة أولي الأمر بنحو مطلق كإطاعة النبي ﷺ، هذا مضافاً إلى أن إطاعة العلماء إنما هي في الأحكام التي يستفيدونها من الكتاب والسنة، وعلى هذا لا تكون إطاعتهم شيئاً غير إطاعة الله وإطاعة النبي ﷺ، فلا حاجة إلى ذكرها بصورة مستقلة.

وأما التفسير الرابع (وهو حصر عنوان أولي الأمر بالخلفاء الأربعة الأوائل) فمؤداه عدم وجود مصداق لأولي الأمر بين المسلمين في هذا الزمان هذا مضافاً إلى عدم وجود دليل على مثل هذا التخصيص.

والتفسير الخامس والسادس: يعينان تخصيص هذا العنوان بالصحابة أو القادة العسكريين المسلمين، ويرد عليها نفس الإشكال الوارد على التفسير الرابع، يعني أنه لا يوجد أي دليل على مثل هذا التخصيص أيضاً.

وقد أراد جماعة من مفسري السنة مثل «محمد عبده» العالم المصري المعروف - تبعاً لبعض ما قاله المفسر المعروف الفخر الرازي - أن يقبل بالإحتمال الثاني (القاضي بأن أولي الأمر هم ممثلو مختلف طبقات المجتمع الإسلامي من العلماء والحكام وغير هؤلاء من طبقات وفئات المجتمع الإسلامي) مشروطاً ببعض الشروط ومقيداً ببعض القيود، مثل أن يكونوا مسلمين (كما يستفاد من كلمة «منكم» في الآية) وأن لا يكون حكمهم على خلاف الكتاب والسنة، وأن يحكموا عن اختيار لا جبر ولا قهر، وأن يحكموا وفق مصالح المسلمين، وأن يتحدثوا في مسائل يحق لهم التدخل فيها (لا مثل العبادات التي لها قوانين وأحكام ثابتة في الإسلام) وأن لا يكون قد ورد في الحكم الذي أصدره نص خاص من الشرع، وأن يكونوا - فوق كل هذا - متفقين في الرأي والحكم.

وحيث إن هؤلاء يعتقدون أن مجموع الأمة أو مجموع مثلها لا تخطأ ولا تجتمع على خطأ، - وبعبارة أخرى - أن مجموع الأمة معصومة (أو أن الأمة

بوصفها معصومة) تكون نتيجة هذه الشروط وجوب إطاعة مثل هذا الحكم بشكل مطلق ومن دون قيد أو شرط تماماً مثل إطاعة النبي ﷺ (ومؤدى هذا الكلام هو حجّية الإجماع). ولكن ترد على هذا التفسير أيضاً إشكالات واعتراضات عديدة وهي:

أولاً: إنّ الإتفاق في الرأي في المسائل الاجتماعية قلماً يتفق وقلماً يتحقق، وعلى هذا فإن هذا الرأي يستلزم وجود حالة من الفوضى والإنتظام في أغلب شؤون المسلمين وبصورة دائمة.

وأما إذا أراد هؤلاء قبول رأي الأكثرية فيرد عليه: إنّ الأكثرية لا تكون معصومة أبداً، ولهذا لا تجب إطاعتها بنحو مطلق.

ثانياً: لقد ثبت في علم الأصول، أنّه ليس هناك أي دليل على عصمة مجموع الأمة من دون وجود الإمام المعصوم بينهم.

ثالثاً: إنّ أحد الشرائط التي يذكرها أنصار هذا التفسير هو أن لا يكون حكم هؤلاء «أي أولوا الأمر» على خلاف الكتاب والسنة، فيجب حينئذ أن نرى من الذي يشخص أن هذا الحكم مخالف للكتاب والسنة أو لا، لا شك أن ذلك من مسؤولية المجتهدين والفقهاء العارفين بالكتاب والسنة، ويعني هذا إنّ إطاعة أولي الأمر لا يجوز بدون إجازة المجتهدين والعلماء، بل تلزم أن تكون إطاعة العلماء أعلى من إطاعة أولي الأمر، وهذا لا يناسب ولا يوافق ظاهر الآية الشريفة.

صحيح أن هؤلاء اعتبروا العلماء جزءً من أولي الأمر «ولكن الحقيقة أن العلماء والمجتهدين - وفق هذا التفسير - اعترف بهم على أنّهم المراقبون والمراجع العليا من بقية ممثلي مختلف فئات الأمة، لا أنّهم في مستوى بقية الممثلين المذكورين، لأنّ على العلماء والفقهاء أن يشرفوا على أعمال الآخرين ويشخصوا موافقتها للكتاب والسنة، وبهذا يكون العلماء مراجع عليا لهم، وهذا لا

يناسب التفسير المذكور ولا يوافق.

وعلى هذا الأساس يواجه التفسير الحاضر (أي الثاني) إشكالات ومآخذ من وجهات عديدة.

فيبقى تفسير واحد سليماً من جميع الاعتراضات السابقة وهو التفسير السابع: (وهو تفسير أولي الأمر بالأئمة المعصومين عليهم السلام لموافقة هذا التفسير لإطلاق وجوب الإطاعة المستفاد من الآية المبحوثة هنا، لأن مقام «العصمة» يحفظ الإمام من كل معصية ويصونه عن كل خطأ، وبهذا الطريق يكون أمره - مثل أمر الرسول - واجب الإطاعة من دون قيد أو شرط، وينبغي أن يوضع في مستوى إطاعته عليه السلام، بل وإلى درجة أنها تعطف على إطاعة الرسول من دون تكرار «أطيعوا».

والجدير بالانتباه إلى أن بعض العلماء المعروفين من أهل السنة، ومنهم المفسر المعروف والفخر الرازي اعترف بهذه الحقيقة في مطلع حديثه عند تفسير هذه الآية حيث قال: «إن الله تعالى أمر بطاعة أولي الأمر على سبيل الجزم في هذه الآية، ومن أمر الله بإطاعته على سبيل الجزم والقطع لا بد أن يكون معصوماً عن الخطأ، إذ لو لم يكن معصوماً عن الخطأ كان بتقدير إقدامه على الخطأ قد أمر الله بمتابعته، فيكون ذلك أمراً بفعل ذلك الخطأ، والخطأ لكونه خطأ منهياً عنه، فهذا يفضي إلى اجتماع الأمر والنهي في الفعل الواحد، فثبت أن الله تعالى أمر بطاعة أولي الأمر على سبيل الجزم، وثبت إن كل من أمر الله بطاعته على سبيل الجزم وجب أن يكون معصوماً عن الخطأ».

وأضاف قائلاً: «ذلك المعصوم إما مجموع الأمة أو بعض الأمة، ولا يجوز أن يكون بعض الأمة لأن إيجاب طاعتهم قطعاً مشروط بكوننا عارفين بهم، ونحن عاجزون عن الوصول إليهم، وإذا كان الأمر كذلك علمنا أن المعصوم الذي أمر الله المؤمنين بطاعته ليس بعضاً من أبعاض الأمة، ولنا بطل هذا وجب أن يكون ذلك

المعصوم الذي هو المراد بقوله: «وأولي الأمر» هم أهل الحل والعقد ومن الأمة (أي الأمة كلها وذلك يوجب القطع بأن إجماع الأمة حجة^(١)).

وهكذا نرى الفخر الرازي مع ما نعهد منه من كثيرة الإشكال في مختلف المسائل العلمية، قد قبل دلالة هذه الآية على أن أولي الأمر يجب أن يكونوا معصومين، غاية ما في الأمر حيث أنه لم يكن عارفاً بمذهب أهل البيت النبوي ﷺ وأئمة هذا المذهب تجاهل احتمال أن يكون «أولي الأمر» أشخاصاً معينين من الأمة، فاضطر إلى تفسير «أولي الأمر» بمجموع الأمة (أو ممثلي عموم فئات الأمة)، في حين أن هذا الاحتمال لا يمكن القبول به، لأن أولي الأمر - كما قلنا في ما سبق - يجب أن يكونوا قادة المجتمع الإسلامي، وتمّ الحكومة الإسلامية والحكم بين المسلمين بهم، ونعلم أنه لا يمكن لا في الحكومة الجماعية (المتألّفة من مجموعة الأمة) بل ولا من ممثلي فئاتها أن يتحقق إجتماع واتفاق في الرأي مطلقاً، لأنّ الحصول على إجماع من جانب الأمة جميعاً أو من جانب ممثليها في مختلف المسائل الإجتماعية والسياسية والثقافية والخلقية والإقتصادية، لا يتيسر ولا يتحقق في الأغلب، كما أن إتباع الأكثرية - كذلك - لا يعد إتباعاً لأولي الأمر، ولهذا يلزم من كلام الرازي ومن تبعه من العلماء المعاصرين أن تتعطل مسألة إطاعة «أولي الأمر»، أو تصير مسألة نادرة واستثنائية جداً....

ومن كل ما قلناه نستنتج أن الآية الشريفة تثبت قيادة وولاية الأئمة المعصومين الذين يشكلون نخبة من الأمة الإسلامية (تأمل).

أجوبة على أسئلة:

ثم إن هناك اعتراضات وما أخذ على هذا التفسير (السابع) يجدر طرحها هنا

١- التفسير الكبير للفخر الرازي، ج ١٠، ص ١٢٢، طبعة مصر، عام ١٣٥٧.

بتجرّد وموضوعية:

١- إذا كان المراد من «أولي الأمر» هم الأئمة المعصومون، فإنّ ذلك لا يناسب مع كلمة «أولي» التي هي بصيغة الجمع، لأنّ الإمام المعصوم في كل عصر، شخص واحد لا أكثر.

والجواب على هذا السؤال: أنّ الإمام المعصوم وإن كان في كل عصر شخصاً واحداً لا أكثر، إلا أنّ الأئمة المتعددين في الأعصر المختلفة يشكلون جماعة، ونحن نعلم أنّ الآية لا تحدد وظيفة الناس في عصر واحد.

٢- إنّ أولي الأمر - بهذا المعنى - لم يكونوا في عصر النبي ﷺ فكيف أمر القرآن الكريم بإطاعتهم؟

إنّ الجواب على هذا السؤال يتّضح أيضاً من الكلام السابق، لأنّ الآية لا تنحصر (أو لا تعني) زماناً خاصاً، بل توضح وتبين وظيفة المسلمين وواجبهم في جميع العصور والقرون.

وبعبارة أخرى، يمكن أن نقول أن أولي الأمر في زمان النبي ﷺ كان شخص النبي بالذات، لأنّ النبي ﷺ كان له منصبان منصب «الرسالة» الذي أشير إليه في الآية المذكورة تحت عنوان «أطيعوا الرسول» والآخر منصب «قيادة الأمة الإسلامية» الذي ذكره القرآن الكريم تحت عنوان «أولي الأمر».

وعلى هذا يكون القائد وولي الأمر المعصوم في عهد النبي هو النبي ﷺ، فهو مضافاً إلى ما له من منصب الرسالة وإبلاغ الأحكام الإسلامية، له منصب قيادة الأمة وولاية أمرها، ولعل عدم تكرار جملة (وأطيعوا) بين (الرسول) و«أولي الأمر» لا يخلوا عن الإشارة إلى هذه النقطة.

وبعبارة أخرى إن منصب «الرسالة» ومنصب «أولي الأمر» منصبان مختلفان اجتماعاً في شخص رسول الله ﷺ، ولكن المنصب الثاني فقط يتوفر في كل إمام على حدة، فلإمام منصب اولي الأمر فقط.

٣- إذا كان المقصود من «أولي الأمر» هم الأئمة المعصومون، فلماذا أشار سبحانه في ذيل الآية إلى مسألة التنازع والإختلاف بين المسلمين إذ قال: «فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرّسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً» فإننا لا نشاهد هنا أي حديث عن «أولي الأمر» بل أشير إلى الله تعالى (كتاب الله - القرآن) والنبي (السنة) كمرجع يجب أن يرجع إليه المسلمون عند الإختلاف والتنازع.

في الإجابة على هذا الإشكال يجب أن نقول:

أولاً: إن هذا الإشكال لا يختص بالتفسير الشيعي لهذه الآية، بل يردّ على بقية التفاسير أيضاً، إذا أمعنا النظر قليلاً.

وثانياً: لا شك أنّ المراد من الإختلاف والتنازع في العبارة الحاضرة هو الإختلاف والتنازع في الأحكام، لا في المسائل المتعلقة بجزئيات الحكومة والقيادة الإسلامية، لأنّه في هذه المسائل يجب إطاعة أولي الأمر (كما صرح بذلك في الجملة الأولى من الآية المبحوثة هنا).

وعلى هذا فالمراد من الإختلاف هو الإختلاف في الأحكام والقوانين الكلية الإسلامية التي يعود أمر تشريعها إلى الله سبحانه ونبيه ﷺ، لأننا نعلم أنّ الإمام مجرد منفذ للأحكام الإلهية وليس مشرعاً، ولا ناسخاً لشيء من تلك الأحكام، وإنّما عليه فقط أن يطبق الأحكام والأوامر الإلهية والسنة النبوية في حياة الأمة، ولهذا جاء في أحاديث أهل البيت ﷺ إنهم قالوا: «إذا بلغكم عنّا ما يخالف كتاب الله وسنة نبيه فاضربوه عرض الحائط ولا تقلوه» أي يستحيل أن نقول ما يخالف كتاب الله وسنة نبيه ﷺ.

وعلى هذا فإنّ أوّل مرجع يرجع إليه المسلمون لحلّ خلافاتهم في الأحكام الإسلامية هو الله سبحانه والنبي الأكرم ﷺ الذي يوحى إليه، وإذا ما بين الأئمة المعصومون أحكاماً، فإنّ تلك الأحكام ليست سوى اقتباس من كتاب الله، أو هي

من العلوم التي وصلت إليهم من النبي الأكرم ﷺ، وبهذا تتضح علّة عدم ذكر أولي الأمر إلى جانب المرجع في حلّ الإختلاف في الأحكام المذكورة في هذا الجزء من الآية^(١).

شهادة الأحاديث:

هذا وقد وردت في المصادر الإسلامية أيضاً أحاديث تؤيد تفسير «أولي الأمر» بأئمة أهل البيت ﷺ منها:

١- ما كتبه المفسر الإسلامي المعروف أبو حيان الأندلسي المغربي (المتوفي عام ٧٥٦) في تفسيره البحر المحيط: من أنّ هذه الآية نزلت في حقّ عليّ ﷺ وأهل بيته^(٢).

٢- روى العالم السني أبوبكر بن مؤمن الشيرازي في رسالة الإعتقاد (حسب نقل الكاشي في المناقب) عن ابن عباس أنّ الآية الحاضرة نزلت في عليّ ﷺ عند ما خلفه رسول الله ﷺ في المدينة (في غزوة تبوك) فقال عليّ ﷺ: يا رسول الله تخلفني مع النساء والصبيان؟ فقال له رسول الله ﷺ:

«أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى حين قال أخلفني في قومي وأصلح فقال عز وجل: «وأولي الأمر منكم»^(٣).

٣- وروى الشيخ سليمان الحنفي القندوزي وهو من أعلام أهل السنة المشهورين في كتابه «ينابيع المودة» من كتاب «المناقب» عن «سليم بن قيس

١- وإذا رأينا سبحانه يرجع الأمة في حلّ بعض إختلافاتها إلى أولي الأمر في الآية (٨٣) من هذه السورة فالمراد منه ليس هو الإختلاف في الأحكام والقوانين الإسلامية الكلية، بل هو - كما سيأتي في تفسير هذه الآية - الإختلاف في المسائل المتعلقة بطريقة تطبيق الأحكام الإسلامية، وسيأتي شرح مفصل في هذا المجال عند تفسير الآية بإذن الله.

٢- البحر المحيط، ج ٣، طبعة مصر، ص ٢٢٥.

٣- إحقاق الحق، ج ٣، ص ٢٢٥.

الهلالي» قال سمعت علياً صلوات الله عليه يقول: أتاه، رجل فقال أرني أدنى ما يكون به العبد مؤمناً، وأدنى ما يكون به العبد كافراً، وأدنى ما يكون به العبد ضالاً فقال: قد سألت فافهم الجواب ... وأما أدنى ما يكون العبد به ضالاً أن لا يعرف حجة الله تبارك وتعالى وشاهده على عباده الذي أمر الله عز وجل عباده بطاعته وفرض ولايته. قلت: يا أمير المؤمنين. صفهم لي. قال: الذين قرنهم الله تعالى: بنفسه وبنبيته فقال: «يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم».

فقلت له: جعلني الله فداك أوضح لي؟ فقال: الذين قال رسول الله ﷺ في مواضع وفي آخر خطبة يوم قبضه الله عز وجل إليه: «إني تركت فيكم أمرين لن تضلوا بعدي إن تمسكتم بهما: كتاب الله عز وجل وعترتي أهل بيتي»^(١).

٤ - وكذلك كتب نفس العالم في كتاب «ينابيع المودة»: وفي المناقب في تفسير مجاهد: إن هذه الآية نزلت في أمير المؤمنين علي عليه السلام^(٢).

٥ - رويت أحاديث كثيرة في مصادر الشيعة مثل كتاب الكافي وتفسير العياشي وكتب الصدوق ومصنفاته وغيرها تشهد جميعها بأن المراد من «أولي الأمر» هم الأئمة المعصومون، حتى أن بعضها ذكرت أسماء الأئمة عليهم السلام واحداً واحداً^(٣).



١- ينابيع المودة طبعة النجف الأشرف (الطبعة السابعة ص ١٣٤-١٣٧).

٢- ينابيع المودة النجف، ص ١٣٤.

٣- راجع تفسير البرهان، ج ١، تفسير الآية.

الآية

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَمَا نُزِّلَ
مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ
يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٥٠﴾

سبب النزول

كان بين رجل من اليهود ورجل من المسلمين المنافقين خصومة واختلاف،
فعزما على أن يحتكما إلى شخص، وحيث كان اليهودي يعرف بعدل النبي
وحياده ولأنه علم أنه لا يأخذ الرشوة ولا يجور في الحكم قال: أحاكم إلى
محمد، ولكن المنافق قال: لا، بل بيني وبينك كعب بن الأشرف، (لأنه يأخذ
الرشوة وهو من أقطاب اليهود)، وبذلك رفض التحاكم إلى رسول الإسلام ﷺ،
فنزلت الآية توبخ أمثال هذا الشخص، وتشجب بشدة موقفهم المشين هذا^(١).

وقد ذكر بعض المفسرين أسباباً أخرى لنزول هذه الآية تشهد بأن بعض
المسلمين الحديثي العهد بالإسلام كانوا - على عاداتهم في الجاهلية - يحتكمون
- في مطلع الإسلام - إلى علماء اليهود أو الكهنة، فنزلت الآية الحاضرة تنهى عن

١ - تفسير مجمع البيان، نقل هذا السبب عن أكثر المفسرين.

هذه العادة المقيتة بشدة^(١).

التفسير

حكومة الطّاعوت:

الآية الحاضرة - هي في الواقع - مكملة للآية السابقة، لأنّ الآية السابقة كانت تدعو المؤمنين إلى طاعة الله والرّسول وأولي الأمر، والتحاكم إلى الكتاب والسنة، وهذه الآية تنهي عن التحاكم إلى الطّاعوت واتباع أمره وحكمه. والطّاعوت - كما أشرنا إلى ذلك سابقاً - مشتقة من الطغيان، وهذه الكلمة مع جميع مشتقاتها تعني التجاوز والتعدي وكسر الحدود وتجاهل القيود، أو كل شيء يكون وسيلة للطغيان أو التمرد.

وعلى هذا الأساس يكون كل من يحكم بالباطل طاعوتاً، لأنّه تجاوز حدود الله وتعدي على قوانين الحقّ والعدل، ففي الحديث عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام أنّه قال:

«الطّاعوت كلّ من يتحاكم إليه ممن يحكم بغير الحقّ».

والآية الحاضرة تنهى المسلمين عن أن يترافعوا في الحكم والقضاء إلى مثل هؤلاء الحكام وتقول: «ألم تر إلى الذين يزعمون أنّهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطّاعوت وقد أمروا أن يكفروا به». ثمّ يضيف القرآن قائلاً: «ويريد الشيطان أن يضلّهم ضلالاً بعيداً» أي أنّ التحاكم إلى الطّاعوت فتح الشيطان ليضل المؤمنين عن الصراط المستقيم.

وغير خفي أن الآية الحاضرة - شأنها شأن سائر الآيات القرآنية الأخرى - تتضمن حكماً عاماً، وتبيّن قانوناً خالداً لجميع المسلمين في جميع العصور والدهور. وتحذّرهم من مراجعة الطواغيت، وطلب الحكم منهم، وإنّ ذلك لا

يناسب الإيمان بالله والكتب السماوية، هذا مضافاً إلى كونه يضل الإنسان عن طريق الحق، ويلقيه في مجاهيل الباطل بعيداً عن الحق.

إن مفاسد وتبعات مثل هذه الأقضية والأحكام، وأثرها في تحطيم كيان المجتمع البشري وتخريب علاقاته وروابطه وأساسه مما لا يخفى على أحد، فهي أحد العوامل المؤثرة في انحطاط المجتمعات وتأخرها.

* * *

الآيات

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَىٰ الرَّسُولِ رَأَيْتَ
الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ﴿١١﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ
مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا
إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴿١٢﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِينَ يَلْمُونَ اللَّهَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ
فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ وَعِظُهُمْ وَقُلُّهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿١٣﴾

التفسير

نتائج حكم الطاغوت:

في أعقاب النهي الشديد عن التحاكم إلى الطاغوت وحكام الجور الذي مرَّ
في الآية السابقة جاءت هذه الآيات الثلاث تدرس نتائج أمثال هذه الأحكام
والأفضية، وما يتمسك به المنافقون لتبرير تحاكمهم إلى الطواغيت وحكام الجور
والباطل.

ففي الآية الأولى يقول سبحانه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَىٰ
الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾.

وفي الحقيقة يقول القرآن في هذه الآية: إنَّ التحاكم إلى الطاغوت ليس خطأً
عابراً يمكن أن يعالج ببعض التذكير، بل إنَّ الإصرار على هذا العمل يكشف عن
ضعف إيمانهم وروح النفاق فيهم، وإلَّا لوجب أن ينتبهوا ويشوبوا إلى رشدهم على

دعوة رسول الإسلام ﷺ لهم ويعترفوا بخطأهم: «وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً».

ثم في الآية الثانية يبيّن هذه الحقيقة، وهي أن هؤلاء المنافقين عندما يتورطون في مصيبة كنتيجة لمواقفهم وأعمالهم، ويواجهون طريقاً مسدودة يعودون إليك عن اضطرار ويأس: «فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاؤوك...».

ويحلفون في هذه الحالة أنّ هدفهم من التحاكم إلى الآخـرين لم يكن إلاّ الإحسان والتوصل إلى الوفاق بين طرفي الدعوى: «يحلفون بالله إن أردنا إلاّ إحساناً وتوفيقاً».

وهنا لا بدّ من الإشارة إلى نقطتين:

الأولى: أن نرى ما هو المقصود من المصيبة التي تصيبهم؟

لا يبعد أن تكون المصيبة هي ما ينشأ من مضاعفات ومآسي وويلات من حكم الطواغيت، لأنّه لا شك في أن الحكم الصادر من الأشخاص غير الصالحين والظالمين وإن كان ينطوي على منفعة آنية لأحد جانبي الدعوى، ولكن لا يمضي زمان إلاّ ويوجب هذا الحكم ظهور الفساد وانتشار الظلم والجور، وسيادة الهرج والمرج وتبعثر الكيان الإجماعي، ولهذا فإنّه سرعان ما تواجه هؤلاء المتحاكمين إلى الطواغيت تبعات ومفاسد عملهم هذا، وسرعان ما يندمون على فعلهم هذا.

هذا ويحتمل بعض المفسرين أنّ المراد من «المصيبة» هو الفضيحة التي تلحق بالمنافقين، أو المصائب التي تصيبهم بأمر الله سبحانه (كالمآسي والمحن الغير المتوقعة).

النقطة الثانية: إنّ مقصود المنافقين من «الإحسان» هل هو الإحسان إلى طرفي الدعوى، أو إلى النبي ﷺ؟ يمكن أن يكون مرادهم كلا الأمرين، فهم تذرّعوا

بحجج مضحكة لتحاكمهم إلى الطاغوت والرجوع إلى الأجنب، من جملتها أنهم كانوا يقولون: إن التحاكم إلى الرسول ﷺ لا يناسب شأنه ولا يليق بمقامه، لأنَّ الغالب أن يحصل شجار وصياح في محضر القضاة ومن جانب المتداعيين، وذلك أمر لا يناسب شأن النبي ولا يليق بمكانته ومحضره.

هذا مضافاً إلى أن القضاء ينتهي دائماً إلى الإضرار بأحد الطرفين، ولذلك فهو يشير حفيظته وعداوته ضد القاضي والحاكم، وكأنهم بأمثال هذه الحجج الواهية والأعدار الموهونة، كانوا يحاولون تبرئة أنفسهم وتبرير مواقفهم الباطلة، وادعاء أن تحاكمهم إلى غير النبي كان يهدف التخفيف عن النبي.

وربما اعتذروا لذلك قائلين: إن هدفنا لم يكن مادياً في الأساس، بل كان التوصل إلى وفاق بين المتداعيين.

ولكن كشف سبحانه في الآية الثالثة النقاب عن وجههم، وأبطل هذه التبريرات الكاذبة وقال: «أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم». ولكنَّه سبحانه يأمر نبيّه مع ذلك أن ينصرف عن مجازاتهم وعقوبتهم فيقول: «فاعرض عنهم».

ولقد كان رسول الله يداري المنافقين ما أمكنه لأجل تظاهرهم بالإسلام، لأنّه كان مأموراً بالتعامل معهم على حسب ظواهرهم، فلم يكن يجازيهم إلا في بعض الموارد الإستثنائية، لأنهم كانوا بين صفوف المسلمين - في الظاهر - فكانت مجازاتهم يمكن أن تحمل على أنها نشأت من أغراض شخصية.

ثم إنه سبحانه يأمر النبي ﷺ أن يعظهم، وأن ينفذ إلى قلوبهم بالقول البالغ، والعظة المؤثرة، يذكرهم بنتائج أعمالهم: «وعظهم وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً».

الآية

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا
أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا
اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴿٦٧﴾

التفسير

في الآيات السابقة شجب القرآن الكريم التحاكم إلى حكام الجور، وفي هذه الآية يقول سبحانه مؤكداً:

«وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله» أي أننا بعثنا الأنبياء ليطاعوا بإذن الله وأمره ولا يخالفهم أحد، لأنهم كانوا رسل الله وسفراءه كما كانوا رؤساء الحكومة الإلهية أيضاً، وعلى هذا يجب على الناس أن يطيعوهم من جهة بيان أحكام الله ومن جهة طريقة تطبيقها، ولا يكتفوا بمجرد ادعاء الإيمان.

ومن هذه العبارة يستفاد أن الهدف من إرسال الرسل وبعث الأنبياء هو إطاعة جميع الناس لهم، فإذا أساء بعض الناس استخدام حريتهم ولم يطيعوا الأنبياء كان اللوم متوجهاً إلى أنفسهم لا إلى أحد. وبهذا تنفي الآية الحاضرة عقيدة الجبريين الذين يقولون: الناس صنfan: صنف كلف بالطاعة من البدء، وصنف كلف بالمعصية من البدء.

كما أنه يستفاد من عبارة ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أن كل ما عند الأنبياء من الله، أو بعبارة أخرى: إن وجوب طاعتهم ليس بالذات، بل هي - أيضاً - بأمر الله ومن ناحيته. ثم إنه سبحانه يترك باب التوبة والإنابة - عقيب تلك الآية - مفتوحاً على العصاة والمذنبين، وعلى الذين يراجعون الطواغيت ويتحاكمون إليهم أو يرتكبون معصية بنحو من الأنحاء، ويقول: ﴿ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً﴾.

والجدير بالتأمل والانتباه إن القرآن يقول بدل: عصوا أمر الله وتحاكموا إلى الطاغوت: ﴿إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ وهو إشارة إلى أن فائدة الطاعة لأمر الله وأمر الرسول تعود إليكم أنفسكم، وإن مخالفة ذلك نوع من الظلم توقعونه على أنفسكم، لأنها تحطم حياتكم المادية، وتوجب تخلفكم وانحطاطكم من الناحية المعنوية.

إن هذه الآية تجيب ضمناً على كل الذين يعتبرون التوسل برسول الله أو بالإمام نوعاً من الشرك، لأن الآية تصرح بأن التوسل بالنبي والإستشفاع به إلى الله، وطلب الإستغفار منه لمغفرة المعاصي، مؤثر وموجب لقبول التوبة وشمول الرحمة الإلهية.

فلو كانت وساطة النبي ﷺ ودعاؤه للعصاة المتوسلين به، والإستشفاع به وطلب الإستغفار منه شركاً، فكيف يمكن أن يأمر القرآن العصاة والمذنبين بمثل هذا الأمر؟

نعم، غاية ما في الباب أن على العصاة والمذنبين أنفسهم أن يتوبوا هم ويرجعوا عن طريق الخطأ، ثم يستفيدوا - لقبول توبتهم - من استغفار النبي ﷺ. ومن البديهي أن النبي ﷺ ليس من شأنه أن يغفر الذنوب، بل شأنه في المقام أن يطلب من الله المغفرة خاصة، وهذه الآية إجابة مفحمة للذين ينكرون مشروعية أو فائدة هذه الوساطات.

هذا والمفلة للنظر أن القرآن الكريم لم يقل: استغفر لهم يا رسول الله، بل قال: «واستغفر لهم الرسول» وهذا التعبير - لعله - إشارة إلى أن يستفيد النبي من مقامه ومكانته ويستغفر للعصاة التائبين.

إن هذا الموضوع (أي تأثير استغفار النبي ﷺ للمؤمنين) ورد في آيات أخرى من القرآن الكريم أيضاً مثل الآية (١٩) من سورة محمد والآية (٥) من سورة المنافقون والآية (١١٤) من سورة التوبة التي تشير إلى استغفار إبراهيم لأبيه (عمّه)، والآيات الأخرى التي تنهي عن الاستغفار للمشركين، ومفهومها جواز الاستغفار للمؤمنين، كما يستفاد من بعض الروايات إن الملائكة تستغفر لجماعة من المؤمنين المذنبين عند الله (سورة غافر الآية ٧٧، وسورة الشورى الآية ٥).

وخلاصة القول، إن هناك آيات كثيرة تكشف عن هذه الحقيقة وهي إن الأنبياء، أو الملائكة، أو المؤمنين الصادقين الطيبين بإمكانهم أن يستغفروا لبعض العصاة، وإن استغفارهم مؤثر عند الله، وهذا هو أحد معاني شفاععة النبي أو الملائكة أو المؤمنين الطيبين للعصاة والخاطئين، ولكن الشفاععة كما قلنا تحتاج إلى أرضية وصلاحيّة وأهلية في العصاة أنفسهم.

والعجيب أنه يستفاد من بعض ما قاله جماعة من المفسرين أنهم أرادوا اعتبار استغفار النبي ﷺ - في الآية الحاضرة - مرتبطاً بالتجاوزات الواقعة في شؤون النبي خاصة لا مطلق المعاصي والذنوب، وكأنهم أرادوا أن يقولوا: لو أن أحداً ظلم النبي أو أساء إليه وجب استحلاله واسترضاءه ليغفر الله تلك الإساءة ويتوب على ذلك التجاوز.

ولكن من الواضح البين أن إرجاع التحاكم إلى غير النبي ليس ظلماً شخصياً يهدف به شخص النبي، بل هي مخالفة لمنصبه الإلهي الخاص (أو بعبارة أخرى) إنها مخالفة للأمر الإلهي، وحتى إذا كان ذلك ظلماً شخصياً موجهاً إلى شخص

النَّبِيّ - افتراضاً - فإن القرآن لم يقصده ولم يركز عليه، بل ركز القرآن على هذا الموضوع وهو أن ذلك التحاكم مخالفة لأمر الله وتجاهل لإرادته.

هذا مضافاً إلى أننا لو ظلمنا أحداً كفاننا رضاه، فما الحاجة إلى طلب استغفاره، ودعائه للمسيء؟ بل. وفوق ذلك كله، لو أننا فسّرنا الآية بمثل هذا التفسير - فرضاً - فما الذي نقوله في تلك المجموعة الكبيرة من الآيات التي تشير إلى استغفار الأنبياء، والملائكة والمؤمنين للعصاة والخاطئين؟
فهل المقام فيها مقام الحقوق الشخصية أيضاً؟



الآية

فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾

سبب النزول

وقع خصام بين الزبير بن العوام - وهو من المهاجرين - وبين رجل من الأنصار على سقي نخيلهما التي كانت متقاربة في المكان، فترافعا إلى النبي ﷺ - وحيث أن نخيل الزبير كانت أعلى مكاناً من نخيل الأنصاري، قال رسول الله ﷺ للزبير: «اسق ثم أرسل إلى جارك» (وقد كانت هذه هي العادة في البساتين المتجاورة آنذاك) ففضب الأنصاري من حكم النبي العادل هذا، وقال: يا رسول الله لئن كان ابن عمتك؟ فتلون وجه رسول الله ﷺ انزعاجاً من موقف الأنصاري وكلامه، فنزلت الآية الحاضرة تحذر المسلمين من مثل هذه المواقف.

وقد ذكرت في بعض التفاسير أسباب أخرى لنزول الآية تشابه - إلى درجة كبيرة - ما ذكر في سبب النزول المتقدم (راجع تفسير التبيان والطبرسي، والمنار).

التفسير

التسليم أمام الحق:

الآية، وإن ذكر لها سبب نزولها خاص - ولكننا أسلفنا غير مرة أن أسباب النزول الخاصة لا تنافي عمومية مفهوم الآيات، ولهذا يمكن اعتبار هذه الآية تكميلاً لما جاء من البحث في الآيات السابقة.

ولقد أقسم الله - في هذه الآية - بأن الأفراد لا يمكن أن يمتلكوا إيماناً واقعياً إلا إذا تحاكموا إلى النبي وقضائه، ولم يتحاكموا إلى غيره «فلا وريك لا يؤمنون حتى يحكموك في ما شجر بينهم».

ثم يقول سبحانه: يجب عليهم، أن يتحاكموا إليك فقط، ومضافاً إلى ذلك ليرضوا بما تحكمه، سواء أكان في صالحهم أو في ضررهم ولا يشعروا بأي حرج في نفوسهم فضلاً عن أن لا يعترضوا، وبالتالي ليسلموا تسليماً.

«ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً»:

والإنزعاج النفسي الباطني من الأحكام التي ربما تكون في ضرر الإنسان، وإن كان في الأغلب أمراً غير اختياري، إلا أنه على أثر التربية الخلقية المستمرة يمكن أن تحصل لدى الإنسان روح التسليم أمام الحق، والخضوع للعدالة، خاصة بملاحظة المكانة لواقعية النبي ﷺ، فلا ينزعج من أحكام النبي ﷺ، بل ولا من أحكام العلماء الذين يخلفونه، وعلى كل فإن المسلمين الواقعيين مكلفون دائماً بتسمية روح الخضوع للحق، والتسليم أمام العدل في نفوسهم.

إن الآية الحاضرة تبين علام الإيمان الواقعي الراسخ في ثلاث مراحل:

١ - أن يتحاكموا إلى النبي ﷺ - وحكمه النابع من الحكم الإلهي - في ما اختلفوا فيه، كبيراً كان أم صغيراً، لا إلى الطواغيت وحكام الجور والباطل.

٢ - أن لا يشعروا بأي انزعاج أو حرج في نفوسهم تجاه أحكام الرسول ﷺ وأفضيته العادلة التي هي - في الحقيقة - نفس الأوامر الإلهية، ولا

يسيئوا الظن بهذه الأحكام.

٣- أن يطبقوا تلك الأحكام - في مرحلة تنفيذها - تطبيقاً كاملاً ويسلموا أمام الحق تسليمياً مطلقاً.

ومن الواضح أن القبول بأي دين وأحكامه في ما إذا كانت في مصلحة الإنسان وكانت مناسبة لمنافعه وتطلعاته، لا يمكن أن يكون دليلاً على إيمانه بذلك الدين، بل يثبت ذلك إذا كانت تلك الأحكام في الاتجاه المتعاكس لمنافعه وتطلعاته ظاهراً، وإن كانت مطابقة للحق والعدل في الواقع، فإذا قبل بمثل هذه الأحكام وسلم لها تسليمياً كاملاً كان ذلك دليلاً على إيمانه ورسوخ إعتقاده.

فقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير هذه الآية: «لو أن قوماً عبدوا الله وحده لا شريك له وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وحجوا البيت وصاموا شهر رمضان ثم قالوا لشيء صنعه الله وصنع رسوله صلى الله عليه وآله وسلم لم صنع هكذا وكذا، ولو صنع خلاف الذي صنع، أو وجدوا ذلك في قلوبهم لكانوا بذلك مشركين. ثم تلا هذه الآية (الحاضرة) ثم قال عليه السلام: عليكم بالتسليم»^(١).

ثم أنه يستفاد من الآية الحاضرة مطلبان مهمان - ضمناً:

١- إن الآية إحدى الأدلة على عصمة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، لأن الأمر بالتسليم المطلق أمام جميع أحكامه وأوامره قولاً وعملاً، بل والتسليم القلبى والخضوع الباطنى له أيضاً دليل واضح على أنه صلى الله عليه وآله وسلم لا يخطيء في أحكامه وأقضيته وتعليماته، ولا يتعمد قول ما يخالف الحق فهو معصوم عن الخطأ، كما هو معصوم عن الذنب أيضاً.

٢- إن الآية الحاضرة تبطل كل اجتهاد في مقابل النص الوارد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وتنفي شرعية كل رأي شخصى في الموارد التي وصلت إلينا فيها أحكام صريحة من جانب الله تعالى ونبيه صلى الله عليه وآله وسلم.

وعلى هذا الأساس فإن ما نراه في التاريخ الإسلامي من اجتهاد بعض الأشخاص في مقابل الأحكام الإلهية والنصوص النبوية، وقولهم: قال النبي كذا ونقول كذا، فليس أمامنا حيله إلا أن ندعن بأنهم عملوا على خلاف صريح هذه الآية، وخالفوا نصها.

* * *

الآيات

وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ اخْرَجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ
مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ
خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيثًا ﴿١٦﴾ وَإِذَا لَا تَأْتِنَهُمْ مِّنْ لَّدُنَّا أَجْرًا
عَظِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٨﴾

التفسير

تكميلاً للبحث السابق حول أولئك الذين يشعرون بضيق وحرَج تجاه أحكام النبي ﷺ وأفضيته العادلة بعض الأحيان - يشير القرآن هنا إلى بعض التكاليف والفرائض الثقيلة في الأمم السالفة فيقول: «ولو أننا كتبنا عليهم أن يقتلوا أنفسهم، أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم».

أي أننا لم نكلفهم بأية فريضة شاقة لا تتحمل، ولو أننا كنا نكلفهم بمثل ما كلفنا به الأمم السابقة (مثل اليهود الذين أمروا بأن يقتل بعضهم البعض الآخر كقارة لما إرتكبهوه من عبادة العجل، أو يخرجوا من وطنهم المحبب إليهم لذلك) كيف كانوا يتحملونه؟ إنهم لم يتحملوا حكماً بسيطاً أصدره النبي في أمر سقي نخلات، ولم يسلموا لهذا القضاء العادل، فكيف ترى يمكنهم أن يقوموا بالمهمات العظيمة والمسؤوليات الجسيمة ويمروا بالإختبارات الصعبة بنجاح، فلو أننا

أمرناهم بأن يقتلوا أنفسهم (أي يقتل بعضهم بعضاً) أو يخرجوا من وطنهم المحبب عندهم لما فعله إلا قليل منهم.

إنّ مسألة «الإستعداد للقتل» تشبه - حسب قول بعض المفسرين - مسألة «الخروج عن الوطن» من جهات عديدة، لأنّ البدن ووطن الروح الإنسانيّة تماماً كما أنّ الوطن مثل الجسم الإنساني، فكما أنّ التغاضي عن ترك وطن الجسم أمر صعب، كذلك التغاضي عن الوطن الذي هو مسقط رأس الإنسان ومحل ولادته ونشأته.

ثمّ إنّ الله سبحانه يقول: «ولو أنّهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم وأشدّ تثبيتاً» أي لو أنّهم قبلوا نصائح النبي ومواعظه لكان ذلك من مصلحتهم، وكان سبباً لتقوية أسس الإيمان عندهم.

والملفت للنظر أنّ القرآن يعبر - في هذه الآية - عن الأحكام والأوامر الإلهية بالموعظة، وهو إشارة إلى أنّ الأحكام المذكورة ليست أموراً تصب في مصلحة المشرّع (أي الله) أو تجرله نفعاً، بل هي - في الحقيقة - نصائح ومواعظ نافعة لكم، ولهذا يقول ودون تأخير: «ولو أنّهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم وأشدّ تثبيتاً» أي تقوية لإيمانهم وترسيخاً لجدورها في نفوسهم.

ولا بدّ أيضاً أن ننسب إلى هذه النقطة، وهي أنّ الله سبحانه يقول في ختام هذه الآية «وأشدّ تثبيتاً» أي كلّما اجتهد الإنسان في السير في سبيل طاعة الله وتنفيذ أوامره ازدادت استقامته وازداد ثباته، وهذا يعني أنّ إطاعة الأوامر الإلهية نوع من الرياضة الروحية التي تحصل للإنسان من تكرارها قوة وثبات أكبر واستحكام أكثر، على غرار ما يحصل للجسم نتيجة تكرار الرياضات الجسمية والتمارين الرياضية البدنية، فيصل الإنسان - نتيجة ذلك - إلى مرحلة لا يمكن لأية قدرة أن تغلب قدرته أو تخدعه أو تزعه.

ثمّ إنّ الله سبحانه يبيّن - في الآية الثانية - الفائدة الثالثة من فوائد التسليم لأوامر

الله وطاعته إذ يقول: ﴿وَإِذَا لَأْتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي إذا لأعطيناهم - مضافاً إلى ما ذكرناه - أجراً من عندنا عظيماً، لا يعرف منتهاه ولا يدرك مداه. ثم في آخر آية من هذه الآيات يشير سبحانه إلى رابع نتيجة إذ يقول: ﴿وَلَهْدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾.

ومن الواضح البين أن المراد من هذه «الهداية» ليس هو الإرشاد إلى أصل الدين، بل المراد الطاف جديدة يعن بها الله سبحانه على مثل هؤلاء العباد الصالحين بعنوان الثواب والهداية الثانوية، فهو يشبه ما أشير إليه في الآية (١٧) من سورة محمد ﷺ إذ قال: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾.

وقد روي أنه عندما نزل قوله: ﴿وَلَوْ إِنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ...﴾ قال رجل من المسلمين: والله لو أمرنا لفعلنا فالحمد لله الذي عافانا.

فلما بلغ هذا الكلام إلى رسول الله ﷺ قال:

«إِنَّ مِنْ أُمَّتِي لِرَجَالًا إِيْمَانٌ أَثْبِتَ فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الْجِبَالِ الرَّوَاسِي»^(١).



الآيتان

وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ
مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ
أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴿٧٦﴾ ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٧﴾

سبب النزول

كان أحد الصحابة يدعى «ثوبان» شديد الحبّ لرسول الله قليل الصبر عنه، فأتاه ذات يوم وقد تغير لونه ونحل جسمه فقال له النبي ﷺ: يا ثوبان ما غير لونك؟ فقال: يا رسول الله ما من مرض ولا وجع غير أنني إذا لم أرك اشتقت إليك حتى ألقاك، ثم ذكرت الآخرة فأخاف أنني لا أراك، وإني إن أدخلت الجنة كنت في منزلة أدنى من منزلتك، وإن لم أدخل الجنة فذاك حتى لا أراك أبداً.

فنزلت الآيتان الحاضرتان تبشيران أمثال هذا بأن المطيعين سيكونون مع النبيين ومن اختارهم الله وأنعم عليهم في الجنة.

ثم أن النبي ﷺ قال: «والذي نفسي بيده لا يؤمنن عبد حتى أكون أحب إليه من نفسه وأبويه وأهله وولده والناس أجمعين» أي يكون مسلماً لتعاليمي وأوامري، تسليماً كاملاً.

التفسير

رفقاء الجنة:

في هذه الآية يبين القرآن ميزة أخرى من ميزات من يطيع أوامر الله تعالى والنبى ﷺ، وفي الحقيقة مكملة للميزات التي جاء ذكرها في الآيات السابقة، وهي صحبة الذين أتم الله نعمه عليهم ومرافقتهم: «ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم...».

وكما أسلفنا في سورة الحمد فإنّ الذين أنعم الله عليهم هم الذين ساروا في الطريق المستقيم ولم يرتكبوا أي خطأ، ولم يكن فيهم أي انحراف.

ثمّ يشير - لدى توضيح هذه الجملة، وتحديد من أنعم الله عليهم - إلى أربع طوائف يشكلون في الحقيقة الأركان الأربعة لهذا الموضوع وهم:

١ - الأنبياء: أي رسل الله تعالى الذين كانوا طليعة السائرين في سبيل هداية الناس ودعوتهم إلى الصراط المستقيم «من النبيين».

٢ - الصادقون: وهم الذين يصدقون في القول ويصدقون إيمانهم بالعمل الصالح، ويشتهون أنهم ليسوا مجرد أدعياء الإيمان، بل مؤمنون بصدق بأوامر الله وتعاليمه «والصديقون».

ومن هذا التعبير يتضح أنه ليس بعد مقام النبوة أعلى من مقام الصدق، والصدق هذا لا ينحصر في الصدق في القول فقط، بل هو الصدق في الفعل والعمل... الصدق في الممارسات والمواقف، وهو لذلك يشمل الأمانة والإخلاص أيضاً، لأن الأمانة هي الصدق في العمل كما أن الصدق أمانة في القول، وفي المقام ليس هناك صفة بعد الكفر أقبح من الكذب والنفاق والخيانة في القول والعمل (ويجب الإبتاه - هنا - إلى أن الصديق صيغة مبالغة وهي بمعنى الصادق كله، ظاهراً وباطناً).

وقد فسر «الصديق» في بعض الروايات والأخبار بعلي عليه السلام والأئمة من أهل

البيت النبوي ﷺ، وهذا التفسير كما قلنا في ما سبق من باب بيان المصداق الأكمل والأوضح لهذه الآيات، فلا تفيد الحصر والقصر.

٣ - الشهداء: الذين قتلوا في سبيل الله وفي سبيل العقيدة الإلهية الطاهرة، أو الذين يشهدون على الناس وأعمالهم في الآخرة ﴿وَالشَّهَدَاءُ﴾^(١).

٤ - الصالحون: وهم الذين بلغوا بأعمالهم الصالحة والمفيدة وبإتباع الأنبياء وأوامرهم إلى مراتب عالية ومقامات رفيعة ﴿وَالصَّالِحِينَ﴾.

ولهذا فسر «الصالحون» في رواياتنا وأحاديثنا، بالصفوة المختارة من أصحاب الأئمة عليهم السلام وهذا هو أيضاً من باب بيان أظهر المصداق وأوضحها كما أسلفنا في تفسير الصديقين.

والنقطة الجديرة بالتذكير هنا هي أن ذكر هذه المراحل الأربع يمكن أن يكون إشارة إلى أنه لا بد لبناء المجتمع الإنساني الصالح والسليم من: أن يبدأ الأنبياء - وهم القادة والهداة بحق الهداية، ثم يتبعهم المبلغون الصادقون بالقول والعمل، وهم الصادقون الذين يصدق عملهم قولهم وفعلهم دعواهم فينشروا الحقائق في كل مكان، ثم بعد مرحلة البناء الفكري والإعتقادي هذه، يقوم جماعة في وجه العناصر الفاسدة ومن يريدون الوقوف في طريق الحق، فيضحون بأنفسهم ويقدمون أجسادهم وحياتهم قرابين للحق والعدل، فيكون حاصل هذه الجهود والمسعى ظهور الصالحين واستقرار المجتمع الطاهر السليم.

ومن الواضح البين أن على الصالحين أيضاً أن يقوموا بهذه الواجبات الثلاث أي عليهم أن يقودوا، وبلغوا، ويضحوا لكي يبقوا على جذوة الحق متقدة، وعلى مشعل العدل مضيئاً للأجيال اللاحقة.

١ - الشهيد في أصل اللغة هو من يشهد، غاية ما هناك أن الإنسان قد يشهد على حق بكلامه، وقد يشهد بعمله وقتله في سبيل أهدافه الطاهرة.

كما أنه يستفاد من الآيات الحاضرة ضمناً هذه الحقيقة، وهي أن مسألة مرافقة الصالحين وصحبة الرفقاء الطيبين لها من الأهمية بحيث تعتبر في الآخرة الجزء المكمل للنعم الإلهية الكبرى التي يمن الله بها على المطيعين في الجنة، فهم علاوة على كل ما يحصلون عليه من نعم وميزات سيحظون بمرافقة رفقاء كالأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين.

ولعلنا في غنى عن التذكير بأن معاشره المطيعين لهذه الطوائف الأربع ليس معناه أنهم في منزلتهم ورتبتهم، وإنهم في درجتهم من جميع الجهات، بل يعني أن لكل واحد منهم - مع معاشره بعضهم لبعض - سهماً خاصاً (يتناسب ومقامه) من المواهب والألطف الإلهية، فهم كأشجار بستان واحد ووروده وأعشابه، فهي مع كونها مجتمعة متجاوزة ومع أنها تستفيد برمتها من ضوء الشمس والمطر، ولكنها ليست متساوية في حجم الاستفادة من تلك العناصر، كما أنها ليست متساوية في القيمة.

ثم يبين سبحانه في الآية اللاحقة أهمية هذا الإمتياز الكبير (أي مرافقة تلك الصفوة المختارة) إن هذه الهبة من جانب الله، وهو عليهم بأحوال عبادته ونواياهم ومؤهلاتهم: «ذلك الفضل من الله، وكفى بالله عليماً»، فلا يخطيء في الإثابة والجزاء حيث أن «ذلك» إشارة إلى البعيد لهذا يوحى في هذه الموارد إلى أهمية المقام وعلوه.

الآية

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ اَنْفِرُوا
جَمِيعًا ﴿٧٦﴾

التفسير

الحذر الدائم:

«الحذر» يعني اليقظة والتأهب والترقب لخطر محتمل، كما يعني أحياناً الوسيلة التي يستعان بها لدفع الخطر.

أما كلمة «ثُبَاتٍ» فتفيد معنى المجموعات المتفرقة، ومفردها «ثبة» من مادة «نبي» أي جمع.

والقرآن يخاطب عامة المسلمين في الآية المذكورة أعلاه، ويقدم لهم اثنتين من التعاليم اللازمة لصيانة وجود المسلمين والمجتمع الإسلامي تجاه كل خطر يهدد هذا الوجود.

ففي البداية تأمر الآية المؤمنين بالتمسك باليقظة والبقاء في حالة التأهب من أجل مواجهة العدو، وتحذركم من الغفلة عن هذا الامر: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ...».

ثم تأمر الآية بالاستفادة من الأساليب والتكتيكات المختلفة في مواجهة

العدو، من ذلك الزحف على شكل مجموعات إن تطلب الأمر مثل هذا الأسلوب، أو على شكل جيش موحد مترابط إن استدعت المواجهة هجوماً شاملاً منسجماً، وفي كلتا الحالتين لا بدّ من المواجهة الجماعية «فانفروا ثباتاً أو انفروا جميعاً».

ذهب بعض المفسرين إلى أن معنى «الحذر» في الآية هو «السلاح» لا غير، بينما للحذر معنى واسع لا يقتصر على السلاح، ثمّ أن الآية (١٠٢) من هذه السورة تدل بوضوح على أنّ الحذر غير السلاح حيث يقول تعالى: «... أن تضعوا أسلحتكم وخذوا حذركم...» وجواز وضع السلاح (في الصلاة) مع أخذ الحذر يدل على أنّ الحذر لا يعنى السلاح بالذات.

الآية الكريمة هذه تشتمل على أمر عام مطلق لجميع المسلمين في كلّ العصور والأزمنة، ويدعو هذا الأمر المسلمين إلى الإلتزام باليقظة والإستعداد الدائم لمواجهة أي طارئ، من جانب الأعداء ولحماية أمن الأمة، وذلك عن طريق التحلّي بالإستعداد المادي والمعنوي الدائمين.

وكلمة «الحذر» أيضاً تستوعب بمعانيها الواسعة - كل أنواع الوسائل المادية والمعنوية الدفاعية التي يتحتم على المسلمين اتباعها، من ذلك التعرف على قدرة العدو من حيث العدة والعدد، وأساليبه الحربية، والإستراتيجية، ومدى فاعلية أسلحته، وكيفية مواجهتها والإحتماء من خطرها وخطر العدو نفسه، وبذلك يكون المسلمون قد أوفوا من حيث العمل بما يتطلبه منهم أمر «الحذر» من الإستعداد والتأهب واليقظة لمواجهة أي خطر طارئ..

ويشتمل أمر «الحذر» أيضاً على الإستعداد النفسي والثقافي والإقتصادي، لتعبئة كافة الإمكانيات البشرية، والإستفادة من أقوى أنواع الأسلحة وأكثرها تطوراً في الوقت المطلوب، وكذلك الإلمام بصور إستخدام هذا السلاح وأساليبه، فإذا كان المسلمون يلتزمون بهذا الأمر ويطبقونه على حياتهم لاستطاعوا أن

يَجْتَنِبُوا أَنْفُسَهُمْ وَأُمَّتَهُمُ الْفِشْلَ وَالتَّقَهُّقْرَ وَالهَزِيمَةَ عَلَى مَدَى تَارِيخِهِمْ الْمَسْلِيِّ بِالْأَحْدَاثِ.

والشيء الآخر الذي يفهم من هذه الآية الكريمة، هو اختلاف أساليب مواجهة العدو بحسب ما تقتضيه الضرورة، ويعينه الظرف، ويحدد موقع العدو - فلو كان هذا الموقع يتطلب مقابلة العدو بجماعات منفصلة، لوجب استخدام هذا الأسلوب مع كل ما يحتاج إليه من عدد وعدة وغير ذلك، وقد يكون موقع العدو بصورة تقتضي مواجهة العدو في هجوم عام ضمن مجموعة واحدة متماسكة، وعند هذا يجب أن يعدّ المسلمون العدة اللازمة والعدد الكافي لمثل هذا الهجوم الشامل.

ومن هنا يتضح أن إصرار البعض على أن يكون للمسلمين أسلوب كفاحي واحد دون اختلاف في التكتيك لا يقوم على منطق ولا تدعمه التجارب، إضافة إلى أنه يتنافى مع روح التعاليم الإسلامية.

لعل الآية - أعلاه - تشير أيضاً إلى أن المسألة الهامة هي تحقيق الأهداف الواقعية سواء تطلب الأمر أن يسلك الجميع أسلوباً واحداً، أو أن يتهجوا أساليب متنوعة.

ويفهم من كلمة «جميعاً» أنها تعني أن المسلمين كافة مكلفون بالمشاركة في أمر مواجهة العدو، ولا يختص هذا الحكم بطائفة معينة.

الآيتان

وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لِيُبْتَغَىٰ فَيَأْتِيَنَّهُ مَوَدَّةَ الْعَدُوِّ لَا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ عِدْلًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لِئِيْلَآئِنَا عَلَيْهِمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾
وَأَنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لِيُبْتَغَىٰ فَيَأْتِيَنَّهُ مَوَدَّةَ الْعَدُوِّ لَا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ عِدْلًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لِئِيْلَآئِنَا عَلَيْهِمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾

التفسير

بعد صدور الأمر العام إلى المسلمين بالجهاد والاستعداد لمقاومة العدو في الآية السابقة تبين هاتان الآيتان موقف المنافقين من الجهاد، وتفضح تذبذبهم، فهم يصرون على الإمتناع عن المشاركة في صفوف المجاهدين في سبيل الله... ﴿وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لِيُبْتَغَىٰ﴾^(١) لمن ليبتغى^(٢)...».

وحين يعود المجاهدون من ميدان القتال أو حين تصل أنباء معاركهم، فإن

١ - ينهي الإلتفات إلى أن الآية أعلاه تخاطب المؤمنين، لكنها تنطرق إلى المنافقين أيضاً، كما أن عبارة «منكم» جعلت المنافقين جزءاً من المؤمنين، وما ذلك إلا لأن المنافقين كانوا دائماً متغلغلين بين المؤمنين، ومن هنا فهم يحسبون على الظاهر جزءاً منهم.

٢ - «يُبْتَغَى» من «البطء» في الحركة، وهو فعل لازم ومتعد كما ذكر علماء اللغة، أي أنهم يبتغون في حركتهم ويدعون الآخرين إلى البطء، ولعل استعمال الفعل في باب التفعيل هنا يعني أنه متعد فقط، أي أنهم يدفعون أنفسهم إلى البطء تارةً، ويدفعون الآخرين إلى ذلك تارةً أخرى.

كان قد أصابهم مكروه في قتالهم يتحدث المنافقون بابتهاج بأن الله قد أنعم عليهم نعمة كبيرة إذ لم يشاركوا المجاهدين في ذلك القتال، ويفرحون لعدم حضورهم في مشاهد الحرب الرهيبة ﴿فإن أصابتكم مصيبة قال قد أنعم الله عليّ إذ لم أكن معهم شهيداً...﴾.

وحين تصل الأخبار بانتصار المسلمين المجاهدين ونيلهم المغانم، يستبدل موقف هؤلاء المنافقين فتبدو الحسرة عليهم ويظهر الندم على وجوههم، ويشرعون - وكأنهم غرباء لا تربطهم بالمسلمين أية رابطة - بترديد عبارات التأسف: ﴿ولئن أصابكم فضل من الله ليقولن كأن لم تكن بينكم وبينه مودة يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً﴾.

في الآية إشارة إلى المفهوم المادي للنصر في نظر المنافقين، فالذي يرى الشهادة والقتل في سبيل الله مصيبةً وبلاءً، ويخال النجاة من القتل أو الشهادة في هذه السبيل نعمةً إلهية، لا ينظر إلى النصر والفوز إلا من خلال منظار كسب الغنائم والمتاع المادي لا غير.

هؤلاء المتلونون الموجودون - مع الأسف - في كل المجتمعات، سرعان ما يغيرون أقتعتهم تجاه ما يواجهه المؤمنون من نصر أو هزيمة، هؤلاء لا يشاركون المؤمنين في معاناتهم ولا يساعدونهم في الملمات، لكنهم يتوقعون أن يكون لهم في الانتصارات السهم الأوفى، وأن يحصلوا على ما يحصل عليه المجاهدون المؤمنون من إمتيازات.

الآية

فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ
وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا
عَظِيمًا ﴿٧٤﴾

التفسير

إعداد المؤمنين للجهاد:

بعد أن أوضحت الآية السابقة إجحام المنافقين عن مشاركة المجاهدين في القتال تتوجه الآية (٧٤) والتي تليها - بلغة مشجعة مشوقة - إلى المؤمنين فتدعوهم إلى الجهاد في سبيل الله، ونزول هذه الآيات حين كان الإسلام مهدداً من قِبَل مختلف الأعداء - سواء من الداخل أو الخارج - يدل على أهميتها في تربية الروح الجهادية لدى المسلمين.

وتوضح الآية في بدايتها أن أعباء الجهاد يجب أن تكون على عاتق أولئك النفر الذين باعوا حياتهم الدنيوية المادية الزائلة، مقابل فوزهم بالحياة الأخروية الخالدة: «فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة...» أي أن المجاهدون الحقيقيون هم وحدهم المستعدون للدخول في هذه الصفقة، بعد أن إنكشفت لهم دناءة الحياة المادية (وهو ما يفهم من لفظ الدنيا)، فهؤلاء أدركوا أن هذه الحياة لا قيمة لها تجاه الحياة الأبدية الخالدة، أما الذين يرون الأصالة في

الحياة المادية الدنيئة، ويعتبرونها أرفع وأكبر من الأهداف الإلهية المقدسة والأهداف الإنسانية السامية، فلا يمكن أن يكونوا أبدأً مجاهدين صالحين.

وتستمر الآية مبينة أنّ مصير المجاهدين الحقيقيين الذين باعوا الحياة الدنيا بالآخرة واضح لا يخرج عن حالتين: إما النصر على الأعداء، أو الشهادة في سبيل الله، وهم في كلتا الحالتين ينالون الأجر والثواب العظيم من الله تعالى ﴿... ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً﴾ وبديهي أن جنوداً كهؤلاء لا يفهمون معنى الهزيمة، فهم يرون النصر إلى جانبهم في الحالتين: سواء تغلبوا على العدو، أو نالوا الشهادة في سبيل الله، ومثل هذه المعنويات كفيلة بأن تمهد الطريق للإنتصار على العدو، ويعتبر التاريخ خير شاهد على أن هذه المعنويات هي العامل في إنتصار المسلمين على أعداء فاقوهم عدداً وعدة.

ويؤكد هذا الأمر حتى المفكرون من غير المسلمين ممن كتبوا عن إنتصارات المسلمين السريعة التي حققوها في عصر الرسول ﷺ وفي العصور التالية، فهؤلاء المفكرون يرون أن منطق الفوز بإحدى الحسينيين أحد العوامل الحاسمة في تقدم المسلمين.

يقول مؤرخ غربي مشهور في كتاب له في هذا المجال: إنّ المسلمين لم يكونوا ليخافوا الموت في سبيل دينهم الجديد، لما وعدوا به من هبات إلهية في الآخرة، وأنهم لم يعتقدوا بأصالة خلود هذه الحياة الدنيا، ولذلك فهم قد تنازلوا عن هذه الحياة في سبيل العقيدة والهدف^(١).

والجدير ذكره هنا هو أنّ هذه الآية - وآيات أخرى من القرآن الكريم - اعتبرت الجهاد أمراً مقدساً إذا كان في سبيل الله، ومن أجل إنقاذ البشر، وإحياء مبادئ الحق والعدالة والطهارة والتقوى، على عكس الحروب التي تشن بهدف التوسع وبدافع من التعصب والتوحش والإستعمار والإستغلال.



الآية

وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ
وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ
الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن
لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾

التفسير

الإستعانة بالعواطف والمشاعر الإنسانية:

كانت الآية السابقة تطالب المؤمنين بالجهاد معتمدة على إيمانهم بالله واليوم الآخر، وقد اعتمدت أيضاً قضية الربح والخسارة في سياق دعوتها إلى الجهاد، أما هذه الآية فتستند في دعوتها الجهادية إلى العواطف والمشاعر الإنسانية وتستثيرها في هذا الإتجاه - فهي تخاطب مشاعر المؤمنين وعواطفهم بعرض ما يتحملة الرجال والنساء والأطفال المضطهدون من عذاب وظلم بين مخالف الطغاة الجبارين، وتطالب المؤمنين - مستثيرة عواطفهم في هذا الإتجاه - عن طريق عرض المشاهد المأساوية التي يعاني منها المستضعفون وتدعوهم إلى الجهاد في سبيل الله من أجل إنقاذ هؤلاء المظلومين فتقول الآية: ﴿وما لكم لا

تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين^(١) من الرجال والنساء والولدان ...».

ولأجل إثارة المشاعر أكثر، تنبّه الآية المؤمنون بأنّ المستضعفين المذكورين لكثرة معاناتهم من البطش والإرهاب والإضطهاد قد إنقطع أملهم في النجاة ويسوا من كل عون خارجي، فأخذوا يدعون الله لإخراجهم من ذلك المحيط الرهيب المشحون بأنواع البطش والرعب والظلم الفاحش: «الذين يقولون ربّنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها» ويطلب المستضعفون من الله - أيضاً - أن يرسل لهم من يتولى الدفاع عنهم وينجيهم من الظالمين بقولهم: «واجعل لنا من لذك ولياً واجعل لنا من لذك نصيراً».

الآية - في الواقع - تشير إلى أنّ الله قد استجاب دعاء المستضعفين، فهذه الرسالة الإنسانية الكبرى قد أوكلت إليكم أنتم أيّها المسلمون المخاطبون، فقد أصبحتم أنتم «الولي» المرتقب وأنتم «النصير» من قبل الله تعالى لإنقاذ المستضعفين، من هنا عليكم أن تهضوا بهذه المسؤولية وتستثمروا هذه المكانة الكبرى المناطة إليكم ولا تضيعوها.

والآية هذه يستفاد منها أيضاً عدّة أمور، هي:

١- إنّ الجهاد في سبيل الله وكما أُشير إليه من قبل - ليس من أجل إنتزاع الأموال والسلطة والثروات من أيدي الآخرين، كما أنّه لا يستهدف إيجاد أسواق لإستهلاك البضائع أو لفرض عقائد خاصّة بالقوّة، بل أنه يستهدف نشر الفضيلة والإيمان والدفاع عن المظلومين والمضطهدين من النساء والرجال والولدان، ومن هذا المنطلق يتّضح أنّ للجهاد هدفين شاملين جامعين أشارت الآية إليهما، أحدهما «رياني»، وآخر «إنساني» يكمل أحدهما الآخر، ولا ينفصلان، بل

١- إنّ الفرق بين المستضعف والضعيف واضح وجلي، فالضعيف هو من كان معدوم القدرة والقوّة، والمستضعف هو من أصابه الضعف بسبب ظلم وجور الآخرين، سواء كان الإستضعاف فكرياً أم ثقافياً أم كان أخلاقياً أو اقتصادياً أم سياسياً أم اجتماعياً، فالعبارة هنا جامعة شاملة تستوعب جميع أنواع الإستضعاف.

كلاهما يعودان إلى حقيقة واحدة.

٢- إن الإسلام يرى أن المحيط السالم الذي يمكن للإنسان أن يعيش فيه، هو ذلك المحيط الذي يوفّر الحرية للإنسان، ويضمن له العمل بما يعتقد دون مانع أو أذى، ويرى الإسلام - أيضاً - أن المحيط الذي يسوده الكبت والإرهاب والقمع، ولا يستطيع المسلم فيه إظهار عقيدته أو إعلان إسلامه، فهو محيط لا يجدر بالإنسان المسلم أن يبقى فيه، لذلك فإن الآية تنقل عن المؤمنين دعاءهم إلى الله لكي يخلصهم من مثل هذا الجو المليء بالقمع والإرهاب.

وعلى الرغم من أن مكة كانت ملجأ وملاذاً للمهاجرين، فإن تفشي الظلم فيها جعل المؤمنين يدعون الله لإنقاذهم من ظلم أهل هذه المدينة، ويسر لهم سبيلاً إلى الخروج منها.

٣- وفي نهاية الآية نرى أن المؤمنين الذين يعانون من محيطهم الظالم، يسألون الله أن يبعث لهم من يتولى شؤونهم، وأن يمددهم - أيضاً - بمن ينصرهم على الظالمين ويخلصهم من مخالبهم، ويفهم من هذه الآية أهمية القيادة الصالحة، وأهمية قدرة هذه القيادة في إنقاذ المظلومين وضرورة إمتلاكها من العدد والعدة ما يمكنها من القيام بسموّ وليتها الخطيرة هذه.

بذلك نستنتج من الآية العناصر التي يجب أن تتوفر في كل قيادة إسلامية،

وهي كما يلي:

أ- أن تكون القيادة صالحة (بما في كلمة الصلاح من شمولية)

ب- أن تكون قوية مقتدرة (أن تملك العدد والعدة الكافيين، بالإضافة إلى الخطط العسكرية التي تضمن نجاح استخدام القوة الموجودة).

٤- تبين الآية أن المؤمنين يطلبون حاجاتهم من الله العليّ القدير وحده، ولا يلجأون إلى غيره في حوائجهم، حتى أنهم يسألون الله أن يمددهم بمن يتولى الدفاع عنهم وينصرهم على الظالمين.

الآية

الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي
سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ
كَانَ ضَعِيفاً ﴿٧٦﴾

التفسير

لقد أوضحت الآيات السابقة قضية الجهاد، وأبرزت عناصره والمخاطبين به ودوافعه، وفي هذه الآية نلاحظ أنها تحت المجاهدين على القتال، وتبين أهدافهم، مؤكدة أنهم يقاتلون في سبيل الله ولمصلحة عباد الله، وأن الكافرين يقاتلون في سبيل الطاغوت المتجبر: «الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت» أي أن الحياة في كل الأحوال لا تخلو من الكفاح والصراع، غير أن جمعاً يقاتلون في طريق الحق، وجمعاً يقاتلون في طريق الشيطان والباطل.

لذلك تطلب الآية من أنصار الحق أن ينبروا لقتال أنصار الشيطان دونما رهبة وخوف: «فقاتلوا أولياء الشيطان».

كما توضح هذه الآية حقيقة مهمة، هي أن الطاغوت والقوى المتجبرة - مهما إمتلكت من قوة ظاهرية - ضعيفة في نفسها وجبانية في باطنها، وبهذا تطمئن الآية

المؤمنين كي لا يخافوا من هؤلاء الطواغيت مهما أوتوا من عدّة أو عدد، لأنّهم خالون من الهدف فارغون من الإيمان، ولذلك كانت خططهم كلها ضعيفة خاوية كقدرتهم ولأنّهم لا يعتمدون على منشأ القدرة الأزلية الأبدية الذي هو الله العزيز القدير؛ بل يعتمدون على قدرة الشيطان الضعيفة الجوفاء: «إنّ كيد الشيطان كان ضعيفاً».

أما سبب قوة المؤمنين من أنصار الحق فيعود إلى أنّهم يسرون في طريق أهداف وحقائق تنسجم مع قانون الخليقة والوجود، وتتمتع بالصفة الأزلية الأبدية، فهم يجاهدون في سبيل تحرير الإنسان ومحو آثار الظلم والعدوان بينما الطاغوت وأنصاره يقاتلون من أجل منافعهم الشخصية أو يعملون في خدمة الطواغيت والمستكبرين من أجل إستغلال البشر إرضاءً لشهواتهم الفانية الزائلة، الأمر الذي يدفع في النهاية بالمجتمع إلى الانحطاط والزوال، لأنّ عمل الطواغيت يتناقض وسرّ الوجود ويتعارض مع قوانين الفطرة والطبيعة. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإنّ المؤمنين باعتمادهم على القوى الروحية يتمتعون بثقة عالية بالنفس وبهدوء باطني يمهد لهم سبيل النصر والفوز على العدو، بل ويهبهم القوة والقدرة على الإندفاع لمواجهة الأعداء، بينما العدو والكافر لا يعتمد على أساس قوي أبداً.

وتجدر الملاحظة هنا أنّ الآية قرنت الطاغوت بالشيطان، وهذا يدل على أنّ القوى الطاغوتية المتجبرة إنّما تستمد القوة والعون من منبع ضعيف يتمثل في القوى الشيطانية والجوفاء.

هذا المضمون تذكره - أيضاً - الآية (٢٧) من سورة الأعراف: «إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون».

الآية

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا
الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ
كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ
لَوْلَا أَخَذْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَّعْتُ الدُّنْيَا قَلِيلًا وَالْآخِرَةُ
خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظَلَّمُونَ فِتْيَلًا ﴿٧﴾

سبب النزول

روى جمع من المفسرين كالشيخ الطوسي في التبيان، والقرطبي وصاحب
النار عن ابن عباس أن نفراً من المسلمين كانوا أثناء وجودهم في مكة قبل
الهجرة يعانون من ضغط المشركين وإذاءهم، فجاءوا إلى النبي ﷺ وطلبوا منه
أن يسمح لهم بقتال الأعداء فأجابهم النبي في حينه أنه لم يؤمر بالجهاد.
ومضت أيام على طلب هؤلاء، حتى هاجر المسلمون إلى المدينة وتهيأت
هناك ظروف وشروط الجهاد المسلح، وأمر الله المسلمين بالجهاد، فأخذ بعض
من أولئك نفر الذين كانوا يصرون على النبي للسماح لهم بالجهاد وقتال الأعداء
في مكة يظهرون الكسل والتهاون في تنفيذ الأمر الإلهي، ولم يبدو أي حماس أو
رغبة في الجهاد، كما كانوا يظهرون ذلك في مكة، فنزلت هذه الآية وهي تحت

المسلمين على الجهاد وتؤنب المتهاونين والمتقاعسين عن هذا الواجب الحساس.

وقد تطرقت الآية الكريمة إلى عدد من الحقائق في هذا الصدد.

التفسير

قوم بضاعتهم الكلام دون العمل:

تحدث الآية بلغة التعجب من أمر نفر أظهروا رغبة شديدة في الجهاد خلال ظرف غير مناسب، وأصرّوا على السماح لهم بذلك، وقد صدرت الأوامر لهم - حينئذ - بالصبر والإحتمال، ودعوا إلى إقامة الصلاة، وأداء الزكاة، وبعد أن سنحت الفرصة وآتت الظروف للجهاد بصورة كاملة وأمروا به، إستولى على هؤلاء النفرة الخوف والرعب، وانبروا يعترضون على الأمر الإلهي ويتهاونون في أدائه.

تقول الآية: ﴿ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية...﴾ فكان هؤلاء في اعتراضهم على أمر الجهاد يقولون صراحة: لماذا أسرع الله في إنزال أمر الجهاد؟ ويتمنون لو أخرج الله هذا الأمر ولو قليلاً! أو يطلبون أن يناط أمر الجهاد للأجيال القادمة^(١) ﴿وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب...﴾.

والقرآن الكريم يردّ على هؤلاء أولاً من خلال عبارة: ﴿يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية﴾ أي أن هؤلاء بدل أن يخافوا الله القادر القهار، أخذتهم الرّجفة واستولى عليهم الرعب من إنسان ضعيف عاجز، بل أصبح خوفهم من هذا

١- تدل بعض الأحاديث أن هذا نفر من المسلمين كان قد سمع بحديث نهضة المهدي المنتظر، فكان البعض منهم يترقب أن يؤخر الجهاد إلى زمن المهدي عليه السلام، تفسير نور الثقلين، الجزء الأول، ص ٥١٨.

الإِنسان أكبر من خشيتهم الله العلي القدير.

ثم يواجه القرآن هؤلاء بهذه الحقيقة: لو أنّهم استطاعوا بعد تركهم الجهاد أن يوفروا لأنفسهم - فرضاً - حياة قصيرة رغبة هائلة، فإنّهم سيخسرون هذه الحياة لأنّها زائلة لا محالة، بينما الحياة الأبدية التي وعد الله بها عباده المؤمنين المجاهدين الذين يخشونه ولا يخشون سواه، هي خير من تلك الحياة الزائلة، وإنّ المتقين سيلقون فيها ثوابهم كاملاً غير منقوص دون أن يصيبهم أي ظلم، «قل متاع الحياة الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلاً»^(١).

من الضروري الالتفات إلى عدة نقاط في تفسير هذه الآية، وهي:

١ - لماذا أمرت أولئك نفر بإقامة الصلاة وأداء الزكاة دون غيرهما من

الفرائض الكثيرة الأخرى؟

والجواب على هذا السؤال يتلخص في أنّ الصلاة هي سرّ الإتصال بالله سبحانه عزّ وجل، والزكاة تعتبر مفتاحاً لباب الإتصال بعباد الله، وعلى هذا الأساس فقد صدرت الأوامر للمسلمين بأن يعدّوا أنفسهم وأرواحهم ومجتمعهم للجهاد في سبيل الله، عن طريقة إقامة الصلة الوثيقة بينهم وبين الله وعباده، وبعبارة أخرى أن يسعوا إلى بناء أنفسهم وإعدادها، وبديهي أن أي جهاد يحتاج بالضرورة إلى إعداد النفس والروح، وإلى توثيق عُرى التلاحم الاجتماعي، وبدون ذلك لا يمكن إحراز أي إنتصار.

والإنسان يقوي صلته بالله من خلال الصلاة ويربّي بها روحه ومعنوياته، فيكون بذلك مستعداً لتقديم أغلى التضحيات بما في ذلك التضحية بالنفس، كما أنّ الزكاة هي الوسيلة الوحيدة لرأب كل صدع اجتماعي، بالإضافة إلى كونها دعماً اقتصادياً في سبيل إعداد ذوي الخبرة والتجربة والعُدّة الحربية، وما

١ - القتيل يعني الشجرة الرقيقة جداً الموجودة بين فلتقي نواة التمر. وقد تطرقنا إلى شرح ذلك في الآية (٢٩) من سورة النساء وفي هذا المجلد من تفسيرنا هذا.

يحتاجه المسلمون في قتال الأعداء ليكونوا على استعداد لمواجهة العدو إذا صدر الأمر إليهم بذلك.

٢- المعروف أن حكم الزكاة ورد في آيات نزلت في المدينة (أي أنها آيات مدنية) ولم يكلف المسلمون بأداء الزكاة في مكة - فكيف إذن يمكن القول إن هذه الآية تتحدث عن وضع المسلمين في مكة؟

يجيب على هذا السؤال الشيخ الطوسي رحمته الله في تفسير «التبيان» فيقول: إن المقصود بالزكاة الواردة في هذه الآية هو الزكاة المستحبة التي كانت معروفة في مكة، أي أن القرآن المجيد كان يحث المسلمين حتى في مكة على تقديم المساعدات المالية إلى مستحقيها ولدعم اقتصاد المجتمع الإسلامي الجديد في مكة.

٣- وتشير هذه الآية الكريمة إلى حقيقة مهمة، هي أن المسلمين في مكة كان لهم منهج، ثم أصبح لهم في المدينة منهج آخر، ففي مكة انشغل المسلمون ببناء شخصيتهم الإسلامية بعد أن تحرروا من أدران الجاهلية، فكان سعي النبي ﷺ في مكة منصباً على تربية هؤلاء الذين نبذوا عبادة الأصنام ليجعل منهم أناساً يسترخصون النفس والنفيس في مواجهة ما يعترض سبيل المسلمين من تحديات، فما أحرزه المسلمون من إنتصارات باهرة في المدينة المنورة، كان حصيلة عملية بناء الشخصية الإسلامية، هذه العملية التي تعهدت بها رسالة الإسلام في مكة.

لقد تعلم المسلمون الكثير في مكة ومارسوا تجارب جعة واكتسبوا استعداداً روحياً ومعنوياً عظيماً خلال العهد المكي، ودليل هذا الأمر هو نزول قرابة التسعين سورة - من مجموع سور القرآن الكريم البالغة مائة وأربع وعشرة سورة - في مكة، وقد تناولت هذه السور في الغالب الجوانب العقائدية التربوية الخاصة بإعداد الشخصية الإسلامية - أما في المدينة فقد انصرف المسلمون إلى

تشكيل الحكومة الإسلامية وإقامة أسس المجتمع الإسلامي السليم.
ويدل هذه - أيضاً - على عدم نزول حكم الجهاد والزكاة الواجبين في العصر
المكي لأنَّ الجهاد من واجبات الحكومة الإسلامية مثل تشكيل بيت المال فإنه
من شؤون الحكومة الإسلامية أيضاً.



الآيتان

أَيُّهَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ وَإِنْ
تُصِيبُهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ
يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلُّ مَنْ عِنْدَ اللَّهِ فَسَالٍ هَكْوَلًا
الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ
اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ
رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾

التفسير

نستنتج من الآيات السابقة واللاحقة أنّ هاتين الآيتين تقصدان مجموعة من
المنافقين تسللوا إلى صفوف المسلمين، وقد قرأنا في الآيات السابقة أن هؤلاء
قد أبدوا الخوف والقلق من المشاركة في مسؤولية الجهاد، وقد ظهر عليهم
الضعف والإستياء حين نزول حكم الجهاد، فردّ عليهم القرآن الكريم وأنبتهم
لموقفهم هذا بقوله: ﴿قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى﴾^(١) موضحاً أن
الحياة بكل زخارفها سرعان ما تزول، وإنّ ما يناله المؤمنون الذين يخشون الله

ولا يصونه من الخير والثواب هو خير من كل ما في هذه الدنيا من خيرات.
وفي هذا المقطع القرآني ردّ آخر على أولئك المناققين، حيث بيّن أن الموت
أتيمهم يوماً لا محالة، حتى إذا تحصنوا في قلاع عالية ومنيعة بحسب ظنّهم،
ومادام الموت يدرك الإنسان بهذه الصورة أليس من الخير له أن يموت على
طريق مشرّ وصحيح كالجهاد؟!

ومما يلفت الإتياب أن القرآن الكريم يطلق في مواقع متعددة اسم «اليقين»
على الموت، كما في الآية (٩٩) من سورة الحجر، والآية (٤٨) من سورة المدثر -
ومعنى هذه العبارة القرآنية هو أن الإنسان مهما كانت عقيدته - يؤمن بوجود
الموت إيماناً لا يخامره فيه شك مطلقاً، ومهما أنكر المرء من حقائق لا يستطيع
إنكار الموت الذي يشهده بأمر عينه أو يسمع عنه كل يوم، والإنسان الذي يحب
الحياة ويخال أن الموت هو الفناء الذي لا حياة بعده أبداً يخاف من ذكر الموت
ويفر من مظهره.

الآيتان الأخيرتان تؤكدان حقيقة عدم جدوى الفرار من الموت، فهو يدرك
الإنسان يوماً ما لا محالة، وهو حقيقة قطعية يقينية في عالم الوجود.
وعبارة «يدرككم» الواردة في الآية الأولى تعني الملاحقة، واللاحق هو
الموت الذي يدرك الإنسان، وتوحي بأنّ الفرار لا ينقذ الإنسان من هذا المصير
الحتمي.

وتؤكد الحقيقة المذكورة الآية الثامنة من سورة الجمعة إذ تقول: «قل إنّ
الموت الذي تفرّون منه فإنّه ملاقيكم».

إذن ليس من العقل والمنطق أن يدرك الإنسان هذه الحقيقة ويفر بعد ذلك من
ميدان الجهاد، ويحرم نفسه أشرف ميتة وهي الشهادة في سبيل الله، فيموت على
فراشه فلو عاش الإنسان بعد فراره من الجهاد أياماً أو شهوراً أو سنوات لتكرّر ما
فعل ولتكررت أمامه المشاهد الماضية، فهل من العقل أن يحرم الإنسان نفسه

لأجل هذه المتكررات من الثواب الأبدى الذي يناله المجاهد في سبيل الله؟!
وهنا أمر ثانٍ يجب الإنتباه له في الآية الأولى من هاتين الآيتين، وهو عبارة
«بروج مشيدة»^(١) التي تؤكد أنّ الموت لا تحول دونه القلاع والحصون المنيعة
العالية، والسرّ في هذا الأمر هو أنّ الموت الطبيعي لا يدهم الإنسان من خارج
وجوده - خلافاً لما يتصورون - ولا يحتاج إلى اجتياز القلاع والحصون، بل يأتي
من داخل وجود الإنسان حيث تقف أجهزة الإنسان عن العمل بعد نفاذ قدرتها
المحدودة على البقاء.

نعم، الموت غير الطبيعي يأتي الإنسان طبعاً من خارج وجوده، وبذلك قد
تنفع القلاع والحصون في تأخير هذا النوع من الموت عنه.
ولكن ماذا ستكون النهاية والنتيجة؟ هل بمقدور القلاع والحصون أن تحول
دون وصول الموت الطبيعي الذي سيدرك الإنسان - دون شك - في يوم من
الإيام؟!

من أين تأتي الإنتصارات والهزائم؟

يشير القرآن في هاتين الآيتين إلى وهم آخر من أوهام المنافقين، حين
يوضح أن هؤلاء إذا أحرزوا نصراً أو غنموا خيراً قالوا: إن الله هو الذي أنعم عليهم
بذلك، وزعموا أنهم أهل لهذه النعمة: «وإن تصيبهم حسنة يقولوا هذه من عند
الله».

أما إذا مني هؤلاء بهزيمة أو لحقهم أذى في ميدان القتال، ألقوا اللوم على
النبي ﷺ وافتروا عليه بقولهم إن ما نالهم من سوء هو من عنده، متهمين خططه

١ - «مشيدة» في الاصل من مادة «شيد» على وزن قيل، بمعنى الجص والمواد الأخرى التي تستخدم لتقوية
البينان، وبما أن أكثر المواد استعمالاً في البناء في تلك الأزمنة هو الجص فإن هذه الكلمة تطلق عليه عادة، فيكون
معنى «بروج مشيدة» هو القلاع الرصينة والمتينة، وقد تستعمل ويراد بها المرتفعة والعالية. وذلك أيضاً لنفس السبب
لأنه من دون استخدام الجص لم يكن بالإمكان بناء تلك الابنية امرتفعة.

العسكرية بالضعف، من ذلك ما حدث في غزوة أحد، تقول الآية: ﴿وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك...﴾.

ويحتمل بعض المفسرين أن تكون هذه الآية قد نزلت بشأن اليهود، ويرون أن المقصود بالحسنة والسيئة - هنا - هو ما كان يحدث من وقائع سارة وضارة، حيث كان اليهود حين بعثة النبي ﷺ ينسبون كلَّ حدث سار ونافع إلى الله، ويعزرون حدوث الوقائع الضارة إلى وجود النبي ﷺ بين ظهرانيهم، بينما اتصال الآية بالآيات السابقة والتالية - التي يدور الحديث فيها عن المنافقين - يدل على أن المقصود في هذه الآية الأخيرة هم المنافقون.

ومهما يكن من أمر، فإن القرآن الكريم يردّ على هؤلاء مؤكداً إنَّ الإنسان المسلم الموحد الذي يؤمن صادقاً بالله ويعبده ولا يعبد سواه، إنما يعتقد بأن كلِّ الوقائع والأحداث والإنصارات والهزائم هي بيد الله العليم الحكيم، فالله هو الذي يهب الإنسان ما يستحقه ويعطيه بحسب قيمته الوجودية، وفي هذا المجال تقول الآية: ﴿قل كل من عند الله﴾.

والآية - هذه - تحمل في آخرها تقييماً وتأييماً للمنافقين الذين لا يتفكرون ولا يمعنون في حقائق الحياة المختلفة، حيث تقول: ﴿فإن هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً﴾.

وبعد هذا - في الآية التالية - يصرّح القرآن بأن كل ما يصيب الإنسان من خيرات وفوائد وكل ما يواجهه الكائن البشري من سرور وإنصارات هو من عند الله، وإن ما يحصل للإنسان من سوء وضرر وهزيمة أو خسارة فهو بسبب الإنسان نفسه تقول الآية: ﴿ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك...﴾ وتردّ الآية في آخرها على أولئك الذين كانوا يرون وجود النبي ﷺ سبباً لوقوع الحوادث المؤسفة فيما بينهم فتقول: ﴿وإرسلناك للناس رسولا وكفى بالله شهيدا﴾.

جواب على سؤال مهم:

السؤال المهم الذي يتبادر إلى الذهن حين قراءة هاتين الآيتين الأخيرتين هو: لماذا نسب الخير والشر في الآية الأولى كَلَهُ اللهُ؟ ولماذا حصرت الآية التالية الخير - وحده - اللهُ، ونسبت الشر إلى الإنسان؟ حين نعمن النظر في الآيتين تواجهنا عدة أمور، يمكن لكل منها أن يكون هو الجواب على هذا السؤال.

١ - لو أجرينا تحليلاً على عناصر تكوين الشر لرأينا أنّ لها اتجاهين: أحدهما إيجابي والآخر سلبي، والاتجاه الأخير هو الذي يجسد شكل الشر أو السيئة ويبرزه على صورة «خسارة نسبية» فالإنسان الذي يقدم على قتل نظيره بسلاح ناري أو سلاح بارد يكون قد ارتكب بالطبع عملاً شريراً وسيئاً، فما هي إذن عوامل حدوث هذا العمل الشرير؟

إنّها تتكون من: أولاً: قدرة الإنسان وعقله وقدرة السلاح والقدرة على الرمي والتهديف الصحيحين واختيار المكان والزمان المناسبين، وهذه تشكل عناصر الاتجاه الإيجابي للقضية، لأنّ كل عنصر منها يستطيع في حدّ ذاته أن يستخدم كعامل لفعل حسن إذا استغل الاستغلال الحكيم، أمّا الاتجاه السلبي فهو في استغلال كل من هذه العناصر في غير محله، فبدلاً من أن يستخدم السلاح لدرء خطر حيوان مفترس أو للتصدي لقاتل ومجرم خطير، يُستخدم في قتل إنسان بريء، فيجسد بذلك فعل الشر، وإلّا فإنّ قدرة الإنسان وعقله وقدرته على الرمي والتهديف، وأصل السلاح وكل هذه العناصر، يمكن أن يستفاد منها في مجال الخير.

وحين تنسب الآية الأولى الخير والشرّ كَلَهُ اللهُ، فإن ذلك معناه أنّ مصادر القوّة جميعها بيد الله العليم القدير حتى تلك القوّة التي يساء استخدامها، ومن هذا المنطلق تنسب الخير والشرّ لله، لأنّه هو واهب القوى.

والآية الثانية: تنسب «السيئات» إلى الناس إنطلاقاً من مفهوم «الجوانب السلبية» للقضية ومن الإساءة في استخدام المواهب الإلهية.

تماماً مثل والد وهب ابنه مالاً ليبنى به داراً جديدة، لكن هذا الولد بدلاً من أن يستخدم هذا المال في بناء البيت المطلوب، اشترى مخدرات ضارة أو صرفه في مجالات الفساد والفحشاء، لا شك أن الوالد هو مصدر هذا المال، لكن أحداً لا ينسب تصرف الابن لوالده، لأنه أعطاه للولد لغرض خيري حسن، لكن الولد أساء استغلال المال، فهو فاعل الشر، وليس لوالده دخل في فعلته هذه.

٢- ويمكن القول - أيضاً - بأن الآية الكريمة إنما تشير إلى موضوع «الأمر بين الأمرين».

وهذه قضية بحثت في مسألة الجبر والتفويض، وخلاصة القول فيها أن جميع وقائع العالم خيراً كانت أم شراً - هي من جانب واحد تتصل بالله سبحانه التقدير لأنه هو الذي وهب الإنسان القدرة والقوة وحرية الإختيار والإختيار، وعلى هذا الأساس فإن كل ما يختاره الإنسان ويفعله بإرادته وحرية لا يخرج عن إرادة الله، لكن هذا الفعل ينسب للإنسان لأنه صادر عن وجوده، وإرادته هي التي تحدد اتجاه الفعل.

ومن هنا فإننا مسؤولون عن أعمالنا، واستناد أعمالنا إلى الله - بالشكل الذي أوضحناه - لا يسلب عنا المسؤولية ولا يؤدي إلى الإعتقاد بالجبر.

وعلى هذا الأساس حين تنسب «الحسنات» و«السيئات» إلى الله سبحانه وتعالى، فلفاعلية الله في كل شيء، وحين تنسب السيئة إلى الإنسان فلإرادته وحرية في الإختيار.

وحصيلة هذا البحث إن الآيتين معاً تثبتان قضية الأمر «الأمر بين الأمرين» (تأمل بدقة)!

٣- هناك تفسير ثالث للآيتين ورد فيما أثر عن أهل البيت عليهم السلام، وهو أن

المقصود من عبارة التَّيِّبَاتِ جزاء الأعمال السيئة وعقوبة المعاصي التي ينزلها الله بالعاصين، ولما كانت العقوبة هي نتيجة لأفعال العاصين من العباد، لذلك تنسب أحياناً إلى العباد أنفسهم وأحياناً أخرى إلى الله، وكلا النسبتين صحيحتان، إذ يمكن القول في قضية إنَّ القاضي هو الذي قطع يد السارق، كما يجوز أن يقال إنَّ السارق هو السبب في قطع يده لارتكابه السرقة.



الآياتان

مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾

التفسير

سنة النبي ﷺ بمنزلة الوحي:

توضح الآية الأولى موضع النبي ﷺ من الناس وحسناتهم وسيئاتهم وتؤكد أولاً بأن إطاعة النبي ﷺ هي في الحقيقة طاعة لله: «ومن يطع الرسول فقد أطاع الله...» أي لا انفصال بين طاعة الله وطاعة الرسول، وذلك لأن النبي ﷺ لا يخطو أية خطوة خلافاً لإرادة الله... كل ما يصدر منه من فعل وقول وتقرير إنما يطابق إرادة الله سبحانه وتعالى ومشيئته.

ثم تبين إن النبي ﷺ ليس مسؤولاً عن الذين يتجاهلون ويخالفون أوامره، كما أنه ليس مكلفاً بإرغام هؤلاء على ترك العصيان، بل إن مسؤولية النبي ﷺ هي الدعوة للرسالة الإلهية التي بعث بها، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإرشاد الضالين والغافلين تقول الآية: «ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظاً».

وتجدر الإشارة هنا إلى أن كلمة «حفيظ» صفة مشبهة باسم الفاعل، وتدل على ثبات واستمرار الصفة في الموصوف، بخلاف اسم الفاعل «حافظ»، فعبارة «حفيظ» تعني الذي يراقب ويحافظ بصورة دائمة مستمرة، ويستدل من الآية على أن واجب النبي ﷺ هو قيادة الناس وهدايتهم وإرشادهم، ودعوتهم إلى اتباع الحق واجتناب الباطل، ومكافحة الفساد، وحين يصر البعض على اتباع طريق الباطل والانحراف عن جادة الحق، فلا النبي ﷺ مسؤول عن هذه الانحرافات، ولا المطلوب منه أن يراقب هؤلاء المنحرفين في كل صغيرة وكبيرة، كما ليس المطلوب منه ﷺ أن يستخدم القوة لإرغام المنحرفين على العدول عن انحرافهم، ولا يمكنه بالوسائل العادية القيام بمثل هذه الأعمال.

وعلى هذا الأساس، فإن الآية قد تكون - أيضاً - إشارة إلى غزوات كغزوة أحد حيث كان النبي ﷺ مكلفاً - فقط - بتجنيد الإمكانات المتوفرة من الناحية العسكرية في إعداد خطة للدفاع عن المسلمين حيال هجمات الأعداء، وبديهي أن تكون إطاعة الرسول ﷺ في هذا الأمر إطاعة الله، ولو افترضنا أن أفراداً عصوا الرسول في هذا المجال وأدى عصيانهم إلى تراجع المسلمين، فالعاصون - وحدهم - هم المسؤولون عن ذلك، وليس الرسول ﷺ.

والأمر المهم الآخر في هذه الآية هو أنها واحدة من أكثر آيات القرآن دلالة على حجية السنة النبوية الشريفة، فهي حكم بوجود الازعان للأحاديث الصحيحة المروية عنه ﷺ، واستناداً إلى هذه الآية لا يجوز لأحد القول بقبول القرآن وحده وعدم قبول أحاديث وسنة النبي ﷺ، لأن الآية صريحة بأن إطاعة أقوال النبي ﷺ وأحاديثه المروية عنه بطرق صحيحة، هي بمثابة إطاعة الله.

ومن المنطلق نفسه تثبت حقيقة أخرى، هي ضرورة إطاعة أئمة أهل بيت النبي ﷺ، وهي ما أكد عليها حديث «الثقلين» الوارد في المصادر الإسلامية السنية والشيعية، وفيه بين النبي ﷺ - صراحة - حجية أحاديث أئمة أهل

البيت ﷺ، ومنه نستنتج أن إطاعة أوامرهم هي إطاعة للرسول وبالنتيجة إطاعة لله تعالى، ولما كانت أحاديث أئمة أهل البيت ﷺ بمثابة أحاديث النبي ﷺ، فلا يستطيع أحد أن يقول: إنني أقبل القرآن وأرفض أحاديث أهل البيت ﷺ، فذلك نقض للآية المذكورة أعلاه وللآيات المشابهة.

ولذلك نقرأ في الأحاديث التي أوردها صاحب تفسير البرهان في تفسير هذه الآية ما يؤكد هذه الحقيقة:

إن الله وهب نبيه حق الأمر والنهي في الآية المذكورة، والتبني ﷺ بدوره وهب هذا الحق لعلي بن أبي طالب ﷺ وسائر الأئمة ﷺ من بعده، والناس ملزمون بإطاعة أوامر هذه النخبة الطاهرة ﷺ، لأن أوامر ونواهي النبي ﷺ والأئمة من أهل بيته الكرام هي أوامر ونواهي الله، وطاعتهم طاعة لله، وهم لا يأتون بشيء من عند أنفسهم وكل ما جاؤوا به للمسلمين هو من عند الله. (١)

أما الآية الثانية ففيها إشارة إلى وضع نفر من المناققين أو المتذبذبين من ضعاف الإيمان، الذين يتظاهرون حين يحضرون عند النبي ﷺ والمسلمين بأنهم مع الجماعة، ويظهرون الطاعة للرسول ﷺ ليدفعوا بذلك الضرر عن أنفسهم وليحموا مصالحهم الخاصة، بدعوى الإخلاص والطاعة للنبي ﷺ «ويقولون طاعة».

وبعد أن ينصرف الناس من عند النبي ﷺ ويختلي هؤلاء بأنفسهم يتجاهلون عهودهم في إطاعة النبي ويتآمرون في ندواتهم الخاصة - السرية الليلية - على أقوال النبي: «فإذا برزوا من عندك بيّت طائفة منهم غير الذي تقول ...».

نعرف من هذه الآية أن المناققين في زمن الرسول ﷺ كانوا لا يألون جهداً في التآمر على النبي ﷺ، وكانوا يخططون في إجتماعاتهم السرية للوقوف

بوجه الدعوة.

ولكن الله يأمر نبيّه بأن لا يلتفت إلى مكائد هؤلاء، وأن لا يخافهم ولا يخشى
خططهم وأن يتجنب الإعتماد عليهم في مشاريعه، بل يتوكل على الله الذي هو
خير ناصر ومعين: ﴿فاعرض عنهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً﴾.

* * *

الآية

أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ
أَخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾

التفسير

خلو القرآن من الإختلاف دليل حي على إعجازه:

هذه الآية تخاطب المنافقين وسائر الذين يرتابون من حقيقة القرآن المجيد، وتطلب منهم - بصيغة السؤال - أن يحققوا في خصائص القرآن ليعرفوا بأنفسهم أن القرآن وحي منزل، ولو لم يكن كذلك لكثرت فيه التناقض والإختلاف، وإذا تحقق لديهم عدم وجود الإختلاف، فعليهم أن يدعوا أنه وحي من الله تعالى. والتدبر من مادة «دبر» وهو مؤخر الشيء وعاقبته «التدبر» المطلوب في هذه الآية هو البحث عن نتائج آثار الشيء، والفرق بين التدبر والتفكر هو أن الأخير يعني التحقيق في علل وخصائص الموجود، أما التدبر فهو التحقيق في نتائجه وآثاره.

ونستدل من هذه الآية على عدة أمور:

١- إن الناس مكلفون بالبحث والتحقيق في أصول الدين والمسائل المشابهة لها، مثل صدق دعوى النبي ﷺ، وحقانية القرآن، وأن يتجنبوا التقليد

والمحاكاة في مثل هذه الحالات.

٢- إن القرآن - خلافاً لما يظن البعض - قابل للفهم والإدراك للجميع، ولو كان على غير هذه الصورة لما أمر الله بالتدبر فيه.

٣- أحد الأدلة التي تثبت أن القرآن حق، وأنه منزل من الله الحكيم العليم خلوه المطلق من كل تناقض أو إختلاف.

ولتوضيح هذه الحقيقة نقول:

الجوانب الروحية للإنسان تتغير باستمرار، «قانون التكامل» - في الظروف العادية الخالية من الأوضاع الاستثنائية - يستوعب الإنسان وجوانبه الروحية وأفكاره، وبمرور الأيام يتغير بموجب هذا القانون كلام الإنسان وفكره وأحاديثه.

لو أمعنا النظر فيما يكتبه الكتاب، لما وجدنا مؤلفات الكاتب الواحد على نمط واحد، بل أن بداية كل كتاب تختلف أيضاً عن نهايته.

هذا التغيير يزداد سرعة حين يعيش الإنسان في خضم أحداث كبرى كالتى تصاحب إرساء قواعد ثورة فكرية وإجتماعية وعقائدية شاملة، الشخص الذي يعيش مثل هذه التحولات الإجتماعية الكبرى لا يستطيع أن يسيطر على وحدة كلامه، ولا يمكنه أن يوجد إنسجاماً كاملاً في أقواله، خاصة إذا كان هذا الشخص غير متعلم، وكان ناشئاً في بيئة إجتماعية متخلفة.

والقرآن كتاب نزل خلال مدة (٢٣) عاماً بحسب ما يحتاجه الناس من تربية وتوجيه في الظروف المختلفة، وموضوعات القرآن متنوعة، فهو لا يشبه كتاباً عادياً متخصصاً في بحث إجتماعي أو سياسي أو فلسفي أو حقوقي أو تاريخي، بل هو يتحدث تارة عن التوحيد وأسرار الخليفة، وتارة يطرح القوانين والأحكام والآداب والسنن، وتارة يقص علينا أخبار الأمم السابقة، وتارة يتناول المواعظ والنصائح والعبادات وإرتباط العبد بخالقه.

وكما يقول (غوستاف لوبون): القرآن - كتاب المسلمين السماوي - لا يقتصر على التعاليم الدينية، بل يتناول - أيضاً - الأحكام السياسية والاجتماعية للمسلمين.

مثل هذا الكتاب - بهذه الخصائص - لا يمكن أن يكون - عادة - خالياً من التناقض والتضاد والإختلاف والتأرجح، أمّا حين نرى هذا الكتاب - مع كل ذلك - متناسقاً متوازناً في آياته خالياً من كل تضاد وإختلاف نستطيع أن نفهم - بوضوح - أن هذا الكتاب ليس وليد فكر بشري، بل هو من قبل الله تعالى، كما تذكر الآية الكريمة أعلاه.



الآية

وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَدَّعَوْا بِهٖ وَلَوَّزَدُوهُ إِلَى
الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ
وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا

قَلِيلًا ﴿٨٢﴾

التفسير

نشر الإشاعات:

تشير هذه الآية إلى حركة منحرفة أخرى من حركات المنافقين أو ضعاف الإيمان، تتمثل في سعيهم إلى تلقف أي نبا عن إنتصار المسلمين أو هزيمتهم، وبشء بين الناس في كل مكان، دون التحقيق والتدقيق في أصل هذا النبا أو التأكد من مصدره، وكان الكثير من هذه الأنباء لا يتعدى إشاعة عمد أعداء المسلمين إلى بثها لتحقيق أهدافهم الدنيئة وليسئوا إلى معنويات المسلمين ويضروا بهم، ﴿وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به..﴾.

بينما كان من واجب هؤلاء أن يوصلوا هذه الأخبار إلى قادتهم كي يستفيدوا من معلومات هؤلاء القادة وفكرهم ولكي يتجنبوا دفع المسلمين إلى حالة من الغرور حيال إنتصارات خيالية وهمية، أو إلى إضعاف معنوياتهم بإشاعة أنباء عن هزيمة لا حقيقة لها، ﴿ولو ردوه إلى الرسول وإلى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ

يستنبطونه منهم...».

«يستنبطونه» من مادة «نبط» التي تعني أوّل ما يستخرج من ماء البئر أو الينبوع، والإستنباط استخراج الحقيقة من الأدلة والشواهد والوثائق، سواء كانت العملية في الفقه أو الفلسفة أو السياسة أو سائر العلوم.

«أولي الأمر» في الآية هم المحيطون بالأمر القادرون على أن يوضحوا للناس ما كان حقيقياً منها وما كان إشاعة فارغة. وهم النبي ﷺ وخلفاؤه من أئمة أهل البيت عليهم السلام بالدرجة الأولى.

ويأتي من بعدهم العلماء المتخصصون في هذه المسائل.

روي عن الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام في تفسير «أولي الأمر» في هذه الآية قال: «هم الأئمة» كما في تفسير نور الثقلين، وهناك روايات أخرى أيضاً في هذا المجال بنفس المضمون.

ولعل هناك من يعترض على هذه الروايات قائلاً: إن الأئمة من أهل البيت عليهم السلام لم يكونوا موجودين في زمن نزول هذه الآية، ولم يتعين أحد منهم في ذلك الوقت بمنصب الإمامة أو الولاية، فكيف يمكن القول بأنهم هم المعنيون بهذه الآية؟

والجواب على هذا الاعتراض: هو أن هذه الآية مثل سائر الآيات القرآنية الأخرى لا تقتصر على زمن الرسول ﷺ فقط، بل تحمل حكماً عاماً يشمل كل الأزمنة والقرون التالية لمواجهة الإشاعات التي يبثها الأعداء أو البُسطاء من المسلمين بين الأمة.

أضرار إختلاق الإشاعة ونشرها:

لقد ابتليت المجتمعات البشرية وعانت الكثير من المصائب والنكبات الرهيبة، بسبب بروز ظاهرة إختلاق الإشاعة ونشرها بين الأفراد حيث كانت تؤثر تأثيراً سلبياً كبيراً على معنويات أفراد المجتمع، وتضعف فيهم الروح الإجماعية وروح التفاهم والتعاون بين أبناء المجتمع الواحد.

وتبدأ الإشاعة بأن يخلق منافق كذبة، ثم ينشرها بين أفراد مغرضين أو بسطاء، ليقوموا بدورهم بالترويج لها بين أبناء المجتمع دون التحقيق فيها، بل يهلونها ويفرعونها مما يؤدي إلى استنزاف مقدار كبير من طاقات الناس وأفكارهم وأوقاتهم، وإلى إثارة القلق والإضطراب بينهم، وكثيراً ما تؤدي الإشاعة إلى زعزعة الثقة بين أفراد المجتمع، وتؤدي إلى خلق حالة من اللامبالاة والتردد في أداء المسؤوليات.

ومع أن بعض المجتمعات التي تعاني من الكبت والإرهاب تعتمد إلى الإشاعة كأسلوب من الكفاح السلبي، إنتقاماً من الحكومات الطاغية الجائرة، فالإشاعة بحد ذاتها تعتبر خطراً كبيراً على المجتمعات السليمة، فإذا إتجهت الإشاعة إلى الأفراد الكفوئين من المفكرين والخبراء والعاملين في المرافق الهامة للمجتمع، فإنها ستؤدي إلى حالة من البرود في نشاطات هؤلاء، وقد تصادر مكانتهم الاجتماعية، وتحرم المجتمع من خدماتهم.

من هنا كافح الإسلام بشدة «إختلاق الإشاعات» والإفتراء والكذب والتهمة، مثل ما حارب نشر الإشاعات كما في هذه الآية.

وتؤكد الآية في ختامها على أن الله قد صان المسلمين بفضله ولطفه وكرمه من آثار إشاعات المنافقين والمغرضين وضعاف الإيمان، وأنقذهم من نتائجها وعواقبها الوخيمة، ولولا الإنقاذ الإلهي ما نجى من الإنزلاق في خط الشيطان إلا قليلاً: «ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلاً» أي أن النبي وأصحاب الرأي والعلماء المدققين هم وحدهم القادرون على أن يكونوا مصونين من وساوس الشائعات ومشيعيها، أما أكثرية المجتمع فلا بد لها من القيادة السليمة لتسلم من عواقب اختلاق الشائعات وشرها^(١).



١ - يتبين مما قلناه أن عبارة «إلا قليلاً» هي إستثناء من ضمير «اتبعت» ولا يوجد في الآية تقديم أو تأخير (تأمل بدقة).

الآية

فَقَتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ
عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكْفِيَ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ
تَنْكِيلًا ﴿٨٤﴾

سبب النزول

ورد في بعض التفاسير مثل «مجمع البيان» و«القرطبي» و«روح المعاني» في سبب نزول هذه الآية أنه حين عاد أبو سفيان ومعه جيش قريش منتصرين في واقعة أحد توعدوا المسلمين بالمواربة مرة أخرى في موسم «بدر الصغرى» أي وقت إقامة السوق التجارية في شهر ذي القعدة الحرام في منطقة بدر، وحين حان موعد المواجهة دعا النبي ﷺ المسلمين للإستعداد والتوجه إلى المنطقة المذكورة، إلا أن نفراً من المسلمين - الذين كانوا إلى ذلك الحين مازالوا يعانون من مرارة الهزيمة في واقعة أحد - رفضوا التحرك مع النبي، فنزلت هذه الآية، فجدد النبي ﷺ الدعوة إلى المسلمين بالتحرك، فما تبعه غير سبعين رجلاً منهم الذين حضروا موقع المواجهة، ولكن أباسفيان الذي كان قد تملكه الرعب من مواجهة المسلمين حين ولم يحضر إلى المكان الموعود وعاد الرسول ﷺ مع اصحابه سالماً إلى المدينة.

التفسير

كل إنسان مسؤول عما كلف به:

بعد ما تقدم من الآيات الكريمة حول الجهاد، تأتي هذه الآية لتعطي أمراً جديداً وخطيراً إلى الرسول الأكرم ﷺ وأنه مكلف بمواجهة الأعداء وجهادهم حتى لو بقي وحيداً ولم يرافقه أحد من المسلمين إلى ميدان القتال. لأنه ﷺ مسؤول عن أداء واجبه هو، وليس عليه مسؤولية بالنسبة للآخرين سوى التشويق والتحريض والدعوة إلى الجهاد: «فقاتل في سبيل الله لا تكلف الآ نفسك وحرص المؤمنين».

الآية تشتمل على حكم اجتماعي مهم يخص القادة، ويدعوهم إلى التزام الرأي الحازم والعمل الجاد في طريقهم ومسيرتهم نحو الهدف المقدس الذي يعملون ويدعون من أجله، حتى لو لم يجدوا من يستجيب لدعوتهم، لأن استمرار الدعوة غير مشروط باستجابة الآخرين لها، وأي قائد لا يتوفر فيه هذا الحزم فهو بلا ريب عاجز عن النهوض بمهام القيادة، فلا يستطيع أن يواصل الطريق نحو تحقيق الأهداف المرجوة خاصة القادة الإلهيون الذين يعتمدون على الله ... مصدر كل قدرة وقوة في عالم الوجود، وهو سبحانه أقوى من كل ما يدبره الأعداء من دسائس ومكائد بوجه الدعوة، لذلك تقول الآية: «عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا والله أشد بأساً^(١) وأشدّ تنكيلاً^(٢)».

معنى كلمتي «عسى» و«لعل» في كلام الله:

في كلمة «عسى» طمع وترج، وفي كلمة «لعل» طمع وإشفاق، هنا يتبادر إلى

١- البأس والبأساء بمعنى الشدة والقهر والغلبة.

٢- التنكيل من نكل في الشيء، أي ضعف وعجز، والنكل: قيد الدابة وحديدة النجم لكونهما مانعين، والتنكيل: أداء عمل يردع مشاهدته عن الذنب وهو العقاب الذي ينزل بالظالمين فيردعهم ويردع من يتعصم بعصيرهم.

الذهن سؤال هو: لو كان التمني والترجي جائزين بالنسبة للإنسان لعدم علمه بالغيب ولمحدودية قدرته وعجزه عن فعل وإنجاز كل ما يريد، فكيف يجوز استخدامهما من قبل الله العالم بالغيب والشهادة والقادر على كل شيء؟! والطمع والترجي يكونان في جاهل عاجز والله منزّه عن ذلك؟

ذهب كثير من العلماء إلى تأويل معنى كلمتي «عسى» و«لعل» الواردةتين في كلام الله فقالوا: بآتهما إذا وردتا في كلامه سبحانه عزّ وجل فإياهما تفقدان معانيهما الحقيقية الأصلية وتكتسبان معاني جديدة، وقالوا: إن كلمة «عسى» إذا أتت في كلام الله جاءت بمعنى «الوعد» وإن كلمة «لعل» تأتي في كلامه - عزّ من قائل - بمعنى «الطلب».

والحق أنّ هاتين الكلمتين لا يتغير معناهما إذا وردتا في كلام الله، ولا يستلزمان الجهل أو العجز، لكن استخدامهما يأتي في مواضع يكون الوصول فيها إلى الهدف بحاجة إلى مقدمات عديدة، فإن لم تتوفر إحدى هذه المقدمات أو بعضها لم يمكن القطع بتحقيق ذلك الهدف، بل تأتي مسألة تحقق الهدف على شكل احتمال، ويكون الحكم في هذا المجال احتمالياً.

على سبيل المثال يقول القرآن الكريم: «وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ»^(١) ولا يعني هنا أنّ رحمة الله تشمل كل من يستمع أو ينصت إلى القرآن أثناء قراءته، بل أنّ الإستماع والإنصات يكونان مقدمة من مقدمات نيل رحمة الله، وهناك مقدمات أخرى مثل فهم القرآن وتدبر آياته والعمل بأحكامه.

ويتضح من هذا أنّ تحقيق مقدمة واحدة لا يكفي لحصول النتيجة المطلوبة ولا يمكن الجزم أو القطع بحتمية تحقق النتيجة، بل كل ما يمكن الحكم به هو احتمال حدوثها، والحقيقة إن مثل هذه الكلمات حين تأتي في كلام الله، يكون

الهدف منها تنبيه السامع إلى وجود مقدمات وشروط أخرى يجب تحقيقها للوصول إلى الهدف بالإضافة إلى الشرط أو المقدمة المذكورة المصرح بها في الكلام.

وقد تبين لنا أن نيل رحمة الله لا يتحقق فقط بالإستماع والإنصات إلى القرآن فقط، بل يجب لنيل هذه الرحمة توفير المقدمات الأخرى لذلك.

من هنا فإن هذه الآية التي نبحث فيها تقول إن قدرة الكفار وقوتهم لا تزول ولا تضمحل بمجرد دعوة المؤمنين إلى الجهاد وترغيبهم فيه، بل يجب هنا - أيضاً - أن يسعى المؤمنون لتوفير المقدمات الأخرى للقضاء على قدرة الكفار، منها إعداد وسائل القتال والإلتزام بالخطة التي يضعها النبي ﷺ والسير عليها من أجل الوصول إلى الهدف النهائي.

وهكذا يتبين لنا أن لا ضرورة لصرف كلمتي «عسى» و«لعل» وأشباههما عن معانيها الحقيقية متى ما وردت في كلام الله تعالى^(١).



١ - يذكر الراقب في «المفردات» إحصائياً آخر في تفسير «عسى» و«لعل» هو أن الله تعالى إذا ذكر ذلك يذكره ليكون الإنسان منه راجعاً، لا لأن يكون الله هو الذي يرجو. أي أنه يقول للإنسان كن أنت راجعاً لا أنا الذي أرجو.

الآية

مَنْ يَشْفَعُ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعُ
شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ
مُّقْتَبًا ﴿٨٥﴾

التفسير

عواقب التحريض على الخير أو الشر:

لقد أشير في الآية السابقة إلى أن كل إنسان مسؤول عن عمله وعمّا هو
مكلف بأدائه، ولا يُسأل أي إنسان عن أفعال الآخرين.

أما هذه الآية فقد جاءت لكي تسدّ الطريق أمام كل فهم خاطيء للآية
السابقة، فبيّنت أن الإنسان إذا حرّض الغير على فعل الخير أو فعل الشر فينال
نصيباً من ذلك الخير أو الشر:

«من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها ومن يشفع شفاعة سيئة
يكن له كِفْلٌ منها...».

وهذا بحدّ ذاته - حتّى على دعوة الآخرين إلى فعل الخير والتزام جانب
الحق، ونهي الغير عن فعل الشر، كما تبين هذه الآية اهتمام القرآن بنشر الروح
الإجتماعية لدى المسلمين، ودعوتهم إلى نبذ الأنانية أو الإنطوائية، وإلى عدم
تجاهل الآخرين، وذلك من خلال التواصي بالخير والحق والتحذير من الشرّ

والباطل.

وكلمة «الشَّفاعة» الواردة في الآية من «الشَّفَع» وهو ضم الشيء إلى مثله، وقد يكون هذا الضم أحياناً في عمل الإرشاد والهداية، أي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتكون الشفاعة السيئة أمراً بالمنكر ونهياً عن المعروف.

وإذا حصلت الشفاعة للعاصين لإنقاذهم من نتائج أعمالهم السيئة، فهي بمعنى الإغاثة للعاصين اللاتقين للشفاعة، بعبارة أخرى قد تحصل الشفاعة قبل القيام بممارسة الذنب، وفتعني الإرشاد والنصح، كما تحصل بعد ارتكاب الذنب أو الخطأ، وتعني - هنا - إنقاذ المذنب أو الخاطيء من عواقب ونتائج جريرته، وكلا الحالتين يصدق عليهما معنى ضم شيء إلى آخر.

ومع أن مفهوم الآية عام شامل لكل دعوة إلى الخير أو الشر، ولكن ورود الآية ضمن آيات الدعوة إلى الجهاد يجعل معنى الشفاعة الحسنة دعوة النبي ﷺ المسلمين إلى الجهاد، وحثهم عليه، ويجعل معنى الشفاعة السيئة دعوة المنافقين المسلمين إلى ترك الجهاد وعدم المشاركة فيه، والآية تؤكد بأن كلا الشفيعين ينال نصيباً من شفاعته.

ثم إن ورود كلمة الشفاعة هنا ضمن الحديث عن القيادة (القيادة إلى الحسنات أو إلى السيئات) قد يكون إشارة إلى أن حديث القائد (قائد خير كان أم قائد شر) لا يدخل قلوب الآخرين إلا إذا ألغوا كل امتياز يفرقهم عن هؤلاء الآخرين، فلا بد لهم أن يكونوا قرناء للناس ومنهزمين إليهم كي تكون لهم الكلمة النافذة، وهذه مسألة هامة في تحقيق الأهداف الإجتماعية.

وما ورد عبارة «أخوهم» أو «أخاهم» في الحديث عن الأنبياء والرسل، ضمن آيات سور الشعراء والأعراف وهود والنمل والعنكبوت، إلا للإشارة إلى هذه المسألة.

والشيء الآخر الذي تجدر الإشارة إليه هنا، هو أن القرآن أتى بعبارة

«نصيب» لدى الحديث عن الشفاعة الحسنة، بينما استخدم عبارة «كفل» حين تحدث عن الشفاعة السيئة، والفرق بين التعبيرين هو أنّ الأولى تستخدم حين يكون الحديث عن حصّة من الربح والفائدة والخير، أمّا الثانية فتستخدم إذا كان الكلام عن الخسارة والضرر والشرّ، فالنصيب تعبير عن نصيب الخير، والكفل تعبير عن حصّة الشرّ^(١).

وهذه الآية، تبين نظرة إسلامية أصيلة إلى المسائل الاجتماعية، وتصرّح أنّ الناس شركاء في مصائر ما يقوم به قسم منهم من أعمال عن طريق الشفاعة والتشجيع والتوجيه، من هنا فكل كلام أو عمل - بل كل سكوت - يؤدي إلى تشجيع الآخرين على الخير، فإنّ المشجع يناله سهم من نتائج ذلك العمل دون أن ينقص شيء من سهم الفاعل الأصلي.

في حديث عن الرسول ﷺ قال: «من أمر بمعروف أو نهى عن منكر أو دل على خير أو أشار به، فهو شريك، ومن أمر بسوء أو دل عليه أو أشار به، فهو شريك». ويبيّن هذا الحديث الشريف ثلاث مراحل لدعوة الأشخاص إلى الخير أو إلى الشر.

المرحلة الأولى: الأمر، وهي الأقوى.

والثانية: الدلالة وهي الوسطى.

والثالثة: الإشارة وهي المرحلة الضعيفة.

وعلى هذا الأساس فإنّ حثّ الآخرين أو تحريضهم على ممارسة فعل معين، سيجعل للمحرض نصيباً من نتيجة هذا الفعل يتناسب ومدى قوّة التحريض وفق المراحل الثلاث المذكورة.

وبناء على هذه النظرة الإسلامية، فإنّ مرتكبي الذنب ليسوا وحدهم

١- الكفل هو عجز الحيوان ومؤخرته التي يصب ركوبها ويشق، من هنا فكل ذنب وحصّة رديئة كفل، والكفالة كل عمل ينطوي على تمب وعناء.

مذنبين، بل يشترك في الذنب معهم كل الذين شجعوا المرتكبين على ذنبهم، عن طريق وسائل الإعلام المختلفة أو إعداد الأجواء المساعدة، بل حتى عن طريق إطلاق كلمة صغيرة مشجعة، وهكذا الذين يقومون بمثل هذه الأعمال على طريق الخيرات ينالون سهمهم من نتائجها.

ويستشف من الأحاديث المروية في تفسير هذه الآية أنّ الشفاعة بكلا جانبيها تطلق - أيضاً - على الدعاء بالخير أو بالشر للآخرين، وإنّ الدعاء للآخرين أو عليهم يعتبر نوعاً من الشفاعة لدى الله تعالى.

نقل عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «من دعا لأخيه المسلم يظهر الغيب أستجيب له وقال له الملك: فلك مثلاه، فذلك النصيب»^(١).

ولا ينافي هذا التفسير ما تطرقنا إليه سابقاً، بل يعتبر توسعاً في معاني الشفاعة، فكل إنسان يقدم مساعدة لنظيره الإنسان، سواء كانت عن طريق الدعوة إلى فعل الخيرات أو الدعاء له أو عن أي طريق آخر، فسينال نصيباً من ثمار هذه المساعدة.

وبهذا الأسلوب من المشاطرة الفعلية الخيرة يخلق الإسلام لدى الإنسان روحاً إجتماعية تخرجه من أنانيته وإنطوائيته وتجعله يعتقد أن لن يصيبه ضرر إذا سعى في حاجة أخيه الإنسان أو ساعد على تحقيق مصالح غيره، بل سيناله الخير، وسيكون شريكاً لأخيه فيما سعى إلى تحقيقه له من مصالح ومنافع.

والآية - هذه - تؤكد أيضاً حقيقة ثابتة أخرى، وهي أنّ الله قادر على مراقبة الإنسان وتدوين ما يقوم به من أعمال، ثمّ محاسبته عليها، واثابته على خيرها، ومعاقبته على شرها «وكان الله على كل شيء مُقيتاً».

وعبارة «مقيت» مشتقة من «القوت» وهو الغذاء الذي يساعد جسم الإنسان على البقاء وعلى هذا يكون «مقيت» اسم فاعل من باب افعال، وتعني هنا

الشخص الذي يعطي الآخرين قوتهم وغذاءهم، وهو بهذه الوسيلة يكون حافظاً لحياتهم ولهذا تأتي كلمة «مقيت» بمعنى «حافظ» والحافظ يمتلك القدرة على الحفظ، ومن هنا تكون كلمة «مقيت» بمعنى «المقتدر» أيضاً، كما أن المقتدر يمتلك حساب من يعملون ضمن قدرته فتكون عندئذ كلمة «المقيت» بمعنى «الحسيب» أيضاً، وقد يكون معنى الكلمة في الآية شاملاً لكل هذه المعاني.



الآية

وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ
عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾

التفسير

دعوة إلى مقابلة الود بالود:

رغم أن بعض المفسرين يرون أن العلاقة بين هذه الآية والآيات السابقة ناشئة عن كون الآيات تلك تناولت موضوع الجهاد والحرب، والآية الأخيرة تدعو المسلمين إلى أن يواجهوا كل بادرة سليمة من قبل العدو بموقف يناسبها، ولكن هذه الصلة لا تمنع أن تكون الآية الأخيرة حكماً عاماً يشمل كل أقسام تبادل المشاعر الخيرة النبيلة بين مختلف الأطراف والأفراد، وهذه الآية تأمر المسلمين بمقابلة مشاعر الحب بما هو أحسن منها، أو على الأقل بما يساويها أو يكون مثلها، فتقول الآية: «وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا».

و«التحية» مشتقة من «الحياة» وتعني الدعاء لدوام حياة الآخرين، سواء كانت التحية بصيغة «السَّلَامَ عَلَيْكُمْ» أو «حياك الله» أو ما شاكلهما من صيغ التحية والسلام، ومهما تنوعت صيغ التحية بين مختلف الأقوام تكون صيغة «السَّلَام» المصدقات الأوضح من كل تلك الأنواع، ولكن بعض الروايات والتفاسير تفيد أن

مفهوم التحية يشمل - أيضاً - التعامل الودي العملي بين الناس.

في تفسير علي بن إبراهيم عن الباقر والصادق عليهما السلام أن: «المراد بالتحية في الآية السلام وغيره من البر».

وفي «المناقب» أن جارية أهدت إلى الإمام الحسن عليه السلام باقة من الورد فأعتقها، وحين سئل عن ذلك استشهد بقوله تعالى: «وَإِذَا حَيَّيْتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنِ مَنَاهَا».

وهكذا يتضح لنا أن الآية هي حكم عام يشمل الردّ على كل أنواع مشاعر الودّ والمحبة سواء كانت بالقول أو بالعمل - وتبين الآية في آخرها أن الله يعلم كل شيء، حتى أنواع التحية والسلام والردّ المناسب لها، وأنه لا يخفى عليه شيء أبداً، حيث تقول: «إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا».

السّلام، تحية الإسلام الكبرى:

لا يخفى أن لكل جماعة إنسانية تقاليد خاصة في التحية لدى التلاقي فيما بينهم، بها يتبادلون مشاعر الحبّ والصفاء، والمودة، والتحية كما هي صيغة لفظية يمكن أن تكون - أيضاً - حركة عملية يستدل منها على مشاعر الحبّ والودّ المتبادلة.

وقد جاء الإسلام بكلمة «السّلام» مصطلحاً للتحية بين المسلمين، والآية موضوع البحث مع كونها عامة شاملة لأنواع التحية، لكن المصداق الأوضح والأظهر لها يتجسد في كلمة «السّلام».

وبناء على ذلك فإنّ المسلمين مكلفون بردّ السّلام بأحسن منه، أو على الأقل بما يماثله.

وفي آية أخرى إشارة واضحة إلى أن السّلام هو التحية حيث تقول: «فَإِذَا

دخلتم بيوتاً فسلموا على أنفسكم تحية من عند الله»^(١) ويمكن الإستدلال من هذه الآية على أن عبارة «السلام عليكم» هي في الأصل «سلام الله عليكم» أي ليهبك الله السلامة والأمن، وهكذا يتضح لنا أن السلام يعتبر دلالة على الحب والود المتبادل، كما هو دلالة على نبذ الحرب والنزاع والخصام.

وقد دلت آيات قرآنية أخرى على أن السلام هو تحية أهل الجنة، حيث يقول سبحانه: «أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاماً»^(٢). ويقول تعالى: «تحيتهم فيها سلام...»^(٣).

كما أن آيات قرآنية أخرى دلت على أن السلام أو أي صيغة أخرى تعادله، كان سائداً بين الأقوام التي سبقت الإسلام، وهذا هو ما تشير إليه الآية (٢٥) من سورة الذاريات في قصة إبراهيم مع الملائكة حيث تقول: «إذ دخلوا عليه قالوا سلاماً قال سلام قوم منكرون».

والشعر الجاهلي فيه دلائل تثبت أن السلام كان - أيضاً - تحية أهل الجاهلية^(٤).

إن تحية الإسلام تبرز أهميتها وقيمتها العظيمة، لدى مقارنتها بما لها من نظائر لدى الأمم والأقوام الأخرى.

النصوص الإسلامية تؤكد كثيراً على السلام والتحية، حيث يروى عن النبي ﷺ قال: «من بدأ بالكلام قبل السلام فلا تجيبوه»^(٥).

١- التور، ٦١.

٢- الفرقان، ٧٥.

٣- إبراهيم، ٢٣.

٤- روي أن «نوبة» وهو من شعراء الجاهلية قال:

ولو أن ليلى الأخيلية سلمت

لسلمت تسليم البشاشة أو زقا

٥- أصول الكافي، الجزء الثاني، باب التسليم.

كما يروى عن الإمام الصادق عليه السلام أن الله يقول: «البخيل من يبخل بالسلام»^(١)
وعن الإمام الباقر عليه السلام: «إن الله يحب إفشاء السلام»^(٢).
وقد رُود في الروايات والأحاديث آداب كثيرة للتحية والسلام، منها أن
السلام يجب أن يشيع بين جميع أبناء المجتمع وأن لا ينحصر في إطار الأصدقاء
والأقارب، فقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله أنه سئل: أي العمل خير: فأجاب صلى الله عليه وآله:
«تطعم الطعام وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف»^(٣).
كما ورد في الأحاديث أن من آداب التحية أن يسلم الراكب على الراكب،
والراكب على دابة غالية الثمن يسلم على من يركب دابة أقل ثمناً، وقد يكون
الأمر حثاً على التزام التواضع، ونهياً عن التكبر أو محاربة له، فالتكبر غالباً ما
يستولي على أهل المال والجاه وهذا عكس ما نشاهده في عصرنا حيث يتحتم
على الطبقات الدانية من المجتمع أن تبادر الطبقات العليا بالسلام، وبذلك يصفون
على هذا الأمر طابعاً استعبادياً وثنياً، بينما كان النبي صلى الله عليه وآله هو أول من يبادر
الآخرين بالسلام، وكان صلى الله عليه وآله يبتدىء بالسلام حتى على الصبية الصغار، وبديهي
أن هذا الأمر لا ينافي ما ورد في الروايات من حث صغار السن على مبادرة
كبارهم بالسلام والتحية والإحترام، لأن هذا السلوك يعتبر نوعاً من الآداب
الإنسانية الحميدة، ولا ارتباط له بالتمييز الطبقي.
ومن جانب آخر نجد روايات تأمر بعدم السلام على المرآيين والفساقين
وأمثالهم، ويعتبر هذا الأمر سلاحاً لمحاربة الفساد والربا، أما إذا كان السلام
يؤدي إلى التأثير على المفسد والمنحرف، ويجعله يرتد عن غيه ويترك الفساد
والإنحراف، فلا مانع منه ولا بأس به.

١- أصول الكافي، الجزء الثاني، باب التسليم.

٢- أصول الكافي، الجزء الثاني، باب التسليم.

٣- تفسير في ظلال القرآن، في هامش الآية.

ولا يفوتنا هنا أن نوضح أن المراد من رد التحية بالأحسن هو أن نعقب السلام بعبارات مثل «ورحمة الله» أو «ورحمة الله وبركاته».

ورد في تفسير «الدّر المنثور» أن شخصاً أتى النبي ﷺ وقال: السّلام عليكم. فاجابة النبي ﷺ: وعليك السّلام ورحمة الله. ثمّ جاءه آخر وقال: السّلام عليكم ورحمة الله.

فأجابه النبي ﷺ وعليك السّلام ورحمة الله وبركاته. فجاءه ثالث وقال: السّلام عليك ورحمة الله وبركاته. فقال النبي ﷺ: «وعليك» - وعندما سئل عن علّة هذا الجواب القصير، قال: إن القرآن يقول: إذا حيّتم بتحية فحيوا بأحسن منها، ولكنك لم تبق شيئاً^(١).

وفي الحقيقة أن الرسول ﷺ قد ردّ التحية بأحسن منها في الموردين السابقين، أمّا في المورد الثّالث ردّها بالمساوي كلمة «وعليك» تعني أن كل ما قلته لي مردود عليك.



الآية

اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾

التفسير

جاءت هذه الآية مكملة لما سبقتها ومقدمة لما تليها من آيات، فالآية السابقة بعد أن أمرت برد التحية قالت: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾. والآية موضوع البحث تشير إلى قضية غيبية مهمة هي قضية يوم البعث والحساب، حيث محكمة العدل الإلهية العامة للبشر أجمعين، وتقرنها بمسألة التوحيد الذي هو ركن آخر من أركان الإيمان ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾.

وعبارة ﴿ليجمعنكم﴾ تدلّ على الشمولية لكل البشر من أولهم حتى آخرهم، حيث سيجمعون «كلهم» في يوم واحد هو يوم الحشر والقيامة.

وفي موضع آخر من القرآن (الآيتان ٩٣ و ٩٤ من سورة مريم) أشير أيضاً إلى هذه الحقيقة ... حقيقة بعث جميع عباد الله - من سكن منهم على هذه الكرة الأرضية أو على كرات أخرى - في يوم واحد.

وعبارة ﴿لا ريب فيه﴾ الواردة في الآية وفي آيات أخرى، إنما هي إشارة

إلى الأدلة القطعية البديهية على وقوع يوم القيامة، مثل دليل «قانون التكامل» و«حكمة الخلق» و«قانون العدل الإلهي»، المذكورة بالتفصيل في مبحث المعاد.

وتؤكد الآية في نهايتها على حقيقة أن الله هو أصدق الصادقين: «من أصدق من الله حديثاً» من هنا لا يجوز أن يساور أحد الشك فيما يعد به الله من بعث ونشور وغيره من الوعود، فالكذب لا يصدر إلا عن جهل أو ضعف وحاجة، والله أعلم العالمين، وإليه سبحانه يحتاج العباد دون أن يحتاج هو إلى أحد مطلقاً، فهو منزّه عن صفات الجهل والضعف والعجز، ولذلك فهو أصدق الصادقين، بل إن الكذب بالنسبة إلى الله تعالى لا مفهوم له إطلاقاً.



الآية

فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهُ أَرَىٰ كَسَبَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ
أَنْ تَهْتَدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾

سبب النزول

نقل جمع من المفسرين عن ابن عباس أن نقرأ من أهل مكة من الذين كانوا قد أظهروا الإسلام امتنعوا عن ترك مجاورة ومداهنة المنافقين، وأحجموا لذلك عن الهجرة إلى المدينة، وكان هؤلاء في الحقيقة يساندون ويدعمون عبدة الأوثان المشركين، إلا أنهم اضطروا في النهاية إلى الخروج من مكة (وساروا مع المسلمين حتى وصلوا إلى مشارف المدينة، ولعلهم فعلوا ذلك لدرء الفضيحة عن أنفسهم أو بهدف التجسس على المسلمين المهاجرين) وكانوا يظهرون الفرح لانطواء حيلتهم على المسلمين، كما حسبوا أن دخولهم إلى المدينة سوف لا تعترضه أي مشاكل من قبل الآخرين - لكن المسلمين إنتبهوا الى حقيقة هؤلاء، غير أنهم انقسموا إلى فئتين، فئة منهم رأيت ضرورة طرد أولئك نفر من المنافقين الذين كانوا في الحقيقة يدافعون عن المشركين أعداء الإسلام، والفئة الثانية من المسلمين الذين كانوا لسذاجتهم يرون ظاهر الأمور دون باطنها، وخالفوا طرد المنافقين واعترضوا بزعمهم أنه لا يمكن محاربة أو طرد من يشهد الله بالوحدانية

ولمحمد ﷺ بالنبوة، وقالوا: أنه لا يمكن استباحة دماء هؤلاء لمجرد عدم هجرتهم مع المسلمين؛ فنزلت هذه الآية الكريمة توهي تلوم الفئة الأخيرة على خطئها، وترشدها إلى طريق الحق الصواب^(١).

التفسير

استناداً إلى سبب النزول الذي ذكرناه، تتضح لنا الصلة الوثيقة بين هذه الآية والآيات التي تليها، وكذلك الآيات السابقة التي تناولت مواضيع وقضايا عن المنافقين.

فهذه الآية تخاطب في البداية المسلمين وتلومهم على انقسامهم إلى فئتين، كل فئة تحكم بما يحلو لها بشأن المنافقين، حيث تقول: «فما لكم في المنافقين فئتين...»^(٢) وتنهاي المسلمين عن الاختلاف في أمر نفر أبوا أن يهاجروا معهم، وتعاونوا مع المشركين، وأحجموا عن مشاركة المجاهدين، فظهر بذلك نفاقهم، ودلت على ذلك أعمالهم، فلا يجوز للمسلمين أن ينخدعوا بتظاهر هؤلاء بالتوحيد والإيمان، كما لا يجوز لهم أن يشفعوا في هؤلاء، وقد أكدت الآية السابقة أن: «من يشفع شفاعته سيئة يكن له كفل منها».

وتبين الآية بعد ذلك: إن الله قد سلب من هؤلاء المنافقين كل فرصة للنجاح، وحرّمهم من لطفه وعنايته بسبب ما اقترفوه وإن الله قد قلب تصورات هؤلاء بصورة تامّة فأصبحوا كمن يقف على رأسه بدل رجله: «... والله أركسهم بما كسبوا...»^(٣).

١ - ذكرت أسباب أخرى لنزول هذه الآية والآيات التي تليها، وقيل أنها نزلت في واقعة أحد بينما الآيات السالفة تتحدث عن الهجرة ولا تنسجم مع هذا القول، بل تسنجم مع سبب النزول الذي ذكرناه أعلاه.

٢ - في هذه الجملة. جملة أخرى محذوفة تتضح لدى الإيمان في الأجزاء الأخرى من الآية والتقدير: «فما لكم تفرقتم في المنافقين فئتين...».

٣ - «أركسهم»: من ركس وهو قلب الشيء على رأسه، وتأتي أيضاً بمعنى ردّ أول الشيء إلى آخره.

وتدل عبارة «بما كسبوا» على أن كل ارتداد أو خروج عن جادة الحق وطريق الهداية والسعادة والنجاة، إنما يتم بعمل الإنسان وفعله، وحين ينسب الإضلال إلى الله سبحانه عز وجل، فذلك معناه أن الله القدير الحكيم يجازي كل إنسان بما كسبت يده ويشبهه بقدر ما يستحق من ثواب.

وفي الختام تخاطب الآية أولئك البسطاء من المسلمين الذين انقسموا على أنفسهم وأصبحوا يدافعون لسذاجتهم عن المنافقين، فتؤكد لهم أن هداية من حرمه الله من لطفه ورحمته بسبب أفعاله الخبيثة الشنيعة أمر لا يمكن تحقيقه، لأن الله قد كتب على هؤلاء المنافقين ما يستحقونه من عذاب وضلال وحرمان من الهداية والنجاة «أتريدون أن تهدوا من أضل الله ومن يضل الله فلن تجد له سبيلاً».

إذ أن عمل كل شخص لا ينفصل عنه ... وهذه سنة إلهية ... فكيف يؤمل في هداية أفراد امتلأت أفكارهم وقلوبهم بالنفاق، واتجهت أعمالهم إلى حماية أعداء الله؟! إنه أمل لا يقوم على دليل^(١).

* * *

الآية

وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ
أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ
وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وِلِيَاءَ وَلَا
نَصِيرًا ﴿٨١﴾

التفسير

لقد تحدثت الآية السابقة عن المنافقين الذين كانوا يحظون بحماية نفر من المسلمين البسطاء وشفاعتهم، وأوضحت أن هؤلاء المنافقين غرباء عن الإسلام، وهذه الآية تبين أن المنافقين لفرط إنحرافهم وضلالتهم يعجبهم أن يجروا المسلمين إلى الكفر كي لا يظلوا وحدهم كافرين: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾.

ولهذا السبب فإنَّ المنافقين أسوأ من الكفار، لأنَّ الكافر لا يحاول سلب معتقدات الآخرين، والمنافقون يفعلون هذا الشيء ويسعون دائماً لإفساد المعتقدات، وهم بطبعهم هذا لا يلبقون بصحبة المسلمين أبداً، تقول الآية الكريمة: ﴿فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ ...﴾ إلا إذا غيروا ما في أنفسهم من شرّ، وتخلوا عن كفرهم ونفاقهم وأعمالهم التخريبية.

ولكي يثبتوا حصول هذا التغيير، ويثبتوا صدقهم فيه، عليهم أن يبادروا إلى الهجرة من مركز الكفر والنفاق إلى دار الإسلام (أي يهاجروا من مكة إلى المدينة) فتقول الآية: «حتى يهاجروا في سبيل الله...» أما إذا رفضوا الهجرة فليعلم المسلمون بأن هؤلاء لا يرضون لأنفسهم الخروج من حالة الكفر والنفاق، وإن تظاهروا بالإسلام ليس إلا من أجل تمرير مصالحهم وأهدافهم الدنيئة ومن أجل أن يسهل عليهم التآمر والتجسس على المسلمين.

وفي هذه الحالة يستطيع المسلمون أن يأسروهم حيثما وجدوهم، وأن يقتلوهم إذا استلزم الأمر، تقول الآية الكريمة: «فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم».

وتكرر هذه الآية التأكيد على المسلمين أن يتجنبوا مصاحبة هؤلاء المنافقين وأمثالهم فتقول: «لا تتخذوا منهم ولياً ولا نصيراً».

والقرآن في هذا الحكم يؤكد حقيقة مصيرية للمجتمع، هي أن حياة أي مجتمع تمرّ بمرحلة إصلاحية لا يمكن أن تستمر بصورة سليمة ما لم يتخلص من جرائم الفساد المتمثلة بهؤلاء المنافقين أو الأعداء الذين يتظاهرون بالإخلاص، وهم في الحقيقة عناصر مخربة هدامة تعمل في التآمر والتجسس على المجتمع ومصالحه العامة.

والطريف هنا أن الإسلام - مع إهتمامه برعاية أهل الكتاب من اليهود والنصارى وغيرهم ومنعه الظلم والعدوان عنهم - نراه يشدد كثيراً في التحذير من خطر المنافقين، ويرى ضرورة التعامل معهم بعنف وقسوة، ورغم تظاهروهم بالإسلام يصرح القرآن بأسرهم، بل حتى بقتلهم إن استلزم الأمر.

وما هذا التشديد إلا لأن هؤلاء يستطيعون ضرب الإسلام تحت ستار الإسلام، وهذا ما يعجز عن أدائه أي عدو آخر.

سؤال:

قد يرى البعض أنّ النبي ﷺ كان يتحاشى قتل المنافقين كي لا يتهمه الأعداء بأنّه يقتل أصحابه، أو أنّه لم يقتلهم حتى لا يستغل الآخرون هذا الأمر فيقتلون كل من يعادونه بدعوى أنّه منافق، فكيف يتلاءم هذا الموقف مع الآية الشريفة.

الجواب:

الحقيقة أنّ النبي ﷺ اتّبع هذا الأسلوب مع منافقي المدينة الذين لم يظهروا العداء الصريح له أو للإسلام، بينما اتّبع مع منافقي مكّة الذين جهروا بعدائهم للمسلمين وساعدوا الكفار عليهم أسلوباً غير هذا.

* * *

الآية

إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءَوكُمْ
حَصْرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ
اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتِلُوكُمْ فَإِنْ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ
وَأَلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلْمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٥﴾

سبب النزول

وردت روايات عديدة تفيد أن اثنتين من القبائل العربية في زمن النبي ﷺ وهما قبيلتا «بني ضمرة» و«أشجع» كانت إحداهما وهي قبيلة بني ضمرة قد عقدت مع النبي اتفاقاً بترك النزاع، وكانت القبيلة الثانية حليفة للقبيلة الأولى دون أن تعقد مثل هذا الاتفاق مع النبي ﷺ، وتقول الروايات إن بعض المسلمين أخذوا يشككون في وفاء «بني ضمرة» للمسلمين، واقترحوا على النبي أن يهاجم هذه القبيلة قبل أن تبادر هي بالهجوم على المسلمين، فرد النبي ﷺ قائلاً:
«كلا، فإنهم أبر العرب بالوالدين، وأوصلهم للرحم، وأوفاهم بالعهد».

وبعد فترة علم المسلمون أن قبيلة «أشجع» وعلى رأسها «مسعود بن رجيله» قد وصلت حتى مشارف المدينة، وهي في سبعمائة رجل، فبعث النبي ﷺ وقد ألتعرف على سبب مجيئهم إلى ذلك المكان، فأجابت هذه القبيلة

بأنها جاءت لكي تعقد اتفاقاً مع المسلمين مماثلاً لاتفاق «بني ضمرة» معهم، وما أن علم النبي ﷺ بهذا الأمر حتى أمر أصحابه بأن يأخذوا مقداراً من التمر هدية لهذه القبيلة، ثم التقى بهم النبي ﷺ فأخبروه بأنهم لعجزهم عن موازنة المسلمين في قتال الأعداء، ولعدم رغبتهم في المشاركة في قتال ضد المسلمين، لما تربطهم بهم من صلة الجوار، لذلك يرومون عقد اتفاق أو ميثاق مع المسلمين بتحريم العدوان بينهما، فنزلت الآية المذكورة بهذا الشأن وهي تبيّن للمسلمين ما يجب عليهم أن يفعلوه في مثل هذه الحالة.

ويقول مفسرون آخرون إنّ قسماً من هذه الآية قد نزل في شأن قبيلة «بني مدليج» التي جاءت إلى النبي ﷺ وأخبرته أنها تريد الإتفاق معه على عدم اللجوء إلى العدوان فيما بينهما، وذلك لرغبتها في البقاء على الحياد تجاه المسلمين ودعوتهم.

التفسير

الترحيب باقتراح السلم:

بعد أن أمر القرآن الكريم المسلمين في الآيات السابقة باستخدام العنف مع المناققين الذين يتعاونون مع أعداء الإسلام، تستثني هذه الآية من الحكم المذكور طائفتين:

١ - من كانت لهم عهود ومواثيق مع حلفائكم ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمِ بَيْنِكُمْ وَبَيْنِهِمْ مِيثَاقٌ﴾.

٢ - من كانت ظروفهم لا تسمح لهم بمحاربة المسلمين، كما أن قدرتهم ليست على مستوى التعاون مع المسلمين لمحاربة قبيلتهم ﴿أَوْ جَاؤُوكُمْ حَصْرَتِ صُدُورُهُمْ أَنْ يِقَاتِلُوكُمْ أَوْ يَقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ﴾.

ومن الواضح أنّ أفراد الطائفة الأولى يجب أن يكونوا مستثنين من هذا

القانون احتراماً للعقود والعهود، وأما المجموعة الثانية - وإن لم تكن معدورة، بل عليها أن تستجيب للحق بعد معرفته - فقد أعلنت حيادها، ولذلك فمجاوبتها يتعارض مع مبادئ العدالة والمروءة.

ولكي لا يستولي الغرور على المسلمين إزاء كل هذه الانتصارات الباهرة، وكلي لا يعتبروا ذلك نتيجة قدرتهم العسكرية وابتكارهم، ولا تستفز مشاعرهم تجاه هذه المجموعات المحايدة تقول الآية: «ولو شاء الله لسلطهم عليكم، فلقاتلوكم».

وهذا تذكير للمسلمين بعدم نسيان الله في كل إنتصار، وأن يتجنبوا الغرور والعجب حيال ما لديهم من قوة، وأن لا يعتبروا العفو عن الضعفاء خسارة أو ضرراً لأنفسهم.

وتكرر الآية في ختامها التأكيد بأن الله لا يسمح للمسلمين بالمساس بقوم عرضوا عليهم الصلح وتجنبوا قتالهم، وإن المسلمين مكلفون بأن يقبلوا دعوة الصلح هذه، ويصافحوا اليد التي امتدت إليهم وهي تريد الصلح والسلام «فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً».

يلفت النظر أن القرآن في هذا الموضوع ومواضع أخرى يذكر مقترح السلام بعبارة «إلقاء السلام» وقد يكون ذلك إشارة إلى التباعد بين الجانبين المتنازعين قبل الصلح، حتى أن أحد الجانبين يطرح اقتراحه باحتياط وعن بعد ليلقيه على الجانب الآخر.

الآية

سَتَجِدُونَ ءَاخِرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلًّا
مَا رَدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكَسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمْ
السَّلَامَ وَيَكْفُرُوا أَيْدِيَهُمْ فَاخْذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَبَقْتُمُوهُمْ
وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطٰنًا مُّبِينًا ﴿١١﴾

سبب النزول

لقد ذكروا أسباباً مختلفة لنزول هذه الآية، وأشهرها هو أن نقرأ من أهل مكة كانوا حين يحضرون عند النبي ﷺ يتظاهرون بالإسلام كذباً وخداعاً، وما أن يرجعوا إلى قريش يعودون لعبادة الأصنام، وقد انتخب هؤلاء هذا النوع من السلوك درءاً لخطر المسلمين وخطر قريش عن أنفسهم، بالإضافة إلى سعيهم لإمرار مصالحهم لدى الطرفين، فنزلت هذه الآية وأمرت المسلمين بالتعامل مع هؤلاء بعنف وشدّة.

التفسير

عقاب ذي الوجهين:

إنّ هذه الآية تصور لنا طائفة من الناس نقيض تلك الطائفة التي تحدثت عنها

الآية السابقة وأمرت بقبول الصلح منها، والطائفة تتشكل من أفراد نفعيين انتهازيين، همهم الوحيد تحقيق مصالحهم والتحرك بحرية تامة لدى المسلمين، وقريش عن طريق الرياء والخيانة والخداع، والتظاهر بتأييد واتباع الجانبين والتعاون معهما، وفي هذا المجال تقول الآية الكريمة: «ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم يأمنوا قومهم...».

وهؤلاء حين تسنح لهم الفرصة ينقلبون على أعقابهم وينغمسون في الفتنة والشرك نكساً على رؤوسهم ﴿كلما ردّوا إلى الفتنة أركسوا فيها...﴾.

وعمل هؤلاء وسلوكهم على عكس سلوك الطائفة السابقة التي أرادت أن تبقى على الحياد فقد تجنبت الفتنة السابقة إيذاء المسلمين، أما هذه الأخيرة فقد انطوت سريرتها على إيذاء المسلمين والوقوف ضدهم.

وقد اشترط القرآن الكريم على هذه الطائفة ثلاثة شروط من أجل أن تبقى في مأمن من إنتقام المسلمين، وهذه الشروط هي: إعتزال المسلمين، أو مصالحتهم، أو الكف عن إيذائهم حيث تقول الآية الكريمة: ﴿فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السّلم ويكفّوا أيديهم...﴾.

وإذا رفضت هذه الطائفة الشروط المذكورة وأصرّت على العصيان والتمرد، فالمسلمون مكلفون عند ذلك بإلقاء القبض على أفرادها وقتلهم أينما وجدوا، كما تقول الآية: ﴿فخذوهم واقتلوهم حيث ثقتموهم﴾.

ولما كانت الحجّة قد تمت على هؤلاء، تقول الآية في الخاتمة: ﴿أو لئكم جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبيناً﴾.

وقد يكون هذا التسلط في مجال الكلام والمنطق إذا تغلب منطق المسلمين على منطق المشركين والكافرين، وقد يكون سلطاناً مادياً ظاهرياً عليهم لأنّ الآية نزلت في وقت كان المسلمون يتمتعون فيه بقدر كاف من القوّة.

وتشير عبارة «ثقتموهم» الواردة في الآية إلى احتياج المسلمين إلى الدقة

والمهارة في التعرف على هذه الفئة المناققة الخطيرة، لما لها من قابلية عجيبة على التلون والخداع والإفلات من العقاب، فعبرة «ثقفتموهم» مشتقة من المصدر «ثقافة» الذي يعني الحصول على شيء باستخدام الدقة والمهارة، بينما الفعل «وجد» يعني الحصول على الشيء بصورة مطلقة.



الآية

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً
فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا
فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ
وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ
وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً
مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾

سبب النزول

ذكروا أن مشركاً من أهل مكة وهو «الحارث بن زيد» كان يعذب أحد المسلمين - ولفترة طويلة - بالتعاون مع أبي جهل، وكان اسم هذا المسلم «عياش بن أبي ربيعة» ولم يكن تعذيبه بسبب جرم إقترفه، بل كان يعذب لمجرد أنه آمن بالإسلام، وبعد هجرة المسلمين إلى المدينة هاجر «عياش» إليها، فصادف يوماً «الحارث بن زيد» في إحدى طرقات المدينة فقتله ظناً منه أنه ما زال عدواً للمسلمين، ولم يكن على علم بأن الحارث كان قد تاب وأسلم، فعلم النبي ﷺ بهذا الحادث، فنزلت الآية الشريفة وهي تبين حكم مثل هذا القتل الناتج عن الخطأ.

التفسير

أحكام القتل الناتج عن الخطأ:

لقد أطلقت الآية السابقة أيدي المسلمين في المنافقين الذين كانوا يشكلون خطراً كبيراً على الإسلام، وسمحت لهم حتى بقتل أمثال هؤلاء المنافقين، ولكن تفادياً لاستغلال هذا الحكم استغلالاً سيئاً، ولسد الطريق أمام الأغراض الشخصية التي قد تدفع صاحبها إلى قتل إنسان بتهمة أنه منافق، وأمام أي تساهل في سفك دماء الأبرياء، بيّنت هذه الآية والتي تليها أحكام قتل الخطأ وقتل العمد، لكي يكون المسلمون على غاية الدقة والحذر في مسألة الدماء التي تحظى باهتمام بالغ في الإسلام، تقول الآية الكريمة: «وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ».

هذه الآية تقرر في الواقع حقيقة من الحقائق، فالمؤمن لا يسمح لنفسه إطلاقاً أن يسفك دمًا بريئاً، لأن المشاعر الإيمانية تجعل من الجماعة المؤمنة أعضاء جسد واحد، وهل يقدم عضو في جسد على قطع عضو آخر إلا خطأ! من هذه الحقيقة يتضح أن مرتكب جريمة القتل متهم أولاً في إيمانه.

وعبارة «إلا خطأ» لا تعني السماح بإرتكاب قتل الخطأ! لأن مثل هذا القتل لا يكون عن قرار مسبق، ولا يكون مرتكبه حين الإرتكاب على علم بخطأه أنها - إذن - تقرير لحقيقة عدم إرتكاب المؤمن مثل هذه الجريمة إلا عن خطأ.

ثم تبين الآية الكريمة غرامة قتل الخطأ، وتقسمها إلى ثلاثة أنواع:

فالنوع الأول: هو أن يحرر القاتل عبداً مسلماً، ويدفع الدية عن دم القتيل إلى أهله إذا كان القتيل ينتمي إلى عائلة مسلمة «ومن قتل مؤمناً خطأً فحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله» فإذا وهب أهل القتيل الدية وتصدقوا بها له فليس على القاتل أن يدفع شيئاً: «إلا أن يصدقوا...».

والنوع الثاني: من غرامة قتل الخطأ يكون في حالة ما إذا كان القتيل مسلماً،

ولكن من عائلة معادية للإسلام ويجب في هذه الحالة عتق عبد مسلم ولا تدفع الدية إلى أهل القتل، لأن الإسلام يرفض تعزيز الحالة المالية لأعدائه، بالإضافة إلى ذلك فإن الإسلام قد قطع الصلة بين هذا الفرد وعائلته المعادية للإسلام، فلا معنى إذن لجبران الخسارة.

أما النوع الثالث: من غرامة القتل الناتج عن الخطأ، فيكون في حالة كون القتل من عائلة غير مسلمة لكن بينها وبين المسلمين عهداً وميثاقاً، في مثل هذه الحالة أمر بدفع دية القتل إلى أهله، كما أمر - أيضاً - بتحرير عبد من العبيد المسلمين احتراماً لليهود والمواثيق تقول الآية: ﴿وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة...﴾.

واختلف المفسرون في قتل الحالة الثالثة، هل يجب أن يكون من المسلمين، أم أن الحكم يشمل غيرهم من الكفار الذميين؟ وظاهر الآية والروايات التي وردت في تفسيرها تدل على أن المقصود فيها هو القتل «المسلم».

كما اختلف المفسرون في جواز دفع الدية إلى أهل القتل غير المسلمين، حيث أن الدية تعتبر جزءاً من الإرث، والكافر لا يرث المسلم، ولكن ظاهر الآية يدل على وجوب دفع الدية إلى أهل مثل هذا القتل، وذلك تأكيداً من الإسلام لاحترامه لليهود والمواثيق.

وذهب بعض المفسرين إلى أن الدية تدفع في هذه الحالة إلى المسلمين من ورثة القتل دون الكافرين منهم معتمدين على أن الكافر لا يرث المسلم وأن الدية هي جزء من الإرث، وقد وردت إشارات إلى هذا المعنى في بعض الروايات أيضاً.

بينما ظاهر الآية يدل على أن الورثة ليسوا من المسلمين، وذلك حين تقول: ﴿من قوم بينكم وبينهم ميثاق...﴾ لأن اليهود والمواثيق كانت في ذلك الزمان

بين المسلمين وبين غيرهم، ولم تكن بين المسلمين أنفسهم - حينذاك - عهود أو موثيق، (وهنا يجب الإمعان والتدقيق كثيراً من الأمر).

وتستطرد الآية في بيان الحكم فتتطرق إلى أولئك نفر من المسلمين الذين يرتكبون القتل عن خطأ، ولا يسعهم - لفقهم - دفع المال دية عن القتل، كما لا يسعهم شراء عبد لتحرير رقبته غرامة عن إرتكابهم للقتل الخطأ، وتبين حكم هؤلاء، وتعلن أنهم يجب أن يصوموا شهرين متتابعين غرامة عن القتل الخطأ الذي إرتكبه، بدلاً من الدية وتحرير الرقبة، وقد اعتبرت ذلك نوعاً من تخفيف الجزاء على الذين لا يطيقون الغرامة المالية وتوبة منهم إلى الله، علماً أن جميع أنواع الغرامات التي ذكرت في الآية عن القتل الخطأ، إنما هي توبة وكفارة للذنب المرتكب في هذا المجال، والله يعلم بخفايا الأمور وقد أحاط علمه بكل شيء حيث تقول الآية: «توبة من الله وكان الله عليماً حكيماً».

لقد وردت في الآية - موضوع البحث - أمور عديدة يجدر الانتباه إليها وهي:

١ - ذكرت الآية ثلاثة أنواع من التعويض عند حصول قتل عن خطأ، وكل

نوع في حد ذاته تعويض عن الخسارة الناجمة عن هذا القتل.

فتحرير رقبة عبد مسلم يعتبر تعويضاً عن خسارة إجتماعية ناتجة عن القتل الواقع على إنسان مسلم، إذ بعد أن خسر المجتمع فرداً نافعاً من أفراده بسبب وقوع القتل عليه، حصل على تعويض مماثل وذلك بدخول إنسان نافع آخرين أفراده عن طريق التحرير.

وأما التعويض المادي «الدية» فهو مقابل الخسارة المادية اللاحقة بأهل القتل نتيجة فقدهم إياه، والحقيقة أن الدية ليست ثمناً لدم القتل المسلم البريء، لأن دمه لا تعادله قيمة، بل هي - وكما أسلفنا - نوع من التعويض عن خسارة مادية لاحقة بذوي القتل بسبب فقدانه.

وأما الخيار الثالث الوارد في حالة تعذر تقديم التعويض المادي، فيتمثل في

صيام شهرين متتابعين يقوم به القاتل، فهو تعويض أخلاقي ومعنوي لخسارة معنوية لحقت بالقاتل نفسه بسبب إرتكابه لحادث قتل، فالكفارة تتحقق في الدرجة الأولى في تحرير رقبة مؤمنة، فإن عجز القاتل فصيام شهرين متتابعين - ويجب الإلتباه هنا إلى أن تحرير العبيد يعتبر بحد ذاته عبادة، لما له من أثر معنوي على العبد الذي يتحرر من قيود الرق.

٢- ورود عبارة «إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا» بالنسبة إلى أهل القتل الذين هم من المسلمين، أي أن يتنازلوا عن «دية» قتلهم، حيث لم ترد هذه العبارة بالنسبة لغير المسلمين - وسبب ذلك واضح، وهو لأن الأرضية للمصفح والعفو متوفرة لدى المسلمين حيال أمثالهم، بينما لا تتوفر مثل هذه الأرضية لدى غير المسلمين تجاه المسلمين، كما أن المسلم يجب أن لا يقبل معروفاً أو مئة من غير المسلم في هذه الحالات.

٣- ومما يجلب الإلتباه أن الحالة الثالثة الواردة في آية موضوع البحث، قد قدمت كفارة الدية على كفارة التحرير، وهذه الحالة تتناول مسألة القتل الخطأ الواقع على شخص لا ينتمي أهله إلى الإسلام، بينما الحالة الأولى - التي كان القتل فيها من عائلة إسلامية - تقدمت فيها كفارة التحرير على كفارة الدية.

ويمكن الإستنتاج من هذا التقديم والتأخير أن مسألة دفع الدية في موعد متأخر بالنسبة للمسلمين فيما بينهم، لا تترك أثراً سلبياً عليهم - في الغالب - بينما لو كان أهل القتل من غير المسلمين لوجب التعجيل في دفع الدية - أولاً - إلقاءً للفتنة، ولكي لا يفسر أهل القتل وقومه مسألة القتل الحاصلة بأنها نقض للعهد من جانب المسلمين.

٤- لم تحدد الآية الكريمة مقدار الدية أو مبلغها في أي من الحالات الثلاثة المذكورة، ويستنتج من هذا أن مسألة التحديد هذه إنما أوكلت إلى السنة التي عينت بالفعل مقدارها الكامل بألف مثقال من الذهب، أو بمائة بعير، أو مائتين من

البقر، ويمكن أن يكون ثمن هذه الأنواع مالياً إذا حصل إتفاق بين طرفي القضية، (ويديهي أن تخصيص الذهب أو نوع من أنواع الماشية دية عن القتل، إنما هو سنة إسلامية تستند مبرراتها على الأمور الطبيعية لا الوضعية المتغيرة بتغير الزمان).

٥- قد يرد هذا الوهم لدى البعض بأنّ القتل الواقع خطأ، يجب أن لا يكون بإزائه غرامة أو عقوبة، لأنّ القاتل لم يرتكب جريمة عن عمد أو سبق إصرار وإنّ الخطأ لا عقوبة أو غرامة مالية عليه.

وجواب هذا - أو توضيحه - هو أن القتل، دون سواه من الجرائم، تدخل فيه قضية بالغة الأهمية وهي قضية الدم المراق فيها والحياة الإنسانية التي تسلب عضو من أعضاء المجتمع ... ولكي يبيّن الإسلام إهتمامه الكبير بحياة الأفراد، ويدفع معتقيه إلى التزام الحيطة والحذر الدقيقين لعدم التورط في ارتكاب مثل هذه الأخطاء، شدد في مسألة الغرامة والعقوبة حرصاً منه على حياة أفراد المجتمع، ولكي لا يصبح الخطأ عذراً يتوسل به من شاء في إهدار دماء الأبرياء من الناس.

والعبارة الأخيرة من الآية الكريمة التي هي «توبة من الله ...» قد تكون إشارة إلى أنّ وقوع الخطأ يكون غالباً بسبب التهاون وقلة الحذر، وإنّ الخطأ إذا كان كبيراً كالقتل - يجب التعويض عنه أولاً وإرضاء أهل القتل لكي تشمل القاتل أو الخاطيء بعد ذلك التوبة الإلهية.

الآية

وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ
اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعْنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿١٣١﴾

سبب النزول

ذكروا أن «المقيس بن صبابه الكناني» كان قد وجد قاتل أخيه «هشام» في محلة بني النجار. وأخبر النبي ﷺ بهذا الأمر، فبعثه النبي ﷺ مع «قيس بن هلال المهري» إلى زعماء بني النجار يأمرهم أن يسلموا قاتل «هشام» إلى أخيه «المقيس» وإن لم يكن لهم علم به أو بمكانه فليدفعوا إلى «المقيس» دية أخيه القتيل، فدفع بنو النجار الدية لعدم علمهم بمكان القاتل، فأخذ «المقيس» الدية وتوجه إلى المدينة مع «قيس بن هلال المهري» إلا أنه في الطريق راودته نعرة من نعرات الجاهلية، فظن أنه قد جلب على نفسه العار بقبوله المال بدل دم أخيه، فعمد إلى قتل رفيق سفره، أي قيس بن هلال الذي كان من قبيلة بني النجار، انتقاماً لدم أخيه على حسب ظنه، ثم هرب «المقيس» إلى مكة وارتد عن إسلامه، فاستباح النبي ﷺ دم هذا القاتل، أي «المقيس» لخيانته، وقد نزلت هذه الآية في هذه المناسبة وهي تبين عقوبة مرتكب القتل العمد.

التفسير

عقوبة القتل العمد:

لقد بيّنت الآية السابقة عقوبة - أو غرامة - القتل الناتج عن الخطأ، وجاءت الآية الأخيرة عقوبة القتل عن عمد وسبق إصرار، في حالة إذا كان القاتل من المؤمنين، وبما أن جريمة قتل الإنسان من أعظم وأكبر الجرائم وأخطر الذنوب، وإن التهاون في مكافحة مثل هذه الجريمة يهدد أمن المجتمع وسلامه أفراداً، الأمن الذي يعتبر من أهم متطلبات المجتمع السليم، لذلك فإن القرآن الكريم قد تناول هذه القضية في آيات مختلفة بأهمية بالغة، حتى أنه اعتبر قتل النفس الواحدة قتلاً للناس جميعاً، إلا أن يكون القتل عقاباً لقتل مثله أو عقاباً لجريمة الإفساد في الأرض حيث يقول القرآن في هذا المجال: «من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً»^(١).

وقد قررت الآية - موضوع البحث - أربع عقوبات أخروية لمرتكب القتل العمد، وعقوبة أخرى دنيوية هي القصاص، والعقوبات الأخرية هي:

١ - الخلود والبقاء الأبدي في نار جهنم، حيث تقول الآية: «ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها».

٢ - احاطة غضب الله وسخطه بالقاتل: «وغضب الله عليه...».

٣ - الحرمان من رحمة الله: «ولعنه».

٤ - العذاب العظيم الذي ينتظره يوم القيامة: «وأعد له عذاباً عظيماً» والملاحظ هنا أن العقاب الأخروي الذي خصه الله للقاتل في حالة العمد، هو أشد أنواع العذاب والعقاب بحيث لم يذكر القرآن عقاباً أشد منه في مجال آخر أو لذنب آخر.

أما العقاب الدنيوي الذي وردت تفاصيله في الآية (١٧٩) من سورة البقرة،

فهو القصاص، وقد تطرقنا إليه لدى تفسير هذه الآية في الجزء الأول من كتابنا هذا.

جريمة القتل العمد والعقاب الأبدي:

يرد سؤال في هذا المجال، وهو أن الخلود في العذاب قد ورد بالنسبة إلى من يموت كافراً، بينما قد يكون مرتكب جريمة القتل العمد مؤمناً، كما يحتمل أن يندم على ما ارتكبه من إثم ويتوب عن ذلك في الدنيا، ويسعى إلى تعويض وتلافي ما حصل بسبب جريمته، فكيف إذن يستحق مثل هذا الإنسان عذاباً أبدياً وعقاباً يخلد فيه؟

إنّ جواب هذا السؤال يشتمل على ثلاث حالات هي:

١ - قد يكون المراد بقتل المؤمن - الوارد في الآية موضوع البحث - هو القتل بسبب إيمان الشخص، أي استباحة دم المؤمن، وواضح من هذا إن الذي يعمد إلى ارتكاب جريمة قتل كهذه إنما هو كافر عديم الإيمان، وإلا كيف يمكن لمؤمن أن يستبيح دم أخيه المؤمن، وبناء على هذا يستحق القاتل الخلود في النار ويستحق العذاب والعقاب المؤبد، وقد نقل عن الإمام الصادق عليه السلام حديث بهذا الفحوى^(١).

٢ - كما يحتمل أن يموت مرتكب جريمة القتل العمد مسلوب الإيمان بسبب تعمد قتل إنسان مؤمن بريء، فلا يحظى بفرصة للتوبة عن جريمته، فينال في الآخرة العذاب العظيم المؤبد.

٣ - ويمكن أيضاً - أن يكون المراد بعبارة «الخلود» الواردة في الآية هو العذاب الذي يستمر لآمد طويلة وليس العذاب المؤبد.

ويمكن أن يطرح سؤال آخر - في هذا المجال - وهو هل أنّ جريمة القتل

١ - فقد ورد في كتاب الكافي وتفسير العياشي في تفسير هذه الآية عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «إن من قتل مؤمناً على دينه فذلك التعمد الذي قال الله تعالى في كتابه عنه: «ولعد له عذاباً عظيماً».

العمد قابلة للتوبة؟!)

لقد ردّ جمع من المفسّرين بالنفي صريحاً على هذا السؤال، وقالوا: أن هذه الجريمة التي ورد ذكرها في الآية موضوع البحث غير قابلة للتوبة مطلقاً، حيث أشارت الروايات الواردة في هذا الأمر إلى ذلك، فقد صرحت الروايات بأن لا توبة لقاتل المؤمن عمداً.

ولكن الذي نستنتجه من روح التعاليم الإسلامية، وروايات الأئمة عليهم السلام، وغيرهم من علماء الدين الكبار، وكذلك من فلسفة التوبة القائمة على أساس التربية والوقاية من الوقوع في الذنوب والخطايا في مستقبل الفرد المسلم ... المستخلص من ذلك كله هو أنه لا يوجد ذنب غير قابل للتوبة، لكن التوبة من بعض الذنوب تكون مقيدة بشروط قاسية جداً يصعب بل يستحيل أحياناً على الفرد تحقيقها.

والدليل على هذا الأمر هو قول القرآن الكريم: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾^(١).

وقد قلنا في تفسير هذه الآية: إنها وردت في شأن العفو عن الذنوب بواسطة الشفاعة وما شاكل ذلك، ولكن المعروف أنه حتى الشرك - ذاته - يعتبر من الجرائم والذنوب القابلة للتوبة، إذا تخلى الإنسان عنه وعاد فآمن بالله الواحد الأحد وأسلم وجهه لله، كما حصل للجاهليين الذين تخلوا عن شركهم وقبلوا الإسلام وتابوا إلى الله فعفا عنهم وغفر لهم ذنوبهم السابقة.

ويتبين من هذا العرض الموجز أن كل الذنوب - حتى الشرك - قابلة للتوبة، وتؤكد على ذلك الآيتان (٥٣ و ٥٤) من سورة الزمر حيث يقول تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنْبِئُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلَمُوا لَهُ﴾.

وقد ذكر بعض المفسّرين أن الآيات التي تتحدث عن غفران جميع الذنوب

هي آيات عامة قابلة للتخصيص - ولكن لا يمكن الحكم بصحة هذا القول، لأنه يتناقض ومنطق هذه الآية التي اعتبرت التوبة نعمة ومنة من الله على المذنبين، وأكدت ذلك بالقرائن، لذلك لا يمكن تخصيص هذه الآيات، فهي - كما في الإصطلاح - تأبى التخصيص.

إضافة إلى ذلك كله فقد يحتمل أن يلجأ مرتكب القتل العمد إلى التوبة، ويخلص الطاعة لله في بقية عمره، ويتجنب ارتكاب الذنوب ولا يعصي الله بعد ذلك، ولا يعمد إلى ارتكاب جريمة قتل مشابهة، فهل يصح أن ييأس التائب - في مثل هذه الحالة - من رحمة الله وعفوه ومغفرته؟ وهل يجوز القول بأن هذا الشخص مع توبته وندمه وسيبقى مشمولاً بعذاب الله المؤبد؟ إن القول برفض توبة إنسان كهذا يكون مخالفاً لروح التعاليم الدينية السامية التي جاء بها الأنبياء لتربية البشر وهدايتهم في جميع مراحل التاريخ.

والذي نلاحظه في تاريخنا الإسلامي، هو أن النبي ﷺ قد عفا عن أخطر المجرمين من أمثال «وحشي» الذي قتل «حمزة بن عبد المطلب» عم النبي ﷺ وقبل النبي توبته، وكذلك لا يمكن القول بأن ارتكاب جريمة القتل في حال الشرك يختلف عنه في حال الإيمان، بحيث يقال باحتمال التفاضل والعفو عن الجريمة في الحالة الأولى، وعدم احتمالها في حالة الإيمان، وقد سبق أن علمنا أن ليس هناك ذنب أعظم من الشرك بالله، وعرفنا أن هذا الذنب - أيضاً - قابل للتوبة وإن الله يعفو عن المشرك إذا تاب عن شركه واعتنق الإسلام... فكيف - والحالة هذه - يمكن القول بأن جريمة القتل العمد - التي لم يذكر القرآن أنها أعظم الجرائم ليست قابلة للتوبة أو العفو؟

إن قولنا بأن جريمة قتل العمد قابلة للتوبة والعفو لا يقلل من عظم خطورة هذه الجريمة، وقبول التوبة في هذا المجال لا يعني أن التوبة متيسرة بسيطة في مثل هذه الحالة، بل أنها من أصعب الأمور، وهي إن أريد تحقيقها - تحتاج إلى

بذل وتضحيات كبيرة للتعويض عما خلفته الجريمة من آثار خطيرة وسيئة على المجتمع، والتعويض في هذا المجال ليس بالأمر اليسير^(١) ولكننا أردنا من ذلك أن نبين أن باب التوبة ليست مغلقة على من تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى، حتى لو كان قد ارتكب في وقت من الأوقات جريمة كالقتل المتعمد.

ما هي أنواع القتل؟

لقد قسم الفقهاء القتل إلى ثلاثة أنواع: كما ورد في كتب القصاص والديات، وقد استندوا في هذا التقسيم على ما استلهموه من الآيات القرآنية والروايات والأحاديث الواردة في هذا المجال ... وهذه الأنواع هي:

١- القتل العمد.

٢- القتل شبه العمد.

٣- القتل الخطأ.

والقتل العمد هو الذين يحصل باستخدام وسائل القتل مع وجود سبق إصرار على ارتكاب هذه الجريمة، مثل أن يعمد إنسان إلى قتل إنسان آخر مستخدماً في ذلك وسائل كالسكين أو العصي أو الحجارة أو غير ذلك من الوسائل القاتلة. أما القتل شبه العمد فهو الذي يكون مسبقاً بإصرار القاتل على إيذاء القاتيل دون استهداف قتله، فيؤدي الإيذاء إلى القتل، كأن يضرب شخص شخصاً آخر، دون أن يقصد قتله، فيؤدي الضرب إلى قتل المضرروب.

والقتل الخطأ هو القتل الذي يحصل دون أن يكون لدى القاتل سبق إصرار على ارتكاب هذه الجريمة، ولم يكن يهدف إلى إيذاء القاتيل، ويحدث هذا - مثلاً -

١- إن الآيات التي وردت في بيان خطورة قتل الأبرياء لها أثر بهز الإنسان من الأعماق. وفي حديث عن الرسول ﷺ أنه قال: «لزوال الدنيا أهون على الله من قتل امرئ مسلم» وقال ﷺ أيضاً: «لو أن رجلاً قتل بالمشرك وآخر رضي بالمغرب لأشرك في دمه» من تفسير الصنار، الجزء الخامس، ص ٣٦١.

لدى محاولة إنسان اصطياد بعض الحيوانات بنوع من أنواع السلاح، فبدل أن يقع السلاح في الحيوان يقع سهواً على إنسان آخر فيقتله.
وقد رودت الأحكام المختلفة لهذه الأنواع الثلاثة من القتل في الكتب الفقهية.



الآية

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا
لِمَن ءَاتَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامُ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ مَغَايِمٌ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِّن قَبْلُ فَنَزَّ اللَّهُ عَلَيْكُم
فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٦﴾

سبب النزول

لقد ذكرت الروايات والتفاسير الإسلامية أسباب عدة لنزول هذه الآية، وكلها تتشابه مع بعضها الآخر، ومن ذلك أن الرسول ﷺ حين عاد من واقعة خيبر بعث أسامة بن زيد مع جمع من المسلمين إلى يهود كانوا يسكنون في قرية فدك، من أجل دعوتهم إلى الإسلام أو الإذعان لشروط الذمة، مرداس اليهودي، وهو أحد الذين عرفوا بقدوم جيش الإسلام وكان قد أخذ أمواله وأولاده ولجأ بهم إلى أحد الجبال، هب لاستقبال المسلمين وهو يشهد بوحدانية الله ورسالة النبي ﷺ، وقد ظن أسامة بن زيد أن هذا اليهودي يتظاهر بالإسلام خوفاً على نفسه وحفظاً لماله وأنه لا يبطن الإسلام في الحقيقة فعمد أسامة إلى قتل هذا اليهودي واستولى على أغنامه، وما أن وصل نبأ هذه الواقعة إلى النبي ﷺ تأثر تأثراً شديداً منها وقال ﷺ ما معناه إن أسامة لم يكن ليعرف ما في نفس هذا

الإنسان فلعله كان قد أسلم حقيقة.

عند ذلك نزلت الآية المذكورة فحذرت المسلمين من أن تكون الغنائم الحربية أو أمثالها سبباً في رفض إسلام من يظهر الإسلام، مؤكدة ضرورة قبول إسلام مثل هذا الإنسان.

التفسير

بعد أن وردت التأكيدات اللازمة - في الآيات السابقة - فيما يخص حماية أرواح الأبرياء، ورد في هذه الآية أمر احترازي يدعو إلى حماية أرواح الأبرياء الذين قد يعرضون إلى الإتهام من قبل الآخرين، إذ تقول: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً...﴾. تأمر هذه الآية المسلمين أن يستقبلوا - بكل رحابة صدر - أولئك الذين يظهرن الإسلام وأن يتجنبوا إساءة الظن بإيمان أو إسلام هؤلاء، وتؤكد الآية بعد ذلك محذرة ونهاية عن أن تكون نعم الدنيا الزائلة سبباً في إتهام أفراد أظهرن الإسلام، أو قتلهم على أنهم من الأعداء والاستيلاء على أموالهم، إذ تقول الآية: ﴿... تبتغون عرض الحياة الدنيا...﴾^(١). وتؤكد على أن النعم الخالدة القيّمة هي عند الله بقوله: ﴿... فعند الله مغام كثيرة﴾.

وتشير الآية أيضاً إلى حروب الجاهلية التي كانت تنشب بدوافع مادية مثل السلب والنهب فتقول: ﴿... كذلك كنتم من قبل...﴾^(٢) وتضيف - مخاطبة المسلمين - أنهم في ظل الإسلام ولطف الله وكرمه وفضله قد نجوا من ذلك الوضع السيء مؤكدة أن شكر هذه النعمة الكبيرة يستلزم منهم التحقق والتثبيت

١- العرض كلمة على وزن (مرض) وتعني كل شيء زائل لا دوام له، وعلى هذا الأساس فإن «عرض الحياة الدنيا» معناه رؤوس الأموال الدنيوية التي يكون مصير جميعها إلى الزوال والفناء لا محالة.
٢- وقد ورد في تفسير هذه الآية احتمال آخر، هو أنها تخاطب المسلمين بأنهم كان لهم نفس الحالة عند إسلامهم، أي أنهم أقرؤ بالإسلام بألستهم وقبل منهم إسلامهم، وفي حين لم يكن أحد غير الله يعلم بما يخفونه في سرائرهم.

من الأمور، إذ تقول الآية: ﴿... فن الله عليكم فتبينوا إن الله كان بما تعملون خبيراً﴾.

الجهاد الإسلامي نفي من البعد المادي:

توضح الآية السالفة هذه الحقيقة بصورة جلية، وهي أن أي مسلم يجب أن لا يتقدم إلى ساحة الجهاد بأهداف مادية، ولذلك عليه أن يقبل - منذ الوهلة الأولى - من العدو إظهاره للإيمان ويلبي نداءه للصالح والسلام، حتى لو حرم المسلم بقبوله إيمان العدو الكثير من الغنائم المادية، والسبب في ذلك أن هدف الجهاد في الإسلام ليس التوسع ولا الاستيلاء على الغنائم المادية، بل الهدف من الجهاد الإسلامي هو تحرير البشر من قيود العبودية لغير الله، سواء كان هذا الغير هم الطغاة الجبابرة، أو كانت العبودية للمال وللثروة والجاه، ويجب على كل مسلم أن يسعى إلى هذه الحقيقة كلما برقت له بارقة أمل صوبها.

وتذكر الآية الكريمة المسلمين بعهدهم في الجاهلية، حيث كانوا يحملون الأفكار المادية الدنيئة قبل إسلامهم، فكانوا يتسببون في إراقة سيول من الدماء لأسباب مادية محضة، وقد نجوا اليوم بفضل إسلامهم وإيمانهم من تلك الحروب وتغير أسلوب حياتهم.

كما تشير الآية إلى حقيقة أخرى، وهي أن المسلمين ساعة إظهارهم للإسلام لم يكن أحد يعرف حقيقة هذا الإظهار أو حقيقة ما ينويه المظهر للإسلام، وتؤكد لهم ضرورة أن يطبقوا ما كانوا هم عليه عند إسلامهم على من يظهر الإسلام أمامهم من الأعداء.

سؤال:

قد يطرأ على الذهن سؤال، وهو لو أن الإسلام قبل دعوى كل من يتظاهر بالإسلام منذ الوهلة الأولى دون التحقيق من حقيقة هذه الدعوى، لأصبح ذلك

سبباً في إيجاد أرضية النفاق وظهور المنافقين في المحيط الإسلامي، وبهذا الأسلوب يمكن للكثير من الأعداء إساءة استغلال هذه الظاهرة والتستر في ظل الإسلام، ومن خلال ذلك القيام بأعمال عدائية ضد الإسلام؟

الجواب:

من الممكن القول أن ليس هناك قانون في العالم لا يمكن إساءة استغلاله أبداً، بل المهم في القانون هو أن يحوي في أغلب جوانبه النفع للعموم، لو رفضنا - منذ الوهلة الأولى - إسلام من يظهر الإسلام من الأعداء وغيرهم لمجرد عدم معرفتنا بسريرة هذا الذي يظهر الإسلام، لأدى رفضنا في كثير من الحالات إلى مفاسد لا تحمد عقباها، بل ستكون أكثر ضرراً على الإسلام، إذ أنها تعني سحق المبادئ والعواطف الإنسانية، ويكون - هذا الرفض - عند ذلك وسيلة بيد كل من يضرر العداء لصاحبه ليتهمه بأن إظهاره للإسلام لم يكن إظهاراً حقيقياً مخلصاً أو مطابقاً لما في سريرته، وبهذه الصورة من الممكن أن تراق دماء كثيرة لأناس أبرياء.

وفوق كل ذلك فإن الكثيرين لدى بدء كل دعوة ممن تكون توجهاتهم لهذه الدعوة بسيطة وشكيلة وظاهرية، ولكنهم بمرور الزمان وإتصالهم الدائم بتلك الدعوة - تنجذب في نفوسهم مبادئ الدعوة وتتأصل وتتعزيز، لذلك لا يمكن القبول برفض مثل هؤلاء الضعيفي الصلة بالدعوة.

* * *

الآيتان

لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ
وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ
الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا
وَعَدَّ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا
عَظِيمًا ﴿١٥﴾ دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا
رَّحِيمًا ﴿١٦﴾

التفسير

تناولت الآيات السابقة الحديث عن الجهاد، والآيتان الأخيرتان تبيّنان التمايز بين المجاهدين وغيرهم من القاعدين، فتؤكد عدم التساوي بين من يبذل المال والنفس رخيصين في سبيل الهدف الإلهي السامي، وبين من يقعده عن هذا البذل سبب آخر غير المرض الذي يحول دونه ودون المشاركة في الجهاد، فلا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم...».

وواضح من هذه الآية أنّ المقصود بالقاعدين فيها هم أولئك المؤمنون بالإسلام الذين لم يشاركوا في الجهاد في سبيله بسبب افتقارهم إلى العزم الكافي

لذلك، وتبين هنا - أيضاً - أن الجهاد المقصود لم يكن واجباً عينياً، فلو كان واجباً عينياً لما تحدث القرآن عن هؤلاء التاركين للجهاد بمثل هذه اللهجة المرنة ولم يكن ليوعدهم بالثواب.

وعلى هذا الأساس فإن فضل المجاهدين على القاعدين لا يمكن إنكاره حتى لو كان الجهاد ليس واجباً عينياً، ولا تشمل الآية بأي حال من الأحوال أولئك الذين أحجموا عن المشاركة في الجهاد نفاقاً، وعدواناً ويجب الانتباه - أيضاً - إلى أن عبارة «غير أولي الضرر» لها مفهوم واسع يشمل كل أولئك الذين يعانون من نقص العضو أو المرض أو الضعف الشديد، مما يحرمهم من المشاركة في الجهاد، فهؤلاء مستثنون من ذلك.

وتكرر الآية من جديد مسألة التفاضل بشكل أوضح وأكثر صراحة، وتؤكد في نهاية المقارنة، أن الله وهب المجاهدين أجراً عظيماً، «فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة»^(١).

ولكن - كما أسلفنا - لما كان في الجانب المقابل لهؤلاء المجاهدين يقف أولئك الذين لم يكن الجهاد بالنسبة لهم واجباً عينياً أو لم يشاركوا في الجهاد بسبب مرض أو عجز أو علة أخرى أعجزتهم عن هذه المشاركة، فذلك ولأجل أن لا يغفل ما لهؤلاء من نية صالحة وإيمانه وأعمال صالحة أخرى فقد وعدوا خيراً حيث تقول الآية الكريمة: «... وكلا وعد الله الحسنى» إلا أنه من البديهي أن هناك فرقاً شاسعاً بين الخير الذي وعد به المجاهدون، وبين ذلك الذي يصيب القاعدين من العاجزين عن المشاركة في الجهاد.

وتبين الآية القرآنية في هذا المجال: أن لكل عمل صالح نصيب محفوظ من

١ - لقد وردت عبارة «درجة» في الآية على صيغة النكرة، وتؤكد كتب الأدب بأن النكرة في مثل هذه الحالات تأتي لبيان العظمة والأهمية - أي أن درجة المجاهدين من السمو والرفعة بحيث لا يمكن للبشر معرفتها بصورة كاملة - وهذا شبيهه بالعبارة التي تطلق لبيان القيمة العظيمة لشيء يجهل قيمته البشر.

الثواب لا يغفل ولا ينسى، خاصّة وهي تتحدث عن قاعدين أحبّوا المشاركة في الجهاد وكانوا يرونه سامياً مقدساً، وبما أن عدم كون هذا الجهاد واجباً عينياً قد حال دون تحقق هذا الهدف السامي المقدس فإن أولئك الذين قعدوا عن المشاركة فيه سينالون من الثواب على قدر رغبتهم في المشاركة، أمّا أولئك الذين عجزوا عن المشاركة بسبب عاهة أو مرض إلا أنّهم كانوا يرغبون في الإشتراك في الجهاد برغبة جامحة، بل كانوا يعيشون الجهاد، لذلك فإنّ لهم - أيضاً - سهم ونصيب لا ينكر من ثواب المجاهدين، كما جاء في حديث مروى عن الرسول ﷺ يخاطب فيه جند الإسلام فيقول: «لقد خلفتم في المدينة أقواماً ما سرتهم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم، وهم الذين صحت نياتهم ونصحت جيوبهم وهوت أفئدتهم للجهاد وقد منعهم عن المسير ضرر أو غيره»^(١).

وبما أنّ أهمية الجهاد في الإسلام بالغة جداً، لذلك تتطرق الآية مرّة أخرى للمجاهدين وتؤكد بأن لهم أجراً عظيماً يفوق كثيراً أجر القاعدين عن الجهاد عن عجز، «... وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً».

وتشرح الآية التالية - وهي الآية (٩٦) من سورة النساء - نوع هذا الأجر العظيم فقول أنه: «درجات منه ومغفرة ورحمة»

فلو أنّ أفراداً من بين المجاهدين تورطوا في زلة أثناء أدائهم لواجبهم فندموا على تلك الزلة، فقد وعدهم الله بالمغفرة والعفو، حيث يقول في نهاية الآية: «... وكان الله غفوراً رحيماً».

نكات مهمة حول المجاهدين:

١ - لقد كررت الآية (٩٥) عبارة المجاهدين ثلاث مرات:

في المرّة الأولى ذكر المجاهدون مع الهدف والوسيلة الخاصّة بالجهاد:

﴿المجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم...﴾.

وفي الثانية: ذكر اسم المجاهدين مقروناً بوسيلة الجهاد، ولم يذكر شيء عن الهدف: ﴿المجاهدون بأموالهم وأنفسهم...﴾.

وأما في المرحلة الأخيرة فقد جاءت الآية باسم المجاهدين فقط، حيث يدل ذلك بوضوح على الأسلوب البلاغي الرفيع في الكلام القرآني، حيث يتعرف السامع شيئاً فشيئاً بواسطة الموضوع وتخف قيوده وصفاته لديه، وتصل درجة التعرف إلى مرحلة يفهم السامع بها كل شيء من خلال إشارة واحدة.

٢- لقد ذكرت الآية في البداية تفوق المجاهدين على القاعدين بعبارة مفردة وهي «درجة» بينما في الآية التالية جاءت هذه العبارة بصيغة الجمع «درجات» وجلّى أن لا تناقض بين هاتين العبارتين، لأن القصد من العبارة الأولى تبيان تفوق المجاهدين على غيرهم، ولكن العبارة الثانية تشرح هذا التفوق حين تقترن بذكر عبارات «المغفرة» و«الرحمة»، وبعبارة أخرى فإن الفرق بين هاتين العبارتين «درجة» و«درجات» هو الفرق بين المجمل والمفصل.

كما يمكن الاستفادة من عبارة «درجات» على أنها تعني أن المجاهدين ليسوا كلهم في درجة أو مستوى واحد، بل تختلف درجاتهم باختلاف درجة إخلاصهم وتفانيهم وتحملهم للمشاق، وتختلف بذلك منزلتهم المعنوية، لأنه من البديهي أن الذين يجاهدون الأعداء في صف واحد ليسوا جميعاً بمستوى جهادي واحد، كلها تختلف درجات الإخلاص لدى كل واحد منهم بالقياس إلى أمثالهم، ولذلك فإن لكل واحد منهم ثواباً خاصاً به يتناسب مع عمله الجهادي ونيته في هذا العمل.

الأهمية البالغة للجهاد:

إنّ الجهاد قانون عام في عالم الخليقة، فإنّ كل مخلوق سواء كان من

النباتات أو الحيوانات يسعى لإزالة ما يعترض طريقه من موانع بواسطة الجهاد، لكي يستطيع كل واحد منهم بلوغ الكمال المطلوب في التكوين.

وعلى سبيل المثال ف جذر النبات الذي ينشط للحصول على الغذاء والطاقة بصورة دائمة، لو ترك نشاطه، هذا وكف عن السعي لإستحالة عليه إدامة حياته. ولذلك فإن هذا الجذر حين يعترض طريقه مانع في عمق الأرض يحال تخطيه بثقبه، والعجيب هنا أن الجذور الرقيقة تعمل في مثل هذه الحالة كالسمار الفولاذي في ثقب الموانع التي تعترضها، فلو عجزت في هذا المجال لحرفت طريقها واجتازت المانع عن طريق الالتفاف حوله.

وفي داخل وجود الإنسان أيضاً وحتى في ساعات النوم هناك صراع غريب ومستمر مادام الإنسان حياً، وهو الصراع بين كريات الدم البيضاء والأجسام المعادية المهاجمة، فلو أن هذا الصراع توقف لساعة واحدة وتخلت الكريات البيض عن الدفاع، لتسلطت الجراثيم والمكروبات المتنوعة على كافة أجهزة جسم الإنسان ولعرضت حياته إلى الخطر.

إن ما هو موجود في أوساط المجتمعات والقوميات والشعوب في العالم من كفاح من أجل البقاء، هو عين ذلك الكفاح والجهاد الذي لمسناه في النبات وفي جسم الإنسان.

وعلى هذا الأساس فإن كل من يواصل «الجهاد» و«المراقبة» تكون الحياة من نصيبه وهو منتصر دائماً - أما الذين تلهيهم عن الجهاد الأهواء والملذات والشهوات والأنانية وحب الذات فلن ينالهم غير الفناء والدمار عاجلاً أو آجلاً، وسيحل محلهم أناس يمتازون بالحيوية والنشاط والكفاح الدؤوب.

وهذا هو الشيء الذي يؤكد عليه رسول الله محمد ﷺ إذ يقول: «فمن ترك الجهاد ألبسه الله ذلاً وقرأ في معيشته، ومحقاً في دينه، إن الله أعز أمتي بسنابك خيلها

ومراكز رماحها»^(١).

ويقول النبي ﷺ في مناسبة أخرى: «أغزوا تورثوا أبناءكم مجدداً»^(٢).

أما أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه فهو يقول في مستهل خطبته عن الجهاد «... فإنَّ الجهاد باب من أبواب الجنة، فتحة الله لخاصة أوليائه، وهو لباس التقوى، ودرع الله الحصينة، وجنته الوثيقة، فمن تركه رغبة عنه ألبسه الله ثواب الذلّ وشملة البلاء، وديث بالصفار والقماء...»^(٣).

ويجب الالتفات إلى أنَّ الجهاد لا يقتصر معناه على الحرب أو القتال المسلح، بل هو أيضاً كل سعي حثيث وجهد جهيد يبذل من أجل التقدم نحو تحقيق الأهداف المقدسة - الإلهية - ومن هذا المنطلق فإنه بالإضافة إلى الحروب الدفاعية أو الهجومية - أحياناً - فإنَّ الكفاح العلمي والمنطقي والإقتصادي والثقافي والسياسي يعتبر نوعاً من الجهاد.

* * *

١- الوسائل، كتاب الجهاد، ج ١، ص ٢ و ١٦.

٢- الوسائل، كتاب الجهاد، ج ١، ص ٢ و ١٦.

٣- نهج البلاغه، الخطبة ٢٧.

الآيات

إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمْ لَمَّا كَانُوا فِي أَعْيُنِنَا قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا فَأَوْلَتْكَ مَا وَهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١٧﴾ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿١٨﴾ فَأَوْلَتْكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَغْفُو عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٩﴾

سبب النزول

لقد أُنذِر رؤساء قريش قبل بدء غزوة بدر جميع الأفراد من أهالي مكة الذين يستطيعون حمل السلاح، أن عليهم أن يتأهبوا لقتال المسلمين، محذرين بأن من يخالف هذا الأمر ستهدم داره وتصادر أمواله، وقد أدى هذا التهديد بنفر من الذين كانوا قد أسلموا في الظاهر، ولكنهم كانوا قد رفضوا الهجرة لشدة حبههم لموطنهم ولأموالهم... أدى بهؤلاء إلى أن يرغموا على مشاركة الوثنيين في التحرك إلى ساحة الحرب، وراودهم الشك في إنتصار المسلمين لقلّة عددهم، فكان أن قتلوا وهم إلى جانب المشركين.

فنزلت الآيات المذكورة وحدثت عن المصير الأسود الذي لاقاه هؤلاء بسبب إصرارهم على البقاء في موطن الشرك.

التفسير

تعقياً للبحوث الخاصة بالجهاد، تشير الآيات الثلاث الأخيرة إلى المصير الأسود الذي كان من نصيب أولئك الذين ادعوا الإسلام ولكنهم رفضوا أن يطبقوا خطة الإسلام في الهجرة، فأنحرفوا إلى مزالق رهيبة، فكانت نتيجة إنحرافهم أن أصابهم القتل وهم في صفوف المشركين.

فالقرآن الكريم يذكر كيف أن الملائكة لدى قبضهم لأرواح هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم، يسألونهم عن حالهم في الدنيا وأنهم لو كانوا حقاً من المسلمين، فلماذا اشتركوا في صفوف المشركين لقتال المسلمين ﴿إن الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم...﴾ فيجيب هؤلاء بأنهم تعرضوا في مواطنهم للضغط وأن ذلك أعجزهم عن تنفيذ الأمر الإلهي ﴿قالوا كنا مستضعفين في الأرض﴾.

لكن عذرهم هذا لم يقبل منهم، إذ يرد الملائكة عليهم قائلين: لماذا لم تتركوا موطن الشرك وتنجوا بأنفسكم من الظلم، والكبت عن طريق الهجرة إلى أرض غير أرضكم من أرض الله الواسعة، ﴿قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها﴾.

وفي النهاية تشير الآية إلى مصير هؤلاء، فتقول بأن الذين امتنعوا عن الهجرة لأسباب واهية أو لمصالحهم الشخصية، وقرروا البقاء في محيط ملوث وفضلوا الكبت والقمع على الهجرة فإن مكان هؤلاء سيكون في جهنم، وإن نهايتهم وعاقبتهم هناك ستكون سيئة لا محالة: ﴿فأولئك ما أوهم جهنم وساءت مصيراً﴾.

أما الآية الأخرى من الآيات الثلاث المذكورة، فهي تستثني المستضعفين والعاجزين الحقيقيين لا المزيفين، فتقول: إن أولئك الرجال والنساء والأطفال الذين لم يجدوا لأنفسهم مخرجاً للهجرة، ولم يتمكنوا من إيجاد وسيلة للنجاة من

محيطهم الملوث، فهم مستنون من حكم العذاب، لأن هؤلاء معذورون في الحقيقة، وإن الله لا يكلف نفساً ما لا تطيق، «إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً».

والآية الأخيرة من الآيات الثلاث المذكورة تبين احتمال أن يشمل الله بعفوه هؤلاء، إذ تقول: «فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفواً غفوراً».

وقد يرد هنا سؤال وهو: لو أن هؤلاء الأشخاص كانوا في الحقيقة معذورين، فلماذا لا تعدهم الآية بعفو إلهي حتمي، بل تبين احتمال أن يشملهم هذا العفو إذ تأتي الآية بعبارة «عسى» لتأكيد احتمالية الأمر؟

وجواب هذا السؤال هو نفس الجواب الذي ذكرناه في ذيل الآية (٨٤) من سورة النساء والذي يتنا من خلاله أن القصد من استخدام مثل هذه العبارات هو أن الحكم الوارد في الآية مقيد بشروط خاصة يجب الالتفات إليها، وهنا يكون الشرط هو أن يتبادر هؤلاء المستضعفون حقيقة إلى الهجرة - دون تردد - حتى ما سئحت لهم فرصة ذلك دون أن يقصروا في هذا الأمر فعند ذلك يشملهم العفو الإلهي.

نقاط يجب الالتفات إليها:

١- استغلال الزوج

إن الإتيان بكلمة «توفي» في الآية الشريفة المارة الذكر بدلاً من ذكر كلمة «الموت» إنما هو في الحقيقة إشارة إلى أن الموت ليس هو الفناء التام، بل هو حالة تتلقى فيها الملائكة روح الإنسان، أي أن الملائكة يقبضون من الإنسان روحه التي هي جوهر وجوده، فتؤخذ هذه الروح إلى العالم الآخر، وإن الإتيان بمثل هذه العبارة بصورة متكررة في القرآن الكريم، يعتبر من أوضح الأدلة القرآنية على قضية وجود الروح وبقائها بعد الموت، حيث سنتطرق إلى ذلك لدى تفسير

الآية الخاصة بالروح.

وإن هذا هو جواب أولئك الذين يزعمون أن القرآن لم يشير مطلقاً إلى قضية الروح^(١).

٢- ملك الموت أم ملائكة الموت

لدى البحث في موارد متعددة من القرآن الكريم (أي حوالي ١٢ مورداً) والتي وردت فيها عبارة «توفى» وهي تتحدث عن الموت، نستنتج أن قبض الأرواح يقوم به ملائكة متعددون وليس ملكاً واحداً، وهؤلاء الملائكة هم المكلفون بنقل أرواح بني آدم من هذه الدنيا إلى العالم الآخر، ففي الآية المارة الذكر ورد اسم الملائكة بصيغة الجمع، وهذا هو أحد الأدلة على أن قبض الأرواح يقوم به ملائكة متعددون فنحن .

نقرأ في الآية (٦١) من سورة الأنعام قوله تعالى: «حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا ...».

وهناك من الآيات ما ينسب قبض الروح إلى ملك الموت^(٢)، وهذا الملك هو كبير ملائكة قبض الروح الذي ذكر في الأحاديث باسم «عزرائيل». ويتضح لنا مما سبق جواب من يسأل عن كيفية قيام ملك واحد بقبض أرواح أناس عديدين في آن واحد وفي مناطق مختلفة.

ومع ذلك فإننا لو افترضنا أن هناك ملك واحد فقط لقبض الأرواح لا العديد من الملائكة، فعند هذا الفرض لا يرد أيضاً أي معضل، والسبب هو أن التجرد الوجودي لهذا الملك يقتضى أن تكون دائرة عمله ونفوذه وسيعه مترامية الأطراف بشكل خارق للعادة، لأن أي وجود مجرد عن المادة يمكن أن تكون إحاطته واسعة بما يخص عالم المادة - وقد نقل عن الإمام الصادق عليه السلام أن

١- لمعرفة معنى «توفى» من الناحية اللغوية يرجى مراجعة الجزء الثاني من تفسيرنا هذا.

٢- سورة السجدة.

النبي ﷺ حين سأل ملك الموت عن كيفية إحاطته بما في العالم، أجابه هذا الملك: «ما الدنيا عندي كلها فيما سخرها الله لي ومكنتي عليها إلا كالدرهم في كف الرجل يقلبه كيف يشاء»^(١).

ولكننا نرى في بعض الآيات أن قبض الروح ينسب إلى الله عز وجل: «الله يتوفى الأنفس حين موتها»^(٢)، وهذا لا يتناقض مع الآيات السابقة، لأن في كثير من الحالات حين يتم عمل بوسيلة معينة، ينسب فعل هذا العمل تارة للوسيلة ذاتها، وأخرى للذي أوجد وصنع هذه الوسيلة، وكلا النسبتين صحيحتان. والظريف أن القرآن قد نسب فعل الكثير من أحداث العالم إلى الملائكة الذين هم مكلفون من قبل الله سبحانه وتعالى، ونحن نعلم أن لعبارة «ملائكة» أو «ملك» معاني واسعة تدور بين معنى «الموجودات المجردة العاقلة» إلى معنى «الطاقات والقوى الطبيعية».

٣- من هو المستضعف؟

لدى البحث في الآيات القرآنية والأحاديث والروايات يستنتج أن المستضعف هو ذلك الشخص الذي يعاني من ضعف فكري أو بدني أو اقتصادي يمنعه من التعرف على الحق والباطل، أو أنه ذلك الذي يستطيع التعرف على العقيدة الصادقة الحقة، إلا أنه ولمعاناته من عجز جسماني أو مالي أو قيود يفرضها عليه المحيط الذي يعيش فيه، يعجز عن أداء واجباته التي كلف بها بصورة كاملة، كما يعجز عن القيام بالهجرة.

وعن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: «ولا يقع اسم الإستضعاف على من بلغته الحجة فسمعتها أذنه ووعاها قلبه»^(٣).

١- تفسير البرهان، الجزء الثاني، ص ٣٩١، هامش الآية الأولى من سورة الإسراء.

٢- من سورة الزمر الآية ٤٢.

٣- نور الثقلين، الجزء الأول، ص ٥٣٦.

وعن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام أنه حين سئل: أي قوم يقال لهم المستضعفون؟ فأجاب عليه السلام كتابة: «الضعيف من لم ترفع له حجة، ولم يعرف الاختلاف، فإذا عرف الاختلاف فليس بضعيف»^(١).

وواضح من الروايات المذكورة أنّ المستضعف هو ذلك الذي يعاني من ضعف فكري عقائدي، إلا أنّ الآية موضوع البحث والآية (٧٥) من نفس هذه السورة التي سبق وأن تحدثنا فيها تدلان على أنّ المستضعف هو ذلك الذي استضعف عملياً، فهو يعرف الحق ويميزه، ولكن الكسبت الذي يعاني منه في المحيط الذي يعيش فيه لا يسمح له بالعمل بالحق الذي عرفه.



الآية

وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرْعَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً
وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ
فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٥٠﴾

التفسير

الهجرة حكم اسلامي بناء:

بعد أن بحثت الآيات السابقة حول الأفراد الذين يقعون فريسة الذل
والمسكنة بسبب عدم إيفائهم بواجب الهجرة، تشرح الآية الأخيرة بشكل صريح
وحاسم أهمية الهجرة في قسمين:

في القسم الأول: تشير هذه الآية إلى نعم وبركات الهجرة في الحياة الدنيا،
فتقول إن الذي يهاجر في سبيل الله إلى أي نقطة من نقاط هذه الأرض الواسعة،
سيجد الكثير من النقاط الآمنة الواسعة ليستقر فيها، ويعمل هناك بالحق ويرغم
أنف المعارضين «ومن مهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغماً كثيراً وسعة
...».

ويجب الالتفات إلى أن عبارة «مراغم» مشتقة من المصدر «رغام» على وزن
«كلام» والذي يعني التراب، والإرغام معناه التمرغ في التراب والإذلال

و«مراغم» صيغة لإسم المفعول واسم مكان أيضاً.

وقد وردت في الآية هذه بمعنى اسم مكان كذلك، أي أنها المكان الذي يمكن فيه تحقيق الحق وتطبيقه والعمل به، كما يمكن فيه إيدانة المعارضين للحق وتمريغ أنفهم بالتراب.

بعد ذلك تشير الآية في القسم الثاني منها إلى الجانب المعنوي الأخرى للهجرة: «ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفوراً رحيماً»، وعلى هذا الأساس فإن المهاجرين في كل الأحوال سينالهم نصر كبير، سواء وصلوا إلى المكان الذي يستهدفونه ليتمتعوا فيه بحرية العمل بواجباتهم، أو لم يصلوا إليه فيفقدوا حياتهم في هذا الطريق، وفي هذا المجال وعلى الرغم من بدهاة حقيقة تلقي الصالحين أجرهم من الله سبحانه وتعالى، إلا أن الآية موضوع البحث قد صرحت بهذا الأمر بقولها: «فقد وقع أجره على الله» وهذا يوضح مدى عظمة وأهمية الثواب والأجر الذي يناله المهاجرون.

الإسلام والهجرة:

إن الإسلام - إستناداً إلى هذه الآية وآيات كثيرة أخرى - يأمر المسلمين بكل صراحة بالهجرة من المحيط الذي يعانون فيه - لأسباب خاصة - من عدم التمكن من أداء واجباتهم إلى محيط ومنطقة آمنة، وسبب هذا الأمر واضح، لأن الإسلام لا يُحدّ بمكان ولا يقيد بمحيط معين خاص، ولهذا فإن التمسك المفرط بالمحيط ومحل التولد والعلاقات المختلفة الأخرى لا تقف في نظر الإسلام حائلاً دون هجرة المسلمين.

ولذلك نرى إنقسام كل هذه العلاقات في الصدر الأوّل للإسلام ومن أجل حماية الإسلام وتقديمه، وفي هذا المجال يقول أحد المؤرخين الغربيين: إن

القبيلة والعائلة هما الشجرة الوحيدة التي تنبت في الصحراء، ولن يستطيع أحد الحياة دون اللجوء إليها، إلا أن محمداً ﷺ قد قلع هذه الشجرة التي نمت بلحم ودم عائلته، وفعل ذلك من أجل ربه وخالقه (فقد فصم النبي ﷺ علاقته بقريش في سبيل الإسلام)^(١).

علاوة على ما ذكر فإن من بين جميع الموجودات الحيّة، حين تتعرض حياة أي واحداً أو مجموعة منها إلى الخطر، نراها تضطر إلى ترك مكان تواجدتها والهجرة منه إلى مأوى وملجأ آمن آخر، والكثير من أبناء البشر الأقدمين عمدوا إلى الهجرة من مكان ولادتهم - بسبب تغير الظروف الجغرافية فيه - إلى نقاط أخرى من العالم من أجل مواصلة الحياة، وليس البشر وحدهم الذين مارسوا الهجرة، بل هناك من بين الحيوانات أنواع كثيرة عرفت بالحيوانات المهاجرة، مثل الطيور التي تضطر أحياناً إلى الدوران حول الأرض تقريباً من أجل إيجاد مأوى تواصل فيه حياتها، وبعض هذه الطيور تهاجر من القطب الشمالي إلى القطب الجنوبي، وأحياناً تقطع مسافة حوالي (١٨) ألف كيلومتر للوصول إلى المكان الذي تريد العيش فيه.

وهذه الشواهد هي خير دليل على أن الهجرة هي إحدى القوانين الخالدة للحياة، فهل يصح أن يكون الإنسان أقل حظاً من الحيوان في هذا المجال؟
 وحين تتعرض، حياته المعنوية، وكيانه وأهدافه المقدسة التي هي أئمن وأعلى من حياته المادية إلى الخطر، فهل يستطيع هذا الإنسان البقاء في مكان الخطر متشبثاً بالأرض والمولد وغير ذلك متحملاً ألوان الذل والإهانة والحرمان وسلب الحريات، والأهم من ذلك كله زوال أهدافه التي يعيش من أجلها؟!
 أو أن عليه أن يختار قانون الطبيعة في الهجرة، ويترك ذلك المكان، ويختار مكاناً آخر يتيسر فيه المجال لنموه المادي والمعنوي؟

الطريف في هذا الأمر أنّ الهجرة - أي تلك الهجرة التي كانت لأجل حفظ النفس وحماية الشريعة الإسلامية - تعتبر مبدأ - أو بداية - التاريخ الإسلامي، وهي بذلك تعد البنية الأساسية لكل الأحداث السياسية والاعلامية والاجتماعية للمسلمين.

فلننظر لماذا انتخبت هجرة الرسول ﷺ مبدأ - أو بداية - للتاريخ الإسلامي؟

إنّ هذا الموضوع جدير بالملاحظة، لأننا نعلم أن أي مجموعة بشرية صغرت أو كبرت، تتخذ لنفسها مبدأ أو بداية تاريخية تحسب منه تاريخها، فالمسيحيون مثلاً اتخذوا بداية تاريخهم السنة التي ولد فيها عيسى ﷺ، أمّا المسلمون فمع وجود أحداث مهمة كثيرة وقعت لهم قبل الهجرة، مثل يوم ولادة النبي ﷺ، ويوم البعثة المحمدية الشريفة، وفتح مكة، ووفاة الرسول ﷺ، لكنهم لم يتخذوا أي واحد من الأحداث مبدأ أو بداية لتاريخهم، بل اعتبروا حادثة الهجرة وحدها بداية للتاريخ الإسلامي.

إنّ التاريخ يقول أنّ المسلمين بدأوا يفكرون بتعيين بداية تاريخهم الذي له أهمية عامّة وشاملة في زمن الخليفة الثاني الذي توسعت في عهده رقعة البلاد الإسلامية - وأنّ المسلمين بعد البحث الكثير في هذا الأمر، اختاروا رأي علي بن أبي طالب ﷺ بإتخاذ حادثة الهجرة النبوية الشريفة مبدأ وبداية للتاريخ الإسلامي^(١).

والحقيقة أنّ هذا الإختيار كان هو المتعين، لأنّ الهجرة كانت أهم والمع حدث أو برنامج حصل للإسلام، وكانت الهجرة مبدأ فصل جديد مهم في التاريخ الإسلامي، فالمسلمون حين وجودهم في مكة كانوا يمارسون تعلم شؤونهم

١ - تاريخ الطبري، الجزء الثاني، ص ١١٢، ويجب التنبيه إلى وجود رسائل من أيام الرسول ﷺ، مذيلة بالتاريخ الهجري. راجع كتاب (مكاتيب الرسول) للأحمدي.

الحياتية وفق دينهم الجديد (الاسلام) ولم تكن لديهم في هذه الحالة - على ما يبدو - أي قدرة سياسية وإجتماعية، ولكنهم بعد الهجرة شكلوا مباشرة الدولة الإسلامية التي تقدمت بسرعة فائقة - في كل المجالات - ولو أنّ المسلمين لم يدعوا الأمر الرسول ﷺ في اختيار الهجرة وفضلوا البقاء في مكّة، لما تيسر عند ذلك للإسلام أن يمتد خارج حدود مكّة، بل حتى كان من الممكن أن يقبر الإسلام في مكّة ويمحى أثره.

ويتضح لنا أنّ الهجرة لم تكن حكماً خاصاً بزمن الرسول ﷺ، بل أنّها تجب على المسلمين متى ما تعرضوا لظروف مشابهة لتلك الظروف التي اضطرت النبي وأصحابه ﷺ إلى ترك مكّة والهجرة إلى المدينة.

والقرآن يعتبر الهجرة في الأساس جوهرراً لوجود الحرية والرفاه، وقد أشارت الآية - موضوع البحث - إلى هذا الأمر، كما أن الآية (٤١) من سورة النحل تشير من جانب آخر إلى هذه الحقيقة، إذ تقول: «والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا لنبؤتهم في الدنيا حسنة».

وتجدر الإشارة - أيضاً - إلى هذه النقطة، وهي أنّ الهجرة في نظر الإسلام لا تقتصر على الهجرة المكانية والخارجية، بل يلزم قبل ذلك أن تتحقق لدى الفرد المسلم هجرة باطنية في نفسه، يترك بها كل ما ينافي الأصاله والكرامة الإنسانية، لكي يتيسر له بهذا السبيل إلى الهجرة المكانية - إذن فالهجرة الباطنية ضرورية قبل أن يبدأ الإنسان المسلم هجرته الخارجية - وإذا لم يكن هذا الإنسان بحاجة إلى الهجرة الخارجية، يكون قد نال درجة المهاجرين بهجرته الباطنية.

والإساس في الهجرة هو الفرار من «الظلمات» إلى «النور» ومن الكفر إلى الإيمان، ومن الخطأ والعصيان إلى إطاعة حكم الله، لذلك نجد في الحديث ما يدل على أنّ المهاجرين الذين هاجروا بأجسامهم دون أن تتحقق الهجرة في بواطنهم وأرواحهم، ليسوا في درجة المهاجرين، وعلى عكس هؤلاء فإنّ من تتحقق لديه

الهجرة الباطنية الروحية ولم يتمكن أو لم يحتج إلى الهجرة الخارجية فهو في عداد المهاجرين حقاً.

وعن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام قوله: «ويقول الرجل هاجرت، ولم يهاجر، إنما المهاجرون الذين يهجرون السيئات ولم يأتوا بها».

وعن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «من فر بدينه من أرض إلى أرض وإن كان شبراً من الأرض، استوجب الجنة وكان رفيق محمد وإبراهيم عليهما السلام»^(١). لأن هذين النبيين هما قادة وأئمة مهاجري العالم.



الآية

وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ
الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا
لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾

التفسير

صلاة المسافر:

بعد الآيات التي تحدثت سابقاً عن الجهاد والهجرة، تنطرق الآية (١٠١) من سورة النساء - التي هي موضوع بحثنا الآن - إلى صلاة المسافر، فتبين أن لا مانع للمسلم من أن يقصر صلاته لدى السفر إذا خاف من خطر الكافرين الذين هم الأعداء البارزون للمسلمين، وقد عبّرت هذه الآية عن السفر بالضرب في الأرض، لأن المسافر يضرب الأرض برجليه لدى السفر^(١).

ويرد هنا سؤال: وهو أن الآية هذه قد جعلت الخوف من العدو شرطاً لقصر الصلاة، بينما نقرأ في البحوث الفقهية أن حكم صلاة القصر يعتبر حكماً عاماً يشمل جميع أنواع السفر، سواء كان فيه الخوف من الأعداء أو كان سفرًا آمناً لا خوف فيه، وقد وردت روايات عديدة عن طرق الشيعة والسنة في مجال صلاة

القصر تؤيد كلها شمولية حكم صلاة القصر لكل أنواع السفر المباح^(١).

وفي جواب هذا السؤال يجب القول: بأن تقييد حكم القصر في صلاة بالخوف قد يكون سببه واحداً من الموارد التالية:

أ- إن القيد جاء بسبب وضع المسلمين في بداية العصر الإسلامي، ويصطلح على هذا القيد بـ «القيد الغالب» أي أن أغلب أسفار المسلمين في ذلك الزمن كانت مشوبة بالخوف، وجاء في علم الأصول أن القيود الغالبة لا مفهوم لها مستدلاً بآية «وربائبكم اللاتي في حجوركم»^(٢) أي بنات نساءكم اللواتي تربونهن وهن من أزواج سابقين وهن حرام عليكم.

حيث نواجه في هذه الآية نفس مسألة «القيد الغالب» لأن بنات الزوجة يعتبرن محارم للزوج - سواء تربين في حجره أم لم يتربين لديه - ولكن بما أن أغلب النساء المطلقات اللواتي يتزوجن مرة أخرى هن نساء شابات لديهن أطفال صغار تتم تربيتهم في حجر الزوج الجديد، لذلك جاءت الآية بقيد «حجوركم».

ب - ويعتقد بعض المفسرين أن صلاة القصر شرعت في البداية لزمّن الخوف - كما جاء في الآية موضوع البحث - وإن هذا الحكم قد توسع فيما بعد فشمّل جميع الحالات.

ج - ويحتمل أيضاً أن يكون في هذا القيد جانب توكيدي، أي أن صلاة القصر لازمة للمسافر أينما كان، ولكن في حالة الخوف من العدو تكون هذه الصلاة مؤكدة أكثر.

وعلى أي حال، فليس هناك من شك أن صلاة القصر للمسافر - مع الاخذ

١ - للإطلاع أكثر راجع الجزء الخامس من كتاب وسائل الشيعة، وكتاب سنن البيهقي، الجزء الثالث، ص ١٣٢ وغيرهما من الكتب.

بنظر الاعتبار الروايات المفسرة لهذه الآية - لا تقتصر على حالة الخوف، ولهذا السبب فإن النبي ﷺ كان في أسفاره حتى في موسم الحج (في أرض منى) يقصر صلاته.

سؤال:

وهنا يرد سؤال آخر، وهو أن الآية قد أتت بعبارة «ولا جناح عليكم» وليس في هذه العبارة دلالة الحتمية في الحكم، أي لا تحتم على المسافر أن يقصر صلاته، فكيف يمكن القول أن صلاة القصر واجب عيني للمسافر وليس واجباً تخييرياً؟

الجواب:

لقد وجه هذان السؤالان إلى أئمة الإسلام، فأشاروا لدى الإجابة عليهما إلى نقطتين مهمتين:

النقطة الأولى: هي أن عبارة «لا جناح»، أي لا ذنب عليكم، قد استخدمت في بعض الموارد في القرآن الكريم للدلالة على الوجوب، فمثلاً في آية: «إِنَّ الصَّافِيَ والمَرُوءَةَ من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما»^(١) في حين أن جميع المسلمين يعرفون أن السعي بين الصفا والمروة واجب سواء في الحج أو العمرة.

وكان النبي ﷺ والأئمة عليهم السلام والمسلمون يؤدون السعي بعنوان الواجب ... وقد نقل عن الإمام الباقر عليه السلام حديث بهذا المضمون^(٢).

وبعبارة أخرى فإن عبارة «لا جناح» - في الآية موضوع البحث وكذلك في آية الحج - جاءت لنفي التحريم، والسبب هو أن بعض المسلمين في بدء الإسلام، ولوجود أصنام على جبلي الصفا والمروة، كانوا يظنون أن السعي بينهما من

١- من سورة البقرة، الآية ١٥٨.

٢- نور الثقلين، الجزء الأول، ص ٥٢٢.

عادات وتقاليد الوثنيين، في حين أنه لم يكن كذلك، فجاءت عبارة - «لا جناح» في الآية المذكورة لرفع الوهم الحاصل.

وكذلك في حالة المسافر، من الممكن أن يتوهم البعض أن قصر الصلاة في السفر قد يعتبر نوعاً من المعصية، فجاء القرآن الكريم في الآية بعبارة «لا جناح» لرفع هذا الوهم أيضاً.

والنقطة الثانية: هي أن بعض الروايات قد أشارت إلى أن قصر الصلاة في السفر نوع من التسهيل الإلهي، وتقتضي الأدب أن لا يرد هذا التسهيل ولا يتجاهل.

وفي روايات أهل السنة نقل عن النبي ﷺ أنه قال في موضوع قصر الصلاة: «صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته»^(١).

كما ورد مثل هذا الحديث في مصادر الشيعة حيث ينقل الإمام الصادق عليه السلام عن النبي ﷺ قوله بأن: الإفطار في السفر وقصر الصلاة فيه هديتان الهيئتان فمن انصرف عنهما أصبح راداً لهدية الله^(٢).

أما النقطة الثالثة: التي يجب الانتباه لها فهي أن بعض المسلمين قد تصوروا أن الآية (١٠١) من سورة النساء تبين حكم صلاة الخائف (أثناء الحروب وأمثال ذلك) ويستدلون لذلك بعبارة «إن خفتم» الواردة في الآية، ولكن جملة «إذا ضربتم في الأرض» فيها مفهوم عام يشمل كل أنواع السفر سواء كان من الأسفار الإعتيادية أو كان سفرأ من أجل الجهاد، والذي تناولته الآية التالية بصورة مستقلة.

إذن فعبارة «إن خفتم» - وكما أسلفنا - تعتبر نوعاً من القيود أو الشروط

١- جاء هذا الحديث في سنن البيهقي، الجزء الثالث، ص ١٢٤ نقلاً عن صحيح مسلم، كما ورد في كتب التفسير والفقهاء أيضاً.

٢- وسائل الشيعة الجزء الخامس، ص ٥٢٠.

الغالبية، حيث أن أغلب أسفار المسلمين في ذلك الزمان كانت مشوبة بالخوف والخطر - لذلك فلا دلالة على اقتصار الآية على الصلاة في حالة الخوف، بالإضافة إلى ذلك، فإن الخوف من هجوم العدو موجود أثناء الحروب وليس في معناه أن يقال لمن في ساحة الحرب «إن خفتم» من هجوم العدو، وهذا دليل آخر على أن الآية تشير إلى جميع أنواع السفر التي يحتمل أن يوجد فيها بعض الأخطار على المسافر.

كما يجب التنبيه إلى أن شروط صلاة المسافر لم ترد في القرآن، كما لم ترد شروط وأوصاف بقية الأحكام الإسلامية فيه أيضاً، بل أشارت إلى ذلك السنة الشريفة.

ومن هذه الشروط أن صلاة القصر لا تجب في الأسفار التي لا تبلغ المسافة فيها ثمانية فراسخ، لأن المسافر في تلك الأيام كان يقطع في اليوم الواحد مسافة الثمانية فراسخ بصورة اعتيادية.

والشرط الآخر هو أن المسافر الذي يتخذ من السفر حرفة لنفسه أو جزءاً من برنامج حياته اليومية مستثنى من القصر في الصلاة، لأن السفر بالنسبة إلى أمثال هؤلاء أمر اعتيادي، وليس أمراً استثنائياً.

كما أن من يسافر من أجل ارتكاب معصية، لا يكون مشمولاً لحكم صلاة المسافر، أي لا يجوز له القصر في الصلاة، والسبب هو أن حكم القصر يعتبر نوعاً من التسهيل الإلهي، ولا يمكن أن يشمل هذا التسهيل من يسير في طريق معصية الله.

كما أن أي مسافر لم يصل إلى حدّ الترخيص (أي إلى النقطة التي لا يمكن سماع صوت أذان المدينة فيها، أو لا يمكن مشاهدة أسوار المدينة عندها) لا يمكنه أن يقصر صلاته، لأنه في هذه الحالة لا يعد خارجاً عن حدود المدينة ولا يعتبر في عداد المسافرين.

وبالإضافة إلى ما ذكر هناك أحكام أُخرى ذكرتها كتب الفقه بالتفصيل، وقد ذكرت الأحاديث التي وردت في هذا الأمر كتب الحديث.

* * *

الآية

وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ
 وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ
 وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا
 حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَذَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ
 وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَجِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ
 كَانَ بِكُمْ أذىٌ مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ
 وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿١٦٢﴾

سبب النزول

نزل النبي ﷺ مع عدد من المسلمين أرض الحديبية - وهم في طريقهم إلى مكة - فسمعت قريش بذلك فبعثت بخالد بن الوليد على رأس زمرة من مشي شخص لإعتراض طريق النبي ﷺ والمسلمين الذين معه ومنعهم من الوصول إلى مكة، فاستقر خالد والذين رافقوه في الجبال القريبة من مكة.

ولما كان موعد صلاة الظهر، أذن بلال، فصلّى النبي ﷺ بالمسلمين جماعة، فشهد خالد بن الوليد صلاة المسلمين ففكر في خطة للهجوم على المسلمين، وأخبر جماعته أن يفتنموا فرصة أداء المسلمين لصلاة العصر التي

يعتبرونها أعزّ عليهم من أعينهم، فيباغتونهم بهجوم خاطف وهم في الصلاة ويقضون عليهم.

وفي هذه الأثناء نزلت الآية بحكم صلاة الخوف التي تصون المسلمين من كل هجوم خاطف.

وهذه الآية إحدى معاجز القرآن الكريم حيث أخبرت عن وقوع هجوم قبل قيام العدو بتنفيذه وبذلك أفضلت خطة العدو، ويقال بأنّ خالداً أعلن إسلامه حال مشاهدته لذلك المشهد بعينه.

التفسير

بعد آيات الجهاد السابقة تبين هذه الآية للمسلمين طريقة صلاة الخوف التي تؤدي في ساحة الحرب، فتخاطب الآية النبي ﷺ قائلة: «وإذا كنت فيهم فأقت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم...» فإذا سجدت جماعة وانقضت الركعة الأولى من الصلاة، على النبي أن يقف في مكانه فتؤدي الجماعة - سريعاً - الركعة الثانية وتعود إلى ساحة القتال لمواجهة العدو.

وتأتي بعد ذلك الجماعة الثانية التي لم تصل بعد، وتأخذ مكان الجماعة الأولى فتصلي مع النبي: «فإذا سجدوا فليكونوا من روائكم ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معكم...» وعلى الجماعة الثانية أن لا تضع أرضاً لامة حربها، بل تحتفظ بها معها: «وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم...».

وتشير الآية إلى أنّ أداء الصلاة بهذا الأسلوب من أجل أن يبقى المسلمون في مأمن من أي هجوم مباغت قد يقوم به العدو عليهم، لأنه يتحين الفرص دائماً لتنفيذ هذا الهجوم، ويتمنى لو تخلى المسلمون وغفلوا عن أسلحتهم وأمتعتهم ليشنّ عليهم حملته الغادرة: «وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لو تَغْفُلُونَ عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة...».

ولما كان حمل السلاح والوسائل الدفاعية الأخرى صعباً أثناء أداء الصلاة في بعض الأحيان مثل أن يكون بعض المسلمين يعانون من ضعف بدني أو مرضي أو جراحات تحملوها من ساحة القتال، فيشق عليهم بذلك حمل السلاح أو وسائل الدفاع الأخرى، لذلك تأمر الآية في الختام قائلة: ﴿ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم﴾.

وهذا مشروط بأن يحتفظ المسلمون بما يقيمهم من وسائل الدفاع كالدروع، وأمثالها حتى في حالة وجود العذر كالضعف أو المرض، وذلك لحماية أنفسهم إذا بساغتهم العدو بهجومه إلى أن تصلهم الإمدادات حيث تقول الآية: ﴿وخذوا حذرکم...﴾.

وهنا عدة ملاحظات جديرة بالانتباه، هي:

١- واضح أن الهدف من وجود النبي ﷺ بين المسلمين في حال إقامة صلاة الخوف، لا يعني أن هذه الصلاة لا تقام إلا بوجود النبي ﷺ، بل القصد والهدف هنا في الآية هو أن يكون للمقاتلين والمجاهدين إمام أو قائد يتقدمهم ويؤمهم في صلاة الجماعة أثناء الحرب، ومن هذا المنطلق نرى الإمام علي والإمام الحسين ﷺ قد أقاما صلاة الخوف، كما أن العديد من قادة الجيوش الإسلامية كحذيفة قد قاموا بهذه العبادة الإسلامية في ساعات الضرورة^(١).

٢- والآية تأمر المجموعة الأولى بأن تحتفظ بسلاحها أثناء أداء صلاة الخوف، لكنها تقول للمجموعة الثانية أن لا تلقي أرضاً بوسائلها الدفاعية كالدروع والأسلحة الأخرى.

ومن المحتمل أن يكون الفرق بين هاتين المجموعتين هو أن العدو قد لا يكون على علم بعد بخطة المسلمين أثناء أداء المجموعة الأولى لصلاتها. وفي

هذه الحالة يكون احتمال هجوم العدو على المسلمين ضعيفاً، أمّا بالنسبة للمجموعة الثانية - حين - ينتبه العدو لمراسم الصلاة فيكون هجومه على المسلمين أكثر احتمالاً.

٣- إنَّ القصد من الإحتفاظ بالمتاع المطلوب من المسلمين في الآية - موضوع البحث - هو أن يراقب المسلمون وسائلهم الأخرى الحربية والشخصية والغذائية والحيوانات التي جلبوها لتكون غذاء لهم، بالإضافة إلى الدفاع عن أنفسهم.

٤- من الواضح أن أداء الصلاة جماعة ليست واجبة في الإسلام، لكنّها من المستحبات المؤكدة كثيراً، وهذا الآية تعتبر أحد الأدلة الحية على التأكيد بالنسبة لأهمية مراسيم صلاة الجماعة في الإسلام، بحيث إن هذه الصلاة - صلاة الجماعة - تقام حتى في ساحة الحرب بالاستفادة من أسلوب وطريقة صلاة الخوف، ويستدل من هذا الموضوع على أهمية الصلاة نفسها بالإضافة إلى أهمية إقامتها جماعة.

ومن الطبيعي أن يكون لصلاة الجماعة تأثير نفسي ومعنوي على المقاتلين من زاوية التنسيق في الهدف، كما أن لها تأثير على العدو - أيضاً - حين يرى أن المسلمين حتى وهم في ساحة القتال يهتمون بواجباتهم الدينية.

كيفية صلاة الخوف:

لا يبدو في الآية - موضوع البحث - التوضيح اللازم لكيفية أداء صلاة الخوف. وهذا هو أسلوب القرآن إذ يبيّن كليات الحكم، ويترك شرح الأحكام إلى السنّة الشريفة.

وطريقة أداء صلاة الخوف - كما توضّحها السنّة - هي أن تتحول الصلاة الرباعية إلى صلاة ثنائية، أي تحويل صلاة الظهر أو العصر مثلاً التي هي أربع

ركعات في كل منهما إلى صلاة بركعتين، فتصلي المجموعة الأولى ركعة واحدة مع الإمام، ثم يتوقف الإمام بعد أداء الركعة الأولى فتؤدي المجموعة الأولى الركعة الثانية فرادى، ثم تعود إلى جبهة القتال، فتأتي المجموعة الثانية لتأخذ مكان المجموعة الأولى خلف الإمام، فتؤدي الركعة الأولى جماعة مع الإمام وتؤدي الركعة الثانية فرادى (وقد روت طرق أخرى لأداء صلاة الخوف، ولكن أشهرها الطريقة التي تحدثنا عنها هنا).

* * *

الآية

فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقُعودًا^(١) وَعَلَىٰ
جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى
الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾

التفسير

أهمية فريضة الصلاة:

بعد أن ذكرت الآية السابقة صلاة الخوف، وأكدت ضرورة إقامتها حتى في
جبهات الحرب، تحت الآية (١٠٣) المسلمين على أن لا ينسوا ذكر الله بعد أداء
الصلاة، وليذكروا الله حين قيامهم وقعودهم وأثناء نومهم على جنوبهم وليسألوه
العون والنصر، والقصد من ذكر الله في حالة القيام والقعود والنوم على الجنين،
يحتمل أن يكون في فترات الإستراحة التي تسنح للمسلمين وهم في ساحة
الحرب، كما يحتمل أن تكون في الحالات المختلفة للقتال، أي أثناء وقوف
المقاتل أو جلوسه أو استلقائه على أحد جنبيه وهو يقاتل بأحد أنواع الأسلحة
الحربية كالقوس والسهم مثلاً.

١- «قيام» تارة يأتي بمعنى المصدي، (ويصني به حالة القيام، وتارة يأتي للجمع أي «قائمين» - «قعود» كذلك
أيضاً، فيأتي بمعنى حالة القعود والجلوس، ويأتي بمعنى «قاعدين» للجمع. وفي الآية اعلاه يحتمل كلا الأمرين.

إن هذه الآية تشير في الحقيقة إلى أمر إسلامي مهم، يدل على أن أداء الصلاة في أوقات معينة ليس معناه أن ينسى الإنسان ذكر الله في الحالات الأخرى، فالصلاة أمر انضباطي يحى ويجدد روح التوجه إلى الله لدى الفرد، فيستطيع في أوقات أخرى غير وقت الصلاة أن يحتفظ بذكر الله في ذهنه، سواء كان في ساحة القتال أو في مكان آخر.

وقد فسرت هذه الآية في روايات عديدة على أنها تبين كيفية أداء الصلاة بالنسبة للمرضى، أي أنهم إذا استطاعوا فليؤدوا الصلاة قياماً، وإن لم يقدرُوا على ذلك فقعوداً، وإذا عجزوا عن القعود فعلى أحد جنبيهم. وهذا التفسير في الحقيقة نوع من التعميم والتوسع في معنى الآية، ولو أنها لا تخص هذا المجال^(١).

وتؤكد هذه الآية أن حكم صلاة الخوف هم حكم استثنائي طارئ، وعلى المسلمين إذا ارتفعت عنهم حالة الخوف أن يؤدوا صلاتهم بالطريقة المعتادة ﴿فإذا اطمأنتم فأقيموا الصلاة...﴾.

وتوضح الآية في النهاية سر التأكيد على الصلاة بقولها إن الصلاة فريضة ثابتة للمؤمنين وأنها غير قابلة للتغيير: «... إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً».

إن عبارة «موقوت» من المصدر «وقت»، وعلى هذا الأساس فإن الآية تبين أنه حتى في ساحة الحرب يجب على المسلمين أداء هذه الفريضة الإسلامية، لأن للصلاة أوقات محددة لا يمكن تخطيها^(٢).

ولكن الروايات العديدة التي وردت في شرح هذه الآية تبين أن عبارة

١- للإطلاع أكثر عن الأحاديث التي وردت في هذا المجال راجع كتاب نور التقليل الجزء الأول، ص ٤٤٥.

٢- ويؤيد كتاب كنز العرفان، في الجزء الأول، ص ٥٩، هذا المعنى، كما جاء في تفسير التبيان وفي مجمع البيان أيضاً ذكر هذا الأمر.

«موقوتاً» تعني «ثابتاً» و«واجباً» ممّا لا ينافي مفهوم الآية أيضاً، والنتيجة هي أنّهما قريبين من المعنى الأوّل.

سؤال:

يقول البعض: إنهم لا ينكرون فلسفة واهمية الصلّاة وآثارها التربوية، ولكنهم يسألون عن ضرورة إقامتها في أوقات محددة، ويرون أن الأحسن أن يترك الناس أحراراً لكي يؤدي كل منهم الصلّاة متى ما سنحت له الفرصة أو متى ما وجد استعداداً روحياً لأداء هذه الفريضة؟

الجواب:

إنّ التجربة قد أثبتت أنّ القضايا التربوية لو لم تخضع لشروط وقيود معينة، فإنّ العديد من الناس سيبتاهلون ويتركون هذه القضايا، وسيؤدي هذا التجاهل إلى أن تتزلزل أركانها، لذلك فإنّ القضايا التربوية يجب أن تخضع لقيود خاصّة ويخصص لأدائها أوقات محددة، وأن لا يسمح لأحد بتخطي هذه القيود أو تجاهل تلك الأوقات، خاصّة وإنّ أداء فريضة كالصلّاة وفي وقت معين وبصورة جماعية يظهر عظمتها وهبتها وتأثيرها القوي الذي لا يمكن لأحد نكرانه، والصلّاة في الحقيقة من أهم العوامل في تربية الإنسان وتكوين شخصيته الإنسانيّة.

الآية

وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلُمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلُمُونَ كَمَا
تَأْلُمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا
حَكِيمًا ﴿٨٤﴾

سبب النزول

قرع السلاح بسلاح يشابهه:

روي عن ابن عباس ومفسرين آخرين أن النبي ﷺ - بعد الأحداث الأليمة لواقعة أحد - صعد إلى جبل أحد وكان على الجبل أبو سفيان، فخاطب النبي بلهجة الفاتح بقوله: «يا محمد يوم بيوم بدر!» وعنى أبو سفيان بذلك أن إنتصارهم في أحد كان مقابل هزيمتهم في واقعة بدر.

فطلب النبي ﷺ من المسلمين أن يردوا عليه فوراً، ولعل النبي أراد أن يثبت لأبي سفيان إن من تربوا في ظل الرسالة الإسلامية يتمتعون بكامل الوعي، فرد المسلمون على أبي سفيان: هيهات أن يستوي الوضع بين المؤمنين والمشركين، فشهداء المؤمنين في الجنة وقتلى المشركين في النار.

فأجاب أبو سفيان - صارخاً ومفتخراً - بالعبرة التالية:

«لنا العزى ولا عزى لكم» فرد عليه المسلمون:

«الله مولانا ولا مولى لكم» ولما عجز أبوسفيان عن الردّ على هذا الجواب والشعار الإسلامي الحي تخلقى عن صنمه «العزى» وعرج على صنم آخر هو «هبل» متوسلاً إليه بقوله: «أعل هبل، أعل هبل» فردّ عليه المسلمون بجواب قوى علمهم إياه نبي الإسلام ﷺ وهو: «الله أعلنى وأجل».

فما أعيت أبا سفيان الحيلة ولم تجده شعاراته الوثنية نفعاً قال صارخاً: «موعدنا في أرض بدر الصغرى».

عاد المسلمون من ساحة القتال مشخنين بالجراح، وحين كان يعترضهم الأكم من أحداث أحد، نزلت الآية المذكورة أعلاه محذرة المسلمين من الغفلة عن المشركين مطالبة إياهم بملاحقة قوى الشرك دون كلل أو ملل، وأن لا يتأثروا بحوادث مؤلمة كحادثة أحد، فهب المسلمون وهم في تلك الحالة لملاحقة العدو، فما أن سمع المشركون بعزم المسلمين حتى أسرعوا الخطى مبتعدين عن المدينة وعادوا إلى مكة^(١).

إنّ سبب النزول هذا يعلمنا أنّ المسلمين يجب أن لا يغيب عن بالهم أنواع التكتيك الذي يستخدمه العدو، وأن يواجهوا كل أسلوب حربي يتبعه العدو، سواء الأسلوب القتالي أو النفسي بأسلوب إسلامي أقوى، وأعنف من أسلوب العدو، وأن يواجهوا منطلق الأعداء بمنطق أقوى وأشد، ويقابلوا سلاحهم بسلاح أمضى، وحتى شعارات الأعداء يجب أن تقابل بشعارات إسلامية ضاربة، وبغير ذلك فإنّ الرياح ستجري بما يشتهي الأعداء.

ومن هذا المنطلق، فإننا نحن المسلمين - بدلاً من أن نجلس ونذرف الدموع على ما مر ويمر علينا من أحداث مؤلمة مريرة، وما تشهده مجتمعاتنا من مفاسد رهيبه تحيط بهذه المجتمعات من كل جانب، علينا أن نبادر بصورة فعالة إلى

العمل، فنواجه العدوان المكتوب بكتابات تدحضه وتقمعه، ونواجه الإعلام الضال المسموم المضلل بأسلوب إعلامي يحبطه ويقضي على أمره، ونقابل مراكز اللهو الخليع ببناء مراكز للهو البريء السليم لشبابنا وبناتنا، ونقرع الأفكار والأطروحات والمذاهب السياسية والاقتصادية والاجتماعية بالفكر الإسلامي الجامع بأسلوب عصري يفهمه الجميع.

وإذا استطعنا أن نواجه اعداءنا بهذه الصورة فقد أفلحنا في الحفاظ على كياننا الإسلامي، وفي أن نبرز للعالم بشكل مجتمع تقدمي أصيل.

التفسير

أعقت الآية - موضوع البحث هذه - الآيات السابقة التي تحدثت عن الجهاد والهجرة واستهدفت إحياء روح التضحية والفداء لدى المسلمين بقولها: «ولا تهنوا في ابتغاء القوم» وهذا تأكيد على ضرورة أن لا يواجه المسلمون عدوهم اللدود بأسلوب دفاعي، بل عليهم أن يقابلوا هذا العدو بروح هجومية دائماً، لأن هذا الأسلوب الأخير له أثر قامع للعدو ومؤكد على معنوياته.

وقد جرّب المسلمون هذا الأمر في مواجهتهم للعدو بعد واقعة أحد التي هزموا فيها، فارغموا العدو على الفرار مع أنه كان لم يزل يتلذذ بطعم الانتصار الذي أحرزه في أحد. إذ لما علم المشركون بقدوم المسلمين خافوا من العودة إلى ساحة القتال، وأسرعوا مبتعدين عن المدينة.

بعد ذلك تأتي الآية باستدلال حي وواضح للحكم الذي جاءت به، فتسأل المسلمين لماذا الوهن؟ فأنتم حين يصيبكم ضرر في ساحة الجهاد فإن عدوكم سيصيبه هو الآخر سهم من هذا الضرر، مع فارق هو أن المسلمين يأملون أن يعينهم الله ويشملهم برحمته الواسعة، بينما الكافرون لا يرجون ولا يتوقعون ذلك، حيث تقول الآية: «إن تكونوا تأملون فإنهم يأملون كما تأملون وترجون من الله ما لا يرجون...».

وفي الختام - ومن أجل إعادة التأكيد - تطلب الآية من المسلمين أن لا ينسوا علم الله بجميع الأمور، فهو يعلم معاناة المسلمين ومشاكلهم وآلامهم ومساعدتهم وجهودهم، ويعلم أنهم أحياناً يصابون بالتهاون والفتور، فتقول الآية: «وكان الله عليماً حكيماً» وسيرى المسلمون نتيجة كل الحالات تلك.



الآيتان

إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ
وَلَا تَكُنَ لِلْخَائِبِينَ خَصِيمًا ﴿١٥﴾ وَأَسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا
رَّحِيمًا ﴿١٦﴾

سبب النزول

لقد نقلوا واقعة مفصلة عن سبب نزول الآيتين المذكورتين، خلاصتها أن في قبيلة بني الأبيرق المعروفة نسبياً كان ثلاثة أشقاء هم «بشر» و«بشير» و«مبشر» سطا أحدهم وهو «بشير» على دار أحد المسلمين ويدعى «رفاعة» فسرق سيفه ودرعه وكمية من الغداء، وكان ابن أخيه ويدعى «قتادة» من مجاهدي بدر فأخبر النبي ﷺ بالواقعة.

ولكن الأشقاء الثلاثة إتهموا شخصاً من المسلمين اسمه «ليبد» الذي كان يسكن في دار واحد معهم، فتألم ليبد ألماً شديداً من هذه التهمة الباطلة واستل سيفه وتوجه إلى الأشقاء الثلاثة صارخاً في وجوههم قائلاً: «اتتهموني أنا بالسرقة وانتم أجدر بهذا العمل؟ فانتهم هم أولئك المنافقون الذين كنتم تهجون النبي وتنسبون أبيات الهجوم إلى قريش، فأما أن تثبتوا ما تنسبونه لي من تهمة، أو أن أهوى بسيفي على رؤوسكم».

فلما رأى أخوة السارق ذلك حاولوا استرضاء «لبيد» ولكنهم لما علموا أنّ القضية قد وصلت إلى أسماع النبي بواسطة «قتادة» لجؤوا إلى أحد متكلمي قبيلتهم فطلبوا منه أن يذهب مع جمع من الناس إلى النبي ويتظاهر بأن الحق إلى جانبهم ليبرئ السارق ويتهم «قتادة» بتلفيق التهمة على شقيقهم، وقد قبل النبي ﷺ استناداً إلى واجب العمل بظاهر الأمور - شهادة تلك المجموعة وأتب «قتادة» على عمله.

وقد تألم «قتادة» الذي كان يعرف نفسه بريئاً... تألم من هذه الواقعة وعاد إلى عمّه وأخبره بالحادث مظهراً أسفه الكبير لما حصل، فخفف عليه عمّه وقال «لا تحزن يا قتادة إن الله في عوننا» فنزلت الآيتان المذكورتان لتعلننا براءة الرجل، وتؤنبا مرتكبي الخيانة الحقيقيين.

ونقلوا - أيضاً - واقعة أخرى في سبب نزول الآيتين، وهي أن درعاً لأحد الأنصار كانت قد سرقت في إحدى الحروب، وكان الشك يدور على شخص من قبيلة «الأبيرق» في سرقة ذلك الدرع، ولما علم السارق بأن الشكوك بدأت تدور حوله رمى بالدرع في دار أحد اليهود، وطلب من قبيلته أن يشهدوا ببراءته أمام النبي ﷺ ويستدلوا بذلك على وجود الدرع في دار اليهودي، ولما رأى النبي ﷺ الأمر بتلك الصورة برأ هذا السارق بحسب ظاهر الشهادة التي جاءت لصالحه وأدين الرجل اليهودي بسرقة الدرع، فنزلت الآيتان المذكورتان لتوضحا الحقيقة.

التفسير

منع الدفاع عن الخائنين:

يعرف الله سبحانه وتعالى - في بداية الآية (١٠٥) من سورة النساء - نبيّه محمداً ﷺ بأنّ الهدف من إنزال الكتاب السماوي هو تحقيق مبادئ الحق

والعدالة بين الناس، إذ تقول الآية: «إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ...».

ثم يحذّر النبي ﷺ من حماية الخائنين أبداً بقوله: «ولا تكن للخائنين خصيماً».

ومع أن الآية خطاب للنبي ﷺ، ولكن ممّا لا شك فيه هو أن هذا الحكم حكم عام لجميع القضاة والمحكمين، وبهذا الدليل فإنّ مثل هذا الخطاب ليس المفهوم منه أن النبي ﷺ تبدر منه مثل هذه الأعمال، لأن الحكم المذكور يشمل جميع الأفراد.

أما الآية الأخرى فهي تأمر النبي ﷺ بطلب المغفرة من الله سبحانه وتعالى، إذ تقول: «واستغفر الله إن الله كان غفوراً رحيماً».

وحول سبب الاستغفار المطلوب في هذه الآية توجد احتمالات عديدة،

هي:

الأول: إنّ الاستغفار هو لترك الأولى الذي حصل بسبب الإستعجال في الحكم في القضية التي نزلت بسببها الآيتان، أي مع أنّ ذلك القدر من الاعتراف، وشهادة الطرفين كان كافياً لإصدار الحكم من قبل النبي ﷺ، إلاّ أنّه كان الأحرى أن يجري تحقيق أكثر في ذلك المجال.

والثاني: هو أنّ النبي قد حكم في تلك القضية وفقاً لقوانين القضاء الإسلامي، وبما أنّ الأدلة التي جاء بها الخائنون كانت بحسب الظاهر أقوى، لذلك أعطى الحق لهم، وبعد انكشاف الحقيقة ووصول الحق إلى صاحبه يأتي الأمر بطلب المغفرة من الله، ليس لذنب مرتكب، بل لتعرض حق فرد مسلم إلى خطر الزوال بسبب خيانة البعض من الأشخاص (أي أن الاستغفار بحسب الإصطلاح - لأجل الحكم الحقيقي لا الحكم الظاهري).

وقد احتمل البعض أن يكون الاستغفار مطلوباً من طرفي الدعوى اللذين

ظهر منهما الخلاف في عرض ومتابعة دعواهما.

وفي حديث عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، وَإِن كُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ يَكُونُ الْحَنُّ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، فَأَقْضِي بِنَحْوِ مَا أَسْمَعُ، فَمَنْ قَضَيْتَ لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ شَيْئاً فَلَا يَأْخُذْهُ، فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنْ نَارٍ»^(١).

يتبين لنا من هذا الحديث أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَكْلَفٌ بِالْحُكْمِ وَفَقاً لظَاهِرِ الْقَضِيَّةِ وَاسْتِنَاداً إِلَى أدلة طرفي الدعوى، وبديهي أن الحق في مثل هذه الحالة يصل إلى صاحبه، ويحتمل أحياناً أن لا ينطبق ظاهر الدليل وشهادة الشهود مع الحقيقة، فيجب الإلتباه هنا إلى أن حكم الحاكم لا يغير من الحقيقة شيئاً فلا يصبح الحق باطلاً ولا الباطل حقاً.



الآيات

وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ
 خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٧٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ
 وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا
 يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٧٨﴾ هَآأَنْتُمْ هَآؤُلَآءِ جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَوةِ
 الدُّنْيَا فَمَن يُجَادِلِ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ
 وَكِيلًا ﴿١٧٩﴾

التفسير

بعد الآيات التي جاءت بتحريم الدفاع عن الخائنين، تستطرد الآيات الثلاث الأخيرة في التشديد على حرمة الدفاع عن الخائنين، بالأخص أولئك الذين يخونون أنفسهم.

ويجب الإلتباه هنا إلى أن الآية (١٠٧) تشير إلى الذين يخونون أنفسهم، بينما الذي عرفنا من سبب نزول الآيات السابقة، هو أنها نزلت في شأن الذين يخونون الغير، وفي هذا إشارة إلى ذلك المعنى الدقيق الذي ينبه إليه القرآن في العديد من الآيات، وهو أن أي عمل يصدر عن الإنسان يتأثر بنتيجته - سواء كانت حسنة أو سيئة - الإنسان ذاته قبل غيره، كما جاء في الآية (٧) من سورة

الإسراء، إذ تقول ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾. أو أن الآية المذكورة تشير إلى موضوع آخر أكد عليه القرآن أيضاً، وهو أن جميع أفراد البشر هم جميعاً كأعضاء جسد واحد، فإذا أضر أحدهم بغيره فكأنما أضر بنفسه، أي يكون بالضبط كالذي يصنع نفسه بنفسه.

والأمر الآخر في الآية أنها لا تخص الذين يرتكبون الخيانة لمرة واحدة ثم يندمون على ما فعلوا، حيث لا ضرورة لاستعمال العنف والشدة مع هؤلاء، بل هم بحاجة إلى الرأفة أكثر، والشدة يجب أن تطبق على أولئك الذين يحترفون الخيانة وتكون جزءاً من حياتهم.

ويدل على هذه القرينة الواردة في الآية من خلال عبارة «يخْتَانُونَ» التي هي فعل مضارع يدل على الإستمرارية، بالإضافة إلى القرينة الأخرى التي تفهم من عبارتي «خوان» أي كثير الخيانة و«أثيم» أي كثير الذنب، والكلمة الأخيرة جاءت لتأكيد عبارة «خوان» في الآية، كما أن الآية السابقة جاءت بكلمة «خائن» التي هي اسم فاعل والتي لها معنى وصفي يدل على تكرار الفعل.

لقد تعرض الخائنون في الآية الأخرى إلى التوبيخ، حيث قالت أن هؤلاء يستحيون أن تظهر بواطن أعمالهم وسرائرهم وتتكشف إلى الناس، لكنهم لا يستحيون لذلك من الله سبحانه وتعالى، إذ تقول الآية: «يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله...» فلا يتورع هؤلاء من تدبير الخطط الخيانية في ظلام الليل، والتحدث بما لا يرضى الله الذي يراقب أعمالهم، أينما كانوا: «وهو معهم إذ يببوتون ما لا يرضى من القول وكان الله بما يعملون محيطاً».

بعد ذلك توجه الآية (١٠٩) من سورة النساء بالحديث عن شخص السارق الذي تمّ الدفاع عنه، وتقول بأنه على فرض أن يتمّ الدفاع عن هؤلاء في الدنيا فمن يستطيع الدفاع عنهم يوم القيامة، أن من يقدر أن يكون لهؤلاء وكيلاً ليرتب أعمالهم ويحل مشاكلهم؟! حيث تقول الآية: «هاأنتم هؤلاء جادلتم عنهم في

الحياة الدنيا فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة أم من يكون عليهم وكيلًا. ولذلك فإن الدفاع عن هؤلاء الخونة في الدنيا ليس له أثر إلا القليل، لأنهم سوف لا يجدون أبداً من يدافع عنهم أمام الله في الحياة الآخرة الخالدة.

والحقيقة هي أن الآيات الثلاث الأخيرة تحمل في البداية إرشادات إلى النبي ﷺ وإلى كل قاض يريد أن يحكم بالحق، بأن ينتهبوا حتى يفوتوا الفرصة على أولئك الذين يريدون انتهاك حقوق الآخرين، عبر وسائل مصنعة وشهود مزورين.

بعد ذلك تحذر الآية الخائنين ومن يدافع عنهم، بأن ينتظروا عواقب سيئة لأعمالهم في هذه الدنيا وفي الآخرة أيضاً.

وفي تلك الآيات سر من أسرار البلاغة القرآنية، حيث أنها أحاطت بجميع جوانب القضية وأعطت الإرشادات والتحذيرات اللازمة في كل مورد، مع أن موضوع القضية يبدو موضوعاً صغيراً بحسب الظاهر، إذ يدور حول درع مسروقة أو مواد غذائية أو يهودي من أعداء الإسلام.

وقد تناولت الآية - أيضاً - الإشارة إلى النبي ﷺ الذي يعتبر إنساناً معصوماً عن الخطأ، كما أشارت إلى الأفراد الذين يحترفون الخيانة، أو الذين يدافعون عن الخائنين إندفاعاً وراء عصبية قبلية، إشارات تتناسب ومنزلة الأشخاص المشار إليهم في الآيات المذكورة.

الآيات

وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا
رَحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ
عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَزِمِ بِهِ بَرِيئًا
فَقَدْ أَخْطَأَ مَهْتِنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾

التفسير

لقد بينت هذه الآيات الثلاث، ثلاثة أحكام كلية بعد أن تطرقت الآيات السابقة إلى مسائل خاصة بالخيانة والتهمة.

١ - لقد وردت في الآية (١١٠) من الآيات الثلاث أعلاه الإشارة أولاً إلى هذه الحقيقة وهي أن باب التوبة مفتوح أمام المسيئين على كل حال، فإذا ارتكب أحد ظلماً بحق نفسه أو غيره، وندم حقيقة على فعلته، أو استغفر الله لذنبه، وكفر عن خطيئته فيجد الله غفوراً رحيماً، حيث تقول الآية: «ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً».

٢ - يجب الإنتباه إلى أن الآية الأولى تشير إلى نوعين من الذنوب، حيث جاءت فيها كلمة «سوء» وكلمة «الظلم» للنفس، ولدى النظر إلى قرينة المقابلة، وكذلك الأصل اللغوي لعبارة «سوء» التي تعني هنا الإضرار بالغير، يفهم من الآية

أن أي نوع من الذنوب - سواء كانت من نوع الإضرار بالغير، أو الإضرار بالنفس قابلة للغفران إذا تاب فاعلها توبة حقيقية وسعى إلى التكفير عنها.

ويفهم - أيضاً - من العبارة القرآنية: ﴿يُحْمَدُ اللَّهُ غَفوراً رَحِيماً﴾ إلى التوبة الحقيقية لها من الأثر بحيث يجد الإنسان التائب نتيجتها في باطن نفسه، فمن ناحية فإن تائب الضمير الذي يخلقه إرتكاب الذنب يزول عن المذنب التائب نظراً للغفران الذي يناله من الله الغفور، ومن جانب آخر يحس الإنسان التائب بالقرب إلى الله بسبب رحمته سبحانه وتعالى بعد أن كان يحس بالبعد عنه بسبب الذنب الذي ارتكبه.

٣- إن الآية الثانية من الآيات الثلاث الأخيرة، تحكي نفس الحقيقة التي وردت بصورة إجمالية في الآيات السابقة، حيث تؤكد أن أي ذنب يقترفه الإنسان ستكون نتيجته في النهاية على المذنب نفسه، ويكون قد أضر بنفسه بذنبه، إذ تقول الآية: ﴿ومن يكسب إثماً فإنما يكسبه على نفسه ...﴾.

وفي آخر الآية تأكيد على أن الله عالم بأعمال العباد، وهو حكيم يجازي كل إنسان بما يستحقه: ﴿وكان الله عليماً حكيماً﴾.

وبالصورة المارة الذكر فإن الذنوب مهما اختلفت في الظاهر، فإن أضرارها ستلحق أحياناً بالغير وتلحق أحياناً أخرى بمرتكبيها، ولكن بالتحليل النهائي، فإن الذنب تعود نتيجته كلها إلى الإنسان المذنب نفسه، وإن الآثار السيئة للذنب تظهر قبل كل شيء في روح ونفس الشخص المذنب.

٤- أما الآية الثالثة من الآيات الأخيرة، فهي تشير إلى خطورة خطيئة إتهام الناس الأبرياء، إذ تقول: ﴿ومن يكسب خطيئة أو إثماً ثم يرم به بريئاً فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً﴾.

وقد قسمت هذه الآية الذنب الذي يرتكبه شخص وينسبها زوراً إلى غيره، إلى قسمين: سمت الأول بالخطيئة، والثاني بالإثم.

وقد قال المفسرون الكثير في شأن الفرق بين هذين النوعين من الذنب، وأقرب الأقوال إلى الذهن هو أن الخطيئة مشتقة من الخطأ، والذي يعني في الأصل: الزلل أو الذنب الذي يصدر دون قصد من صاحبه، ويكون أحياناً مشمولاً بالكفارة والغرامة لكن معنى الخطيئة قد توسع تدريجياً، وأخذ يشمل كل ذنب سواء المتعمد أو غير المقصود، حيث أن روح الإنسان لا تحتل الذنب - أكان عمداً أو عن غير عمد - وحين يصدر الذنب من الإنسان إنما هو في الحقيقة نوع من الزلل والخطأ الذي لا يناسب مقامه كإنسان.

والنتيجة من هذا القول أن الخطيئة لها معنى واسع يشمل الذنب المتعمد والذنب الصادر عن غير عمد، أما كلمة «إثم» فتطلق عادة على الذنوب الصادرة عن عمد، وتعني - في الأصل - ذلك الشيء الذي يمنع الإنسان من عمل معين، ولما كانت الذنوب تحول دون وصول الخيرات إلى الإنسان فقد سميت «إثماً».

وتجدر الإشارة إلى أن الآية استخدمت كناية جميلة بالنسبة للتهمة، وهي أنها جعلت الذنب في هذا المجال كالسهم، وجعلت نسبته إلى الغير زوراً بمثابة رمي السهم صوب الهدف، وهذه إشارة إلى أنه في حين أن تصويب السهم نحو إنسان آخر قد يؤدي إلى القضاء عليه، فإن رمي الإنسان البريء بذنب لم يقترفه يكون بمثابة رمية بسهم يقضي على سمعته التي هي بمنزلة دمه.

وبدهي أن وزر وعاقبة هذا العمل تكونان في النهاية - وإلى الأبد - على عاتق الشخص الذي ينسب التهمة زوراً إلى غيره، وأن عبارة «احتمل» الواردة في الآية تعني أخذ على عاتقه إنما جاءت للدلالة على ثقل وبقاء هذه المسؤولية!

جريمة البهتان:

إن اتهام إنسان بريء يعتبر من أقبح الأعمال التي أدانها الإسلام بعنف، وإن

الآية المذكورة أخيراً التي وردت بهذا الشأن - بالإضافة إلى الروايات الإسلامية العديدة التي إلى جانبها - توضح رأي الإسلام الصريح عن هذا العمل.

ينقل الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام عن أحد الحكماء أنه قال: «أن البهتان على البريء أثقل من جبال راسيات»^(١) ونقل عنه عليه السلام قوله: «إذا أتهم المؤمن أخاه إثمات الإيمان في قلبه كما ينمات الملح في الماء» أي أن الإيمان يذوب ويزول من قلب المؤمن بسبب إتهامه لأخيه المؤمن، كما يذوب الملح في الماء ويزول عن النظر^(٢).

فالتهمة والبهتان - في الحقيقة - هما أقبح أنواع الكذب، لأنهما بالإضافة إلى احتوائهما لمفاسد الكذب، فإنهما أيضاً يحملان أضرار الغيبة، وهما كذلك من أسوأ أنواع الظلم والجور ولهذا السبب يقول عليه السلام بهذا الخصوص: «من بهت مؤمناً أو مؤمنة أو قال فيهما ما ليس فيهما أقامه الله تعالى يوم القيامة على تل من نار حتى يخرج مما قاله»^(٣).

وحقيقة الأمر أن إشاعة مثل هذا العمل الجبان - في أي محيط إنساني كان - يؤدي في النهاية إلى إنهيار نظام العدالة الاجتماعية، واختلاط الحق بالباطل، وتورط البريء وتبرئة المذنب، وزوال الثقة من بين الناس.



١- سفينة البحار، الجزء الأول، في مادة بهت.

٢- أصول الكافي، الجزء الثاني، ص ٢٦٩، باب التهمة وسوء الظن.

٣- سفينة البحار، الجزء الأول، ص ١١١.

الآية

وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ
وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ
عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ
اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾

التفسير

في هذه الآية الكريمة إشارة أخرى إلى حادثة «بني الأبيرق» التي تحدثنا عنها لدى تطرقنا إلى سبب النزول في آيات سابقة، وهذه تؤكد أن الله قد صان النبي ﷺ بفضله ورحمته - سبحانه وتعالى - من كيد بعض المنافقين الذين كانوا يأترون به ﷺ ليحرفوه عن طريق الحق والعدل، فكانت رحمة الله أقرب إلى نبيه فصانته من كيد المنافقين، حيث تقول الآية: «ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك».

لقد سعى أولئك المنافقون - من خلال اتهامهم لشخص بريء وجسر النبي وتوريطه في هذه الحادثة - إلى إلحاق ضربة بشخصية النبي ﷺ الاجتماعية والمعنوية أولاً، وتحقيق مآربهم الدنيئة بحق إنسان مسلم بريء ثانياً، ولكن الله العزيز العليم كان لهم بالمرصاد، فصان نبيه ﷺ من تلك المؤامرة وأحبط عمل المنافقين.

ويذكر بعض المفسرين سبباً آخر لتزول هذه الآية وهو أن جماعة من قبيلة «بني ثقيف» وردوا على النبي ﷺ فذكروا له أنهم مستعدون لمبايعته بشرطين: الأول هو أن يرغم أفراد هذه القبيلة على كسر أصنامهم بأيديهم، والثاني أن يسمح النبي لهم بأن يواصلوا عبادة صنمهم (العزى) لسنة واحدة أخرى! فنزل أمر الله على النبي ﷺ أن لا ييدي أية مرونة أمام هؤلاء، حيث نزلت الآية المذكورة واعلنت بأن فضل الله ورحمته قد شملت النبي وصانته من تلك الوسواس.

بعد ذلك تذكر الآية أن هؤلاء القوم إنما يرمون بأنفسهم في الضلالة ولا يضرّون بعملهم النبي ﷺ شيئاً، إذ تقول ... «وما يضلّون إلا أنفسهم وما يضرونك من شيء...».

وأخيراً توضح الآية سبب عصمة النبي ﷺ عن الخطأ والزلل والذنب، فتذكر أن الله أنزل على نبيه الكتاب والحكمة وعلمه ما لم يكن يعلم من قبل: «وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم...» ثم تردف الآية ذلك بجملة: «وكان فضل الله عليك عظيماً».

مصدر عصمة الأنبياء!

إن هذه الآية الأخيرة من الآيات التي تشير إلى عصمة النبي ﷺ عن ارتكاب الخطأ والسهو والذنب، فتقول بأن العون الإلهي الذي شمل النبي ﷺ هو الذي صانه من الخطأ والضلالة التي كان يريد المنافقون أن يوقعوه فيها، ولكنهم وبفضل هذه المعونة الإلهية عجزوا عن تحقيق مآربهم، ولم يلحق النبي ﷺ أي ضرر نتيجة كيد المنافقين.

وهكذا فقد عصم الله نبيه وصانه من كل خطأ أو سهو أو ذنب، كي يستطيع النبي ﷺ أن يصبح قدوة وأسوة للأمة الإسلامية ونبراساً لها في فعل الخيرات

والحسنيات، وقد صانه الله العزيز القدير من عواقب كل خطأ يحتمل أن يقع فيه أي زعيم، لكي يبعد الأمة الإسلامية عن الحيرة في قضية إطاعة الرسول ﷺ، وليجنبها التناقض بين فعلي الطاعة وعدمها، نعم لقد عصم الله نبيه محمداً ﷺ من كل خطأ، لكي يضمن له ثقة المسلمين الكاملة به، حيث تعتبر هذه الثقة من أولويات شروط الزعامة الإلهية.

وقد ورد في آخر الآية دليل من الأدلة الأساسية لقضية العصمة بشكل مجمل، وهذا الدليل هو قوله تعالى أنه علم نبيه ﷺ من العلوم والمعارف التي يكون النبي في ظلها مصوناً من الوقوع في أي خطأ أو زلل، ولأن العلم والمعرفة تكون نتيجتهما في المرحلة النهائية حفظ الإنسان من ارتكاب الخطأ.

فالطبيب - مثلاً - لا يقدم أبداً على شرب ماء ملوث بأنواع الجراثيم الفتاكة، بعد أن أجرى عليه الفحوصات المخبرية واكتشف تلوثه بتلك الجراثيم الخطيرة. نستنتج من هذا المثل أن علم الطب الذي تعلمه هذا الطبيب، هو السبب في حفظه ومنعه من شرب الماء الملوث بالجراثيم القاتلة، فقد وفر هذا العلم العصمة والمصونة للطبيب حيال ارتكاب مثل هذا الخطأ، لكن الإنسان الذي يجهل خطورة ذلك الماء يحتمل كثيراً أن يقدم على شربه.

وهكذا يتبين أن مصدر الكثير من الأخطاء هو الجهل بمقدمات العمل أو مستلزماته أو عواقبه، لذلك فإن من يحاط عن طريق الوحي الإلهي إحاطة كاملة بالقضايا المختلفة ومقدماتها ومستلزماتها وعواقبها لن يقع في خطأ، ولن يرتكب أي زلل أبداً، ولن يضل الطريق، ولن يمارس ذنباً مطلقاً.

ويجب أن لا تقع في الوهم هنا، فإن هذا العلم الذي بحوزة النبي ﷺ من جانب الله سبحانه وتعالى ليس عملاً مفروضاً ولا يحمل طابع القسر والإجبار، أي أن النبي ﷺ ليس مجبوراً أبداً على أن يعمل بعلمه، بل أنه يمارس عمله بكامل اختياره، فكما أن الطبيب الذي ذكرناه في مثلنا السابق مع علمه بحالة

الماء الملوث فإنه ليس مرغماً على عدم شرب هذا الماء، بل هو بإرادته المطلقه يمتنع عن شربه.

وإذا تساءل أحد: لماذا شمل الله نبيّه وحده بهذا الفضل الإلهي، ولم يشمل الآخرين؟

كان الجواب: إن ذلك قد حدث للمسؤولية العظيمة والخطيرة التي تتضمنها القيادة التي أنيطت بالنبي ﷺ وحمل اعباءها الثقيلة على عاتقه، ولأن الآخرين لا يحملون مثل هذه الأعباء الثقيلة، لذلك فإن الله اللطيف الخبير يهب لعبده من القدرة والطاقة بمقدار ما يضع على عاتق هذا العبد من مسؤوليات، ولن يكلف الله نفساً إلاّ وسعها فيجب التعمق في هذا الأمر.

* * *

الآية

لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ
إِضْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ
فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٧٤﴾

التفسير

النجوى أو الهمس:

لقد أشارت الآيات السابقة إلى اجتماعات سرية شيطانية كان يعقدها بعض المنافقين أو أشباههم، وقد تطرقت الآية الأخيرة إلى هذا الأمر بشيء من التفصيل، وكلمة «النجوى» لا تعني الهمس فقط، بل تطلق على كل اجتماع سري أيضاً، لأنها مشتقة من المادة «نجوه» على وزن «دفعه» أي بمعنى الأرض المرتفعة، وبما أن الأرض المرتفعة تكون شبه معزولة عن الأراضي التي حولها، وأن الجلسات السرية والهمس يتمان بمعزل عن الأفراد الذين يكونون في الأراضي المحيطة بها سميت هذه الأخيرة بالنجوى.

ويرى بعضهم أن كلمة «النجوى» مشتقة من مادة «النجاة» أي التحرر، وبمعنى أن البقعة المرتفعة تكون بمنأى ومنجى عن خطر السيل، وإن الاجتماع السري أو الهمس يكونان بمنجى من معرفة الآخرين.

والآية هنا تذكر أن أغلب الإجماعات السرية التي يعقدها أولئك تهدف إلى غايات شيطانية شريرة لا خير فيها ولا فائدة، إذ تقول: «لا خير في كثير من نجواهم».

ولكي لا يحصل وهم من أن كل نجوى أو همس أو اجتماع سري يعتبر عملاً مذموماً أو حراماً جاءت الآية بأمثال كمقدمة لبيان قانون كلي، وأوضحت الموارد التي تجوز فيها النجوى، مثل أن يوصي الإنسان بصدقة أو بمعونة للآخرين أو بالقيام بعمل صالح أو أن يصلح بين الناس، فتقول الآية في هذا المجال: «إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس».

فإذا كان هذا النوع من النجوى أو الهمس أو الإجماعات السرية لا يشوبه الرياء والتظاهر، بل كان مخصصاً لنيل مرضاة الله، فإن الله سيخصص لمثل هذه الأعمال ثواباً وأجرأً عظيماً، حيث تقول الآية: «ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضات الله فسوف نؤتيه أجراً عظيماً».

وقد عرف القرآن النجوى والهمس والإجماعات السرية - من حيث المبدأ - بأنها من الأعمال الشيطانية، في قوله تعالى: «إنما النجوى من الشيطان...»^(١) والسبب هو أن هذه الأعمال غالباً ما تحدث لأغراض سيئة، وحيث أن عمل الخير والشيء النافع والإيجابي لا يحتاج في العادة إلى أن يكون - أو يبقى - سرياً أو مكتوماً عن الناس، ولذلك فلا حاجة بالتحدث عن مثل هذه الأعمال بالهمس والنجوى، أو في اجتماعات سرية.

ولما كان من المحتمل أن تطرأ ظروف استثنائية تجبر الإنسان على الاستفادة من أسلوب النجوى في أعمال الخير، لذلك ورد الاستثناء بصورة مكررة في القرآن، كما في قوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا إذا تناجيتهم فلا

تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول وتناجوا بالبر والتقوى...»^(١)
والنجوى إذا حصلت ابتدأ في جمع من الناس، أثارَت لديهم سوء الظن
حيالها، حتى أن سوء الظن قد يبدر من الأصدقاء حيال النجوى التي تحصل
بينهم، وعلى هذا الأساس فإنَّ الأفضل أن لا يبادر الإنسان إلى النجوى إلا إذا
اقتضت الضرورة ذلك، وهذه هي فلسفة هذا الحكم الوارد في القرآن.

ويدهي أن سمعة الإنسان تستلزم - أحياناً - اتباع أسلوب النجوى، ومن
جملة هذه الموارد تأتي مسألة الصدقات أو المعونات المالية، التي أجاز القرآن
استخدام النجوى بشأنها لحفظ ماء الوجه وسمعة الأشخاص الذين يتلقون هذه
المعونات.

والمجال الآخر للنجوى هو عند الأمر بالمعروف، حيث أن هذا الأمر لو تمَّ
أحياناً بصورة علنية لأصبح سبباً في فضيحة أو خجل الشخص المخاطب
بالمعروف بين الناس الحاضرين، وقد يصبح سبباً في أن يمتنع عن قبول ذلك
ويقاوم هذا الأمر الذي عبرت عنه الآية بالمعروف.

والحالة الأخرى التي يجوز فيها النجوى هي في مجال الإصلاح بين الناس،
الذي يقتضي أن يكون سرياً أحياناً لضمان تحقيقه، إذ من الممكن لو أن الأمر تمَّ
بصورة علنية لحال دون حدوث الإصلاح، لذلك يجب أن يتمَّ الإصلاح بالتحدث
إلى كل طرف من أطراف النزاع بصورة خفية، أي بطريق النجوى.

إذن فالنجوى جائزة وقد تكون ضرورية في الحالات الثلاث التي مر
الحديث عنها، وكذلك في حالات مشابهة.

والملفت للنظر في الحالات الثلاث المذكورة أعلاه هو أنها تأتي كلها ضمن
معنى «الصدقة» وذلك لأنَّ من يأمر بالمعروف إنما يدفع زكاة علمه، ومن يسعى
في إصلاح ذات البين يدفع بذلك زكاة قدرته ومنزلته المؤثرة في الناس.

وقد نقل عن علي بن أبي طالب أمير المؤمنين عليه السلام قوله: «إِنَّ اللَّهَ فَرَضَ عَلَيْكُمْ زَكَاةَ جَاهِكُمْ كَمَا فَرَضَ عَلَيْكُمْ زَكَاةَ مَا مَلَكَتْ أَيْدِيكُمْ»^(١).
ونقل عن النبي صلى الله عليه وآله قوله لأبي أيوب: «أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى صَدَقَةٍ يَحِبُّهَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ تَصْلِحُ بِهَا بَيْنَ النَّاسِ إِذَا تَفَاعَدُوا وَتَقْرُبُ بَيْنَهُمْ إِذَا تَبَاعَدُوا»^(٢).



١- تفسير نور الثقلين، الجزء الأول، ص ٥٥٠ وفي كتب أخرى للتفسير.
٢- تفسير القرطبي، الجزء الثالث ص ١٩٥٥ في شرح الآية.

الآية

وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ
سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُضَلِّهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ
مَصِيرًا ﴿١٦٥﴾

سبب النزول

لقد قلنا في سبب نزول الآية السابقة: إن بشير بن الأبيرق كان قد سرق من أحد المسلمين، وأتهم إنساناً بريئاً بهذه السرقة، واستطاع بالأجواء المزيفة التي اختلقها أمام النبي ﷺ أن يبريء نفسه، ولكن حين نزلت تلك الآيات افتضح أمره، فبدلاً من أن يختار طريق التوبة بعد فضيحته، سار في طريق الكفر وارتد عن الإسلام بصورة علنية رسمية.

فنزلت الآية الأخيرة متضمنة إشارة إلى هذا الموضوع، بالإضافة إلى بيانها لحكم إسلامي عام وكلي.

التفسير

حين يرتكب الإنسان خطأ ويدرك هذا الخطأ، فليس أمامه سوى طريقين: أحدهما: طريق العودة والتوبة التي أشارت الآيات السابقة إلى أثرها في

غسل الذنوب عن الإنسان.

والطريق الثاني: هو أن يسلك الإنسان سبيل العناد، وقد أشارت الآية الأخيرة إلى الآثار والعواقب السيئة لهذا الطريق، حيث أعلنت أن من يواجه النبي ﷺ بالعناد والمخالفة بعد وضوح الحق له، ويسير في طريق غير طريق المؤمنين فإن الله سوف لن يهديه إلى غير هذا الطريق، وسيرسله الله في يوم القيامة إلى جهنم، وما أسوأ هذا المكان الذي ينتظره! فتقول الآية: ﴿ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً﴾.

ويجب الانتباه إلى أن عبارة «يشاقق» مأخوذة من مادة «شقاق» بمعنى المخالفة الصريحة المقرونة بالحدق والضعينة وتؤكد جملة «من بعد ما تبين له الهدى» هذا المعنى أيضاً، وفي الحقيقة فإن من يكون هذا شأنه فلن يلقى مصيراً خيراً مما ذكرته الآية له، مصير ينطوي على نهاية مشؤومة له في هذه الدنيا وعاقبة سيئة أليمة في الدار الآخرة، فهو في الدنيا - كما تقول الآية - يستمر منجرفاً في الطريق الأعوج الذي اختاره، فتتوسع بذلك زاوية انحرافه عن جادة الحق والصواب، وهذا الطريق هو الذي اختاره لنفسه والبناء الذي وضع أساسه بيده، ولهذا لم يكن قد وقع عليهم أي ظلم من الخارج.

وأما بالنسبة لقول الآية: «نوله ما تولى» فهو إشارة إلى حرمان هؤلاء من التوفيق المعنوي، لتمييز الحق، ومواصلتهم السير في طريق الضلالة، وقد بيّنا تفاصيل هذا الموضوع لدى الحديث عن تفسير الهداية والضلالة في الجزء الأول من تفسيرنا هذا.

وحين تقول الآية: «نصله جهنم» فهي تشير إلى مصير هؤلاء يوم القيامة. وهناك تفسير آخر حول جملة «نوله ما تولى» وهو أن هؤلاء وأمثالهم، يوكل أمرهم إلى الآلهة المصطنعة التي انتخبوها لأنفسهم.

حجية الإجماع:

يعتبر الإجماع أحد الأدلة الفقهية الأربعة، وهو بمعنى اتفاق علماء ومفكري الإسلام حول مسألة فقهية. وذكروا في علم أصول الفقه أدلة مختلفة لإثبات حجية الإجماع، ومن ضمنها الآية الأخيرة التي مرّ البحث في تفسيرها، إذ يعتبرها البعض دليلاً على حجية الإجماع لأنها تقول أنّ من يختار طريقاً غير طريق المؤمنين سيكون له مصير مشؤوم أسود في الدنيا والآخرة.

وبناء على هذه الآية، فإنّ أي طريق يختاره المؤمنون - في أي مسألة كانت - يجب على الجميع السير في هذا الطريق.

والحقيقة أنّ هذه الآية لا صلة لها بمسألة حجية الإجماع، لا من قريب ولا من بعيد (وطبعي إنّنا نقبل حجّة الإجماع الذي يكشف لنا عن قول المعصوم، ولكننا نعتبر حجية السنة وقول المعصوم دليلاً لحجية هذا الإجماع، وليس الآية المذكورة).

والسبب في عدم قبولنا دلالة هذه الآية على حجية الإجماع، هو أنّها تعين أولاً: عقوبات للأشخاص الذين يخالفون التّسبي صراحة وعن علم وإدراك، ويختارون طريقاً غير طريق المؤمنين، فهذان العنصران يشكّلان باتحادهما العلة لذلك المصير المشؤوم، مع التأكيد بأن هذا المصير إنّما يتحقق لدى اختيار الشخص للعنصرين المذكورين عن علم ودراية. وليس لهذا الموضوع أية صلة بمسألة حجية الإجماع، ولا يدل بوحده على هذه الحجية.

والأمر الثاني: هو أنّ المقصود بعبارة «سبيل المؤمنين» الواردة في الآية، هو طريق التوحيد والخضوع لله وحده، وهو مبدأ الإسلام، وليس معناه الفتاوى الفقهية أو الأحكام الفرعية، وهذه الحقيقة يثبتها ظاهر الآية بالإضافة إلى ما قيل في سبب نزولها.

والحقيقة هي أنّ السير في طريق غير طريق المؤمنين لا يتجاوز عن كونه

مخالفة للنبي، وكلا العنصرين يعودان إلى موضوع واحد.
وينقل أنه حين كان أمير المؤمنين علي عليه السلام في الكوفة، جاءه جمع من الناس
وطلبوا منه أن يعين لهم إماماً لصلاة الجماعة (الكي يصلوا خلفه صلاة التراويح
جماعة، حيث كان عمر بن الخطاب في زمانه قد أمر بأن تصلّى هذه الصلاة
جماعة) وما كان من الإمام غير أن يمتنع عمّا طلبوا منه، ونهى عن إقامة جماعة
كتلك (لأن الجماعة لم تشرع في النوافل) لكن هذه الجماعة التي سمعت الحكم
الصريح الحازم من الإمام علي عليه السلام أصرت على عنادها، وأخذت بالصراخ
والعويل، داعية الناس إلى الإحتجاج على حكم الإمام.
فجاءت جماعة أخرى إلى الإمام علي عليه السلام واخبرته بما أخذ يفعله أولئك
القوم وبعضيانهم لأمره، فطلب أن يتركوا وشأنهم ليختاروا من شاؤوا ليصلّي بهم
تلك الجماعة غير الشرعية^(١) ثم تلى الإمام هذه الآية الأخيرة، وفي هذا الخبر
دليل آخر على التفسير الذي تحدثنا عنه بالنسبة لهذه الآية.



الآية

إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾

التفسير

الشرك ذنب لا يغتفر:

تشير هذه الآية مرة أخرى إلى خطورة جريمة الشرك الذي يعتبر ذنباً لا يغتفر ولا يتصور وجود ذنب أعظم منه، ويأتي هذا البحث بعد أن تحدثت الآيات السابقة عن المنافقين والمرتدين الذين يتساقون بعد إسلامهم إلى الكفر. ولقد مرّ ما يشابه مضمون هذه الآية، في نفس سورة النساء في الآية (٤٨) وما إعادة تكرار مثل هذه المسائل التربوية إلا دليل على بلاغة القرآن، لأنّ المسائل الأساسية تستلزم التكرار في فواصل مختلفة بغية ترسيخها في الأذهان والنفوس.

والحقيقة أنّ الذنوب تشبه سائر الأمراض، فما دام المرض لم يهاجم موقعاً مهماً في جسم الإنسان ولم يشل أحد هذه المواقع، كانت القدرة الدفاعية للجسم تحمل معها الشفاء والتحسّن، ولكن لو هاجم المرض مركزاً حساساً في جسم الإنسان - مثل الدماغ - وأوجد نتيجة لذلك شللاً في الجسم، فإنّ أبواب الأمل

بالشفاء والتحسن قد تغلق في مثل هذه الحالة التي تنذر بقدم الموت المحتم.
والشرك كهذا المرض الأخير يشل مركزاً حساساً في روح الإنسان، وينشر
الظلمة في نفسه، وإذا استمر الشرك فلا أمل يرتجى في نجاة الإنسان، بينما لو
بقيت حقيقة التوحيد وعبادة الواحد الأحد التي هي ينبوع كل فضيلة وحركة ...
لو بقيت هذه الحقيقة حية فلا يعدم الإنسان الأمل في غفران ذنوبه الأخرى، وفي
هذا المجال تقول الآية الكريمة: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ
لِمَنْ يَشَاءُ».

وقد قلنا: بأن هذه الآية قد تكررت مرتين في هذه السورة، وما ذلك إلا
لتزليل آثار الشرك والوثنية - وإلى الأبد - من نفوس أولئك الناس الذين ظل
الشرك يعيش في أعماق نفوسهم لآماد طويلة، وتظهر آثار التوحيد المعنوية
والمادية على وجوه هؤلاء.

ولكن تنمة الآيتين تختلف في إحداها عن الأخرى اختلافاً طفيفاً، حيث
تقول الآية الأخيرة: «ومن يشرك بالله فقد ضلّ ضلالاً بعيداً» بينما الآية السابقة
تقول: «ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً».

وفي الحقيقة فإن الآية السابقة تشير إلى الفساد العظيم الذي ينطوي عليه
الشرك فيما يخص الجانب الإلهي، ومعرفة الله، أما الآية الأخيرة فقد بيّنت
الأضرار التي يلحقها الشرك بنفس الإنسان والتي لا يمكن تلافيتها، فهناك تبحث
الآية في الجانب العلمي من القضية، وهنا تتناول الآية الأخيرة الجانب العملي
منها ونتائجها الخارجية.

ويتضح من هذا أن الآيتين تعتبر أحدهما بالنسبة للأخرى بمثابة اللانزاه
والملزوم بحسب الإصطلاح (وقد اشتمل الجزء الثالث من نفس هذا التفسير على
توضيحات أكثر حول هذه الآية).

الآيات

إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنْسَانًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا
 مَرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا
 مَفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَا ضَلَّتْهُمْ وَلَا مَنِيْنَهُمْ وَلَا مَرَّتْهُمْ فَلَئِبَكُنَّ إِذَا نَا
 الْأَنْعَمِ وَلَا مَرَّتْهُمْ فَلْيَغَيِّرَنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ
 وَلِيًّا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ
 وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُولَئِكَ مَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ
 وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾

التفسير

مكاند الشيطان:

إِنَّ الآيَةَ الأولى - من مجموع الآيات الخمس الأخيرة - تشرح أوضاع
 المشركين الذين أشارت إليهم الآية السابقة لهذه الأخيرة، وهذه الآية إنما تبين
 سبب ضلال المشركين، فتذكر أنهم يعانون من ضيق شديد في أفق تفكيرهم، إذ
 يتركون عبادة الله خالق ومنشئ عالم الوجود الواسع، ويخضعون أمام
 المخلوقات التي لا تملك أقل أثر إيجابي في الوجود، بل هي - أحياناً مضللة
 كالشيطان: «إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنْسَانًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا».

ومما يلفت النظر أن هذه الآية تحصر أصنام المشركين بنوعين من المخلوقات هما «إناث» و«شيطان مرید».

وكلمة «إناث» مشتقة من المصدر «أثت» على وزن «أدب» وتعني المخلوق الرقيق اللطيف والمرن، ولهذا السبب فإن العرب تقول: «أثت الحديد» إذا لَانَ في النار، وقد سمي جنس المرأة بـ«الاناث» لأنها أكثر رقة ولطفاً وليناً من الرجل. لكن بعض المفسرين يرى هنا - أن القرآن يشير في هذه الآية إلى أصنام كانت معروفة لدى قبائل العرب حيث انتخبت كل قبيلة صنماً من هذه الأصنام ووضعت له اسماً مؤثناً. فالصنم «اللات» سمي هكذا ليكون مؤثناً لكلمة لفظ الجلالة «الله»، أما الصنم «عزى» فهو مؤثت كلمة «أعز» وكذلك أصنام أخرى مثل «مناة» و«نائلة» وأمثالها.

بينما يرى بعض آخر من كبار المفسرين أن القصد من كلمة «اناث» الواردة في الآية ليس المعنى المعروف بالمؤثت، بل أن القصد منها هو الجذر اللغوي الذي اشتقت منه هذه اللفظة، أي أن المشركين يعبدون مخلوقات ضعيفة ومطاوعة بين يدي الإنسان، وأن وجود هذه المخلوقات بكاملها قابل للتأثر والانحناء أمام الأحداث، وبعبارة أوضح: أنها موجودات لا تملك الإرادة والإختيار ولا تنفع ولا تضر شيئاً أبداً.

أما كلمة «مرید» وهي من حيث الجذر اللغوي مأخوذة من مادة «مرد» بمعنى سقوط أوراق وأغصان الشجر، ولهذا سمي الشاب اليافع الذي لم ينبت الشعر في وجهه بالأمرد، وعلى هذا فإن الشيطان المرید يعني ذلك الشيطان الذي سقطت منه جميع صفات الفضيلة، ولم يبق في وجوده شيء من مصادر القوة. أو قد تكون هذه الكلمة مأخوذة من الأصل «مرود» بمعنى الطفيلان والجبروت، أي أن معبود هؤلاء الوثنيين هو شيطان متكبر متجبر.

والحقيقة أن القرآن قسم أصنام هؤلاء المشركين إلى نوعين: بعضها ضعيف

الإرادة مطلقاً، والبعض الآخر طاغ متكبر متجبر، لكي يبين أن الذي يسلم قياده ويخضع لمثل هذه الأصنام إنما يعيش في ضلال واضح مبين.

بعد ذلك كله تشير الآية إلى صفات الشيطان وأهدافه وعدائه الخاص لأبناء آدم وتتناول بالشرح بعضاً من خططه الدنيئة، وقبل كل شيء تؤكد أن الله قد أبعده الشيطان عن رحمته ﴿لعنه الله﴾.

وفي الحقيقة فإن أساس شقاء وتعاسة الشيطان هو البعد عن رحمة الله، التي أصابته بسبب غروره وتكبره المفرطين، وبديهي أن من يكون بعيداً عن رحمة الله كالشيطان، يكون خاوياً من كل خير أو حسن، ولا يمكنه أن يترك خيراً أو حسناً في حياة غيره، وفاقد الشيء لا يعطيه، فهو لن يكون غير نافع فحسب، بل سيكون ضاراً أيضاً.

ثم تذكر الآية التالية أن الشيطان قد أقسم على أن ينفذ بعضاً من خططه: أولها: أن يأخذ من عباد الله نصيباً معيناً، حيث تقول الآية حاكية قول الشيطان: ﴿وقال لا اتخذن من عبادك نصيباً مفروضاً﴾ فالشيطان يعلم بعجزه عن اغواء جميع عباد الله، لأن من يستسلم لإرادة الشيطان ويخضع له هم فقط أولئك المنجرفون وراء الأهواء والنزوات، والذين لا إيمان لهم، أو ضعاف الإيمان. والثانية: خطط الشيطان تلخصها الآية بعبارة: ﴿ولأضلنهم﴾.

والثالثة: اشغلهم بالأمنيات العريضة وطول الأمل ﴿ولأمنينهم﴾^(١). أما الخطة الرابعة: ففيها يدعو الشيطان اتباعه إلى القيام بأعمال خرافية، مثل قطع أو خرق أذان الحيوانات كما جاء في الآية: ﴿ولأمرتهم فليبتكن أذان الأنعام﴾ وهذه إشارة لواحد من أقبح الأعمال التي كان يرتكبها الجاهليون

١- إن عبارة «ولأمنينهم» تعود إلى المصدر «منى» على وزن «منع» وتعني قياس الشيء أو تقيمه، ولكنها ترد في أغلب الأحيان لتعني القياس والتقييم والأمال الوهمية والخيالية أما النطفة التي تسمى بـ «منى» فمعناها أن قياس تركيب أولى الموجودات الحسية قد تم فيها.

المشركون، حيث كانوا يقطعون أو يخرقون أذان بعض المواشي، وكانوا يحرمون على أنفسهم ركوبها بل يحرمون أي نوع من أنواع الإنتفاع بهذه الحيوانات.

وخامس: الخطط التي أقسم الشيطان أن ينفذها ضد الإنسان، هي ما ورد على لسانه في الآية إذ يقول: ﴿وَأْمُرْنِهِمْ فَلْيَغَيِّرَنَّ خَلْقَ اللَّهِ ...﴾ وهذه الجملة تشير إلى أن الله قد أوجد في فطرة الإنسان منذ خلقه إياه - النزعة إلى التوحيد وعبادة الواحد الأحد، بالإضافة إلى بقية الصفات والخصال الحميدة الأخرى، ولكن وساوس الشيطان والإنجراف وراء الأهواء والنزوات تبعد الإنسان عن الطريق المستقيم الصحيح، وتحرفه إلى الطرق المعوجة الشاذة.

والشاهد على القول أيضاً الآية (٣٠) من سورة الزّوم، إذ تقول: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينَ الْقَیْمُ﴾.

ونقل عن الإمام الصادق عليه السلام أنه فسّره بأن القصد من التغيير المذكور في هذه الآية من سورة النساء هو تغيير فطرة الإنسان وحرفها عن التوحيد وعن أمر الله^(١).

وهذا الضرر الذي لا يمكن التعويض عنه، يلحقه الشيطان بأساس سعادة الإنسان، لأنه يعكس له الحقائق والوقائع ويستبدلها بمجموعة من الأوهام والخرافات والوساوس التي تؤدي إلى تغيير السعادة بالشقاء للناس، وقد أكدت الآية في آخرها مبدأ كلياً، وهو أن أي إنسان يعبد الشيطان ويجعله لنفسه ولياً من دون الله، فقد ارتكب إثمًا وذنبا واضحا إذ تقول الآية: ﴿وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيّاً مَن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خَسِرَاناً مُّبِيناً﴾.

والآية التي تلت هذه الآية جاءت ببعض النقاط بمثابة الدليل على ما جاءت به الآية السابقة حيث ذكرت أن الشيطان يستمر في إعطائه الوعود الكاذبة

لأولئك ويمنيهم الأمنيات الطوال العراض، ولكنه لا يفعل شيئاً بالنسبة لهؤلاء غير الإغواء والخداع: ﴿يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً﴾^(١).
 وبَيَّنَّتْ آخر آية من الآيات الخمس الأخيرة مصير اتباع الشيطان، بأنهم ستكون نتيجةهم السكنى في جهنم التي لا يجدون منها مفرأً أبداً، فتقول الآية: ﴿أولئك مأواهم جهنم ولا يجدون عنها محيصاً﴾^(٢).



١ - الغرور يعني في الأصل الأثر الواضح للشيء، ولكنه يطلق في الغالب على الآثار التي لها ظاهر خادع وباطن كرهه، ويطلق على كل شيء يخدع الإنسان مثل المال والجاه والسلطان التي تبعد الإنسان عن الحق وعن جادة الصواب على أنه مادة للغرور.

٢ - المحيص مشتق من المصدر «حيص» ويعني العدول والإنصراف عن الشيء، وعلى هذا الأساس فإن المحيص هو وسيلة الإنصراف والفرار.

الآية

وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي
مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ
أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴿١٣٧﴾

التفسير

لقد بينت الآيات السابقة أن الذين يتخذون الشيطان ولياً لهم، إنما ينالهم ضرر واضح ومبين، وأن الشيطان يعدهم زيفاً وخداعاً ويلهمهم بالأمنيات الواهية الخيالية الطويلة العريضة، وإن وعد الشيطان مكر وخداع لا غير.

أما في هذه الآية الأخيرة - التي هي موضوع بحثنا الآن - فقد بينت مقابل أولئك في النهاية أعمال المؤمنين والثواب الذي سينالونه يوم القيامة، من جنات ويساتين وأنهار تجري فيها، حيث تقول الآية: ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾.

وإن هذه النعمة العظيمة دائمة أبداً، وليست كنعم الدنيا الزائلة، فالمؤمنون في الجنة يتمتعون بما أوتوه من خير دائماً أبداً، تؤكد هذه بعبارة ﴿خالدين فيها أبداً﴾.

وإن هذا الوعد وعد صادق وليس كوعود الشيطان الزائفة، حيث تقول الآية:

﴿وعد الله حقاً﴾.

وبديهي أن أي فرد لا يستطيع - أبداً - أن يكون أصدق قولاً من الله العزيز
القدير في وعوده وفي كلامه، كما تقول الآية: ﴿ومن أصدق من الله قيلاً﴾
وطبيعي أن عدم الوفاء بالوعد ناتج إما عن العجز وإما الجهل والحاجة، والله
سبحانه وتعالى منزّه عن هذه الصفات.

* * *

الآيتان

لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيَّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَى بِهِ
وَلَا يَحِذُّ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهًا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٣٣﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنْ
الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ
الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٣٤﴾

سبب النزول

جاء في تفسير مجمع البيان - وتفسير أخرى - أن المسلمين وأهل الكتاب كانوا يتفاخرون بعضهم على بعض، فكان أهل الكتاب يتباهون بكون نبيهم قد بعث قبل نبي الإسلام وإن كتابهم أسبق من كتاب المسلمين، بينما كان المسلمون يفتخرون على أهل الكتاب بأن نبيهم هو خاتم الأنبياء وأن كتابه هو آخر الكتب السماوية وأكملها.

وفي رواية أخرى، نقل أن اليهود كانوا يدعون أنهم هم الشعب المختار، وأن نار جهنم لا تمسهم إلا لأيام معدودات، كما ورد في سورة البقرة - الآية (٨٠) «وقالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة...» وأن المسلمين كانوا يقولون، ردّاً على كلام اليهود هذا: بأنهم خير الأمم لأن الله قال في شأنهم: «كنتم خير أمة

أخرجت للناس...^(١) ولذلك نزلت الآية الأخيرة هذه ودحضت كل تلك الدعاوى وحددت قيمة كل شخص بما يقوم به من أعمال.

التفسير

امتيازات حقيقية وأخرى زائفة:

لقد بينت هذه الآية واحداً من أهم أعمدة أو أركان الإسلام، هو أنّ القيمة الوجودية لأي إنسان وما يناله من ثواب أو عقاب، لا تمت بصلة إلى دعاوى وأمنيات هذا الإنسان مطلقاً، بل أن تلك القيمة ترتبط بشكل وثيق بعمل الإنسان وإيمانه وأنّ هذا مبدأ ثابت، وسنّة غير قابلة للتغيير، وقانون تتساوى الأمم جميعها أمامه، ولذلك تقول الآية في بدايتها: «ليس بأمانكم ولا أمانى أهل الكتاب...» وتستطرد فتقول: «من يعمل سوءاً يجز به ولا يجدر له من دون الله ولياً ولا نصيراً».

وكذلك الذين يعملون الخير، ويتمتعون بالإيمان، سواء أكانوا من الرجال أو النساء - فإنّهم يدخلون الجنة ولا يصيبهم أقل ظلم أبداً، حيث تقول الآية: «ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئاً»^(٢).

وبهذه الصورة يعمد القرآن إلى نبذ كل العصبيات بكل بساطة، معتبراً الإعتبارات والإرتباطات المصطنعة الخيالية والاجتماعية والعرقية وأمثالها خاوية من كل قيمة إذا قيست برسالة دينية، ويعتبر الإيمان بمبادئ الرسالة والعمل بأحكامها هو الأساس.

وفي تفسير الآية الأولى من الآيتين الأخيرتين حديث نقلته مصادر الشيعة

١- آل عمران، ١١٠.

٢- لقد أوضحنا المراد من عبارة «تقير» في تفسير الآية ٥٣ من نفس هذه السورة.

والسنة، مفاده أن المسلمين حين نزلت هذه الآية استولى عليهم الرعب وأخذوا
 يبيكون خوفاً، لمعرفةهم بأن الإنسان معرض للخطأ ويحتمل كثيراً صدور ذنوب
 منه، فلو فرض عدم وجود عفو أو غفران وأن يؤخذ كل إنسان بجريرته، فإن
 الأمر سيكون في غاية الصعوبة، لذلك لجؤوا إلى النبي ﷺ فذكروا له أن هذه
 الآية قد أفقدتهم كل أمل، فأقسم النبي لهم بالله أنه ما جاءت به الآية هو الصحيح،
 ولكنه بشرهم بأنها ستكون خير محفز لهم للتقرب إلى الله والقيام بالأعمال
 الصالحة، وإن ما سيصيبهم من محن ومصائب وآلام حتى لو كانت من وخز شوكة
 سيكون كفارة لذنوبهم^(١).

سؤال:

من الممكن أن يستدل البعض من الجملة القرآنية التالية: «ولا يجد له من
 دون الله ولياً ولا نصيراً» على أن قضية الشفاعة ونظائرها قد ألغيت بهذه الآية
 بصورة تامة، فيعتبرونها دليلاً لإلغاء الشفاعة بصورة مطلقة.

الجواب:

لقد أشرنا سابقاً إلى أن الشفاعة لا تعني أن الشفعاء من أمثال الأنبياء والأئمة
 والصالحين لهم جهاز أو تنظيم مستقل يقابل قدرة الله، بل الصحيح هو أن الشفعاء
 لا يشفعون لأحد إلا بإذن الله، وعلى هذا الأساس فإن مثل هذه الشفاعة ستعود
 في النهاية إلى الله وتعتبر فرعاً من ولاية ونصرة وعون الله.



الآيتان

وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ
إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً ﴿١٧٥﴾ وَاللَّهُ مَعَ
الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آلِهَتِهِمْ كَانُوا عَلَيْكُمْ ﴿١٧٦﴾

التفسير

لقد تحدثت الآيات السابقة عن أثر الإيمان والعمل، كما بيّنت أن إتباع أي مذهب أو شريعة غير شرع الله لا يغني عن الإنسان شيئاً، والآية الحاضرة تداركت كل وهم قد يطرأ على الذهن من سياق الآيات السابقة، فأوضحت أفضلية شريعة الإسلام وتفوقها على سائر الشرائع الموجودة، حيث قالت ﴿ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفاً﴾.

ومع أن هذه الآية قد جاءت بصيغة الإستفهام، إلا أنها تهدف إلى كسب الإعتراف من السامع بالحقيقة التي أوضحتها.

لقد بيّنت الآية - موضوع البحث - أموراً ثلاثة تكون مقياساً للتفاضل بين الشرائع وبياناً لخيرها:

١- الإستسلام والخضوع المطلق لله العزيز القدير، حيث تقول الآية: ﴿أسلم

وجهه لله»^(١).

٢- فعل الخير، كما تقول الآية: «وهو محسن» والمقصود بفعل الخير - هنا - كل خير يفعله الإنسان بقلبه أو لسانه أو عمله، وفي حديث عن النبي ﷺ ذكره صاحب تفسير الثقلين في تفسيره للآية - هذه - وهو جواب لمن سأل النبي ﷺ تحديد معنى الإحسان، فقال ﷺ: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

فالإحسان في هذه الآية هو كل عمل ينجزه الإنسان ويقصد به التعبد لله والتقرب إليه، وأن يكون الإنسان لدى إنجازه لهذا العمل قد جعل الله نصب عينيه، وكأنه يراه، فإن كان هو يعجز عن رؤية الله فإن الله يراه ويشهد على أعماله.

٣- إتباع شريعة إبراهيم النقية الخالصة، كما في الآية: «واتبع ملة إبراهيم حنيفاً»^(٢).

ودليل الاعتماد على شريعة إبراهيم ما ذكرته الآية نفسها في آخرها: إذ تقول: «واتخذ الله إبراهيم خليلاً».

ما هو معنى الخليل؟

إن كلمة « خليل » قد تكون مشتقة من المصدر «خلّة» على وزن «حجّة» الذي يعني الصداقة، وقد يكون اشتقاقها من المصدر «خلّة» على وزن «ضربة» بمعنى الحاجة.

١- الوجه في اللغة هو مقدمة الرأس، أو ذلك الجزء من البدن الذي يشمل الجبهة والعينين والأنف والقم والجبين، ولما كان الوجه بمثابة مرآة لروح الإنسان وقلبه، وفيه الحواس التي تربط باطن الإنسان بالعالم الخارجي، لذلك جاء في الآية التعبير عنه بذات الإنسان ونفسه.

٢- إن عبارة «ملة» الواردة في الآية أعلاه تعني «الشرعة أو الدين» والفرق بين الملة والدين أن الأولى لا تنسب إلى الله، أي لا يقال «ملة الله» ويمكن أن تضاف إلى النبي بينما كلمة الدين أو الشرعة يمكن أي يضافا إلى لفظ الجلالة فيقال: «دين الله» أو «شرعة الله» كما يمكن إضافتهما إلى النبي أيضاً، وعبارة «حنيف» تعني الشخص الذي يترك الأديان الباطلة ويتبع دين الحق.

وقد اختلف المفسرون في أي المعنيين أقرب إلى مفهوم الآية موضوع البحث.

ف رأى البعض منهم أن المعنى الثاني أقرب لحقيقة هذه الآية، لأن إبراهيم عليه السلام كان يؤمن بأنه محتاج إلى الله في كل شؤونه بدون استثناء، ولكن مفسرين آخرين يرون أنه ما دامت الآية تتحدث عن منزلة وهبها الله لنبيه إبراهيم فالمقصود بكلمة «الخليل» الواردة هو «الصديق» لأننا لو قلنا أن الله قد انتخب إبراهيم صديقاً له، يكون أقرب كثيراً إلى الذهن من قولنا أن الله انتخب إبراهيم ليكون محتاجاً إليه. لأن الحاجة إلى الله لا تقتصر على إبراهيم وحده، بل يشاركه ويساويه فيها جميع المخلوقات، فالكل محتاجون إلى الله دون استثناء، وكان تقول الآية (١٥) من سورة فاطر: «يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله» وهذا على عكس الصداقة والخلّة مع الله التي لا يتساوى فيها كل المخلوقات.

وفي رواية عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «أنه (الله) إنما اتخذ إبراهيم خليلاً لطاعته ومسارعته إلى رضاه لا لحاجة منه سبحانه إلى خلته» وتدل هذه الرواية^(١) أيضاً بأن عبارة «خليل» الواردة في الآية المذكورة إنما تعني الصديق ولا تعني غيره.

وعلى هذا الأساس لنرى ما الذي امتاز به إبراهيم لينال هذه المنزلة العظيمة من الله، لقد ذكرت الروايات الواردة في هذا المجال عللاً مختلفة تكون بمجمعتها دليلاً لهذا الانتخاب، ومن هذه الروايات قول الإمام الصادق عليه السلام: «إنما اتخذ الله إبراهيم خليلاً لأنه لم يرد أحداً ولم يسأل أحداً غير الله»^(٢).

وتفيد روايات أخرى أن إبراهيم قد حاز هذه الدرجة لكثرة سجوده لله، وإطعامه للجياع وإقامة صلاة الليل، أو لسعيه في طريق مرضاة الله وطاعته.

١- مجمع البيان في هامش الآية الشريفة.

٢- عيون أخبار الرضا، وتفسير الصافي في هامش الآية المذكورة وفي تفسير البرهان الجزء الأول، ص ٤١٧.

بعد ذلك نتحدث الآية التالية بملكية الله والمطلقة وإحاطته بجميع الأشياء، حيث تقول: «ولله ما في السموات وما في الأرض وكان الله بكل شيء محيطاً» وهذه إشارة إلى أن الله حين انتخب إبراهيم خليلاً له، ليس من أجل الحاجة إلى إبراهيم فالله منزّه عن الإحتياج لأحد، بل أن هذا الإختيار قد تمّ لما لا إبراهيم من صفات وخصال وسجايا طيبة بارزة لم توجد في غيره.

* * *

الآية

وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلْ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَسَمَى النِّسَاءِ الَّتِي لَا تُوْتُوهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوُلْدِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ﴿١٧﴾

التفسير

عود على حقوق المرأة:

تجيب الآية الأخيرة هذه على أسئلة وردت حول النساء من قبل المسلمين (وبالأخص حول اليتامى منهن) فتخاطب النبي ﷺ وتبين له أن الله هو الذي يفتي في الأسئلة التي وجهت إليك يا محمد ﷺ حول الأحكام الخاصة بحقوق النساء، فنقول: «ويستفتونك في النساء قل الله يفتيكم...».

وتضيف الآية إن ما ورد في القرآن الكريم حول الفتيات اليتامى اللواتي كنتم تتصرفون في أموالهن، ولم تكونوا لتتزوجوا بهن، ولم تدفعوا أموالهن إليهن لكي يتزوجن من آخرين، فإنه يجيب على قسم آخر من أسئلتكم ويبين لكم قبح ما كنتم تعملون من ظلم بحق هؤلاء النسوة، «وما يتلى عليكم في الكتاب في يتامى

النساء اللاتي لا تؤتونهنّ ما كتب هنّ وترغبون أن تنكحوهنّ...»^(١).
ثمّ توصي الآية الكريمة بالأولاد الذكور الصغار الذين كانوا يحرمون من الإرث وفق التقاليد الجاهلية، فتؤكد ضرورة رعاية حقوقهم، حيث تقول: «والمستضعفين من الولدان».

كما تعود الآية فتكرر التأكيد على حقوق اليتامى، فتذكر أن الله يوصيكم في أن تراعوا العدالة في تعاملكم مع اليتامى: «وأن تقوموا لليتامى بالقسط...». وفي الختام تجلب الآية الإتياب إلى أن أي عمل خير يصدر منكم وبالأخص إذا كان في حق اليتامى والمستضعفين - فإنه لا يخفى على الله - وإنيكم ستنالون أجر ذلك في النهاية، حيث تقول الآية: «وما تفعلوا من خير فإن الله كان به عليماً».

هذا ويجب الإلتفات إلى أنّ عبارة «يستفتونك» مشتقة من المصدر «فتوى» أو «فتياً» ومعناها الإجابة على كل سؤال معضل، ولما كانت هذه الكلمة تعود في الأصل إلى كلمة «فتى» أي الشاب اليافع، فمن الممكن أن الفتوى كانت تستخدم للتعبير عن الإجابة على الأسئلة المستحدثة، وبعد ذلك أصبحت تطلق بصورة شاملة على كل أنواع الأجوبة الخاصّة بالمسائل المنتخبة.



١ - بناء على التفسير الذي أوردناه بشأن الآية أعلاه يتبيّن لنا أنّ عبارة «ما يتلى» مبتدأ وخبرها جملة «يختيكم فيهنّ» التي حذفت للقرينة الموجودة في القسم السابق من الآية. كما أنّ عبارة «ترغبون» هنا تعني عدم الميل والرغبة، حيث تشير القران إلى تقدير «عن» بعد عبارة «ترغبون» في هذه الآية والفرق بين «رغب عنه» و«رغب فيه» واضح.

الآية

وَإِنْ أَمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَغْلِهَا نُشُوزاً أَوْ إِعْرَاضاً فَلَا جُنَاحَ
عَلَيْهَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحاً وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُخْضِرَتِ
الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ
خَبِيراً ﴿٧٨﴾

سبب النزول

لقد ورد في الكثير من كتب التفسير والحديث، في سبب نزول هذه الآية، أنه كان في زمن النبي ﷺ شخص يدعى «رافع بن خديج» وكانت له زوجتان، إحداهما كبيرة السن عجوز، والأخرى شابة، فطلق «رافع» زوجته العجوز (اثر خلافات بينهما) لكنه - قبل أي تنتهي عدتها - عرض عليها الصلح مشروطاً عليها أن لا تضجر إذا قدم عليها زوجته الشابة، أو أن تصبر حتى تنتهي عدتها فيتم الفصل والفراق بينهما، فقبلت زوجته العجوز الشرط أو الاقتراح الأول، فاصطلحا، فنزلت هذه الآية الكريمة مبيّنة حكم هذا العمل.

لقد قلنا سابقاً - في هامش الآيتين (٣٤ و ٣٥) من نفس سورة النساء - إن كلمة «نشوز» مشتقة من المصدر «نشز» بمعنى «الأرض المرتفعة» وحين تستخدم هذه العبارة في شأن الرجل والمرأة تعني ذلك «التكبر» و«الطغيان».

وقد بيّنت الآيات السابقة حكم نشوز المرأة، وفي هذه الآية إشارة لنشوز الرجل فالآية تتحدث عن المرأة إذا أحست من زوجها التكبر والإعراض عنها، وتبيّن أن لا مانع من أن تتنازل عن بعض حقوقها، وتتصالح مع زوجها، من أجل حماية العلاقة الزوجية من التصدع، فتقول: «وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحاً».

ولما كانت المرأة تتنازل عن بعض حقوقها طوعاً وعن طيب خاطر ومن غير إكراه فلا ذنب في هذا العمل، حيث عبّرت الآية عن ذلك بعبارة «فلا جناح» أي لا ذنب، للدلالة على الحقيقة المذكورة.

وعند النظر إلى سبب نزول الآية، نستخلص منها مسألتين فقهيّتين: الأولى: إنّ حكماً مثل تقسيم أيام الأسبوع بين الزوجات، له طابع الحق أكثر من طابع الحكم، ولذلك في إمكان المرأة التخلي عن هذا الحق بشكل تام إذا شاءت أو بصورة جزئية.

والمسألة الثانية: إنّ التراضي والتصالح لا يشترط أن يكون بالمال، بل يصح أن يكون بالتنازل عن حق من الحقوق.

بعد ذلك تؤكد الآية على أنّ الصلح خير وأحسن، حيث تقول: «والصلح خير» وهذه الجملة الصغيرة مع أنها جاءت في مجال الخلافات العائلية، لكنها تبيّن قانوناً كلياً عاماً شاملاً، وتؤكد أنّ الصلح هو المبدأ الأوّل في كل المجالات، وأنّ الخلاف والنزاع والصراع والفراق ليس له وجود في الطبع والفطرة الإنسانية السليمة، ولذلك فلا تسوغ هذه الفطرة التوسل بالنزاع وما يجري مجراه إلّا في

الحالات الإستثنائية الطارئة.

وهذا الأمر على عكس ما يصوّره الماديون من أنّ الصراع من أجل البقاء هو الأصل في حياة الموجودات الحيّة، ويزعمون أنّ التكامل يحصل من خلال هذا الصراع.

وقد كان هذا النوع من التفكير سبباً في بروز الكثير من النزاعات الدّموية والحروب في القرون الأخيرة، لكن الإنسان لا يقاس بالحيوانات الأخرى المفترسة بسبب ما يملكه من عقل وإحساس، وإنّ تكامله يتمّ في ظلّ التعاون وليس في ظلّ النزاع، ومن حيث المبدأ فإنّ الصراع من أجل البقاء حتى في الحيوانات لا يعتبر مبدأ مقبولاً للتكامل^(١).

وتشير الآية بعد ذلك مباشرة إلى أنّ الإنسان بسبب غريزة حبّ الذات التي يمتلكها تحيط به أمواج البخل، بحيث أنّ كل إنسان يسعى إلى نيل حقوقه دون التنازل عن أقل شيء منها، وهذا هو سبب ومنبع النزاع والصراع، تقول الآية: ﴿وأحضرت الأنفس الشح﴾.

ولذلك فلو أحسّ كلّ من الزوجين بأنّ البخل هو منبع الكثير من الخلاف وأدركوا حقيقة البخل وأنّه من الصفات القبيحة، وسعوا لإصلاح ذات بينهم وأبدوا العفو والصفح، فسوف لا يؤدي هذا إلى زوال الخلاف والنزاع العائلي فحسب، بل سيؤدي أيضاً إلى إنهاء الكثير من الصراعات الإجتماعية.

ولكي لا يسيء الرجال استغلال هذا الحكم الوارد في الآية، وجه الخطاب إليهم في نهايتها ودعوا إلى فعل الخير والتزام التقوى، ونهبوا إلى أنّ الله يراقب أعمالهم دائماً فليحذروا الإنحراف عن جادة الحق والصواب، تقول الآية في هذا المجال: ﴿وإنّ تحسّنوا وتتقوا فإنّ الله كان بما تعملون خبيراً﴾.

* * *

١ - من أجل معرفة تفاصيل أكثر حول هذا الموضوع راجع الجزء الثاني من هذا التفسير في فصل «الصراع من أجل البقاء».

الآيتان

وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمْلُوا
كُلَّ الْمَلِيلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ
عَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٣٠﴾ وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ
وُسْعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾

التفسير

العدالة شرط في تعدد الزوجات:

نستنتج من الجملة التي وردت في نهاية الآية السابقة - التي تمّ البحث عنها والتي دعت الرجال إلى فعل الخير والتزام التقوى - إنها تعتبر نوعاً من التهديد للأزواج من الرجال، بأن يراقبوا حالهم ولا ينحرفوا قيد شعرة عن جادة الحق والعدالة لدى التعامل مع زوجاتهم.

وقد يرد إعتراض وهو: إن تحقيق العدالة في مجال الحبّ والعلاقات القلبية أمر بعيد المنال، فكيف يمكن إذن والحالة هذه اتباع العدل مع الزوجات؟ ورداً على الإعتراض المذكور توضح الآية (١٢٩) من سورة النساء، بأنّ تحقيق العدالة في مجال الحبّ بين الزوجات أمر غير ممكن، مهما بذل الإنسان من سعي في هذا المجال فتقول الآية: «ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو

حرصتم» ويتبين من عبارة «ولو حرصتم» هذه وجود أشخاص بين المسلمين كانوا يسعون كثيراً لتحقيق تلك العدالة المطلوبة، ولعل سعيهم ذلك كان من أجل الحكم المطلق الذي طالب المسلمين باتباع العدل من زوجاتهم والذي ورد في الآية الثالثة من سورة النساء، التي تقول: «... وإن خفتن ألا تعدلوا فواحدة».

بديهي أن أي حكم سماوي لا يمكن أن ينزل على خلاف فطرة البشر، كما لا يمكن أن يكون تكليفاً بما لا يطاق، ولما كانت العلاقات القلبية تنتج عن عوامل يكون بعضها خارجاً عن إرادة الإنسان، لم يحكم الله بتحقيق العدالة في مجال الحب القلبي بين الزوجات، أما فيما يخص الأعمال وأسلوب التعامل ورعاية الحقوق بين الأزواج مما يمكن للإنسان تحقيقه، فقد تم التأكيد على تحقيق العدالة فيه.

ولكي لا يسيء الرجال استغلال هذا الحكم، طالبت الآية الرجال بأن لا يظهروا الميل الكامل لإحدى الزوجات إذا تعسر عليهم تحقيق المساواة في حبهم لهن جميعاً، كي لا يضيع حق الأخريات ولا يحرن في أمرهن ماذا يفعلن! حيث تقول الآية: «فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة...».

وتحذر الآية في آخرها أولئك الذين يجحفون في حق زوجاتهم، وتطالبهم بأن يتبعوا طريق الإصلاح والتقوى، ويعرضوا عمّات في الماضي، كي يشملهم الله برحمته وعفوه، فتقول الآية: «وأن تصلحوا وتستقوا فإن الله كان غفوراً رحيماً...».

لقد وردت روايات اشتملت على مواضع تخص مسألة تحقيق العدالة بين الزوجات، وتبين عظمة هذا الحكم والقانون الإسلامي.

من هذا الروايات ما روي عن علي بن أبي طالب أمير المؤمنين عليه السلام أنه كان له امرأتان، فكان إذا كان يوم واحدة لا يتوضأ في بيت الأخرى»^(١).

وروي عن جعفر بن محمد عن أبيه عن أبائه عليهم السلام «أن النبي ﷺ كان يقسم بين نسائه في مرضه، فيطاف به بينهن»^(١).

وكان معاذ بن جبل له امرأتان ماتتا في الطاعون أقرع بينهما أيهما تدفن قبل الأخرى؟^(٢) أي أيهما يقدم أولاً في الدفن لكي يتجنب ما من شأنه أن يخذش العدل المفروض اتباعه بين الزوجات.

جواب على سؤال ضروري:

كنا قد نوهنا - في هامش الآية (٣) من نفس هذه السورة - بأن بعضاً ممن ليس لهم علم استنتجوا - من ضم تلك الآية إلى هذه الآية - أن تعدد الزوجات مشروط بتحقيق العدالة بينهن، وأنه لما كان تحقيق العدالة أمراً غير ممكن، فذلك قالوا بأن الإسلام قد منع تعدد الزوجات.

ويفهم من الروايات الإسلامية أن أول من طرح هذا الرأي هو «ابن أبي العوجاء» وكان من أصحاب المذهب المادي، ومن المعاصرين للإمام الصادق عليه السلام، وجاء طرحه لرأيه هذا في نقاش له مع المفكر الإسلامي المجاهد «هشام بن الحكم» فلما أعيب «هشاماً» الجواب توجه من بلدته الكوفة إلى المدينة المنورة «لمعرفة الجواب» فقدم على الإمام الصادق عليه السلام فتعجب الإمام من مقدمه قبل حلول موسم الحج أم العمرة، ولكن هشاماً أخبر الإمام بسؤال ابن أبي العوجاء، فكان جواب الإمام الصادق عليه السلام على السؤال هو أن المقصود بالعدالة الواردة في الآية الثالثة من سورة النساء، هي العدالة في النفقة (وضرورة رعاية الحقوق الزوجية وأسلوب التعامل مع الزوجة) أما العدالة الواردة في الآية (٢٩) من نفس السورة (والتي اعتبر تحقيقها أمراً مستحيلاً) فالمقصود بها العدالة في

١- المصدر السابق.

٢- المصدر السابق.

الميلو القلبية، (وعلى هذا الأساس فإن تعدد الزوجات ليس ممنوعاً ولا مستحيلاً إذا رُعيَت فيه الشروط الإسلامية)، فلما رجع هشام بالجواب إلى ابن ابي العوجاء حمد هذا الاخير أن هذا الجواب ليس من عندك.

ومعلوم أن تفسيرنا لكلمتي العدالة - الواردين في الآية الثالثة والآية (١٢٩) من سورة النساء - بمعنيين يختلف أحدهما عن الآخر، إنما هو للقرينة الواضحة الواردة مع كل من الآيتين المذكورتين، لأن الآية الأخيرة تأمر الإنسان أن لا يميل ميلاً شديداً لإحدى زوجاته ويترك الأخريات في الحيرة من شأنهن، ولهذا فهي تدل على جواز تعدد الزوجات مع اشتراط أن لا يحصل إجحاف بحق إحداهن لحساب الأخرى، مع الإذعان باستحالة تحقق المساواة في الحب القلبي لكلا الزوجتين، أما في الآية الثالثة من سورة النساء فقد ورد التصريح في أولها بجواز تعدد الزوجات.

أما الآية الثانية من الآيتين الأخيرتين، فهي تشير إلى هذه الحقيقة، وهي أنه لو استحال مواصلة الحياة الزوجية للطرفين - الزوج والزوجة - واستحال الإصلاح بينهما، فإنهما - والحالة هذه - غير مرغمين على الإستمرار في مثل هذه الحياة المرّة الكريهة، بل يستطيعان أن ينفصلا عن بعضهما وعليهما اتخاذ موقف شجاع وحاسم في هذا المجال دون خوف أو رهبة من المستقبل، لأنهما لو انفصلا في مثل تلك الحالة فإن الله العليم الحكيم سيغنيهما من فضله ورحمته، فلا يعدمان الأمل في حياة مستقبلية أفضل، فتقول الآية الكريمة في هذا المجال: ﴿وإن يتفرقا يغن الله كلاً من سعته وكان الله واسعاً حكيماً﴾.

الآيات

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْاَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِيْنَ
اٰتٰوْا الْكِتٰبَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَاِيَّاكُمْ اَنْ اَتَّقُوا اللّٰهَ وَاِنْ تَكْفُرُوْا
فَاِنَّ اللّٰهَ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْاَرْضِ وَكَانَ اللّٰهُ غَنِيًّا
حَمِيْدًا ﴿١٣٦﴾ وَلِلّٰهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْاَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللّٰهِ
وَكَيْلًا ﴿١٣٧﴾ اِنْ يَشَآءْ يُذْهِبْكُمْ اٰيْمَآءَ النَّاسِ وَيَاْتِ بِاٰخَرِيْنَ وَكَانَ
اللّٰهُ عَلٰى ذٰلِكَ قَدِيْرًا ﴿١٣٨﴾ مِّنْ كَانَ يُرِيْدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللّٰهِ
ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْاٰخِرَةِ وَكَانَ اللّٰهُ سَمِيْعًا بَصِيْرًا ﴿١٣٩﴾

التفسير

لقد أوضحت الآية السابقة أن إذا اقتضت الضرورة لزوجين أن يفصلا عن بعضهما دون أن يجدا حلاً بديلاً عن الانفصال فلا مانع من ذلك، وليس عليهما أن يخافا من حياة المستقبل، لأن الله سيضمهما بكرمه وفضله، ويزيل احتياجهما برحمته وبركته.

أما في الآية - موضوع البحث - فإن الله يؤكد قدرته على إزالته ورفع تلك الإحتياجات، لأنه مالك ما في السموات وما في الأرض ﴿والله ما في السموات وما في الأرض﴾ وإن من يملك ملكاً لا نهاية له كهذا الملك، ويملك قدرة لا نفاذ

لها أبدأ، لن يكون عاجزاً - مطلقاً - عن رفع احتياجات خلقه وعباده.
ولكي تؤكد الآية ضرورة التقوى في هذا المجال وفي أي مجال آخر، تشير
الآية إلى أن اليهود والنصارى وكل من كان له كتاب سماوي قبل المسلمين قد
طلب منهم جميعاً كما طلب منكم مراعاة التقوى «ولقد وصينا الذين أتوا
الكتاب من قبلكم وإيتاكم أن اتقوا الله...».

بعد ذلك توجه الآية إلى مخاطبة المسلمين، فتؤكد لهم أن الالتزام بحكم
التقوى سيجلب النفع لهم، وأن ليس لله بتقواهم حاجة، كما تؤكد أنهم إذا عصوا
وبغوا، فإن ذلك لا يضر الله أبداً، لأن الله هو مالك ما في السموات وما في
الارض، فهو غير محتاج إلى أحد أبداً، ومن حقه أن يشكره عباده دائماً وأبداً،
«وإن تكفروا فإن الله ما في السموات وما في الأرض وكان الله غنياً حميداً».

الفنى وعدم الحاجة هما من صفات الله سبحانه وتعالى - حقيقة - لأنه عزَّ
وجلَّ غني بالذات، وارتفاع حاجات غيره وزوالها إنما يتم بعونه ومدده، وكل
المخلوقات محتاجة إليه احتياجاً ذاتياً، لذلك فهو يستحق - لذاته - أن يشكره
عباده ومخلوقاته، كما أن كمالاته التي تجعله أهلاً للشكر ليست خارجة عن
ذاته، بل هي كلها في ذاته، وهو ليس كالمخلوقات التي تمتلك صفاتاً كمالية
عرضية خارجية مكتسبة من الغير.

وفي الآية التالية جرى التأكيد - وللمرة الثالثة - على أن كل ما في السموات
وما في الأرض هو ملك لله، وإن الله هو الحافظ والمدبر والمدير لكل الموجودات
«ولله ما في السموات وما في الأرض وكفى بالله وكيلاً».

وقد يرد سؤال - هنا - عن سبب تكرار موضوع واحد لثلاث مرات وفي
فواصل متقاربة جداً، وهل أن هذا التكرار من أجل التأكيد على الأمر الوارد في
هذا الموضوع، أم هناك سرٌّ آخر؟

وبالإمعان في مضمون الآيات يظهر لنا أن الموضوع المتكرر ينطوي في كل

مرّة على أمر خاص:

ففي المرّة الأولى حيث تحمل الآية وعداً لزوجين بأنهما إذا انفصلا فإن الله سيفنهما ولأجل إثبات قدرة الله على ذلك، يذكر الله ملكيته لما في السموات وما في الأرض.

أما في المرّة الثانية فإن الآية توصي بالتقوى، ولكي لا يحصل وهم بأن إطاعة هذا الأمر ينطوي على نفع أو فائدة لله، أو أن مخالفته ينطوي على الضرر له، فقد تكررت الجملة للتأكيد على عدم حاجة الله لشيء، وهو مالك ما في السموات وما في الأرض.

وهذا الكلام يشبهه في الحقيقة ما قاله أمير المؤمنين علي عليه السلام في مستهل خطبة الهمام الواردة في كتاب نهج البلاغة حيث قال عليه السلام: «بأن الله سبحانه وتعالى خلق الخلق حين خلقهم غنياً عن طاعتهم آمناً عن معصيتهم لأنه لا تضره معصية من عصاه ولا تنفعه طاعة من أطاعه»^(١).

ويذكر الله ملكيته لما في السموات وما في الأرض للمرّة الثالثة كمقدمة للموضوع الذي يلي في الآية (١٣٣)، ثم يبيّن - عز من قائل - أنه لا يأبه في أن يزيل قوماً عن الوجود، ليأتي مكانهم بقوم آخرين أكثر استعداداً وعزماً وأكثر دأباً في طاعة الله وعبادته، والله قادر على هذا الأمر «إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين وكان الله على ذلك قديراً».

وفي تفسير «التيبان» وتفسير «مجمع البيان» نقلاً عن النبي صلى الله عليه وآله أنه حين نزلت هذه الآية ربت على كتف سلمان الفارسي وقال بأن المعنى بالآخرين في الآية هم قوم من العجم من بلاد فارس.

وهذا الكلام - في الحقيقة - تنبؤ بالخدمات الكبيرة التي قدمها المسلمون الإيرانيون إلى الإسلام.

والآية الأخيرة من الآيات الأربع الماضية، ورد الحديث فيها عن أناس يزعمون أنهم مسلمون، ويشاركون في ميادين الجهاد، ويطبقون أحكام الإسلام، دون أن يكون لهم هدف إلهي، بل يهدفون لنيل مكاسب مادية مثل غنائم الحرب فتنبه الآية إلى أن الذين يطلبون الأجر الدنيوي يتوهمون في طلبهم هذا، لأن الله عنده ثواب الدنيا والآخرة معاً فمن كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة.

فلماذا لا يطلب - ولا يرجوا - هؤلاء، الثوابين معاً؟! والله يعلم بنوايا الجميع، ويسمع كل صوت، ويرى كل مشهد، ويعرف أعمال المنافقين وأشباههم، وكان الله سمياً بصيراً.

وتكرر هذه الآية الأخيرة حقيقة أن الإسلام لا ينظر فقط إلى الجوانب المعنوية والأخروية، بل أن ينشد لأتباعه السعادتين المادية والمعنوية معاً.

* * *

الآية

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلّٰهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللّٰهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىَٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلَوُوا أَوْ تَعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٧٥﴾

التفسير

العدالة الاجتماعية:

على غرار الأحكام التي وردت في الآيات السابقة حول تطبيق العدالة مع الأيتام والزوجات تذكر الآية الأخيرة - موضوع البحث - مبدأ أساسياً وقانوناً كلياً في مجال تطبيق العدالة في جميع الشؤون والموارد بدون استثناء، وتأمير جميع المؤمنين بإقامة العدالة «يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط...». ويجب الإلتباه إلى أن كلمة «قوامين» هي جمع لكلمة «قوام» وهي صيغة مبالغة من «قائم» وتعني «كثير القيام» أي أن على المؤمنين أن يقوموا بالعدل في كل الأحوال والأعمال وفي كل العصور والدهور، لكي يصبح العدل جزءاً من طبيعتهم وأخلاقهم، ويصبح الإنحراف عن العدل مخالفاً ومناقضاً لطبيعتهم وروحهم.

والإتيان بكلمة «القيام» في هذا المكان، يحتمل أن يكون بسبب أن الإنسان حين يريد القيام بأي عمل، يجب عليه أن يقوم على رجله بصورة عامة ويتابع ذلك العمل، وعلى هذا الأساس فإن التعبير هنا بالقيام كناية عن العزم والإرادة الراسخة والإجراء لإنجاز العمل، حتى لو كان هذا العمل من باب حكم القاضي الذي لا يحتاج إلى القيام لدى ممارسة عمله.

ويمكن أن يكون التعبير بالقيام جاء لسبب آخر، وهو أن كلمة «القائم» تطلق عادة على شيء يقف بصورة عمودية على الأرض دون أن يكون فيه انحراف إلى اليمين أو الشمال، وعلى هذا فإن المعنى المراد منه في الآية يكون تأكيداً لضرورة تحقيق العدالة دون أقل انحراف إلى أي جهة كانت.

ولتأكيد الموضوع جاءت الآية بكلمة «الشهادة» فشددت على ضرورة التغلبي عن كل الملاحظات والمعاملات أثناء أداء الشهادة، وأن يكون هدف الشهادة بالحق هو كسب مرضاة الله فقط، حتى لو أصبحت النتيجة في ضرر الشاهد أو أبيه أو أمه أو أقاربه «شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين...».

وقد شاع هذا الأمر في كل المجتمعات، وبالأخص المجتمعات الجاهلية، حيث كانت الشهادة تقاس بمقدار الحبِّ والكراهية ونوع القرابة بين الأشخاص والشاهد، دون أن يكون للحق والعدل أثر فيما يفعلون.

وقد نقل عن ابن عباس حديث يفيد أن المسلمين الجدد كانوا بعد وصولهم إلى المدينة يتجنبون الإدلاء بالشهادة لإعتبارات القرابة والنسب، إذا كانت الشهادة تؤدي إلى الأضرار بمصالح أقربائهم، فنزلت الآية المذكورة محذرة لمثل هؤلاء^(١).

ولكن - وكما تشير الآية الكريمة - فإن هذا العمل لا يتناسب وروح الإيمان،

لأنَّ المؤمن الحقيقي هو ذلك الشخص الذي لا يعير اهتماماً للإعتبارات في مجال الحق والعدل، ويتغاضى عن مصلحته ومصلحة أقاربه من أجل تطبيق الحق والعدل.

وتفيد هذه الآية أنَّ للأقارب الحق في الإدلاء بالشهادة لصالح - أو ضد - بعضهما البعض، شرط الحفاظ على مبدأ العدالة (إلا إذا كانت القرائن تشير إلى وجود انحياز أو تعصب في الموضوع).

وتشير الآية بعد ذلك عوامل الانحراف عن مبدأ العدالة، فتبيِّن أنَّ ثروة الأغنياء يجب أن لا تحول دون الإدلاء بالشهادة العادلة، كما أنَّ العواطف والمشاعر التي تتحرك لدى الإنسان من أجل الفقراء، يجب أن تكون سبباً في الإمتناع عن الادلاء بالشهادة العادلة حتى ولو كانت نيتها لغير صالح الفقراء، لأنَّ الله أعلم من غيره بحال هؤلاء الذين تكون نتيجة الشهادة العادلة ضدهم، فلا يستطيع صاحب الجاه والسلطان أن يضرب شاهد عادل يتمتع بحماية الله، ولا الفقير سيبيبت جوعاً بسبب تحقيق العدالة، تقول الآية في هذا المجال: «إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما».

وللتأكيد أكثر تحكم الآية بتجنُّب أتباع الهوى، لكي لا يبقى مانع أمام سير العدالة وتحقيقها إذ تقول الآية: «فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا»^(١).

ويتَّضح من هذه الجملة - بجلاء - أن مصدر الظلم والجور كلُّه، هو اتِّباع الهوى، فالمجتمع الذي لا تسوده الأهواء يكون بمأمن من الظلم والجور.

ولأهمية موضوع تحقيق العدالة، يؤكِّد القرآن هذا الحكم مرَّة أخرى، فيبيِّن أنَّ الله ناظر وعالم بأعمال العباد - فهو يشهد ويرى كل من يحاول منع صاحب

١ - يمكن أن تكون عبارة «تعدلوا» اشتقاقاً إما من مادة «العدالة» أو من مادة «العدل» فإن كانت من مادة «العدالة» يكون معنى الجملة القرآنية هكذا: فلا تتبعوا الهوى لأن تعدلوا أي لكي تستطيعوا تحقيق العدل، وأما إذا كانت من مادة «العدل» يكون المعنى هكذا: فلا تتبعوا الهوى في أن تعدلوا أي لا تتبعوا الهوى في سبيل الانحراف عن الحق.

الحق عن حقه، أو تحريف الحق، أو الاعراض عن الحق بعد وضوحه، فتقول الآية: ﴿وإن تلّووا﴾^(١) أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً.

وجملة «أن تلّووا» تشير - في الواقع - إلى تحريف الحق وتغييره، بينما تشير جملة «تعرضوا» إلى الإمتناع عن الحكم بالحق، وهذا هو ذات الشيء المنقول عن الإمام الباقر عليه السلام^(٢).

والطريف أن الآية اختتمت بكلمة «خبيراً» ولم تختتم بكلمة «عليماً» لأن كلمة «خبير» تطلق بحسب العادة على من يكون مطلعاً على جزئيات ودقائق موضوع معين، وفي هذا دلالة على أن الله يعلم حتى أدنى انحراف يقوم به الإنسان عن مسير الحق والعدل بأي عذر أو وسيلة كان، وهو يعلم كل موطن يتعمد فيه إظهار الباطل حقاً، ويجازي على هذا العمل.

وتثبت الآية اهتمام الإسلام المفرط بقضية العدالة الاجتماعية، وإن مواطن التأكيد المتكررة في هذه الآية تبين مدى هذا الإهتمام الذي يوليه الإسلام لمثل هذه القضية الإنسانية الاجتماعية الحساسة، ومما يؤسف له كثيراً أن نرى الفارق الكبير بين عمل المسلمين وهذا الحكم الإسلامي السامي، وإن هذا هو سرّ تخلف المسلمين.

* * *

١- إن عبارة «تلّووا» مشتقة من المصدر «لي» على وزن «طي» وتعني المنع والإعاقة وقد وردت في الأصل بمعنى اللي والبرم.

٢- تفسير التبيان. الجزء الخامس. ص ٣٥٤.

الآية

يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي
نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ
بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا
بَعِيدًا ﴿١٧٦﴾

سبب النزول

نقل عن ابن عباس أنّ هذه الآية نزلت في شأن جمع من كبار شخصيات أهل الكتاب - مثل عبد الله بن سلام وأسد بن كعب وأخيه أسيد بن كعب ونفر آخر من هؤلاء - والسبب هو أنهم قدموا منذ البداية على الرسول ﷺ وقالوا له: إنهم قد آمنوا به وبكتابه السماوي وبموسى والتوراة والعزير، ولم يؤمنوا ببقية الأنبياء، فنزلت هذه الآية وأعلمتهم ضرورة الإيمان بجميع الأنبياء والكتب السماوية^(١).

التفسير

يتبين من سبب النزول أنّ الكلام في الآية موجه إلى جمع من مؤمني أهل

الكتاب الذين قبلوا الإسلام، ولكنهم لعصبيات خاصة أبوا أن يؤمنوا بما جاء قبل الإسلام من أنبياء وكتب سماوية غير الدين الذي كانوا عليه، فجاءت الآية توصيهم بضرورة الإيمان والإقرار والاعتراف بجميع الأنبياء والمرسلين والكتب السماوية، لأن هؤلاء جميعاً يسرون نحو هدف واحد، وهم مبعوثون من مبدأ واحد (علماً بأن لكل واحد منهم مرتبة خاصة به، فكل واحد منهم جاء ليكمل ما أتى به النبي أو الرسول الذي سبقه من شريعة ودين).

ولذلك فلا معنى لقبول البعض وإنكار البعض الآخر من هؤلاء الأنبياء والرسل، فالحقيقة الواحدة لا يمكن التفريق بين أجزائها، وأن العصبيات ليس بإمكانها الوقوف أمام الحقائق، لذلك تقول الآية الكريمة: ﴿يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل...﴾.

وبعض النظر عن سبب النزول المذكور، فإننا لدى تفسيرنا لهذه الآية نحتمل أن يكون الخطاب موجهاً فيها لعامة المؤمنين، أولئك الذين اعتنقوا الإسلام إلا أنه لم يتغلغل بعد في أعماق قلوبهم، ولهذا السبب يطلب منهم أن يكونوا مؤمنين من أعماقهم.

كما يوجد احتمال آخر، وهو أن الكلام في هذه الآية موجه لجميع المؤمنين الذين آمنوا بصورة إجمالية بالله والأنبياء، إلا أنهم ما زالوا لم يتعرفوا على جزئيات وتفاصيل العقائد الإسلامية.

ومن هذا المنطلق يبين القرآن أن المؤمنين الحقيقيين يجب أن يعتقدوا بجميع الأنبياء والكتب السماوية السابقة وملائكة الله، لأن عدم الإيمان بالمذكورين يعطي مفهوم إنكار حكمة الله، فهل يمكن أن يترك الله الحكيم الملل السابقة بدون قائد أو زعيم يرشدهم في حياتهم؟! وهل أن الملائكة المعنيين بالآية هم ملائكة الوحي - فقط - الذين يعد

الإيمان بهم جزءاً لا يتجزأ من الإيمان الضروري بالأنبياء والكتب السماوية، أو أنهم جميع الملائكة؟ فكما أن بعض الملائكة مكلفون بأمر الوحي والتشريع، يلتزم جمع آخر منهم بتدبير وإرادة عالم الكون والخليقة؛ وإن الإيمان بهم في الحقيقة جزء من الإيمان بالله سبحانه وتعالى وقد بيّنت الآية - في آخرها - مصير الذين يجهلون هذه الحقائق، حيث قالت: «ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر فقد ضلّ ضلالاً بعيداً».

وفي هذه الآية اعتبر الإيمان واجباً وضرورياً بخمسة مبادئ، فبالإضافة إلى ضرورة الإيمان بالمبدأ والمعاد، فإن الإيمان لازم وضروري بالنسبة إلى الكتب السماوية والأنبياء والملائكة.

إنّ عبارة «ضلال بعيد» عبارة دقيقة، وتعني أنّ الذين لا يؤمنون بالمبادئ الخمسة المارة الذكر، قد انجرفوا خارج الصراط أو الطريق المبدئي، وأنّ عودتهم إلى هذا الطريق لا تتحقق بسهولة.

الآيات

إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَزَادُوا كُفْرًا لَّمْ
يَكُنْ اللَّهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴿١٣٧﴾ بَشَرِ الْمُنْفِقِينَ بِأَنَّ
لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ
الْمُؤْمِنِينَ يُبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾

التفسير

مصير المنافقين المعاندين:

تماشياً مع البحث الذي ورد في الآية السابقة والذي تناول وضع الكفار
وضلالهم البعيد، تشير هذه الآيات الأخيرة إلى وضع مجموعة من الكفار الذين
يتلونون في كل يوم تلون الحرياء، فهم في يوم إلى جانب المؤمنين، وفي يوم
آخر إلى جانب الكفار، ثم إلى جانب المؤمنين، وفي النهاية إلى جانب الكفار
المعاندين، حتى يموتوا على هذه الحالة!

فالآية الأولى من الآيات الثلاثة الأخيرة تتحدث عن مصير أفراد كهؤلاء،
فتؤكد بأن الله لن يغفر لهم أبداً، ولن يرشدهم إلى طريق الصواب: «إِنَّ الَّذِينَ
آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَزَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنْ اللَّهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا
لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا».

إِنَّ هذا السلوك الحربائي في التلون المتوالي، إمّا أن يكون نابعاً من الجهل وعدم إدراك الأسس الإسلامية، وإمّا أن يكون خطّة نقّذها المنافقون والكفار المتطرفون من أهل الكتاب لزعة إيمان المسلمين الحقيقيين، وقد سبق شرح هذا الموضوع في الآية (٧٢) من سورة آل عمران.

ولا تدل الآية - موضوع البحث - على عدم قبول توبة أمثال هؤلاء، ولكنها تتناول أفراداً يموتون وهم في كفر شديد، فإنّ هؤلاء - نتيجة لأعمالهم - لا يستحقون العفو والهداية إلا إذا غيروا أسلوبهم ذلك.

ثمّ تؤكد الآية التالية نوع العذاب الذي يستحقه هؤلاء فتقول: «بشر المنافقين بأنّ لهم عذاباً أليماً».

واستخدام عبارة (بشر) في الآية إنّما جاء من باب التهكم والإستهزاء بالأفكار الخاوية الواهية التي يحملها هؤلاء المنافقون، أو أنّ العبارة مشتقة من المصدر «بشر» بمعنى الوجه، وفي هذه الحالة تحتل معاني واسعة فتشمل كل خبر يؤثر في سحنة الإنسان، سواء كان الخبر مفرحاً أو محزنناً.

وقد أشارت الآية الأخيرة إلى المنافقين بأنهم يتخذون الكفار اصداقاً وأحباء لهم بدلاً من المؤمنين، بقولها: «الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين».

ثمّ يأتي التساؤل في الآية عن هدف هؤلاء المنافقين من صحبة الكافرين، وهل أنّهم يريدون حقاً أن يكتسبوا الشرف والفخر عبر هذه الصحبة؟ تقول الآية: «أيبغون عندهم العزة» بينما العزة والشرف كلها لله «فإنّ العزة لله جميعاً» لأنّها تتبع من العلم والقدرة، وأن الكفار لا يمتلكون من القوّة والعلم شيئاً، ولذلك فإنّ علمهم لا شيء أيضاً، ولا يستطيعون إنجاز شيء لكي يصبحوا مصدراً للعزة والشرف.

إنّ هذه الآية - في الحقيقة - تحذير للمسلمين بأن لا يلتمسوا الفخر والعزة

في شؤونهم الإقتصادية والسياسية والإجتماعية والشقافية عن طريق إنشاء علاقات الود والصدقة مع أعداء الإسلام، بل إن عليهم أن يعتمدوا في ذلك على الذات الإلهية الطاهرة التي هي مصدر للعزة والشرف كله، وأعداء الإسلام لا عزّة لديهم لكي يهبوها لأحد، وحتى لو امتلكوها لما أمكن الركون إليهم والإعتماد عليهم، لأنهم متى ما اقتضت مصالحهم الشخصية تخلوا عن أقرب حلفائهم وركضوا وراء مصالحهم، وكأنهم لم يكونوا ليعرفوا هؤلاء الحلفاء مسبقاً، والتاريخ المعاصر خير دليل على هذا السلوك النفعي الإنتهازي.



الآية

وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا
وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ
إِنَّكُمْ إِذَا مَثَلْتُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ
جَمِيعاً ﴿٦٨﴾

سبب النزول

نقل عن ابن عباس أن نقرأ من المنافقين كانوا يحضرون اجتماعات لعلماء
اليهود، حيث كانوا يستهزئون بآيات القرآن في تلك الاجتماعات، فنزلت هذه
الآية وأوضحت النهاية المشؤومة لهذه اللقاءات.

التفسير

التهمي عن المشاركة في مجالس يعصى الله فيها:

لقد ورد في الآية (٦٨) من سورة الانعام أمر صريح إلى النبي ﷺ في أن
يعرض عن أناس يستهزئون بآيات القرآن ويتكلمون بما لا يليق، وطبيعي أن هذا
الحكم لا ينحصر بالنبي ﷺ، وحده بل يعتبر حكماً وأمرأ عاماً يجب على جميع
المسلمين أتباعه، وقد جاء هذا الحكم على شكل خطاب موجه إلى النبي ﷺ،

وفلسفته جليلة واضحة، لأنه يكون بمثابة كفاح سلبي ضد مثل تلك الأعمال. والآية هذه تكرر الحكم المذكور مرّة أخرى، وتحذر المسلمين مذكرة إياهم بحكم سابق في القرآن نهى فيه المسلمون عن المشاركة في مجالس يستهزأ فيها ويكفر بالقرآن الكريم، حتى يكفّ أهل هذه المجالس عن الإستهزاء ويدخلوا في حديث آخر، تقول الآية: «وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره».

بعد ذلك تبين الآية لنا نتيجة هذا العمل، وتؤكد أن من يشارك في مجالس الإستهزاء بالقرآن فهو مثل بقية المشاركين وسيكون مصيره نفس مصير أولئك المستهزئين، تقول الآية: «إِنَّكُمْ إِذَا مَثَلْتُمْ».

ثم تكرر الآية التأكيد على أنّ المشاركة في المجالس المذكورة تدل على الروحية النفاقية التي يحملها المشاركون، وإنّ الله يجمع المنافقين والكافرين في جهنم حيث العذاب الأليم، تقول الآية: «إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا».

إِنَّ الْآيَةَ تَخْبِرُنَا عَنْ عِدَّةِ أُمُورٍ:

١- إنّ المشاركة في مجالس المعصية تكون بمثابة المشاركة في ارتكاب المعصية، حتى لو بقي المشارك ساكناً أو ساكناً ولم يشارك في الإستهزاء بنفسه، لأنّ السكوت في مثل هذه الأحوال دليلاً على رضا صاحبه بالذنب المرتكب.

٢- لو تعذر النهي عن المنكر بالشكل الإيجابي له، فلا بدّ أن يتحقق النهي ولو بالصورة السلبية، مثل أن يبتعد الإنسان عن مجالس المعصية ويتجنب الحضور فيها.

٣- إنّ الذين يشجعون أهل المعاصي بسكوتهم وحضورهم في مجالس المعصية، إنّما يجازون ويعاقبون بمثل عقاب العاصين أنفسهم.

٤- لا ضير من مجالسة الكفار إن لم يدخلوا في حديث فيه استهزاء وكفر بالآيات الإلهية ولم تكن هذه المجالسة تحمل خطراً آخر، وبدل على إباحة المشاركة في مجالس الكفار التي لا يعصون فيها الله قوله تعالى في الآية: ﴿حتى يخوضوا في حديث غيره﴾.

٥- إن المجاملة والمداهنة مع العاصين المذنبين، إنما تدل على وجود روح النفاق لدى الشخص المجامل، وذلك لأن المسلم الحقيقي الواقعي لا يمكنه أن يشارك في مجلس يعصى فيه الله ويستهزأ بآياته الكريمة وأحكامه السامية، دون أن يبدي اعتراضاً على هذه المعاصي، أو - على الأقل - أن عدم رضاه عليها بترك هذا المجلس.



الآية

الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فِتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ
مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ
وَمَتَّبِعْكُمْ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَسَنَ
يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿٤٧﴾

التفسير

صفات المنافقين:

تبيّن هذه الآية - وآيات أخرى تالية - قسماً آخر من صفات المنافقين وأفكارهم المضطربة، فتؤكد أنّ المنافقين يسعون دائماً لإستغلال أي حدث لصالحهم، فلو انتصر المسلمون حاول المنافقون أن يحشروا أنفسهم بين صفوف المؤمنين، زاعمين بأنهم شاركوا المؤمنين في تحقيق النصر وأدعوا بأنهم قدموا دعماً مؤثراً للمؤمنين في هذا المجال، مطالبين بعد ذلك بمشاركة المؤمنين في الثمار المعنوية والمادية للنصر حيث تقول الآية في حقهم: ﴿الَّذِينَ يَسْتَرْبِصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فِتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ ...﴾.

وهؤلاء المنافقون يتقلبون على أعقابهم حين يكون النصر الظاهري من نصيب أعداء الإسلام فيتقربون إلى هؤلاء الأعداء، ويعلنون لهم الرضى والموافقة

بقولهم أنهم هم الذين شجعوهم على قتال المسلمين وعدم الإستسلام لهم، ويدعون بأنهم شركاء في النصر الذي حققه أعداء الإسلام تقول الآية: «وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ومنعكم من المؤمنين ...»^(١)

وعلى هذا المنوال تحاول هذه الفئة المناقفة أن تستغل الفرصة لدى إنتصار المسلمين ليكون لهم نصيب من هذا النصر وسهم من الغنائم، ولإظهار المنّة على المسلمين، وفي حالة إنكسار المسلمين تظهر هذه الفئة الرضى والفرح لدى الكفار، وتدفعهم إلى الإصرار على كفرهم وتتجسس لصالحهم، وتهيئ لهم أسباب الفوز المادي، فهم تارة رفاق الطريق مع الكفار، وتارة شركاؤهم في الجريمة، وهكذا يمضون حياتهم بالتلون والنفاق واللعب على الحبال المختلفة.

ولكن القرآن الكريم يوضح بعبارة واحدة مصير هؤلاء ونهايتهم السوداء، ويبيّن أنهم - لا محالة - سيقاؤون ذلك اليوم الذي تكشف فيه الحجب عن جرائمهم ويرفع النقاب عن وجوههم الكريهة، وعند ذلك - أي في ذلك اليوم، وهو يوم القيامة - سيحكم الله بينهم وهو أحكم الحاكمين، فتقول الآية في هذا المجال: «فالله يحكم بينكم يوم القيامة».

ولكي يطمئن القرآن المؤمنين الحقيقيين من خطر هؤلاء، تؤكد هذه الآية - في آخرها - بأن الله لن يجعل للكافرين مجالاً للإنتصار أو التسلط على المسلمين، وذلك حيث تقول الآية: «ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً».

وهنا يرد هذا السؤال، وهو: هل أن العبارة الأخيرة تفيد عدم إنتصار الكفار على المؤمنين من حيث المنطق، أو أنها تشمل عدم إنتصار الكفار من الناحية العسكرية أيضاً؟

ولما كانت كلمة «سبيل» نكرة جاءت في سياق النفي وتؤدي معنى عاماً،

١- إن عبارة «إستحوذ» مشتقة من «هوذ» وهي تعني هنا دفع أو ساق إلى القيام بأمر معين.

لذلك يفهم من الآية أن الكافرين بالإضافة إلى عدم إنتصارهم من حيث المنطق على المؤمنين، فهم لن ينتصروا ولن يتسلطوا على المؤمنين في أي من النواحي العسكرية والسياسية والثقافية والإقتصادية، بل ولا في أي مجال آخر.

وما نشاهده من إنتصار للكافرين على المسلمين في الميادين المختلفة، إنما هو بسبب أن المسلمين المغلوبين لم يكونوا ليمثلوا - في الحقيقة - المسلمين، المؤمنين الحقيقيين، بل هم مسلمون نسوا آدابهم وتقاليدهم الإيمانية، وتخلوا عن مسؤولياتهم وتكاليدهم وواجباتهم الدينية بصورة تامة، فلا كلام عن الإتحاد والتضامن والأخوة الإسلامية بينهم، ولا هم يقومون بواجب الجهاد بمعناه الحقيقي، كما لم يبادروا إلى إكتساب العلم الذي أوجبه الإسلام وجعله فريضة على كل مسلم ومسلمة ودعا إلى تحصيله وطلبه من يوم الولادة حتى ساعة الوفاة، حيث قال النبي ﷺ: «أطلب العلم من المهد إلى اللحد».

ولما أصبحوا هكذا فقد استحقوا أن يكونوا مغلوبين للكفار.

وقد استدل جمع من الفقهاء بهذه الآية على أن الكفار لا يمكن أن يتسلطوا على المسلمين المؤمنين من الناحية الحقوقية والحكمية، ونظراً للعمومية الملحوظة في الآية، لا يستبعد أن تشمل الآية هذا الأمر أيضاً.

ومما يلفت النظر في هذه الآية هو التعبير عن انتصار المؤمنين بكلمة «الفتح» بينما عبرت الآية عن انتصار الكفار بكلمة «النصيب» وهو إشارة إلى أن إنتصار الكفار إنما هو نصيب محدود وزائل، وأن الفتح والنصر النهائي هو للمؤمنين.

الآيتان

إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى
الصَّلَاةِ قَامُوا كُتَاةٍ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا
قَلِيلًا ﴿٧٢﴾ مُذَبِّبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ
وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿٧٣﴾

التفسير

لقد وردت في هذه الآية خمس صفات للمنافقين، في عبارة قصيرة، وهي:-
١- إن هؤلاء - لأجل تحقيق أهدافهم الدنيئة - يتوسلون بالخدعة والحيلة،
حتى أنهم يريدون على حسب ظنهم أن يخدعوا الله تعالى أيضاً، ولكنهم يقعون
في نفس الوقت ومن حيث لا يشعرون في حبال خدعتهم ومكرهم، إذ هم -
لأجل اكتساب ثروات مادية تافهة - يخسرون الثروات الكبيرة الكامنة في
وجودهم، تقول الآية في هذا المجال: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ
﴿٧٢﴾﴾.

ويستفاد التفسير المذكور أعلاه بالواو الحالية الواردة مع عبارة: ﴿وهو

خادعهم﴾.

هناك قصة مشهورة مفادها أن أحد الأكابر كان ينصح أهل الحرف من

مواطنيه، بأن ينتهبوا الكي لا يخدمهم المسافرون الغرباء، فقال أحدهم: كيف يمكن للغرباء البسطاء الذين لا يعرفون شيئاً عن وضع المدينة وأهلها، أن يخدموا أهل الحرف فيها نحن بمقدورنا خداع أولئك الغرباء، فأجابهم بأن قصده من الإخداع بالغرباء هو هذا المعنى، أي أن تتلوا من هؤلاء ثروة تافهة بالخداع، وتفقدوا بذلك ثروة الإيمان العظيمة!

٢ - إن المنافقين بعيدون عن رحمة الله، ولذلك فهم لا يتلذذون بعبادة الله والتقرب إليه، ويدل على ذلك أنهم حين يريدون أداء الصلاة يقومون إليها وهم كسالى خائرو القوى، تقول الآية في هذا الأمر: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى...﴾.

٣ - ولما كان المنافقون لا يؤمنون بالله وبوعوده، فهم حين يقومون بأداء عبادة معينة، إنما يفعلون ذلك رياءً ونفاقاً وليس من أجل مرضاة الله، تقول الآية: ﴿يُرَاؤُنَ النَّاسَ...﴾.

٤ - ولو نظقت ألسن هؤلاء المنافقين بشيء من ذكر الله، فإن هذا الذكر لا يتجاوز حدود الألسن، لأنه ليس من قلوبهم، ولا هو تابع من وعيهم ويقظتهم، وحتى لو حصل هذا الأمر فهو نادرٌ وقليل، تقول الآية: ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا...﴾.

٥ - إن المنافقين يعيشون في حيرة دائمة ودون أي هدف أو خطة لطريقة الحياة معينة، ولهذا فهم يعيشون حالة من التردد والتذبذب، فلا هم مع المؤمنين حقاً ولا هم يقفون إلى جانب الكفار ظاهراً، وفي هذا تقول الآية الكريمة: ﴿مُذَبِّبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ...﴾.

ويحسن هنا الالتفات إلى أن كلمة «مذبذب» اسم مفعول من الأصل «ذبذب» وهي تعني في الأصل صوتاً خاصاً يسمع لدى تحريك شيء معلق إثر تصادمه بأموج الهواء، وقد أطلقت كلمة «مذبذب» على الإنسان الحائر الذي يفترق إلى

الهدف أو إلى أي خطّة وطريقة للحياة.

هذا واحد من أدق التعابير التي أطلقها القرآن الكريم على المنافقين، كما هي إشارة إلى إمكانية معرفة المنافقين عن طريق هذا التذبذب الظاهر في حركتهم ونطقهم، كما يمكن أن يفهم من هذا التعبير أن المنافقين هم كشيء معلق يتحرك بدون أي هدف وليس لحركته أي اتجاه معين، بل يحركه الهواء من أي صوب كان اتجاهه ويأخذه معه إلى الجهة التي يتحرك فيها.

وتبين الآية في الختام مصير هؤلاء المنافقين، وتوضح أنهم أناس قد سلب الله عنهم حمايته نتيجة لأعمالهم وتركهم يسيئون في الطريق المنحرف الذي سلكوه بأنفسهم، فهم لن يهتدوا أبداً إلى طريق النجاة، لأن الله كتب عليهم التيه والضلالة عقاباً لهم على أعمالهم.

تقول الآية الكريمة في ذلك: «ومن يضل الله فلن تجد له سيلاً»، (وقد شرحنا معنى الإضلال، وبيّنا كيف أنه لا يتنافى مع حرية الإرادة والانتخاب، وذلك في الجزء الأول من هذا التفسير في هامش الآية (٢٦) من سورة البقرة).



الآيات

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ
الْمُؤْمِنِينَ أترِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا لِلّٰهِ عَلَيْكُمْ سُلْطٰنًا مُّبِينًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ
الْمُنٰفِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَهُم نَصِيرًا ﴿٦٥﴾
إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللّٰهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلّٰهِ
فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللّٰهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا
عَظِيمًا ﴿٦٦﴾

التفسير

لقد أشارت الآيات السابقة إلى قسم من صفات المنافقين، والآيات التالية -
هذه - تحذر المؤمنين وتأمرهم أن لا يعتمدوا على المنافقين والكفار بدل
الإعتماد على المؤمنين، وأن لا يطلبوا النصره منهم ﴿يا أيها الذين آمنوا لا
تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين﴾.

وتبين أن الإعتماد على الكفار يعتبر جريمة وخرقاً صارخاً للقانون الإلهي
وشركاً بالله، ونظراً لقانون العدل الإلهي فإن هذه الجريمة تستحق عقاباً شديداً،
حيث تؤكد الآية: ﴿أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطاناً مبيناً﴾^(١).

١- إن كلمة «سلطان» مشتقة من مادة أو مصدر «سلطة» على وزن «مقالة» وهي تعني القوة والقدرة على التغلب

وفي الآية الثانية من الآيات الأخيرة بيان لأحوال المنافقين، الذين اتخذهم بعض الغافلين من المؤمنين أصدقاء لأنفسهم، حيث توضح الآية أن المنافقين يستقرون في القيامة في أحط وأسفل دركة من دركات جهنم، ولن يستطيع أحد أن ينصرهم أو ينقذهم من هذا المصير أبداً، تقول الآية: «إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرِكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَهُمْ نصيراً»^(١).

ويتبين من هذه الآية أن النفاق في نظر الإسلام أشد أنواع الكفر، وإن المنافقين أبعد الخلق من الله، ولهذا السبب فإن مستقرهم ومكانهم النهائي في أحط نقطة من نقاط جهنم، وهم يستحقون هذا العقاب، لأن ما يلحق البشرية من ويلات من جانب هؤلاء هو أشد خطراً من كل الأخطار، فإن هؤلاء بسبب احتمائهم بظاهر الإيمان يحملون بصورة غادرة وبمطلق الحرية على المؤمنين العزل ويطنونهم من الخلف بخناجرهم المسمومة، وبديهي أن يكون حال أعداء - كهؤلاء - يظهرون بلباس الأصدقاء، أشد خطراً من الأعداء المعروفين الذين يعلنون عداوتهم صراحة، وفي الواقع فإن النفاق هو أسلوب وسلوك كل فرد ابتر ومنحط ومشبوه وجبان وملوث بكل الخبائث ومن لا شخصية له.

وقد أوضحت الآية الثالثة من الآيات الأخيرة، أن المجال مفتوح حتى لأكثر الناس تلوئاً للتوبة من أعمالهم وإصلاح شأنهم، والسعي للتعويض بالخير عن ماضيهم المشين، والعودة إلى رحمة الله والتمسك بحبله والإخلاص لله بالإيمان به تقول الآية: «إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَاصْلَحُوا وَاعتصموا بالله واخلصوا دينهم لله».

١- على الآخرين، وفي كلمة «سلطان» معنى لاسم المصدر حيث تطلق على كل أنواع التسلط، ولهذا السبب تطلق كلمة «سلطان» أيضاً على «السبب» الذي يسلط الإنسان على الآخرين من أمثاله، كما تطلق على أصحاب القدرة والنفوذ، ولكنها في الآية المذكورة أعلاه إنما تعني الحجة والدليل.

١- إن كلمة «درله» تعني أحط نقطة في أعماق البحر. ويسمى آخر جبل متصل بالجبال التي توصل الإنسان إلى قعر البحر، بـ «الدرله» أيضاً، ويظهر أن هذه المعاني مأخوذة من معنى «درك الشيء» أي الوصول إليه - كما تسمى السلاسل التي توصل الإنسان إلى موضع سفلى كالسرداب والبئر بـ «الدرله» وهذه العبارة تقابل السلاسل التي يتسلق بها الإنسان إلى أعلى حيث تسمى بالدرجات.

فالتائبون هؤلاء سيكونون أهلاً للنجاة في النهاية ويستحقون صحبة المؤمنين، تقول الآية: «وأولئك مع المؤمنين ...». وإن الله سيهب ثواباً وأجرأ عظيماً لكل المؤمنين «وسوف يؤت الله المؤمنين أجرأ عظيماً».

ومتأ يلفت النظر أن الآية تبين أن هؤلاء التائبين مع المؤمنين، وذلك للتدليل على أن منزلة المؤمنين الثابتين أكبر وأعظم من منزلة هؤلاء، فالمؤمنون الراسخون في إيمانهم هم الأصل، وهؤلاء هم الفروع، وما يظهر عليهم من نور وشفاء إنما هو بسبب وجودهم في ظل المؤمنين الراسخين. وهناك أمر ثان يجب الإلتباه إليه في هذه الآية، وهو أنها بيّنت مسير المنافقين بصورة واضحة وصریحة، إذ عينت لهم أحط نقطة من الجحيم مكاناً ومستقراً، بينما شخصت للمؤمنين الأجر والثواب العظيم الذي لا حد له ولا حصر، بل هو منوط بعظمة الله ولطفه جلّت عظمتة.



الآية

مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا
عَلِيمًا ﴿١٧﴾

التفسير

العقاب الإلهي ليس دافعه الانتقام:

لقد أظهرت وبيّنت الآيات السابقة صوراً من عقاب الكافرين والمنافقين، والآية الأخيرة - التي هي موضوع بحثنا الآن - تشير إلى حقيقة ثابتة وهي أنّ العقاب الإلهي الموجه للبشر العاصين ليس بدافع الانتقام ولا هو بدافع التظاهر بالقوة، كما أنه ليس تعويضاً عن الخسائر الناجمة عن تلك المعاصي، فهذه الأمور إنّما تحصل ممن في طبيعته النقص والحاجة، والله سبحانه وتعالى منزّه من كل نقص ولا يحتاج أبداً إلى شيء.

إذن فالعقاب الذي يلحق الإنسان لما يرتكبه من معاصي، إنّما هو انعكاس للنتائج السيئة التي ترتبت على تلك المعاصي - سواء كانت فعلية أو فكرية - ولذلك يقول الله تعالى عزّ من قائل في هذه الآية: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ﴾.

وبالنظر إلى أنّ حقيقة الشكر هي أن يستغل الإنسان النعم التي وهبها الله له

في الجهات المخصصة لها في الطبيعة والخلق، يتضح لنا أن القصد من الآية إنما هو: إن من يؤمن ويعمل الخير ويستغل الهبات الإلهية في المجالات التي خصصت لها من حيث الخلق - دون إساءة هذا الإستغلال - فلا شك أن هذا الإنسان المؤمن لا يصيبه أي عقاب من الله، ولنا تأكيد هذا الأمر تضيف الآية مبيّنة أن الله عالم بأعمال ونوايا عباده، وهو يشكر ويشيب كل من يفعل الخير من العباد لوجه الله. فتقول الآية: «وكان الله شاكراً عليماً».

وقد قدمت هذه الآية مسألة الشكر على الإيمان لأجل بيان هذه الحقيقة، وهي أن الإنسان ما لم يدرك نعم الله وهباته العظيمة ويشكره على هذه النعم فلن يستطيع التوصل إلى معرفة الله والإيمان به، لأن أنعمه سبحانه وتعالى إنما هي وسائل لمعرفته.

وقد ورد في كتب العقيدة الإسلامية في بحث «وجوب معرفة الله» عن جمع من الباحثين أنهم استدلوا على معرفة الله بوجوب شكر النعم وجعلوا من الوجوب الفطري لشكر المنعم دليلاً على لزوم معرفته (فدق).



الآيتان

لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوِّءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مِنْ ظُلْمٍ وَكَانَ اللَّهُ
سَمِيعاً عَلِيماً ﴿٧٨﴾ إِنْ تُبَدُّوا خَيْرًا أَوْ تُخَفَّوْهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ
اللَّهَ كَانَ عَفْوَاً قَدِيرًا ﴿٧٩﴾

التفسير

في هذه الآية إشارتان إلى التكاليف الأخلاقية الإسلامية:
الأولى: تبين أن الله لا يحب التجاهر بالكلام البذيء، ولا يرضى بما يصدر
من كلام عن عيوب الناس وفضائح أعمالهم، فتقول الآية: «لا يحب الله الجهر
بالسوء من القول...».

إن عدم الرضى من نشر فضائح أعمال الناس، نابع من حقيقة أن الله هو ستار
العيوب، فلا يجب أن يقوم عباده بكشف سيئات الآخرين من أمثالهم أو الإساءة
إلى سمعتهم، ومما لا يخفى على أحد هو أن لكل إنسان نقاط ضعف خفية، ولو
انكشفت هذه العيوب لساد المجتمع جو من سوء الظن بين أفراد، فيصعب عندئذ
قيام التعاون بين هؤلاء الأفراد، لذلك منع الإسلام وحرّم التحدث عن نقائص أو
فضائح أعمال الآخرين دون وجود هدف سليم، لتبقى الأواصر الاجتماعية قوية
مستحكمة، ورعاية للجوانب الإنسانية الأخرى في هذا المجال.

وتجدر الإشارة إلى أن كلمة «سوء» تشمل كل أنواع القبيح والفضيحة، والمقصود من عبارة «الجهر ... من القول» هو كل حالة من الكشف والفضح اللفظي، سواء كان بصورة شكوى، أو على شكل حكاية أو لعن أو ذم أو غيبة. وقد أستدل بهذه الآية - أيضاً على تحريم الغيبة، إلا أن مفهومها لا ينحصر بهذه الصفة الأخيرة، بل يشمل كل أنواع الكلام البذيء والمذموم.

إلا أن الآية الكريمة لم تحرم «القول بالسوء» تحريماً مطلقاً، فقد استثنت حالة يمكن فيها أن يصار إلى الكشف والفضح، وهذه الحالة هي إذا وقع الإنسان مظلوماً حين قالت الآية: «إلا من ظلم» وبهذا الدليل يستطيع المظلوم - في مقام الدفاع عن نفسه - أن يكشف فضائح الظالم، سواء عن طريق الشكوى أو فضح مساوئ الظالم أو توجيه النقد له، أو استغابته، ولا يسكت على الظلم حتى استعادة حقوقه من الظالم.

وحقيقة هذا الإستثناء هي أن الله أراد به أن يسلب من الظالمين فرصة إساءة استغلال حكم المنع والتحريم، ولكي لا يكون هذا الحكم سبباً في سكوت المظلوم عن المطالبة بحقه من الظالم.

واضح من الآية بأن عملية الكشف والفضح يجب أن تنحصر في إطار بيان مساوئ الظالم لدى الدفاع عن المظلومين أو لدى دفاع المظلوم عن نفسه.

ولكي تسد الآية الطريق على كل انتهازي كاذب يريد إساءة استغلال هذا الحكم بدعوى وقوع الظلم عليه أكدت على أن الله يراقب أعمال البشر ويعلم ويسمع بكل ما يصدر عنهم من أفعال حيث تقول الآية: «وكان الله سميعاً عليماً». وفي الآية التالية يشير القرآن الكريم إلى النقطة المواجهة لهذا الحكم، حيث يبيح التحدث عن محاسن الأفراد أو كتمانها (على عكس المساوئ التي يجب أن تكتُم إلا في حالة استثنائية) كما تبيح - أو بالأحرى تحث - الفرد على إصدار العفو على من ارتكب السوء بحقه، لأن العفو عند المقدرة من صفات الله العزيز

القدير الذي يعفو عن عباده مع إمتلاكه القدرة على الإنتقام بأي صورة شاء، فتقول الآية في هذا المجال: ﴿إِن تَبَدُّوا خَيْرًا أَوْ تَخَفَوْهُ أَوْ تَعَفَوْا عَنْ سُوءِ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفْوًا قَدِيرًا﴾.

العفو عن المعتدي وأثره على نزع العداوة:

سؤال يطرأ هنا على الذهن وهو: ألا يعتبر العفو عن الظالم المعتدي تأييداً لظلمه وتشجيعاً لنزعة العداوة لديه؟ ألا يؤدي العفو إلى ظهور حالة سلبية من اللامبالاة لدى المظلومين.

والجواب هو: أن العفو لا صلة له بمسألة تحقيق العدل ومكافحة الظالم، والدليل على ذلك ما تروّده الأحكام الإسلامية من نهي عن ارتكاب الظلم وأمر بعدم الخضوع له، كما في الآية ﴿لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾^(١) وقول أمير المؤمنين علي عليه السلام «كونا للظالم خصماً وللمظلوم عوناً»^(٢) وقوله تعالى: ﴿فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾^(٣).

كما نقرأ من جانب آخر الأمر بالعفو والصفح كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعَفَوْا أَقْرَبَ لِلتَّقْوَى﴾^(٤) وقوله: ﴿وَلِيَعْفُوا وَلِيَصْفَحُوا أَلَا تَحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾^(٥) من الممكن أن يتبادر إلى ذهن بعض البسطاء أن هناك تناقضاً بين هذين الحكمين، ولدى الإمعان فيما ورد في المصادر الإسلامية في هذا المجال، يتضح أن العفو والصفح يجب أن يكون في موضع بحيث لا يساء استغلاله، وإن الدعوة إلى مكافحة الظلم وقمع الظالم يكون له مجال آخر.

١- البقرة: ١٠١.

٢- نهج البلاغة، الوصية رقم ٤٨.

٣- الحجرات: ٩.

٤- البقرة: ٢٣٧.

٥- انور: ٢٢.

ويجدد توضيح أن العفو والصفح يكونان لدى تملك القدرة وعند الانتصار على العدو وهزيمته النهائية، أي في حال لا يحتمل فيها حصول أي خطر جديد من جانب العدو، ويكون العفو والصفح عنه سبباً لإصلاحه واستقامته ودفعه إلى إعادة النظر في سلوكه، والتاريخ الإسلامي فيه أمثلة كثيرة في هذا المجال، والحديث المشهور القائل «إذا قدرت على عدوك فاجعل العفو عنه شكراً للقدرة عليه»^(١) خير دليل على هذا القول.

أما في حالة وجود خطر من جانب العدو، واحتمال أن يؤدي العفو عنه إلى تجريه وتماديه أكثر في عدوانه، أو إذا اعتبر العفو استسلاماً للظلم وخضوعاً أمامه ورضي به، فإن الإسلام لا يجيز مطلقاً مثل هذا العفو، وكما أن أئمة الإسلام لم ينتخبوا طريق العفو في مثل هذه المجالات.



الآيات

إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ
وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ
يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكٰفِرُونَ حَقًّا
وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ
وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ
أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾

التفسير

لا تمييز بين الأنبياء:

تحدثت الآيات الأخيرة عن مواقف طائفة من الكافرين، ومواقف أخرى لطائفة من المؤمنين، كما ذكرت هذه الآيات نهاية كل من الطائفتين، وهي بهذا تأتي مكملته للآيات السابقة التي تحدثت بشأن المنافقين.

وتشير الآية الأولى إلى طائفة فرقوا بين الأنبياء، فاعتبروا بعضهم على حق والبعض الآخر على باطل، فتؤكد أن هذا النفر من الناس كفار حقيقيون.

والواقع أن هذه الآية توضح موقف اليهود والنصارى، فاليهود كانوا يرفضون الإيمان بالتبني عيسى نبي النصارى، واليهود والنصارى معاً كانوا يرفضون

الإذعان لنبوة نبي الإسلام ﷺ في حين أن كتابهم السماويين قد أثبتنا نبوة هؤلاء الأنبياء.

وهذا التمييز بين الحقائق الثابتة وقبول بعضها ورفض البعض الآخر، سببه أن هؤلاء كانوا يتبعون أهواءهم ونزواتهم ويسرون وراء عصبيةاتهم الجاهلية، وينبع أحياناً من حسد هؤلاء ونظرتهم الضيقة.

وهذا دليل عدم إيمان هؤلاء بالأنبياء وبالله، لأن الإيمان ليس هو قبول ما طابق هوى النفس أو رفض ما يخالف الأهواء والميول، فهذه الحالة ما هي إلا نوع من عبادة الهوى ولا صلة لها بالإيمان، فالإيمان الحقيقي هو ذلك الذي يدفع الإنسان إلى قبول الحقيقة - سواء طابقت هواه وميوله أو خالفتهما - ولذلك فإن القرآن الكريم اعتبر الذين يزعمون أنهم يؤمنون بالله وببعض الأنبياء كفاراً حقيقين، وعلى هذا الأساس فإن ما يتظاهرون به من إيمان لا حقيقة ولا قيمة له مطلقاً، لأنه لا ينبع من روح طلب الحقيقة.

والقرآن الكريم يهدد هؤلاء - وأمثالهم - بأنهم يلقون الذل والهوان، حيث تقول الآية: «واعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً» وقد يكون وصف العذاب في هذه الآية بـ «المهين» سببه أن هؤلاء بقبولهم بعض الأنبياء ورفضهم الإيمان بالبعض الآخر منهم، إنما يوجهون الإهانة بحق عدد من الأنبياء، لذلك يجب أن ينال هؤلاء عذاباً مهيناً يتناسب وإهانتهم تلك.

التناسب بين الذنب والعقاب:

ويجدر هنا توضيح أن العذاب قد يكون أليماً أحياناً، مثل: الجلد والتعذيب الجسدي، وقد يكون مهيناً كرش الشخص بالقاذورات، أو يكون العذاب عظيماً كأن يكون العقاب أمام أعين الناس، وقد يكون أثره عميقاً في نفس الإنسان يستمر معه لمدة طويلة ويسمى هذا بالعذاب الشديد، وما إلى ذلك من أنواع العذاب.

وواضح أنّ وصف العذاب بواحد من الصفات يتناسب مع نوع الذنب، ولذلك فقد ورد في كثير من الآيات القرآنية أنّ عقاب الظالمين هو العذاب الأليم، لأنّه يتناسب وألم الظلم الذي يمارسه الظالم على المظلوم، وهكذا بالنسبة لأنواع الأخرى من العذاب، وقد قصدنا بهذا الشرح تقريب مسألة العذاب إلى الأذهان، علماً بأنّ العذاب الأخرى شيء لا يمكن مقارنته بما هو موجود من عذاب في حياتنا الدنيوية هذه.

وقد تطرقت الآية الأخيرة إلى موقف المؤمنين الذين آمنوا بالله وبجميع أنبيائه ورسله ولم يفرقوا بين أي من الأنبياء والرسل واخلصوا للحق، وكافحوا كل أنواع العصبيات الباطلة، وبيّنت أنّ الله سيوفي هؤلاء المؤمنين أجرهم وثوابهم في القريب العاجل، فتقول الآية: ﴿والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجرهم...﴾.

وبدیهي أنّ الإيمان بجميع الأنبياء والرسل لا يتنافى ومسألة تفضيل بعضهم على البعض الآخر، لأنّ مسألة التفاضل هذه ترتبط ارتباطاً وثيقاً بأهمية وعظم المسؤولية التي تحمّلها كل منهم، وطبيعي أنّ المسؤوليات المناطة بالأنبياء ﷺ تتفاوت من حيث الأهمية والخطورة بالنسبة لكل منهم، وقد ثبت هذا الأمر بالدليل القطعي والمهم هنا أن لا يحصل تمايز أو تفریق في الإيمان بالأنبياء والإقرار بنبوّتهم.

وقد أكدت الآية في الختام أنّ الله سيفقر للمؤمنين الذين ارتكبوا أخطاء بالإنجرار وراء العصبيات وممارسة التفرقة بين الأنبياء إن أخلص هؤلاء المؤمنون في إيمانهم وعادوا إلى الله، أي تابوا إليه من أخطائهم السابقة، حيث تقول الآية: ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾.

ويجب الانتباه هنا إلى أنّ الآيات الأخيرة ذكرت الذين يعمدون إلى التفرقة بين الأنبياء بأنهم كفار حقيقيون، بينما لم تذكر الذين يؤمنون بجميع الأنبياء بأنهم

مؤمنون حقاً وحقيقة، بل وصفتهم بالمؤمنين فقط، وقد يكون هذا التفاوت في الوصف هو لبيان أنّ المؤمنين حقاً هم أولئك الذين استقرّ الإيمان في قلوبهم وظهرت آثاره على أعمالهم، وكما يقول الخبر المأثور بأنّ «الإيمان ما قر في القلب وصدقه العمل».

ويدلّ على هذا الأمر آيات وردت في بداية سورة الأنفال التي ذكرت المؤمنين بأوصاف عديدة: أولها الإيمان بالله، يلي ذلك إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والتوكل على الله والاعتماد عليه، ثمّ يأتي التأكيد بعد سرد هذه الصفات في قول الله تعالى في الآية المذكورة: «أولئك هم المؤمنون حقاً...».



الآيتان

يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنِ ذَلِكَ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطٰنًا مُّبِينًا ﴿١٧٢﴾
وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمُ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿١٧١﴾

سبب النزول

جاء في تفاسير «التبيان» و«مجمع البيان» و«روح المعاني» حول سبب نزول هاتين الآيتين، أن عدداً من اليهود جاءوا إلى النبي محمد ﷺ وقالوا له: لو كنت حقاً نبياً مرسلأ من قبل الله فأرنا كتابك السماوي كله دفعة واحدة، كما جاء موسى بالتوراة كلها دفعة واحدة، فنزلت الآيتان جواباً لهؤلاء اليهود.

التفسير

هدف اليهود من اختلاق الأعداء:

تشير الآية الأولى إلى طلب أهل الكتاب «اليهود» من النبي محمد ﷺ بأن ينزل عليهم كتاباً من السماء كاملاً وفي دفعة واحدة، فتقول: «يسألك أهل

الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء...».

ولا شك أن هؤلاء لم يكونوا صادقين في نواياهم مع النبي ﷺ، لأن الهدف من نزول الكتاب السماوي هو الإرشاد والهداية والتربية، وقد يتحقق هذا الهدف أحياناً عن طريق نزول كتاب كامل من السماء دفعة واحدة، وأحياناً أخرى يتحقق الهدف عن طريق نزول الكتاب السماوي على دفعات وبصورة تدريجية. وبناء على هذا فقد كان الأجدر باليهود أن يطالبوا النبي ﷺ بالدليل ويسألوه عن تعاليم سامية قيمة، لا أن يحددوا له طريقة لنزول الكتب السماوية ويطلبوه بأن ينزل عليهم كتاباً الطريقة التي عينوها.

ولهذا السبب فضح الله نواياهم السيئة بعد طلبهم هذا، وأوضح للنبي ﷺ بأن هذا العمل هو ديدن اليهود، وأنهم معروفون بصلفهم وعنادهم واختلافهم الأعدار مع نبيهم الكبير موسى بن عمران ﷺ، فقد طلب هؤلاء من نبيهم ما هو أكبر وأعجب إذ سألوهم أن يريهم الله جهاراً وعلناً! تقول الآية: «فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة...».

وما مصدر هذا الطلب العجيب الغريب البعيد عن المنطق غير الصلف والعناد، فهم بطلبهم هذا قد تبسّوا عقيدة المشركين الوثنيين في تجسيد الله وتحديده، وقد أدى عنادهم هذا إلى نزول عذاب الله عليهم، صاعقة من السماء أحاطت بهم لما ارتكبوه من ظلم كبير، تقول الآية: «فأخذتهم الصاعقة بظلمهم». تمّ تشير الآية إلى عمل قبيح آخر ارتكبه اليهود، وذلك حين لجؤا إلى عبادة العجل بعد أن شاهدوا بأعينهم المعجزات الكثيرة والدلائل الواضحة، فنقول: «ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءهم البينات...».

ومع كل هذا الصلف والعناد والشرك، يريهم الله لطفه ورحمته ويفغر لهم لعلمهم يرتدعوا عن غيبتهم، ويهب لنبيهم موسى ﷺ ملكاً بارزاً وسلطاناً مبيناً، ويفضح السامري صاحب العجل ويخمد فتنته وفي هذا تقول الآية: «فنعفونا عن ذلك وآتيناهم موسى سلطاناً مبيناً».

لكن اليهود بسبب ما انطوت عليه سريرتهم من شرّ - لم يستيقظوا من غفلتهم، ولم يخرجوا من ضلالتهم، ولم يتخلوا عن صلفهم وغرورهم، فرقع الله جبل الطور لينزله على رؤوسهم، حتى أخذ منهم العهد والميثاق وأمرهم أن يدخلوا خاضعين خاشعين - من باب بيت المقدس - دليلاً على توبتهم وندمهم، وأكد عليهم أن يكفوا عن أي عمل في أيام السبت، وأن لا يسلكوا سبيل العدوان، وأن لا يأكلوا السمك الذي حرم صيده عليهم في ذلك اليوم، وفوق كل ذلك أخذ الله منهم ميثاقاً غليظاً مؤكداً، ولكنهم لم يثبتوا - مطلقاً - وفاءهم لأي من هذه المواثيق والعهود^(١) يقول القرآن الكريم في هذا المجال: «ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم وقلنا لهم ادخلوا الباب سجداً وقلنا لهم لا تعدوا في السبت وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً».

فهل يصح أن تكون هذه المجموعة مع ما تمتلكه من سوابق سيئة وتاريخ أسود صادقة مع النبي محمد ﷺ فيما طلبته منه وإن كان هؤلاء صادقين، لماذا إذن لم يلتزموا بما نزل عليهم صريحاً في كتابهم السماوي وحول العلامات الخاصة بخاتم النبيين؟ ولماذا أصروا على تجاهل كل ما أتى به النبي محمد ﷺ من براهين وأدلة واضحة بيّنة؟

وهنا تجدر الإشارة إلى أمرين، وهما:

أولاً: لو اعترض معترض فقال: إن تلك الأعمال كانت خاصة باليهود

السابقين، فما صلتها باليهود في زمن النبي محمد ﷺ؟

فنقول: إن اليهود في زمن النبي محمد ﷺ لم يبدوا اعتراضاً واستنكاراً -

أبداً - لأعمال أسلافهم السابقين، بل كانوا يظهرون الرضى عن تلك الأعمال.

١- للإطلاع أكثر على قضية جبل الطور، وهل أن رفعه فوق رؤوس اليهود كان نتيجة زلزلة، أم هناك عامل آخر وكذلك فيما يتعلق بجبل السامري، وسواىء اليهود، راجع الجزء الأول من هذا التفسير في البحث الخاص بهذه المواضع.

أما الأمر الثاني: فيخص مسألة نزول التوراة دفعة واحدة، حيث قلنا في سبب نزول الآيتين الأخيرتين: «إنَّ اليهود كانوا يزعمون نزول هذا الكتاب السماوي دفعة واحدة، في حين أنَّ هذا الأمر لا يعتبر من الأمور المؤكَّدة، ولعل الشيء الذي أدى إلى حصول هذا الوهم هو الوصايا العشرة» التي نزلت في ألواح دفعة واحدة على النَّبي موسى ﷺ، بينما لا يوجد لدينا دليل على نزول بقية أحكام التوراة دفعة واحدة.

الآيات

فَمَا نَقَضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفَّرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ
حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا
يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبُكَفَّرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَنًا
عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ
وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ
لَفِي شَكٍّ مِمَّنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ
يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾

التفسير

نماذج أخرى من ممارسات اليهود العدوانية:

تشير هذه الآيات إلى نماذج أخرى من انتهاكات بني إسرائيل وممارساتهم
العدوانية التي واجهوا بها أنبياء الله.

فالآية الأولى تشير إلى قيام اليهود بنقض العهد، وإلى ارتداد بعضهم
وكفرهم بآيات الله وقتلهم للأنبياء، بحيث استوجبوا غضب الله والحرمان من
رحمته وحرمانهم من قسم من نعم الله الطاهرة.

فقد أنكروا هؤلاء آيات الله وكفروا بها بعد نقضهم للعهد واتبعوا بذلك سبيل

الضلال ولم يكتفوا بهذا الحدّ، بل تبادوا في غيهم، فاركتب أياديهم الآثمة جريمة كبرى، إذ عمدوا إلى قتل الهداة والقادة إلى طريق الحق من أنبياء الله، إيقالاً منهم في اتباع طريق الباطل والإبتعاد عن طريق الحق.

لقد كان هؤلاء اليهود بدرجة من العناد والصلف والوقاحة، بحيث كانوا يواجهون كلام الأنبياء بالسخرية والإستهزاء، ووصل بهم الأمر إلى أن يقولوا بكل صراحة أن قلوبهم تقطعها حجب عن سماع وقبول قول الأنبياء! تقول الآية الأولى من الآيات الأربع الأخيرة: ﴿فَمَا نَقْضَهُمْ﴾^(١) ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف...﴿.

وهنا يؤكد القرآن الكريم أن قلوب هؤلاء مختومة حقاً، بحيث لا ينفذ إليها أي حق، وسبب ذلك هو كفرهم وانعدام الإيمان لديهم، فهم لا يؤمنون لعنادهم وصلفهم إلا القليل منهم.

وقد تجاوز هؤلاء المجرمون الحدّ، فالصقوا بمریم العذراء الطاهرة تهمة شنيعة وبهتاناً عظيماً، هي أم لأحد أنبياء الله الكبار، وذلك لأنها حملت به بإذن الله دون أن يمسه رجل، تقول الآية في هذا المجال: ﴿وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً﴾.

وقد تباهى هؤلاء الجناة وافتخروا بقتلهم الأنبياء، وزعموا أنهم قتلوا المسيح عيسى بن مريم رسول الله، تقول الآية: ﴿وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله...﴾ ولعل هؤلاء كانوا يأتون بعبارة «رسول الله» استهزاء ونكاية، وقد كذبوا بدعواهم هذه في قتل المسيح، فهم لم يقتلوه ولم يصلبوه، بل صلبوا شخصاً شبيهاً بعيسى المسيح ﷺ، وإلى هذه الواقعة تشير الآية بقولها: ﴿وما قتلوه وما

١- إن عبارة «فَمَا نَقْضَهُمْ» من ناحية الإعراب جار ومجرور، ويجب أن يكون لها عامل محذوف قد يكون تقديره «لعنهم» أو جملة «حرمنا عليهم» الواردة في الآية (١٦٠) التالية، وعلى هذا الأساس فإن ما ورد في هذا الإطبار يكون بمثابة جملة معترضة، تضيف في مثل هذه الحالة جملاً أكثر على الكلام القرآني البليغ.

صلبوه ولكن شبه لهم...»

وأكدت الآية أن الذين اختلفوا في أمر المسيح ﷺ كانوا - هم أنفسهم - في شك من أمرهم، فلم يكن أحدهم يؤمن ويعتقد بما يقول، بل كانوا يتبعون الأوهام والظن، تقول الآية: «وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن...».

وقد بحث المفسرون حول موضوع الخلاف الوارد في هذه الآية، فاحتل بعضهم أن يكون الخلاف حول منزلة ومقام المسيح ﷺ حيث اعتبره جمع من المسيحيين ابناً لله، ورفض البعض الآخر - كاليهود - كونه نبياً، وإن كل هؤلاء كانوا على خطأ من أمرهم.

وقد يكون المقصود بالخلاف هو موضوع كيفية قتل المسيح ﷺ حيث قال البعض بأنه قتل، وقال آخرون بأنه لم يقتل، ولم يكن أي من هاتين الطائفتين ليشق بقول نفسه.

أو لعل الذين ادعوا قتل المسيح وقعوا في شك من هذا الأمر لعدم معرفتهم بالمسيح ﷺ، فاختلفوا في الذي قتلوه هل كان هو المسيح، أو هو شخص غيره...؟!.

ويأتي القرآن ليؤكد هنا بأن هؤلاء لم يقتلوا المسيح أبداً، بل رفعه الله إليه، والله هو القادر على كل شيء، وهو الحكيم لدى فعل أي شيء، تقول الآية: «وما قتلوه يقيناً بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً».

أسطورة الصليب؟

يؤكد القرآن الكريم في الآية المارة الذكر على أن المسيح ﷺ لم يقتل ولم يصلب، بل اشبهته الأمر على اليهود فظنوا أنهم صلبوه، وهم لم يقتلوه أبداً! أما الأناجيل الأربعة الموجودة اليوم في متناول أيدينا فهي كلها تقول بأن

المسيح ﷺ قد صلب وقتل على هذه الصورة، وقد جاء هذا القول في الفصول الأخيرة من هذه الأناجيل الأربعة «متى - لوقا - مرقس - يوحنا» وبصورة تفصيلية.

والمسيحيون اليوم يعتقدون بهذا الأمر بصورة عامة، ومسألة الصلب أو قتل المسيح ﷺ تعتبر اليوم أحد أهم المسائل الأساسية للديانة المسيحية، ونحن نعلم أن المسيحيين اليوم لا يعتبرون المسيح ﷺ مجرد نبي أرسل لهداية وإرشاد البشرية، بل يعتقدون بأنه «ابن الله» من أركان التالوث المقدس لديهم. ويزعمون بأن هدف مجيء المسيح إلى هذا العالم ليكون قرباناً يفتدي بنفسه مقابل الخطايا والآثام التي يرتكبها البشر.

فيقولون: إنه جاء ليضحي بنفسه من أجل ذنوبهم وخطاياهم، وقد صلب وقتل ليغسل بدمه ذنوب البشر، ولينقذ البشرية من العقاب، ولذلك فهم يعتقدون بأن طريق الخلاص والنجاة من العذاب والعقاب هو الإيمان بهذا الموضوع. ومن هذا المنطلق فهم - أحياناً - يدعون المسيحية بدين «الإيقاذ» أو دين «الفداء» ويسمّون المسيح ﷺ بـ «المتقذ» أو «المخلص» أو «الفادي». واعتمادهم المفرط على الصليب واتخاذهم شعاراً لأنفسهم إنما يركز على قضية القتل والصلب هذه.

كانت تلك نبذة عن عقيدة المسيحيين حول مصير المسيح ﷺ. أما المسلمون فلا يشك أحدهم ببطلان وزيف هذه العقيدة، والسبب هو أن المسيح عيسى بن مريم ﷺ، كان نبياً كسائر أنبياء الله أولاً، ولم يكن هو الله ولا ابن الله، لأن الله واحد أحد فرد صمد لا شبيه ولا مثيل ولا زوج له ولا ولد. وثانياً: إن مسألة الفداء والتضحية من أجل خطايا الآخرين، تعتبر مسألة بعيدة عن المنطق كل البعد، فكل إنسان يؤاخذ بجريرته وعمله، وإن طريق النجاة والخلاص يكون في الإيمان والعمل الصالح فقط.

وثالثاً: إنَّ عقيدةَ الفداء من أجل الخطايا تعتبر خير مشجع على الفساد وممارسة الذنوب، وتؤدي بالبشرية إلى التلوث والهلاك.

وحين تلاحظ أن القرآن يؤكد على قضية عدم صلب المسيح ﷺ مع أن هذه القضية تظهر للعيان وكأنها مسألة اعتيادية بسيطة، من أجل دحض عقيدة الفداء الخرافية بشدة، لمنع المسيحيين من الإيغال في هذا الاعتقاد الفاسد، ولكي يؤمنوا بأن طريق الخلاص والنجاة إنما هو في أعمالهم هم أنفسهم وليس في ظل الصليب.

رابعاً: هناك قرائن موجودة تثبت وهن وضعف قضية الاعتقاد بصلب المسيح ﷺ هي:

١- المعروف أن الأناجيل الأربعة المتداولة في الوقت الحاضر، والتي تشهد بصلب المسيح ﷺ - كانت قد دوّنت بعده بسنين طويلة، وقد دوّنها حواريوه أو التالون من أنصاره ﷺ - وهذه حقيقة يعترف بها حتى المؤرخون المسيحيون. كما نعرف أيضاً أن حوارى المسيح ﷺ قد هربوا حين هجم الأعداء عليه، والأناجيل نفسها تشهد بهذا الأمر^(١) وعلى هذا الأساس فإن هؤلاء الحواريين قد تلقفوا مسألة صلب عيسى المسيح ﷺ من أفواه الناس الآخرين، ولم يكونوا حاضرين اثناء تنفيذ عملية الصلب، وقد أدت التطورات التي حصلت آنذاك إلى تهيئة الأجواء المساعدة للإشتباه بشخص آخر وصلبه بدل المسيح ﷺ، وسنوضح هذا الأمر فيما يلي من حديثنا.

٢- إن العامل الآخر الذي يجعل من الإشتباه بشخص آخر بدل المسيح ﷺ أمراً محتماً هو أن المجموعة التي كلّفت بالقبض على عيسى المسيح ﷺ والتي ذهبت إلى بستان «جستيماني» هذه المجموعة كانت تتشكل من أفراد الجيش الرومى الذين كانوا منهمكين في أمور عسكرية، فهم لم يكونوا يعرفون اليهود

١- لقد ترك الحواريون المسيح ﷺ في ذلك الوقت وهربوا كلهم... (من إنجيل متى، الإصحاح ٢٦ الجملة ٥٧).

ولغتهم وتقاليدهم، كما لم يميزوا بين حوارى المسيح ﷺ وبين المسيح نفسه.
 ٣- تذكر الأناجيل أن الهجوم على مقر عيسى المسيح ﷺ قد تمّ ليلاً،
 وبديهي أنّ ظلام الليل يعتبر خير ستار للشخص المطلوب ليتخفى به ويهرب،
 وليقع شخص آخر في أيدي المهاجمين.

٤- يستنتج من نصوص جميع الأناجيل أنّ المقبوض عليه قد إختار الصمت
 أمام «بيلاطيس» الحاكم الرومى لبيت المقدس - آنذاك - ولم يتفوه إلا بالقليل
 دفاعاً عن نفسه ويستبعد كثيراً أن يقع عيسى المسيح ﷺ في خطر كهذا ولا يدافع
 عن نفسه بما يستحقه الدفاع عن النفس، وهو المعروف بالفصاحة والبلاغة
 والشجاعة والشهامة.

ألا يحتمل في هذا المجال أن يكون شخص آخر - كـ «يهودا الأسخربوطي»
 الذي خان ووشى بعيسى المسيح ﷺ وكان يشبهه كثيراً - قد وقع هو بدل المسيح
 في الأسر وأنه لهول الموقف قد استولى عليه الخوف والرعب، فعجز عن الدفاع
 عن نفسه أو التحدث أمام الجلادين بشيء.

نقرأ في الأناجيل أنّ «يهودا الأسخربوطي» لم يظهر بعد حادثة الصلب أبداً،
 وأنه - كما تقول هذه الأناجيل - قد قتل نفسه وانتحر^(١).

٥- لقد بيّنا أنّ حوارى المسيح ﷺ - وكما ذكرت الأناجيل - قد هربوا حين
 أحسوا بالخطر يحدق بهم، كما هرب واختفى الأنصار الآخرون، وأخذوا
 يراقبون الأوضاع عن بعد، بحيث أصبح الشخص المقبوض عليه وحيداً بين
 الجنود الرومان، ولم يكن أي من أصحابه قريباً منه، ولذلك لا يستبعد ولا يبدو
 غريباً أن يقع خطأ أو سهو في تشخيص هوية الشخص المقبوض عليه.

٦- ونقرأ في الأناجيل - أيضاً - أنّ الشخص المصلوب قد اشتكى من ربه

(وليس لربّه) لأنّه - بحسب قوله - قد جفاه وتركه بأيدي الأعداء ليقتلوه^(١)!
 فلو صدقنا مقولة أنّ المسيح جاء لهذه الدنيا ليصلب ولينقذ بصلبه البشرية
 من عواقب خطاياهم وآثامهم، فلا يليق لمن يحمل هدفاً سامياً كهذا الهدف أن
 يصدر منه هذا الكلام، وهذا دليل على أن الشخص المصلوب لم يكن المسيح
 نفسه، بل كان إنساناً ضعيفاً وجباناً، وعاجزاً، ومثل هذا الإنسان يمكن أن يصدر
 منه كلام كالذي سبق، لا يمكن أن يكون هذا الإنسان هو المسيح ﷺ^(٢).

٧ - لقد نفت بعض الأناجيل الموجودة مثل إنجيل «هرناها» قضية صلب
 المسيح ﷺ (وهذا الإنجيل هو غير الأناجيل الأربعة التي يقبلها المسيحيون) كما
 أنّ بعضاً من الطوائف المسيحية أبدت شكوكها حول قضية الصلب^(٣) وقد ذهب
 بعض الباحثين إلى أبعد من هذا، فادعوا بأن التاريخ قد ذكر شخصين باسم
 «عيسى» أحدهما عيسى المصلوب والآخر هو عيسى غير المصلوب وبينهما
 فاصل زمني يقدر بخمسة عشر عاماً^(٤).

كانت تلك مجموعة من القرائن المؤيدة لقول القرآن الكريم في قضية الشبه
 الحاصل في قتل أو صلب المسيح ﷺ.



١- إنجيل متى - الإصحاح ٢٧، الجملتان ٤٦ و ٤٧.

٢- نقد اقتبسنا عدداً من القرائن المذكورة أعلاه من كتاب «بطل الصليب».

٣- تفسير المنار، الجزء السابع، ص ٣٤.

٤- الميزان، الجزء الثالث، ص ٣٤٥.

الآية

وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ
يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٧١﴾

التفسير

هنالك احتمالان في تفسير هذه الآية، وكل واحد منهما جدير بالملاحظة

من جوانب متعددة:

١- إن الآية تؤكد أن أي إنسان يمكن أن لا يعتبر من أهل الكتاب ما لم يؤمن قبل موته بالمسيح ﷺ حيث تقول: «وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته...» وأن هذا الأمر يتم حين يشرف الإنسان على الموت وتضعف صلته بهذه الدنيا، وتقوى هذه الصلة بعالم ما بعد الموت، وترفع عن عينيه الحجب فيرى بعد ذلك الكثير من الحقائق ويدركها، وفي هذه اللحظة يرى المسيح بعين بصيرته ويؤمن به، فالذين أنكروا نبوته يؤمنون به، والذين وصفوه بالألوهية يدركون في تلك اللحظة خطأهم وإنحرافهم.

وبديهى أن مثل هذا الإيمان لا ينفع صاحبه، كما أن فرعون والأقوام الأخرى وأقوام استولى عليهم العذاب، فقالوا: آمنا فلم ينفعهم إيمانهم أبداً، فالأجدد بالإيمان أن يؤمن قبل أن تدركه لحظة العذاب عند الموت، حين لا ينفع الإيمان صاحبه.

وتجدر الإشارة - هنا - إلى أن الضمير في عبارة «قبل موته» يعود لأهل الكتاب بناء على التفسير الذي ذكرناه.

٢ - قد يكون المقصود في الآية هو أن جميع أهل الكتاب يؤمنون بعيسى المسيح قبل موته، فاليهود يؤمنون بنبوته والمسيحيون يتخلون عن الاعتقاد بربوبية المسيح ﷺ، ويحدث هذا - طبقاً للروايات الإسلامية - حين ينزل المسيح ﷺ من السماء لدى ظهور المهدي المنتظر عجل الله تعالى فرجه، وواضح أن عيسى المسيح سيعلم في مثل هذا اليوم انضواءه تحت راية الإسلام، لأن الشريعة السماوية التي جاء بها إنما نزلت قبل الإسلام، ولذلك فهي منسوخة به. وبناء على هذا التفسير فإن الضمير في عبارة «قبل موته» يعود إلى عيسى المسيح ﷺ.

وقد نقل عن النبي محمد ﷺ قوله: «كيف بكم إذا نزل فيكم ابن مريم وإمامكم منكم»^(١) وطبعي أن هذا التفسير يشمل اليهود والمسيحيين الموجودين في زمن ظهور المهدي المنتظر عجل الله تعالى فرجه الشريف، ونزول عيسى المسيح ﷺ من السماء.

وجاء في تفسير «علي بن إبراهيم» نقلاً عن «شهر بن حوشب» إن الحجاج ذكر يوماً أن هناك آية في القرآن قد أتعبت كثيراً وهو حائر في معناها، فسأله «شهر» عن الآية، فقال الحجاج: إنها آية «وإن من أهل الكتاب...» وذكر أنه قتل يهودا ومسيحيين ولم يشاهد فيهم أثراً لمثل هذا الإيجان.

فأجاب «شهر» بأن تفسيره للآية لم يكن تفسيراً صحيحاً، فاستغرب الحجاج وسأل عن التفسير الصحيح للآية.

فأجاب «شهر» بأن تفسير الآية هو أن المسيح ينزل من السماء قبل نهاية العالم، فلا يبقى يهودي أو غير يهودي إلا ويؤمن بالمسيح قبل موته، وأن المسيح

١ - مستد أحمد، وصحيح البخاري، وصحيح مسلم، وسنن البيهقي، كما جاء في تفسير الميزان.

سيقوم الصلاة خلف المهدي المنتظر عجل الله تعالى فرجه الشريف.

فلما سمع الحجاج هذا الكلام قال لـ «شهر» ويلك من أين جئت بهذا التفسير؟ فأجاب «شهر» بأنه قد سمعه من محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام.

وعند ذلك قال الحجاج: «والله جنت بها من عين صافية»^(١).

وتقول الآية في الختام: «ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً» أي شهادة المسيح عليه السلام على قومه بأنه قد بلغهم رسالة الله ولم يدعهم لآخاذه إلهاً من دون الله، بل دعاهم إلى الإقرار بربوبية الله الواحد القهار.

سؤال:

وقد يعترض البعض بأن المسيح عليه السلام - كما جاء في الآية (١١٧) من سورة المائدة - إنما يقصر شهادته على الزمن الذي كان هو موجوداً فيه بين قومه ويتصل عن الشهادة بالنسبة للأزمنة التي جاءت بعده، وذلك بدلالة الآية التي جاءت على لسانه وهي تقول: «وكنتم عليهم شهداء ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد» لكن الآية التي هي موضوع بحثنا الآن تدل على أن المسيح عليه السلام يشهد على الجميع يوم القيامة، سواء أولئك الذين كانوا في عصره وزمانه أو الذين لم يكونوا في ذلك الزمان.

الجواب:

والجواب على هذا الاعتراض هو أننا لو أمعنا النظر في مضمون الآيتين المذكورتين، لرأينا أنهما تدلان على أن الآية الأخيرة التي هي موضوع البحث - تتحدث عن الشهادة حول تبليغ الرسالة ونفي الألوهية عن المسيح عليه السلام بينما الآية (١١٧) من سورة المائدة تشهد على أعمال أولئك القوم.

فالآية الأخيرة تذكر أن عيسى المسيح عليه السلام سيشهد على جميع الذين نسبوا

له الألوهية، سواء من كانوا في زمانه أو من جاءوا بعد ذلك الزمان، وأن المسيح ﷺ يؤكد أنه لم يدع هؤلاء القوم إلى مثل هذا الأمر أبداً، بينما الآية (١١٧) من سورة المائدة تذكر على لسان المسيح ﷺ أنه علاوة على الدعوة لرسالته بالأسلوب الصحيح، فهو قد حال طيلة فترة بقائه بين قومه - دون إنحرافهم، إلا أنهم إنحرفوا بعده ونسبوا له الألوهية في زمن لم يكن هو موجوداً بينهم، ليشهد على أعمالهم وليحول دون إنحرافهم.



الآيات

فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ
بِضَدِّهِمْ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٦﴾ وَأَخَذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ
وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبِطْلِ وَأَعْتَدْنَا لِّلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ
عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦٧﴾ لَّيْسَ الرِّسْخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ
يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ
وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَٰئِكَ

سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٧﴾

التفسير

مصير الصالحين والظالمين من اليهود:

لقد أشارت الآيات السابقة إلى نماذج من انتهاكات اليهود، أما الآيات الأخيرة فإنما ذكرت نماذج أخرى من تلك الانتهاكات، وبيّنت العقوبات التي استحقها اليهود بسبب تمردهم وعصيانهم، والعذاب الذي لا قوه وسيلاقوه نتيجة لذلك في الدنيا والآخرة.

فالآية الأولى من الآيات الأخيرة تبين أن الله قد حرم بعضاً من الأشياء الطاهرة على اليهود بسبب ممارستهم الظلم والجور، وتصديهم للساترين في

طريق الله، حيث تقول الآية: ﴿بظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيراً﴾ كما عاقبهم الله بالحرمان من تلك الطيبات لتعاملهم بالربا على الرغم من منهم من ممارسة المعاملات الربوية ولاستيلائهم على أموال الآخرين بطرق غير مشروعة، فتقول الآية في هذا المجال: ﴿وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل ...﴾.

وتؤكد الآية أنّ عذاب اليهود لمعاصيهم تلك لا يقتصر على العقاب الدنيوي، بل سيذيقهم الله - أيضاً - عقاب وعذاب الآخرة الأليم الذي يشمل الكافرين من اليهود، تقول الآية الكريمة: ﴿واعتدنا للكافرين منهم عذاباً أليماً﴾.

وتجدر الإشارة - هنا إلى عدة أمور، وهي:

١- إنّ المقصود بالطيبات المحرمة على اليهود هي تلك التي ذكرتها الآية (١٤٦) من سورة الأنعام، والتي شملت بعض الحيوانات وشحوم حيوانات أخرى كالبحر والأغنام التي أحبتها اليهود، ولم يكن هذا التحريم تحريماً تكوينياً، بل كان تحريماً تشريعياً قانونياً، أي أن اليهود منعوا من استعمال هذه النعم مع أنّها كانت متيسرة في أيديهم.

وقد جاء ذكر بعض هذا التحريم في التوراة المتداولة بيد اليهود حالياً، في «سفر الأوبين» في الفصل الحادي عشر، ولكن لم تشر التوراة الحالية إلى الطابع العقابي لهذا التحريم^(١).

٢- أمّا هل أنّ هذا التحريم يتميز بطابع شمولي، أي هل يشمل غير الظالمين من اليهود، أم يخص الظالمين وحدهم؟ فإنّ ظاهر الآية المذكورة أعلاه والآية (١٤٦) من سورة الأنعام، يدلان على أنّ التحريم له طابع عام بدلالة عبارة «لهم» على عكس العقاب الأخروي الذي تخصصه الآية «للكافرين منهم» وعلى هذا الأساس فإنّ هذا التحريم له طابع عقابي بالنسبة للظالمين من اليهود، كما يحمل

طابع الإختبار والإمتحان بالنسبة لأخيارهم الذين يشكلون الأقلية فيهم. وقد ذهب بعض المفسرين إلى أنّ هذا التحريم يشمل الظالمين من اليهود فقط، كما تدل بعض الروايات على هذا الرأي - أيضاً - فقد جاء في تفسير البرهان في تفسير الآية (١٤٦) من سورة الأنعام، نقلاً عن الإمام الصادق عليه السلام: «إنّ زعماء بني إسرائيل كانوا قد حرموا على فقراء طائفهم أكل لحوم الطيور وشحوم الحيوانات، ولهذا السبب حرم الله على هؤلاء الظالمين مثل هذه الطيبات عقاباً لهم على ظلمهم وجورهم»^(١).

٣- وتدل هذه الآية - أيضاً - على أنّ تشريع تحريم «الربا» لم يقتصر على الإسلام وحده، بل كان محرماً لدى الأقوام والديانات السابقة، والتوراة المتداولة حالياً والمحرفة إنّما تحرم على اليهود أخذ الربا من أبناء عقيدتهم فقط، ولا تعتبر أخذه من أبناء الديانات الأخرى حراماً عليهم^(٢).

وقد أشارت الآية الثالثة من الآيات الأخيرة إلى حقيقة مهمة اعتمدها القرآن الكريم مراراً في آيات متعددة، وهي أنّ ذمّ اليهود وانتقادهم في القرآن لا يقوم على أساس عنصري أو طائفي على الإطلاق، لأنّ الإسلام لم يذم أبناء أي طائفة أو عنصر لإنتمائهم الطائفي أو العرقي، بل وجه الذم والانتقاد للمنحرفين والضالين منهم فقط، لذلك استثنت هذه الآية المؤمنين الأتقياء من اليهود ومدحتهم وبشرتهم بنيل أجر عظيم، حيث تقول الآية الكريمة: «لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر أولئك سنؤتيهم أجراً عظيماً»^(٣).

١- تفسير البرهان، الجزء الأول، ص ٥٥٩.

٢- التوراة، سفر التثنية، الفصل ٢٣، الجملتان ١٩ و ٢٠.

٣- لقد شرحنا بنوع من التفصيل، معنى عبارة «الراسخون في العلم» وذلك في الجزء الثاني من تفسيرنا هذا.

وقد آمن جمع من كبار الطائفة اليهودية بالإسلام حين بعث النبي محمد ﷺ وحين شاهدوا على يديه الكريمتين دلائل أحقية الإسلام، ودافع هؤلاء بأرواحهم وأموالهم عن الإسلام، وكانوا موضع احترام وتقدير النبي ﷺ وسائر المسلمين.

الآيات

إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا
 إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى
 وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴿١٣٢﴾
 وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ
 عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴿١٣٤﴾ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ
 لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا
 حَكِيمًا ﴿١٣٥﴾ لَنْ يَكُنَ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ
 وَالْمَلَكُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٣٦﴾

التفسير

لقد تناولت الآيات السابقة مسألة التمييز الذي مارسه اليهود بشأن الأنبياء،
 حيث كانوا يؤمنون ويصدقون ببعض أنبياء الله تعالى ويكفرون بالبعض الآخر
 منهم.

أما الآيات أعلاه فهي ترد على اليهود، وتؤكد أن الله أوحى إلى نبيه
 محمدًا ﷺ كما أنزل الوحي على أنبيائه نوح والنبيين الذين جاؤوا من بعد نوح،
 وكما أوحى إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ﷺ وأنزل الوحي على

الأنبياء من أبناء يعقوب، وعلى عيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان عليهم السلام، وكما أنزل الله على داود عليه السلام كتاب الزبور، حيث تقول الآية: «إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نوحٍ وَالتَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطَ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا».

وهذه الآية تردّ على اليهود مؤكّدة على أنّ شرائع الأنبياء العظام مستقاة كلها من ينبوع الوحي الإلهي، وإنّهم جميعاً يسرون في طريق واحد، ولذلك لا تجوز التفرقة بينهم.

وقد تكون هذه الآية خطاباً للمشركين والكفار من عرب الجاهلية، الذين كانوا يظهرون الدهشة والعجب من نزول الوحي على نبي الإسلام محمد عليه السلام، فهي تردّ على هؤلاء مؤكّدة أنّ لا عجب في نزول الوحي على محمد عليه السلام وقد نزل قبل ذلك على الأنبياء السابقين.

ثمّ تبيّن الآية أنّ الوحي لم يقتصر نزوله على هؤلاء الأنبياء، بل نزل على أنبياء آخرين حكى الله قصصهم للنبي محمد عليه السلام من قبل، وأنبياء لم يحك الله قصصهم، وكلّ هؤلاء الأنبياء أرسلهم الله إلى خلقه، وأنزل عليهم الوحي من عنده، تقول الآية: «وَرِيسَالًا قِصصِنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرِيسَالًا لَمْ نَقِصصْهُمْ عَلَيْكَ».

وتبيّن هذه الآية في آخرها قضية مهمّة جدّاً، وهي أنّ الله قد كلم موسى بدل أن ينزل عليه الوحي، فتقول: «وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا...».

وعلى هذا الأساس فإنّ صلة الوحي ظلت باقية بين البشر، ولم يكن من عدل الله أن يترك البشر دون مرشد أو قائد، أو أن يتركهم دون أن يعين لهم واجباتهم وتكاليفهم، وهو الذي بعث الأنبياء والرسل للبشر مبشرين ومنذرين، لكي يبشروا الناس برحمته وثوابه، ويُنذروهم من عذابه وعقابه لكي يتمّ الحجة عليهم فلا يبقى لهم عذر أو حجة، تقول الآية: «رِيسَالًا مَبشِرِينَ وَمُنذِرِينَ لئلا

يكون للناس على الله حجة بعد الرسل».

فقد أحكم الله العزيز القدير خطة إرسال الأنبياء ونفذها بكل دقة، وبهذا تؤكد الآية «وكان الله عزيزاً حكيماً» فحكيمته توجب تحقيق هذا العمل، وقدرته تمهد السبيل إلى تنفيذه، وعلى عكس ذلك فإن إهمال هذا الأمر المهم، إما أن يدل على الافتقار إلى الحكمة والمعرفة، أو أنه دلالة على العجز، والله منزّه عن كل هذه العيوب.

أما الآية الأخرى فهي تطمئن النبي ﷺ وتوضح له أن المهم هو أن الله قد شهد بما أنزل عليه من كتاب، وليس المهم أن يؤمن نفر من هؤلاء بهذا الكتاب أو يكفروا به - فتؤكد الآية في هذا المجال - «لكن الله يشهد بما أنزل إليك».

ولم يكن اختيار الله لمحمد ﷺ لمنصب النبوة أمراً عبثاً - والعياذ بالله - بل كان هذا الاختيار نابعاً من علم الله بما كان يتمتع به النبي من لياقة وكفاءة لهذا المنصب العظيم، ولنزول آيات الله عليه - حيث تقول الآية: «أنزله بعلمه».

ويمكن - أيضاً - أن تشمل هذه الآية معنى آخر، وهو أن ما نزل على النبي ﷺ من آيات إنما ينبع من بحر علم الله اللامتناهي، وإن محتوى هذه الآيات يعتبر دليلاً واضحاً على أنها نابعة من علم الله - وعلى هذا الأساس فإن الشاهد على صدق ادعاء النبي ﷺ هو الآيات القرآنية، ولا يحتاج إلى دليل آخر لإثبات دعوته، فلو لم يكن محمد ﷺ يتلقى الوحي من قبل الله سبحانه وتعالى لما أمكنه أبداً - وهو المعروف بالأمي - أن يأتي بكتاب كالقرآن يشتمل على أرفع وأسمى التعاليم والفلسفات والقوانين والمبادئ الأخلاقية والبرامج الإجتماعية.

والقرآن الكريم يؤكد أن ليس الله وحده الذي يشهد بأن دعوة محمد ﷺ هي الحق، بل يشهد معه ملائكته بأحقية هذه الدعوة، مع أن شهادة الله كافية وحدها في هذا المجال تقول الآية الكريمة: «والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيداً».

ويجب - هنا - الإلتباه إلى عدّة أمور، وهي:

١- إنّ بعض المفسّرين فهموا من عبارة «إنّا أوحينا إليك الكتاب كما أوحينا...» إنّها تهدف إلى بيان حقيقة من النبي ﷺ وهي أنّ جميع الخصائص التي وردت في الشرائع السماوية التي نزلت على الأنبياء قبله، جاءت مجتمعة في الشريعة التي أنزلها الله عليه، وإنّ كلّ خصلة اتصف بها عباد الله الصالحون هي موجودة فيه ﷺ.

وقد أشارت بعض الروايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام إلى هذا الموضوع أيضاً فكان ما استلهمه المفسّرون من هذه الآية نابعاً أو مستنداً على تلك الروايات^(١).

٢- نقرأ في الآيات الأخيرة أنّ الزبور من الكتب السماوية أنزله الله على داود - ولا يتنافى هذا مع ما ورد من أنّ الأنبياء أولي العزم الذين نزلت عليهم كتب من الله هم خمسة أنبياء فقط، حيث إنّ الآيات القرآنية والروايات الإسلامية توضح أنّ الكتب السماوية التي نزلت على الأنبياء كانت على نوعين، هما:

النوع الأوّل: الكتب التي اشتملت على الأحكام التشريعية، حيث أنّ كل كتاب من هذه الكتب قد أعلن عن شريعة جديدة، وأنّ هذه الكتب السماوية هي خمسة فقط نزلت على خمسة أنبياء هم «أولوا العزم».

النوع الثاني: الكتب التي لم تحتو على أحكام جديدة، بل كان فيها الحكم والنصائح والإرشادات والوصايا وأنواع الدعاء، وكتاب «الزبور» الذي نزل على داود عليه السلام من هذا النوع الثاني من الكتب السماوية - و«مزامير داود» أو «زبور داود» الذي ورد اسمه في «العهد القديم» دليل على هذا الأمر الذي اثبتناه، مع العلم أنّ كتاب «العهد القديم» لم يسلم من التحريف، كما لم تسلم كتب العهد الجديد والقديم الأخرى من التحريف أيضاً، إلّا أنّ ما يمكن قوله هو أنّ هذه

الكتب قد احتفظت نوعاً ما بشكلها القديم.

وكتاب «مزامير داود» يشتمل على مائة وخمسين فصلاً، يسمى كل فصل منه «مزموراً» وهو من أوله إلى آخره يشتمل على صنوف النصح والإرشاد والدعاء والمناجاة.

ونقل عن أبي ذر رضي الله عنه أنه سأل النبي ﷺ عن عدد الأنبياء فأجابه النبي: بأن عددهم يبلغ مائة وأربعاً وعشرين ألفاً، فسأل أبوذر رضي الله عنه عن عدد الرسل من بين هؤلاء الأنبياء - فأجابه النبي ﷺ: بأن عددهم هو ثلاثمائة وثلاثة عشر رسولاً والباقيون كلهم أنبياء ... فسأل أبوذر مرة أخرى عن عدد الكتب السماوية التي نزلت على أولئك الأنبياء والرسل، فأجابه النبي ﷺ: بأنها مئة وأربع كتب، نزل عشرة منها على آدم، ونزل خمسون منها على شيث، وثلاثون على إدريس، وعشرة كتب على إبراهيم، حيث يصبح مجموع هذه الكتب مئة كتاب، والأربعة الأخرى هي التوراة، والإنجيل والزيور والقرآن^(١).

٣- إن عبارة «أسباط» هي صيغة للجمع ومفردا «سبط» ومعناها طوائف بني إسرائيل، ولكن المقصود منها في الآية هم الأنبياء الذين بعثوا من هذه الطوائف^(٢).

٤- لقد كان نزول الوحي على الأنبياء يتمّ بصور مختلفة، فمرة ينزل بالوحي ملك من الملائكة المكلفين به وأحياناً يلقي الوحي على النبي بواسطة الإلهام القلبي، وأخرى ينزل بصورة صوت يسمعه النبي، أي أن الله يخلق الأمواج الصوتية في الفضاء أو الأجسام فيسمعها أنبياءه وبهذه الوساطة كان يتمّ التخاطب بينهم وبين الله سبحانه وتعالى.

ومن الذين حظوا بمزية التخاطب مع الله النبي موسى بن عمران عليه السلام، فكان

١- مجمع البيان، الجزء الأول، ص ٤٧٤.

٢- لقد ورد ذكر الأسباط بالتفصيل في الجزء الأول من تفسيرنا هذا.

يسمع الصوت، أحياناً من شجرة وادي الأيمن، وأحياناً في جبل طور، ولذلك لقب هذا النبي بلقب «كليم الله»، ولعل مجيء اسم النبي موسى ﷺ في الآيات الأخيرة بصورة منفصلة كان من أجل بيان هذه الخصيصة التي امتاز بها موسى ﷺ على غيره من أنبياء الله ﷺ.

* * *

الآيات

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا
بَعِيدًا ﴿٣٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا
لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿٣٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ
ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٩﴾

التفسير

جرى البحث في الآيات السابقة حول المؤمنين وغير المؤمنين، أما الآيات الثلاثة الأخيرة فهي تشير إلى مجموعة اختارت أقبح أنواع الكفر، فهؤلاء -بالإضافة- إلى انحرافهم وضلالتهم سعوا إلى تحريف وإضلال الآخرين، وقد ظلموا أنفسهم بفعلهم هذا وظلموا الآخرين معهم لأنهم لم يسيروا في طريق الحق ولم يسمحوا للآخرين -أيضاً- باتِّباع هذا السبيل، والآية الكريمة تصف هؤلاء بأنهم في ضلال بعيد وذلك بقولها: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا».

فلماذا -يا ترى- استحق هؤلاء الإبعاد عن طريق الحق؟ إنهم استحقوا ذلك لدعوتهم الآخرين إلى طريق الضلال، حيث من المستبعد جداً أن يتخلوا عن طريق هم يدعون الآخرين لإتباعه -فقط خلط هؤلاء كفرهم بالعناد، ووضعوا

أقدمهم في طريق الضلال والانحراف، وابتعدوا بذلك كثيراً عن طريق الحق والصواب.

أما الآية الأخرى فتشير إلى الذين كفروا وظلموا، إذ ظلموا الحق أولاً لعدم التزامهم بالصواب، كما ظلموا أنفسهم بذلك - أيضاً - إذ حرموها من السعادة وسقطوا في هوة الضلالة، وظلموا الآخرين حين منعوهم من التوجه إلى طريق الحق والصواب، فهؤلاء لن يشملهم أبداً عفو الله، وإن الله لا يهديهم أبداً إلا إلى طريق جهنم، تقول الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقاً إلاّ طريق جهنم...﴾.

فهؤلاء باقون وخالدون في جهنم دائماً وأبداً، كما تقول الآية: ﴿خالدين فيها أبداً...﴾.

وعلى هؤلاء أن يعلموا أنّ وعد الله حق، وأن تهديده يتحقق لا محالة، فليس ذلك على الله بالأمر الصعب تقول الآية: ﴿وكان ذلك على الله يسيراً﴾.

ونشاهد في الآيتين المذكورتين تأكيداً من طراز خاص حول هذا النوع من الكفار والعقوبات التي ينالونها - فمن جهة يوصف انحرافهم بالضلال البعيد، ومن جهة ثانية تؤكد الآية باستخدام عبارة ﴿لم يكن الله...﴾ أنّ العفو عن هؤلاء الكفار لا يليق بمنزلة الله سبحانه وتعالى، ومن جانب آخر فقد جاء التأكيد على خلود هؤلاء في النار والتشديد على أنه خلود أبدي، لأنّ هؤلاء وأمثالهم بالإضافة إلى خروجهم عن جادة الحق وانحرافهم، سعوا إلى إبعاد وحرف الآخرين عن هذا السبيل، وبذلك تحملوا مسؤولية وإثماً عظيماً.

الآية

يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَمِنُوا خَيْرًا
لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ
عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾

التفسير

لقد أوضحت الآيات السابقة نهاية وعاقبة الناس الذين انعدم لديهم عنصر الإيمان، أما الآية الأخيرة فهي تدعو إلى الإيمان وتبين نتيجة هذا الإيمان، وتستخدم في ترغيب الناس إلى هذا الهدف السامي عبارات واصطلاحات تشير عند الأفراد الرغبة والإندفاع نحو الإيمان.

وهذه الآية تشير في البداية إلى أن النبي المرسل هو ذلك الذي كان ينتظر الناس مظهره، والذي أشارت إليه الكتب السماوية السابقة، وهو يحمل إليهم شريعة الحق والعدالة فتقول الآية في هذا المجال: «يا أيها الناس قد جاءكم الرسول^(١) بالحق»^(٢).

١- يبدو من سياق الآية أن حرفي «الله الداخلة على كلمة «رسول» هما «الله العهدية، وفيها إشارة إلى النبي الذي كانوا ينتظرون قدومه، ولم يقتصر هذا الانتظار على اليهود والنصارى وحدهم، بل أن المشركين - أيضاً - كانوا يتوقعون - لما سمعوه من أهل الكتاب - ظهور النبي ﷺ.

٢- لقد فسرت بعض الروايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام كلمة «الحق» الواردة في الآية إشارة إلى ولاية علي بن أبي طالب عليه السلام، وقد بيّنا سابقاً إن مثل هذه التفسيرات واضحة في بيان المصاديق، وهي لا تدل على العصر.

ثم تردف الآية بأن هذا النبي قد جاء إلى الناس من الله الذي تعهد تربية الخلق أجمعين، وذلك من خلال العبارة القرآنية الواردة في هذه الآية، وهي عبارة: ﴿من ربكم﴾.

وبعد ذلك تؤكد الآية - على أن إيمان الأفراد إنما تعود فائدته ويعود نفعه عليهم أنفسهم، أي أن الإنسان إذا آمن إنما يخدم نفسه بهذا الإيمان قبل أن يخدم به غيره تقول الآية: ﴿فآمنوا خير لكم﴾.

كما تؤكد الآية في النهاية على أن من يتخذ الكفر سبيلاً لنفسه فلن يضر الله بعمله هذا أبداً، لأن الله يملك كل ما في السموات وما في الأرض، فهو بهذا لا يحتاج إلى أي شيء من الآخرين، تقول الآية في هذا الصدد: ﴿وإن تكفروا فإن الله ما في السموات والأرض﴾.

وتبين الآية في النهاية أن أحكام الله وأوامره كلها لمصلحة البشر، لأنها نابعة من حكمة الله وعلمه وهي قائمة على أساس تحقيق مصالح الناس، ومنافعهم الخيرة، فتقول الآية: ﴿وكان الله عليماً حكيماً﴾.

ومن المنطلق نفسه فإن ما أرسله الله من شرائع لتنظيم الحياة الاجتماعية للبشر بواسطة الأنبياء عليهم السلام، لم يكن - مطلقاً - لحاجة الله إلى ذلك، بل إنه نابع من علمه وحكمته، فهل يحق للبشر بعد هذا البيان أن يتركوا طريق الإيمان ويتبعوا سبيل الكفر؟

الآية

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ
إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ
وَرُوحٌ مِنْهُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا
لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَحْدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي
السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٦﴾

التفسير

أسطورة التثليث الوهمية:

تتطرق هذه الآية والآية التي تليها إلى واحد من أهم انحرافات الطائفة المسيحية، وهذا الانحراف هو اعتقاد المسيحيين بالتثليث، أي وجود آلهة ثلاثة ويأتي التطرق إلى هذا البحث في سياق البحوث القرآنية التي وردت في الآيات السابقة عن أهل الكتاب والكفار.

فهذه الآية تحذر في البداية أهل الكتاب من المغالاة والتطرف في دينهم، وتدعوهم أن لا يقولوا على الله غير الحق، حيث تقول: «يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق...».

لقد كانت قضية الغلو في حق القادة السابقين إحدى أخطر منابع الانحراف

في الأديان السماوية، فالإنسان بما أنه يميل إلى ذاته يندفع بهذا الميل إلى إظهار زعمائه وقادته بصورة أكبر مما هم عليه، لكي يضي على نفسه الأهمية والعظمة من خلال هؤلاء القادة، وقد يدفع الإنسان التصور الواهي بأن الإيمان هو المبالغة والغلو في احترام وتعظيم القادة - إلى الوقوع في متاهات هذا النوع من الانحراف الرهيب.

والغلو في أصله ينطوي على عيب كبير يفسد العنصر الأساسي للدين - الذي هو عبادة الله وتوحيده - ولهذا السبب فقد عامل الإسلام الغلاة أو المغالين بعنف وشدّة، إذ عرفت كتب الفقه والعقائد هذه الفئة من الناس بأنهم أشد كفرة من الآخرين.

بعد ذلك تشير الآية الكريمة إلى عدّة نقاط، يعتبر كل واحد منها في حدّ ذاته دليلاً على بطلان قضية التثليث، وعدم صحة ألوهية المسيح ﷺ، وهذه النقاط هي:

١ - لقد حصرت الآية بنوة السيد المسيح ﷺ بمریم ﷺ «إنما المسيح عيسى بن مريم»، وإشارة البنوة - هذه الواردة في ستة عشر مكاناً من القرآن الكريم - إنما تؤكد أن المسيح ﷺ هو إنسان كسائر الناس، خلق في بطن أمه، ومرّ بدور الجنين في ذلك الرحم، وفتح عينيه على الدنيا حين ولد من بطن مريم ﷺ كما يولد أفراد البشر من بطون أمهاتهم ومرّ بفترة الرضاعة وتربى في حجر أمه، ممّا يثبت بأنّه امتلك كل صفات البشر فكيف يمكن - وحالة المسيح ﷺ هذه - أن يكون إلهاً أزلياً أبدياً، وهو في وجوده محكوم بالظواهر والقوانين المادية الطبيعية ويتأثر بالتحوّلات الجارية في عالم الوجود؟!

وعبارة الحصر التي هي «إنما» الواردة في الآية تحصر بنوة المسيح ﷺ بمریم ﷺ وتؤكد على أنّه وإن لم يكن له والد، فلمس معنى ذلك أن أباه هو الله، بل هو فقط ابن مريم ﷺ.

٢- تؤكد الآية الكريمة أن المسيح ﷺ هو رسول الله ومبعوث إلى البشر من قبله سبحانه وتعالى، وإن هذه المنزلة - أي منزلة النبوة - لا تتناسب ومقام الألوهية.

والجدير بالذكر هو أن معظم كلام المسيح ﷺ الوارد قسم منه في الأناجيل المتداولة في الوقت الحاضر، إنما يؤكد نبوته وبعثته لهداية الناس، وليس فيه دلالة على ادعائه الألوهية والربوبية.

٣- تبين الآية أن عيسى المسيح ﷺ هو كلمة الله التي ألقاها إلى مريم ﷺ حيث تقول: «وكلمته ألقاها إلى مريم».

وقد وردت عبارة: «كلمة» في وصف المسيح في عدد من الآيات القرآنية، وهذه إشارة إلى كون المسيح مخلوقاً بشرياً، إذ أن الكلمات مخلوقة من قبل الله، كما أن الموجودات في الكون من مخلوقاته عز وجل، فكما أن الكلمات تبين مكونات أنفسنا - نحن البشر - وتدل على صفاتنا وأخلاقنا، فإن مخلوقات الكون تحكي صفات خالقها وجماله وتدل على جلاله وعظمته.

وعلى هذا الأساس فقد وردت عبارة «كلمة» في عدد من العبارات القرآنية، لتشمل جميع مخلوقات الله، كما في الآية (١٠٩) من سورة الكهف والآية (٢٩) من سورة لقمان، وبديهي أن الكلمات الإلهية تتفاوت بعضها مع البعض في المنزلة والأهمية وعيسى ﷺ يعتبر إحدى كلمات الله البارزة الأهمية، لكونه ولد من غير أب، إضافة إلى كونه يتمتع بمقام الرسالة الإلهية.

٤- تشير الآية إلى أن عيسى المسيح ﷺ هو روح مخلوقة من قبل الله، حيث تقول «وروح منه» وهذه العبارة التي وردت في شأن خلق آدم - أو بعبارة أخرى خلق البشر أجمعين - في القرآن الكريم، إنما تدل على عظمة تلك الروح التي خلقها الله تعالى وأودعها في أفراد البشر بصورة عامة، وفي المسيح ﷺ وسائر الأنبياء بصورة خاصة.

وعلى الرغم من أن البعض أساء الإستفادة من هذه العبارة وفسرها بأن المسيح ﷺ هو جزء من الله سبحانه وتعالى، مستنداً إلى عبارة «منه» ولكن الواضح في مثل هذه الحالات أن كلمة «من» ليست للتبعيض، بل تدل على مصدر ومنشأ وأصل وجود الشيء.

وهناك طريقة تاريخية تذكر أنه كان لهارون الرشيد طبيب نصراني، دخل يوماً في نقاش مع «علي بن الحسين الواقدي» وهو أحد المفكرين الإسلاميين في ذلك العصر، فقال له هذا الطبيب: «توجد في كتابكم السماوي آية تبين أن المسيح ﷺ هو جزء من الله...» وتلا هذا النصراني الآية موضوع البحث، فرد عليه «الواقدي» مباشرة تالياً هذه الآية: «وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه...»^(١)، وأضاف مبيّناً أن كلمة «من» لو كانت تفيد التبعيض، لإقتضى ذلك أن تكون جميع موجودات السماء والأرض -بناء على هذه الآية- جزءاً من الله، فلما سمع الطبيب النصراني كلام الواقدي أسلم في الحال، وسر إسلامه هارون الرشيد فكافأ الواقدي بجائزة مناسبة^(٢).

إن ما يثير العجب -إضافة إلى ما ذكر- هو أن المسيحيين يرون ولادة المسيح من أم دون أب دليلاً على الوهيته، وهم ينسون في هذا المجال أن آدم ﷺ كان قد ولد من غير أب، ولا أم، ولم ير أحد هذه الخصيصة الموجودة في آدم دليلاً على ربوبيته.

بعد ذلك تؤكد الآية على ضرورة الإيمان بالله الواحد الأحد وبأنبيائه، ونبذ عقيدة التثليث، مبشرة المؤمنين بأنهم إن نبذوا هذه العقيدة فسيكون ذلك خيراً لهم حيث قالت الآية: «فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم...».

١- الجانية، ١٣.

٢- تفسير المنار، الجزء السادس، ص ٨٤.

وتعيد الآية التأكيد على وحدانية الله قائلة: ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ...﴾ وهي تخاطب المسيحيين لأنهم حين يدعون التثليث يقبلون - أيضاً - بوحدانية الله، فلو كان لله ولد لوجب أن يكون شبيهه، وهذه حالة تناقض أساس الوحدانية.

فكيف - إذن - يمكن أن يكون لله ولد، وهو منزّه من نقص الحاجة إلى زوجة أو ولد، كما هو منزّه من نقائص التجسيم وأعراضه؟ تقول الآية: ﴿سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ...﴾ والله هو مالك كل ما في السموات وما في الأرض والموجودات كلها مخلوقاته وهو خالقها جميعاً، والمسيح ﷺ - أيضاً - واحد من خلق الله، فكيف يمكن الإدعاء بهذا الإستثناء فيه؟ وهل يمكن المملوك والمخلوق أن يكون إبناً للمالك والخالق؟! حيث تؤكد الآية: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ...﴾ والله هو المدبر والحافظ والرازق والراعي لمخلوقاته، تقول الآية: ﴿وَكُنِيَ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾.

والحقيقة هي أن الله الأزلي الأبدي الذي يرعى جميع الموجودات منذ الأزل إلى الأبد لا يحتاج مطلقاً إلى ولد، فهل هو كسائر الناس لكي يحتاج إلى ولد يخلفه من بعد الموت؟

عقيدة التثليث أكبر خرافة مسيحية:

ليس في الإنحرافات التي تورط بها العالم المسيحي أكبر من انحراف عقيدة التثليث، لأن المسيحيين يعتقدون صراحة بالتالوث الإلهي، وهم في نفس الوقت يصرحون بأن الله واحد! أي أنهم يرون الحقيقة في التثليث والتوحيد في أن واحد.

وقد خلقت هذه القضية - التي لها حدان متناقضان - مشكلة كبيرة للمفكرين والباحثين المسيحيين.

فلو كان المسيحيون مستعدين لقبول مسألة التوحيد بأنها «مجازية» وقبول

مسألة التثليث بأنها مسألة حقيقية أو قبول العكس، لأنّ يمكن تبرير هذا الأمر، ولكنهم يرون الحقيقة في الجمع بين هذين المتناقضين، فيقولون أنّ الثلاثة واحد كما يقولون أنّ الواحد ثلاثة في نفس الوقت.

وما يلاحظ من ادعاء في الكتابات التبشيرية الأخيرة للمسيحيين، والتي توزع للناس الجهلاء، من أنّ التثليث شيء مجازي، إنّما هو كلام مشوب بالرياء ولا يتلاءم مطلقاً مع المصادر الأساسية للمسيحية، كما لا يتفق مع الآراء والمعتقدات الحقيقية للمفكرين المسيحيين.

ويواجه المسيحيون - هنا - قضية لا تتفق مع العقل فالمعادلة التي افترضوا فيها أن $3 = 1$ لا يقبلها حتى الأطفال الذين هم في مرحلة الدراسة الابتدائية. ولهذا السبب ادعوا أنّ هذه القضية لا تقاس بمقياس العقل، وطلبوا الإذعان بها عبر ما سمّوه بالرؤية التعبدية القلبية.

وكان هذا التناقض منشأً للتباعد الحاصل لديهم بين الدين والعقل، وسبباً لجر الدين إلى متاهات خطيرة، الأمر الذي اضطرهم إلى القول بأنّ الدين ليس له صلة بالعقل، أو ليس فيه الطابع العقلاني، وأنّه ذو طابع تعبدية محض.

وهذا هو أساس التناقض بين الدين والعلم في منطق المسيحية، فالعلم يحكم بأنّ الثلاثة لا تساوي الواحد، والمسيحية المعاصرة تصر على أنّهما متساويان!

ويجب الإلتفات - هنا - إلى عدّة نقاط حول هذا الاعتقاد المسيحي:

١ - لم يشر أي من الأنجيل المتداولة في الوقت الحاضر إلى مسألة التثليث لذلك يعتقد الباحثون المسيحيون أنّ مصدر التثليث في الأنجيل خفي وغير بارز، وفي هذا المجال يقول الباحث الأمريكي المستر هاكس: «إنّ قضية التثليث تعتبر في العهدين القديم والجديد خفية وغير واضحة، (القاموس المقدس، ص ٣٤٥، طبعة بيروت).

وذكر المؤرخون أن قضية التثليث قد برزت بعد القرن الثالث الميلادي لدى المسيحيين وإن منشأ هذه البدعة كان الغلو من جانب، واختلاط المسيحيين بالأقوام الأخرى من جانب آخر.

ويرى البعض احتمال أن يكون مصدر التثليث عند المسيحيين وارداً من عقيدة الثالوث الهندي، أي عبادة الهنود للآلهة الثلاثة^(١).

٢- إن قضية التثليث القائلة بأن الثلاثة واحد تعتبر أمراً غير معقول أبداً، ويرفضها العقل بالبداهة، والشيء الذي نعرفه هو أن الدين لا يمكنه أن يكون منفصلاً عن العقل والعلم، فالعلم الحقيقي والدين الواقعي كلاهما متفقان ومتناسقان دائماً - ولا يمكن القول بأن الدين أمر تعبدي محض - لأننا لو أزحنا العقل جانباً عند قبول مبادئ الدين وأذعنا للعبادة العمياء الصماء، فلا يبقى لدينا ما يميزه بين الأديان المختلفة.

وفي هذه الحالة، أي دليل يوجب على الإنسان أن يعبد الله ولا يعبد الأصنام؟ وأي دليل يدعو المسيحيين إلى التبشير لدينهم لا للأديان الأخرى؟ ومن هذا المنطلق فإن الخصائص التي يراها المسيحيون لدينهم ويصرّون على دعوة الناس للقبول بها، هي بحد ذاتها دليل على أن الدين يجب أن يعرف بمنطق العقل، وهذا يناقض دعواهم حول قضية التثليث التي يرون فيها انفصال الدين عن العقل.

وليس هناك كلام يستطيع تحطيم الدين أشد وأقبح من أن يقال: إن الدين لا يمتلك طابعاً عقلياً ومنطقياً، وأنه ذو طابع تعبدي محض!

٣- إن الأدلة العديدة التي يستشهد بها - في مجال إثبات التوحيد، ووحداية الذات الإلهية - ترفض كل أنواع الثنية أو التثليث - فإله سبحانه وتعالى هو وجود مطلق لا يحد بالجهات، وهو أزلي أبدي لا حدود لعلمه ولقدرته ولقوته.

١- أنظر دائرة المعارف للقرن العشرين (الفرهد وجدي) في مادة (ثالوث) ...

وبديهى أنه لا يمكن تصور التثنية في اللامتناهي، لأن فرض وجود لا متناهيين يجعل من هذين الإثنين متناهيين ومحدودين، لأن وجود الأوّل يفتقر إلى قدرة وقوة ووجود الثاني كما أن وجود الثاني يفتقر إلى وجود وخصائص الأوّل، وعلى هذا الأساس فإن كلا الوجودين محدودان.

وبعبارة أخرى: إننا لو افترضنا وجود لا متناهيين من جميع الجهات، فلا بدّ حين يصل اللامتناهي الأوّل إلى تخوم اللامتناهي الثاني ينتهي إلى هذا الحد كما أن اللامتناهي الثاني حين يصل إلى حد اللامتناهي الأوّل ينتهي هو أيضاً، وعلى هذا الأساس فإن كليهما يكونان محدودين ولا تنطبق صفة اللامتناهي على أي منهما، بل هما متناهيان محدودان، والنتيجة هي أن ذات الله - الذي هو وجود لا متناه - لا يمكن أن تقبل التعدد أبداً.

وهكذا فإننا لو اعتقدنا بأن الذات الإلهية تتكون من الأقانيم الثلاثة، لا يستلزم أن يكون كل من هذه الأقانيم محدوداً، ولا تصح فيه صفة اللامحدود واللامتناهي، وكذلك فإن أي مركب في تكوينه يكون محتاجاً إلى أجزائه التي تكونه، فوجود المركب يكون معلولاً لوجود أجزائه.

وإذا افترضنا التركيب في ذات الله لزم أن تكون هذه الذات محتاجة أو معلولة لعلّة سابقة في حين إننا نعرف أن الله غير محتاج، وهو العلة الأولى لعالم الوجود، وعلّة العلل كلها منذ الأزل وإلى الأبد.

٤ - بالإضافة إلى كل ما ذكر، كيف يمكن للذات الإلهية أن تتجسد في هيكل إنساني لتصبح محتاجة إلى الجسم والمكان والغذاء واللباس وأمثالها؟ إن فرض الحدود لله الأزلي الأبدي، أو تجسيده في هيكل إنسان ووضع جنيماً في رحم أمّ، يعتبر من أقبح التهم التي تلصق بذات الله المقدسة المنزهة عن كل النقائص، كما أن افتراض وجود الابن لله - وهو يستلزم عوارض التجسيم المختلفة - إنما هو افتراض غير منطقي وبعيد عن العقل بعداً مطلقاً.

بدليل أن أي إنسان لم ينشأ في محيط مسيحي ولم يترب منذ طفولته على هذه التعليمات الوهمية الخاطئة عند ما يسمع هذه التعابير المنافية للفقرة الإنسانية والمخالفة لما يحكم به العقل البشري، يشعر بالسخط والإشمئزاز، وإذا كان المسيحيون أنفسهم لا يرون بأساً في كلمات مثل «الله الأب» و«الله الابن» فما ذلك إلا لأنهم جبلوا على هذه التعاليم الخاطئة منذ نعومة أظفارهم.

٥- لوحظ في السنين الأخيرة أن جماعة من المبشرين المسيحيين يلجؤون إلى أمثلة سفسطائية من أجل خداع الجهلاء من الناس في قبول قضية التثليث. من هذه الأمثلة قولهم أن اجتماع التوحيد والتثليث معاً يمكن تشبيهه بقرص الشمس والنور والحرارة التابعتين من هذا القرص، حيث أنها ثلاثة أشياء في شيء واحد.

أو تشبيههم ذلك بانعكاس صورة إنسان في ثلاث مرايا في آن واحد، فهذا الإنسان مع كونه واحداً إلا أنه يظهر وكأنه ثلاثة في المرايا الثلاث.

كما يشبهون التثليث بالمثلث الذي له ثلاث زوايا من الخارج، ويقولون بأن هذه الزوايا لو مدت من الدخل لوصلت كلها إلى نقطة واحدة؟!

لكننا بالتعمق قليلاً في هذه الأمثلة يتبين لنا أن لا صلة لها بموضوع بحثنا الحاضر، فقرص الشمس شيء ونورها شيء آخر والنور الذي يتكون من الأشعة فوق الحمراء يختلف عن الحرارة التي تتكون من الأشعة دون الحمراء، وهذه الأشياء الثلاثة تختلف الواحدة منها عن الأخرى من حيث النظرة العلمية، وهي ليست بمجموعها شيئاً واحداً من خلال هذه النظرة.

وإذا صح القول بأن هذه الأشياء الثلاثة شيء واحد، إنما يكون ذلك من باب التسامح أو التعبير المجازي ليس إلا.

والأوضح من ذلك مثال الجسم والمرايا الثلاث، فالصورة الموجودة في المرايا عن الجسم ليست إلا انعكاساً للنور، وبديهي أن انعكاس النور عن جسم

معين غير ذات الجسم، وعلى هذا الأساس فليس هناك أي إتحاد حقيقي أو ذاتي بين الجسم وصورته المنعكسة في المرآة، وهذه قضية يدركها حتى الدارس المبتدي لعلم الفيزياء.

أما في مثال المثلث فالأمر واضح كما في المثالين السابقين، حيث أن زوايا المثلث المتعددة لا علاقة لها بالبداية بالإمتداد الداخلي الحاصل للزوايا، والذي يوصلها جميعاً إلى نقطة واحدة.

والذي يثير العجب - أكثر من ذلك - هو محاولة بعض المسيحيين المستشرقين مطابقة قضية «التوحيد في التثليث» مع نظرية «وحدة الوجود» التي يقول بها الصوفيون^(١) والأمر الواضح من غير دليل - في هذا المجال - هو إنَّما لو قبلنا بالنظرية الخاطئة والمنحرفة القائلة بوحدة الوجود، لاقتضى ذلك منَّا أن ندَّعن بأن كل موجودات العالم أو الكون هي جزء من ذات الله سبحانه وتعالى، بل الإذعان بأنَّها هي عين ذاته.

عند ذلك لا يبقى معنى للتثليث، بل تصبح جميع الموجودات - صغيرها وكبيرها - جزءاً أو مظهراً لله سبحانه، وعلى هذا الأساس فلا يمكن تطابق نظرية التثليث المسيحية بالنظرية الصوفية القائلة بوحدة الوجود بأي شكل من الأشكال، علماً بأن النظرية الصوفية هذه قد دحضت وبان بطلانها.

٦ - يقول بعض المسيحيين - أحياناً - إنَّها حين يسمون المسيح ﷺ بـ «ابن الله» إنَّما يفعلون ذلك كما يفعل المسلمون في تسمية سبط الرسول ﷺ الحسين بن علي بن أبي طالب ﷺ بـ «نار الله وابن ناره» أو كالتسمية التي وردت في بعض الروايات لعلي بن أبي طالب ﷺ حيث سُمي فيها بـ «يد الله»، وهؤلاء المسيحيون يفسرون كلمة «نار» بأنَّها تعني الدم، أي أن العبارة الواردة في الحسين الشهيد ﷺ

١ - المراد بوحدة الوجود عند الصوفية، هي وحدة الوجود، ويستدلون بها على أن الوجود ليس أكثر من واحد يظهر في صور مختلفة، وإن هذا الواحد هو الله.

تعني «دم الله وابن دمه».

إنّ هذا الأمر هو عين الخطأ:

أولاً: لأنّ العرب لم تطلق كلمة الثأر أبداً لتعني بها الدم، بل اعتبرت الثأر دائماً ثمناً للدم، ولذلك فإنّ معنى العبارة أن الله هو الذي يأخذ ثمن دم الحسين الشهيد، وأن هذا الأمر منوط به سبحانه وتعالى، أي أنّ الحسين عليه السلام لم يكن ملكاً أو تابعاً لعشيرة أو قبيلة معينة لتطالب بدمه، بل هو يخص العالم والبشرية جمعاء ويكون تابعاً لعالم الوجود وذات الله المقدسة، ولذلك فإنّ الله هو الذي يطالب ويأخذ ثمن دم هذا الشهيد - كما أن الحسين هو ابن علي بن أبي طالب عليه السلام الذي استشهد في سبيل الله، والله هو الذي يطالب ويأخذ ثمن دمه أيضاً.

وثانياً: حين يعبر في بعض الأحيان عن بعض أولياء الله بعبارة «يد الله» فإنّ هذا التعبير - حتماً - من باب التشبيه والكناية والمجاز ليس إلا.

فهل يجيز أي مسيحي لنفسه أن يقال في عبارة «ابن الله» الواردة عندهم في حق المسيح عليه السلام أنّها ضرب من المجاز والكناية؟ بديهي أنّه لا يقبل ذلك، لأنّ المصادر المسيحية الأصلية اعتبرت صفة النبوة لله سبحانه منحصرة بالمسيح عليه السلام وحده وليس في غيره، واعتبروا تلك الصفة حقيقية لا مجازية، وما يبادر إليه بعض المسيحيين من الإدعاء بأن هذه الصفة هي من باب الكناية أو المجاز، إنّما هو من أجل خداع البسطاء من الناس.

ولإيضاح هذا الأمر نحيل القاري إلى كتاب «القاموس المقدس» في مادة «الله» حيث يقول هذا الكتاب بأنّ عبارة «ابن الله» هي واحدة من القاب منجبي ومخلص وفادي المسيحيين، وأنّ هذا اللقب لا يطلق على أي شخص آخر إلا إذا وجدت قرائن تبين بأنّ المقصود هو ليس الابن الحقيقي لله ^(١).



الآيتان

لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدَ اللَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ
وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِي وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيَّ
جَمِيعاً ﴿١٧٦﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ
أَجْرَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِّن فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا
وَأَسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَلَا يُجِدُونَ لَهُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ
وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً ﴿١٧٦﴾

سبب النزول

روى جمع من المفسرين أن هذه الآية نزلت بشأن طائفة من مسيحيي
نجران، حين زاروا النبي محمد ﷺ واستفسروا منه عن سبب اعتراضه على
نبيهم المسيح ﷺ، فسألهم النبي ﷺ عن أي إعتراض هم يتحدثون؟ فقالوا
للنبي ﷺ: «إِنَّكَ تقول بأن المسيح هو عبد الله ورسوله...» فنزلت الآيتان جواباً
على قولهم هذا.

التفسير

المسيح هو عبد الله:

على الرغم من أن هاتين الآيتين لهما سبب نزول خاص بهما، إلا أنهما جاءتا في سياق الآيات السابقة التي تحدثت في نفي الألوهية عن المسيح ﷺ وعلاقتها بالآيات السابقة في دحض قضية التثليث واضحة وجلية.

في البداية تشير الآية الأولى إلى دليل آخر لدحض دعوى ألوهية المسيح، فتقول مخاطبة المسيحيين: كيف تعتقدون بألوهية عيسى ﷺ في حين أن المسيح لم يستنكف عن عبادة الله والخضوع بالعبودية له سبحانه، كما لم يستنكف الملائكة المقربون من هذه العبادة؟ حيث قالت الآية: «لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون».

وبدیهي أن من يكون عبداً لا يمكن أن يصبح معبوداً في آن واحد، فهل يمكن أن يعبد فرد نفسه؟ أو هل يكون العابد والمعبود والرب فرداً واحداً؟

وفي هذا المجال ينقل بعض المفسرين حادثة طريفة تحكي أن الإمام علي بن موسى الرضا ﷺ لكي يدين ويفند عقيدة التثليث المنحرفة قال لكبير المسيحيين في ذلك الحين - وكان يلقب بـ «الجاثليق» - بأن المسيح ﷺ كان حسناً في كل شيء لولا وجود عيب واحد فيه، وهو قلة عبادته لله، فغضب الجاثليق وقال للإمام الرضا ﷺ: ما أعظم هذا الخطأ الذي وقعت فيه، إن عيسى المسيح كان من أكثر أهل زمانه عبادة، فسأله الإمام ﷺ على الفور: ومن كان يعبد المسيح؟! فها أنت قد أقررت بنفسك أن المسيح كان عبداً ومخلوقاً لله وأنه كان يعبد الله ولم يكن معبوداً ولا رباً؟ فسكت الجاثليق ولم يجر جواباً.^(١)

بعد ذلك تشير الآية إلى أن الذين يمتنعون عن عبادة الله والخضوع له بالعبودية، يكون امتناعهم هذا ناشئاً عن التكبر والأنانية وإن الله سيحضر هؤلاء

الناس في يوم القيامة ويجازي كل واحد منهم بالعقاب الذي يناسبه، فتقول الآية: ﴿ومن يستكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً﴾.

وإن الله العزيز القدير سيكافئ في يوم القيامة أولئك الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقاموا بالأعمال الخيرة، ويعطيهم ثوابهم كاملاً غير منقوص ويجزل لهم الثواب والنعم، أما الذين تكبروا وامتنعوا عن عبادة الله، فإنهم سينالون منه عذاباً أليماً شديداً، ولن يجدوا في يوم القيامة لأنفسهم ولياً أو حامياً من دون الله، حيث تقول الآية: ﴿فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفئهم أجورهم ويزيدهم من فضله وأما الذين استكفوا واستكبروا فيعذبهم عذاباً أليماً ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً﴾.

في هذه الآية تقطعان يجب الإلتباه إليهما، وهما:

١- إن كلمة «استكف» تأتي بمعنى الامتناع أو الإستياء الشديد من شيء، ولها معان واسعة، وتحدد معناها - هنا - بما أتى بعدها من قرينة في عبارة «استكبروا» لأن الإمتناع عن عبادة الله ورفض الخضوع له بالعبودية إما ناشئ عن الجهل أو الغفلة. وأحياناً أخرى ينشأ هذا الإمتناع عن التكبر والأنانية والغرور. ومع أن الإمتناعين يعتبران ذنباً، إلا أن الإمتناع الأخير يفوق الأول قبحاً بمراتب كبيرة.

٢- إن الآية جاءت بعبارة توضح عدم استكاف الملائكة المقربين عن عبادة الله، وذلك رداً على المسيحيين الذين يثلثون الآلهة (الأب والابن وروح القدس) ولتدحض عن هذا الطريق فرضية وجود المعبود الثالث الذي ادعاه المسيحيون ومثله في أحد الملائكة المسمى بـ«روح القدس» ولتثبت التوحيد ووحدانية ذات الله سبحانه وتعالى.

وقد تكون هذه الآية إشارة إلى الشرك الذي وقع فيه الوثنيون العرب، والشرك الذي تورط به المسيحيون حيث أن مشركي الجاهلية كانوا يعتبرون

الملائكة أبناء الله سبحانه، أو يعدونهم جزءاً منه، فجاءت هذه الآية لترد عليهم وتدخل أقوالهم هذه.

وعند التعمق في هذين الأمرين يتبين لنا - بجلاء - أن الآية لم تأت لبيان التفاضل بين الملائكة والأنبياء، بل جاءت فقط لدحض عقيدة «الأقنوم الثالث» أو دحض عقيدة المشركين العرب في الملائكة، وليس فيها أي دلالة على مسألة التفاضل بين المسيح عليه السلام وبين الملائكة.

الآياتان

يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَ كُمْ بُزْهَنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا
مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ، فَسَيُدْخِلُهُمْ
فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾

التفسير

النور المبين:

بعد أن تناولت الآيات السابقة بعضاً من إنحرافات أهل الكتاب بالنسبة لمبدأ التوحيد ومبادئ وتعاليم الأنبياء، جاءت الآيتان الأخيرتان لتختما القول في بيان سبيل النجاة والخلاص من تلك الإنحرافات.

لقد توجه الخطاب أولاً إلى عامة الناس، مبيناً أن الله قد بعث من جانبه نبياً يحمل معه الدلائل والبراهين الواضحة، وبعث معه النور المبين المتجسد في القرآن الكريم الذي يهدي الناس إلى طريق السعادة الأبدية، حيث تقول الآية الأولى: «يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وانزلنا إليكم نوراً مبيناً».

ويعتقد بعض العلماء أن كلمة «برهان» المشتقة من المصدر «بره» على وزن «فرح» تعني الإيضاض - ولما كانت الأدلة الواضحة تجلئ للمسامح وجه الحق وتجعله واضحاً مشرقاً أبيض لذلك سميت بـ«البرهان».

والمقصود بالبرهان الوارد في الآية موضوع البحث - وكما يقول جمع من المفسرين وتؤكد ذلك القرائن - هو شخص نبي الإسلام ﷺ، وأن المقصود بالنور هو القرآن المجيد الذي عبرت عنه آيات أخرى بالنور أيضاً.

وقد فسرت الأحاديث المتعددة المنقولة عن أهل البيت عليهم السلام - والتي أوردتها تفاسير «نور الثقلين» و«علي بن إبراهيم» و«مجمع البيان» - أن «البرهان» هو النبي ﷺ و«النور» هو علي بن أبي طالب عليه السلام.

ولا يتنافى هذا التفسير مع ذلك الذي أوردناه قبله، حيث يمكن أن يقصد بعبارة «النور» معان عديدة لتشمل «القرآن» و«أمير المؤمنين علي عليه السلام» الذي يعتبر حافظاً ومفسراً للقرآن ومدافعاً عنه.

وتوضح الآية الثانية عاقبة اتباع هذا البرهان وهذا النور، فتؤكد على أن الذين آمنوا بالله وتمسكوا بهذا الكتاب السماوي، سيدخلهم الله عاجلاً في رحمته الواسعة، ويجزل لهم الثواب من فضله ورحمته، ويهديهم إلى الطريق المستقيم. تقول الآية: «فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً»^(١).

* * *

١- راجع تفسير سورة الحمد في تفسيرنا هذا الجزء الأول للإطلاع على تفسير عبارة «الصراط المستقيم».

الآية

يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلْبَةِ إِنَّ أَمْرًا هَلَكَ لَيْسَ لَهُ
وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِيهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا
وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتْ أَنْثَىٰ فَلَهَا النُّثْلَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً
رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَىٰ إِنَّ اللَّهَ لَكُمُ أَنْ
تَصَلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٧٦﴾

سبب النزول

نقل الكثير من المفسرين عن جابر بن عبد الله الأنصاري قوله بأنه كان يعاني من مرض شديد، فعاده النبي ﷺ وتوضأ عنده ورش عليه من ماء وضوئه ﷺ، فذكر جابر - وهو يفكر في الموت - للنبي ﷺ بأن ورثته هن اخواته فقط، واستفسر من النبي ﷺ عن كيفية تقسيم الإرث بينهن، فنزلت هذه الآية والتي تسمى - أيضاً - بـ «آية الفرائض» وبيّنت طريقة تقسيم الإرث بينهن (وقد وردت الرواية المذكورة أعلاه بفارق طفيف في تفاسير «مجمع البيان» و«التيبان» و«المنار» و«الدر المنثور» وغيرها من التفاسير...).

ويعتقد البعض أن هذه الآية هي آخر آية من آيات الأحكام نزلت على

النبي ﷺ^(١).

التفسير

تبين الآية الواردة أعلاه كمية الإرث للأخوة والأخوات، وقد بيّنا في أوائل سورة النساء - في تفسير الآية الثانية عشر منها - إن القرآن اشتمل على آيتين توضحان مسألة الإرث للأخوة والأخوات وإن إحدى هاتين الآيتين هي الآية الثانية عشرة من سورة النساء، والثانية هي الآية الأخيرة موضوع بحثنا هذا وهي آخر آية من سورة النساء.

وعلى الرغم مما ورد من إختلاف في الآيتين فيما يخص مقدار الإرث، إلا أن كل آية من هاتين الآيتين تتناول نوعاً من الأخوة والأخوات كما أوضحنا في بداية السورة.

فالآية الأولى تخصُّ الأخوة والأخوات غير الأشقاء، أي الذين هم من أمٍّ واحدة وآباء متعددين.

أما الآية الثانية أي الأخيرة، فهي تتناول الإرث بالنسبة للأخوة الأشقاء، أي الذين هم من أمٍّ واحدة وأب واحد، أو من أمهات متعدّدات وأب واحد.

والدليل على قولنا هذا، أن من ينتسب إلى شخص المتوفى بالواسطة يتعين إرثه بمقدار ما يرثه الواسطة من شخص المتوفى.

فالأخوة والأخوات غير الأشقاء - أي الذين هم من أمٍّ واحدة وآباء متعددين - يرثون بمقدار حصّة أمهم من الإرث والتي هي الثلث.

أما الأخوة والأخوات الأشقاء - أي الذين هم من أمٍّ واحدة وأب واحد، أو من أب واحد وأمّهات متعدّدات - فهم يرثون بمقدار حصّة والدهم من الإرث التي هي الثلثان.

ولما كانت الآية الثانية عشرة من سورة النساء تتحدث عن حصّة الثلث من الإرث للأخوة والأخوات، وتتناول الآية الأخيرة حصّة الثلثين، لذلك يتّضح أن الآية السابقة تخصُّ الأخوة والأخوات غير الأشقاء الذين يرتبطون بشخص

المتوفى عن طريق أمهم، وأن الآية الأخيرة تخص الأخوة والأخوات الأشقاء الذين يرتبطون بشخص المتوفى عن طريق الأب أو عن طريق الأم معاً. والروايات الواردة عن الأئمة عليهم السلام في هذا المجال تؤكد هذه الحقيقة أيضاً. وعلى أي حال فإن كانت حصّة الأخ أو الأخت هي الثلث أو الثلثان، فإن الباقي من الإرث يوزع بناء على القانون الإسلامي بين الباقين من الورثة، وهكذا وبعد أن توضح لنا عدم وجود أي تناقض بين الآيتين، نستطرق الآن إلى تفسير الأحكام الواردة في الآية الأخيرة.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الآية جاءت لتفصل إرث الكلاله أي إرث الأخوة والأخوات^(١) فتقول الآية: «يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلاله...» أي يسألونك فخيرهم بأن الله هو الذي يعين حكم «الكلاله» (أي الأخوة والأخوات). بعد ذلك تشير الآية إلى عدد من الأحكام، وهي:

١- إذا مات رجل ولم يكن له ولد وكانت له أخت واحدة، فإن هذه الأخت ترث نصف ميراثه تقول الآية الكريمة: «إن أمراً هلك ليس له ولد وله أخت فلها نصف ما ترك...».

٢- وإذا ماتت امرأة ولم يكن لها ولد، وكان لها أخ واحد - شقيق من أبيها وحده أو من أبيها وأمها معاً - فإن أختها الوحيدة يرثها، تقول الآية: «وهو يرثها إن لم يكن لها ولد...».

٣- وإذا مات شخص وكانت له أختان فقط، فإنهما ترثان ثلثي ما تركه من الميراث، تقول الآية الكريمة: «فإن كانتا اثنتين فلها الثلثان مما ترك...».

٤- وإذا كان ورثة الشخص المتوفى عدداً من الأخوة والأخوات أكثر من اثنين، فإن ميراثه يقسم جميعه بينهم، بحيث تكون حصّة الأخ من الميراث ضعف

١- لمعرفة معنى «الكلاله» وسبب إطلاقها على الأخوة والأخوات، راجع تفسير الآية الثانية عشرة من سورة النساء.

حصّة الأخت الواحده منه. تقول الآية الكريمة: «وإن كانوا أخوة رجالاً ونساء فللذكر مثل حظ الأنثيين...».

وفي الختام تؤكد الآية أنّ الله يبيّن للناس هذه الحقائق لكي يصونهم من الانحراف والضلالة، ويدلهم على طريق الصواب والسعادة (و تحقيق أن يكون الطريق الذي يرسمه الله للناس ويهديهم إليه هو الطريق الصحيح) والله هو العالم العارف بكل شيء، وفي هذا المجال تقول الآية الكريمة: «يبيّن الله لكم أن تزلوا والله بكل شيء عليم»^(١).

والجدير بالذكر هنا أنّ الآية - موضوع البحث - إنّما تبيّن إرث الأخوة والأخوات في حالة عدم وجود ولد الشخص المتوفى، ولم تتطرق الآية إلى وجود الأب والأم للشخص المتوفى، ولكن بناء على الآيات الواردة في بداية سورة النساء - فإن الأب والأم يأتون في مصاف الأبناء في الطبقة الأولى من الوارثين، ولذلك يتوضح أن المقصود من الآية الأخيرة هي حالة عدم وجود أبناء وعدم وجود أبوين للشخص المتوفى.

إنّتهى تفسير سورة النساء



١ - وجملته «أن تزلوا» بمعنى «أن لا تزلوا» حيث تكون كلمة «لا» مقدرة، والقرآن وكلام العرب الفصحاء مليان بمثل هذه التعابير البليغة.

سُورَةٌ الْمَائِدَةُ

مدنية

وعدد آياتها مائة وعشرون آية

محتويات سورة المائدة

إنّ هذه السورة من السور المدنية، وتشتمل على مئة وعشرين آية، وقيل أنّها نزلت بعد سورة الفتح، وتدل روايات على أنّها نزلت كلّها في فترة حجة الوداع بين مكة والمدينة^(١).

وتشتمل هذه السورة على مجموعة من المعارف والعقائد الإسلامية بالإضافة إلى سلسلة من الأحكام والواجبات الدينية.

وقد وردت في القسم الأوّل منها الإشارة إلى قضية الخلاف بعد النبي ﷺ وقضايا أخرى مثل: عقيدة التثليث المسيحية، ومواضيع خاصّة بيوم القيامة والحشر واستجواب الأنبياء حول أمهم.

أما القسم الثاني فقد اشتمل على قضية الوفاء بالعهود والمواثيق، وقضايا العدالة الاجتماعية، والشهادة العادلة، وتحريم قتل النفس (من خلال ذكر قضية إبني آدم، وقتل قابيل لأخيه هابيل) بالإضافة إلى بيان أقسام من الأغذية المحرمة والمحللة، وأقسام من أحكام الوضوء والتيمم.

أما وجه تسمية السورة بـ «سورة المائدة» فهو لورود قصة نزول المائدة السماوية على حوارى المسيح ﷺ في الآية (١١٤) منها.



١ - تفسير المنار - الجزء السادس، ص ١١٦، ويجب الإنتباه إلى أنّ المقصود بالسورة المدنية، هو نزولها بعد هجرة النبي ﷺ من مكة إلى المدينة، حتى لو لم تكن السورة قد نزلت في المدينة نفسها.

الآية

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ
إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا
يُرِيدُ ﴿١﴾

التفسير

الإلزام بالوفاء بالعهد والميثاق:

تدل الروايات الإسلامية وأقوال المفسرين على أن هذه السورة هي آخر
سورة أو من السور الأخيرة التي نزلت على النبي ﷺ، وقد ورد في تفسير
العياشي نقلاً عن الإمام الباقر عليه السلام أن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام قال: «نزلت
المائدة قبل أن يقبض النبي ﷺ بشهرين أو ثلاثة»^(١).

وما ورد بشأن هذه السورة من أنها من السور الناسخة وليست المنسوخة
يعتبر إشارة إلى المعنى المذكور أعلاه.

ولا يتنافى هذا الكلام مع ذلك الذي ورد في الجزء الثاني من تفسيرنا هذا -

١ - تفسير البرهان - الجزء الأول، ص ٤٣٠، يجب الإتيان به إلى أن ورد أحكام الوضوء والتميم وأمثالهما في هذه
السورة، لا ينافي كونها آخر سورة من سور القرآن. لأن أغلب هذه الأحكام لها طابع تكراري، أي أنها وردت بصورة
مكررة للتأكيد عليها، لذلك نرى بعضاً من هذه الأحكام قد وردت في سورة النساء أيضاً.

في هامش الآية (٢٨١) من سورة البقرة - حيث قلنا هناك بأن هذه الآية هي آخر آية نزلت على النبي ﷺ لأن كلامنا الحالي هو عن آخر سورة نزلت على النبي ﷺ وكلامنا السابق كان عن آية واحدة.

لقد تمّ التأكيد في هذه السورة - لما تمازجه من موقع خاص - على مجموعة من المفاهيم الإسلامية، وعلى آخر البرامج والمشاريع الدينية، وقضية قيادة الأمة وخلافة النبي ﷺ، وقد يكون هذا هو السبب في استهلال سورة المائدة بقضية الإلزام بالوفاء بالعهد والميثاق، حيث تقول الآية في أول جملة لها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ...﴾ وذلك لكي تلزم المؤمنين بالوفاء بعهودهم التي عقدها في الماضي مع الله أو تلك التي أشارت إليها هذه السورة.

ويأتي هذا التأكيد على غرار ما يفعله المسافر في اللحظات الأخيرة، من الوداع مع أهله وأقاربه وأنصاره حيث يؤكد عليهم أن لا ينسوا وصاياه ونصائحه، وأن يوفوا بالعهود والمواثيق التي عقدها معه.

ويجب الالتفات إلى أن كلمة «عقود» هي صيغة جمع من «عقد» التي تعني في الأصل شد أطراف شيء معين ببعضها شداً محكماً، ومن هنا يسمّى شد طرفي الحبل أو شد حبلين ببعضهما «عقداً».

بعد ذلك تنتقل الآية من هذا المعنى المحسوس إلى المفهوم المعنوي فتسمي كل عهد أو ميثاق عقداً، لكن بعض المفسرين - قالوا بأن كلمة «عقد» مفهوم أضيق من العهد، لأن كلمة العقد تطلق على العهود المحكمة إحكاماً كافياً، ولا تطلق على كل العهود، وإذا وردت في بعض الروايات أو في عبارات المفسرين كلمتا العقد والعهد للدلالة على معنى واحد فذلك لا ينافي ما قلناه، لأن المقصود في هذه الروايات أو العبارات هو التفسير الإجمالي لهاتين الكلمتين لا بيان جزئياتهما.

ونظراً لأن كلمة العقود هي صيغة جمع دخلت عليها الألف واللام للدلالة

على الإستغراق، والجملة التي وردت فيها هذه الكلمة جملة مطلقة أيضاً إطلافاً تاماً، لذلك فإن الآية - موضوع البحث - تعتبر دليلاً على وجوب الوفاء بجميع العهود التي تعقد بين أفراد البشر بعضهم مع البعض الآخر، أو تلك العهود التي تعقد مع الله سبحانه وتعالى عقداً محكماً.

وبذلك تشمل هذه الآية جميع العهود والمواثيق الإلهية والإنسانية والإتفاقيات السياسية والإقتصادية والإجتماعية، والتجارية، وعقود الزواج، وأمثال ذلك، ولها مفهوم واسع يطوي بين جنبه جميع جوانب حياة الإنسان العقائدية والعملية، ويشمل العهود الفطرية والتوحيدية وحتى العهود التي يعقدها الناس فيما بينهم على مختلف قضايا الحياة.

وجاء في تفسير «روح المعاني» عن «الراغب الأصفهاني» أن العقد - نظراً لطرفه ينقسم إلى ثلاثة أنواع، فأحياناً يكون عقداً بين العبد وربّه، وطوراً بين الفرد ونفسه، وحيناً بين الفرد ونظائره من سائر أفراد البشر^(١). وطبيعي أن لكل من هذه الأنواع الثلاثة من العقود طرفين، وغاية الأمر أن الإنسان حين يتعاقد مع نفسه يفترض هذه النفس بمثابة الشخص الثاني، أو الطرف الآخر من العقد.

وعلى أي حال، فإن مفهوم هذه الآية - لسعته - يشمل حتى تلك العقود والعهود التي يقيمها المسلمون مع غير المسلمين.

وهناك عدّة أمور في هذه الآية يجب الإلتباه إليها وهي:

١ - تعتبر هذه الآية من الآيات التي تستدل بها جميع كتب الفقه، في البحوث الخاصة بالحقوق الإسلامية وتستخلص منها قاعدة فقهية مهمة هي «أصالة اللزوم في العقود» أي أن كل عقد أو عهد يقام بين اثنين حول أشياء أو أعمال يكون لازم التنفيذ.

١ - تفسير «روح المعاني» الآية موضوع البحث.

ويعتقد جمع من الباحثين أن أنواع المعاملات والشركات والإتفاقيات الموجودة في عصرنا الحاضر، والتي لم يكن لها وجود في السابق، أو التي ستوجد بين العقلاء في المستقبل، والتي تقوم على أسس ومقاييس صحيحة - تدخل ضمن هذه القاعدة، حيث تؤكد هذه الآية صحتها جميعاً (وطبيعي أن الضوابط الكلية التي أقرها الإسلام للعقود والعهود يجب أن تراعى في هذا المجال).

والإستدلال بهذه الآية كقاعدة فقهية ليس معناه أنها لا تشمل العهود الإلهية المعقودة بين البشر وبين الله تعالى، أو القضايا الخاصة بالقيادة والزعامة الإسلامية التي أخذ النبي ﷺ العهد والميثاق فيها من الأمة، بل إنّ للآية مفهوماً واسعاً يشمل جميع هذه الأمور.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن حقيقة العهد والميثاق ذات طرفين، ولزوم الوفاء بالعهد يبقى سارياً مادام لم يقم أحد من المتعاقدين بنقض العهد، ولو نقض أحد الطرفين العقد لم يكن الطرف الثاني عند ذلك ملزماً بالوفاء بالعهد إذ يخرج العهد بهذا النقض من حقيقة العهد والميثاق.

٢- إنّ قضية الوفاء بالعهد والميثاق التي تطرحها الآية - موضوع البحث - تعتبر واحداً من أهم مستلزمات الحياة الإجتماعية، إذا بدونها لا يتم أي نوع من التعاون والتكافل الإجتماعي، وإذا فقد نوع البشر هذه الخصلة فقدوا بذلك حياتهم الإجتماعية وآثارها أيضاً.

ولهذا تؤكد مصادر التشريع الإسلامي بشكل لا مثيل له - على قضية الوفاء بالعهد التي قد تكون من القضايا النواذر التي تمتاز بهذا النوع من السعة والشمولية، لأنّ الوفاء لو انعدم بين ابناء المجتمع الواحد لظهرت الفوضى وعم الإضطراب فيه وزالت الثقة العامة، وزوال الثقة يعتبر من أكبر وأخطر الكوارث. وقد ورد في نهج البلاغة من قول الإمام علي بن أبي طالب ؑ لمالك

الأشترع ما يلي:

«فإنه ليس من فرائض الله شيء للناس أشد عليه اجتماعاً - مع تفرق أهوائهم وتشتت آرائهم - من تعظيم الوفاء بالعهد، وقد لزم ذلك المشركون فيما بينهم - دون المسلمين - لما استوبلوا من عواقب الغدر»^(١).

وجملة «لما استوبلوا من عواقب الغدر» معناها: لما نالهم من وبال من عواقب الغدر.

وينقل عن الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: «إن الله لا يقبل إلا العمل الصالح، ولا يقبل الله إلا الوفاء بالشروط والعهد»^(٢).

ونقل عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «لا دين لمن لا عهد له»^(٣).

والتأكيدات الشديدة هذه كلها تدل على أن موضوع الوفاء بالعهد لا فرق في الالتزام به بين إنسان وإنسان آخر - سواء كان مسلماً أو غير مسلم - وهو - كما يصطاح عليه - يعتبر من حقوق الإنسان بصورة عامة، وليس - فقط - من حقوق أنصار الدين الواحد.

وفي حديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «ثلاث لم يجعل الله عز وجل لأحد فيهن رخصة: أداء الأمانة إلى البر والفاجر، والوفاء بالعهد للبر والفاجر، وبر الوالدين برين كانا أو فاجرين»^(٤).

نقل عن الإمام علي عليه السلام بأن العهد حتى لو كان بالإشارة يجب الوفاء به، وذلك في قوله: «إذا أومى أحد من المسلمين أو أشار إلى أحد من المشركين، فنزل على ذلك فهو في أمان»^(٥).



١- نهج البلاغة، رسائل الإمام علي عليه السلام، الرسالة ٥٣.

٢- سفينة البحار، الجزء الثاني، ص ٢٩٤.

٣- البحار، الجزء السادس عشر، ص ١٤٤.

٤- أصول الكافي، ج ٢، ص ١٦٢.

٥- مستدرک الوسائل، ج ٢، ص ٢٥٠.

وبعد أن تطرقت الآية إلى حكم الوفاء بالمهد والميثاق - سواء كان إلهياً أو إنسانياً محضاً - أردفت بيان مجموعة أخرى من الأحكام الإسلامية، كان الأوّل منها حلية لحوم بعض الحيوانات، فبيّنت أن المواشي واجتنتها تحل لحومها على المسلمين، حيث تقول الآية: «أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ» وكلمة «الأنعام» صيغة جمع من «نعم» وتعني الإبل والبقر والأغنام^(١).

أما كلمة «بهيمة» فهي مشتقة من المصدر «بهمة» على وزن «تهمة» وتعني في الأصل الحجر الصلب، ويقال لكل ما يعسر دركه «مبهماً» وجميع الحيوانات التي لا تمتلك القدرة على النطق تسمى «بهيمة» لأن أصواتها تكون مبهمّة للبشر، وقد جرت العادة على إطلاق كلمة «بهيمة» على المواشي من الحيوانات فقط، فأصبحت لا تشمل الحيوانات الوحشية والطيور.

ومن جانب آخر فإن جنين المواشي يطلق عليه اسم «بهيمة» لأنه يكون مبهماً نوعاً ما.

وعلى الأساس المذكور فإنّ حكم حلية «بهيمة الأنعام» يشمل إمّا جميع المواشي ما عدا التي استثنتها الآية فيما بعد، أو تكون الجملة بمعنى أجنة الحيوانات من ذوات اللحم الحلال (تلك الأجنة التي اكتمل نموها وهي في بطن أمّها، وكسى جلدها بالشعر أو الصوف)^(٢).

ولما كان حكم حلية حيوانات كالإبل والبقر والأغنام قد تبين للناس قبل هذه الآية، لذلك من المحتمل أن تكون الآية - موضوع البحث - إشارة إلى حلية أجنة هذه الحيوانات.

والظاهر من الآية أنّها تشمل معنى واسعاً، أي تبين حلية هذه الحيوانات

١- إذا جاءت كلمة «نعم» مفردة فهي تعني الإبل. وإذا جاءت جمعاً فتعني الأنواع الثلاثة. مفردات الرغيب مادة (نعم).

٢- لو قلنا: إنّ كلمة «بهيمة» تعني الحيوانات وحدها دون الأجنة، لكانت إضافة كلمة «بهيمة» إلى كلمة «أنعام» إضافة بيانية، أما إذا قلنا: إنها تعني الأجنة أيضاً، تكون هذه الإضافة «لامية».

بالإضافة إلى حلية لحوم أجنحتها أيضاً، ومع أنّ هذا الحكم كان قد توضح في السابق إلاّ أنّه جاء مكرراً في هذه الآية كمقدمة للإستثناءات الواردة فيها.

ويستبين لنا ممّا تقدم أن علاقة الجملة الأخيرة وحكمها بالأصل الكلي - الذي هو لزوم الوفاء بالعهد - هي التأكيد على كون الأحكام الإلهية نوعاً من العهد بين الله وعباده - حيث تعتبر حلية لحوم بعض الحيوانات وحرمة لحوم البعض الآخر منها قسماً من تلك الأحكام.

وفي الختام تبين الآية موردين تستثنيهما من حكم حلية لحوم المواشي، وأحد هذين الموردين هو اللحوم التي سيتم بيان حرمتها فيما بعد، حيث تقول الآية: ﴿إلا ما يتلى عليكم﴾ والمورد الثاني هو أن يكون الإنسان في حالة إحرام للحج أو العمرة، حيث يحرم عليه الصيد في هذه الحالة، فتقول الآية: ﴿غير محلي الصيد وأنتم حرم﴾^(١).

وفي آخر الآية يأتي التأكيد على أنّ الله إذا أراد شيئاً أو حكماً أنجزه أو أصدره، لإنه عالم بكل شيء، وهو مالك الأشياء كلها، وإذا رأى أن صدور حكم تكون فيه مصلحة عباده وتقتضي الحكمة صدوره، أصدر هذا الحكم وشرعه، حيث تقول الآية في هذا المجال: ﴿إنّ الله يحكم ما يريد﴾.



١ - طبيعي أن جملة «إلا ما يتلى عليكم» هي جملة إستثنائية، وإن جملة «غير محلي الصيد» هي حال من ضمير «كم» وتكون نتيجة للإستثناء بحسب المعنى.

الآية

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحِلُّوا شَعَثِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا
أَهْدَىٰ وَلَا الْفَلْتِنَةَ وَلَا ءَامِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن
رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ
أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ
وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ
شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٦﴾

التفسير

ثمانية احكام في آية واحدة:

لقد بيّنت هذه الآية عدداً من الأحكام الإلهية الإسلامية المهمة، وهي من
الأحكام الأواخر التي نزلت على النبي ﷺ وكلها أو أغلبها تتعلق بحج بيت الله،
وهي على الوجه التالي:

١- الطلب من المؤمنين بعدم انتهاك شعائر الله، ونهيمهم عن المساس بحرمة
هذه الشعائر المقدسة، كما تقول الآية الكريمة: «يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا
شعائر الله...» واختلف المفسرون حول المراد بكلمة «الشعائر» الواردة هنا،
وبالنظر إلى الأجزاء الأخرى من هذه الآية، وإلى السنة التي نزلت فيها وهي السنة

العاشرة للهجرة التي أدى فيها النبي ﷺ آخر حجة إلى مكة المكرمة هي حجة الوداع، يتضح أن المراد بهذه الكلمة مناسك الحج التي كلف المسلمون باحترامها كلها، ويؤكد هذا الرأي مجيء كلمة «الشعائر» في القرآن الكريم مقترنة بالحديث عن مناسك الحج دائماً^(١).

٢- دعت الآية إلى احترام الأشهر الحرم وهي شهور من السنة القمرية، كما نهت عن الدخول في حرب في هذه الشهور، حيث قالت: «ولا الشهر الحرام...». ٣- حرمت الآية المساس بالقرابين المخصصة للذبح في شعائر الحج، سواء ما كان منها ذا علامة وهو المسمى بـ «الهدى»^(٢) أو تلك الخالية من العلامات والتي تسمى بـ «القلائد»^(٣) أي نهت عن ذبحها وأكل لحومها حتى تصل إلى محل القران للحج وتذبح فيه، فقالت الآية: «ولا الهدى ولا القلائد...».

٤- أوجبت الآية توفير الحرية التامة لحجاج بيت الله الحرام أثناء موسم الحج، الذي تزول خلاله كل الفوارق القبلية والعرقية واللغوية والطبقية، ونهت عن مضايقة المتوجهين إلى زيارة بيت الله الحرام ابتغاء لمرضاته، أو حتى الذين توجهوا إلى هذه الزيارة وهم يحملون معهم أهدافاً أخرى كالتجارة والكسب الحلال لا فرق فيهم بين صديق أو غريم، فما داموا كلهم مسلمين وقصدهم زيارة بيت الله، فهم يتمتعون بالحصانة كما تقول الآية الكريمة: «ولا آمين البيت الحرام يبتغون فضلاً من ربهم ورضواناً...».

يعتقد بعض المفسرين والفقهاء أن الجملة القرآنية المذكورة أعلاه ذات معنى عام وتشمل غير المسلمين، أي المشركين أيضاً إن هم جاءوا لزيارة بيت الله الحرام يجب أن يتعرضوا للمضايقة من قبل المسلمين.

١- سورة البقرة، الآية ١٥٨ وسورة الحج، الأيتان ٣٢ و٣٦.

٢- الهدى أجمع «هدية» وهو يعني هنا المواشي التي تهدي لتكون قرابين إلى بيت الله الحرام.

٣- القلائد جمع «قلادة» وهي الشيء الذي يوضع حول رقبة الإنسان أو الحيوان، وتعني هنا المواشي التي تعلم بالقلائد لذبحها في مراسم الحج

ولكن نظراً لنزول آية تحريم دخول المشركين إلى المسجد الحرام في سورة التوبة التي نزلت في العام التاسع للهجرة، ونزول سورة المائدة في أواخر عمر النبي الكريم ﷺ أي في العام العاشر للهجرة وهي سورة لم يطرأ النسخ على أي من الأحكام الواردة فيها - بحسب روايات الطائفتين الشيعة والسنة - لذلك يستبعد أن يكون هذا التفسير صحيحاً، والحق أن الحكم المذكور خاص بالمسلمين وحدهم.

٥ - لقد خصصت هذه الآية حكم حرمة الصيد بوقت الإحرام فقط، وأعلنت أن الخروج من حالة الإحرام إيدان بجواز الصيد للمسلمين - حيث تقول الآية الكريمة: «وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا».

٦ - منعت هذه الآية الكريمة المسلمين من مضايقة أولئك النفر من المسلمين الذين كانوا قبل إسلامهم يضايقون المسلمين الأوائل في زيارة بيت الله الحرام ويمنعونهم من أداء مناسك الحج، وكان هذا في واقعة الحديبية، فمنع المسلمون من تجديد الأحقاد ومضايقة أولئك النفر في زمن الحج بعد أن أسلموا وقبلوا الإسلام لهم ديناً، تقول الآية الكريمة: «وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ ۖ إِنَّ صَدُوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا»^(١).

ومع أن هذا الحكم قد نزل في مجال زيارة بيت الله الحرام، لكنه - في الحقيقة - يعد حكماً عاماً، وقانوناً كلياً يدعو المسلمين إلى نبذ «الحقد» وعدم إحياء الأحداث السابقة في أذهانهم بهدف الانتقام من مسببها.

ولما كانت خصلة الحقد إحدى عناصر ظهور وبروز النفاق والفرقة لدى المجتمعات يتضح لنا - منذ ذلك - جلياً أهمية هذا الحكم الإسلامي في التصدي والوقوف بوجه استعمار نار النفاق بين المسلمين وبالأخص في زمن كان نبي

١ - تفيد أقوال أهل اللغة والتفسير أن كلمة «جرم» تعني في الأصل قطع الثمار أو قطفها من الأغصان قبل الأوان، وتطلق - أيضاً - على كل عمل مكروه، كما تطلق على الآخرين بالقيام بعمل غير محبوب - وهنا فإن عبارة «لا يجرمنكم» تعني لا يحملنكم على القيام بعمل غير صائب.

الإسلام ﷺ يوشك على وداع المسلمين والرحيل عنهم.

٧- تؤكد الآية - جرياً على سياق البحث الذي تناولته وبهدف إكماله - على أنّ المسلمين بدلاً من أن يتحدوا للانتقام من خصومهم السابقين الذين أسلموا - وأصبحوا بحكم إسلامهم أصدقاء - عليهم جميعاً أن يتحدوا في سبيل فعل الخيرات والتزام التقوى، وأن لا يتعاونوا - في سبيل الشر والعدوان تقول الآية: ﴿وتعاونوا على البرِّ والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان...﴾.

٨- ولكي تعزز الآية الأحكام السابقة وتؤكدّها تدعو المسلمين في الحتام إلى اتّباع التقوى وتجنّب معصية الله، محذره من عذاب الله الشديد، فتقول: ﴿واتقوا الله إنّ الله شديد العقاب﴾.

التعاون في أعمال الخير:

إنّ الدعوة إلى التعاون التي تؤكد عليها الآية الكريمة تعتبر مبدأً إسلامياً عاماً، تدخل في إطاره جميع المجالات الإجتماعية والأخلاقية والسياسية والحقوقية وغيرها، وقد أوجبت هذه الدعوة على المسلمين التعاون في أعمال الخير، كما منعتهم ونهتهم عن التعاون في أعمال الشرّ والإثم اللّذين يدخل إطارهما الظلم والإستبداد والجور بكل أصنافها.

ويأتي هذا المبدأ الإسلامي تماماً على نقيض مبدأ ساد في العصر الجاهلي، وما زال يطبق حتى في عصرنا الحاضر، وهو المبدأ القائل: «أضر أخاك ظالماً أو مظلوماً»، وكان في العصر الجاهلي إذا غزت جماعة من إحدى القبائل جماعة من قبيلة أخرى، هب أفراد القبيلة الغازية لموازرة الغازين بغض النظر عمّا إذا كان الغزو لغرض عادل أو ظالم، ونرى في وقتنا الحاضر - أيضاً - آثار هذا المبدأ الجاهلي في العلاقات الدولية، وبالذات لدى الدول المتحالفة حين تهب في الغالب لحماية بعضها البعض، والتضامن والتعاون معاً حيال القضايا الدولية دون رعاية لمبدأ العدالة ودون تمييز بين الظالم والمظلوم: لقد ألغى الإسلام هذا المبدأ

الجاهلي، ودعى المسلمين إلى التعاون في أعمال الخير والمشاريع النافعة والبناء فقط، ونهى عن التعاون في الظلم والعدوان.

والطريق في هذا المجال هو مجيء كلمتي «البر» و«التقوى» معاً وعلى التوالي في الآية، حيث أن الكلمة الأولى تحمل طابعاً إيجابياً وتشير إلى الأعمال النافعة، والثانية لها طابع النهي والمنع وتشير إلى الإمتناع عن الأعمال المنكرة - وعلى هذا الأساس - أيضاً - فإن التعاون والتآزر يجب أن يتم سواء في الدعوة إلى عمل الخير، أو في مكافحة الأعمال المنكرة.

وقد استخدم الفقه الإسلامي هذا القانون في القضايا الحقوقية، حيث حرّم قسماً من المعاملات والعقود التجارية التي فيها طابع الإعانة على المعاصي أو المنكرات، كبيع الأعتاب إلى مصانع الخمور أو بيع السلاح إلى أعداء الإسلام وأعداء الحق والعدالة، أو تأجير محل للإكتساب لتمارس فيه المعاملات غير الشرعية والأعمال المنكرة (وبديهي أن لهذه الأحكام شروطاً تناولتها كتب الفقه الإسلامي بالتوضيح).

إن إحياء هذا المبدأ لدى المجتمعات الإسلامية، وتعاون المسلمين في أعمال الخير والمشاريع النافعة البناءة دون الإهتمام بالعلاقات الشخصية والعرقية والنسبية، والإمتناع عن تقديم أي نوع من التعاون إلى الأفراد الذين يمارسون الظلم والعدوان، بغض النظر عن تبعية أو انتمائية الفئة الظالمة، كل ذلك من شأنه أن يزيل الكثير من النواقص الإجتماعية.

أما في العلاقات الدولية، فلو امتنعت دول العالم عن التعاون مع كل دولة معتدية - أيًا كانت - لقتضي بذلك على جذور العدوان والإستعمار والإستغلال في العالم، ولكن حين ينقلب الوضع فتتعاون الدول مع المعتدين والظالمين بحجة أن مصالحهم الدولية تقتضي ذلك، فلا يمكن توقع الخير أبداً من وضع كالذي يسود العالم اليوم.

لقد تناولت الأحاديث والروايات الإسلامية هذه القضية بتأكيد كبير،

ونورد - هنا - بعضاً منها على سبيل المثال لا الحصر.

١- نقل عن النبي محمد ﷺ في هذا المجال قوله: «إذا كان يوم القيامة نادى مناد: أين الظلمة وأعوان الظلمة وأشباه الظلمة حتى من يرى لهم قلماً ولاق لهم دواة؟ قال: فيجتمعون في تابوت من حديد ثم يرمى بهم في جهنم»^(١).

٢- نقل عن صفوان الجمال، وهو أحد أنصار الإمام السابع موسى بن جعفر الكاظم ﷺ، بأنه تشرف بلقاء الإمام ﷺ فقال له الكاظم ﷺ: يا صفوان كل شيء منك حسن جميل ما خلا شيئاً واحداً.

قامت: جعلت فداك، أي شيء؟

قال: كراؤك جمالك من هذا الرجل، يعني هارون.

قال: والله ما أكريته أشراً ولا بطراً ولا للصيد ولا للهو ولكني أكريته لهذا الطريق - يعني طريق مكة - ولا أتولاه بنفسي، ولكن أبعث معه غلماني.

فقال لي: يا صفوان، أيقع كراؤك عليهم؟

قلت: نعم.

قال: من أحب بقاءهم فهو منهم، ومن كان منهم كان ورد النار... إلى آخر

الحديث^(٢).

وفي حديث عن النبي ﷺ خاطب به علياً ﷺ قائلاً:

«يا علي كفر بالله العلي العظيم من هذه الأمة عشرة... وبائع السلاح لأهل

الحرب»^(٣).



١- وسائل الشريعة، ج ١٢، ص ١٣١.

٢- الوسائل، ج ١٢، ص ١٣١-١٣٢.

٣- وسائل الشريعة، ج ١٢، ص ٧١.

الآية

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ
وَالْمُنْخَبِتَةُ وَالْمَوْقُودَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا
مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَمِ ذَلِكَ
فِسْقٌ الْيَوْمَ بَيِّنٌ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ
وَأَخْشَوْنَ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي
وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِيناً فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرِ
مُتَجَانِفٍ لِإِيْمِهِ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣﴾

التفسير

لقد تمت الإشارة في بداية السورة إلى الحلال من لحوم المواشي،
وورد - أيضاً - أن هناك استثناءات تحرم فيها لحوم المواشي، حيث ذكرتها الآية
الأخيرة - موضوع البحث - في أحد عشر مورداً تكرر ذكر بعضها في آيات
قرآنية أخرى على سبيل التأكيد.

والمحرمات التي وردت في هذه الآية، بحسب الترتيب الذي جاءت عليه

كما يلي:

أولاً: الميتة.

ثانياً: الدم.

ثالثاً: لحم الخنزير.

رابعاً: الحيوانات التي تذبح باسم الأصنام، أو باسم غير اسم الله، كما كان يفعل الجاهليّون، وقد تحدثنا عن هذه اللحوم الأربعة المحرمة في الجزء الأوّل من تفسيرنا هذا.

خامساً: الحيوانات المخنوقة، سواء كان الخنق بسبب الفخ الذي تقع فيه أو بواسطة الإنسان أو بنفسها، وكان الجاهليون يخنقون الحيوانات أحياناً للإنتفاع بلحومها وقد أشارت الآية إلى هذا النوع باسم «المنخنقة».

وورد في بعض الروايات أن المجوس كان من عاداتهم أن يخنقوا الحيوانات التي يريدون أكلها، ولهذا يمكن أن تشملهم الآية أيضاً^(١).

سادساً: الحيوانات التي تموت نتيجة تعرضها للضرب والتعذيب، أو التي تموت عن مرض وسمّيت في الآية بـ «الموقوذة»^(٢).

ونقل القرطبي في تفسيره أن عرب الجاهلية اعتادوا على ضرب بعض الحيوانات حتى الموت إكراماً لأصنامهم وتقرباً لها.

سابعاً: الحيوان الذي يموت نتيجة السقوط من مكان مرتفع، وقد سمي هذا النوع في الآية بـ «المرتدية».

ثامناً: الحيوان الذي يموت جراء نطحه من قبل حيوان آخر، وقد سمت الآية هذا النوع من الحيوانات بـ «النطيحة».

تاسعاً: الحيوان الذي يقتل نتيجة هجوم حيوان متوحش عليه، وسمي هذا النوع في الآية بـ «ما أكل السبع».

وقد يكون جزءاً من فلسفة تحريم هذه الأنواع من الحيوانات، هو عدم

١- وسائل الشريعة، ج ١٦، ص ١٧٣.

٢- الموقوذة = المضروبة بعنف حتى الموت.

نزفها المقدار الكافي من الدم لدى الموت أو القتل، لأنه ما لم تقطع عروق رقابها لا تنزف الدم بمقدار كاف، ولما كان الدم محيطاً مناسباً جداً لنمو مختلف أنواع الجراثيم، وبما أنه يتفسخ حين يموت الحيوان قبل الأجزاء الأخرى من الجسد، لذلك يتسم لحم الحيوان ولا يمكن أن يعد هذا اللحم من اللحوم السليمة، وغالباً ما يحصل هذا التسمم عندما يموت الحيوان على أثر مرض أو من جراء التعذيب أو نتيجة تعرضه لملاحقة حيوان متوحش آخر.

من جانب آخر فإن الشرط المعنوي للذبح لا يتحقق في أي نوع من تلك الحيوانات، أي شرط ذكر اسم الله وتوجيه الحيوان صوب القبلة لدى الذبح. لقد ذكرت الآية شرطاً واحداً لو تحقق لأصبحت لحوم الحيوانات المذكورة حلالاً، وهذا الشرط هو أن يذبح الحيوان قبل موته وفق الآداب والتقاليد الإسلامية، ليخرج الدم منه بالقدر الكافي فيحلب بذلك لحمه، ولذلك جاءت عبارة «إلا ما ذكيتم» بعد موارد التحريم مباشرة.

ويرى بعض المفسرين أن هذا الاستثناء يخص القسم الأخير فقط، أي ذلك الذي جاء تحت عنوان: «وما أكل السبع» لكن أغلب المفسرين يرون أن الاستثناء يشمل جميع الأنواع المذكورة، والنظرية الأخيرة أقرب للحقيقة من غيرها.

وهنا قد يسأل البعض: لماذا لم تدخل جميع أنواع الحيوانات المحرمة في الآية في إطار «الميتة» التي ذكرت كأول نوع من المحرمات الأحد عشر في الآية. أليست الميتة في مفهومها تعني كل الأنواع المذكورة؟

والجواب هو: إن الميتة لها معان واسعة من حيث مفهوم الفقهي الشرعي، فكل حيوان لم يذبح وفق الطريقة الشرعية يدخل في إطار مفهوم الميتة، أما المعنى اللغوي للميتة فيشمل - فقط - الحيوان الذي يموت بصورة طبيعية. ولهذا السبب فإن الأنواع المذكورة في الآية - غير الميتة - لا تدخل من الناحية اللغوية

ضمن مفهوم الميتة، وهي محتاجة إلى البيان والتوضيح.

عاشراً: كان الوثنيون في العصر الجاهلي يصبون صخوراً حول الكعبة ليست على أشكال أو هيئات معينة، وكانوا يسمون هذه الصخور بـ «النصب» حيث كانوا يذبحون قرابينهم أمامها ويمسحون الصخور تلك بدم القربان.

والفرق بين النصب والأصنام هو أن النصب ليست لها أشكال وصور بخلاف الأصنام، وقد حرم الإسلام لحوم القرابين التي كانت تذبح على تلك النصب، فجاء حكم التحريم في الآية بقوله تعالى: ﴿وما ذُبح على النَّصَبِ﴾.

وواضح أن تحريم هذا النوع من اللحوم إنما يحمل طابعاً معنوياً وليس مادياً. وفي الحقيقة فإن هذا النوع يعتبر من تلك القرابين التي تدخل ضمن مدلول العبارة القرآنية: ﴿وما أهل لغير الله به﴾ وقد ذكر تشخيصاً في الآية بسبب رواجه لدى عرب الجاهلية.

أحد عشر: وهناك نوع آخر من اللحوم المحرمة، وهو اللحوم التي تذبح وتوزع بطريقة القمار، وتوضح ذلك هو أن عشرة من الأشخاص يتراهنون فيما بينهم فيشترون حيواناً ويذبحونه، ثم يأتون بعشرة سهام كتب على سبعة منها عبارة «فائز»، وعلى الثلاثة الأخرى كتبت عبارة «خاسر»، فتوضع في كيس وتسحب واحدة واحدة باسم كل من الأشخاص العشرة على طريقة الاقتراع، فالأشخاص الذين تخرج النبال السبعة الفائزة باسمائهم يأخذون قسماً من اللحم دون أن يدفعوا ثمناً لما أخذوه من اللحم، أما الأشخاص الثلاثة الآخرون الذين تخرج النبال الخاسرة باسمائهم فيتحملون ثمن الحيوان بالتساوي، فيدفع كل واحد منهم ثلث قيمة الحيوان دون أن يناله شيء من لحمه.

وقد سمي الجاهليون هذه النبال بـ «الأزلام» وهي صيغة جمع من «زلم» وقد حرم الإسلام هذا النوع من اللحوم، لا بمعنى وجود تأصل الحرمة في اللحم، بل لأن الحيوان كان يذبح في عمل هو أشبه بالقمار، ويجب القول هنا أن تحريم

القمار وأمثاله لا ينحصر في اللحوم فقط، بل إن القمار محرم في كل شيء وبأي صورة كان.

ولكي تؤكد الآية موضوع التحريم وتشدد على حرمة تلك الأنواع من اللحوم تقول في الختام: «ذلكم فسق»^(١).

الإعتدال في تناول اللحوم:

إن الذي نستنتجه من البحث المار الذكر ومن المصادر الإسلامية الأخرى، هو أن الإسلام اتبع في قضية تناول اللحوم أسلوباً معتدلاً تمام الإعتدال جرياً على طريقته الخاصة في أحكامه الأخرى.

ويختلف أسلوبه هذا اختلافاً كبيراً مع ما سار عليه الجاهليون في أكل لحم النصب والميتة والدم وأشباه ذلك، وما يسير عليه الكثير من الغربيين في الوقت الحاضر في أكل حتى الديدان والسلاحف والضفادع وغيرها. ويختلف مع الطريقة التي سار عليها الهنود في تحريم كل أنواع اللحوم على أنفسهم.

فقد أباح الإسلام لحوم الحيوانات التي تتغذى على الأشياء الطاهرة التي لا تعافها النفس البشرية، وألغى الأساليب التي فيها طابع الإفراط أو التفريط. وقد عيّن الإسلام شروطاً أبان من خلالها أنواع اللحوم التي يحلّ للإنسان الاستفادة منها، وهي:-

١- لحوم الحيوانات التي تقتات على الأعشاب، أمّا الحيوانات التي تقتات على اللحوم فهي غالباً ما تأكل لحوم حيوانات ميتة أو موبوءة، وبذلك قد تكون سبباً في نقل أنواع الأمراض لدى تناول لحومها، بينما الحيوانات التي تأكل

١- بالرغم من أن «ذلكم»، إشارة لمفرد، إلا أنه لما كان يحتوي على ضمير الجمع، وقد فرض المجموع بمثابة الشيء الواحد، فلا اشكال في هذا الاستعمال.

العشب يكون غذاؤها سليماً وخالياً من الأمراض.

وقد تقدم أيضاً في تفسير الآية (٧٢) من سورة البقرة بأن الحيوانات تورث صفاتها عن طريق لحومها أيضاً، فمن يأكل لحم حيوان متوحش يرث صفات الوحش كالقسوة والعنف، وبناء على هذا الدليل - أيضاً - حرمت لحوم الحيوانات الجلّالة، وهي التي تأكل فضلات غيرها من الحيوانات.

٢- أن لا تكون الحيوانات التي ينتفع من لحمها كريهة للنفس الإنسانية.

٣- أن لا يترك لحم الحيوان أثراً سيئاً أو ضاراً على جسم أو نفس الإنسان.

٤- لقد حرمت الحيوانات التي تذبح في طريق الشرك في سبيل الأصنام،

وأمثال ذلك لما فيها من نجاسة معنوية.

٥- لقد بيّن الإسلام أحكاماً خاصة لطريقة ذبح الحيوانات لكل واحد

منها - بدوره - الأثر الصحي والأخلاقي على الإنسان.



بعد أن بيّنت الآية الأحكام التي مرّ ذكرها أوردت جملتين تحتويان معنى عميقاً: الأولى منهما تقول: «اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون».

والثانية هي: «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً».

متى أكمل الله الدين للمسلمين:

إنّ أهمّ بحث تطرحه هاتان الفقرتان القرآنيتان يتركز في كنهه وحقيقته كلمة «اليوم» الواردة فيهما.

فأيّ يوم يا ترى هو ذلك «اليوم» الذي اجتمعت فيه هذه الأحداث الأربعة

المصيرية، وهي يأس الكفار، وإكمال الدين، وإتمام النعمة، وقبول الله لدين الإسلام ديناً ختامياً لكل البشرية؟

لقد قال المفسرون الكثير في هذا المجال، ومما لا شك فيه ولا ريب أن يوماً عظيماً في تاريخ حياة النبي ﷺ - كهذا اليوم - لا يمكن أن يكون يوماً عادياً كسائر الأيام، ولو قلنا بأنه يوم عادي لما بقي مبرر لإضفاء مثل هذه الأهمية العظيمة عليه كما ورد في الآية.

وقيل أن بعضاً من اليهود والنصارى قالوا في شأن هذا اليوم بأنه لو كان قد ورد في كتبهم مثله لإتخذوه عيداً لأنفسهم ولاهتماماً به اهتماماً عظيماً^(١).

ولنبحث الآن في القرائن والدلائل وفي تاريخ نزول هذه الآية وتاريخ حياة النبي ﷺ والروايات المختلفة المستفادة من مصادر إسلامية عديدة، لترى أي يوم هو هذا اليوم العظيم؟

ترى هل هو اليوم الذي أنزل فيه الله الأحكام المذكورة في نفس الآية والخاصة بالحلال والحرام من اللحوم؟

بدهي أنه ليس ذلك لأن نزول هذه الأحكام لا يوجب إعطاء تلك الأهمية العظيمة، ولا يمكن أن يكون سبباً لإكمال الدين، لأنها لم تكن آخر الأحكام التي نزلت على النبي ﷺ، والدليل على هذا القول ما نراه من أحكام تلت الأحكام السابقة في نزولها، كما لا يمكن القول بأن الأحكام المذكورة هي السبب في يأس الكفار، بل إن ما يشير اليأس لدى الكفار هو إيجاد دعامة راسخة قوية لمستقبل الإسلام، وبعبارة أخرى فإن نزول أحكام الحلال والحرام من اللحوم لا يترك أثراً في نفوس الكفار، فماذا يضيرهم لو كان بعض اللحوم حلالاً وبعضها الآخر حراماً؟!

فهل المراد من ذلك «اليوم» هو يوم عرفة من حجة الوداع، آخر حجة قام بها

النبي ﷺ (كما احتمله بعض المفسرين)؟

وجواب هذا السؤال هو النفي أيضاً، لأنّ الدلائل المذكورة لا تتطابق مع هذا التفسير، حيث لم تقع أيّ حادثة مهمة في مثل ذلك اليوم لتكون سبباً ليأس الكفار ولو كان المراد هو حشود المسلمين الذين شاركوا النبي ﷺ في يوم عرفة، فقد كانت هذه الحشود تحيط بالنبي ﷺ في مكة قبل هذا اليوم أيضاً، ولو كان المقصود هو نزول الأحكام المذكورة في ذلك اليوم، فلم تكن الأحكام تلك شيئاً مهماً مخيفاً بالنسبة للكفار.

ثم هل المقصود بذلك «اليوم» هو يوم فتح مكة (كما احتمله البعض)؟ ومن المعلوم أنّ سورة المائدة نزلت بعد فترة طويلة من فتح مكة! أو أنّ المراد هو يوم نزول آيات سورة البراءة، ولكنها نزلت قبل فترة طويلة من سورة المائدة.

والأعجب من كل ما ذكر هو قول البعض بأن هذا اليوم هو يوم ظهور الإسلام وبعثة النبي ﷺ مع أن هذين الحدثين لا علاقة زمنية بينهما وبين يوم نزول هذه الآية مطلقاً وبينهما فارق زمني بعيد جداً. وهكذا يتضح لنا أنّ أيّاً من الاحتمالات الستة المذكورة لا تتلاءم مع محتوى الآية موضوع البحث.

ويبقى لدينا احتمال أخير ذكره جميع مفسري الشيعة في تفاسيرهم وأيدوه كما دعمته روايات كثيرة، وهذا الاحتمال يتناسب تماماً مع محتوى الآية حيث يعتبر «يوم عذير خم» أي اليوم الذي نصب النبي ﷺ علياً أمير المؤمنين عليه السلام بصورة رسمية وعلنية خليفة له، حيث غشى الكفار في هذا اليوم سيل من اليأس، وقد كانوا يتوهمون أن دين الإسلام سينتهي بوفاة النبي ﷺ وأن الأوضاع ستعود إلى سابق عهد الجاهلية، لكنهم حين شاهدوا أنّ النبي ﷺ أوصى بالخلافة بعده لرجل كان فريداً بين المسلمين في علمه وتقواه وقوته وعدالته، وهو علي

بن أبي طالب عليه السلام، وأوا النبي وهو يأخذ البيعة لعلي عليه السلام أحاط بهم اليأس من كل جانب، وفقدوا الأمل فيما توقعوه من شر لمستقبل الإسلام وأدركوا أن هذا الدين باق راسخ.

ففي يوم غدیر خم أصبح الدين كاملاً، إذ لو لم يتم تعيين خليفة للنبي صلى الله عليه وآله ولو لم يتم تعيين وضع مستقبل الأمة الإسلامية، لم تكن لتكتمل الشريعة بدون ذلك ولم يكن ليكتمل الدين.

نعم في يوم غدیر خم أكمل الله وأتم نعمته بتعيين علي عليه السلام، هذا الشخصية اللاتفة الكفو، قائداً وزعيماً للأمة بعد النبي صلى الله عليه وآله.

وفي هذا اليوم - أيضاً - رضي الله بالإسلام ديناً، بل خاتماً للأديان، بعد أن اكتملت مشاريع هذا الدين، واجتمعت فيه الجهات الأربع.

وفيما يلي قرأتين أخري إضافة إلى ما ذكر في دعم وتأيد هذا التفسير:

أ - لقد ذكرت تفاسير «الرازي» و«روح المعاني» و«المنار» في تفسير هذه الآية أن النبي صلى الله عليه وآله لم يعيش أكثر من واحد وثمانين يوماً بعد نزول هذه الآية، وهذا أمر يشير الإلتباه في حد ذاته، إذ حين نرى أن وفاة النبي صلى الله عليه وآله كانت في اليوم الثاني عشر من ربيع الأول (بحسب الروايات الواردة في مصادر جمهور السنة، وحتى في بعض روايات الشيعة، كالتي ذكرها الكليني في كتابه المعروف بالكافي) نستنتج أن نزول الآية كان بالضبط في يوم الثامن عشر من ذي الحجة الحرام، وهو يوم غدیر خم^(١).

ب - ذكرت روايات كثيرة - نقلتها مصادر السنة والشيعة - أن هذه الآية الكريمة نزلت في يوم غدیر خم، وبعد أن أبلغ النبي صلى الله عليه وآله المسلمين بولاية علي

١- إن هذا الحساب يكون صحيحاً إذا لم ندخل يوم وفاة النبي صلى الله عليه وآله ويوم غدیر خم في الحساب، وأن يكون في ثلاثة أشهر متتاليات مشهرات عدد أيام كل منهما (٢٩) يوماً، ونظراً لأن أي حدث تاريخي لم يحصل قبل وبعد يوم غدیر خم، فمن المرجح أن يكون المراد باليوم المذكور في الآية هو يوم غدیر خم.

بن أبي طالب عليه السلام، ومن هذه الروايات:

١- ما نقله العالم السنِّي المشهور «ابن جرير الطبري» في كتاب «الولاية» عن «زيد بن أرقم» الصحابي المعروف، أن هذه الآية نزلت في يوم غدِير خَم بِشأن علي بن أبي طالب عليه السلام.

٢- ونقل الحافظ «أبو نعيم الأصفهاني» في كتاب «ما نزل من القرآن بحق علي عليه السلام» عن «أبي سعيد الخدري» وهو صحابي معروف - أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أعطى في «يوم غدِير خَم» علياً منصب الولاية ... وإنَّ الناس في ذلك اليوم لم يكادوا ليتفرقوا حتى نزلت آية: «اليوم أكملت لكم دينكم...» فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم وفي تلك اللحظة «الله أكبر على إكمال الدين وإتمام النعمة ورضى الرب برسائتي وبالولاية لعلي عليه السلام من بعدي» ثم قال صلى الله عليه وآله وسلم: «من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه، وانصر من نصره واخذل من خذله».

٣- وروى «الخطيب البغدادي» في «تاريخه» عن «أبي هريرة» عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن آية «اليوم أكملت لكم دينكم...» نزلت عقيب حادثة «غدِير خَم» والعهد بالولاية لعلي عليه السلام وقول عمر بن الخطاب: «بيخ يخ لك يا ابن أبي طالب، أصبحت مولاي ومولى كل مسلم»^(١).

وجاء في كتاب «الغدِير» إضافة إلى الروايات الثلاث المذكورة، ثلاث عشرة رواية أخرى في هذا المجال.

ورود في كتاب «إحقاق الحق» نقلاً عن الجزء الثاني من تفسير «ابن كثير» من الصفحة ١٤ وعن كتاب «مقتل الخوارزمي» في الصفحة ٤٧ عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن هذه الآية نزلت في واقعة غدِير خَم.

١- لقد أورد العلامة الأميني رحمته الله هذه الروايات الثلاثة بتفاصيلها في الجزء الأول من كتابه «الغدِير» في الصفحات ٢٣٠ و٢٣١ و٢٣٢ كما ورد في كتاب «إحقاق الحق» في الجزء السادس والصفحة ٣٥٣ أن نزول الآية كان في حادثة غدِير خَم نقلاً عن أبي هريرة من طريقين، كما نقلها عن أبي سعيد الخدري من عدة طرق.

ونرى في تفسير «البرهان» وتفسير «نور الثقلين» عشر روايات من طرق مختلفة حول نزول الآية في حق علي عليه السلام أو في يوم غدیر خم، ونقل كل هذه الروايات يحتاج إلى رسالة منفردة^(١).

وقد ذكر العلامة السيد عبد الحسين شرف الدين في كتابه «المراجعات» أن الروايات الصحيحة المنقولة عن الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام تقول بنزول هذه الآية في «يوم غدیر خم» وإن جمهور السنّة أيضاً قد نقلوا ستة أحاديث بأسانيد مختلفة عن النبي صلى الله عليه وآله تصرح كلها بنزول الآية في واقعة غدیر خم^(٢).

يتضح ممّا تقدم أنّ الروايات والأخبار التي أكدت نزول الآية - موضوع البحث - في واقعة غدیر خم ليست من نوع أخبار الأحاد لكي يمكن تجاهلها، عن طريق اعتبار الضعف في بعض أسانيدنا، بل هي أخبار إن لم تكن في حكم المتواتر فهي على أقل تقدير من الأخبار المستفيضة التي تناقلتها المصادر الإسلامية المشهورة.

ومع ذلك فإننا نرى بعضاً من العلماء المتعصبين من أهل السنّة كالألوسي في تفسير «روح المعاني» الذي تجاهل الأخبار الواردة في هذا المجال لمجرد ضعف سند واحد منها، وقد وصم هؤلاء هذه الرواية بأنها موضوعة أو غير صحيحة، لأنّها لم تكن لتلائم أذواقهم الشخصية، وقد مرّ بعضهم في تفسيره لهذه الآية مرور الكرام ولم يلمح إليها بشيء، كما في تفسير المنار، ولعل صاحب المنار وجد نفسه في مأزق حيال هذه الروايات فهو إن وصمها بالضعف خالف بذلك منطق العدل والإنصاف، وإن قبلها عمل شيئاً خلافاً لميله وذوقه.

وقد وردت في الآية (٥٥) من سورة النور نقطة مهمّة جدية بالإنابة - فالآية تقول: «وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في

١- راجع تفسير الآية في الجزء الأول من تفسير البرهان والجزء الأول من تفسير «نور الثقلين».

٢- راجع كتاب «المراجعات» الطبعة الرابعة، ص ٣٨.

الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً... ﴿ والله سبحانه وتعالى يقطع في هذه الآية وعداً على نفسه بأن يرسخ دعائم الدين، الذي ارتضاه للمؤمنين في الأرض.

ولما كان نزول سورة النور قبل نزول سورة المائدة، ونظراً إلى جملة ﴿رضيت لكم الإسلام ديناً﴾ الواردة في الآية الأخيرة - موضوع البحث - والتي نزلت في حق علي بن أبي طالب عليه السلام، لذلك كله نستنتج أن حكم الإسلام يتعزز ويترسخ في الأرض إذا اقترن بالولاية، لأن الإسلام هو الدين الذي ارتضاه الله ووعد بتريخ دعائمه وتعزيزه، وبعبارة أوضح أن الإسلام إذا أُريد له أن يعم العالم كله يجب عدم فصله عن ولاية أهل البيت عليهم السلام.

أما الأمر الثاني الذي نستنتجه من ضمن الآية الواردة في سورة النور إلى الآية التي هي موضوع بحثنا الآن، فهو أن الآية الأولى قد أعطت للمؤمنين وعوداً ثلاثة:

أولها: الخلافة على الأرض.

والثاني: تحقق الأمن والاستقرار لكي تكون العبادة لله وحده.

والثالث: استقرار الدين الذي يرضاه الله في الأرض.

ولقد تحققت هذه الوعود الثلاثة في «يوم غدیر خم» بنزول آية: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم...﴾ فمثال الإنسان المؤمن الصالح هو علي عليه السلام الذي نصب وصياً للنبي صلى الله عليه وآله وسلم، ودلت عبارة ﴿اليوم يشس الذين كفروا من دينكم...﴾ على أن الأمن قد تحقق بصورة نسبية لدى المؤمنين، كما بيّنت عبارة: ﴿ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾ إن الله قد اختار الدين الذي يرضيه، وأقرّه بين عباده المسلمين.

وهذا التفسير لا ينافي الرواية التي تصرح بأن آية سورة النور قد نزلت في شأن المهدي المنتظر عجل الله تعالى فرجه الشريف، وذلك لأن عبارة ﴿آمنوا منكم﴾ لها معنى واسع تحقق واحد من مصايقه في «يوم غدیر خم» وسيتحقق

على مدى أوسع وأعم في زمن ظهور المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف (وعلى أساس هذا التفسير فإن كلمة الأرض في الآية الأخيرة ليست بمعنى كل الكرة الأرضية، بل لها مفهوم واسع يمكن أن يشمل مساحة من الأرض أو الكرة الأرضية بكاملها).

ويدل على هذا الأمر المواضع التي وردت فيها كلمة «الأرض» في القرآن الكريم، حيث وردت أحياناً لتعني جزءاً من الأرض، وأخرى لتعني الأرض كلها، (فامعنوا النظر ودققوا في هذا الأمر).

سؤال يفرض نفسه:

وأخيراً بقي سؤال ملح وهو:

أولاً: إن الأدلة المذكورة في الآية - موضوع البحث - والأدلة التي ستأتي في تفسير الآية (٦٧) من سورة المائدة والتي تقول: «يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك...» لو كانت كلها تخص واقعة واحدة، فلماذا فصل القرآن بين هاتين الآيتين ولم تأتيا متعاقبين في مكان واحد؟

وثانياً: لا يوجد ترابط موضوعي بين ذلك الجزء من الآية الذي يتحدث عن واقعة «غدير خم» وبين الجزء الآخر منها الذي يتحدث عن الحلال والحرام من اللحوم، فما هو سبب هذه المفارقة الظاهرة؟^(١)

الجواب:

أولاً: نحن نعلم أن الآيات القرآنية - وكذلك سور القرآن الكريم - لم تجمع كلها مرتبة بحسب نزولها الزمني، بل نشاهد كثيراً من السور التي نزلت في المدينة فيها آيات مكية أي نزلت في مكة، كما نلاحظ آيات مدنية بين السور المكية أيضاً.

وبناءً على هذه الحقيقة، فلا عجب - إذن - من وجود هذا الفاصل في القرآن

١- لقد أورد هذا الإعتراض تليحاً صاحب تفسير «المنار» لدى التحديث عن هذه الآية، ج ٦، ص ٢٦٦.

بين الآيتين المذكورتين (ويجب الإعراف بأن ترتيب الآيات القرآنية بالصورة التي هي عليها الآن قد حصل بأمر من النبي ﷺ نفسه) فلو كانت الآيات القرآنية مرتبة بحسب زمن نزولها لأصبح الإعتراض وارداً في هذا المجال.

ثانياً: هناك احتمال بأن يكون سبب حشر موضوع واقعة «غدير خم» في آية تشمل على موضوع لا صلة لها به مطلقاً، مثل موضوع أحكام الحلال والحرام من اللحوم، إنما هو لصيانة الموضوع الأول من أن تصل إليه يد التحريف أو الحذف أو التغيير.

إن الأحداث التي وقعت في اللحظات الأخيرة من عمر النبي ﷺ والإعتراض الصريح الذي واجهه طلب النبي ﷺ لكتابة وصيته، إلى حد وصفوا النبي ﷺ لدى طلبه هذا الأمر بأنه يهجر (والعياذ بالله) وقد وردت تفاصيل هذه الوقائع في الكتب الإسلامية المعروفة، سواء عن طريق جمهور السنة أو الشيعة، وهي تدل بوضوح على الحساسية المفرطة التي كانت لدى نفر من الناس تجاه قضية الخلافة بعد النبي ﷺ حيث لم يتركوا وسيلة إلا استخدموها لإنكار هذا الامر^(١).

فلا يستبعد - والحالة هذه - أن تتخذ إجراءات وقائية لحماية الأدلة والوثائق الخاصة بالخلافة من أجل إيصالها إلى الأجيال المتعاقبة دون أن تمسها يد التحريف أو الحذف، ومن هذه الإجراءات حشر موضوع الخلافة - المهم جداً - في القرآن بين آيات الأحكام الشرعية الفرعية لإبعاد عيون وأيدي المعارضين والعابثين عنها.

إضافة إلى ذلك - وكما أسلفنا في حديثنا - فإن الوثائق الخاصة بنزول آية:

١ - نقل هذه الواقعة واحد من أشهر كتب السنة وهو كتاب «صحيح البخاري» وفي عدة أبواب منها باب «كتاب الرضى» في الجزء الرابع، وباب «كتاب العلم» في الجزء الأول، ص ٢٢ وفي باب «جوائز وفد» من كتاب الجهاد، ص ١١٨، ج ٢ كما وردت في كتاب «صحيح مسلم» في آخر الوصايا بالإضافة إلى كتب أخرى ذكرها المحرم السيد عبد الحسين شرف الدين ﷺ في كتابه «المراجعات» تحت عنوان «رزقة يوم الخميس».

«اليوم أكملت لكم دينكم...» الواردة في واقعة «غدِير خُم» حول قضية الخلافة بعد النَّبِيِّ ﷺ لم تقتصر كتب الشيعة وحدهم على ذكرها، بل تناقلها - أيضاً - الكثير من كتب السنَّة من طرق متعددة عن ثلاثة من الصحابة المعروفين.

لقد أعادت الآية - في نهايتها - الكرة في التحدث عن اللحوم المحرمة فبيَّنت حكم الإضرار في حالة المعاناة من الجوع إذ أجازت تناول اللحم المحرم بشرط أن لا يكون هدف الشخص ارتكاب المعصية من تناول ذلك، مشيرة إلى غفران الله ورحمته في عدم إجماع عباده عند الإضرار إلى تحمل المعاناة والمشقة، وعدم معاقبتهم في مثل هذه الحالات. قالت الآية الكريمة: «فمن اضطر في مخمصة غير متجانف لإثم فإنَّ الله غفور رحيم».

والمراد بالمخمصة هنا الجوع الشديد الذي يؤدي إلى انخماص البطن، سواء كان بسبب حالة المجاعة العامَّة، أو كان ناتجاً عن الحرمان الخاص.

أمَّا عبارة «غير متجانف لإثم» فمعناها غير مائل إلى ارتكاب الذنب، وقد يكون الإتيان بها تأكيداً لمفهوم الإضرار، أو أنَّ الهدف منها هو المنع من الإفراط في أكل اللحم الحرام أثناء الضرورة، توهماً من الشخص بأن ذلك حلال في مثل هذه الحالة، ومنعاً من أن يحاول الشخص بنفسه إعداد مقدمات الإضرار أو أن يحصل الإضرار أثناء قيام الشخص بسفر من أجل ارتكاب الحرام فيه.

هذه المعاني كلها يحتمل ورودها ضمن العبارة الأخيرة الماضية «ولأجل الإطلاع على توضيحات أكثر في هذا المجال، راجع الجزء الأوَّل من تفسيرنا هذا».

الآية

يَسْئَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ
الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ
عَلَيْكُمْ وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ
الْحِسَابِ ①

سبب النزول

ذكر المفسرون أسباباً عديدة لنزول هذه الآية، وأكثر هذه الأسباب ملاءمة مع فحوى الآية هو: أن «زيد الخير» و«عدي بن حاتم» اللذين كانا من الصحابة المقربين، قدما على النبي ﷺ وأخبراه بأن قومهما يصيدون بواسطة كلاب وصقور الصيد، وإن هذه الكلاب تصيد لهم الحيوانات الوحشية من ذوات اللحم الحلال، وتأتي بالحيوان المصيد حياً في بعض الأحيان فيذبح، وأحياناً أخرى تأتي به وقد قتلته قبل وصولها إلى أصحابها دون أن يتاح لهم ذبحه، وسألا النبي ﷺ عن حكم الصيد والمقتول بواسطة كلاب الصيد وهل يعتبر ميتة وحرماً أم لا؟ ... فنزلت الآية هذه وأجابت على سؤالهما.^(١)

التفسير

الرجال من الصيد:

أعقت الآية الأخيرة آيتين سبق وأن تناولنا أحكاماً عن الحلام والحرام عن اللحوم، وقد بيّنت هذه الآية نوعاً آخر من اللحوم أو الحيوانات التي يحل للإنسان تناولها، وجاءت على صيغة جواب لسؤال ذكرته الآية نفسها بقولها: ﴿يسألونك ماذا أحلّ لهم...﴾.

فتأمر الآية النبي ﷺ - أولاً - بأن يخبرهم إن كل ما كان طيباً وطاهراً فهو حلال لهم، حيث تقول: ﴿قل أحلّ لكم الطيبات...﴾ دالة على أن كل ما حرمه الإسلام يعتبر من الخبائث غير الطاهرة، وإن القوانين الإلهية لا تحرم - مطلقاً - الموجودات الطاهرة التي خلقها الله لينتفع بها البشر، وإن الجهاز التشريعي يعمل دائماً بتنسيق تام مع الجهاز التكويني وفي كل مكان.

ثم تبيّن الآية أنواع الصيد الحلال، فتشير إلى الصيد الذي تجلبه أو تصيده الحيوانات المدربة على الصيد، فتؤكد بأنه حلال، بقولها: ﴿وما علمتم من الجوارح مكلّبين تعلمونهنّ مما علمكم الله﴾^(١).

وعبارة جوارح مشتقة من المصدر «جرح» الذي يعني أحياناً «الكسب» وتارة يعني «الجرح» الذي يصاب به البدن، ولذلك يطلق على الحيوانات المدربة على الصيد، سواء كانت من الطيور أو من غيرها، اسم «جارحة» وجمعها «جوارح» أي الحيوان الذي يجرح صيده، أو بالمعنى الآخر الحيوان الذي يكسب لصاحبه، وأما إطلاق لفظه «الجوارح» على أعضاء الجسم فلأن الإنسان يستطيع بواسطتها إنجاز الأعمال أو الإكتساب.

وجملة «وما علمتم من الجوارح» تشمل كل الحيوانات المدربة على

١- هناك محذوف مقدر في بداية هذه الجملة القرآنية، حيث إن الأصل يفترض أن يكون «وصيد ما علمتم» وذلك استدلالاً بالقرينة الواردة في جملة «فكلوا مما أمسكن عليكم...» (فليلا حظ ذلك).

الصيد، ولكن كلمة «مكلبين» التي تعني تدريب الكلاب للقيام بأعمال الصيد، والمشتقة من مادة «كَلَبَ» أي الكلب، تقيد هذه الجملة وتخصصها بـ«كلاب الصيد»، ولذلك فإنها لا تشمل الصيد بحيوانات غير هذه الكلاب مثل الصقور المدربة على الصيد.

ولذلك ذهب فقهاء الشيعة إلى تخصيص الصيد الحلال بما يصاد من قبل كلاب الصيد، لكن جمعاً من علماء السنة ومفسريهم ذهبوا إلى جواز الكل وأعطوا تفسيراً واسعاً لعبارة «مكلبين» ولم يخصصوا ذلك بـ«كلاب الصيد فقط». إلا أننا نرى أن المصدر الأساس لهذه الكلمة المشتقة إنما يدل على أنها مخصصة بـ«كلاب الصيد فقط»، وبديهي أن الصيد الذي تجلبه حيوانات مدربة أخرى، يعتبر حلالاً في حالة جلبه حياً وذبحه وفق الطريقة الشرعية.

أما عبارة «تعلمونهنّ مما علمكم الله» فإنها تشير إلى عدة أمور هي

١- إنّ تدريب مثل هذه الحيوانات يجب أن يستمر، فلو نسيت ما تعلمته وقتلت حيواناً كما تفعله بعض الكلاب السائبة، فلا يعتبر عند ذلك ما قتلته صيداً، ولا يحل لحم هذا الحيوان المقتول في مثل هذه الحالة، والدليل على هذا القول هو كون فعل «تعلمونهن» فعلاً مضارعاً، والفعل المضارع يدل على الحال والإستقبال.

٢- يجب أن يتمّ تدريب هذه الكلاب وفق الأصول الصحيحة التي تتلاءم مع مفهوم العبارة القرآنية «مما علمكم...».

إنّ العلوم كلها - سواء كانت بسيطة أم معقدة - مصدرها هو الله، وإنّ الإنسان لا يملك بنفسه شيئاً ما لم يعلمه الله.

إضافة إلى ما ذكر فإنّ كلاب الصيد يجب أن تدرب بحيث تأتمر بأمر صاحبها، أي تتحرك بأمره وتعود إليه بأمره أيضاً.

وبديهي أن الحيوان الذي تصيده كلاب الصيد، يجب أن يذبح وفق الطريقة

الشرعية إن جلب حياً، وإن مات الحيوان قبل دركه فلعلمه حلال وإن لم يذبح. وأخيراً أشارت الآية الكريمة إلى شرطين آخرين من شروط تحليل مثل هذا النوع من الصيد.

أولهما: أن لا يأكل كلب الصيد من صيده شيئاً، حيث قالت الآية: ﴿فكلوا مما أمسكن عليكم...﴾.

وعلى هذا الأساس فإن الكلاب لو أكلت من الصيد شيئاً قبل إيصاله إلى صاحبها، وتركت قسماً آخر منه، فلا يحل لحم مثل هذا الصيد ويدخل ضمن حكم ﴿ما أكل السبع﴾ الذي ورد في الآية السابقة، ومثل هذا الكلب الذي يأكل الصيد لا يعتبر في الحقيقة كلباً مدرباً، كما لا يعتبر ما تركه من الصيد مصداقاً لعبارة ﴿مما أمسكن عليكم﴾ لآته في هذه الحالة يكون (أي الكلب) قد صاد لنفسه (لكن بعض الفقهاء لم يروا في هذا الموضوع شرطاً، مستندين إلى روايات وردت في مصادر الحديث وذكرت كتب الفقه بالتفصيل). ومجمل القول هو أن كلاب الصيد يجب أن تدرّب بحيث لا تأكل من الصيد الذي تمسكه.

والأمر الثاني: هو ضرورة ذكر اسم الله على الصيد بعد أن يتركه الكلب، حيث قالت الآية: ﴿واذكروا اسم الله عليه...﴾.

ولكي تضمن الآية رعاية الأحكام الإلهية - هذه - كلها، أكّدت في الختام قائلة: ﴿واتقوا الله إن الله سريع الحساب﴾ داعية إلى الخوف من الله العزيز القدير، ومن حسابه السريع^(١).



الآية

الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ
لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ
وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا
ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي
أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ الْأَخِرَةَ مِنْ
الْحَنَسِرِينَ ﴿١٠﴾

التفسير

حكم طعام أهل الكتاب وحكم الزواج بهم:

تناولت هذه الآية، التي جاءت مكملية للآيات السابقة، نوعاً آخر من الغذاء الحلال، فبيّنت أن كل غذاء طاهر حلال، وإن غذاء أهل الكتاب حلال للمسلمين، وغذاء المسلمين حلال لأهل الكتاب، وحيث قالت الآية: «اليوم أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وطعام الذين أُوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم...».

وتشتمل هذه الآية الكريمة على أمور نجلب الالتفات إليها، وهي:

١- إن المراد بكلمة «اليوم» الواردة في هذه الآية هو يوم «عرفة» بناء على ما اعتقده بعض المفسرين، وقد ذهب مفسرون آخرون إلى أن المراد هو اليوم

الذي تلافح خبير - ولا يبعد - أن يكون هو نفس «يوم غدیر خم» الذي تحقق فيه النصر الكامل للمسلمين على الكفار (وستناول هذا الموضوع بالشرح قريباً).
٢ - لقد تناولت هذه الآية قضية تحليل الطيبات مع أنها كانت حلالاً قبل نزول الآية والهدف من ذلك هو أن تكون هذه القضية مقدمة لبيان حكم «طعام أهل الكتاب».

٣ - ما هو المقصود بـ «طعام أهل الكتاب» الذي اعتبرته الآية حلالاً على المسلمين؟

يعتقد أغلب مفسري علماء السنة أن «طعام أهل الكتاب» يشمل كل أنواع الطعام، سواء كان من لحوم الحيوانات المذبوحة بأيدي أهل الكتاب أنفسهم أو غير ذلك من الطعام، بينما تعتقد الأغلبية الساحقة من مفسري الشيعة وفقهائهم أن المقصود من «طعام أهل الكتاب» هو غير اللحوم المذبوحة بأيدي أهل الكتاب، إلا أن هناك القليل من علماء الشيعة - أيضاً - ممن يقولون بصحة النظرية الأولى التي اتبعها أهل السنة.

وتؤكد رأي غالبية الشيعة - في هذا المجال - الروايات العديدة الواردة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام.

فقد جاء في تفسير علي بن إبراهيم عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال في هذه الآية: «عني بطعامهم ما هنا الحبوب والفاكهة غير الذبائح التي يذبحون، فإنه لا يذكرون اسم الله عليها».

ورود روايات عديدة أخرى في هذا المجال في الجزء السادس عشر من كتاب وسائل الشيعة في الباب ٥١ من أبواب الأطعمة والأشربة، في الصفحة ٣٧١.

وبالإمعان في الآيات السابقة يتبين أن التفسير الثاني ذهب إليه الأكثرية من مفسري الشيعة وفقائهم (تفسير الطعام بغير الذبيحة) هو أقرب إلى الحقيقة من

التفسير الأول.

وذلك - كما أوضح الإمام الصادق عليه السلام في الرواية التي أوردناها أعلاه - لأنَّ أهل الكتاب لا يراعون الشروط الإسلامية في ذبائحهم، فهم لا يذكرون اسم الله على الذبيحة، ولا يوجهونها صوب القبلة اثناء ذبحها، كما أنَّهم لا يلتزمون برعاية الشروط الأخرى - فهل يعقل أن تحرم الآية السابقة - وبصورة صريحة - لحم الحيوان المذبوح بهذه الطريقة، وتأتي آية أخرى بضدها لتحلله؟! وترد على الذهن في هذا المجال أسئلة نلخصها فيما يلي:

١ - لو كان المقصود بالطعام سائر الأغذية ما عدا لحوم ذبائح أهل الكتاب، فإنَّ هذه الأغذية كانت حلالاً من قبل، ولا فرق بين وجودها في أيدي أهل الكتاب أو غيرهم، فهل كان شراء الحبوب والقلات من أهل الكتاب قبل نزول هذه الآية شيئاً مخالفاً للشرع، في حين أن المسلمين كانوا دائماً يتعاطون مع أهل الكتاب شراء وبيع هذه الأشياء؟!!

إذا توجهنا إلى نقطة أساسية في الآية الكريمة، يتوضح لنا بجلاء جواب هذا السؤال، فالآية الأخيرة - هذه - نزلت في زمن كان للإسلام فيه السلطة الكاملة على شبه الجزيرة العربية وقد أثبت الإسلام وجوده في كل الساحات والعيادين على طول هذه الجزيرة وعرضها، بحيث أنَّ أعداء الإسلام قد تملكهم اليأس التام لعجزهم عن دحر المسلمين، ولذلك اقتضت الضرورة - في مثل هذا الظرف المناسب للمسلمين - أن ترفع القيود والحدود التي كانت مفروضة قبل هذا في مجال مخالطة المسلمين لغيرهم، حيث كانت هذه القيود تحول دون تزاور المسلمين مع الغير.

لذلك نزلت هذه الآية الكريمة وأعلنت تخفيف قيود التعامل والمعاشرة مع أهل الكتاب، بعد أن ترسخت قواعد وأساس الحكومة الإسلامية، ولم يعد هناك ما يخشى منه من جانب غير المسلمين، فسمحت الآية بالتزاور بين المسلمين

وغيرهم، وأحلت طعام بعضهم لبعض كما أحلت التزواج فيها بينهم (ولكن على أساس الشروط التي سنبيّنها).

جدير بالقول أنّ الذين لا يرون طهارة أهل الكتاب يشترطون أن يكون طعامهم خالياً من الرطوبة أو البلبل، وإذا كان الطعام رطباً يشترط أن لا تكون أيادي أهل الكتاب قد مسته لكي يستطيع المسلمون تناول هذا الطعام، كما يرى هؤلاء عدم جواز تناول طعام أهل الكتاب إن لم تتوفر الشروط المذكورة فيه.

إلا أنّ مجموعة أخرى من العلماء الذين يرون طهارة أهل الكتاب، لا يجدون بأساً في تناول الطعام مع أهل الكتاب والحلول ضيفاً عليهم، شرط أن لا يكون طعامهم من لحوم ذبائحهم وأن يحصل اليقين من براءته من نجاسة عرضية (كأن يكون قد تتجس باختلاطه أو ملامسته للخمرة أو الجعة «ماء العشير»).

وخلاصة القول: إنّ الآية - موضوع البحث - جاءت لترفع الحدود والقيود السابقة الخاصّة بمعاشرة أهل الكتاب، والدليل على ذلك هو إشارة الآية لإباحة طعام المسلمين لأهل الكتاب، أي السماح للمسلمين باستضافتهم، كما تتطرق الآية بعد ذلك مباشرة إلى حكم التزواج بين المسلمين وأهل الكتاب (أي الزواج بنساء أهل الكتاب).

وبديهياً أنّ النظام الذي يمتلك السيطرة الكاملة على أوضاع المجتمع، هو وحده القادر على إصدار مثل هذا الحكم لمصلحة أتباعه دون أن يساوره أي قلق بسبب الأعداء، وقد ظهرت هذه الحالة في الحقيقة في يوم غدیر خم، أو في يوم عرفة في حجّة الوداع كما اعتقده البعض، أو بعد فتح خيبر، مع أن يوم غدیر خم هو الأقرب إلى هذا الموضوع.

أورد صاحب تفسير المنار في كتابه إعتراضاً آخر في تفسير هذه الآية، حيث يقول بأنّ كلمة «طعام» وردت في كثير من آيات القرآن بمعنى كل أنواع الطعام، وهي تشمل للحوم أيضاً، فكيف يمكن تقييد الآية بالحبوب والفواكه

وأمثالها؟، ثم يقول بأنه طرح هذا الإعتراض في مجلس كان يضم جمعاً من الشيعة فلم يجب أحد عليه.

وباعتقادنا نحن أن جواب إعتراض صاحب كتاب المنار واضح، فنحن لا ننكر أن لفظة «طعام» تحمل مفهوماً واسعاً، إلا أن ما ورد في الآيات السابقة، كبيان أنواع اللحوم المحرمة - وبالأخص لحوم الحيوانات التي لم يذكر اسم الله عليها لدى ذبحها - إنما يخص هذا المفهوم الواسع ويحدد كلمة «طعام» في الآية بغير اللحوم، ولا ينكر أحد أن كل عام أو مطلق قابل للتخصيص والتقييد، كما نعلم أن أهل الكتاب لا يلتزمون بذكر اسم الله على ذبائحهم، ناهيك على أنهم لا يراعون - أيضاً - الشروط الواردة في الستة في مجال الذبح.

وجاء في كتاب «كنز العرفان» حول تفسير هذه الآية إعتراض آخر خلاصته أن كلمة «طيبات» لها مفهوم واسع، وهي «عامّة» بحسب الإصطلاح، بينما جملة «وطعام الذين أوتوا الكتاب» خاصّة، وطبيعي أن ذكر الخاص بعد العام يجب أن يكون لسبب، ولكن السبب في هذا المجال غير واضح، ثم يرجو صاحب الكتاب من الله أن يحل له هذه المعضلة العلمية^(١).

إن جواب هذا الإعتراض يتّضح أيضاً ممّا قلناه سابقاً بأن الآية إنما جاءت بعبارة «أحلّ لكم الطيبات» كمقدمة من أجل بيان رفع القيود في التقارب مع أهل الكتاب، فالحقيقة أن الآية تقول بأن كل شيء طيب هو حلال للمسلمين، وبناء على هذا فإن طعام أهل الكتاب (إذ كان طيباً و طاهراً) هو حلال أيضاً للمسلمين - وأن الحدود والقيود التي كانت تقف حائلاً دون تقارب المسلمين مع أهل الكتاب قد رفعت أو خففت في هذا اليوم بعد الإنتصارات التي أحرزها المسلمون فيه، (فليمعن النظر في هذا).

حكم الزواج بغير المسلمات:

بعد أن بيّنت هذه الآية حلية طعام أهل الكتاب تحدثت عن الزواج بالنساء المحصنات من المسلمات ومن أهل الكتاب، فقالت بأن المسلمين يستطيعون الزواج بالنساء المحصنات من المسلمات ومن أهل الكتاب، شرط أن يدفعوا لهن مهورهن، حيث تقول الآية: ﴿والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن...﴾ على أن يكون التواصل بوسيلة الزواج المشروع وليس عن طريق الزنا الصريح، ولا عن طريق المعاشرة الخفية، حيث تقول الآية: ﴿محصنين غير مسافحين ولا متخذين أخدان﴾^(١).

وهذا الجزء من الآية الكريمة يقلل في الحقيقة الحدود التي كانت مفروضة على الزواج بين المسلمين وغيرهم، ويبين جواز زواج المسلم بالمرأة الكتابية ضمن شروط خاصة.

وقد اختلف فقهاء المسلمين في أن جواز الزواج بالمرأة الكتابية هل ينحصر بالنوع المؤقت من الزواج، أو يشمل النوعين: الدائم والمؤقت؟ لا يرى علماء السنة فرقا بين نوعي الزواج في هذا المجال، ويعتقدون بأن الآية عامة، بينما يعتقد جمع من علماء الشيعة أن الآية مقتصرة على الزواج المؤقت، وتؤيد روايات وردت عن أئمة أهل البيت عليهم السلام هذا الرأي أيضاً. والقرائن الموجودة في الآية يمكن أن تكون دليلاً على هذا القول. وأول هذه القرائن هو قوله تعالى: ﴿إذا آتيتموهن أجورهن﴾ ولو أن لفظة «الأجر» تطلق على المهر في نوعي الزواج الدائم والمؤقت، إلا أنها غالباً ما ترد لبيان المهر في الزواج المؤقت، أي أنها تناسب هذا الأخير أكثر.

١- لقد أوضحنا في هذا الجزء من تفسيرنا هذا في تفسير الآية (٢٥) من سورة النساء. أن كلمة «أخدان» جمع «خدن» وهي تعني في الأصل الصديق، وعادة ما تطلق على الصداقة السرية غير الشرعية مع الجنس الآخر.

أما القرينة الثانية فهي قوله تعالى: «غير مسافحين ولا متخذي أخدان...» فهي تتلاءم أكثر مع الزواج المؤقت، لأنّ الزواج الدائم ليس فيه شبه الزنا أو الصداقة السرية لكي ينهى عنه، بينما يشتهه بعض السذج من الناس - أحياناً - في الزواج المؤقت فيخلطون بينه وبين الزنا والصداقة السرية غير المشروعة مع المرأة.

أضف إلى ذلك كلّ ورد هذه التعابير في الآية (٢٥) من سورة النساء، وكما نعلم فإنّ تلك الآية نزلت في شأن الزواج المؤقت.

مع ذلك كلّ فإنّ هناك العديد من الفقهاء ممن يجيزون الزواج بالكتائيات بصورة مطلقة، ولا يرون القرائن المذكورة المذكورة كافية لتخصيص الآية، كما يستدلون في هذا المجال ببعض الروايات «للإطلاع على تفاصيل أكثر في المجال يجدر الرجوع إلى كتب الفقه».

ولا يخفى علينا ما شاع في عالم اليوم من تقاليد الجاهلية بصورة مختلفة، ومن ذلك إنتخاب الرجل أو المرأة خليلاً من الجنس الآخر وبصورة علنية، وقد تمادى إنسان عالم اليوم أكثر من نظيره الجاهلي في التحلل والخلاعة والمجون الجنسي، ففي حين كان الإنسان الجاهلي ينتخب الأخلاء سراً وفي الخفاء، أصبح إنسان اليوم لا يرى بأساً من إعلان هذا الأمر والتباهي به بكل صلف ووقاحة، ويعتبر هذا التقليد المشين نوعاً صريحاً ومفضوحاً من الفحشاء وهديّة مشؤومة انتقلت من الغرب إلى الشرق وأصبحت مصدراً للكثير من التكبّيات والكوارث.

ولا يفوتنا أن نوضح هذه النقطة وهي أن الآية أجازت تناول طعام أهل الكتاب كما أجازت إطعامهم وفق الشروط التي ذكرت، بينما في قضية الزواج أجازت فقط الزواج بنساء أهل الكتاب، ولم تجز للنساء المسلمات الزواج بالرجال من أهل الكتاب.

وفلسفة هذا الأمر جليلة واضحة لا تحتاج إلى الشرح والتفصيل، لأن النساء بما يمتلكنه من عواطف ومشاعر رقيقة يكن أكثر عرضة لاكتساب أفكار أزواجهن، من الرجال.

ولكي تسد الآية طريق إساءة استغلال موضوع التقارب والمعاشرة مع أهل الكتاب والزواج من المرأة الكتابية على البعض من ضعاف النفوس، وتحول دون الإنحراف إلى هذا الأمر بعلم أو بدون علم، حذرت المسلمين في جزئها الأخير فقالت: «ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله وهو في الآخرة من الخاسرين».

وهذه إشارة إلى أن التسهيلات الواردة في الآية بالإضافة إلى كونها تؤدي إلى السعة ورفع الحرج عن حياة المسلمين، يجب أن تكون - أيضاً - سبباً لتغلغل الإسلام إلى نفوس الأجانب، لا أن يقع المسلمون تحت نفوذ وتأثير الغير فيتركوا دينهم، وحيث سيؤدي بهم هذا الأمر إلى نيل العقاب الإلهي الصارم الشديد.

وهناك احتمال آخر في تفسر هذا الجزء من الآية نظراً لبعض الروايات الواردة وسبب النزول المذكور، وهو أن نقرأ من المسلمين اعلنوا - بعد نزول هذه الآية وحكم حلية طعام أهل الكتاب والزواج بالكتايبات - استياءهم من تطبيق هذه الأحكام، فحذرتهم الآية من الاعتراض على حكم الله ومن الكفر بهذه الحكم، وأندرتهم بأن أعمالهم ستذهب هباء وستكون عاقبتهم الخسران.

الآية

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ
وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى
الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ
أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا
مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ
مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَٰكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ
وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾

التفسير

تطهير الجسم والروح:

لقد تناولت الآيات السابقة بحثاً متعمداً عن الطيبات الجسمانية والنعم المادية، أما الآية الأخيرة فهي تتحدث عن الطيبات الروحية وما يكون سبباً لطهارة الروح و النفس الإنسانية، فقد بيّنت هذه الآية أحكاماً مثل الوضوء والغسل والتيمم، التي تكون سبباً في صفاء وطهارة الروح الإنسانية - فخاطبت المؤمنين في البداية موضحة أحكام الوضوء بقولها: يا أيها الذين آمنوا إذا

قَمِّمِ^(١) إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ».

لم توضح الآية مناطق الوجه التي يجب غسلها في الوضوء، لكن الروايات التي وردت عن أئمة أهل البيت عليهم السلام قد بيّنت بصورة مفصلة طريقة الوضوء التي كانت النبي صلى الله عليه وآله يعمل بها.

١- إن حدود الوجه طوياً من منابت الشعر على الجبهة حتى منتهى الذقن، وعرضاً ما يقع من الوجه بين الأصبع الوسطى والإبهام - وهذا هو ما يسمّى ويفهم من الوجه عرفاً، لأن الوجه هو ذلك الجزء من الجسم الذي يواجه الإنسان لدى التلاقي مع نظيره.

٢- لقد ذكرت الآية حدود ما يجب غسله من اليدين في الوضوء، فأشارت إلى أن الغسل يكون حتى المرفقين - وقد جاء التصريح بالمرفقين في الآية لكي لا يتوهم بأن الغسل المطلوب هو للرسغين كما هو العادة في غسل الأيدي.

ويتبين من هذا التوضيح أن كلمة «إلى» الواردة في الآية هي لمجرد بيان حد الغسل وليست لبيان أسلوبه كما التبس على البعض، حيث ظنوا أن المقصود في الآية هو غسل اليدين ابتداءً من أطراف الأصابع حتى المرفقين (وراج هذا الأسلوب لدى جماعات من أهل السنة).

ولتوضيح هذا الأمر نقول: أنه حين يطلب إنسان من صباغ أن يصبغ جدار غرفة من حد أرضيتها لغاية متر واحد، فالمفهوم من ذلك أنه لا يطلب أن يبدأ

١- وردت روايات عديدة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام تؤكد أن المراد بجملة «قَمِّمِ» هو القيام من النوم، حيث لدى الإيمعان في محتويات الآية يتأكد لنا هذا الأمر أيضاً، لأن الجمل التالية التي نبين فيها الآية حكم التيمم قد وردت فيها عبارة «أو جاء أحد منكم من الغائط»، فلو كانت الآية تبيّن في بدايتها حكم جميع من ليسوا على وضوء، فإن عطف الجملة الأخيرة - وبالأنحص - بحرف «أو» لا يتلاءم وظاهر هذه الآية، لأن المقصود فيها يدخل ضمن عنوان من هو ليس على وضوء أيضاً. أما إذا كان الـ «إلى» في بدايتها تتكلم بصورة خاصة عن الذين يقومون من النوم، أي أنها تبيّن فقط ما أصطلح عليه بـ «حدث النوم»، فإن الجملة المذكورة تصبح مفهومة بشكل تام.

الصباغ عمله من تحت إلى فوق، بل إن ذكر هذه الحدود هو فقط لبيان المساحة المراد صبغها لا أكثر ولا أقل، وعلى هذا الأساس فإن الآية أرادت من ذكر حدود اليد بيان المقدار الذي يجب غسله منها لا أسلوب وكيفية الغسل.

وقد شرحت الروايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام أسلوب الغسل وفق سنة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو غسل اليدين من المرفق حتى أطراف الأصابع.

ويجب الإنتباه إلى أن المرفق - أيضاً - يجب غسله أثناء الوضوء، لأن الغاية في مثل هذه الحالات تدخل ضمن المغيبي، أي أن الحد يدخل في حكم المحدود^(١).

٣- إن حرف (ب) الوارد مع عبارة «برؤوسكم» في الآية يعني التبعض، كما صرحت به بعض الروايات وأيده البعض من علماء اللغة، والمراد بذلك بعض من الرأس، أي مسح بعض من الرأس حيث أكدت روايات الشيعة أن هذا البعض هو ربع الرأس من مقدمته، فيجب مسح جزء من هذا الربع حتى لو كان قليلاً باليد، بينما الراجح بين البعض من طوائف السنة في مسح كل الرأس وحتى الأذنين لا يتلاءم مع ما يفهم من هذه الآية الكريمة.

٤- إن اقتران عبارة «أرجلكم» بعبارة «رؤوسكم» دليل على أن الأرجل يجب أن تمسح هي - أيضاً - لأن تغسل، وما فتح اللام في «أرجلكم» إلا لأنها معطوفة محلاً على «رؤوسكم» وليست معطوفة على «وجوهكم»^(٢).

٥- تعني كلمة «كعب» في اللغة التواء الظاهر خلف الرجل، كما تعني - أيضاً -

١- لقد ذكر «سبويه» الذي هو من مشاهير علماء اللغة العربية أنه متى ما كان الشيء الوارد بعد (إلى) والشيء الوارد قبلها من جنس واحد، ويدخل هذا (المابعد) في الحكم - أمّا لو كانا من جنسين مختلفين فيعتبر خارجاً عن الحكم - فلو قيل: أمسك إلى آخر ساعة من النهار، يكون المفهوم من هذه الجملة أن الإمساك يشمل الساعة الأخيرة أيضاً، بينما لو قيل: أمسك إلى أول الليل فإن أول الليل لا يدخل ضمن حكم الإمساك (المنار، ج ٦، ص ٢٢٣).

٢- ليس هناك من شك بأن عبارة «وجوهكم» تفصلها مسافة كبيرة نسبياً عن عبارة «أرجلكم» لذلك يستبعد أن تكون الأخيرة معطوفة على «وجوهكم». إضافة إلى ذلك فإن الكثير من القراء قد قرأوا عبارة «أرجلكم» بـ «اللام».

المفصل الذي يربط مشط الرجل بالساق^(١).

بعد ذلك كله بيّنت الآية حكم الغسل عن جنابة حيث قالت: «وإن كنتم جنباً فاطهروا...» والواضح أنّ المراد من جملة «فاطهروا» هو غسل جميع الجسم، لأنّه لو كان المراد جزءاً خاصاً منه لأقتضى ذكر ذلك الجزء، وعلى هذا الأساس فإنّ العبارة المذكورة تعني جميع الجسم - وقد جاء حكم مشابه لهذا الحكم في الآية (٤٣) من سورة النساء حيث تقول: «حتى تفتسلوا».

إنّ كلمة «جنباً» - وكما أوضحنا سابقاً في الجزء الثالث من تفسيرنا هذا، لدى تفسير الآية (٤٣) من سورة النساء - مصدر، وقد وردت بمعنى اسم الفاعل، وتعني في الأصل «المتباعد» أو «البعيد» لأنّ الجذر الأصلي هو «جنابة» بمعنى «بعد»، وسبب إطلاق هذا اللفظ على الإنسان المجنب لأنّ هذا الإنسان يجب عليه أن يتعد عن الصلاة والتوقف في المساجد وأمثالها. وتطلق هذه الكلمة «جنب» على المفرد والجمع والمذكر والمؤنث، وإطلاق «جار الجنب» على البعيد هو لنفس المناسبة.

ويمكن أن يستدل من الآية التي تدعو المجنب إلى الإغتسال قبل الصلاة على أن غسل الجنابة يجزيء، وينوب عن الوضوء أيضاً.

* * *

ومن ثمّ بادرت الآية إلى بيان حكم التيمم حيث قالت: «وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء

١ - لقد ذكر القاموس ثلاثة معانٍ للكعب وهي: النتوء الظاهر خلف الرجل. والمفصل. والنتونين البارزين على جانبي الرجل - وقد بيّنت السنّة الشريفة أنّ المراد في الآية ليس النتوءات المذكورات ولكن العظام اختلفوا في هل أنّ المراد هو النتوء البارز خلف الرجل أو هو المفصل؟ - وعلى أي حال - فإنّ الإحتياط يوجب أن يكون المسح حتى المفصل.

فتيمموا صعيداً طيباً....».

وهنا يجب الالتفات إلى أن جملتي «أو جاء أحد منكم من الغائط» و«أو لامستم النساء» هما - كما أشرنا سابقاً - معطوفتان على بداية الآية، أي على جملة: «إذ قمتم إلى الصلاة» فالآية أشارت في البداية حقيقة إلى قضية النوم، وتطرقت في آخرها إلى نوعين آخرين من موجبات الوضوء والغسل.

أما لو عطفنا الجملتين على جملة «على سفر» فسواجه مشكلتين في هذه الآية وهما أولاً: إنَّ عودة الإنسان بعد التخلي لا يمكن أن تكون كحالة المرض أو السفر فلا تناظر بين تلك وهاتين الحاليتين، لذلك ترانا مضطرين إلى أن نأخذ حرف «أو» الوارد في الآية بمعنى الواو العاطفة (وأكد هذا الأمر جمع من المفسرين) وهذا خلاف لظاهر الآية.

بالإضافة إلى ذلك فإنَّ ذكر التغوط بصورة خاصة من بين كل موجبات الوضوء سيبقى بدون مبرر، لكننا لو فسرنا الآية بالصورة التي قلناها سابقاً فلا يبقى بعد ذلك مبرر لهذين الإعتراضين الأخيرين، (ومع أننا اعتبرنا في تفسير الآية (٤٣) من سورة النساء)، وجرياً على ما فعله الكثير من المفسرين، اعتبرنا كلمة «أو» بمعنى الواو العاطفة، إلا أنَّ الذي ذكرناه مؤخراً - هنا - يعتبر أقرب إلى القبول من ذلك.

أما الموضوع الآخر فهو تكرار موضوع الجنابة مرّتين في هذه الآية، ويحتمل أن يكون هدف هذا التكرار هو التأكيد على هذه القضية، أو قد تكون كلمة «جنباً» الواردة بمعنى الجنابة التي تحدث أثناء النوم أو بسبب الإحتلام، بينما المراد من جملة «أو لامستم النساء» هو الجنابة الحاصلة نتيجة المقاربة الجنسية بين الرجل والمرأة، وإذا فسرنا كلمة «قمتم» الواردة في الآية بالقيام من النوم (كما ورد في روايات أئمة أهل البيت عليهم السلام) وأيضاً اشتملت الآية على قرينة بهذا الخصوص) يكون تفسيرنا هذا تأييداً للمعنى الذي أوردناه بخصوص تكرار موضوع الجنابة.

لقد بيّنت الآية - بعد ذلك - أسلوب التيمم بصورة إجمالية فقالت: ﴿فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه...﴾، والواضح هنا هو أنّ المراد ليس حمل شيء من التراب ومسح الوجه واليدين به، بل أنّ المقصود هو ضرب الكفين على تراب طاهر ثم مسح الوجه واليدين بهما، لكن بعض الفقهاء استدلوا بعبارة «منه» الموجودة في الآية وقالوا بضرورة أن يلاصق الكفين شيء ولو قليل من التراب^(١).

بقيت مسألة أخيرة في هذا المجال، وهي مسألة معنى كلمتي «صعيداً طيباً» فقد ذهب الكثير من علماء اللغة إلى أنّ لكلمة «صعيد» معنيين هما التراب أولاً، أو كل شيء يغطي سطح البسيطة أي الكرة الأرضية ثانياً، سواء كان تراباً أو صخراً أو حصى أو حجراً أو غير ذلك من الأشياء، وقد أدى هذا إلى حصول اختلاف في آراء الفقهاء حول الشيء الذي يجوز التيمم به، هل هو التراب وحده أو أنّ الحجر والرمل وأمثالهما - أيضاً - يجوز التيمم بهما؟

وحين نرجع إلى الأصل اللغوي لكلمة «صعيد» الذي يدل على «الصعود والإرتفاع» فإن المعنى الثاني لهذه الكلمة يبدو أقرب إلى الذهن. وتطلق كلمة «طيب» على الأشياء التي تلائم الطبع والذوق الإنساني. وقد أطلق القرآن الكريم هذه الكلمة في موارد كثيرة مثل: «البلد الطيب» و«مساكن طيبة» و«ريح طيبة» و«حياة طيبة» وغيرها... وكذلك فإن كل شيء طاهر يعتبر طيباً، لأنّ طبع الإنسان ينفر من الأشياء النجسة المدنّسة، ومن هذا نستدل على أنّ تراب التيمم يجب أن يكون تراباً طاهراً أيضاً.

وقد أكّدت الروايات الواردة إلينا عن أئمة الإسلام ﷺ على هذا الموضوع

١ - لقد أوضحنا في تفسير الآية (٤٣) من سورة النساء، بصورة مفصلة، أحكام التيمم وفلسفتها الإسلامية وكيف أن التيمم لا يعتبر مغايراً للوقاية الصحيّة، بل فيه جانب وقائي صحي أيضاً، وكذلك حول معنى «غانط» وقضايا أخرى فليراجع....

بصورة متكررة، ونقرأ واحدة من هذه الروايات وهي تقول: «نهى أمير المؤمنين أن يتيمم الرجل بتراب من أثر الطريق»^(١).

والجدير بالنظر أنّ عبارة «التيمم» الواردة في القرآن والحديث بمعنى التكليف الشرعي الذي مضى الحديث عنه، جاءت في اللغة بمعنى «القصْد» والقرآن الكريم يقرر أنّ الإنسان لدى قصد التيمم عليه أن يختار قطعة طاهرة من الأرض من بين القطعات المختلفة للتيمم منها. قطعة ينطبق عليها مفهوم «الصعيد» معرضة للأمطار والشمس والرياح، وبديهي أن تكون قبل اتخاذها للتيمم مثل هذه القطعة من الأرض التي لم تتعرض لوطء الأقدام، فيها الصفات التي تستوعبها كلمة «طيب» وعندئذ فإن هذه القطعة من الأرض -بالإضافة إلى كونها لا تضرّ بالصحة - تكون أيضاً - وكما أسلفنا لدى تفسيرنا للآية (٤٣) من سورة النساء - ذات أثر أيضاً في قتل الجراثيم والميكروبات، كما يؤكده العلماء من ذوي الاختصاص في هذا المجال.

فلسفة الوضوء والتيمم:

لقد تناولنا فلسفة التيمم بالبحث بصورة وافية في الآية (٤٣) من سورة النساء، أمّا بالنسبة لفلسفة الوضوء فالشيء الذي لا يختلف عليه إثنان، هو أنّ للوضوء فائدتين واضحتين:

إحداهما صحية والأخرى أخلاقية معنوية، فغسل الوجه واليدين في اليوم خمس مرّات أو على الأقل ثلاث مرّات، لا يخفي أثره في نظافة الإنسان وصحته، أمّا الفائدة الأخلاقية المعنوية فهي في الأثر التربوي الذي يخلفه قصد التقرب إلى الله في نفس الإنسان حين يعقد النية للوضوء بالأخص حين ندرك أنّ المفهوم النفسي للنية يعني أن حركة الإنسان أثناء الوضوء والتي تبدأ من الرأس

وتنتهي بالقدمين - هي خطوات في طاعة الله.

ونقرأ في رواية عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام قوله: «إنما أمر بالوضوء وبدىء به لأن يكون العبد طاهراً إذا قام بين يدي الجبار عند مناجاته إياه، مطيعاً له فيما أمره تقياً من الأذناس والنجاسة، مع ما فيه من ذهاب الكسل، وطرده النعاس، وتزكية الفؤاد للقيام بين يدي الجبار»^(١).

وتتوضح فلسفة الوضوء أكثر في الحديث عن فلسفة الغسل، والذي سنتناوله فيما يلي:

فلسفة الغسل:

قد يسأل البعض لماذا أمر الإسلام بغسل كامل الجسم لدى حصول «الجنابة» في حين أن عضواً معيناً واحداً يتلوث أو يتسخ في هذه الحالة؟ فهل هناك فرق بين البول الخارج من ذلك العضو، وبين «المني» الخارج منه أثناء الجنابة بحيث يجزي غسل العضو وحده في حالة التبول، بينما يجب غسل الجسم كله بعد خروج المني من العضو؟

لهذا السؤال جوابان، مجمل ومفصل، وهما كما يلي: فالجواب المجمل يتلخص في أن خروج المني من الإنسان لا ينحصر أثره في العضو الذي يخرج منه، أي أنه ليس كالبول والفضلات الأخرى.

والدليل على هذا القول هو تأثير الجسم كله أثناء خروج المني من العضو بحيث تطراً على خلايا الجسم كلها حالة من الإسترخاء والخمول، وهذه الحالة هي الدليل على تأثير الجنابة على أجزاء الجسم كلها، وقد أظهرت بحوث العلماء المتخصصين - في هذا المجال - أن هناك سلسلتين عصبيتين نباتيتين في جسم الإنسان، هما السلسلة السمبثاوية (الأعصاب المحركة) والسلسلة شبه

السمبثاوية (الاعصاب الكابحة) تمتدان في كافة أجزاء الجسم وأجهزته الداخلية، وتتولى السلسلة السمبثاوية تحفيزاً جهازاً الجسم على العمل وتسريع عملها، بينما السلسلة شبه السمبثاوية تعمل عكس الأولى، فتحدّ عمل أجهزة الجسم وتبطئها فالأولى تلعب دور جهاز دفع البنزين في السيارة من أجل تحريكها والأخرى يكون دورها دور الكابح فيها لإيقافها عن الحركة، وبالتوازن الحاصل في عمل هاتين السلسلتين العصبيتين تعمل جمع أجهزة جسم الإنسان بصورة متوازنة أيضاً.

وقد تحدث في جسم الإنسان - أحياناً - فعاليات تعيق استمرار هذا التوازن فيطغى عمل أحد السلسلتين العصبيتين على عمل الجملة الأخرى، ومن هذه الفعاليات وصول الإنسان إلى الذروة في اللذة الجنسية، أي ما يسمى بحالة «الأوركازم» التي تقتزن بخروج المني من عضو الإنسان، وفي هذه الحالة يطغى عمل السلسلة العصبية شبه السمبثاوية الكابح على عمل السلسلة العصبية الأخرى التي هي السمبثاوية الدافعة فيختل التوازن بصورة سلبية في جسم الإنسان، وقد ثبت بالتجربة أن الشيء الذي يمكنه إعادة التوازن بين عمل تلك السلسلتين العصبيتين، هو وصول الماء إلى جسم الإنسان، ولما كانت حالة «الأوركازم» التي يصل إليها الإنسان لدى «الجنابة» تؤثر بصورة محسوسة على أجهزة جسم الإنسان وتخل بتوازن السلسلتين العصبيتين المذكورتين، لذلك أمر الإسلام بأن يباشر الإنسان غسل كل جسمه بعد كل مقاربة جنسية، أو لدى خروج «المني» منه، حيث يعود بهذا الغسل التوازن بين عمل السلسلتين العصبيتين السمبثاوية وشبه السمبثاوية في كل أجزاء الجسم، فتعود لها حالتها الطبيعية في الحركة والحياة^(١).

١ - وتقرأ في رواية عن الإمام الثامن علي بن موسى الرضا عليه السلام قوله: «إن الجنابة خارجة من كل جسده فلذلك

وبديهي أن فائدة الغسل لا تنحصر في الذي تحدثنا عنه قبل قليل، بل أن الغسل يعتبر أيضاً نوعاً من العبادة التي لها آثار أخلاقية لا تنكره، ولهذا السبب يبطل الغسل إن لم يكن مقترناً بنية الطاعة والتقرب إلى الله سبحانه، لأن الحقيقة هي أن الجسم والروح كليهما يتأثران أثناء خروج «المني» من الإنسان أو لدى حصول المقاربة الجنسية - فالروح تجر بذلك وراء الشهوات المادية ويدفع الجسم إلى حالة الخمول والركود.

وغسل الجنابة يعتبر غسلًا للجسم بما يشمله من عملية إيصال الماء إلى جميع أجزائه، ويعتبر غسلًا للروح بما يحتويه من نية الطاعة والتقرب إلى الله، أي أن لهذا الغسل أثرين مادي وروحي، يدفع الأثر المادي منه الجسم إلى استعادة حالة النشاط والفعالية، ويدفع الأثر الروحي الإنسان للتوجه إلى الله وإلى المعنويات.

أضف إلى ذلك كله أن وجوب غسل الجنابة في الإسلام هو أيضاً من أجل إبقاء جسم الإنسان المسلم طاهراً، كما هو رعاية للجانب الصحي في حياة الإنسان، وقد يوجد الكثير من الناس ممن لا يعتنون بنظافة أجسامهم لكن هذا الأمر والواجب الإسلامي يجبرهم على غسل أجسامهم بين فترة وأخرى ولا يقتصر التهاون في غسل الجسم على إنسان العهود القديمة، بل حتى في عصرنا الحاضر هناك الكثير ممن لا يعتنون بغسل أجسامهم، بل يتهاونون في هذا الأمر الحياتي المهم (وطبيعي أن حكم غسل الجنابة حكم عام، وقانون كلي يشمل حتى الشخص الذي غسل جسمه قبل حصول الجنابة بقليل).

إن الجوانب الثلاثة المذكورة فيما سبق - توضح بمجموعها سبب وجوب الغسل لدى خروج المني من الإنسان سواء كان في أثناء النوم أو اليقظة وكذلك

بعد المقاربة الجنسية (حتى لو لم تؤد إلى خروج المنى).

وقد أوضحت الآية - في آخرها - أن الأوامر الإلهية ليس فيها ما يحرّج الإنسان أو يوجد العسر له، بل إنها أوامر شرعت لتحقيق فوائد ومنافع معينة للناس، فقالت الآية «ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون».

وتؤكد هذه العبارات القرآنية الأخيرة أن جميع الأحكام والأوامر الشرعية الإلهية والضوابط الإسلامية هي في الحقيقة لمصلحة الناس ولحماية منافعهم، وليس فيها أي هدف آخر، وإن الله يريد بالأحكام الأخيرة الواردة في الآية - موضوع البحث - أن يحقق للإنسان طهارته الجسمانية والروحية معاً.

ويجب هنا الانتباه إلى أن جملة «ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج» مع أنها وردت في أواخر الآيات التي اشتملت على أحكام الغسل والوضوء والتميم، إلا أنها تبين قانوناً عاماً معناه أن أحكام الله ليست تكاليف شاقّة أبداً، ولو كان في أي حكم شرعي العسر والحرج لأي فرد لسقط التكليف عن هذا الفرد بناء على الإستثناء الوارد في الجملة القرآنية الأخيرة من الآية موضوع البحث، ولهذا لو كان الصوم بشكل مشقة وعناء على أي فرد بسبب مرض أو شيخوخة أمّا ما شابه ذلك، لسقط أداؤه عن هذا الفرد وارتفع التكليف عنه، بناء على هذا الدليل نفسه.

ولا يخفي - أيضاً - أن هناك من الأحكام الإلهية ما يظهر فيها الصعوبة والمشقة بذاتها مثل حكم الجهاد، إلا أنه ولدى مقارنة المصالح التي تتحقق بالجهاد مع الصعوبات والمشاق التي فيه، تترجح كفة المصالح وأهميتها فلا تكون المشاق أمامها شيئاً يذكر، وقد سمي القانون الذي أثبتته الجملة القرآنية الأخيرة بقانون «لا حرج» وهو مبدأ أساسي يستخدمه الفقهاء في أبواب مختلفة ويستنبطون منه أحكاماً كثيرة.

الآية

وَأَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ
سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾

التفسير

العهود الربانية:

تناولت الآية السابقة مجموعة من الأحكام الإسلامية بالإضافة إلى موضوع إكمال النعمة الإلهية على المسلمين، وجاءت الآية الأخيرة لتكتمل السياق الموضوعي لما سبق من آيات، فاستقطبت انتباه المسلمين إلى أهمية وعظمة النعم الإلهية التي أعظمها وأهمها نعمة الإيمان والهداية والإسلام، تقول الآية: «واذكروا نعمة الله عليكم ...» ومع أن كلمة «نعمة» جاءت بصيغة المفرد في هذه الآية، إلا أنها وردت اسم جنس لتفيد العموم، حيث عنى بالنعمة جميع النعم، كما يحتمل أيضاً أن يكون المراد نعمة الإسلام بصورة خاصة، والتي أشارت إليها الآية السابقة بصورة إجمالية حيث قالت: «ووليتم نعمته عليكم ...» فأبي نعمة أعظم من أن ينال الإنسان - في ظل الإسلام - كل الهبات الإلهية والمفاخر والإمكانات الدنيوية، بعد أن كان الناس يعانون في الجاهلية من التشتت والجهل والضلال ويسود بينهم قانون الغاب، وكان الفساد والظلم يعم

مجتمعهم آنذاك، وقد تحولوا بفضل الإسلام إلى مجتمع يسوده الإتحاد والتماسك والعلم، ويرفل بالنعم والإمكانيات المادية والمعنوية الزاخرة.

بعد هذا تعيد الآية إلى الأذهان ذلك العهد الذي بين البشر وبين الله، فتقول «وميثاقه الذي واثقكم به إذ قلتم سمعنا وأطعنا...».

هناك احتمالان حول المعنى المراد بلفظة «العهد» الواردة في الآية وموضوعه.

الإحتمال الأول: أن يكون هو ذلك العهد الذي عقده المسلمون في بداية ظهور الإسلام في واقعة «الحديبية» أو واقعة «حجة الوداع» أو «العقبة» مع الله، أو بصورة عامة هو العقد الذي عقده جميع المسلمين بصورة ضمنية مع الله بمجرد قبولهم الإسلام.

والإحتمال الثاني: هو أن يكون العهد المقصود في الآية الكريمة الأخيرة هو ذلك العهد المعقود بين كل فرد إنساني - بحكم فطرته وخلقه - وبين الله، والذي يقال عنه بأنه تم في «عالم الذر»^(١).

وبيان ذلك هو أن الله حين خلق الإنسان أودع فيه استعدادات ومواهب كثيرة، ومنها نعمة العلم التي بها يتتبع أسرار الخليقة، وتحقق لديه معرفة الحق، وكذلك نعم كالعقل والذكاء والإدراك ليعرف الإنسان بها أنبياء الله ويلتزم بأوامرهم، والله سبحانه حين أودع هذه النعم لدى الإنسان أخذ منه عهداً بأن يستغلها خير استغلال، وأن لا يهملها أويسه، استعمالها، فرد الإنسان بلسان الحال والإستعداد «سمعنا وأطعنا».

ويعتبر هذا العهد أوسع وأحكم وأعم عهد أخذه الله من عباده البشر، وهذا هو العهد الذي يشير إليه الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام في خطبته الأولى الواردة في كتاب «نهج البلاغة» بقوله: «ليستأدوهم ميثاق فطرته» أي ليطلب منهم أداء

١ - سيرد شرح مفصل عن «عالم الذر» وسبب تسميته بهذا الإسم في تفسير الآية (١٧٢) من سورة الأعراف، بإذن الله.

الميثاق الفطري الذي أخذه منهم والوفاء به.

وبدیهي أن يشمل هذا العهد الواسع جميع المسائل والأحكام الدينية. ولا مانع مطلقاً من أن تكون في هذه الآية إشارة إلى جميع العهود والمواثيق التكوينية والتشريعية التي أخذها الله أو النبي ﷺ من المسلمين بمقتضى فطرتهم في مراحل مختلفة، وهنا يتوضح لنا الحديث القائل بأن المراد من الميثاق هو العهد الذي أخذه النبي ﷺ من المسلمين في حجة الوداع بخصوص ولاية علي بن أبي طالب (عليه السلام) ^(١) ويتفق هذا التفسير مع ما ورد أعلاه. وقد أكدنا مراراً أن التفاسير التي ترد على الآيات القرآنية، ما هي إلا إشارة لواحد من المصاديق الجليلة المعنية في كل آية، ولا تعني مطلقاً انحصار المعنى بالتفسير الوارد.

وتجدر الإشارة - أيضاً - إلى أن كلمة «ميثاق» مشتقة من المصدر «وثاق» أو «وثوق» وتعني الشد المحكم بالحبل وأمثاله، كما يطلق على كل عمل يؤدي إلى راحة البال وأطمئنان خاطر، حيث أن العهد يكون بمثابة عقدة تربط شخصين أو جماعتين أحدهما بالآخر، ولذلك سمي «ميثاقاً».

وفي النهاية تؤكد الآية على ضرورة التزام التقوى، محذرة أن الله محيط بأسرار البشر، وعالم بما يختلج في صدورهم، بقولها: «واتقوا الله إن الله عليم بذات الصدور».

وتدل عبارة «ذات الصدور» على أن الله عالم بأدق أسرار البشر المكنونة في أعماق نفوسهم والتي لا يمكن لأي مخلوق معرفتها غير صاحب السر وخالقه، أي الله العالم بذات الصدور.

وقد شرحنا في الجزء الأول من تفسيرنا هذا سبب نسبة العواطف والمشاعر والنوى والعزائم إلى القلب أو إلى مكنونات الصدور.

* * *

الآيات

يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوْمِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا
يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ ءَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ
وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ
كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٠﴾

التفسير

دعوة مؤكدة إلى العدالة:

إن الآية الأولى من الآيات الثلاث أعلاه تدعو إلى تحقيق العدالة، وهي
شبيهة بتلك الدعوة الواردة في الآية (١٣٥) من سورة النساء، التي مضى ذكرها
مع اختلاف طفيف.

فتخاطب هذه الآية أولاً المؤمنين قائلة: «يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين
للله شهداء بالقسط».

ثم تشير إلى أحد أسباب الانحراف عن العدالة، وتحذر المسلمين من هذا
الانحراف مؤكدة أن الأحقاد والعداوات القبلية والثارات الشخصية، يجب أن لا
تحول دون تحقيق العدل، ويجب أن لا تكون سبباً للإعتداء على حقوق

الآخرين، لأنّ العدالة أرفع وأسمى من كل شيء، فنقول الآية الكريمة: ﴿ولا يجرمكم شأن قوم على ألا تعدلوا...﴾ وتكرر الآية التأكيد لبيان ما للعدل من أهمية قصوى فنقول ﴿أعدلوا هو أقرب للتقوى﴾.

وبما أنّ العدالة تعتبر أهم أركان التقوى، تؤكد الآية مرّةً ثالثة قائلة: ﴿واتقوا الله إنّ الله إنّ الله خبير بما تعملون﴾.

والفرق بين فحوى هذه الآية والآية المشابهة لها الواردة في سورة النساء، يتحدد من عدّة جهات:

أولاً: إنّ الآية الواردة في سورة النساء دعت إلى إقامة العدل والشهادة لله، أمّا الآية الأخيرة فقد دعت إلى القيام لله والشهادة بالحق والعدل، ولعل وجود هذا الفارق لأنّ الآية الواردة في سورة النساء استهدفت بيان ضرورة أن تكون الشهادة لله، لا لأقارب وذوي الشاهد، بينما الآية الأخيرة ولكونها تتحدث عن الأعداء أوردت تعابير مثل الشهادة بالعدل والقسط أي تجنب الشهادة بالظلم والجور.

ثانياً: أشارت الآية الواردة في سورة النساء إلى واحد من عوامل الانحراف عن العدالة، بينما الآية الأخيرة أشارت إلى عامل آخر في نفس المجال، فهناك ذكرت الآية عامل الحب المفرط الذي لا يستند على تبرير أو دليل، بينما ذكرت الآية الأخيرة الحقد المفرط الذي لا مبرر له.

ولكن الآيتين كليهما تتلاقيان في عامل إتباع الأهواء والنزوات التي تتحدث عنها الآية الأولى في جملة: ﴿فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا...﴾ لأنّ الهوى مصدر كلّ ظلم وجور ينشأ من الإندفاع الأعمى وراء الأهواء والمصالح الشخصية، لا من دافع الحب أو الكراهية، وعلى هذا الأساس فإنّ المصدر الحقيقي للانحراف عن العدل هو نفس إتباع الهوى، وقد جاء في كلام النبي ﷺ

والإمام علي بن أبي طالب عليه السلام قولهما: «أما إتباع الهوى فيصدّ عن الحق»^(١).

* * *

العدل ركن إسلامي مهم:

قلما نجد قضية أعطى الإسلام لها أهمية قصوى كقضية العدل، فهي وقضية التوحيد سيان في تشعب جذورهما إلى جميع الأصول والفروع الإسلامية، وبعبارة أخرى: كما أنّ جميع القضايا العقائدية والعملية والاجتماعية والفردية والأخلاقية والقانونية لا تنفصل مطلقاً عن حقيقة التوحيد، فكذلك لا تنفصل كل هذه القضايا ولا تخلو أبداً من روح العدل.

وليس من العجيب والحالة هذه أن يكون العدل واحداً من أصول العقيدة والدين، وأساساً من أسس الفكر الإسلامي، وهو مع كونه صفة من صفات الله سبحانه ويدخل ضمن مبادئ المعرفة الإلهية، إلا أنه يشتمل على معان واسعة في خصائصه ومزاياه، ولذلك كان ما أولته البحوث الاجتماعية في الإسلام من الإهتمام بالعدل والإعتماد عليه يفوق ما حظيت به المبادئ الإسلامية الأخرى من ذلك.

ويكفي إيراد عدد من الأحاديث والزوايات نماذج لدرک أهمية هذه الحقيقة:

١- روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «إياكم والظلم فإن الظلم عند الله هو الظلمات يوم القيامة»^(٢).

وبديهي أن كل ما هو موجود من خير وبركة ونعم هو من النور وفي النور،

١- ورد هذا الحديث نقلاً عن النبي صلى الله عليه وآله في كتاب سفينة البحار في مادة (هوى)، وورد في كتاب نهج البلاغة في الخطبة ٤٢ نقلاً عن علي بن أبي طالب عليه السلام.
٢- سفينة البحار، مادة (ظلم).

وإنّ الظلام هو مصدر كل عدم وفاقه.

٢- وقال النبي ﷺ أيضاً: «بالعدل قامت السموات والأرض»^(١).

ويعتبر هذا القول من أوضح التعابير التي قيلت في شأن العدل، ومعناه أنّ حياة البشر المحدودة في الكرة الأرضية ليست وحدها التي يكون قوامها العدل، بل إنّ حياة ووجود الكون بأكمله، والسموات والأرضين كلها قائمة بالعدل، وفي ظل حالة من توازن القوى الفاعلة فيها، ووجود واستقرار كل شيء في محله منها، بحيث لو أنّها انحرفت عن هذا التوازن لحظة واحدة أو بمقدار قيد أنملة لحكمت على نفسها بالفناء والزوال.

ويؤيد هذا القول حديث آخر هو: «الملك يبقى مع الكفر ولا يبقى مع الظلم» لأنّ للظلم أثراً سريعاً في هذه الحياة الدنيوية ومن نتائجه الحروب والإضطرابات والفلاقل والفوضى السياسية والاجتماعية والأخلاقية والأزمات الاقتصادية التي تعمّ العالم اليوم، وهذا ما يثبت الحقيقة المذكورة بصورة جيدة. ويجب الانتباه جيداً إلى أنّ اهتمام الإسلام لم ينصب في مجرد العدالة، بل إنّ أولى أهمية أكبر لتحقيق العدالة، وطبيعي أنّ محض تلاوة هذه الآيات في المجالس أو من على المنابر، وكتابتها في الكتب، لا يجدي نفعاً في استعادة العدالة المفقودة، وعلاج التمييز الطبقي والعنصري، والفساد والاجتماعي في المجتمع الإسلامي، بل إنّ عظمة هذه الآيات والأحكام تتجلّى في يوم تطبق فيه العدالة في صميم حياة المسلمين.



بعد التأكيد الشديد الذي حملته الآية الكريمة حول قضية العدالة وضرورة تطبيقها بادرت الآية التالية وتمشياً مع الأسلوب القرآني، فأعادت إلى الأذهان

١- تفسير الصافي، في تفسير الآية ٧ من سورة الرحمن.

ما أعدة الله للمؤمنين العاملين بالخير من غفرانه ونعمه العظيمة، حيث تقول الآية: «وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر عظيم».

كما ذكرت الآية في المقابل جزاء الكفارين الذين يكذبون بآيات الله، فقالت: «والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم».

ومما يلفت النظر أن الآية جعلت المغفرة والأجر العظيم في إطار «وعد الله» بينما ذكرت عقاب جهنم بأنه نتيجة للكفر وللتكذيب بآيات الله، وما هذا إلا إشارة إلى فضل الله ورحمته لعباده فيما يخص نعم وهبات الآخرة التي لا يمكن لأعمال الإنسان مهما كبرت وعظمت أن تباريها أو تعادلها مطلقاً، كما أنها إشارة - أيضاً - إلى أن عقاب الآخرة ليس فيه طابع انتقامي أبداً، بل هو نتيجة عادلة لما إرتكبه الإنسان من أعمال سيئة في حياته.

أما فيما يخص معنى عبارة «أصحاب الجحيم»^(١) فهي مع ما في كلمة «أصحاب» من معنى الملازمة، أي أن الكافرين والمكذبين بآيات الله يلزمون جهنم، لكن هذه الآية لوحدها لا يمكن أن تكون دليلاً على مسألة «الخلود» في نار جهنم، كما جاء توضيح ذلك في تفسيري «التبيان» و«مجمع البيان» وتفسير «الفخر الرّازي»، لأنّ الملازمة ربما تكون دائمة، وقد تستمر لفترة طويلة ثم تنقطع، بدلالة التعبير القرآني الوارد في شأن ركاب سفينة نوح النبي ﷺ حيث وردت فيهم عبارة «أصحاب السفينة» وهم لم يكونوا ملازمين لتلك السفينة ملازمة دائمة.

ومع انتفاء الشك حول خلود الكفار في نار جهنم، فالآية الكريمة - موضوع البحث - لم تتحدث بشيء عن هذا «الخلود» بل يستنتج هذا من آيات قرآنية أخرى.



١- إن كلمة جحيم تعني النار الشديدة الإلتهاب، وقد أطلقت في القرآن على نار جهنم كما في هذه الآية، وعلى نار الدنيا كالنار التي سمرها لحرق النبي إبراهيم ﷺ الآية (١٧) من سورة الصافات.

الآية

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَن
يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى
اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾

التفسير

لقد ذكرت الآيات السابقة بعضاً من النعم الإلهية، وجاءت الآية الأخيرة
تخاطب المسلمين وتذكر لهم أنواعاً من النعم التي أنعم الله بها عليهم، لكي يؤدوا
شكرها عن طريق طاعة الله والسعي لتحقيق مبادئ العدالة، فتقول الآية: «يا
أيها الذين آمنوا اذكروا نعمت الله عليكم إذ هم قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم
فكف أيديهم عنكم...».

وقد دأب القرآن الكريم في كثير من آياته على تذكير المسلمين بالنعم
المختلفة التي أنعم الله بها عليهم، وذلك من أجل تعزيز دافع الإيمان لديهم،
ولإستشارة وتحفيز دافع الشكر والصمود فيهم ليقفوا بوجه المشاكل، والآية
الأخيرة من سنخ تلك الآيات.

واختلف المفسرون حول الواقعة التي تشير إليها الآية موضوع البحث،
فبعضهم قال: بأنها إشارة إلى إنقاذ المسلمين من قبيلة «بني النضير» اليهودية التي

تواطأت على قتل النبي ﷺ والمسلمين في المدينة.

وذهب البعض الآخر من المفسرين على أنها إشارة إلى واقعة «بطن النخل» التي حصلت في العام السادس من الهجرة النبوية في واقعة «الحديبية» حيث قرر المشركون هناك في ذلك الحين - بزعامة (خالد بن الوليد) - الهجوم على المسلمين أثناء أدائهم لصلاة العصر، فعلم النبي ﷺ بهذه المؤامرة فصلّى صلاة الخوف القصيرة، مما أدى إلى إحباط المؤامرة.

وقد ذكر مفسرون آخرون وقائع أخرى من حياة النبي ﷺ والمسلمين المليئة بالحوادث، وقالوا بأن هذه الآية إشارة لتلك الوقائع. ويرى مفسرون آخرون أن هذه الآية إشارة إلى كل الوقائع والأحداث التي حصلت طيلة التاريخ الإسلامي حتى ذلك الوقت.

ولو تغاضينا عن كلمة «قوم» الواردة في هذه الآية بصيغة النكرة التي تدل على وحدة المجموعة المعنية، فإن هذا التفسير يمكن اعتباره من أحسن التفاسير في هذا المجال.

والآية على كل حال تلفت إنباه المسلمين إلى الأخطار التي تعرضوا لها، وكان يحتمل أن تدفع بالوجود الإسلامي إلى الفناء والزوال وإلى الأبد، ولكن فضل الله ونعمته شملتهم وأنقذت الإسلام والمسلمين من تلك الأخطار.

كما تحذر الآية المسلمين وتنبههم إلى ضرورة التزام التقوى والإعتماد على الله كدليل على شكر ذلك الفضل وتلك النعمة، وليعلموا بأنهم بتقواهم سيضمنون لأنفسهم الدعم والسند والحماية من الله في حياتهم الدنيوية هذه، وفي هذا المجال تقول الآية الكريمة: «واتقوا الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون».

وواضح أن التوكل على الله ليس معناه التخلي عن المسؤوليات أو الإستسلام لحوادث الزمان، بل يعني أن الإنسان حين يستخدم طاقاته والإمكانات المتوفرة لديه، يجب عليه أن ينتبه في نفس الوقت إلى أن هذه

الطاقات والإمكانيات ليست من عنده بل أن مصدرها ومنشأها هو الله تعالى، وإذا حصل هذا التوجه فإن من شأنه أن يقضي على دافع الفرور والأنانية عند الإنسان أولاً، ومن ثم لا يدع إلى نفسه طريقاً للخوف والقلق واليأس حيال الأحداث والمشاكل مهما كبرت وعظمت، لأنه يعلم بأنّ سنده وحاميه هو الله الذي فاقت قدرته كل القدرات.

إضافة إلى ما ذكر، فإنّ تقديم الأمر بالتقوى على قضية التوكل يستشف منه أنّ حماية الله ورعايته تشمل حال المتقين.

ويجب الإنتباه إلى أنّ عبارة «التقوى» المشتقة من المصدر «وقاية» معناها حماية النفس وإبعادها عن عناصر السوء والفساد.



الآية

وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ظَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٧﴾

التفسير

لقد أشارت هذه الآية أولاً إلى قضية الوفاء بالعهد، وقد تكررت هذه الإشارة في مناسبات مختلفة في آيات قرآنية عديدة، وربما كانت إحدى فلسفات هذا التأكيد المتكرر على أهمية الوفاء بالعهد وذم نقضه، هي إعطاء أهمية قصوى لقضية ميثاق الغدير الذي سيرد في الآية (٦٧) من هذه السورة.

والآية في بدايتها تشير إلى العهد الذي أخذه الله من بني إسرائيل على أن يعملوا بأحكامه، وإرسالة إليهم بعد هذا العهد اثني عشر زعيماً وقائداً ليكون كل واحد منهم زعيماً لطائفة واحدة من طوائف بني إسرائيل الإثنتي عشر - حيث تقول الآية الكريمة: «ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً».

والأصل في كلمة «نقيب» إنها تعني الثقب الكبير الواسع، وتطلق بالأخص على الطرق المحفورة تحت الأرض، وسبب استخدام كلمة نقيب للدلالة على الزعامة، لأن زعيم كل جماعة يكون عليماً بأسرار قومه، وكأنه قد صنع ثقباً كبيراً يطلع من خلاله على أسرارهم، كما تطلق كلمة نقيب أحياناً على الشخص الذي يكون بمثابة المعرف للجماعة، وحين تطلق كلمة «مناقب» على الفضائل والمآثر، يكون ذلك لأن الفضائل لا تعرف إلا عن طريق البحث والتنقيب في آثار الشخص.

وذهب بعض المفسرين إلى أن كلمة «نقيب» الواردة في الآية موضوع البحث إنما تعني - فقط - العارف بالأسرار، لكننا نستبعد هذا الأمر استناداً لما يدلنا عليه التاريخ والحديث وهو أن نقباء بني إسرائيل هم زعماء الطوائف الإسرائيلية، جاء في تفسير «روح المعاني» عن ابن عباس قوله: «إنهم كانوا وزراء ثم صاروا أنبياء بعد ذلك». أي أنهم كانوا وزراء للنبي موسى ﷺ ثم نالوا منزلة النبوة بعده^(١).

ونقرأ في أحوال النبي ﷺ أنه حين قدم أهل المدينة في ليلة العقبة لدعوته ﷺ إلى منطقة العقبة، أمر الرسول ﷺ أهل المدينة لينتخبوا من بينهم اثني عشر نقيباً على عدد نقباء بني إسرائيل، وبديهي أن مهمة هؤلاء كانت زعامة قومهم وليس فقط إخبار النبي بتقارير عن أوضاعهم^(٢).

لقد وردت روايات عديدة من طرق السنة، وهي تلفت الانتباه - لما فيها من إشارة إلى خلفاء النبي الأئمة الإثني عشرية^(٣) وبيان أن عددهم يساوي عدد نقباء بني إسرائيل - ننقل هنا قسماً من هذه الروايات:

١ - ينقل «أحمد بن حنبل» - وهو أحد أئمة السنة الأربعة، عن «مسروق» أنه

١ - تفسير روح المعاني، ج ٦، ص ٧٨.

٢ - سفينة البحار، في مادة «نقيب».

سأل عبد الله بن مسعود: كم عدد الذين سيحكمون هذه الأمة؟ فرد ابن مسعود قائلاً: «لقد سألتنا رسول الله ﷺ فقال: «اثني عشر كعدة نقيب بني إسرائيل»^(١).

٢- وجاء في تاريخ «ابن عساكر» نقلاً عن ابن مسعود، أنهم سألوا النبي عن عدد الخلفاء الذين سيحكمون هذه الأمة، فقال ﷺ: «إن عدة الخلفاء بعدي عدة نقيب موسى»^(٢)

٣- وورد في «منتخب كنز العمال» عن جابر بن سمرة قوله «سيحكم هذه الأمة اثنا عشر خليفة بعدد نقيب بني إسرائيل»^(٣).

وجاء مثل هذا الحديث أيضاً في كتاب (ينابيع المودة) في الصفحة ٤٤٥ وكذلك في كتاب (البداية والنهاية)، ج ٦ في الصفحة ٢٤٧ أيضاً.

* * *

وتشير الآية بعد ذلك إلى وعد الله لبني إسرائيل حيث تقول: «وقال الله إني معكم».

وإن هذا الوعد سيتحقق إذا التزم بنو إسرائيل بالشروط التالية:

- ١- أن يلتزموا بإقامة الصلاة كما تقول الآية: «لئن أقم الصلاة».
- ٢- وأن يدفعوا زكاة أموالهم: «وآتيتم الزكاة».
- ٣- أن يؤمنوا بالرسول الذين بعثهم الله ويحترموا وينصروا هؤلاء الرسل، حيث تقول الآية «وآمنتكم برسلي وعززتموهم»^(٤).

١- مسند أحمد، ص ٣٩٨، طبعة مصر، سنة ١٣١٣.

٢- كتاب فيض القدير في شرح الجامع الصغير، ج ٢، ص ٤٥٩.

٣- منتخب كنز العمال في حاشية مسند أحمد، ج ٥، ص ٣١٢.

٤- إن عبارة «عززتموهم» مشتقة من مادة «تعزير» أي المنع أو العون، أما حين تسمى بعض العقوبات الإسلامية بالتعزير فذلك لأن هذه العقوبات تكون في الحقيقة عوناً للمذنب لكي يرتدع عن مواصلة الذنب، وهذا دليل على أن العقوبات الإسلامية لا تنسم بطابع الإنتقام بل تحمل طابعاً تربوياً لذلك سُميت بالتعزير.

٤ - وبالإضافة إلى الشروط الثلاثة المذكورة أعلاه، أن لا يمتنع بنو إسرائيل عن القيام ببعض أعمال الإنفاق المستحب التي تعتبر نوعاً من معاملات القرض الحسن مع الله سبحانه وتعالى حيث تقول الآية: «وأقرضتم الله قرضاً حسناً». ثم أردفت الآية الكريمة ببيان نتائج الوفاء بالشروط المذكورة بقوله تعالى: ﴿لَا كُفْرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَا دَخْلَنَّاكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾. كما بينت الآية مصير الذين يكفرون ولا يلتزمون بما أمر الله حيث تقول: ﴿مَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾.

لقد أوضحنا في الجزء الثاني من تفسيرنا هذا لماذا اصطلاح القرآن المجيد على الإنفاق، أنه قرض لله سبحانه؟
ويبقى في هذا المجال - أيضاً - سؤال أخير وهو لماذا تقدمت مسألتنا بالصلاة والزكاة على الإيمان بموسى ﷺ، في حين أن الإيمان يجب أن يسبق العمل؟
ويجب بعض المفسرين على هذا السؤال بقولهم: إن المراد بعبارة «الرسول» الواردة في الآية هم الأنبياء الذين جاءوا بعد النبي موسى ﷺ وليس موسى نفسه، لذلك فإن الأمر الوارد هنا بخصوص الإيمان بالرسول يحمل على أنه أمر لما يستقبل من الزمان، فلا يتعارض لذلك وروده بعد الأمر بالصلاة والزكاة، كما يحتمل - أيضاً - أن يكون المراد بعبارة «الرسول» هم «نقباء» بني إسرائيل حيث أخذ الله الميثاق من بني إسرائيل بأن يكونوا أولياء معهم، (ونقرأ في تفسير «مجمع البيان» أن بعضاً من المفسرين القدماء، احتملوا أن يكون نقباء بني إسرائيل رسلاً من قبل الله، ويؤيد هذا الاحتمال الرأي الأخير الذي ذهبنا إليه).

الآية

فَبِمَا نَقَضْتُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ
الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ
عَلَى خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ
يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾

التفسير

إِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ الْكَرِيمَةَ جَاءَتْ تَشِيرُ إِلَى نَقْضِ بَنِي إِسْرَائِيلَ لِلْعَهْدِ الَّذِي أَخَذَهُ
اللَّهُ عَلَيْهِمُ وَالَّذِي ذَكَرْتَهُ الْآيَةُ السَّابِقَةُ.

كما ذكرت هذه الآية نتائج وعواقب هذا النقض حيث تقول: ﴿فَبِمَا نَقَضْتُمْ
مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾^(١).

والحقيقة هي أن هؤلاء عوقبوا بهذين الجزاءين بسبب نقضهم لميثاقهم، فقد
حرموا من رحمة الله، وتحجرت أفكارهم وقلوبهم فلم تعد تبدي أي مرونة أمام
الحقائق.

١- إِنَّ كَلِمَةَ «لَعَنَّ» تَعْنِي فِي اللُّغَةِ «الطَّرْدَ وَالْإِهْمَادَ» وَحِينَ يَنْسَبُ اللَّعْنُ إِلَى اللَّهِ فَإِنَّهُ يَعْنِي الْحَرَمَانَ مِنْ رَحْمَتِهِ. أَمَّا
كَلِمَةُ «قَاسِيَةً» فَهِيَ فِي الْأَصْلِ مُشْتَقَّةٌ مِنَ الْمَصْدَرِ «قَسَاوَةٌ» وَتَطْلُقُ عَلَى الْأَخْصِ عَلَى الْحَجَرِ الصَّلْدِ. وَلِذَلِكَ أُطْلِقَتْ
عَلَى الَّذِينَ لَا يَبْدُونَ أَيَّ مَرُونَةٍ مِنْ جَانِبِهِمْ أَمَامَ الْحَقَائِقِ الَّتِي تَتَكشَفُ لَهُمْ.

وتشرح الآية آثار هذا التحجّر فتقول: «يخرفون الكلم عن مواضعه...»
و«ونسوا حظاً مما ذكروا به...».

ولا يستبعد أن تكون علامات وآثار نبيّ الإسلام محمد ﷺ والتي أُشير إليها في آيات قرآنية أخرى، جزءاً من الأمور التي نسيها بنو إسرائيل - كما يحتمل أن تكون هذه الجملة القرآنية إشارة إلى ما حرفة أو نسيه جمع من علماء اليهود أثناء تدوينهم للتوراة من جديد بعد أن فقدت التوراة الأصلية، وإنّ ما وصل إلى هؤلاء من كتاب موسى الحقيقي كان جزءاً من ذلك الكتاب وقد اختلط بالكثير من الخرافات، وقد نسي هؤلاء حتى هذا الجزء الباقي من كتاب موسى ﷺ.

ثمّ تتطرق الآية إلى ظاهرة خبيثة طالما برزت لدى اليهود - بصورة عامّة - إلاّ ما ندر منهم، وهي الخيانة التي كانت تتكشف للمسلمين بين فترة وأخرى، تقول الآية الكريمة في هذا المجال: «ولا تزال تطلع على خائنة^(١) منهم إلاّ قليلاً منهم...».

وفي الختام تطلب الآية من النبيّ ﷺ أن يعفو عن هؤلاء ويصفح عنهم، مؤكّدة أنّ الله يحبّ المحسنين، وذلك في قوله تعالى: «فاعف عنهم واصفح إنّ الله يحبّ المحسنين».

ولنرى هل أنّ المراد في الآية أن يعفو النبيّ ﷺ عن الأخطاء السابقة للأقلية الصالحة من اليهود، أم أنّ المراد هو العفو عن الأغلبية الطالحة منهم؟ إنّ ظاهر الآية يدعم ويؤيّد الإحتمال الثاني، لأنّ الأقلية الصالحة لم ترتكب ذنباً أو خيانة لكي يطلب من النبيّ ﷺ العفو عنهم - والظنّ الغالب هو أنّ العفو

١- إنّ كلمة «خائنة» مع كونها اسماً للفاعل، فهي في هذه الآية تكون بمعنى المصدر وتطابق كلمة الخيانة... وقد جرت عادة العرب على استخدام مثل هذه الإستعمالات في أشعارهم حيث جاؤوا باسم الفاعل وعنوا به المصدر في كلمات مثل «العافية» و«الغاطية» وقد احتملوا أيضاً أنّ تكون كلمة «خائنة» صفة للطائفة.

والصفح المطلوبان في الآية يشملان - فقط - تلك الحالات التي كان اليهود يوجهون فيها أذاهم وتحرشاتهم واستفزازاتهم إلى النبي ﷺ، ولا يشملان أخطاء اليهود وجرائمهم بحق الأهداف والمبادئ الإسلامية، حيث لا معنى للعبء في هذا المجال.

الممارسات التحريفية لليهود:

إن ما يستشف من مجموع الآيات الواردة في القرآن الكريم بخصوص الممارسات التحريفية لليهود، هو أنهم كانوا يمارسون أنواع التحريف في الكتب السماوية الخاصة بهم.

وكان تحريفهم يتخذ أحياناً طابعاً معنوياً، أي أنهم كانوا يفسرون العبارات الواردة في تلك الكتب بشكل يناقض المعنى الحقيقي لها، فهم كانوا يحفظون الألفاظ كما هي لكنهم كانوا يغيرون معانيها وهو (التحريف المعنوي)، وكانوا - أيضاً - يقومون بتحريف الألفاظ في بعض الأحيان، فهم بدل أن يقولوا «سمعنا وأطعنا» كانوا يقولون «سمعنا وعصينا» كما كانوا أحياناً يخفون بعض الآيات الإلهية، فما كان يطابق أهواءهم أظهره، وأخفوا الآيات التي لم تكن لتتلاءم مع ميولهم ورغباتهم وهو «التحريف اللفظي»، وقد وصلت بهم الوقاحة إلى حد أنهم مع موجود الكتاب السماوي بين أيديهم كانوا يخادعون الناس بوضع أيديهم على الحقائق الواردة فيها، لكي لا يستطيع الناظر قراءتها.

وستأتي تفاصيل هذا الموضوع لدى تفسير الآية (٤١) من نفس هذه السورة في قصة «ابن صوريا».

هل يجعل الله قلب الإنسان قاسياً؟

نقرأ في الآية - موضوع البحث - إن الله ينسب لنفسه فعل جعل القسوة في

قلوب مجموعة من اليهود، والذي نعرفه هو أن هذه القسوة ما هي إلا نتيجة لإرتكاب الذنوب والانحرافات، فكيف إذن ينسب الله فعل جعل القسوة في قلوب أولئك اليهود إلى نفسه؟ ولو كان هذا الفعل من الله، فكيف يكون أولئك الأشخاص مسؤولين عن أعمالهم، ألا يعتبر هذا نوعاً من الجبر؟

ولدى الإمعان بدقة في الآيات القرآنية المختلفة، ومنها الآية موضوع البحث، يتبين لنا أن الأشخاص إنما يحرمون - بسبب أخطائهم وذنوبهم - من لطف الله ورحمته وهدايته، وأن أعمالهم هذه في الحقيقة مصدر لمجموعة من الانحرافات الفكرية والأخلاقية، بحيث يستحيل على الإنسان - أحياناً - أن يجنب نفسه عواقبها ونتائجها.

وبما أن العلل - أو الأسباب - تعطي آثارها بإذن الله، لذلك نسب مثل هذه الآثار في القرآن الكريم إلى الله، ففي الآية موضوع البحث نقرأ أن اليهود - نتيجة لنقضهم الميثاق - «جعل الله قلوبهم قاسية»، كما نقرأ في الآية (٢٧) من سورة إبراهيم قوله تعالى «ويضل الله الظالمين» وفي الآية (٧٧) من سورة التوبة نقرأ قوله سبحانه: «فاعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون».

وواضح أن هذه الآثار السيئة تنبع من عمل الإنسان نفسه، ولا تناقض في هذا الأمر حرية الإرادة والاختيار، لأن مقدمات تلك الآثار تكون من عمل الإنسان وتصدر عنه بعلمه واختياره، ولأن آثار عمله هي النتيجة الحتمية للعمل نفسه، وعلى سبيل المثال لو أن إنساناً تناول شيئاً من المشروبات الكحولية، وحصلت لديه حالة من السكر، فقام على أثر هذه الحالة بارتكاب جريمة معينة، فهو وإن كان لا يمتلك إرادته في حالة السكر، إلا أنه قبل ذلك أقدم على شرب الخمر مختاراً ومدركاً لما يفعل، وبذلك هيأ بنفسه مقدمات العمل الجنائي، وهو يعمل احتمال صدور هذا العمل منه في حالة السكر، ولذلك فهو مسؤول عن هذا

العمل، فلو قيل في مثل هذه الحالة: إنَّ شخصاً قد شرب الخمر فسلبنا منه عقله، فتورط نتيجة عمله في ارتكاب جريمة، فهل في هذا القول أي تناقض أو هل يستشف منه مفهوم الجبر؟

وخلاصة القول فإنَّ كل أنواع الهداية والضلال وأمثالها التي تنسب في القرآن الكريم إلى الله سبحانه، إنما تحصل بشكل حتمي كنتيجة للمقدمات والأعمال التي تصدر من الإنسان نفسه، وعلى أثرها يستحق إما الهداية أو الضلال، وفي غير ذلك فإنَّ العدل والحكمة الإلهيين، لا يسمحان مطلقاً أن يساق إنسان إلى طريق الهداية دون أي مبرر، أو أن يساق آخر إلى طريق الضلال دون وجود سبب لذلك^(١).



١- لقد وردت تفاصيل أخرى في هذا المجال - أيضاً - في الجزء الأول من تفسيرنا هذا.

الآية

وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرَىٰ أَخَذْنَا مِيثَقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا
ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ
وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿٧﴾

التفسير

العداء الأبدي:

لقد تناولت الآية السابقة ظاهرة نقض بني إسرائيل للعهد الذي أخذه الله منهم، أما الآية الأخيرة - هذه - فهي تتحدث عن نقض العهد عند النصارى الذين نسوا قسماً من أوامر الله التي كلفوا بها - فتقول الآية في هذا المجال: «ومن الذين قالوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ» فهذه الآية تدل بوضوح على أَنَّ النصارى - أيضاً - كانوا قد عقدوا مع الله عهداً على أن لا ينحرفوا عن حقيقة التوحيد، وأن لا ينسوا أوامر وأحكام الله، وأن لا يكتسبوا علائم خاتم التَّبِين ﷺ، لكنهم تورطوا بنفس ما تورط به اليهود مع فاروق واحد، وهو أَنَّ القرآن الكريم يصرِّح بالنسبة لليهود بأنَّ القليل منهم كانوا من الصالحين، بينما يذكر القرآن بأنَّ مجموعة من النصارى اختارت طريق الانحراف، حيث يفهم من هذه التعبير أَنَّ المنحرفين من اليهود كانوا أكثر من المنحرفين من

النصارى.

إن تاريخ تدوين الأناجيل المتداولة يدل على أنها كتبت بعد المسيح ﷺ بسنين طويلة وبأيدي بعض المسيحيين، وهذا هو دليل وجود الكثير من التناقض الصريح فيها، ويدلنا هذا - أيضاً - على أن كتبة الأناجيل قد نسوا - بصورة تامة - أجزاء غير قليلة من الإنجيل الأصلي، ووجود اخرافات في الأناجيل المتداولة من قبيل قصة صنع المسيح ﷺ للخمرة^(١) الأمر الذي يرفضه العقل ويتنافى حتى مع بعض آيات التوراة والإنجيل المتداولين، وكذلك قصة مريم المجدلية^(٢) وغيرها من القصص، كلها دليل على ذلك التناقض.

أما كلمة «نصارى» التي وردت في الآية فهي صيغة جمع نصراني، فقد وردت تفاسير مختلفة حولها، ومنها أن المسيح قد تربى في صباه ببلدة الناصرة، وقيل - أيضاً - أن هذه الكلمة هي نسبة إلى نصران، وهي قرية يوليها المسيحيون احتراماً خاصاً، ويحتمل - أيضاً - أن يكون وجه التسمية ناشئاً عن قول المسيح ﷺ كما تحكيه الآية عنه إذ تقول: «كما قال عيسى بن مريم للحواريين من انصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله»^(٣) فسُمي المسيحيون لذلك بالنصارى.

ولما كان جمع من النصارى يقولون ما لا يفعلون، ويزعمون أنهم من أنصار المسيح ﷺ يقول القرآن في هذه الآية: «ومن الذين قالوا إنا نصارى...» وهم لم يكونوا صادقين في دعواهم هذه، لذلك تستطرد الآية الكريمة فتبين نتيجة هذا الإدعاء الكاذب، وهو انتشار عداة أبدي فيما بينهم حتى يوم القيامة، كما تقول الآية: «فاغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة».

١- إنجيل يوحنا، الإصحاح ٢، الآيات ٢-١٢.

٢- إنجيل لوقا، الإصحاح ٧، الآيات ٣٦-٤٧.

٣- يوسف، ١٤.

كما ذكرت الآية نوعاً آخر من الجزاء والعقاب لهذه الطائفة النصرانية، وهو أنهم سوف يعلمون نتيجة أعمالهم وسير ونها باعينهم حيث تقول الآية: «سوف يبنثهم الله بما كانوا يصنعون».

وتجدر الإشارة هنا إلى عدة أمور، هي:

١- إن عبارة «اغرينا» مشتقة من المصدر «إغراء» وتعني الصاق شيء بشيء آخر، كما تعني الترغيب أو حمل الشخص على القيام بعمل معين، بحيث يدفع الشخص إلى الارتباط بأهداف معينة.

وعلى هذا الأساس يكون مفهوم الآية - موضوع البحث - هو أن نقض النصراني لهدمهم وارتكابهم المعاصي أديا إلى أن تنتشر العداوة فيما بينهم ويعمهم النفاق والخلاف، (والمعلوم أن آثار الأسباب التكوينية والطبيعية تنسب إلى الله) وما نراه اليوم من صراعات كثيرة بين الدول المسيحية، كانت في يوم ما سبباً لإندلاع الحربين العالميتين، وهي كذلك سبباً للتكتلات المقترنة بالعدالة والبغضاء المستمرة فيما بينهم، أضف إلى ذلك الخلافات المذهبية الكثيرة التي تسود بين الطوائف المسيحية التي مازالت سبباً لاستمرار الصراع والإقتال فيما بينهم.

وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن المراد من استمرار العداوة، هو العداوة والبغضاء الموجودة بين اليهود والنصارى واستمرارها حتى فناء العالم، ولكن الملاحظ من ظاهر الآية هو استمرار العداوة بين المسيحيين أنفسهم^(١).

وغني عن البيان أن مثل هذه العاقبة لا تقتصر على المسيحيين وحدهم، فلو أن المسلمين ساروا في نفس هذا الطريق فإن مصيرهم سيكون مشابهاً لمصير المسيحيين أيضاً.

٢- إن كلمة «العداوة» مشتقة من المصدر «عدو» وهي بمعنى التجاوز

١- وعلى هذا الأساس فإن الضمير في كلمة «بينهم» تعود إلى كلمة «النصارى» المذكورة في بداية الآية.

والإنتهاك، أما كلمة «البغضاء» المشتقة من المصدر «بغض» فهي تعني النفور والإستياء الشديد من شيء معين، ويحتمل أن يكون الفرق بين الكلمتين المذكورتين هو أن لكلمة «بغض» طابع وجداني أكثر مما هو عملي، كما في كلمة «العداوة» التي لها طابع عملي، وقد يكون لكلمة «بعض» أو «بغضاء» مفهوم أشمل يستوعب العملي منه والقلبي الوجداني.

٣- يستدل من الآية هذه على أن النصارى كطائفة دينية (أو اليهود والنصارى معاً) سيكون لهم وجود في هذه الدنيا حتى يوم القيامة، وقد يقول معترض في هذا المجال: أن الأخبار الإسلامية تفيد بأن ديناً واحداً سيعم العالم كله بعد ظهور المهدي (عج) ولن تكون هناك أديان أخرى غير هذا الدين الذي هو الإسلام الحنيف، فكيف إذن يمكن الجمع والتوفيق ورفع هذا التناقض الظاهر؟ والجواب هو أنه يحتمل أن يبقى من المسيحية واليهودية حتى بعد ظهور المهدي (عج) شيء ضئيل على شكل أقلية ضعيفة جداً، لأن ما نعلمه هو بقاء حرية الإرادة للبشر حتى في عصر المهدي (عج) وإن الدين الإسلامي في ذلك العصر لا يأخذ طابعاً إجبارياً، مع أن الأغلبية العظمى من البشر ستتبع طريق الحق وتميل إليه، والأهم من هذا كله فإن الحكم في الأرض سيكون للإسلام وحده.

الآيتان

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿٥٦﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٧﴾

التفسير

بعد أن تحدثت الآيات السابقة عن نقض اليهود والنصارى لميثاقهم، جاءت الآية الأخيرة لتخاطب أهل الكتاب بصورة عامة وتدعوهم إلى الإسلام الذي طهر الديانتين اليهودية والمسيحية من الخرافات التي لصقت بهما، والذي يهديهم إلى الصراط السوي المستقيم، والذي ليس فيه أي انحراف أو اعوجاج.

وتبين الآية - في البداية - أن رسول الله ﷺ المبعوث إليهم جاء ليظهر الكثير من الحقائق الخاصة بالكتب السماوية التي أخفوها هم (أهل الكتاب) وكتموها عن الناس، وإن هذا الرسول يتغاضى عن كثير من تلك الحقائق التي انتفت الحاجة إليها وزال تأثيرها بزوال العصور التي نزلت لها، فتقول الآية في هذا المجال: «يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من

الكتاب ويعفو عن كثير...».

وتدّل هذه الجملة القرآنية على أنّ أهل الكتاب كانوا قد أخفوا وكتموا الكثير من الحقائق، لكن نبيّ الإسلام ﷺ قد أظهر من تلك الحقائق ما يفي منها بحاجة البشرية في عصر الإسلام، مثل بيان حقيقة التوحيد وطهارة الأنبياء وتنزههم عمّا نسب إليهم في التوراة والإنجيل المزورين، كما بيّن تحريم الربا، والخمرة وأمثالهما، بينما بقيت حقائق تخص الأمم السابقة والأزمنة الغابرة ممّا لا أثر لذكرها في تربية الأجيال الإسلامية، فلم يتمّ التطرق إليها.

وتشير الآية الكريمة - أيضاً - إلى أهمية وعظمة القرآن المجيد وآثاره العميقة في هداية وإرشاد وتربية البشرية، فتقول: «قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين» النور الذي يهدي به الله كل من يبتغي كسب مرضاته إلى سبيل السلام، كما تقول الآية الأخرى: «يهدي به الله من أتبع رضوانه سبيل السلام...» وينقذهم من أنواع الظلمات (كظلمة الشرك وظلمة الجهل وظلمة التفرقة والنفاق وغيرها...) ويهديهم إلى نور التوحيد والعلم والاتحاد، حيث تقول الآية: «ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه...».

وإضافة إلى ذلك كلّه يرشدهم إلى الطريق المستقيم الذي لا اعوجاج ولا انحراف في جانبيه العقائدي والعملية أبداً، كما تقول الآية: «ويهديهم إلى صراط مستقيم».

لقد اختلف المفسرون في المعنى المراد من كلمة «النور» الواردة في الآية، فذهب البعض منهم إلى أنّها تعني شخص النبي محمد ﷺ، وقال مفسرون آخرون: إنّ المعنى بالنور هو القرآن المجيد.

وحين نلاحظ آيات قرآنية عديدة تشبه القرآن بالنور، يتبيّن لنا أنّ كلمة «النور» الواردة في الآية - موضوع البحث - إنّما تعني القرآن، وعلى هذا الأساس فإنّ عطف عبارة «كتاب مبين» على كلمة «النور» يعتبر من قبيل عطف التوضيح،

كما نقرأ في الآية (٥٧) من سورة الأعراف: «فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون» وفي الآية (٨) من سورة التغابن نقرأ ما يلي: «فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا...» وآيات عديدة أخرى تشير إلى نفس المعنى، بينما لا نجد في القرآن آية أطلقت فيها كلمة النور على شخص النبي ﷺ.

وإضافة إلى ما ذكر فإن الضمير المفرد الوارد في عبارة «به» الواردة في الآية الثانية من الآيتين الأخيرتين، يؤكد هذا الموضوع أيضاً، وهو أن النور والكتاب المبين هما اشارتان لحقيقة واحدة.

ومع أننا نجد روايات عديدة تفسر كلمة «النور» على أنها إشارة إلى الإمام علي بن أبي طالب أمير المؤمنين عليه السلام أو الأئمة الإثني عشرية عليهم السلام جميعهم، لكن الواضح هو أن هذا التفسير يعتبر من باب بيان بواطن الآيات، لأننا كما نعلم أن للآيات القرآنية -بالإضافة إلى معانيها الظاهرية -معان باطنية يعبر عنها بـ«بواطن القرآن» أو «بطون القرآن»، ودليل قولنا هذا أن الأئمة عليهم السلام لم يكن لهم وجود في زمن النبي ﷺ لكي يدعو القرآن أهل الكتاب للإيمان بهم.

أما الأمر الثاني الوارد في الآية الثانية من الآيتين الأخيرتين، فهو أن القرآن يبشر أولئك الذين يسعون لكسب مرضاة الله بأنهم سيحفظون في ظل القرآن بنعم عظيمة ثلاثة هي:

أولاً: الهداية إلى سبل السلامة التي تشمل سلامة الفرد والمجتمع، والروح والجسد والعائلة، والسلامة الأخلاقية، وكل هذه الأمور تدخل في الجانب العملي من العقيدة.

وثانياً: نعمة النجاة من ظلمات الكفر والإلحاد.

وثالثاً: الهداية إلى النور، وفي هذا دلالة على الطابع العقائدي، ويتم كل ذلك من خلال أقصر وأقرب الطرق وهو الذي أشارت إليه الآية بـ«الصراط المستقيم».

وبديهي أن هذه النعم لا يحظى بها إلا من أسلم وجهه لله، وخضع للحق بالعبودية والطاعة، وكان مصداقاً للعبارة القرآنية القائلة: «من أتبع رضوانه» بينما لا يحظى المنافقون والمعاندون وأعداء الحق بأيّ فائدة مطلقاً، كما تشير إلى ذلك آيات قرآنية عديدة.

وبديهي - أيضاً - أن كل هذه النتائج والآثار، إنما تحصل بمشيئة الله وإرادته وحده دون سواه، كما تشير عبارة «بإذنه» الواردة في الآية الأخيرة.



الآية

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ
مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي
الْأَرْضِ جَمِيعاً وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ
مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾

التفسير

كيف يمكن للمسيح أن يكون هو الله؟!

جاءت هذه الآية الكريمة لتكمل بحثاً تطرقت إليه آيات سابقة، فحملت
بعنف على دعوى ربوبية المسيح ﷺ، وبيّنت أنّ هذه الدعوى ما هي إلا الكفر
الصريح، حيث قالت: ﴿لقد كفر الذين قالوا إنّ الله هو المسيح ابن مريم...﴾.
ولكي يتّضح لنا مفهوم هذه الجملة، يجب أن نعرف أنّ للمسيحيين عدّة
دعاوي باطلة بالنسبة إلى الله سبحانه وتعالى.

فهم أولاً: يعتقدون بالآلهة الثلاث (أي الثالوث) وقد أشارت الآية (١٧١) من
سورة النساء إلى هذا الأمر حيث قالت: ﴿لا تقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم إنّما الله

إِلَهٍ وَاحِدٍ...»^(١).

وثانياً: إنهم يقولون: إنَّ خالق الكون والوجود هو واحد من هؤلاء الآلهة الثلاث ويسمونه بالإله الأب^(٢) والقرآن الكريم يبطل هذا الاعتقاد - أيضاً - في الآية (٧٣) من سورة المائدة حيث يقول: ﴿لقد كفر الذين قالوا إنَّ الله ثالث ثلاثة وما من إله إلاَّ إله واحد...﴾ وسيأتي بإذن الله تفسير هذه الآية قريباً في نفس هذا الجزء.

وثالثاً: إنَّ المسيحيين يقولون: إنَّ الآلهة الثلاث مع تعددهم الحقيقي هم واحد، حيث يعبرون عن ذلك أحياناً بـ «الوحدة في التثليث»، وهذا الأمر أشارت إليه الآية الأخيرة حيث قالت حكاية عن دعوى المسيحيين: «إنَّ الله هو المسيح ابن مريم...» وقالوا: إنَّ المسيح ابن مريم هو الله! وإنَّ هذين الإثنين يشكلان مع روح القدس حقيقة واحدة في ذوات ثلاثة متعددة!

وقد ورد كل جانب من جوانب عقيدة التثليث، الذي يعتبر من أكبر إنحرافات المسيحيين في واحدة من الآيات القرآنية، ونفي نفياً شديداً (راجع تفسير الآية ١٧١ - من سورة النساء من تفسيرنا هذا وفيه التوضيح اللازم في بيان بطلان عقيدة التثليث).

ويتبين - ممَّا سلف - أنَّ بعض المفسرين مثل «الفخر الرازي» قد توهموا في قولهم بعدم وجود أحد من النصارى ممن يصرح باعتقاده في اتحاد المسيح بالله، وذلك لعدم إمام هؤلاء المفسرين بالكتب المسيحية، مع أنَّ المصادر المسيحية المتداولة تصرح بقضية «الوحدة في التثليث» ومن المحتمل أن مثل هذه الكتب لم تكن متداولة في زمن الرازي، أو أنَّها لم تصل إليه وإلى أمثاله الذين شاركوه

١ - لقد مضى تفسير هذه الآية في بداية هذا الجزء من تفسيرنا.

٢ - تقرأ في المصادر المسيحية أنَّ «الإله الأب» هو خالق جميع الكائنات (قاموس الكتاب المقدس، الصفحة ٣٤٥) كما تقرأ أنَّ الرب هو الموجود بنفسه، وإنَّ هذا هو اسم خالق جميع المخلوقات وحاكم كلِّ الكائنات. وإنَّه هو الروح اللامتناهية الأزلية الأبدية... (قاموس الكتاب المقدس، ص ٣٤٤).

في هذا الرأي.

بعد ذلك ولكي تبطل الآية الكريمة عقيدة ألوهية المسيح ﷺ تقول: ﴿قل فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعاً...﴾ وهذه إشارة إلى أن المسيح ﷺ إنما هو بشر كأمه وكسائر أفراد البشر، وعلى هذا الأساس فهو يعتبر - لكونه مخلوقاً - في مصاف المخلوقات الأخرى يشاركها في الفناء والعدم، ومن حاله كهذا كيف يمكنه أن يكون إلهاً أزلياً أبدياً؟! وبتعبير آخر: لو كان المسيح ﷺ إلهاً لاستحال على خالق الكون أن يهلكه، وتكون نتيجة ذلك أن تتحدد قدرة هذا الخالق، ومن كانت قدرته محدودة لا يمكن أن يكون إلهاً، لأن قدرة الله كذاته لا تحدّها حدود مطلقاً (تدبر جيداً).

إن ذكر عبارة «المسيح بن مريم» بصورة متكررة في الآية، قد يكون إشارة إلى هذه الحقيقة، وهي إقرار المسيحيين ببنوة المسيح ﷺ لمريم، أي أنه ولد من أم وأنه كان جنيناً في بطن أمه قبل أن يولد، وحين ولد طفلاً احتاج إلى النمو ليصبح كبيراً، فهل يمكن أن يستقر الإله في محيط صغير كرحم الأم، ويتعرض لجميع تحولات الوجود والولادة ويحتاج للأم حين كان جنيناً وحين الرضاعة؟! والجدير بالانتباه أن الآية الأخيرة تذكر بالإضافة إلى اسم المسيح ﷺ اسم أمه وتذكرها بكلمة «أمه» وبهذه الصورة تميز الآية أم المسيح ﷺ عن سائر أفراد البشر، ويحتمل أن يكون هذا التعبير بسبب أن المسيحيين أثناء ممارستهم للعبادة، يعبدون أم المسيح أيضاً، والكنائس الموجودة اليوم تشتمل على تماثيل للأم المسيح، حيث يقف المسيحيون أمامها تعظيماً وتعبداً.

وإلى هذا الأمر تشير الآية (١١٦) من سورة المائدة فتقول: ﴿وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله...﴾ وهذا الخطاب حكاية عما يحصل من حوار في يوم القيامة.

وفي الختام ترد الآية الكريمة على أقوال أولئك الذين اعتبروا ولادة المسيح

من غير أب دليلاً على ألوهيته فتقول: «وَلله ملك السموات والأرض وما بينهما
يخلق ما يشاء والله على كل شيء قدير».

فإن الله قادر على أن يخلق إنساناً من غير أب ومن غير أم كما خلق آدم ﷺ،
وهو قادر أيضاً على أن يخلق إنساناً من غير أب كما خلق عيسى المسيح ﷺ،
وقدرة الله هذه كقدرته في خلق البشر من آباؤهم وأمهاتهم، وهذا التنوع في الخلق
دليل على قدرته، وليس دليلاً على أي شيء آخر سوى هذه القدرة.

* * *

الآية

وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٨٠﴾

التفسير

استكمالاً للبحوث السابقة التي تناولت بعض إنحرافات اليهود والنصارى، تشير الآية الأخيرة إلى أحد الدعاوى الباطلة التي تمسك بها هؤلاء، فتقول: ﴿وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه﴾.

ولم يكن هذا الإمتياز الوهمي الذي إدعاه اليهود والنصارى لأنفسهم هو الوحيد من نوعه، إذ أن القرآن الكريم قد أشار في آيات عديدة إلى أمثال هذه الإدعاء.

ففي الآية (١١١) من سورة البقرة، أشار القرآن إلى إدعائهم الذي زعموا فيه أن أحداً غيرهم لا يدخل الجنة، وزعموا أن الجنة هي حكر على اليهود والنصارى، وقد فند القرآن هذه الإدعاء.

كما جاء الآية (٨٠) من سورة البقرة إدعاء آخر لليهود، وهو زعمهم أن نار

جهنم لن تسهم إلا في أيام معدودة، وقد وبخهم القرآن على زعمهم هذا. وفي الآية الأخيرة يشير القرآن الكريم إلى ادعائهم البنوة لله، وزعمهم أنهم أحبباء لله، ولا شك أن هؤلاء لم يعرفوا أنفسهم كأبناء حقيقيين لله، بل إن المسيحيين وحدهم يدعون أن المسيح هو الإبن الحقيقي لله، وقد صرحوا بهذا الأمر^(١) وأنهم حين اختاروا لأنفسهم صفة البنوة لله وأدعوا بأنهم الله إنما ليظروا بأن لهم علاقة خاصة بالله سبحانه، وكأنهم أرادوا كل من ينتمي إليهم انتماء قومياً أو عقائدياً يصبح من أبناء الله وأحبائه حتى لو لم يحم بأي عمل صالح^(٢).

وواضح لدينا أن القرآن الكريم حارب كل هذه الإمتيازات والدعاوى الوهمية، فهو لا يرى للإنسان امتيازاً إلا بالإيمان والعمل الصالح والتقوى، ولذلك تقول الآية الأخيرة في تفنيد وإبطال الإدعاء الأخير: «قل فلم يعذبكم بذنوبكم» فهو هؤلاء - بحسب اعترافهم أنفسهم - يشملهم العذاب الإلهي حيث قالوا بأن العذاب يمسه لأيام معدودة، فكيف يتلاءم ذلك الإدعاء وهذا الاعتراف؟ وكيف يمكن أن يشمل عذاب الله أبناءه وأحبائه؟! ومن هنا يثبت أن لا أساس ولا صحة لهذا الإدعاء، وقد شهد تاريخ هؤلاء على أنهم حتى في هذه الدنيا ابتلوا بسلسلة من العقوبات الإلهية، ويعتبر هذا دليلاً آخر على زيف وطلان دعوهم تلك.

ولكي تؤكد الآية الكريمة زيف وطلان الدعوى المذكورة استطرقت تقول: «بل أنتم بشر ممن خلق...» والقانون الإلهي عام، فإن الله «يقفر لمن يشاء ويعذب من يشاء...».

وبالإضافة إلى ذلك فإن كل البشر هم من خلق الله، وهم عباده وأرقاؤه، وعلى هذا الأساس ليس من المنطق إطلاق اسم «ابن الله» على أي منهم، حيث

١ - تقول المصادر المسيحية بأن عبارة «ابن الله» هي فقط من ألقاب منقذ المسيحيين وقادهم، وإن هذا اللقب لا يطلق على أحد غيره إلا إذا دللت القرينة على أن المراد ليس البنوة الحقيقة لله (قاموس الكتاب المقدس، ص ٣٤٥).

٢ - ظهرت في الآونة الأخيرة لدينا مجموعة تبشر للمسيحية وتسمي نفسها جماعة «ابن الله».

تقول الآية: «وَاللَّهُ مَلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا...».

وفي النهاية تعود المخلوقات كلها إلى الله، حيث تؤكد الآية هنا بقولها: «وإليه المصير».

وقد يسأل البعض: أين ومتى إدعى اليهود والنصارى أنهم أبناء الله حتى لو كان معنى البنوة في هذه الآية هو معنى مجازي وغير حقيقي).

الجواب هو أن الأناجيل المتداولة قد ذكرت هذه العبارة، ويلاحظ ذلك فيها بصورة متكررة، من ذلك ما جاء في إنجيل يوحنا في الإصحاح ٨ - الآية ٤١ وما بعدها، حيث نقرأ على لسان عيسى في خطابه لليهود قوله: «إنكم تمارسون أعمال أبيكم، فقال له اليهود: نحن لم نولد من الزنا وإن أبانا واحد وهو الله! فقال لهم عيسى: لو كان أبوكم هو الله لكنتم احببتموني...».

وقد ورد في الروايات الإسلامية - أيضاً - في حديث عن ابن عباس مضمونه أن النبي ﷺ دعا جمعاً من اليهود إلى دين الإسلام وحذّرهم من عذاب الله، فقال له اليهود: كيف نخوفنا من عذاب الله ونحن أبناؤه وأحباؤه^(١)!

وورد في تفسير مجمع البيان، في تفسير الآية موضوع البحث، حديث على غرار الحديث المذكور أعلاه، مضمونه أن جمعاً من اليهود حين هددهم النبي ﷺ بعذاب الله قالوا: لا تهددنا فنحن أبناء الله وأحباؤه، وهو إن غضب علينا يكون غضبه كغضب الإنسان على ولده، وهو غضب سريع الزوال.

* * *

الآية

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فِتْرَةِ مَسْنَأَلرُسُلٍ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦﴾

التفسير

تكرر هذه الآية الخطاب إلى أهل الكتاب من اليهود والنصارى، فتبين لهم أن النبي المرسل إليهم مرسل من عند الله، أرسله في عصر ظلت البشرية قبله فترة دون أن يكون لها نبي، فبين لهم هذا النبي الحقائق، لكي لا يقولوا بعد هذا إن الله لم يرسل إليهم من يهديهم إلى الصراط السوي ويبشرهم بلطف الله ورحمته ويحذرهم من الانحراف والإعوجاج، وينذرهم بعذاب الله، حيث تقول الآية: ﴿يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير...﴾.

نعم، فالبشير والنذير هو نبي الإسلام محمد ﷺ الذي يبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات برحمة الله وثوابه، وينذر الذين كفروا والعاصين بعذاب الله وعقابه، وقد جاء ليبشر وينذر أهل الكتاب والبشرية جمعاء، حيث تؤكد الآية هذا بقوله تعالى: ﴿فقد جاءكم بشير ونذير﴾.

أما كلمة «فترة» الواردة في الآية فهي تعني في الأصل الهدوء والسكينة كما تطلق على الفاصلة الزمنية بين حركتين أو جهدين أو نهضتين أو ثورتين.

وقد شهدت الفاصلة الزمنية بين موسى عليه السلام وعيسى عليه السلام عدداً من الأنبياء والرسل، بينما لم يكن الأمر كذلك في الفاصلة الزمنية بين عيسى عليه السلام والنبي محمد عليه السلام، ولذلك أطلق القرآن الكريم على هذه الفاصلة الأخيرة إصطلاح «فترة من الرسل» والمعروف أن هذه الفترة دامت ستمائة عام تقريباً^(١).

أما ما جاء في القرآن - في سورة يس الآية ١٤ - وما ذكره المفسرون، فيدلان على أن ثلاثة من الرسل - على الأقل - قد بعثوا في الفاصلة الزمنية بين النبي عيسى عليه السلام ونبي الإسلام عليه السلام، وقد ذكر البعض أن أربعة من الرسل بعثوا في تلك المدة، وعلى أي حال لا بد أن تكون هناك فترة خلت من الرسل بين وفاة أولئك الرسل والنبي محمد عليه السلام، ولذلك عبر القرآن عن تلك الفترة الخالية من الرسل بقوله: «على فترة من الرسل».

سؤال:

وقد يعترض البعض بأنه كيف يمكن القول بوجود مثل تلك الفترة مع أن الاعتقاد السائد لدينا يقضي بأن المجتمع البشري لا يمكن أن يخلو ولو للحظة من رسول أو إمام معين من قبل الله سبحانه وتعالى؟

الجواب:

إن القرآن الكريم حين يقول: «على فترة من الرسل» إنما ينفي وجود الرسل في تلك المدة، ولا يتنافى هذا الأمر مع القول بوجود أوصياء للرسل في ذلك الوقت.

١- ويرى البعض أن هذه الفترة تبلغ أكثر من ستمائة عام، وآخرون يرون أنها أقل من هذه المدة واستناداً على قول البعض فإن الفاصلة الزمنية بين ولادة المسيح عليه السلام وهجرة نبي الإسلام محمد عليه السلام ووفق التاريخ الميلادي تبلغ ٦٢١ عاماً و٩٥ يوماً (تفسير ابن الفتح الرازي، ج ٤، هامش الصفحة ١٥٤).

وبعبارة أخرى، فإنَّ الرسل هم أشخاص كانوا يمارسون الدعوة على نطاق واسع، وكانوا يبشرون وينذرون الناس، ويشيرون الحركة والنشاط في المجتمعات، ويوظفونها من سباتها بهدف إيصال ندائهم الى الجميع، بينما لم يكن جميع أوصياء الرسل ليحملوا مثل تلك المهمة، بل يحتمل - أيضاً - إنهم لظروف وعوامل اجتماعية خاصة، كانوا يعيشون بين الناس أحياناً متخفين متكرين.

ويقول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في إحدى خطبه الواردة في كتاب «نهج البلاغة» في هذا المجال ما يلي: «اللهم بلى، لا تغلوا الأرض من قائم الله بحجة إما ظاهراً مشهوراً أو خائفاً مغموراً لئلا تبطل حجج الله وبيناته، يحفظ الله بهم حججه وبيناته حتى يودعها نظراءهم ويزرعوها في قلوب أشباههم»^(١).

وواضح أن المجتمع البشري لو خلى من الرسل الثورين والدعاة العالمين، لعمت هذه المجتمعات الخرافات والوساوس الشيطانية والانحرافات والجهل بالتحاليم الإلهية، وتكون مثل هذه الحالة خير حجة بأيدي أولئك الذين يريدون الفرار والتخلي عن المسؤوليات، لذلك فإنَّ الله يبطل هذه الحجة عن طريق الرجال الرساليين المرتبطين به والموجودين دائماً بين أبناء البشر.

وفي الختام تؤكد الآية على شمولية قدرة الله عزَّ وجلَّ فتقول: «والله على كل شيء قدير» وهذا بيان بأنَّ إرسال الأنبياء والرسل وتعيين أوصياتهم أمر يسير بالنسبة لقدرة الله العزيز المطلقة.



الآيات

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَنْقُومِ يَنْقُومِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ
 فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَءَاتَاكُمْ مِمَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ
 الْعَالَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَنْقُومِ أَذْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ
 لَكُمْ وَلَا تَزِدُّوا عَلَىٰ آذَانِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا
 يَمْوَسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَنْدُخُلُهَا حَتَّىٰ يُخْرِجُوا
 مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ
 يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ
 فَإِنَّكُمْ عَلَيْهِمْ وَاعْلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا
 يَمْوَسَىٰ إِنَّا لَنَنْدُخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ
 فَتَنَبَلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي
 وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُّحَرَّمَةٌ
 عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ
 الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾

التفسير

بنو إسرائيل والأرض المقدسة:

جاءت هذه الآيات لتشير لدى اليهود دافع التوجه إلى الحق والسعي لمعرفة أولاً، وإيقاظ ضمائرهم حيال الأخطاء والآثام التي إرتكبوها ثانياً، ولكي تحفزهم إلى السعي لتلافي أخطائهم والتعويض عنها، ويذكرهم القرآن في الآية الأولى بما قاله النبي موسى ﷺ لأصحابه حيث تقول: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ...﴾.

ولا يخفى أن عبارة (نعمة الله) تشمل جميع الأنعم الإلهية، لكن الآية استطردت فبيّنت ثلاثاً من أهم هذه النعم، أولها نعمة ظهور أنبياء وقادة كثيرين بين اليهود، والتي تعتبر أكبر نعمة وهبها الله لهم، فتقول الآية: ﴿إِذْ جَعَلْنَا فِيكُمْ أَنْبِيَاءً...﴾ وقد نقل أن في زمن موسى بن عمران وحده كان يوجد بين اليهود سبعون نبياً، وإن السبعين رجلاً الذين ذهبوا مع موسى ﷺ إلى جبل «الطور» كانوا كلهم بمنزلة الأنبياء.

وفي ظل هذه النعمة (نعمة وجود الأنبياء) نجى اليهود من هاوية الشرك والوثنية وعبادة العجل وتخلصوا من مختلف أنواع الخرافات والأوهام والقبائح والخبائث، لذلك أصبحت هذه النعمة أكبر النعم المعنوية التي أنعم الله بها على بني إسرائيل.

بعد هذا تشير الآية إلى أكبر نعمة مادية وهبها الله لليهود فتقول: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ مَلُوكًا...﴾ وتعتبر هذه النعمة - أيضاً - مقدمة للنعم المعنوية، فقد عانى بنو إسرائيل لسنين طويلة من ذل العبودية في ظل الحكم الفرعوني، فلم يكونوا يملكوا في تلك الفترة أي نوع من حرية الإرادة، بل كانوا يعاملون معاملة البهائم المكبلة في القيود، وقد أنقذهم الله من كل تلك القيود ببركة النبي موسى بن عمران ﷺ وملكهم مصائرهم ومقدراتهم.

وقد ظن البعض أن المراد من كلمة «الملوك» الواردة في الآية هم الملوك والسلاطين الذين ظهروا من سلالة بني إسرائيل، في حين أن المعروف هو أن بني إسرائيل لم يحكموا إلا فترة قصيرة، فلم يحظ منهم إلا القليل بمنزلة الملوكية، بينما الآية - موضوع البحث - تقول: «وجعلكم ملوكاً» وهذه إشارة إلى تمتع جميع بني إسرائيل بهذه المنزلة، ويتبين من هذا أن المراد بكلمة «ملوك» الواردة في الآية أن بني إسرائيل قد تملكوا مصائرهم ومقدارهم بعد أن كانوا مكبلين بقيود العبودية في ظل الحكم الفرعوني.

إضافة إلى ذلك فإن كلمة «ملك» في اللغة لها معان عديدة منها «السلطان» ومنها «المالك لزمان الأمور» ومنها - أيضاً - المالك لرقبة شيء معين^(١). ونقل في تفسير «الدر المنثور» عن النبي ﷺ حديثاً جاء فيه: «كانت بنو إسرائيل إذا كان لأحدهم خادم ودابة وامرأة كتب ملكاً...».

وتشير هذه الآية في آخرها إلى أن الله قد وهب بني إسرائيل في ذلك الزمان نعماً لم ينعم بها على أحد من أفراد البشر في ذلك الحين فتقول: «وآتاكم ما لم يؤث أحداً من العالمين» وكانت هذه النعم والوافرة كثيرة الأنواع، فمنها نجاة بني إسرائيل من مخالب الفراعنة الطغاة، وإفلاق البحر لهم، ونزول غذاء خاص عليهم مثل «المن والسلوى»، وقد أوردنا تفاصيل ذلك في الجزء الأول من كتابنا هذا، لدي تفسير الآية (٥٧) من سورة البقرة.

والآية التالية تبين واقعة دخول بني إسرائيل إلى الأرض المقدسة نقلاً عن لسان نبيهم موسى ﷺ فتقول: «يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين».

وقد اختلف المفسرون حول المراد بعبارته (الأرض المقدسة) الواردة في الآية،

١- نقرأ في كتب أن الملك هو «من كان له الملك، والملك هو ما يملكه الإنسان ويتصرف به - أو - العظمة والسلطة».

وحول موقعها الجغرافي من العالم.

فيرى البعض أنها أرض «بيت المقدس» حيث القدس الشريف، وآخرون يرون أنها «أرض الشام» وفتة ثالثة ترى أنها «الأردن وفلسطين» وجماعة أخرى تقول أنها أرض «الطور».

ولكن لا يستبعد أن يكون المراد من العبارة المذكورة كل أرض الشام التي تشمل جميع الاحتمالات الواردة، لأن هذه الأرض - كما يشهد التاريخ - تعتبر مهذاً للأنبياء، ومهبطاً للوحي، ومحلاً لظهور الأديان السماوية الكبرى، كما أنها كانت لفترة طوال من التاريخ مركزاً للتوحيد وعبادة الله الواحد الأحد، ونشر تعاليم الأنبياء ... لهذه الأسباب كلها سميت بـ «الأرض المقدسة» مع أن هذا الإسم يطلق عن منطقة «بيت المقدس» بصورة خاصة أحياناً (وقد بينا هذا الأمر في الجزء الأول من كتابنا هذا).

ويستدل من جملة «كتب الله عليكم ...» إن الله قد قرر أن يعيش بنو إسرائيل في الأرض المقدسة بالرغد والرخاء والرفاه (شريطة أن يحموا هذا الأرض من دنس الشرك والوثنية) وأن لا ينحرفوا (عن تعاليم الأنبياء) إن لم يلتزموا بهذا الأمر سيحيط بهم من قبل الله عذاب أليم شديد.

وعلى هذا الأساس لا يوجد أي تناقض بين فشل جيل من بني إسرائيل الذين خوطبوا بهذه الآية في دخول الأرض المقدسة، وإبتلائهم بالتيه والضياع لمدة أربعين عاماً في الصحارى والقفار، حتى نجح الجيل التالي من بعدهم بدخول تلك الأرض، لا يوجد أي تناقض بين ما ذكر وبين جملة «كتب الله عليكم ...» لأن هذا التقدير الإلهي والقرار الرباني إنما قيد بشروط لم ينفذها ذلك الجيل الأول من بني إسرائيل، وتوضح هذا الأمر الآيات التالية.

وقد واجه بنو إسرائيل دعوة موسى ﷺ للدخول إلى الأرض المقدسة مواجهة الضعفاء الجبناء الجهلاء، الذين يتمنون أن تتحقق لهم الإنتصارات في

ظل الصدف والمعاجز دون أن يبادروا بأنفسهم إلى بذل جهد في هذا المجال، وردّ هؤلاء على طلب موسى ﷺ بقولهم كما تنقله الآية: «قالوا يا موسى إنّ فيها قوماً جبارين^(١) وإنّا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون».

ويدل جواب بني إسرائيل هذا على الأثر المشؤوم الذي خلفه الحكم الفرعوني على نفوس هؤلاء فإنّ في كلمة «لن» التي تفيد التأييد دلالة على الخوف والرعب العميقين اللذين استوليا على هذه الطائفة ممّا أرغمهم على الإمتناع عن الدخول في أي صراع من أجل تحرير الأرض المقدسة وتطهيرها. وكان على بني إسرائيل أن يحرروا تلك الأرض بكفاحهم وتضحياتهم، أمّا لو أنّ الأعداء تركوا الأرض المقدسة أو أبيدوا فيها بمعجزة على خلاف السنة الإلهية الطبيعية، فإنّ بني إسرائيل بدخلوهم إليها - في مثل هذه الحالة دون أي عناء أو مشقة - كانوا سيواجهون العجز في إدارة تلك الأرض الواسعة الغنية، ولم يكونوا ليبدوا أيّ اهتمام بالحفاظ على شيء حصلوا عليه دون جهد أو معاناة، فلا يظهر لديهم والحالة هذه أي استعداد أو كفاءة لعمل ذلك.

أمّا المراد من عبارة «قوماً جبارين» فهم كما تدل عليه التواريخ قوم «العمالقة»^(٢) الذين كانوا يمتلكون أجساماً ضخمة، وكانت لهم أطوال خارقة، بحيث ذهب الكثير إلى المبالغة في طول أجسام هؤلاء وصنعوا الأساطير

١- يجب الإتيان إلى أنّ كلمة «جبار» مأخوذة أو مشتقة من الأصل (جبر) أي إصلاح الشيء بالقسر والإرغام، ولذلك سُمّي إصلاح العظم المكسور (تجبيراً) فهذه الكلمة تطلق من جهة على كل نوع من التجبير والإصلاح، ومن جهة أخرى تطلق على كل أنواع التسلط القسري. وحين تطلق كلمة (جبار) على الله سبحانه وتعالى فذلك إنّما لتسلطه على كل شيء، أو لأنّه هو المصلح لكل موجود محتاج إلى الإصلاح.

٢- العمالقة قوم من العنصر السامي يعيشون في شمال شبه جزيرة العرب بالقرب من صحراء سيناء، وقد هاجموا مصر واستولوا عليها لفترات طويلة ودامت حكومتهم حوالي ٥٠٠ عام منذ عام ٢٢١٣ قبل الميلاد حتى عام ١٧٠٣ قبل الميلاد.

عن دائرة المعارف لفريد وجدي، ج ٦٠، ص ٢٣٢ (الطبعة الثالثة).

الخرافية من ذلك، وكتبوا فيهم مواضيع تثير السخرية لا يسندها أي دليل علمي، وبالأخص فيما كتبه عن المدعو بـ«عوج» في التواريخ المصطنعة المشوبة بالخرافات والأساطير.

ويبدو أن مثل هذه الخرافات التي تسربت حتى إلى بعض الكتب الإسلامية، وإتما هي من صنع بني إسرائيل، والتي تسمى عادة بـ«الإسرائيليات» والدليل على هذا القول هو ما ورد نصاً في التوراة المتداولة من أساطير خرافية تشبه أساطير العمالقة، نقرأ في سفر الأعداد في أواخر الفصل الثالث عشر «إن الأرض التي ذهب بنو إسرائيل إليها لإستقصاء أخبارها هي أرض تبيد ساكنيها وإن جميع من فيها هم أناس طوال وفيهم العمالقة من أبناء «عناق» بشكل كان بنو إسرائيل الذين ذهبوا للتجسس هناك أشبه بالجراد قياساً بأحجام العمالقة الموجودين في تلك الأرض!».

بعد هذا الحديث يشير القرآن الكريم إلى رجلين أنعم الله عليهما بالإيمان والتقوى والورع وشملهما بنعمه الكبيرة، فجمعاً صفات الشجاعة والشهامة والمقاومة مع الدرك الإجتماعي والعسكري ممّا دفعهما إلى الدفاع عن اقتراح النبي ﷺ فواجهها بني إسرائيل بقولهما: ادخلوا عليهم من باب المدينة، وحين تدخلون عليهم سيواجهون الأمر الواقع فتكونون أنتم المنتصرون، تقول الآية الكريمة في هذا المجال: «قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون».

وتؤكد الآية - بعد ذلك على ضرورة الإعتماد على الله في كل خطوة من الخصوات، والإستمداد من روح الإيمان بقوله تعالى: «وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين».

وما ذكره أغلب المفسرين حول هوية هذين الرجلين هو أنّهما «يوشع بن نون» و«كالب بن يوحنا» وهما من النقباء الإثني عشر في بني إسرائيل، كما ورد

سابقاً^(١).

مع كل الإحتمالات العديدة الواردة في تفسير جملة «من الذين يخافون» إلا أن الواضح من ظاهر هذه الجملة، هو أن الرجلين المذكورين في الآية هما من جماعة تخاف الله وتخشاه وحده دون غيره، ويؤيد هذا التفسير ما جاء في جملة «أنعم الله عليهما...» فأى نعمة أكبر وأرفع من أن يخاف الإنسان من الله وحده ولا يخشى أحداً سواه.

وقد يسأل سائل في هذا المجال عن مصدر علم هذين الرجلين، وكيف أنهما علما أن بني إسرائيل ستكون لهم الغلبة إن هم دخلوا المدينة - أو الأرض المقدسة - في هجوم مباغت؟

وجوابه: لعل علم هذين الرجلين بتلك الغلبة كان نابغاً من ثقتهما بأقوال النبي موسى ﷺ أو أنهما اعتمدا على قاعدة كلية في الحروب، مفادها أن الجماعة المهاجمة إن استطاعت الوصول إلى مقر ومركز العدو - أي تمكنت من محاربة العدو في داره - فإنها سنتصر عليه^(٢) عادة.

والمستهدفون في تلك الحرب هم قوم المعالقة، وهم بسبب ما كانوا عليه من طول خارق، كان أسهل عليهم أن يحاربوا في بر أو فضاء مفتوح بدل الحرب في مدينة، فيها - بحسب العادة - الأزقة والطرق الملتوية (بغض النظر عن الجوانب الأسطورية التي تتحدث عن الطول الخارق لهؤلاء المعالقة)، أضف إلى ذلك كله أن المعالقة - كما نقل - كانوا على رغم قاماتهم الطويلة أناساً جبناء رعايد، يرهبهم كل هجوم مباغت، وكل هذه الأسباب أصبحت دليلاً قوياً لدى الرجلين المذكورين ليقولا بحتمية إنتصار بني إسرائيل.

١- الباب الأول من سفر التثنية في التوراة المتناولة. فيه إشارة إلى أن اسمي هذين الرجلين هما «يوشع» و«كاليب».

٢- وقد أشار الإمام علي بن أبي طالب في إحدى خطبه الواردة في كتاب نهج البلاغة إلى هذه الحقيقة بقوله ﷺ: (ولله ما غزي قوم في عقر دارهم إلا ذلوا) (الخطبة ٢٧).

والذي حصل حقيقة هو أن بني إسرائيل لم يقتنعوا بأي من الإقتراحات المذكورة، فهم بسبب الضعف والجبن المتأصلين في نفوسهم خاطبوا موسى ﷺ وأخبروه صراحةً بأنهم لن يدخلوا تلك الأرض مادام العمالقة موجودين فيها، وطالبوا موسى أن يذهب هو وربه لمحاربة العمالقة وسألوه أن يخبرهم عن إنتصاره حيث هم قاعدون، وفي هذا المجال تقول الآية الكريمة: ﴿قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون﴾. وتبين هذه الآية مدى الوقاحة التي وصل إليها بنو إسرائيل في مخاطبة نبيهم موسى ﷺ، فهم بقولهم «لن» و«أبداً» أكدوا رفضهم القاطع للدخول إلى الأرض المقدسة، كما أنهم استخفوا بموسى ﷺ ودعوته واستهزأوا بهما، بقولهم: ﴿إذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ...﴾ كما أنهم - أيضاً - لم يعيروا التفاتاً لإقتراح الرجلين المؤمنين المذكورين في الآية، ولم يبدوا حيال ذلك أي جواب. والطريف في الأمر أن التوراة المتداولة قد أوردت أجزاء مهمة من هذه القصة، في الباب الرابع عشر من سفر الأعداد، حيث جاء فيها أن جميع بني إسرائيل لاموا موسى وهارون أخاه وقالوا جميعاً: ليتنا متنا جميعاً في أرض مصر أو في القلاة، فلماذا جاء بنا الرب إلى هذه الأرض لكي نقتل بحد السيف، وتسبي عيالنا وأطفالنا بعدنا ... فحار موسى وأخاه هارون أمام القوم، ماذا يفعلان؟ أما يوشع بن نون وكاليب بن يفتة، اللذان كانا من مجموعة الرجال الذين ذهبوا للتجسس على تلك الأرض فقد شقا جيبيهما

ثم نقرأ في الآية التالية أن موسى أصابه اليأس والقنوط من القوم، ورفع يديه للدعاء مناجياً ربه قائلاً: إنه لا يملك حرية التصرف إلا على نفسه وأخيه، وطلب من الله أن يفصل بينهما وبين القوم الفاسقين العصاة، لكي يلقي هولاء جزاء أعمالهم ويبادروا إلى إصلاح أنفسهم، حيث تقول الآية الكريمة في هذا المجال: ﴿قال ربي إني لا أملك إلا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين﴾.

وبديهي إن رفض بني إسرائيل القاطع لأمر نبيهم كان بمثابة الكفر، وما استخدام القرآن لعبارة «الفاسق» بحق هؤلاء إلا لأن كلمة «الفسق» لها معان واسعة، وتشمل كل خروج وإنحراف عن سنة العبودية لله، ولذلك نقرأ في القرآن الكريم - حين التحدث عن إنحراف الشيطان - قول الله تعالى: «ففسق عن أمر ربّه...»^(١).

وتجدد هنا الإشارة إلى أن جملة: «من الذين يخافون...» الواردة في الآيات السابقة تدل على وجود قلة من اليهود كانت تخشى الله، ومنهم الرجلان المذكوران في إحدى الآيات الأخيرة وهما «يوشع» و«كاليب» بينما نلاحظ أن موسى ﷺ لا يذكر هنا غير نفسه وأخيه، ولا يذكر ولو حتى بالتلميح أحداً من تلك القلة، وقد يكون السبب هو أن هارون لكونه الوصي لأخيه موسى ﷺ ولكونه أبرز شخصية في بني إسرائيل من بعد موسى ﷺ... لذلك ذكر اسمه دون غيره.

وكانت نتيجة صلف وعناد بني إسرائيل أنهم لاقوا عقابهم، إذ استجاب الله دعاء نبيه موسى ﷺ، فحرم عليهم دخول الأرض المقدسة، المليئة بالخيرات مدة أربعين عاماً، وفي هذا المجال تقول الآية القرآنية الكريمة: «قال فإِنَّهَا محرمة عليهم أربعين سنة...».

وزادهم عذاباً إذ كتب عليهم التيه والضياح في البراري والقفار طيلة تلك الفترة، حيث تقول الآية في ذلك: «يتيهون في الأرض...» وقد سميت الصحراء التي تاه فيها بنو إسرائيل باسم «التيه» أيضاً، وكانت جزءاً من صحراء سيناء، كما ذكرنا في الجزء الأول من تفسيرنا هذا.

بعد ذلك تذكر الآية أن ما نال بني إسرائيل من عذاب في تلك المدة، كان مناسباً لما فعلوه، وتطلب من موسى ﷺ أن لا يحزن على المصير الذي لاقوه حيث تقول الآية الكريمة: «فلا تأس على القوم الفاسقين».

وربما كان سبب ورود الجملة الأخيرة، هو أنّ موسى ﷺ قد ثارت عاطفته بعد أن علم بالعذاب الذي كتبه الله على بني إسرائيل، فطلب من الله العفو لقومه - كما ورد في التوراة المتداولة - فأجابه برد سريع أوضح له أنّ بني إسرائيل يستحقون ذلك العذاب، وهم لا يستحقون العفو الإلهي لأنهم أناس فاسقون وعصاة، متكبرون، ومن كان هذا شأنه سيلاقي - حتماً - مثل هذا المصير.

ويجب الانتباه إلى أنّ حرمان بني إسرائيل من الدخول إلى الأرض المقدسة، لم يكن له طابع للإنتقام (كما أن جميع العقوبات الإلهية ليس فيها طابع إنتقامي، بل هي إما أن تكون لأجل تقويم شخصية الفرد، أو تكون نتيجة لأخطائه ومعاصيه.

وقد اشتمل هذا الحرمان على فلسفة خاصّة، حيث تحرر بنو إسرائيل بعد معاناة طويلة قاسوها في ظل الكبت والقمع الفرعوني اللذين خلفا فيهم عقد الإحساس باحتقار النفس والذل والضعف والنقص، لذلك فهم لم يبدوا استعداداً لتطهير أنفسهم وأرواحهم في تلك الفترة بعد التحرر وفي ظل قيادة وزعامة نبيهم موسى ﷺ كما لم يكونوا مستعدين لتلك القفزة المعنوية التي كان من شأنها أن تهيء لهم حياة جديدة مقرونة بالفخر والعز والسؤدد، وجوابهم لموسى ﷺ - الذي اشتمل على رفضهم الدخول إلى ميدان الجهاد التحرري في الأرض المقدسة - خير دليل على هذه الحقيقة.

لذلك كان من الضروري أن يعاني بنو إسرائيل من التيه والضياع في الصحراء، ليزول الجيل الضعيف العاجز منهم بشكل تدريجي وليحل محله جيل جديد في محيط الصحراء، محيط الحرية وفي أحضان التعاليم الإلهية، وقد صقلت نفوسهم حياة الصحراء القاسية الضارية، ووهبت لأرواحهم وأنفسهم القوة والقدرة، وأعدتهم لخوض غمار ذلك الجهاد ليقوموا بحكومة الحق في تلك الأرض المقدسة!

الآيات

وَأْتَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنِي آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبَلُ مِنْ
أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ
مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِن بَسَطْتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ
إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّي أَرِيدُ أَنْ تَبُوءَ
أُبَيْثِي وَإِنَّمِكَ فَتَكُونُ مِنَ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ
الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾

التفسير

أول حادثة قتل على الأرض:

لقد تناولت هذه الآيات الثلاث الأخيرة قصة ولدي آدم عليه السلام وكيف قتل أحدهما أخاه الآخر، ولعل وجه الصلة بين هذه الآيات والآيات التي سبقتها في شأن بني إسرائيل، هو غريزة «الحسد» التي كانت دائماً أساساً للكثير من مخالفات وانتهكات بني إسرائيل حيث يحذروهم الله في هذه الآيات من مغبة وعاقبة الحسد الوخيمة القاتلة، التي تؤدي أحياناً إلى أن يعمد أخ إلى قتل أخيه! والآية تقول في هذا المجال لنبي الله أن يتلو على قومه قصة ولدي آدم: «واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق...».

ولعل استخدام كلمة «بالحق» في هذه الآية جاء للإشارة إلى أن القصة المذكورة قد أضيفت لها خرافات مختلفة، وليبين أن القرآن الكريم جاء بالقصة الحقيقية التي حصلت بين ولدي آدم ﷺ.

ولا شك أن كلمة «آدم» الواردة في الآية، تشير إلى أبي البشرية الحاضرة، وإن ما ذهب إليه البعض مع أنها إشارة إلى شخص من بني إسرائيل اسمه «آدم» لا أساس له من الواقع، لأن هذه الكلمة استخدمت مراراً في القرآن للدلالة على اسم أبي البشرية، فلو صح الافتراض الأخير لوجب أن تشتمل الآية - أو الآيات - التي بعدها على قرينة تصرف الإسم عن مسماه الحقيقي الأول، ولا يمكن لآية «من أجل ذلك...» التي سيأتي تفسيرها قريباً، أن تكون قرينة على الافتراض المذكور كما سيأتي تفصيله.

وتواصل الآية سرد القصة فتقول: «إذ قربا قرباناً فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر...».

وقد أدت هذه الواقعة إلى أن يهدد الأخ - الذي لم يتقبل الله القربان منه - أخاه بالقتل ويقسم أنه قاتله لا محالة، كما جاء في قوله تعالى في الآية: «قال لأقتلنك» أما الأخ الآخر فقد نصح أخاه مشيراً إلى أن عدم قبول القربان منه إنما نتج عن علة في عمله، وأنه ليس لأخيه أي ذنب في رفض القربان، مؤكداً أن الله يقبل أعمال المتقين فقط حيث تقول الآية: «قال إنما يتقبل الله من المتقين».

وأكد له أنه لو نفذ تهديده وعمد إلى قتله، فإنه - أي الأخ الذي تقبل الله منه القربان - لن يمد يده لقتل أخيه، فهو يخاف الله ويخشاه، ولن يرتكب أو يلوث يده بمثل هذا الإثم حيث تقول الآية: «لئن بسطت إلى يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين».

وأضاف هذا الأخ الصالح - مخاطباً أخاه الذي أراد أن يقتله - أنه لا يريد أن

يتحمل آثام الآخرين، قائلاً له: «إني أريد أن تبوأ^(١) بإثمي وإثمك» (أي لآثامك إن نفذت تهديدك فستحمل ذنوبي السابقة أيضاً، لأنك سلبت مني حق الحياة وعليك التعويض عن ذلك، ولما كنت لا تمتلك عملاً صالحاً لتعوض به، فما عليك إلا أن تتحمل إثمي أيضاً، وبديهي أنك لو قبلت هذه المسؤولية الخطيرة فستكون حتماً من أهل النار، لأن النار هي جزاء الظالمين) كما تقول الآية: «فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين».

نقاط مهمة يجب الإنتباه لها:

١- إن القرآن الكريم لم يذكر في هذه الآية - ولا في آيات أخرى - أي اسم لأبناء آدم عليه السلام؛ لكن الروايات الإسلامية تدل على أن ولدي آدم المذكورين في هذه الآية كان اسم أحدهما «هابيل» والآخر «قاييل» وقد ورد في سفر التكوين من التوراة في الباب الرابع أن ولدي آدم المذكورين اسمهما «قائن» و«هابيل». وقد ذكر المفسر المعروف «أبو الفتوح الرازي» أن هذين الإسمين قد وردا بألفاظ مختلفة، فالاسم الأول جاء فيه «هابيل» و«هابل» و«هابن»، «أما الاسم الثاني فجاء فيه «قاييل» و«قايين» و«قابل» و«قابين» أو «قبن»، وعلى أي صورة كان الاسم فإن الإختلاف بين الروايات الإسلامية ونص التوراة بخصوص اسم «قاييل» نابع عن الإختلاف اللغوي، ولا يشكل أمراً مهماً في هذا المجال. والغريب في الأمر أن أحد الكتاب المسيحيين قد أورد الإختلاف المذكور دليلاً اعترض به على القرآن، فقال: «إن القرآن أورد لفظة «قاييل» بدل «قائن»! والجواب هو أن مثل هذا الإختلاف اللغوي أمر شائع وبالأخص في مجال الأسماء - فمثلاً كلمة «إبراهيم» الواردة في القرآن قد وردت في التوراة على شكل «أبراهام»، كما أن القرآن الكريم لم يأت مطلقاً باسم «هابيل» و«قاييل»

١- إن كلمة «تبوء» مشتقة من المصدر «بواء» أي «العودة».

وقد ورد هذان الإسمان في الروايات الإسلامية فقط^(١).

٢- إنَّ المعروف عن «القربان» هو أنه كل شيء يحصل به التقرب إلى الله، لكن القرآن الكريم لم يذكر شيئاً عن ماهية القربان الذي قدمه ولدا آدم، بينما نقلت الروايات الإسلامية - والتوراة في سفر التكوين، الباب الرابع - أن «هابيل» كان يمتلك ماشية فاختر أفضل أغنامه ومنتوجاتها للقربان المذكور، وأن «قاييل» الذي كان صاحب زرع، قد اختار لقربانه أردأ الأنواع من زرعه.

٣- لم يرد في القرآن أي توضيح عن الأسلوب الذي عرف به ابنا آدم قبول قربان أحدهما ورفض قربان الآخر عند الله - والذي ورد في هذا المجال هو ما نقلته بعض الروايات الإسلامية من أن هذين الشخصين كانا قد وضعا قربانها على قمة جبل، فنزلت صاعقة فاحرقت قربان هابيل دلالة على قبوله، وبقي قربان قاييل على حاله لم يمسه شيء، وكانت لهذه العلامة سابقة معروفة أيضاً. لكن بعض المفسرين يعتقدون أن قبول ورفض القربانين إنما أعلننا عن طريق الوحي لآدم ﷺ، وما كان سبب ذلك غير أن هابيل كان إنساناً ذا سريرة نقية يحبّ التضحية والعفو في سبيل الله فتقبل الله لذلك قربانه، بينما كان قاييل رجلاً ملوث القلب حسوداً معانداً فرفض الله قربانه، والآيات التالية توضح حقيقة ما جبلت عليه نفسا هذين الأخوين من خير وشر.

٤ - يستنتج من هذه الآيات - بصورة جلية - أن مصدر أولى النزاعات والجرائم في العالم الإنساني هو «الحسد» ويدلنا هذا الموضوع على خطورة هذه الرذيلة الأخلاقية وأثرها العجيب في الأحداث الاجتماعية.



١ - وقد كتب العلامة الفقيه الشيخ «محمد جواد البلاغي» رسالة في هذا المجال سماها بـ «الأكاذيب الأعاجيب» جمع فيها أكاذيب من نمط الكذبة التي جاء ذكرها أعلاه.

الآيتان

فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخٰسِرِينَ ﴿٣٥﴾
فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِي سَوْءَةَ
أَخِيهِ قَالَ يَنْوِيْلَتِي أَعْجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ
فَأُورِي سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿٣٦﴾

التفسير

التستر على الجريمة:

تواصل هاتان الآيتان بقية الواقعة التي حصلت بين إبنی آدم ﷺ، فتبين الآیة الأولى منهما أن نفسی قابیل هي التي دفعته إلى قتل أخیه قتلته، حيث تقول: ﴿فطوَّعت له نفسه قتل أخیه﴾.

ونظراً لأن كلمة «طوع» تأتي في الأصل من «الطاعة» لذلك يستدل من هذه العبارة على أن قلب «قابیل» بعد أن تقبل الله قربان أخیه هابیل أخذت تعصف به الأحاسيس والمشاعر المتناقضة، فمن جانب استعرت فيه نار الحسد وكانت تدفعه إلى الانتقام من أخیه «هابیل» ومن جانب آخر كانت عواطفه الإنسانية وشعوره الفطري يقبح الذنب والظلم والجور وقتل النفس، يحولان دون قيامه بارتكاب الجريمة، لكن نفسه الأمارة بالسوء تغلبت رويداً رويداً على مشاعره

الرادعة فطوعت ضميره الحي وكبلته بقيودها واعدته لتقل أخيه، وتدل عبارة «طوعت» مع قصرها على جميع المعاني التي ذكرناها لأنَّ عملية التطوع كما نعلم لا تتم في لحظة واحدة، بل تحصل بشكل تدريجي وعبر صراعات مختلفة. وتشير الآية - في آخرها - إلى نتيجة عمل «قابيل» فتقول «فأصبح من الحاسرين» فأين ضرر أكبر من أن يشتري الإنسان لنفسه عذاباً سيلازمه إلى يوم القيامة، ويشمل عذاب الضمير وعقاب الله والعار والأبدي.

وقد حاول البعض الاستدلال من كلمة «أصبح» على أن جريمة القتل قد وقعت ليلاً، في حين أن كلمة «أصبح» من حيث معناها اللغوي لا تنحصر في زمن معين ليلاً مكان أم نهاراً، بل تدل على حدوث شيء ما، كما جاء في الآية (١٠٣) من سورة آل عمران في قوله تعالى: ﴿... فأصبحتم بنعمته إخواناً...﴾.

وتفيد بعض الروايات المنقولة عن الإمام الصادق عليه السلام أن قابيل حين قتل أخاه ترك جثته في العراء حائراً لا يدري ما يفعل بها، فلم يمض وقت حتى حملت الوحوش المفترسة على جثة «هابيل» فاضطر «قابيل» (ربّما نتيجة لضغط وجداني شديد) إلى حمل جثة أخيه مدة من الزمن لإنقاذها من فتك الوحوش، لكن الطيور الجارحة أحاطت به وهي تنتظر أن يضعها على الأرض للهجوم عليها ثانية وفي تلك الأثناء بعث الله غراباً (كما تصرّح الآية) فأخذ يحفر الأرض ويزيح التراب ليدفن جسد غراب ميت آخر، أو ليخفي جزءاً من طعامه - كما هي عادة الغربان - وليدل بذلك «قابيل» كيف يدفن جثة أخيه، حيث تقول الآية الكريمة، «فبعث الله غراباً يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوء أخيه»^(١).

١ - جاء في مجمع البيان أن كلمة «يبحث» معناها في الأصل هو البحث عن شيء في التراب ثم استعملت في مختلف أنواع البحوث، أما كلمة «سوءاً» فهي تعني كل شيء يستاء الإنسان من رؤيته، ولذلك تطلق أحياناً على جسد الميت، وعلى عورة الإنسان. ويجب الإنتباه هنا إلى أن الفاعل في جملة «ليريه» قد يكون هو الله، أي أن الله

ولا غرابة في أن يتعلم إنسان شيئاً من طير من الطيور، فالتاريخ والتجربة يدلان على أن للكثير من الحيوانات مجموعة من المعلومات الغريزية تعلمها منها البشر على طول التاريخ، مكملاً بذلك معلوماته ومعارفه، وحتى بعض الكتب الطبية تذكر أن الإنسان مدين في جزء من معلوماته الطبية للحيوانات! ثم تشير الآية الكريمة إلى أن قاييل استاء من غفلته وجهله، فأخذ يؤنب نفسه كيف أصبح أضعف من الغراب فلا يستطيع دفن أخيه مثله، فتقول الآية: ﴿قال يا ويلتي أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوءة أخي...﴾. وكانت العاقبة أن ندم قاييل على فعلته الشنيعة كما تقول الآية: ﴿فأصبح من النادمين﴾.

فهل كان ندمه على جريمته، خوفاً من افتضاح أمره أمام أبويه؟ أو ربّما أخوته الآخرين الذين كانوا سيلومونه على فعلته؟ أم أنّ ندمه كان إشفاقاً على نفسه، لأنه حمل جسد أخيه القليل لفترة دون أن يعلم ماذا يفعل به أو كيف يدفنه؟ أم كان سبب الندم هو ما يشعر به الإنسان - عادة - من قلق واستياء بعد ارتكاب كل عمل قبيح؟

مهما كانت أسباب الندم ودوافعه لدى «قاييل» فذلك لا يعني أنّه تاب من فعلته وجريمته التي ارتكبها، فالتوبة معناها أن لا يعاود الإنسان المذنب تكرار الذنب، خوف من الله واستقباحاً للذنب، ولم يشير القرآن الكريم إلى صدور مثل هذه التوبة عن «قاييل»، وقد تكون الآية التالية إشارة إلى عدم صدور التوبة عنه. ورد في حديث عن النبي ﷺ قوله: «لا تقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه كان أول من سن القتل»^(١).

صارأراد أن يري «قاييل» كيف يدفن أخاه، وذلك احتراماً له «هابيل» ويحتمل أن يكون الغراب هو الفاعل في الجملة المذكورة.

١- مسند أحمد بن حنبل كما جاء في تفسير «في ضلال القرآن»، ج ٢، ص ٧٠٣، في تفسير الآية.

ويستدل من هذا الحديث أيضاً على أن من سنَّ سنَّة سيئة، سيبقى يتحمل وزرها مادامت باقية في الدنيا.

مما لا ريب فيه أن قصة ولدي آدم ﷺ قصة حقيقية، يشبها ظاهر الآيات القرآنية الأخيرة والروايات الإسلامية، كما أن عبارة «بالحق» الواردة في هذه القصة القرآنية تعتبر شاهداً على هذا الأمر، وعلى هذا الأساس فإن الأقوال التي افترضت لهذه القصة طابعاً رمزياً من قبيل التشبيه أو الكناية أو القصة المفترضة لا أساس لها مطلقاً.

ولا مانع من أن تكون هذه القصة الحقيقية مثلاً من الصراع الدائم الذي يطغى على المجتمعات البشرية، حيث يقف في أحد جانبيه أناس جبلوا على الطهارة والصفاء والإيمان والعمل الصالح المقبول عند الله، وفي الجانب الآخر يقف أفراد تدنسوا بالإنحراف وجبلوا على الحقد والحسد والضعف والبغضاء والعمل الشرير.

وكم هو العدد الكبير من أولئك الإبرار الأخيار الذين ذاقوا حلاوة الشهادة على أيدي هؤلاء الأشرار الذين سيدركون - في النهاية - فظاعة الأعمال الآثمة التي ارتكبوها، وسيسعون إلى إخفائها والتستر عليها، فتظهر لهم في مثل هذه اللحظات أمالهم السوداء الشبيهة بالقراب - المذكور في الآية القرآنية الأخيرة - فتحثهم وتدفعهم إلى إخفاء جرائمهم، لكنهم سوف لا يجنون في النهاية غير الخيبة والخسران.

الآية

مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ
نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا
فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنْ
كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٧﴾

التفسير

وحدة الإنسانية وكرامتها:

إنَّ هذه الآية تقوم باستخلاص نتيجة إنسانية كلية بعد الآيات التي تطرقت
إلى قصة ولدي آدم ﷺ.

ففي البداية تشير الآية إلى حقيقة اجتماعية تربوية مهمة، وهي أن قتل أي
إنسان، إن لم يكن قصاصاً لقتل إنسان آخر، أو لم يكن بسبب جريمة الإفساد في
الأرض، فهو بمثابة قتل الجنس البشري باجمعه، كما أن إنقاذ أي إنسان من
الموت، يعد بمثابة إنقاذ الإنسانية كلها من الفناء، حيث تقول الآية الكريمة: ﴿من
أجل^(١) ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في

١- إن كلمة «أجل» التي هي على وزن «نخل» تعني في الأصل الجريمة، وقد شاع استعمالها فيما بعد في كل عمل
له عاقبة سيئة، ثم استعملت لكل عمل ذي عاقبة، وهي الآية تستخدم للتعليل أو بيان علّة الشيء.

الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحيها فكأنما أحيها الناس جميعاً».

ويرد هنا سؤال وهو: كيف يكون قتل إنسان واحد مساوياً لقتل الناس جميعاً، وكيف يكون إنقاذ إنسان من الموت بمثابة إنقاذ الإنسانية جمعاء من الفناء؟

ولقد وردت أجوبة عديدة من قبل المفسرين على هذا السؤال ... جاء في تفسير «التبيان» ستة أجوبة عليه، وفي «مجمع البيان» خمسة أجوبة، وفي «كنز العرفان» أربعة أجوبة، ولكن بعضاً من هذه الأجوبة يبتعد كثيراً عن معنى هذه الآية.

وكما قلنا في بداية تفسير هذه الآية، فإنها تتحدث عن حقيقة اجتماعية تربوية، لأنه: أولاً: إن من يقتل إنساناً بريئاً ويلطخ يده بدم بريء يكون - في الحقيقة - مستعداً لقتل أناس آخرين يساوونه في الإنسانية والبراءة، فهو - في الحقيقة - إنسان قاتل، وضحيتة إنسان آخر بريء، ومعلوم أنه لا فرق بين الأبرياء من الناس من هذه الزاوية.

كما أن أي إنسان يقوم - بدافع حب النوع الإنساني - بإنقاذ إنسان آخر من الموت، يكون مستعداً للقيام بعملية الإنقاذ الإنسانية هذه بشأن أي إنسان آخر، فهذا الإنسان المنقذ يحب إنقاذ الناس الأبرياء، لذلك لا فرق لديه بين إنسان بريء وآخر مثله.

ونظراً لكلمة «فكأنما» التي يستخدمها القرآن في هذا المجال، فإننا نستدل بأن موت وحياة إنسان واحد، مع أنه لا يساوي موت وحياة المجتمع، إلا أنه يكون شبيهاً بذلك.

وثانياً: إن المجتمع يشكل في الحقيقة كياناً واحداً، وأعضاؤه أشبه بأعضاء الجسد الواحد، وأن أي ضرر يصيب أحد أعضائه يكون أثره واضحاً - بصورة أو بأخرى - في سائر الأعضاء، ولأن المجتمع البشري يتشكل من الأفراد، لذلك

فإن فقدان أي فرد منهم يعتبر خسارة للجميع الإنساني الكبير، لأنَّ هذا الفقدان يترك أثراً بمقدار ما كان لصاحبه من أثر في المجتمع، لذلك يشمل الضرر جميع أفراد المجتمع.

ومن جانب آخر فإن إحياء فرد من أفراد المجتمع، يكون - لنفس السبب الذي ذكرناه - بمثابة إحياء وإنقاذ جميع أفراد المجتمع، لأنَّ لكل إنسان أثر بمقدار وجوده في بناء المجتمع الإنساني وفي مجال رفع احتياجاته، فيكون هذا الأثر قليلاً بالنسبة للبعض وكثيراً بالنسبة للبعض الآخر.

وحين نقرأ في الروايات أنَّ جزاء وعقاب قاتل النفس المحرمة، يكون كجزاء قاتل جميع أفراد البشر، إنما ذلك إشارة لهذا المعنى الذي ذكرناه، ولا يعني أنَّ الناس متساوون مع بعضهم في كل الجهات، ولذلك نقرأ في تفسير هذه الروايات - أيضاً - أنَّ عقاب القاتل يتناسب مع عدد الأفراد الذين قتلهم تناسباً طريداً قلة وزيادة.

وتبيِّن هذه الآية بجلاء أهمية حياة وموت الإنسان في نظر القرآن الكريم، وتتجلى عظمة هذه الآية أكثر حين نعلم أنَّها نزلت في محيط لم يكن يعير أي أهمية لدماء أفراد الإنسانية.

وتلفت الإِتْبَاه في هذا المجال روايات عديدة ذكرت أنَّ هذه الآية مع أنَّها تتحدث - أو يشير ظاهرها - إلى الحياة والموت الماديين، إلَّا أنَّ الأهمَّ من ذلك هو الموت والحياة المعنويين، أي إضلال الفرد أو إنقاذ من الضلال، وقد سأل شخص الإمام الصادق عليه السلام عن تفسير هذه الآية فأجاب عليه السلام قائلاً: «من حرق أو غرق - ثمَّ سكت عليه السلام - ثمَّ قال: تأويلها الأعظم أنَّ دعاها فاستجابت له».

وفحوى قول الإمام الصادق عليه السلام في هذه الرواية هو الإنقاذ من الحريق أو الغرق ثمَّ يستطرد الإمام عليه السلام - بعد سكوت - فيبيِّن أنَّ التأويل الأعظم لهذه الآية هو دعوة الغير إلى طريق الحق والخير أو الباطل والشر، وتحقق القبول من

الجانب الآخر المخاطب بهذه الدّعوة^(١).

والسؤال الآخر الذي يمكن أن يرد في هذا المجال أيضاً، هو عن سبب ورود اسم بني إسرائيل بالذات في هذه الآية، مع أنها تشمل حكماً لا يخص هذه الطائفة؟

ويمكن القول في الحواب بأن سبب الإتيان باسم بني إسرائيل في هذه الآية هو أن هذه الطائفة قد شاعت بينها حوادث القتل وإراقة الدماء، وبالأخص ما كان منها ناشئاً عن الحسد وحبّ الذات والأنانية وحبّ التسلط، وما زال الذين يتعرضون للقتل على أيدي هذه الطائفة - في الوقت الحاضر - هم الأبرياء من الناس غالباً، ولهذا السبب ورد هذا الحكم الإلهي - لأول مرة - في سيرة بني إسرائيل!

وتشير الآية في آخرها - إلى انتهاكات بني إسرائيل، فتؤكد أن هذه الطائفة على الرغم من ظهور الأنبياء بينهم يحملون الدلائل الواضحة لإرشادهم، إلا أن الكثير منهم قد نقضوا وانتهكوا القوانين الإلهية، واتبعوا سبيل الإسراف في حياتهم، حيث تقول الآية: «ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات ثم إن كثيراً منهم بعد ذلك في الأرض لمسرقون».

ويجدر الإتيان إلى أن كلمة «إسراف» لها معان واسعة، تشمل كل تجاوز أو تعد عن الحدود، ولو أنها تستخدم في الغالب في مجال الهبات والنفقات.

* * *

١- تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٦٢٠ وقد وردت في هذا المجال روايات أخرى بنفس المضمون.

الآيتان

أَمَّا جَزَاؤُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٧﴾

سبب النزول

ورد في سبب نزول هاتين الآيتين الكريمتين، أن جماعة من المشركين قدموا إلى النبي ﷺ وأعلنوا إسلامهم لكنهم - لعدم تعودهم على طقس ومناخ المدينة - أصيبوا ببعض الأمراض، فنصحهم النبي ﷺ أن يذهبوا إلى منطقة ذات مناخ جيد من الصحراء خارج المدينة، كانت مرتعاً لإبل الزكاة، وأجاز لهم الانتفاع بلبن تلك الإبل بما يكفيهم، ففعلوا وتعافوا مما كانوا يعانون منه من الأمراض، لكنهم بدل أن يقدموا الشكر على صنيع النبي ﷺ معهم، وعمدوا إلى قتل الرعاة المسلمين والتمثيل بهم وسمل عيونهم، ونهبوا إبل الزكاة وإرتدوا عن الإسلام إلى الشرك، فأمر النبي ﷺ بإلقاء القبض عليهم والقصاص منهم بمثل ما إرتكبه بحق أولئك الرعاة الأبرياء، وجزاء لهم على جرائمهم فسملت عيونهم

وقطعت أوصالهم وقتلوا، لكي يصبحوا عبرة لغيرهم فلا تسول لأحد نفسه أن يرتكب مثل هذه الجرائم الوحشية البشعة، وقد نزلت الآيتان الأخيرتان وهما تبيين حكم الإسلام في هذه الجماعة^(١).

جزاء مرتكب العدوان:

تكمل الآية الأولى - من الآيتين الأخيرتين - البحث الذي تناولته الآيات السابقة حول قتل النفس، وتبين جزاء وعقاب من يشهر السلاح بوجه المسلمين، وينهب أموالهم عن طريق التهديد بالقتل أو بإرتكاب القتل، فتقول: ﴿إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض﴾.

ومعنى قطع الأيدي والأرجل من خلاف هو أن تقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى.

ويجدر الانتباه هنا إلى عدة أمور، وهي:

١ - إن المراد جملة «الذين يحاربون الله ورسوله» الواردة في الآية - كما تشير إليه أحاديث أهل البيت ويدل عليه سبب نزول الآية - هو إرتكاب العدوان ضد أرواح أو أموال الناس باستخدام السلاح والتهديد به، سواء كان هذا العدوان من قبل قطاع الطرق خارج المدن أو داخلها، وعلى هذا الأساس فإن الآية تشمل أيضاً الأشرار الذين يعتدون على أرواح الناس وأموالهم ونواميسهم.

والذي يلفت الانتباه في هذه الآية هو أنها اعتبرت العدوان للممارس ضد البشر بمثابة إعلان الحرب وممارسة العدوان ضد الله ورسوله، وهذه النقطة تبيّن بل تثبت مدى إهتمام الإسلام العظيم بحقوق البشر ورعاية أمنهم وسلامتهم.

٢ - المراد بقطع اليد أو الرجل - المذكور في الآية، وكما أشارت إليه كتب

الفقه - هو القطع بنفس المقدار الذي ينفذ بحق السارق لدى قطع يده، أي مجرد قطع أربعة من أصابع اليد أو الرجل^(١).

٣- هل أن العقوبات الأربع المذكورة في الآية لها طابع تخيري؟ أي هل أن الحكومة الإسلامية مخيرة في استخدام أي منهما بحق الفرد الذي تراه يستحق ذلك، أم أن العقوبة يجب أن تتناسب ونوع الجريمة التي إرتكبها الفرد؟ أي إذ إرتكب الفرد المحارب جريمة قتل ضد أفراد أبرياء تطبق بحقه عقوبة الإعدام، وإن إرتكب سرقة عن طريق التهديد بالسلاح تنفذ فيه عقوبة قطع أصابع اليد أو الرجل، وإذا إرتكب الجريمتين معاً يكون عقابه الإعدام والصلب على الأعواد لفترة معينة لكي يعتبر به الناس، وإذا شهر الفرد المحارب السلاح على الناس دون أن يراق أي دم أو تتم سرقة شيء يكون عقابه النفي إلى بلد آخر؟

لا شك أن الإحتمال الثاني - وهو تطبيق العقوبة المتناسبة مع الجريمة أقرب إلى الحقيقة، وقد أيد هذا المعنى ما ورد في أحاديث عن أئمة أهل البيت عليهم السلام أيضاً^(٢).

وبالرغم من أن بعض الأحاديث أشارت إلى أن الحكومة الإسلامية مخيرة في إنتخاب أي من العقوبات الأربع الواردة، لكننا - نظراً للأحاديث التي أشرنا إليها قبل قليل - نرى أن المراد من التخيير لا يعني أن تنتخب الحكومة الإسلامية واحداً من العقوبات المذكورة إنتخاباً إعتباطياً دون أن تأخذ نوع الجريمة بنظر الإعتبار، حيث من المستبعد كثيراً أن تكون عقوبتنا الإعدام والصلب متساويتين مع عقوبة النفي، أو أن تكونا بمنزلة واحدة!

ويلاحظ هذا الأمر أيضاً في الكثير من القوانين الوضعية المعاصرة بصورة واضحة، حيث تعين عقوبات مختلفة لنوع واحد من الجرائم، وعلى سبيل المثال

١- كنز العرفان في فقه القرآن، ج ٢، ص ٣٥٢.

٢- نور الثقلين، ج ١، ص ٦٢٢.

نرى أن بعض الجرائم تتراوح عقوبتها بين ٣ سنين إلى ١٠ سنين من السجن، والقاضي يتعامل في هذا المجال وفق ما يراه مناسباً لواقع الحال، وليس وفق ما يشتهيه هو، فتارة يكون المناسب في الجريمة أن تطبق العقوبة المشددة، وأخرى يتناسب معها تخفيف العقوبة، نظراً للظروف المحيطة والملابسات الواردة في حالة ارتكاب الجريمة.

وهذا القانون الإسلامي الذي جاء بحق المحاربين، يتفاوت فيه أسلوب العقاب ونوعه مع اختلاف الجريمة التي يرتكبها الفرد المحارب أو الجماعة المحاربة.

وغني عن القول أن العقوبات المشددة التي جاء بها الإسلام لقطاع الطريق تتوضح فلسفتها في الأهمية القصوى التي أعارها هذا الدين للدماء البريئة، لكي يحول دون إعتداء الأفراد الأشقياء الأشرار القتلة على أرواح وأموال وأعزاض الناس الأبرياء^(١).

وفي الختام تشير الآية إلى أن هذه العقوبات هي لفضح المجرمين في الدنيا، وسوف لا يتوقف الأمر على هذه العقوبات، بل سينالون يوم القيامة عقاباً أشد وأقسى حيث تقول الآية: ﴿ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم﴾.

ويستدل من هذه الجملة القرآنية على أن العقوبات الإسلامية الدنيوية التي تنفذ في المجرمين لن تكون حائلاً دون نيلهم لعقاب الآخرة، ولكن طريق العودة والتوبة لا يغلق حتى بوجه مجرمين خطيرين كالذين ذكرتهم الآية إن هم عادوا إلى رشدهم وبادروا إلى إصلاح أنفسهم، ولكي يبقى مجال التعويض عن الأخطاء مفتوحاً تقول الآية الثانية: ﴿إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم

١- إن الأحكام التي نظرنا إليها جاءت على شكل بحث تفسيري ملخص، وتفاصيل هذه الأحكام وشروطها موجود في كتب الفقه.

فاعلموا أنّ الله غفور رحيم».

والذي يظهر من هذه الآية هو أنّ العقاب والحدّ الشرعي يرفعان عن أولئك المجرمين في حالة انصرافهم طوعاً عن ارتكاب الجريمة وندمهم قبل أن يلقى القبض عليهم فقط.

وبديهي أنّ توبة هؤلاء لا تسقط العقاب عنهم إن كانوا قد ارتكبوا جريمة قتل أو سرقة، إلا في حالة ارتكاب جريمة التهديد بالسلاح فإن العقوبة تسقط إن هم تابوا وندموا قبل إلقاء القبض عليهم.

وبعبارة أخرى فإنّ التوبة في مثل هذه الجرائم لها تأثير في ما يخص الله فقط، أمّا حق الناس فلا يسقط بالتوبة ما لم يرض صاحب الحق.

وهكذا فإنّ عقاب المحارب يكون أشدّ وأقسى من عقاب السارق أو القاتل العادي، فهو إن تاب نجا من العقوبة التي تشمله لكونه محارباً، لكنه لا يتخلص من عقوبة السرقة والقتل العاديين.

وقد يطرأ هنا سؤال وهو كيف يمكن إثبات التوبة مادامت هي عملية قلبية باطنية؟

والجواب هو: أن طرق إثبات التوبة في هذا المجال كثيرة وافرة، وأحدها: أن يشهد عادلان على أنّهما سمعا توبة المجرم في مكان ما، وأنّه تاب دون أن يرغمه أحد على التوبة، والآخر: أن يغيّر المجرم أسلوب حياته بشكل تظهر عليه آثار التوبة بجلاء.

الآية

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا
فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٥﴾

التفسير

حقيقة التوسل إلى الله:

توجه هذه الآية الخطاب إلى الأفراد المؤمنين، تتضمن تكاليف ثلاثة يؤدي الإلتزام بها وتطبيقها إلى نيل الفلاح، وهذه التكاليف هي:
١- إلتباع الحيطة والتقوى، كما تقول الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ...﴾.

٢- إختيار وسيلة للتقرب إلى الله سبحانه وتعالى، حيث تقول الآية: ﴿وابتغوا إليه الوسيلة...﴾.

٣- الجهاد في سبيل الله، إذ تقول الآية: ﴿وجاهدوا في سبيله...﴾.
وستكون نتيجة الإلتزام بهذه التكاليف الإلهية وتطبيقها نيل الفلاح، بشرط تحقق الإسلام والإيمان فتقول الآية الكريمة في هذا المجال: ﴿لعلكم تفلحون﴾.
إن أهم موضوع سنتناوله بالبحث في هذه الآية، هو الدعوة الموجهة للإنسان المؤمن لإختيار طريقة تؤدي إلى التقرب إلى الله سبحانه وتعالى.

فكلمة «الوسيلة» في الأصل بمعنى نشدان التقرب أو طلب الشيء الذي يؤدي إلى التقرب للغير عن ميل ورغبة، وعلى هذا الأساس فإن كلمة «الوسيلة» الواردة في هذه الآية لها معان كثيرة واسعة، فهي تشمل كل عمل أو شيء يؤدي إلى التقرب إلى الله سبحانه وتعالى، وأهم الوسائل في هذا المجال هي الإيمان بالله وبنبيه ﷺ والجهد في سبيل الله، والعبادات كالصلاة والزكاة والصوم، والحج إلى بيت الله الحرام وصلوة الرحم والإنفاق في سبيل الله سرّاً وعلانية وكذلك الأعمال الصالحة - كما يقول الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في خطبة له وردت في «نهج البلاغة» منها: «إنّ أفضل ما توسل به المتوسلين إلى الله سبحانه وتعالى الإيمان به وبرسوله والجهد في سبيله فإنّه ذروة الإسلام وكلمة الإخلاص فإنّها الفطرة، وإقامة الصلاة فإنّها الملة^(١)، وإيتاء الزكاة فإنّها فريضة واجبة، وصوم شهر رمضان فإنه جنة من العقاب، وحج البيت واعتماره فإنهما ينفيان الفقر، ويرحضان^(٢) الذنوب، وصلوة الرحم فإنّها مثراء^(٣) في المال ومنسأة^(٤) في الأجل وصدقة السرّ فإنّها تكفر الخطيئة، وصدقة العلانية فإنّها تدفع ميتة السوء، وصنائع المعروف فإنّها تقي مصارع الهوان...»^(٥).

كما أن شفاعة الأنبياء والأئمة والأولياء الصالحين تقرب - أيضاً - إلى الله وفق ما نصر عليه القرآن الكريم، وهي داخلة في المفهوم الواسع لكلمة «الوسيلة» - وكذلك إتباع النبي والإمام والسير على نهجهما، كل ذلك يوجب التقرب إلى الساحة الإلهية المقدسة. وحتى عندما تقسم على الله بمقام الأنبياء والأئمة والصالحين فإنه يدلّ على حبنا لهم والاهتمام بالدين الذي دعوا إليه، هذا

١- الملة = شريعة الإسلام.

٢- يرحضان = يطهران أو يغلان.

٣- مثراء = مكثرة.

٤- منسأة = مطيلة.

٥- نهج البلاغة، الخطبة ١١٠.

القسم يعتبر - أيضاً - واحداً من المعاني الداخلة في المفهوم الواسع لكلمة «الوسيلة».

والذين خصصوا هذه الآية وقيدوها ببعض هذه المفاهيم لا يمتلكون في الحقيقة أي دليل على هذا التخصيص، لأن كلمة «الوسيلة» تطلق في اللغة على كل شيء يؤدي إلى التقرب.

والجدير بالذكر هنا هو أن المراد من التوسل لا يعني - أبداً - طلب شيء من شخص النبي أو الإمام، بل معناه أن يبادر الإنسان المؤمن - عن طريق الأعمال الصالحة والسير على نهج النبي والإمام - بطلب الشفاعة منهم إلى الله، أو أن يقسم بجاههم وبيدئهم (وهذا يعتبر نوعاً من الإحترام لمنزلتهم وهو نوع من العبادة) ويطلب من الله بذلك حاجته، وليس في هذا المعنى أي أثر للشرك، كما لا يخالف الآيات القرآنية الأخرى، ولا يخرج عن عموم الآية الأخيرة موضوع البحث «فتدبر».

التوسل في القرآن:

هناك آيات قرآنية أخرى تدل بوضوح على أن التوسل بمقام إنسان صالح عند الله، وطلب شيء من الله عن طريق التوسل بجاه هذا الإنسان عند الله، لا يعتبر أمراً محظوراً ولا ينافي التوحيد.

فنحن نقرأ في الآية (٦٤) من سورة النساء قوله تعالى: «ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً». كما نقرأ في الآية (٩٧) من سورة يوسف، إن أخوة يوسف طلبوا من أبيهم أن يستغفر لهم الله، فقبل يعقوب هذا الطلب ونفذه.

والآية (١١٤) من سورة التوبة تشير إلى موضوع استغفار إبراهيم لأبيه، وهذا دليل على تأثير دعاء الأنبياء في حق الآخرين.

وقد ورد هذا الموضوع في آيات قرآنية أخرى أيضاً.

التوسل في الروايات الإسلامية:

إن الروايات العديدة التي وردت عن طرق الشيعة والسنة تفيد بوضوح أن التوسل بالمعنى الذي عرضناه لا ريب ولا شبهة فيه، بل أنه يعد عملاً جيداً أيضاً، وهذه الروايات كثيرة وقد نقلتها كتب عديدة، ونحن نورد بعضاً منها مما ورد في مصادر جمهور السنة على سبيل المثال لا الحصر.

١- جاء في كتاب «وفاء الوفا» لمؤلفه العالم السنّي المشهور «السهودي» إن طلب العون والشفاعة من النبي ﷺ أو التوسل إلى الله بجاه النبي وشخصه جائز قبل أن يولد ﷺ وبعد ولادته ووفاته وفي عالم البرزخ وفي يوم القيامة، ثم ينقل «السهودي» في هذا المجال عن عمر بن الخطاب الرواية المعروفة التي تتحدث عن توسل آدم ﷺ إلى الله بنبي الإسلام محمد ﷺ وذلك لعلم آدم بأن هذا النبي سيأتي إلى الوجود في المستقبل، ولعلمه بالمنزلة العظيمة التي يحظى بها عند الله، فيقول آدم: «ربّ إني أسألك بحق محمد لما غفرت لي»^(١).

ثم ينقل «السهودي» حديثاً آخر عن جماعة من رواة الحديث كالنسائي والترمذي، وهما عالمان مشهوران من أهل السنة، كدليل على جواز التوسل بالنبي ﷺ في حياته وخلاصة هذا الحديث إن رجلاً بصيراً طلب من النبي أن يدعو له بشفاء مريضه، فأمره النبي ﷺ بتلاوة هذا الدعاء: «اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة يا محمد إني توجّهت بك إلى ربي في حاجتي لتقضي لي، اللهم شفعه في»^(٢).

١- وفاء الوفاء، ج ٣، ص ١٣٧١، في كتاب «التوصل إلى حقيقة التوسل» نقل الحديث المذكور أعلاه كواحد من دلائل النبوة، ص ٢١٥.

٢- كتاب (وفاء الوفاء)، ص ١٣٧٢.

وبعد هذا الحديث ينقل «السمهودي» حديثاً ثالثاً في جواز التوسل بالنبي ﷺ بعد وفاته، فيذكر أن صاحب حاجة جاء في زمن عثمان إلى قبر النبي ﷺ، فجلس بجوار القبر ودعا الله بهذا الدعاء: «اللهم إني أسألك وأتوجه إليك نبياً محمداً ﷺ نبي الرحمة، يا محمداً إني أتوجه بك إلى ربك أن تقضي حاجتي».

ثم يضيف «السمهودي» إنه لم تمض فترة حتى فضيت حاجة الرجل^(١).

٢- أما صاحب كتاب «التوصل إلى حقيقة التوسل» الذي يعارض بشدة موضوع التوسل فهو ينقل (٢٦) حديثاً من كتب ومصادر مختلفة ينعكس منها جواز التوسل، ومع أنه سعى في أن يطعن بإسناد تلك الأحاديث، إلا أن الواضح هو أنه متى ما كانت الروايات كثيرة - في موضوع معين لدرجة التواتر - لا يبقى عند ذلك مجال للطعن، والتجريح في سند الحديث، والروايات التي وردت في المصادر الإسلامية بشأن التوسل قد تجاوزت حد التواتر لكثرتها.

ومن هذه الأحاديث التي رواها صاحب الكتاب المذكور، الحديث التالي: نقل «ابن حجر المكي» صاحب كتاب «الصواعق» عن الإمام «الشافعي»، وهو أحد أئمة السنة الأربعة المشهورين، أنه كان يتوسل إلى أهل بيت النبي ويقول:

آل النبي ذريعتي وهم إليه وسيلتي
أرجو بهم أعطى غداً بيد اليمين صغيفتي^(٢)

وينقل صاحب كتاب «التوصل ...» أيضاً عن (البيهقي) أن الجفاف أصاب المسلمين في أحد الأعوام من عهد الخليفة الثاني، فذهب بلال ومعه عدد من الصحابة إلى قبر النبي ﷺ وقال: «يا رسول الله استسق لأمتك ... فيأتهم

١- وفاة الوفاء، ص ١٢٧٣.

٢- كتاب «التوصل ...»، ص ٣٢٩.

قد هلكوا...»^(١).

ونقل أيضاً عن «ابن حجر» من كتاب «الخيارات الحسان» أن الإمام الشافعي كان أثناء وجوده في بغداد يزور أبا حنيفة ويتوسل إليه في حوائجه^(٢).
ومن صحيح «الدارمي» ينقل صاحب كتاب «التوصل...» أيضاً، أن بعض الصحابة في المدينة اشتكوا إلى عائشة ما يعانونه من الجفاف الشديد الذي أصاب البلدة في أحد الأعوام، فأشارت عليهم أن يفتحوا فجوة في سقف المسجد على قبر النبي ﷺ حتى ينزل الله المطر ببركة قبر النبي ﷺ ففعلوا ذلك ونزل مطر غزيراً!

ونقل «الألوسي» في تفسيره الكثير من الأحاديث والروايات الشبيهة بالأحاديث المارة الذكر، ولكنه بعد إجراء تحليل ونقاش طويل حولها حتى أنه تشدد في نقدها اضطر إلى الإذعان بها، فذكر أنه بعد البحث الذي أجراه لا يرى مانعاً من التوسل إلى الله بمقام النبي ﷺ سواء في حياته أو بعد وفاته، ثم أطال البحث في هذا المجال، وقال بأن التوسل إلى الله بمقام غير النبي لا مانع فيه - أيضاً - شريطة أن يكون المتوسل به صاحب منزلة عند الله^(٣).

أما مصادر الشيعة فقد تناولت هذا الموضوع بشكل واضح، لا نرى معه أي حاجة إلى نقل الأحاديث الواردة بهذا الصدد.

* * *

ملاحظات ضرورية:

نرى من الضروري - هنا - الإشارة إلى عدّة أمور:

١- كتاب التوصل... ص ٢٥٣.

٢- كتاب التوصل... ص ٣٣١.

٣- روح المعاني، (ج ٤-٦)، ص ١١٤-١١٥.

١ - لقد أسلفنا القول بأن التوسل ليس معناه طلب الحاجة من النبي أو الإمام، بل المراد منه جعل النبي أو الإمام شفيعاً إلى الله في قضاء الحاجة، وهذا الأمر - في الحقيقة - توجه إلى الله، لأن احترام النبي ﷺ إنما هو من أجل أنه رسول الله والساتر على هداه، والعجب هنا أن يدعي البعض أن هذا التوسل نوع من الشرك، في حين أن المعروف عن الشرك هو القول بوجود من يشارك الله سبحانه في صفاته وأعماله، والتوسل الذي تحدثنا عنه لا صلة له مطلقاً ولا تشابه مع الشرك.

٢ - يصرّ البعض وجود الفرق بين حياة النبي ﷺ والأئمة المعصومين عليهم السلام وبين وفاتهم، وكما رأيت فإن الكثير من الأحاديث السالفة كان يخص ما بعد وفاة النبي ﷺ، بالإضافة إلى ذلك فإن الفرد المسلم يعتقد بأن للنبي والصالحين بعد وفاتهم حياة برزخية أوسع من الحياة الدنيا، وقد صرح القرآن في هذا المجال بخصوص حياة الشهداء، حيث أكد أنهم ليسوا أمواتاً بل أحياء عند ربهم^(١)....

٣ - وأصرّ آخرون على أن هناك فرقاً بين طلب الدعاء من النبي ﷺ وبين القسم على الله بجاه النبي، فهؤلاء يجيزون طلب الدعاء ولا يجيزون ما سواه، في حين لا يوجد بين هذين الأمرين أي فرق منطقي.

٤ - يسمى البعض من كتاب وعلماء السنة وبالأخص «الوهابيون» منهم، وبعناد خاص، إلى الإدعاء بضعف جميع الأحاديث الواردة في موضوع التوسل، أو تجاهلها بشتى الحجج الواهية.

وهؤلاء يبحثون هذا الموضوع بأسلوب خاص يظهر من خلاله لكل ناظر محايد أنهم اختاروا في البداية هذا الاعتقاد لأنفسهم، ثم يحاولون - بعد ذلك - فرضه على الروايات الإسلامية ويعمدون بشكل من الأشكال إلى إزاحة كل من يخالف معتقدهم هذا عن طريقهم، وهذا الأسلوب المشوب بالعصبية ومجافاة

المنطق لا يقبل به أي باحث منصف مطلقاً.

٥ - لقد بينّا أنّ أحاديث التوسل قد وصلت بكثرتها إلى حد التواتر، أي أنّها لو فرتها تغني الباحث عن التحقيق في أسانيدها، إضافة إلى ذلك فإنّ من بين هذه الأحاديث الكثير من الروايات والأحاديث الصحيحة، فلا يبقى بذلك لمن يريد الاعتراض على بعض الأسانيد أي مجال.

٦ - ويتبيّن ممّا قلناه سابقاً أنّ لا تناقض بين الروايات التي وردت في تفسير الآية الأخيرة تلك التي تقول بأنّ النبي دعا الناس إلى أن يطلبوا له الوسيلة من الله، أو ما جاء عن الإمام علي عليه السلام في كتاب «الكافي» من أنّه قال: بأنّ (الوسيلة) هي أرفع وأسمى منزلة في الجنّة فلا ينافي ما ذكرناه نحن في تفسير الآية، لأنّ الوسيلة - كما أوضحنا - تشمل كل أنواع التقرب إلى الله، وإنّ تقرب النبي عليه السلام إلى الله، وكذلك ما قيل عن أرفع منزلة في الجنّة، هما من مصاديق الوسيلة.



الآيتان

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ هُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ
لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَهُمْ عَذَابٌ
أَلِيمٌ ﴿٦٦﴾ يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوكَ مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِمُخْرِجِينَ مِنْهَا
وَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٧﴾

التفسير

تعقيباً على الآية السابقة التي كلّفت المؤمنين بالتقوى والجهاد وإعداد
الوسيلة، جاءت الآيتان الأخيرتان وهما تشيران إلى مصير الكافرين، وتؤكدان
أنهم مهما بذلوا - حتى لو كان كل ما في الأرض أو ضعفه - في سبيل إنقاذ أنفسهم
من عذاب يوم القيامة، فلن يقبل منهم ذلك - وأنهم سينالون العذاب الشديد،
فتقول الآية الكريمة في هذا المجال: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ هُمْ مَا فِي الْأَرْضِ
جَمِيعاً مِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَهُمْ عَذَابٌ
أَلِيمٌ».

وقدر وردت بنفس المضمون آية أخرى وهي الآية (٤٧) من سورة الرعد.
ويبين هذا الأسلوب القرآني أقصى درجات التأكيد فيما يخص العقوبات
الإلهية التي لا يمكن - مطلقاً - التخلص منها بأي ثروة أو قدرة مهما بلغت، وحتى

لو شملت جميع ما في الأرض أو ضعف ذلك، وإن طريق الخلاص الوحيد يكمن - فقط - في اتباع التقوى والجهاد في سبيل الله والقيام بالأعمال الصالحة. بعد ذلك تشير الآية التالية إلى استمرار عذاب الله، وتوضح أن الكافرين مهما سعوا للخروج من نار جهنم فلن يقدرُوا على ذلك، وإنَّ عذابهم ثابت وبقا لا يتغير، كما تقول الآية: «يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها ولهم عذاب مقيم».

وسنوافيكم بتفاصيل أكثر عن العقوبة الدائمة الأبدية، وعن خلود الكفار في نار جهنم، لدى تفسير الآية (١٠٨) من سورة هود، بإذن الله.

* * *

الآيات

وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً
مَنْ اللَّهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ
فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ
مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ
وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٠﴾

التفسير

عقوبة السرقة:

لقد بيّنت آيات سابقة عقاب وحكم «المحارب» الذي يتعرض لأرواح
وأموال ونواميس الناس عن طريق التهديد بالسلاح، أما الآيات الثلاث الأخيرة
فهي تبين حكم السارق والسارقة أي الفرد الذي يسرق خلسة أموال وممتلكات
الناس، فتقول الآية أولاً: «وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا ...».

وقد قدمت هذه الآية الرجل السارق على المرأة السارقة، بينما الآية التي
ذكرت حد وعقوبة الزنا قد قدمت المرأة الزانية على الرجل الزاني، ولعل هذا
التفاوت ناشيء عن حقيقة أن السرقة غالباً ما تصدر عن الرجال، بينما النساء
الخليعات المستهترات يشكّلن في الغالب العامل والعنصر المحفز للزنا!

بعد ذلك تبين الآية أن العقوبة المذكورة هي جزاء من الله لجريمة السرقة المرتكبة من قبل الرجل أو المرأة، حيث تقول: «جزاء بما كسبا نكالا من الله...». والحقيقة هي أن هذه الجملة القرآنية تشير.

أولاً: إلى أن العقوبة المذكورة نتيجة لعمل الشخص السارق أو السارقة وأنها شيء اكتسبه هو أو هي لنفسها.

وثانياً: إلى أن الهدف من تنفيذ هذه العقوبة هو وقاية المجتمع وتحقيق الحق والعدل فيه لأن كلمة «نكال» تعني العقوبة التي تنفذ لتحقيق الوقاية وترك المعصية، وهذه الكلمة تعني في الأصل «اللجام» وتطلق أيضاً على كل عمل يحول دون حصول الانحراف.

ولكي لا يتوهم الناس وجود الإجحاف في هذه العقوبة، تؤكد الآية - في آخرها - على أن الله عزيز، أي قادر على كل شيء، فلا حاجة له للإنتقام من الأفراد، وهو حكيم - أيضاً - ولا يمكن أن يعاقب الأفراد دون وجود مبرر أو حساب لذلك، حيث تقول الآية: «والله عزيز حكيم».

أما الآية الثانية فهي تفتح لمن ارتكب هذه المعصية باب العودة والتوبة، فنقول: «من تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه إن الله غفور رحيم».

والسؤال الوارد هنا هو: هل أن التوبة وحدها تكفي لغفران الذنب فقط، أم أنها تسقط عنه حد أو عقوبة السرقة أيضاً؟

إن المعروف لدى فقهاء الشيعة أن مرتكب السرقة إن تاب قبل أن تشتب سرقته في محكمة إسلامية يسقط عنه حد السرقة أيضاً، أما إذا شهد عادلان على سرقته فإن التوبة لا تسقط عنه الحد.

والحقيقة هي أن التوبة - في هذه الحالة التي تطرقت لها الآية - هي تلك التي تتم قبل ثبوت الجرم في المحكمة، ولولا ذلك لتظاهر كل سارق بالتوبة لدى

ثبوت الجرم عليه، بغية إنقاذ نفسه من الحدّ أو العقوبة، فلا يبقى - والحالة هذه - ميرر لإجراء الحدّ عليه بعد التوبة!

وبعبارة أخرى: إنّ التوبة الإختيارية هي تلك التي تتمّ قبل أن يثبت الجرم في المحكمة بينما التوبة الإضطرارية هي التوبة التي تصدر من الإنسان العاصي لدى مشاهدته العذاب الإلهي، أو لدى بلوغه حالة الإحتضار، ومثل هذه التوبة لا قيمة لها مطلقاً.

ثمّ توجه الآية الأخرى الخطاب إلى النبي ﷺ فتقول: «ألم تعلم أنّ الله له ملك السموات والأرض يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء والله على كل شيء قدير».

ويجدر الإلتباه هنا إلى عدّة نقاط، وهي:

أ - شروط معاقبة السارق:

لقد بيّن القرآن الكريم في الآيات الأخيرة التي تطرقت لحكم السرقة أساس للقضية، على عاداته بالنسبة لسائر الأحكام، وقد ترك التفصيل في ذلك إلى النبي ﷺ.

والذي يستدل من مجموع الروايات الإسلامية هو أن تنفيذ هذا الحد الإسلامي (أي قطع اليد) مقيد بشروط كثيرة، لا يجوز - بدون تحققها - المباشرة بإجراء الحدّ، ومن هذه الشروط.

١ - أن يكون الحدّ الأدنى لثمن الشيء المسروق مبلغ ربع دينار^(١).

٢ - أن تتمّ السرقة من مكان محفوظ، أي أن تكون من دار أو محل للكسب أو من جيوب ومخابىء داخلية.

٣ - أن لا تكون السرقة في زمن الجفاف أو المجاعة التي يعاني الناس فيها

١ - الدينار الوارد في هذا الحكم يبلغ متقلاً شرعياً من الذهب المسكوك ويعادل ثمانية عشر حبة أي ثلاثة أرباع المتقال المتعارف.

من الجوع لعدم حصولهم على المواد الغذائية.

٤ - أن يكون السارق - أثناء ارتكابه لجريمة السرقة - بالغاً عاقلاً حر

الإرادة.

٥ - لا يطبق حدّ السرقة في حالة سرقة الأب من مال ولده، أو الشريك من

مال شريكه المخصوص بالشركة.

٦ - وقد استثنيت الفاكهة المسروقة من البساتين من حدّ السرقة.

٧ - كما استثنيت من ذلك حالة اشتباه السارق بين ماله ومال غيره.

وهناك شروط أخرى تطرقت إليها كتب الفقه في باب السرقة.

ويجب هنا التأكيد على أنّ السرقة حرام سواء تحققت الشروط المذكورة

أعلاه فيها أو لم تتحقق، وأما هذه الشروط فهي مختصة بموضوع الحدّ والعقوبة

الخاصة بالسرقة.

والسرقة بأي شكل حصلت، ومهما كان مبلغ وثمان الشيء المسروق، حرام

في الإسلام.

ب - المقدار الذي يجب قطعه من يد السارق:

لقد اشتهر لدى فقهاء الشيعة - استناداً على روايات أهل البيت عليهم السلام - أنّ حدّ

السرقة يتحقق بقطع أربع من أصابع يد السارق اليمنى فقط دون زيادة، بينما قال

فقهاء السنّة بأكثر من ذلك.

ج - حدّ السرقة وأقويل اعداء الإسلام:

كثيراً ما كرر أعداء الإسلام أو حتى بعض المسلمين من الذين يجهلون

أسرار التشريع الإسلامي، أنّ هذه العقوبة الإسلامية تتسم بالعنف الشديد، وأنها

لو نفذت في عصرنا الحاضر للزم أن تقطع أيدي الكثير من الناس، وإن هذا

سيؤدي بالإضافة إلى حرمان أفراد من أحد أعضاء جسمهم الحساسة سيؤدي إلى فضيحة الفرد طيلة حياته بسبب الأثر البارز الذي يخلفه حد السرقة مدى العمر.

ولردّ على هذا الاعتراض يجب الإنتباه إلى الحقيقة التالية:

أولاً: لقد بيّنا فيما سبق أن حكم السرقة - وفق الشروط التي ذكرناها - لا يشمل كل سارق، فهذا الحكم يشمل فقط تلك المجموعة من السراق الذين يشكلون خطراً على المجتمع.

ثانياً: إن احتمال تنفيذ عقوبة السرقة يقل نظراً للشروط الخاصة التي يجب توفرها حتى تثبت الجريمة على المتهم بالسرقة.

ثانياً: إن أكثر الاعتراضات التي يوردها الأفراد الذين يجهلون أو الذين لا يعرفون الكثير عن القوانين الإسلامية، منشؤها النظرة الأحادية الجانب التي يرون ويبحثون بها الحكم الإسلامي بعيداً عن الأحكام الأخرى، أي أنهم يفترضون هذا الحكم في مجتمع بعيد كل البعد عن الإسلام.

فلو علمنا أن الإسلام ليس حكماً واحداً فقط، بل يشمل على مجموعة كبيرة من الأحكام لو طبقت في مجتمع معين لأدت إلى تحقيق العدالة الإجتماعية ومكافحة الفقر والجهل، ولأدت إلى تحقيق التعليم والتربية الصحيحين، ولنشرت الوعي والورع والتقوى بين الناس، وبهذا يتضح لنا ندرة احتمال بروز حوادث تحتاج إلى تطبيق هذا الحكم أو العقوبة الإسلامية.

ويجب أن لا يجرنا هذا القول إلى الوهم بأن هذا الحكم الإسلامي لا يجب تطبيقه في المجتمعات المعاصرة، بل المراد من قولنا هذا هو أن تؤخذ كل الشروط المذكورة بنظر الاعتبار اثناء إصدار الحكم في هذا المجال.

وخلاصة القول: إن الحكومة الإسلامية مكلفة بأن توفر لكل أفراد الأمة احتياجاتها الأولية وأن توفر لهم التعليم اللازم، وتربي فيهم الملكات والخصال

الفاضلة الخيرة، وتحسن إعدادهم من الناحية الأخلاقية، وطبيعي أنه إذا حصل هذا الأمر فلا يظهر في محيط كهذا إلا القليل النادر ممن يرتكبون مخالفة أو جريمة.

رابعاً: إن ما نلاحظه اليوم من ارتفاع في عدد السرقات ناجم عن عدم تطبيق هذا الحكم الإسلامي، بينما يندر في البيئات التي تطبق هذا الحكم بروز مثل هذه الحوادث، فهي تتمتع بوضع أمني جيد فيما يخص حماية أموال الناس، فزوار بيت الله الحرام كثيراً ما تركوا حقائبهم في الأزقة والطرق دون عين تحرسها فلم يجرؤ أحد على مديده إليها إلى أن يأتي موظفو إدارة المفقودات ويحملوها إلى الإدارة حتى يأتي صاحبها ويستردها بعد ذكر العلامات الخاصة، وأغلب المحلات تفتقد إلى الأبواب والأوصدة الكافية، وفي هذا الحال لا تمتد يد سارق تحوها. أو يكونوا فقدوا شيئاً ثم راجعوا لذلك إدارة المفقودات فوجده عندها.

والأمر الملفت للنظر هو أن هذا الحكم الإسلامي وعلى الرغم من تطبيقه لعدة قرون، حيث كان المسلمون ومنذ عصر صدر الإسلام يعيشون آمنين مطمئنين في ظله، فهو لم ينفذ طيلة تلك الفترة إلا بحق عدد قليل من الأفراد.

فهل يعتبر قطع عدد من الأيدي الآثمة لكي ينعم المجتمع لقرون عديدة بالأمن ثمناً غالياً لهذا الأمن!؟

د- اعتراضات أخرى:

يقول البعض: إن تنفيذ حد أو عقوبة السرقة في سارق من أجل ربع دينار يعتبر منافياً للإحترام الفائق الذي يفرضه الإسلام لحياة الإنسان المسلم وحمايتها من كل خطر، بحيث أن الإسلام فرض دية باهظة مقابل قطع أربعة أصابع من يد أي إنسان، وقد ذكرت بعض كتب التاريخ بأن هذا السؤال وجهه البعض إلى العالم الإسلامي الكبير الشريف المرتضى علم الهدى قبل حوالي ألف

سنة، وجاء السؤال في البيت التالي:-

- يد بخمس مئتين عسجد وديت ما بالها قطعت في ربع دينار؟^(١)
فأجاب السيد المرتضى رحمة الله ببيت آخر هو:
عزّ الأمانة أغلاها وأرخصها ذل الحيانة قانهم حكمة الباري^(٢)

* * *



١- يجب الإنتباه إلى أن الخمسمائة دينار إنما تدفع دية قطع خمسة أصابع، وقد أسلفنا أن المذهب الشيعي يرى عقوبة السارق في قطع أربعة أصابع من اليد.
٢- ذكر هذه الحادثة (الألوسي) في تفسيره، ج ٣، ص ٦، لكنّه ذكر اسم (علم الدين السخاوي) بدل اسم (علم الهدى).

فهرس الموضوعات

٥	تفسير الآيات: ١٧٢ - ١٧٤
٥	غزوة حمرأ الأسد
٨	التربية الإلهية وعطاؤها السريع
٩	تفسير الآية: ١٧٥
١١	تفسير الآيتان: ١٧٦ - ١٧٧
١١	تسليية النبي ﷺ
١٣	تفسير الآية: ١٧٨
١٣	المنقلون بأوازرهم:
١٥	جواب على سؤال:
١٦	لفتة أدبية:
١٨	تفسير الآية: ١٧٩
١٨	المسلمون في بوتقة الإختبار والفرز:
٢١	تفسير الآية: ١٨٠
٢١	طوق الأسر الثقيل:
٢٤	تفسير الآيتان: ١٨١ - ١٨٢
٢٤	سبب النزول
٢٩	تفسير الآيتان: ١٨٣ - ١٨٤
٢٩	سبب النزول

- ٢٩..... مقالات اليهود وتعللاتهم
- ٢٣..... تفسير الآية: ١٨٥
- ٢٣..... الموت وقانونه العام
- ٣٦..... تفسير الآية: ١٨٦
- ٣٦..... سبب النزول
- ٢٧..... لا تتعبكم المقاومة:
- ٣٩..... تفسير الآية: ١٨٧
- ٤٠..... العلماء والوظيفة الكبرى
- ٤٢..... تفسير الآيات: ١٨٨ - ١٨٩
- ٤٢..... سبب النزول
- ٤٣..... المعجبون بأنفسهم
- ٤٥..... تفسير الآيات: ١٩٠ - ١٩٤
- ٤٥..... أهمية هذه الآيات:
- ٤٧..... أوضح السبل لمعرفة الله:
- ٥٣..... تفسير الآية: ١٩٥
- ٥٣..... سبب النزول
- ٥٤..... النتيجة الطيبة لموقف أولي الألباب:
- ٥٥..... القيمة المعنوية للرجل والمرأة:
- ٥٨..... تفسير الآيات: ١٩٦ - ١٩٨
- ٥٨..... سبب النزول
- ٥٩..... سؤال مزعج:
- ٦١..... معرفة نقاط الضعف والقوة معاً:
- ٦٤..... تفسير الآية: ١٩٩
- ٦٤..... سبب النزول

٧٠٥ فهرس الموضوعات
٦٥ أهل الكتاب ليسوا سواء:
٦٧ تفسير الآية: ٢٠٠
٦٩ سؤال
٧٠ جواب

سورة النساء

٧٥ ١- موضع نزول هذه السورة
٧٦ ٢- محتويات هذه السورة:
٧٧ ٣- فضل تلاوة هذه السورة
٧٨ تفسير الآية: ١
٧٨ مكافحة التمييزات والإستثناءات:
٨٠ كيف كان زواج أبناء آدم؟:
٨١ الدّعوة إلى العناية بالرحم:
٨٤ تفسير الآية: ٢
٨٤ سبب النزول
٨٤ لا ... للخيانة في أموال اليتامى:
٨٥ ماذا يعني الحوب؟:
٨٧ تفسير الآية: ٣
٨٧ سبب النزول
٨٩ «متى» و«ثلاث» و«رباع»:
٩٠ ما هو المقصود من العدل بين الزوجات؟:
٩٢ تعدد الزوجات ضرورة إجتماعية:
١٠٠ تفسير الآية: ٤
١٠١ الصّدق دعامة إجتماعية للمرأة:

- ١٠٥..... تفسير الآيات: ٥ - ٦
- ١٠٥..... من هو السفية؟
- ١٠٨..... أموالكم فوام لكم:
- ١٠٩..... تعليمان في شأن اليتامى:
- ١١٠..... تعليم آخر في شأن اليتامى وأموالهم:
- ١١٣..... تفسير الآية: ٧
- ١١٣..... سبب النزول
- ١١٤..... خطوة أخرى لحفظ حقوق المرأة:
- ١١٦..... تفسير الآية: ٨
- ١١٦..... حكم أخلاقي:
- ١١٨..... تفسير الآية: ٩
- ١١٨..... دعوة إلى العطف على اليتامى:
- ١١٩..... إيضاح ضروري:
- ١٢١..... تفسير الآية: ١٠
- ١٢١..... الوجه الحقيقي لأفعال البئر:
- ١٢٤..... تفسير الآيات: ١١ - ١٢
- ١٢٥..... سبب النزول
- ١٢٥..... الإرث حق طبيعي:
- ١٢٧..... الإرث في الأمم السابقة:
- ١٢٩..... وها هنا سؤال:
- ١٣٠..... الجواب:
- ١٣٠..... لماذا يرث الرجل ضعف المرأة؟:
- ١٣٢..... إرث الأب والأم:
- ١٣٤..... الإرث بعد الوصية والدين:

- ١٣٥ سهم الأزواج بعضهم من بعض:
- ١٣٦ إرث أخوة الميت وأخواته:
- ١٣٧ عودة إلى تفسير الآية:
- ١٣٨ بحوث أخرى عند هذه الآية:
- ١٤٠ تفسير الآيتان: ١٣ - ١٤
- ١٤٢ ميزات قانون الإرث الإسلامي:
- ١٤٤ ما هو العول، وما هو التصيب؟:
- ١٤٧ تفسير الآيات: ١٥ - ١٦
- ١٥١ المقوبات الإسلامية السهل الممتنع:
- ١٥٣ تفسير الآيتان: ١٧ - ١٨
- ١٥٣ شرائط قبول التوبة:
- ١٥٩ تفسير الآية: ١٩
- ١٥٩ سبب النزول
- ١٦٠ الدفاع عن حقوق المرأة أيضاً:
- ١٦٢ تفسير الآيتان: ٢٠ - ٢١
- ١٦٢ سبب النزول
- ١٦٦ تفسير الآية: ٢٢
- ١٦٦ سبب النزول
- ١٦٩ تفسير الآية: ٢٣
- ١٦٩ تحريم الزواج بالمحارم:
- ١٧٥ تفسير الآية: ٢٤
- ١٧٨ الزواج المؤقت في الإسلام:
- ١٨٠ هل نسخ هذا الحكم؟:
- ١٨٤ الزواج المؤقت ضرورة إجتماعية:

- ١٨٦..... مؤاخذات على الزواج المؤقت:
- ١٨٨..... «راسل» والزواج المؤقت:
- ١٩١..... تفسير الآية: ٢٥
- ١٩١..... التزوج بالإماء:
- ١٩٧..... تفسير الآيات: ٢٦ - ٢٨
- ١٩٧..... هذه القيود لماذا؟:
- ٢٠٠..... تفسير الآيات: ٢٩ - ٣٠
- ٢٠٠..... سلامة المجتمع ترتبط بسلامة الإقتصاد:
- ٢٠٤..... تفسير الآية: ٣١
- ٢٠٤..... المعاصي الكبيرة والصغيرة:
- ٢٠٦..... متى تنقلب الصغيرة إلى كبيرة؟:
- ٢٠٨..... تفسير الآية: ٣٢
- ٢٠٨..... سبب النزول
- ٢١١..... التفاوت الطبيعي بين الناس لماذا؟:
- ٢١٤..... تفسير الآية: ٣٣
- ٢١٦..... تفسير الآية: ٣٤
- ٢١٦..... القوامة في النظام العائلي:
- ٢١٩..... النساء المقصرات الناشزات
- ٢٢٢..... تفسير الآية: ٣٥
- ٢٢٢..... محكمة الصلح العائلية:
- ٢٢٦..... تفسير الآية: ٣٦
- ٢٢٦..... ١- واعبدوا الله ولا تشرکوا به شيئاً.....
- ٢٢٧..... ٢- وبالوالدين إحساناً.....
- ٢٢٧..... ٣- وبذي القربى.....

٧٠٩.....	فهرس الموضوعات
٢٢٨.....	٤- واليتامى.....
٢٢٨.....	٥- والمساكين.....
٢٢٨.....	٦- والجار ذي القربى.....
٢٢٩.....	٧- والجار الجنب.....
٢٣٠.....	٨- والصاحب بالجنب.....
٢٣١.....	٩- وابن السبيل.....
٢٣١.....	١٠- وما ملكت أيما نكم.....
٢٣٣.....	تفسير الآيات: ٣٧ - ٣٩.....
٢٣٣.....	الإِنْفَاقِ رِيَاءً وَالإِنْفَاقِ قَرِيبَةً:
٢٣٧.....	تفسير الآية: ٤٠.....
٢٣٧.....	التفسير.....
٢٣٧.....	ما هي «الذرة»؟:.....
٢٣٩.....	تفسير الآيتان: ٤١ - ٤٢.....
٢٣٩.....	شهود يوم القيامة:.....
٢٤٣.....	تفسير الآية: ٤٣.....
٢٤٣.....	بعض الأحكام الفقهية:.....
٢٤٧.....	بحوث عند الآية:.....
٢٤٨.....	فلسفة التيمم:.....
٢٥١.....	تفسير الآيتان: ٤٤ - ٤٥.....
٢٥٣.....	تفسير الآية: ٤٦.....
٢٥٣.....	جانب آخر من أعمال اليهود:.....
٢٥٦.....	تفسير الآية: ٤٧.....
٢٥٦.....	مصير المعاندين:.....

٢٥٩	تفسير الآية: ٤٨
٢٥٩	أرجى آيات القرآن:
٢٦١	أسباب مففرة الذنوب:
٢٦٣	تفسير الآيتان: ٤٩ - ٥٠
٢٦٣	سبب النزول
٢٦٣	تزكية النفس:
٢٦٧	تفسير الآيتان: ٥١ - ٥٢
٢٦٧	سبب النزول
٢٦٨	المداهنون:
٢٦٩	الجبت والطاغوت:
٢٧١	تفسير الآيات: ٥٣ - ٥٥
٢٧٤	دور الحمد في الجرائم:
٢٧٦	تفسير الآيتان: ٥٦ - ٥٧
٢٧٧	بحث عن الآية:
٢٨٠	تفسير الآية: ٥٨
٢٨٠	سبب النزول
٢٨١	قانونان إسلاميان مهمان:
٢٨٣	أهمية الأمانة والعدل في الإسلام:
٢٨٥	تفسير الآية: ٥٩
٢٨٦	من هم أولوا الأمر؟
٢٩١	أجوبة على أسئلة:
٢٩٤	شهادة الأحاديث:
٢٩٦	تفسير الآية: ٦٠

٧١١.....	فهرس الموضوعات
٢٩٦.....	سبب النزول
٢٩٧.....	حكومة الطّاعوت:
٢٩٩.....	تفسیر الآيات: ٦١ - ٦٣
٢٩٩.....	نتائج حكم الطّاعوت:
٣٠٢.....	تفسیر الآیة: ٦٤
٣٠٦.....	تفسیر الآیة: ٦٥
٣٠٦.....	سبب النزول
٣٠٧.....	التّسليم أمام الحق:
٣١٠.....	تفسیر الآيات: ٦٦ - ٦٨
٣١٣.....	تفسیر الآيتان: ٦٩ - ٧٠
٣١٣.....	سبب النزول
٣١٤.....	رفقاء الجنّة:
٣١٧.....	تفسیر الآیة: ٧١
٣١٧.....	الحذر الدّائم:
٣٢٠.....	تفسیر الآيتان: ٧٢ - ٧٣
٣٢٢.....	تفسیر الآیة: ٧٤
٣٢٢.....	إعداد المؤمنین للجهاد:
٣٢٤.....	تفسیر الآیة: ٧٥
٣٢٤.....	الإستعانة بالمعاطف والمشاعر الإنسانیة:
٣٢٧.....	تفسیر الآیة: ٧٦
٣٢٩.....	تفسیر الآیة: ٧٧
٣٢٩.....	سبب النزول
٣٣٠.....	قوم بضاعتهم الكلام دون العمل:

- تفسير الآيتان: ٧٨ - ٧٩ ٣٣٤
- من أين تأتي الانتصارات والهزائم؟ ٣٣٦
- جواب على سؤال مهم: ٣٣٨
- تفسير الآيتان: ٨٠ - ٨١ ٣٤١
- سنة النبي ﷺ بمنزلة الوحي: ٣٤١
- تفسير الآية: ٨٢ ٣٤٥
- خلو القرآن من الاختلاف دليل حي على إعجازه: ٣٤٥
- تفسير الآية: ٨٣ ٣٤٨
- نشر الإشاعات: ٣٤٨
- أضرار إختلاق الإشاعة ونشرها: ٣٤٩
- تفسير الآية: ٨٤ ٣٥١
- سبب النزول ٣٥١
- كل انسان مسؤول عما كلف به: ٣٥٢
- معنى كلمتي «عسى» و«لعل» في كلام الله: ٣٥٢
- تفسير الآية: ٨٥ ٣٥٥
- عواقب التحريض على الخير أو الشر: ٣٥٥
- تفسير الآية: ٨٦ ٣٦٠
- دعوة إلى مقابلة الود بالود: ٣٦٠
- السلام، تحية الإسلام الكبرى: ٣٦١
- تفسير الآية: ٨٧ ٣٦٥
- تفسير الآية: ٨٨ ٣٦٧
- سبب النزول ٣٦٧
- تفسير الآية: ٨٩ ٣٧٠
- تفسير الآية: ٩٠ ٣٧٣

٧١٢ فهرس الموضوعات
٣٧٣ سبب النزول
٣٧٤ الترحيب باقتراح السلم:
٣٧٦ تفسير الآية: ٩١
٣٧٦ سبب النزول
٣٧٦ عقاب ذي الوجهين:
٣٧٩ تفسير الآية: ٩٢
٣٧٩ سبب النزول
٣٨٠ أحكام القتل الناتج عن الخطأ:
٣٨٥ تفسير الآية: ٩٣
٣٨٥ سبب النزول
٣٨٦ عقوبة القتل العمد:
٣٨٧ جريمة القتل العمد والعقاب الأبدي:
٣٩٠ ماهي أنواع القتل؟
٣٩٢ تفسير الآية: ٩٤
٣٩٢ سبب النزول
٣٩٤ الجهاد الإسلامي نفي من البعد المادي:
٣٩٦ تفسير الآيتان: ٩٥ - ٩٦
٣٩٨ نكات مهمة حول المجاهدين:
٣٩٩ الأهمية البالغة للجهاد:
٤٠٢ تفسير الآيات: ٩٧ - ٩٩
٤٠٢ سبب النزول
٤٠٤ نقاط يجب الالتفات إليها:
٤٠٤ ١ - استقلال الروح
٤٠٥ ٢ - ملك الموت أم ملائكة الموت

- ٤٠٦..... ٣- من هو المستضعف
- ٤٠٨..... تفسير الآية: ١٠٠
- ٤٠٨..... الهجرة حكم اسلامي بئاء:
- ٤٠٩..... الإسلام والهجرة:
- ٤١٤..... تفسير الآية: ١٠١
- ٤١٤..... صلاة المسافرين:
- ٤١٦..... سؤال:
- ٤١٦..... الجواب:
- ٤٢٠..... تفسير الآية: ١٠٢
- ٤٢٠..... سبب النزول
- ٤٢٢..... وهنا عدّة ملاحظات جديرة بالإتباء، هي:
- ٤٢٣..... كيفية صلاة الخوف:
- ٤٢٥..... تفسير الآية: ١٠٣
- ٤٢٥..... أهمية فريضة الصلاة:
- ٤٢٧..... سؤال:
- ٤٢٧..... الجواب:
- ٤٢٨..... تفسير الآية: ١٠٤
- ٤٢٨..... سبب النزول
- ٤٢٨..... قرع السلاح بسلاح يشابهه:
- ٤٣٢..... تفسير الآيات: ١٠٥ - ١٠٦
- ٤٣٢..... سبب النزول
- ٤٣٣..... منع الدّفاع عن الغائبين:
- ٤٣٦..... تفسير الآيات: ١٠٧ - ١٠٩
- ٤٣٩..... تفسير الآيات: ١١٠ - ١١٢

- ٤٤١ جريمة البهتان:
 ٤٤٣ تفسير الآية: ١١٣
 ٤٤٤ مصدر عصمة الأنبياء:
 ٤٤٧ تفسير الآية: ١١٤
 ٤٤٧ النجوى أو الهمس:
 ٤٥١ تفسير الآية: ١١٥
 ٤٥١ سبب النزول
 ٤٥٣ حجبة الإجماع:
 ٤٥٥ تفسير الآية: ١١٦
 ٤٥٥ الشُّرك ذنب لا يقترف:
 ٤٥٧ تفسير الآيات: ١١٧ - ١٢١
 ٤٥٧ مكاند الشَّيطان:
 ٤٦٢ تفسير الآية: ١٢٢
 ٤٦٤ تفسير الآيات: ١٢٣ - ١٢٤
 ٤٦٤ سبب النزول
 ٤٦٥ امتيازات حقيقة وأخرى زائفة:
 ٤٦٦ سؤال:
 ٤٦٦ الجواب:
 ٤٦٧ تفسير الآيات: ١٢٥ - ١٢٦
 ٤٦٨ ما هو معنى الخليل؟
 ٤٧١ تفسير الآية: ١٢٧
 ٤٧١ عود على حقوق المرأة:
 ٤٧٣ تفسير الآية: ١٢٨
 ٤٧٣ سبب النزول
 ٤٧٣ سبب النزول
 ٤٧٣ سبب النزول
 ٤٧٣ سبب النزول

- ٤٧٤ الصلح خير:
- ٤٧٦ تفسير الآيات: ١٢٩ - ١٣٠
- ٤٧٦ العدالة شرط في تعدد الزوجات:
- ٤٧٨ جواب على سؤال ضروري:
- ٤٨٠ تفسير الآيات: ١٣١ - ١٣٤
- ٤٨٤ تفسير الآية: ١٣٥
- ٤٨٤ العدالة الاجتماعية:
- ٤٨٨ تفسير الآية: ١٣٦
- ٤٨٨ سبب النزول
- ٤٩١ تفسير الآيات: ١٣٧ - ١٣٩
- ٤٩١ مصير المنافقين المعاندين:
- ٤٩٤ تفسير الآية: ١٤٠
- ٤٩٤ سبب النزول
- ٤٩٤ التهي عن المشاركة في مجالس يعصى الله فيها:
- ٤٩٥ إن الآية تخبرنا عن عدة أمور:
- ٤٩٧ تفسير الآية: ١٤١
- ٤٩٧ صفات المنافقين:
- ٥٠٠ تفسير الآيات: ١٤٢ - ١٤٣
- ٥٠٣ تفسير الآيات: ١٤٤ - ١٤٦
- ٥٠٦ تفسير الآية: ١٤٧
- ٥٠٦ العقاب الإلهي ليس دافعه الإنتقام:
- ٥٠٨ تفسير الآيات: ١٤٨ - ١٤٩
- ٥١٠ العفو عن المعتدي وأثره على نزعة العدوان:
- ٥١٢ تفسير الآيات: ١٥٠ - ١٥٢

- ٥١٢ لا تمميز بين الأنبياء:
- ٥١٣ التَّناسب بين الذَّنْب والعقاب:
- ٥١٦ تفسير الآيات: ١٥٣ - ١٥٤
- ٥١٦ سبب النزول
- ٥١٦ هدف اليهود من اختلاق الأعذار:
- ٥٢٠ تفسير الآيات: ١٥٥ - ١٥٨
- ٥٢٠ نماذج أُخرى من ممارسات اليهود العدوانية:
- ٥٢٢ أسطورة الصَّليب؟
- ٥٢٧ تفسير الآية: ١٥٩
- ٥٣١ تفسير الآيات: ١٦٠ - ١٦٢
- ٥٣١ مصير الصالحين والظالمين من اليهود:
- ٥٣٥ تفسير الآيات: ١٦٣ - ١٦٦
- ٥٤١ تفسير الآيات: ١٦٧ - ١٦٩
- ٥٤٣ تفسير الآية: ١٧٠
- ٥٤٥ تفسير الآية: ١٧١
- ٥٤٥ أسطورة التثليث الوهمية:
- ٥٤٩ عقيدة التثليث أكبر خرافة مسيحية:
- ٥٥٦ تفسير الآيات: ١٧٢ - ١٧٣
- ٥٥٦ سبب النزول
- ٥٥٧ المسيح هو عبدالله:
- ٥٦٠ تفسير الآيات: ١٧٤ - ١٧٥
- ٥٦٠ التور المبين:
- ٥٦٢ تفسير الآية: ١٧٦
- ٥٦٢ سبب النزول

سورة المائدة

٥٦٩ محتويات سورة المائدة
٥٧٠ تفسير الآية: ١
٥٧٠ الإلزام بالوفاء بالعهد والميثاق:
٥٧٧ تفسير الآية: ٢
٥٧٧ ثمانية احكام في آية واحدة:
٥٨٠ التعاون في أعمال الخير:
٥٨٢ تفسير الآية: ٣
٥٨٧ الإعتدال في تناول اللحوم:
٥٨٨ متى أكمل الله الدين للمسلمين:
٥٩٥ سؤال يفرض نفسه:
٥٩٥ الجواب:
٥٩٨ تفسير الآية: ٤
٥٩٨ سبب النزول
٥٩٩ الحلال من الصيد:
٦٠٢ تفسير الآية: ٥
٦٠٢ حكم طعام أهل الكتاب وحكم الزّواج بهم:
٦٠٧ حكم الزّواج بغير المسلمات:
٦١٠ تفسير الآية: ٦
٦١٠ تطهير الجسم والزّوج:
٦١٦ فلسفة الوضوء والتيمم:
٦١٧ فلسفة الفسل:
٦٢١ تفسير الآية: ٧
٦٢١ اليهود الرّبانية:

٦٢٤ تفسير الآيات: ٨ - ١٠

٦٢٤ دعوة مؤكدة إلى العدالة:

٦٢٦ العدل ركن إسلامي مهم:

٦٢٩ تفسير الآية: ١١

٦٣٢ تفسير الآية: ١٢

٦٣٦ تفسير الآية: ١٣

٦٣٨ الممارسات التحريفية لليهود:

٦٣٨ هل يجعل الله قلب الإنسان قاسياً؟

٦٤١ تفسير الآية: ١٤

٦٤١ العدا الأبدية:

٦٤٥ تفسير الآيات: ١٥ - ١٦

٦٤٩ تفسير الآية: ١٧

٦٤٩ كيف يمكن للمسيح أن يكون هو الله؟!

٦٥٣ تفسير الآية: ١٨

٦٥٦ تفسير الآية: ١٩

٦٥٩ تفسير الآيات: ٢٠ - ٢٦

٦٦٠ بنو إسرائيل والأرض المقدسة:

٦٦٩ تفسير الآيات: ٢٧ - ٢٩

٦٦٩ أول حادثة قتل على الأرض:

٦٧١ نقاط مهمة يجب الإنتباه لها:

٦٧٣ تفسير الآيات: ٣٠ - ٣١

٦٧٣ التستر على الجريمة:

٦٧٧ تفسير الآية: ٣٢

٦٧٧ وحدة الإنسانية وكرامتها:

- ٦٨١..... تفسير الآيتان: ٣٣ - ٣٤
- ٦٨١..... سبب النزول
- ٦٨٢..... جزاء مرتكب العدوان:
- ٦٨٦..... تفسير الآية: ٣٥
- ٦٨٦..... حقيقة التوسل إلى الله:
- ٦٨٨..... التوسل في القرآن:
- ٦٨٩..... التوسل في الروايات الإسلامية:
- ٦٩١..... ملاحظات ضرورية:
- ٦٩٤..... تفسير الآيتان: ٣٦ - ٣٧
- ٦٩٦..... تفسير الآيات: ٣٨ - ٤٠
- ٦٩٦..... عقوبة السرقة:
- ٦٩٩..... ب - المقدار الذي يجب قطعه من يد السارق:
- ٦٩٩..... ج - حد السرقة وأقويل اعداء الإسلام:
- ٧٠١..... د - اعتراضات أخرى: